سید قطب

فی ظلال القرآن

فی ظلال القرآن

الجزء الثامن والعشرون

بقلم

سید قطب

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

من سورة المجادلة والحشر والممتحنة والصف والجمعة والمنافقون والتغابن

Marfat.com

سورة المجادلة مدنية
وآياتها ٢٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ ، وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ① الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ، إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً ، وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ، ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ، ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ، ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

« إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً ، فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ ، وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ .

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ؟ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ، وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ، وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ، ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ، وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ، وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ ، وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ :

Marfat.com

لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللهُ بِمَا نَقُولُ ! حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ * يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ ٱلرَّسُولِ،وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ، وَٱتَّقُوا ٱللهَ ٱلَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ ٱللهِ ، وَعَلَىٰ ٱللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِى ٱلْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ ٱللهُ لَكُمْ ، وَإِذَا قِيلَ ٱنْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ، وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ؟ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ ٱللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا ٱللهَ وَرَسُولَهُ ، وَٱللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ ؟ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ، وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أَعَدَّ ٱللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * ٱتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ ، فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * لَنْ تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ ٱللهِ شَيْئاً ، أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللهُ جَمِيعاً ، فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ * ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ ٱللهِ ، أُولَٰئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَانِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَانِ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ * كَتَبَ ٱللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى، إِنَّ ٱللهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ * لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ ٱللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَانَ ، وَأَيَّدَهُمْ

Marfat.com

بِرُوحٍ مِنْهُ ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، أُولَٰئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ »

نحن فى هذه السورة ـ وفى هذا الجزء كله تقريبا ـ مع أحداث السيرة فى المجتمع المدنى . مع الجماعة المسلمة الناشئة ؛ حيث تُربى وتقوّم ، وتعد للنهوض بدورها العالمى ، بل بدورها الكونى، الذى قدره الله لها فى دورة هذا الكون ومقدّراته . وهو دور ضخم يبدأ من إنشاء تصور جديد كامل شامل لهذه الحياة ، فى نفوس هذه الجماعة ، وإقامة حياة واقعية على أساس هذا التصور ، ثم تحمله هذه الجماعة إلى العالم كله لتنشىء للبشرية حياة إنسانية قائمة على أساس هذا التصور كذلك . . وهو دور ضخم إذن يقتضى إعدادا كاملا .

ولقد كان أولئك المسلمون الذين يعدهم القدر لهذا الدور الضخم ، ناسا من الناس . منهم السابقون من المهاجرين والأنصار الذين نضج إيمانهم ، واكتمل تصورهم للعقيدة الجديدة ، وخلصت نفوسهم لها ، ووصلوا . . وصلوا إلى حقيقة وجودهم وحقيقة هذا الوجود الكبير ؛ واندمجت حقيقتهم مع حقيقة الوجود ، فأصبحوا بهذا طرفا من قدر الله فى الكون ؛ لا يجدون فى أنفسهم عوجا عنه ، ولا يجدون فى خطاهم تخلفا عن خطاه ، ولا يجدون فى قلوبهم شيئا إلا لله . . كانوا كما جاء عنهم فى هذه السورة : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم . أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان ، وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . رضى الله عنهم ورضوا عنه . أولئك حزب الله . ألا إن حزب الله هم المفلحون » . .

ولكن هؤلاء السابقين كانوا قلة بالقياس إلى الجماعة المسلمة المتزايدة العدد ـ وبخاصة بعد أن أصبح الإسلام قوة ترهب ـ حتى قبل الفتح ـ ودخل فيه من لم يتلق من التربية الإسلامية القسط الكافى ، ولم يتنفس فى الجو الإسلامى فترة طويلة . كما دخل فيه من المنافقين من آثر المصلحة أو العافية على دخل فى القلوب ، وتربص بالفرص ، وذبذبة بين المعسكر الإسلامى والمعسكرات القوية المناوئة له فى ذلك الحين . سواء معسكرات المشركين أو اليهود !

ولقد اقتضت تربية النفوس وإعدادها للدور الكونى الكبير المقدر لها فى الأرض جهودا

Marfat.com

ضخمة ، وصبرا طـويلا ، وعلاجا بطيئا ، فى صغار الأمـور وفى كبارها . . كانت حركة بناء هائلة هـذه التى قام بها الإسلام ، وقام بها رسول الإسلام ـ صلى الله عليه وسلم ـ بناء النفوس التى تنهض ببناء المجتمع الإسلامى والدولة الإسلامية ، وتقوم على منهج الله ، تفهمه وتحققه ، وتنقله إلى أطراف الأرض فى صورة حية متحركة ، لا فى صحائف وكلمات .

ونحـن نشهد فى هذه السورة ـ وفى هـذا الجزء كله ـ طرفا من تلك الجهود الضخمة ، وطـرفا من الأسلوب القرآنى كذلك فى بناء تلك النفوس ، وفى علاج الأحـداث والعادات والنزوات ؛ كما نشهد جانبـا من الصراع الطويل بين الإسلام وخصومه المختلفين من مشركين ويهود ومنافقين .

وفى هذه السورة بصفة خاصة نشهد صورة موحية من رعاية الله للجماعة الناشئة ؛ وهو يصنعها على عينه ، ويربيها بمنهجه ، ويشعرها برعايته ، ويبنى فى ضميرها الشعور الحى بوجوده ـ سبحانه ـ معها فى أخص خصائصها ، وأصغر شؤونها ، وأخفى طواياها ؛ وحراسته لها من كيد أعدائها خفيه وظاهره ؛ وأخـذها فى حماه وكنفه ، وضمها إلى لوائه وظله ؛ وتربية أخلاقها وعاداتها وتقاليدها تربية تليق بالجماعة التى تنضوى إلى كنف الله ، وتنتسب إليه ، وتؤلف حزبه فى الأرض ، وترفع لواءه لتعرف به فى الأرض جميعا .

ومن ثم تبدأ السورة بصورة عجيبة من صور هذه الفترة الفريدة فى تاريخ البشرية . فترة اتصال السماء بالأرض فى صورة مباشرة محسوسة ، ومشاركتها فى الحياة اليومية لجماعة من الناس مشاركة ظاهرة : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصـير » . . فنشهد السماء تتدخل فى شأن يومى لأسرة صغيرة فقيرة مغمورة ، لتقرر حكم الله فى قضيتها ، وقد سمع ـ سبحانه ـ للمرأة وهى تحاور رسول الله فيهـا ، ولم تكد تسمعها عائشة وهى قريبة منها ! وهى صورة تملأ القلب بوجود الله وقربه وعطفه ورعايته .

يليها فى سياق السورة توكيد أن الذين يحادون الله ورسوله ـ وهم أعداء الجماعة المسلمة التى تعيش فى كنف الله ـ مكتوب عليهم الـكبت والقهر فى الأرض ، والعذاب المهين فى الآخرة ، مأخوذون بما عملوا مما أحصاه الله عليهم ، ونسوه هم وهم فاعلوه ! « والله على كل شىء شهيد » . .

ثم توكيد وتذكير بحضور الله ـ سبحانه ـ وشهوده لـكل نجوى فى خلوة ، يحسب أصحابها أنهم منفردون بها . والله معهم أينما كانوا : « ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل

Marfat.com

شيء عليم » . . وهى صورة تملأ القلب كذلك بوجود الله وحضوره ، كما يملؤه برقابته واطلاعه .

وهذا التوكيد مقدمة لتهديد الذين يتناجون فى خلواتهم لتدبير المكايد للمسلمين ، وملء قلوبهم بالحزن والهم والتوجس . تهديد بأن أمرهم مكشوف، وأن عين الله مطلعة عليهم ، ونجواهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول مسجلة ، وأن الله آخذهم بها ومعذبهم عليها . ونهى المسلمين عن التناجى بغير البر والتقوى ، وتربية نفوسهم وتقويمها بهذا الخصوص .

ثم يستطرد فى تربية هذه النفوس المؤمنة ؛ فيأخذها بأدب السماحة وبالطاعة فى مجلس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومجالس العلم والذكر . كما يأخذها بأدب السؤال والحديث مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والجد فى هذا الأمر والتوقير .

أما بقية السورة بعد هذا فتنصرف إلى الحديث عن المنافقين الذين يتولون اليهود ؛ ويتآمرون معهم ، ويدارون تآمرهم بالكذب والحلف للرسول وللمؤمنين . وتصورهم فى الآخرة كذلك حلافين كذابين ؛ يتقون بالحلف والكذب ما يواجههم من عذاب الله ، كما كانوا يتقون بهما فى الدنيا ما يواجههم من غضب رسول الله والمؤمنين ! مع توكيد أن الذين يحادون الله ورسوله كتب الله عليهم أنهم فى الأذلين وأنهم هم الأخسرون . كما كتب أنه ورسله هم الغالبون . وذلك تهوينا لشأنهم ، الذى كان بعض المنتسبين إلى الإسلام ـ وبعض المسلمين ـ يستعظمه ، فيحافظ على مودته معهم ، ولا يدرك ضرورة تميز الصف المسلم تحت راية الله وحدها ، والاعتزاز برعاية الله وحده ، والاطمئنان إلى حراسته الساهرة للفئة التى يصنعها على عينه ، ويهيئها لدورها الكونى المرسوم .

وفى ختام السورة تجىء تلك الصورة الوضيئة لحزب الله . هذه الصورة التى كان يمثلها بالفعل أولئك السابقون من المهاجرين والأنصار . والتى كانت الآية الكريمة تشير لها كى ينتهى إليها أولئك الذين مازالوا بعد فى الطريق !

« لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله . . » الخ الآية . . . كما وردت فى أول هذا التقديم . .

* * *

« قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ، إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ، وإنهم ليقولون

Marfat.com

منكرا من القول وزورا ، وإن الله لعفو غفور . والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ، ذلكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ، ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله . وتلك حدود الله ، وللكافرين عذاب أليم » . .

كان الرجل فى الجاهلية يغضب لأمر من امرأته فيقول لها : أنت علىّ كظهر أمى . فتحرم عليه ، ولا تطلق منه . وتبقى هكذا ، لاهى حل له فتقوم بينهما الصلات الزوجية ؛ ولا هى مطلقة منه فتجد لها طريقا آخر . وكان هذا طرفا من العنت الذى تلاقيه المرأة فى الجاهلية .

فلما كان الإسلام وقعت هذه الحادثة التى تشير إليها هذه الآيات ، ولم يكن قد شرع حكم للظهار . قال الإمام أحمد : حدثنا سعد ابن إبراهيم ويعقوب ، قالا : حدثنا أبى ، حدثنا محمد ابن إسحاق ، حدثنى معمر ابن عبدالله ابن حنظلة ، عن يوسف ابن عبدالله ابن سلام ، عن خويلة بنت ثعلبة . قالت : فىّ والله وفى أوس ابن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة . قالت : كنت عنده ، وكان شيخا كبيرا قد ساء خلقه ، قالت : فدخل على يوما فراجعته بشىء فغضب ، فقال : أنت على كظهر أمى . قالت : ثم خرج فجلس فى نادى قومه ساعة ، ثم دخل على ، فإذا هو يريدنى عن نفسى ، قالت : قلت : كلا والذى نفس خويلة بيده ، لاتخلص إلى وقد قلت ماقلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه . قالت : فواثبنى ، فامتنعت منه فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف ، فألقيته عنى . قالت : ثم خرجت إلى بعض جاراتى فاستعرت منها ثيابا ، ثم خرجت حتى جئت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجلست بين يديه ، فذكرت له مالقيت منه ، وجعلت أشكو إليه ماألقى من سوء خلقه . قالت : فجعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « ياخويلة ابن عمك شيخ كبير فاتقى الله فيه » قالت : فوالله مابرحت حتى نزل فىّ قرآن ؛ فتغشى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ماكان يتغشاه ، ثم سرى عنه ، فقال لى : « ياخويلة قد أنزل الله فيك وفى صاحبك قرآنا » . . ثم قرأ على ـ : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير » . . إلى قوله تعالى : « وللكافرين عذاب أليم » . . قالت : فقال لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « مريه فليعتق رقبة » . قالت : فقلت : يارسول الله ماعنده مايعتق . قال : « فليصم شهرين متتابعين » . قالت : فقلت : والله إنه لشيخ ماله من صيام . قال : « فليطعم ستين مسكينا

Marfat.com

وسقا من تمر » . قالت : فقلت : والله يارسول الله ماذاك عنده . قالت : فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « فإنا سنعينه بعرق من تمر » . قالت : فقلت يارسول الله وأنا سأعينه بعرق آخر . قال : « قد أصبت وأحسنت فاذهبي فتصدق به عنه ، ثم استوصى بابن عمك خيرا » . قالت : ففعلت(١) .

فهذا هو الشأن الذى سمع الله مادار فيه من حوار بين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمرأة التى جاءت تجادله فيه . وهذا هو الشأن الذى أنزل الله فيه حكمه من فوق سبع سماوات ، ليعطى هذه المرأة حقها ، ويريح بالها وبال زوجها ، ويرسم للمسلمين الطريق فى مثل هذه المشكلة العائلية اليومية !

وهذا هو الشأن الذى تفتتح به سورة من سور القرآن : كتاب الله الخالد ، الذى تتجاوب جنبات الوجود بكل كلمة من كلماته ، وهى تتنزل من الملأ الأعلى . . تفتتح بمثل هذا الإعلان : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها . . . » فإذا الله حاضر هذا الشأن الفردى لامرأة من عامة المسلمين ، لايشغله عن سماعه تدبيره لملكوت السماوات والأرض ؛ ولا يشغله عن الحكم فيه شأن من شؤون السماوات والأرض !

وإنه لأمر . . إنه لأمر أن يقع مثل هذا الحادث العجيب ؛ وأن تشعر جماعة من الناس أن الله هكذا معها ، حاضر شؤونها ، جليلها وصغيرها ، معنىّ بمشكلاتها اليومية ، مستجيب لأزماتها المادية . . وهو الله . . الكبير المتعال ، العظيم الجليل ، القهار المتكبر ، الذى له ملك السماوات والأرض وهو الغنى الحميد .

تقول عائشة ـ رضى الله عنها ـ : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات . لقد جاءت المجادلة خولة إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى جانب البيت ، ما أسمع ما تقول . فأنزل الله عز وجل : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله . . . الآية » (٢)

وفى رواية خولة ـ أو خويلة للتصغير والتدليل ـ للحادث ، وتصرفها هى فيه ، وذهابها إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومجادلتها له ، ونزول القرآن بالحكم . . . فى هذا كله

---

(١) رواه أبو داود فى كتاب الطلاق من سننه من طريقين عن محمد ابن إسحاق ابن يسار . . والعرق ستون صاعا .

(٢) أخرجه البخارى والنسائى .

Marfat.com

صورة من حياة تلك الجماعة الفريدة فى تلك الفترة العجيبة . وشعورها بتلك الصلة المباشرة ، وانتظارها التوجيه من السماء فى كل شأن من شؤونها واستجابة السماء لهذا الانتظار ، الذى يجعل الجماعة كلها ـ عيال الله ـ هو يرعاها وهى تتطلع إليه تطلع الطفل الصغير لأبيه وراعيه !

وننظر فى رواية الحادث فى النص القرآنى ، فنجد عناصر التأثير والإيحاء والتربية والتوجيه تسير جنبا إلى جنب مع الحكم وتتخلله وتعقب عليه ، كما هو أسلوب القرآن الفريد :

« قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير » .. وهو مطلع ذو إيقاع عجيب .. إنكما لم تكونا وحدكما .. لقد كان الله معكما . وكان يسمع لكما . لقد سمع قول المرأة . سمعها تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله . وعلم القصة كلها . وهو يعلم تحاوركما وما كان فيه . . إن الله سميع بصير . يسمع ويرى . هذا شأنه وهذه صورة منه فى الحادث الذى كان الله ثالثكما فيه ..

وكلها إيقاعات ولمسات تهز القلوب . .

ثم يقرر أصل القضية ، وحقيقة الوضع فيها :

« الذين يظاهرون منكم من نسائهم ماهن أمهاتهم . إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم . وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا ، وإن الله لعفو غفور » ..

فهو علاج للقضية من أساسها . إن هذا الظهار قائم على غير أصل . فالزوجة ليست أما حتى تكون محرمة كالأم . فالأم هى التى ولدت . ولا يمكن أن تستحيل الزوجة أما بكلمة تقال . إنها كلمة منكرة ينكرها الواقع . وكلمة مزورة ينكرها الحق . والأمور فى الحياة يجب أن تقوم على الحق والواقع ، فى وضوح وتحديد ، فلا تختلط ذلك الاختلاط ، ولا تضطرب هذا الاضطراب .. « وإن الله لعفو غفور » فيما سلف من هذه الأمور .

وبعد تقرير أصل القضية على هذا النحو المحدد الواضح يجىء الحكم القضائى فى الموضوع .

« والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا . ذلكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير » ..

وقد جعل الله العتق فى كفارات متنوعة ، وسيلة من وسائل التحرير للرقاب التى أوقعها نظام الحروب فى الرق إلى أجل ، ينتهى بوسائل شتى هذه واحدة منها . وهناك أقوال كثيرة فى معنى : « ثم يعودون لما قالوا » .. نختار منها أنهم يعودون إلى الوطء الذى حرموه على أنفسهم

Marfat.com

بالظهار . فهذا أقرب مايناسب السياق . فتحرير رقبة من قبل العودة إلى حله .. ثم التعقيب : « ذلكم توعظون به » .. فالكفارة مذكر وواعظ بعدم العودة إلى الظهار الذى لايقوم على حق ولا معروف « والله بما تعملون خبير » . . خبير بحقيقته ، وخبير بوقوعه ، وخبير بنيتكم فيه .

وهذا التعقيب يجىء قبل إتمام الحكم لإيقاظ القلوب ، وتربية النفوس ، وتنبيهها إلى قيام الله على الأمر بخبرته وعلمه بظاهره وخافيه . ثم يتابع بيان الحكم فيه :

« فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا . فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا » . . .

ثم التعقيب للبيان والتوجيه :

« ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله » . . . وهم مؤمنون . . ولكن هذا البيان ، وهذه الكفارات وما فيها من ربط أحوالهم بأمر الله وقضائه . ذلك مما يحقق الإيمان ، ويربط به الحياة ؛ ويجعل له سلطانا بارزا فى واقع الحياة . « وتلك حدود الله » .. أقامها ليقف الناس عندها لايتعدونها . وهو يغضب على من لا يرعاها ولا يتحرج دونها : « وللكافرين عذاب أليم » . . بتعديهم وتحديهم وعدم إيمانهم وعدم وقوفهم عند حدود الله كالمؤمنين . .

* * *

وتلك العبارة الأخيرة : « وللكافرين عذاب أليم » . . تناسب ختام الآية السابقة ، وهى فى الوقت ذاته قنطرة تربط بينها وبين الآية اللاحقة التى تتحدث عمن يحادون الله ورسوله . على طريقة القرآن فى الانتقال من حديث لحديث فى تسلسل عجيب :

« إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم ، وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين . يوم يبعثهم الله جميعا ، فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه ، والله على كل شىء شهيد » . .

إن المقطع الأول فى السورة كان صورة من صور الرعاية والعناية بالجماعة المسلمة . وهذا المقطع الثانى صورة من صور الحرب والنكاية للفريق الآخر . فريق الذين يحادون الله ورسوله ، أى الذين يأخذون لهم موقفا عند الحد الآخر فى مواجهة الله ورسوله ! وذكر المحادة بمناسبة ذكره قبلها لحدود الله . فهؤلاء لايقفون عند حد الله ورسوله ، بل عند الحد الآخر المواجه !

Marfat.com

وهو تمثيل للمتخاصمين المتنازعين ، لتفظيع عملهم وتقبيح موقفهم . وساء موقف مخلوق يتحدى فيه خالقه ورازقه ، ويقف فى تبجح عند الحد المواجه لحده !

هؤلاء المحادون المشاقون المتبجحون : « كبتوا كما كبت الذين من قبلهم » .. والارجح أن هذا دعاء عليهم . والدعاء من الله ـ سبحانه ـ حكم . فهو المريد وهو الفعال لما يريد . والكبت القهر والذل . والذين من قبلهم إما أن يكونوا هم الغابرين من الأقوام الذين أخذهم الله بنكاله وإما أن يكونوا الذين قهرهم المسلمون فى بعض المواقع التى تقدمت نزول هذه الآية، كما حدث فى غزوة بدر مثلا .

« وقد أنزلنا آيات بينات » . .

تفصل هذه العبارة بين مصير الذين يحادون الله ورسوله فى الدنيا ومصيرهم فى الآخرة . . لتقرير أن هذا المصير وذاك تكفلت ببيانه هذه الآيات. وكذلك لتقرير أنهم يلاقون هذه المصائر لا عن جهل ولا عن غموض فى الحقيقة ، فقد وضحت لهم وعلموها بهذه الآيات البينات .

ثم يعرض مصيرهم فى الآخرة مع التعقيب الموحى الموقظ المربى للنفوس :

« وللكافرين عذاب مهين . يوم يبعثهم الله جميعا ، فينبئهم بما عملو أحصاه الله ونسوه . والله على كل شىء شهيد » . .

والمهانة جزاء التبجح . وهى مهانة يوم يبعثهم الله جميعا . مهانة على رؤوس الجموع . وهو عذاب يقوم على حق وبيان لما عملوا . إن كانوا هم قد نسوه فإن الله أحصاه بعلمه الذى لايند عنه شىء ، ولا يغيب عنه خاف : « والله على كل شىء شهيد » . .

وتلتقى صورة الرعاية والعناية ، بصورة الحرب والنكاية ، فى علم الله واطلاعه ، وشهوده وحضوره . فهو شاهد حاضر للعون والرعاية ؛ وهو شاهد حاضر للحرب والنكاية . فليطمئن بحضوره وشهوده المؤمنون . وليحذر من حضوره وشهوده الكافرون !

* * *

ويستطرد السياق من تقرير حقيقة : « والله على كل شىء شهيد » .. إلى رسم صورة حية من هذا الشهود ، تمس أوتار القلوب .

« ألم تر أن الله يعلم مافى السماوات ومافى الأرض ، مايكون من نجوى ثلاثة إلاهو رابعهم، ولاخمسة إلا هو سادسهم ، ولاأدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم ، أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شىء عليم » . .

Marfat.com

تبدأ الآية بتقرير علم الله الشامل لما فى السماوات ومافى الأرض على إطلاقه ، فتدع القلب يرود آفاق السماوات وأرجاء الأرض مع علم الله المحيط بكل شىء فى هذا المدى الوسيع المتطاول . من صغير وكبير ، وخاف وظاهر ، ومعلوم ومجهول ..

ثم تتدرج من هذه الآفاق وتلك الأرجاء ، وتزحف وتقرب حتى تلمس ذوات المخاطبين وتمس قلوبهم بصورة من ذلك العلم الإلهى تهز القلوب :

« مايكون من نجوى ثلاثة إلاهو رابعهم ، ولاخمسة إلاهو سادسهم ، ولاأدنى من ذلك ولا أكثر إلاهو معهم أينما كانوا » ..

وهى حقيقة فى ذاتها ، ولكنها تخرج فى صورة لفظية عميقة التأثير . صورة تترك القلوب وجلة ترتعش مرة، وتأنس مرة ، وهى مأخوذة بمحضر الله الجليل المأنوس . وحيثما اختلى ثلاثة تلفتوا ليشعروا بالله رابعهم . وحيثما اجتمع خمسة تلفتوا ليشعروا بالله سادسهم . وحيثما كان اثنان يتناجيان فالله هناك ! وحيثما كانوا أكثر فالله هناك !

إنها حالة لا يثبت لها قلب ؛ ولايقوى على مواجهتها إلاوهو يرتعش ويهتز ... وهو محضر مأنوس نعم .. ولكنه كذلك جليل رهيب . محضر الله : « وهو معهم أينما كانوا » . .

« ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة » . .

وهذه لمسة أخرى تُرجف وتزلزل .. إن مجرد حضور الله وسماعه أمر هائل . فكيف إذا كان لهذا الحضور والسماع مابعده من حساب وعقاب ؟ وكيف إذا كان مايسره المتناجون وينعزلون به ليخفوه ، سيعرض على الأشهاد يوم القيامة وينبئهم الله به فى الملأ الأعلى فى ذلك اليوم المشهود ؟ !

وتنتهى الآية بصورة عامة كما بدأت :

« إن الله بكل شىء عليم » .

وهكذا تستقر حقيقة العلم الإلهى فى القلوب ، بهذه الأساليب المنوعة فى عرضها فى الآية الواحدة . الأساليب التى تعمق هذه الحقيقة فى القلب البشرى ، وهى تدخل بها عليه من شتى المسالك والدروب !

* * *

ذلك التقرير العميق لحقيقة حضور الله وشهوده فى تلك الصورة المؤثرة المرهوبة تمهد لتهديد

Marfat.com

المنافقين . الذين كانوا يتناجون فيما بينهم بالمؤامرات ضد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وضد الجماعة المسلمة بالمدينة . مع التعجيب من موقفهم المريب :

« ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ، ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ، ويقولون فى أنفسهم : لولا يعذبنا الله بما نقول ! حسبهم جهنم يصلونها وبئس المصير » .

والآية توحى بأن خطة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع المنافقين فى أول الأمر كانت هى النصح لهم بالاستقامة والإخلاص ، ونهيهم عن الدسائس والمؤامرات التى يدبرونها بالاتفاق مع اليهود فى المدينة وبوحيهم . وأنهم بعد هذا كانوا يلجون فى خطتهم اللئيمة ، وفى دسائسهم الخفية ، وفى التدبير السيء للجماعة المسلمة ، وفى اختيار الطرق والوسائل التى يعصون بها أوامر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويفسدون عليه أمره وأمر المسلمين المخلصين .

كما أنها توحى بأن بعضهم كان يلتوى فى صيغة التحية فيحورها إلى معنى سيء خفى : «وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله » . كأن يقولوا ـ كما كان اليهود يقولون ـ السام عليكم . وهم يوهمون أنهم يقولون : السلام عليكم . بمعنى الموت لكم أو بمعنى تسامون فى دينكم ! أو أية صيغة أخرى ظاهرها برىء وباطنها لئيم ! وهم يقولون فى أنفسهم : لو كان نبيا حقا لعاقبنا الله على قولنا هذا . أى فى تحيتهم ، أو فى مجالسهم التى يتناجون فيها ويدبرون الدسائس والمؤامرات .

وظاهر من سياق السورة من مطلعها أن الله قد أخبر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما كانوا يقولونه فى أنفسهم ، وبمجالسهم ومؤامراتهم . فقد سبق فى السورة إعلان أن الله قد سمع للمرأة المجادلة ؛ وأنه مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم . . . الخ . مما يوحى بأنه أطلع رسوله على مؤامرات أولئك المنافقين وهو حاضر مجالسهم ! وبما يقولونه كذلك فى أنفسهم .

ثم رد عليهم بقوله تعالى :

« حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير » .

وكشف هذه المؤامرات الخفية ، وإفشاء نجواهم التى عادوا إليها بعدما نهوا عنها ، وكذلك فضح ما كانوا يقولونه فى أنفسهم: « لولا يعذبنا الله بما نقول » .. هذا كله هو تصديق وتطبيق لحقيقة علم الله بما فى السماوات وما فى الأرض ، وحضوره لكل نجوى ، وشهوده لكل اجتماع.

Marfat.com

وهو يوقع فى نفوس المنافقين أن أمرهم مفضوح ، كما يوحى للمؤمنين بالاطمئنان والوثوق .

* * *

وهنا يلتفت إلى الذين آمنوا، يخاطبهم بهذا النداء : « ياأيها الذين آمنوا» لينهاهم عن التناجى بما يتناجى به المنافقون من الإثم والعدوان ومعصية الرسول ، ويذكرهم تقوى الله ، ويبين لهم أن النجوى على هذا النحو هى من إيحاء الشيطان ليحزن الذين آمنوا ، فليست تليق بالمؤمنين :

« ياأيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلاتتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، وتناجوا بالبر والتقوى ، واتقوا الله الذى إليه تحشرون . إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . .

ويبدو أن بعض المسلمين ممن لم تنطبع نفوسهم بعد بحاسه التنظيم الإسلامى ، كانوا يتجمعون عندما تحزب الأمور، ليتناجوا فيما بينهم ويتشاوروا بعيدا عن قيادتهم . الأمر الذى لاتقره طبيعة الجماعة الإسلامية ، وروح التنظيم الإسلامى ، التى تقتضى عرض كل رأى وكل فكرة وكل اقتراح على القيادة ابتداء، وعدم التجمعات الجانبية فى الجماعة . كما يبدو أن بعض هذه التجمعات كان يدور فيها ماقد يؤدى إلى البلبلة ، ومايؤذى الجماعة المسلمة ـ ولولم يكن قصد الإيذاء قائما فى نفوس المتناجين ـ ولكن مجرد إثارتهم للمسائل الجارية وإبداء الآراء فيها على غير علم ، قد يؤدى إلى الإيذاء ، وإلى عدم الطاعة .

وهنا يناديهم الله بصفتهم التى تربطهم به ، وتجعل للنداء وقعه وتأثيره : « ياأيها الذين آمنوا » .. لينهاهم عن التناجى ـ إذا تناجوا ـ بالإثم والعدوان ومعصية الرسول . ويبين لهم مايليق بهم من الموضوعات التى يتناجى بها المؤمنون : « وتناجوا بالبر والتقوى » . . لتدبير وسائلهما وتحقيق مدلولهما . والبر : الخير عامة . والتقوى : اليقظة والرقابة لله سبحانه ، وهى لاتوحى إلا بالخير . ويذكرهم بمخافة الله الذى يحشرون إليه ، فيحاسبهم بما كسبوا . وهو شاهده ومحصيه . مهما ستروه وأخفوه .

قال الإمام أحمد : حدثنا بهز وعفان ، قالا: أخبرنا همام ،عن قتادة ، عن صفوان ابن محرز، قال : كنت آخذا بيد ابن عمر ، إذ عرض له رجل ، فقال : كيف سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول فى النجوى يوم القيامة ؟ قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: « إن الله يدنى المؤمن ، فيضع عليه كنفه ، ويستره من الناس ، ويقرره بذنوبه ، ويقول له :

Marfat.com

أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ، ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال : فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم . ثم يعطى كتاب حسناته . وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين » (١) .

ثم ينفرهم من التناجى والمسارة والتدسس بالقول فى خفية عن الجماعة المسلمة ، التى هم منها، ومصلحتهم مصلحتها ، وينبغى ألا يشعروا بالانفصال عنها فى شأن من الشئون . فيقول لهم : إن رؤية المسلمين للوسوسة والهمس والانعزال بالحديث تبث فى قلوبهم الحزن والتوجس، وتخلق جوا من عدم الثقة ؛ وأن الشيطان يغرى المتناجين ليحزنوا نفوس إخوانهم ويدخلوا إليها الوساوس والهموم . ويطمئن المؤمنين بأن الشيطان لن يبلغ فيهم ما يريد :

« إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا ، وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . .

فالمؤمنون لا يتوكلون إلا على الله . فليس وراء ذلك توكل ، وليس من دون الله من يتوكل عليه المؤمنون !

وقد وردت الأحاديث النبوية الكريمة بالنهى عن التناجى فى الحالات التى توقع الريبة وتزعزع الثقة وتبعث التوجس :

جاء فى الصحيحين من حديث الأعمش ـ بإسناده ـ عن عبد الله ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه » .

وهو أدب رفيع ، كما أنه تحفظ حكيم لإبعاد كل الريب والشكوك . فأما حيث تكون هناك مصلحة فى كتمان سر ، أو ستر عورة ، فى شأن عام أو خاص ، فلا مانع من التشاور فى سر وتكتم . وهذا يكون عادة بين القادة المسئولين عن الجماعة . ولا يجوز أن يكون تجمعا جانبيا بعيدا عن علم الجماعة . فهذا هو الذى نهى عنه القرآن ونهى عنه الرسول . وهذا هو الذى يفتت الجماعة أو يوقع فى صفوفها الشك وفقدان الثقة . وهذا هو الذى يدبره الشيطان ليحزن الذين آمنوا . ووعد الله قاطع فى أن الشيطان لن يبلغ بهذه الوسيلة ما يريد فى الجماعة

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم .

Marfat.com

المؤمنة ، لأن الله حارسها وكالئها ؛ وهو شاهد حاضر فى كل مناجاة ، وعالم بما يدور فيها من كيد ودس وتآمر . ولن يضر الشيطان المؤمنين . . « إلا بإذن الله » . . وهو استثناء تحفظى لتقرير طلاقة المشيئة فى كل موطن من مواطن الوعد والجزم ، لتبقى المشيئة حرة وراء الوعد والجزم . .

« وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . . فهو الحارس الحامى ، وهو القوى العزيز ، وهو العليم الخبير . وهو الشاهد الحاضر الذى لايغيب . ولا يكون فى الكون إلا مايريد . وقد وعد بحراسة المؤمنين . فأى طمأنينة بعد هذا وأى يقين ؟

* * *

ثم يأخذ الذين آمنوا بأدب آخر من آداب الجماعة :

« يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم : تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم . وإذا قيل : انشزوا فانشزوا ، يرفع الله الذين آمنوا منكم والذى أوتوا العلم درجات . والله بما تعملون خبير » . .

ويظهر من بعض الروايات التى حكت سبب نزول الآية أن لها علاقة واقعية بالمنافقين ، مما يجعل بينها وبين الآيات قبلها أكثر من ارتباط واحد فى السياق .

قال قتادة : نزلت هذه الآية فى مجالس الذكر ، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلا ضنوا بمجالسهم عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأمرهم الله تعالى أن يفسح بعضهم لبعض.

وقال مقاتل ابن حيان : أنزلت هذه الآية يوم الجمعة . وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يومئذ فى الصفة ، وفى المكان ضيق . وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار . فجاء ناس من أهل بدر وقد سُبقوا إلى المجالس فقاموا حيال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : السلام عليكم أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فرد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليهم . ثم سلموا على القوم بعد ذلك فردوا عليهم فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم . فعرف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يحملهم على القيام ، فلم يُفسح لهم . فشق ذلك على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر : قم يافلان . وأنت يافلان . فلم يزل يقيمهم بعدة النفر الذين هم قيام بين يديه من المهاجرين والأنصار أهل بدر . فشق ذلك على من أقيم من مجلسه ، وعرف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الكراهة فى وجوههم .

Marfat.com

فقال المنافقون : ألستم تزعمون أن صاحبكم هذا يعدل بين الناس ؟ والله مارأيناه قد عدل على هؤلاء ! إن قوما أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب من نبيهم ، فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه . . فبلغنا أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « رحم الله رجلا يفسح لأخيه » . فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعا ، فيفسح القوم لإخوانهم . ونزلت هذه الآية يوم الجمعة .

وإذا صحت هذه الرواية فإنها لا تتنافى مع الأحاديث الأخرى التى تنهى عن أن يقيم الرجل الرجل من مكانه ليجلس فيه . كما جاء فى الصحيحين: « لايقيم الرجل الرجل من مجلسه فيجلس فيه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا » . . وماورد كذلك من ضرورة استقرار القادم حيث انتهى به المجلس . فلا يتخطى رقاب الناس ليأخذ مكانا فى الصدر !

فالآية تحض على الإفساح للقادم ليجلس ، كما تحض على إطاعة الأمر إذا قيل لجالس أن يرفع فيرفع . وهذا الأمر يجىء من القائد المسئول عن تنظيم الجماعة . لامن القادم .

والغرض هو إيجاد الفسحةفى النفس قبل إيجاد الفسحةفى المكان . ومتى رحب القلب اتسع وتسامح ، واستقبل الجالس إخوانه بالحب والسماحة، فأفسح لهم فى المكان عن رضى وارتياح. فأما إذا رأىالقائد أن هناك اعتبارا من الاعتبارات يقتضى إخلاءالمكان فالطاعةيجب أن ترعى عن طواعية نفس ورضى خاطر وطمأنينة بال . مع بقاء القواعد الكلية مرعية كذلك ، من عدم تخطى الرقاب أوإقامة الرجل للرجل ليأخذ مكانه . وإنما هى السماحة والنظام يقررها الإسلام . والأدب الواجب فى كل حال .

وعلى طريقة القرآن فى استجاشة الشعور عند كل تكليف ، فإنه يعد المفسحين فى المجالس بفسحة من الله لهم وسعة : « فافسحوا يفسح الله لكم » . . ويعد الناشزين الذين يرفعون من المكان ويخلونه عن طاعة لأمر الرسول برفعة فى المقام : « وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » .. وذلك جزاء تواضعهم وقيامهم عند تلقى الأمر بالقيام .

وقدكانت المناسبة مناسبة قرب من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتلقى العلم فى مجلسه . فالآية تعلمهم : أن الإيمان الذى يدفع إلى فسحة الصدر وطاعة الأمر ، والعلم الذى يهذب القلب فيتسع ويطيع، يؤديان إلى الرفعة عند الله درجات . وفى هذا مقابل لرفعةالمكان الذى تطوعوا بتركه ورفعوا عنه لاعتبار رآه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ « والله بما تعملون خبير » . . فهو يجزى به عن علم ومعرفة بحقيقة ماتعملون ، وبما وراءه من شعور مكنون .

Marfat.com

وهكذا يتولى القرآن تربية النفوس وتهذيبها ، وتعليمها الفسحةوالسماحة والطاعة بأسلوب التشويق والاستجاشة . فالدين ليس بالتكاليف الحرفية ، ولكنه تحول فى الشعور ، وحساسية فى الضمير . .

* * *

كذلك يعلمهم القرآن أدبا آخر فى علاقتهم برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيبدو أنه كان هناك تزاحم على الخلوة برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليحدثه كل فرد فى شأن يخصه ؛ ويأخذ فيه توجيهه ورأيه ؛ أوليستمتع بالانفراد به مع عدم التقدير لمهام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الجماعية ؛ وعدم الشعور بقيمة وقته ، وبجدية الخلوة به ، وأنها لاتكون إلا لأمر ذى بال . فشاء الله أن يشعرهم بهذه المعانى بتقرير ضريبة للجماعة من مال الذى يريد أن يخلو برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقتطع من وقته الذى هو من حق الجماعة . فى صورة صدقة يقدمها قبل أن يطلب المناجاة والخلوة :

« ياأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة . ذلك خير لكم وأطهر . فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم » . .

وقد عمل بهذه الآية الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ فكان معه ـ كما روى عنه ـ دينار فصرفه دراهم . وكان كلما أراد خلوة برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأمر تصدق بدرهم ! ولكن الأمر شق على المسلمين . وعلم الله ذلك منهم.وكان الأمر قد أدى غايته ، وأشعرهم بقيمة الخلوة التى يطلبونها . فخفف الله عنهم ونزلت الآية التالية برفع هذا التكليف ؛ وتوجيههم إلى العبادات والطاعات المصلحة للقلوب :

« أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات ؟ فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله . والله خبير بما تعملون » . .

وفى هاتين الآيتين والروايات التى ذكرت أسباب نزولهما نجد لونا من ألوان الجهود التربوية لإعداد هذه الجماعة المسلمة فى الصغير والكبير من شئون الشعور والسلوك .

* * *

ثم يعود السياق إلى المنافقين الذين يتولون اليهود ، فيصور بعض أحوالهم ومواقفهم ، ويتوعدهم بافتضاح أمرهم ، وسوء مصيرهم ، وانتصار الدعوة الإسلامية وأصحابها على الرغم من كل تدبيراتهم :

Marfat.com

« ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم؟ ماهم منكم ولامنهم ، ويحلفون على الكذب وهم يعلمون . أعد الله لهم عذابا شديدا ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ، فلهم عذاب مهين . لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا. أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شئ . ألا إنهم هم الكاذبون .استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ، أولئك حزب الشيطان ، ألاإن حزب الشيطان هم الخاسرون » ..

وهذه الحملة القوية على المنافقين الذين يتولون قوما غضب الله عليهم ـ وهم اليهود ـ تدل على أنهم كانوا يمعنون فى الكيد للمسلمين ،ويتآمرون مع ألد أعدائهم عليهم ؛ كما تدل على أن سلطة الإسلام كانت قد عظمت ، بحيث يخافها المنافقون ، فيضطرون ـ عندما يواجههم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنون بما يكشفه الله من تدبيراتهم ومؤامراتهم ـ إلى الحلف بالكذب لإنكار ما ينسب إليهم من مؤامرات وأقوال ؛ وهم يعلمون أنهم كاذبون فى هذه الأيمان . إنما هم يتقون بأيمانهم ما يتوقعونه من مؤاخذتهم بما ينكشف من دسائسهم: « اتخذوا أيمانهم جنة » أى وقاية . وبذلك يستمرون فى دسائسهم للصد عن سبيل الله !

والله يتوعدهم مرات فى خلال هذه الآيات : « أعد الله لهم عذابا شديدا . إنهم ساء ما كانوا يعملون » . . « فلهم عذاب مهين » . . « لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . .

ويصور مشهدهم يوم القيامة فى وضع مزر مهين ، وهم يحلفون لله كما كانوا يحلفون للناس : « يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم » . . مما يشير إلى أن النفاق قد تأصل فى كيانهم ، حتى ليصاحبهم إلى يوم القيامة . وفى حضرة الله ذى الجلال . الذى يعلم خفايا القلوب وذوات الصدور ! « ويحسبون أنهم على شىء » . . وهم على هواء لايستندون إلى شىء . أى شىء !

ويدمغهم بالكذب الأصيل الثابت : « ألا إنهم هم الكاذبون » . .

ثم يكشف عن علة حالهم هذه . فقد استولى عليهم الشيطان كلية « فأنساهم ذكر الله » .. والقلب الذى ينسى ذكر الله يفسد ويتمحض للشر : « أولئك حزب الشيطان » . . الخالص للشيطان الذى يقف تحت لوائه ، ويعمل باسمه ، وينفذ غاياته . وهو الشر الخالص الذى ينتهى إلى الخسران الخالص : « ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » . .

Marfat.com

وهى حملة شديدة عنيفة تناسب الشر والأذى والفتنة التى يدبرونها للمسلمين مع أعدائهم الماكرين . وتطمئن قلوب المسلمين . والله ـ سبحانه وتعالى ـ يتولى عنهم الحملة على أعدائهم المستورين !

* * *

ولما كان أولئك المنافقون يأوون إلى اليهود شعورا منهم بأنهم قوة تخشى وترجى. ويطلبون عندهم العون والمشورة . فإن الله يبشرهم منهم ، ويقرر أنه كتب على أعدائه الذلة والهزيمة ، وكتب لنفسه ولرسوله الغلبة والتمكين :

« إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين . كتب الله لأغلبن أنا ورسلى . إن الله قوى عزيز » .. وهذا وعد الله الصادق الذى كان والذى لابد أن يكون على الرغم مما قد يبدو أحيانا من الظاهر الذى يخالف هذا الوعد الصادق .

فالذى وقع بالفعل أن الإيمان والتوحيد قد غلبا على الكفر والشرك . واستقرت العقيدة فى الله فى هذه الأرض ؛ ودانت لها البشرية بعد كل ماوقف فى طريقها من عقبات الشرك والوثنية ، وبعد الصراع الطويل مع الكفر والشرك والإلحاد . وإذا كانت هناك فترات عاد فيها الإلحاد أو الشرك إلى الظهور فى بعض بقاع الأرض ـ كما يقع الآن فى الدول الملحدة والوثنية ـ فإن العقيدة فى الله ظلت هى المسيطرة بصفة عامة . فضلا على أن فترات الإلحاد والوثنية إلى زوال مؤكد ، لأنها غير صالحة للبقاء . والبشرية تهتدى فى كل يوم إلى أدلة جديدة تهدى إلى الاعتقاد فى الله والتمكين لعقيدة الإيمان والتوحيد .

والمؤمن يتعامل مع وعد الله على أنه الحقيقة الواقعة . فإذا كان الواقع الصغير فى جيل محدود أو فى رقعة محدودة يخالف تلك الحقيقة ، فهذا الواقع هو الباطل الزائل . الذى يوجد فترة فى الأرض لحكمة خاصة . لعلها استجاشة الإيمان وإهاجته لتحقيق وعد الله فى وقته المرسوم .

وحين ينظر الإنسان اليوم إلى الحرب الهائلة التى شنها أعداء الإيمان على أهل الإيمان فى صورها المتنوعة، من بطش ومن ضغط ومن كيد بكل صنوف الكيد فى عهود متطاولة ، بلغ فى بعضها من عنف الحملة على المؤمنين أن قتلوا وشردوا وعذبوا وقطعت أرزاقهم وسلطت عليهم جميع أنواع النكاية . ثم بقى الإيمان فى قلوب المؤمنين ، يحميهم من الانهيار ، ويحمى شعوبهم كلها من ضياع شخصيتها وذوبانها فى الأمم الهاجمة عليها، ومن خضوعها للطغيان الغاشم إلا ريثما

Marfat.com

تنقض عليه وتحطمه . . حين ينظر الإنسان إلى هذا الواقع فى المدى المتطاول يجد مصداق قول الله تعالى . يجده فى هذا الواقع ذاته بدون حاجة إلى الانتظار الطويل !

وعلى أية حال فلايخالج المؤمن شك فى أن وعد الله هو الحقيقة الكائنة التى لابد أن تظهر فى الوجود، وأن الذين يحادون الله ورسوله هم الأذلون، وأن الله ورسله هم الغالبون. وأن هذا هو الكائن والذى لابد أن يكون . ولتكن الظواهر غير هذا ماتكون !

* * *

وفى النهاية تجىء القاعدة الثابتة التى يقف عليها المؤمنون ، أوالميزان الدقيق للإيمان فى النفوس : « لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم . أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه . أولئك حزب الله . ألا إن حزب الله هم المفلحون » . .

إنها المفاصلة الكاملة بين حزب الله وحزب الشيطان ، والانحياز النهائى للصف المتميز ، والتجرد من كل عائق وكل جاذب ، والارتباط فى العروة الواحدة بالحبل الواحد .

« لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله » . .

فما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ، وما يجمع إنسان فى قلب واحد ودّين : ودًّا لله ورسوله وودا لأعداء الله ورسوله ! فإما إيمان أولا إيمان . أما هما معا فلا يجتمعان .

« ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » . .

فروابط الدم والقرابة هذه تتقطع عند حد الإيمان . إنها يمكن أن ترعى إذا لم تكن هناك محادة وخصومة بين اللوائين : لواء الله ولواء الشيطان . والصحبة بالمعروف للوالدين المشركين مأموربها حين لاتكون هناك حرب بين حزب الله وحزب الشيطان . فأما إذا كانت المحادة والمشاقة والحرب والخصومة فقد تقطعت تلك الأواصر التى لاترتبط بالعروة الواحدة وبالحبل الواحد . ولقد قتل أبو عبيدة أباه فى يوم بدر . وهم الصديق أبو بكر بقتل ولده عبد الرحمن . وقتل مصعب ابن عمير أخاه عبيد ابن عمير . وقتل عمر وحمزة وعلى وعبيدة والحارث أقرباءهم وعشيرتهم . متجردين من علائق الدم والقرابة إلى آصرة الدين والعقيدة . وكان هذا أبلغ ماارتقى إليه تصور الروابط والقيم فى ميزان الله .

Marfat.com

« أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان » . .

فهو مثبت فى قلوبهم بيد الله مكتوب فى صدورهم بيمين الرحمان . فلا زوال له ولا اندثار ولا انطماس فيه ولا غموض !

« وأيدهم بروح منه » . .

ومايمكن أن يعزموا هذه العزمة إلا بروح من الله . ومايمكن أن تشرق قلوبهم بهذا النور إلا بهذا الروح الذى يمدهم بالقوة والإشراق ، ويصلهم بمصدر القوة والإشراق .

« ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها » .

جزاء ماتجردوا فى الأرض من كل رابطة وآصرة ؛ ونفضوا عن قلوبهم كل عرض من أعراضها الفانية .

« رضى الله عنهم ورضوا عنه » . .

وهذه صورة وضيئة راضية مطمئنة ، ترسم حالة المؤمنين هؤلاء ، فى مقام عال رفيع . وفى جو راض وديع .. ربهم راض عنهم وهم راضون عن ربهم . انقطعوا عن كل شئ ووصلوا أنفسهم به ؛ فتقبلهم فى كنفه ، وأفسح لهم فى جنابه ، وأشعرهم برضاه . فرضوا رضيت نفوسهم هذا القرب وأنست به واطمأنت إليه . .

« أولئك حزب الله » . .

فهم جماعته . المتجمعة تحت لوائه . المتحركة بقيادته . المهتدية بهديه . المحققة لمنهجه . الفاعلة فى الأرض ماقدره وقضاه . فهى قدر من قدر الله .

« ألا إن حزب الله هم المفلحون » .

ومن يفلح إذن إذا لم يفلح أنصار الله المختارون ؟

وهكذا تنقسم البشرية إلى حزبين اثنين : حزب الله وحزب الشيطان . وإلى رايتين اثنتين : راية الحق وراية الباطل . فإما أن يكون الفرد من حزب الله فهو واقف تحت راية الحق ، وإما أن يكون من حزب الشيطان فهو واقف تحت راية الباطل . . وهما صفان متميزان لايختلطان ولايتميعان ! !

لانسب ولاصهر ، ولاأهل ولاقرابة ، ولاوطن ولاجنس ، ولاعصبية ولاقومية .. إنما هى العقيدة ، والعقيدة وحدها . فمن انحاز إلى حزب الله ووقف تحت راية الحق فهو وجميع الواقفين تحت هذه الراية إخوة فى الله . تختلف ألوانهم وتختلف أوطانهم ، وتختلف عشائرهم

Marfat.com

وتختلف أسرهم ، ولكنهم يلتقون فى الرابطة التى تؤلف حزب الله، فتذوب الفوارق كلها تحت الراية الواحدة . ومن استحوذ عليه الشيطان فوقف تحت راية الباطل ، فلن تربطه بأحد من حزب الله رابطة . لامن أرض ، ولامن جنس ، ولامن وطن ولامن لون ، ولامن عشيرة ولامن نسب ولامن صهر . . لقد انبتت الوشيجة الأولى التى تقوم عليها هذه الوشائج فانبتت هذه الوشائج جميعا ..

* * *

ومع إيحاء هذه الآية بأنه كان هناك فى الجماعة المسلمة من تشده أواصر الدم والقرابة وجواذب المصلحة والصداقة،مما تعالجه هذهالآيةفى النفوس، وهى تضع ميزان الإيمان بهذاالحسم الجازم ، والمفاضلة القاطعة . . إلا أنها فى الوقت ذاته ترسم صورة لطائفة كانت قائمة كذلك فى الجماعة المسلمة ، ممن تجردوا وخلصوا ووصلوا إلى ذلك المقام .

وهذه الصورة هى أنسب ختام للسورة التى بدأت بتصوير رعاية الله وعنايته بهذه الأمة فى واقعة المرأة الفقيرة التى سمع الله لها وهى تجادل رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى شأنها وشأن زوجها !

فالانقطاع لله الذى يرعى هذه الأمة مثل هذه الرعاية هوالاستجابة الطبيعية. وللمفاضلة بين حزب الله وحزب الشيطان هى الأمر الذى لاينبغى غيره للأمة التى اختارها الله للدور الكونى الذى كلفها إياه .

Marfat.com

سورة الحشر مدنية
وآياتها ٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

« سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ هُوَ ٱلَّذِي أَخْرَجَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ، مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ،
وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ ٱللَّهِ ، فَأَتَاهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ، وَقَذَفَ
فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ، يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ، فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي
ٱلْأَبْصَارِ * وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ
ٱلنَّارِ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَمَنْ يُشَاقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ .
« مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ
ٱلْفَاسِقِينَ * وَمَا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ،
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ، وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * مَا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ
رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ،
كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ؛ وَمَا آتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ
فَٱنْتَهُوا ، وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ * لِلْفُقَرَاءِ ٱلْمُهَاجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا
مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانًا ، وَيَنْصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ ،
أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلصَّادِقُونَ * وَٱلَّذِينَ تَبَوَّأُوا ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ
إِلَيْهِمْ ، وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ، وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ

Marfat.com

خَصَاصَةٌ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ : رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ .

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ : لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً ، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ، وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ * لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ، بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ، تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ * كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ : اكْفُرْ . فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ : إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ، وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ .

« لَوْ أَنْزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ، لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ، يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » ﴿٢٤﴾

Marfat.com

نزلت هذه السورة فى حادث بنى النضير ـ حى من أحياء اليهود ـ فى السنة الرابعة من الهجرة . تصف كيف وقع ؟ولماذا وقع ؟ وما كان فى أعقابه من تنظيمات فى الجماعة الإسلامية . . ترويها بطريقة القرآن الخاصة ، وتعقب على الأحداث والتنظيمات بطريقة القرآن كذلك فى تربية تلك الجماعة تربية حية بالأحداث والتوجيهات والتعقيبات .

وقبل أن نستعرض النصوص القرآنية فى السورة ، نعرض شيئا مما ذكرته الروايات عن ذلك الحادث الذى نزلت السورة بشأنه؛ لنرى ميزة العرض القرآنى، وبعد آماده وراء الأحداث التى تنزل بشأنها النصوص ، فتفى بمقتضيات الأحداث ، وتمتد وراءها وحولها فى مجالات أوسع وأشمل من مقتضيات تلك الأحداث المحدودة بالزمان والمكان .

كانت وقعة بنى النضير فى أوائل السنة الرابعة من الهجرة بعد غزوة أحد وقبل غزوة الأحزاب . ومما يذكر عنها أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذهب مع عشرة من كبار أصحابه منهم أبو بكر وعمر وعلى ـ رضى الله عنهم ـ إلى محلة بنى النضير ، يطلب منهم المشاركة فى أداء دية قتيلين بحكم ما كان بينه وبينهم من عهد فى أول مقدمه على المدينة . فاستقبله يهود بنى النضير بالبشر والترحاب ووعدوا بأداء ماعليهم ، بينما كانوا يدبرون أمرا لاغتيال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه . وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالسا إلى جدار من بيوتهم. فقال بعضهم لبعض : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه . فمن رجل منكم يعلو هذا البيت ، فيلقى عليه صخرة ، فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو ابن جحاش ابن كعب . فقال : أنا لذلك . فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال فأطلع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مابيت اليهود من غدر . فقام كأنما ليقضى أمرا فلما غاب استبطأه من معه ، فخرجوا من المحلة يسألون عنه ، فعلموا أنه دخل المدينة .

وأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالتهيؤ لحرب بنى النضير لظهور الخيانة منهم ، ونقض عهد الأمان الذى بينه وبينهم . وكان قد سبق هذا إقذاع كعب ابن الأشرف ـ من بنى النضير ـ فى هجاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتأليبه الأعداء عليه . وما قيل من أن كعبا ورهطا من بنى النضير اتصلوا بكفار قريش اتصال تآمر وتحالف وكيد ضد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع قيام ذلك العهد بينهم وبينه . مما جعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأذن لمحمد ابن مسلمة فى قتل كعب ابن الأشرف . فقتله .

Marfat.com

فلما كان التبييت للغدر برسول الله فى محلة بنى النضير لم يبق مفر من نبذ عهدهم إليهم . وفق القاعدة الإسلامية : وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين » .. فتجهز رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحاصر محلة بنى النضير ، وأمهلهم ثلاثة أيام ـ وقيل عشرة ـ ليفارقوا جواره ويجلوا عن المحلة على أن يأخذوا أموالهم ، ويقيموا وكلاء عنهم على بساتينهم ومزارعهم . ولكن المنافقين فى المدينة ـ وعلى رأسهم عبد الله ابن أبى بن سلول رأس النفاق ـ أرسلوا إليهم يحرضونهم على الرفض والمقاومة ، وقالوا لهم : أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم . إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم .

وفى هذا يقول الله تعالى : « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب : لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لايخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لاينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لاينصرون . لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لايفقهون . . . »

فتحصن اليهود فى الحصون ؛ فأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقطع نخيلهم والتحريق فيها . فنادوه : أن يامحمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه . فمابال قطع النخيل وتحريقها؟ وفى الرد عليهم نزل قوله تعالى : « ماقطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين » ..

ولما بلغ الحصار ستا وعشرين ليلة ، يئس اليهود من صدق وعد المنافقين لهم ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يجليهم ويكف عن دمائهم ، كما سبق جلاء بنى قينقاع (وقد ذكرنا سببه وظروفه فى تفسير سورة الأحزاب فى الجزء الحادى والعشرين [1]) على أن لهم ماحملت الإبل من أموالهم إلا السلاح . فأجابهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاحتملوا من أموالهم مااستقلت به الإبل . فكان الرجل منهم يهدم بيته عن خشبة بابه فيحمله على ظهر بعيره ؛ أو يخربه حتى لايقع فى أيدى المسلمين ؛ وكان المسلمون قد هدموا وخربوا بعض الجدران التى اتخذت حصونا فى أيام الحصار .

وفى هذا يقول الله فى هذه السورة : « هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب

---

(١) ص ١٥٣ .

Marfat.com

من ديارهم لأول الحشر ماظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، فاعتبروا ياأولى الأبصار. ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب » ..

وكان منهم من سار إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام . وكان من أشرافهم ممن سار إلى خيبر سلام بن أبى الحقيق ، وكنانة ابن الربيع ابن أبى الحقيق ، وحى ابن أخطب ، ممن ورد ذكرهم بعد ذلك فى تأليب المشركين على المسلمين فى غزوة الأحزاب ووقعة بنى قريظة (فى سورة الأحزاب) وكان لبعضهم كذلك ذكر فى فتح خيبر (فى سورة الفتح) .

وكانت أموال بنى النضير فيئا خالصا لله والرسول ؛ لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولاجمال فقسمها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على المهاجرين خاصة دون الأنصار عدا رجلين من الأنصار فقيرين هما سهل ابن حنيف ، وأبو دجانة سماك ابن خرشة . وذلك أن المهاجرين لم يكن لهم مال بعد الذى تركوه فى مكة وتجردوا منه كله لعقيدتهم . وكان الأنصار قد أنزلوهم دورهم وشاركوهم مالهم فى أريحية عالية ، وأخوة صادقة ، وإيثار عجيب . فلما واتت هذه الفرصة سارع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لإقامة الأوضاع الطبيعية فى المجتمع الإسلامى ، كى يكون للفقراء مال خاص ، وكى لايكون المال متداولا فى الأغنياء وحدهم . ولم يعط من الأنصار إلا الفقيرين اللذين يستحقان لفقرهما .

وتكلم فى أموال بنى النضير بعض من تكلم ـ والراجح أنهم من المنافقين ـ فقال تعالى : « وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ، ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شىء قدير » . .

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ للأنصار : «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم فى هذه الغنيمة . وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ، ولم يقسم لكم شىء من الغنيمة » فقالت الأنصار : بل نقسم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولانشاركهم فيها .

وفى هذا نزل قوله تعالى : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون . والذين تبوأوا الدار

Marfat.com

والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولايجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولوكان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

* * *

فهذا هو الحادث الذى نزلت فيه هذه السورة ، وتعلقت به نصوصها ، بما فى ذلك خاتمة السورة التى يتوجه فيها الخطاب للذين آمنوا ممن شهدوا هذا الحادث وممن يعرفونه بعد ذلك . على طريقة القرآن فى تربية النفوس بالأحداث وبالتعقيب عليها ، وربطها بالحقائق الكلية الكبيرة . . ثم الإيقاع الأخير فى السورة بذكر صفات الله الذى يدعو الذين آمنوا ويخاطبهم بهذا القرآن . وهى صفات ذات فاعلية وأثر فى هذا الكون ؛ وعلى أساس تصور حقيقتها يقوم الإيمان الواعى المدرك البصير .

وتبدأ السورة وتختم بتسبيح الله الذى له مافى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم . فيتناسق البدء والختام ، مع موضوع السورة ، ومع دعوة المؤمنين للتقوى والخشوع والتفكر فى تدبير الله الحكيم .

والآن نسير مع النصوص القرآنية لنرى كيف تصور الأحداث ، وكيف تربى النفوس بهذه الأحداث . .

* * *

« سبح لله مافى السماوات وما فى الأرض ، وهو العزيز الحكيم » . .

بهذه الحقيقة التى وقعت وكانت فى الوجود . حقيقة تسبيح كل شىء فى السماوات وكل شىء فى الأرض لله ، واتجاهها إليه بالتنزيه والتمجيد . . تفتتح السورة التى تقص قصة إخراج الله للذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم ، وإعطائها للمؤمنين به المسبحين بحمده الممجدين لأسمائه الحسنى . . . « وهو العزيز الحكيم » . . القوى القادر على نصر أوليائه وسحق أعدائه . . الحكيم فى تدبيره وتقديره .

* * *

ثم يقص نبأ الحادث الذى نزلت فيه السورة :

« هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر . ماظننتم أن يخرجوا، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ؛ فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وقذف فى قلوبهم

Marfat.com

الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، فاعتبروا يا أولى الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب » .

ومن هذه الآيات نعلم أن الله هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر . والله هو فاعل كل شىء . ولكن صيغة التعبير تقرر هذه الحقيقة فى صورة مباشرة ، توقع فى الحس أن الله تولى هذا الإخراج من غير ستار لقدرته من فعل البشر ! وساق المخرجين للأرض التى منها يحشرون ، فلم تعد لهم عودة إلى الأرض التى أخرجوا منها .

ويؤكد فعل الله المباشر فى إخراجهم وسوقهم بالفقرة التالية فى الآية :

« ماظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله » . .

فلا أنتم كنتم تتوقعون خروجهم ولا هم كانوا يسلمون فى تصور وقوعه ! فقد كانوا من القوة والمنعة فى حصونهم بحيث لاتتوقعون أنتم أن تخرجوهم منها كما أخرجوا . وبحيث غرتهم هذه المنعة حتى نسوا قوة الله التى لاتردها الحصون !

« فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا . وقذف فى قلوبهم الرعب » .

أتاهم من داخل أنفسهم ! لا من داخل حصونهم ! أتاهم من قلوبهم فقذف فيها الرعب ، ففتحوا حصونهم بأيديهم ! وأراهم أنهم لايملكون ذواتهم ، ولا يحكمون قلوبهم ، ولا يمتنعون على الله بإرادتهم وتصميمهم ! فضلا على أن يمتنعوا عليه ببنيانهم وحصونهم . وقد كانوا يحسبون حساب كل شىء إلا أن يأتيهم الهجوم من داخل كيانهم . فهم لم يحتسبوا هذه الجهة التى أتاهم الله منها . وهكذا حين يشاء الله أمرا . يأتى له من حيث يعلم ومن حيث يقدر ، وهو يعلم كل شىء ، وهو على كل شىء قدير . فلا حاجة إذن إلى سبب ولا إلى وسيلة ، مما يعرفه الناس ويقدرونه . فالسبب حاضر دائما والوسيلة مهيأة . والسبب والنتيجة من صنعه ، والوسيلة والغاية من خلقه؛ ولن يمتنع عليه سبب ولا نتيجة ، ولن يعز عليه وسيلة ولا غاية . . . وهو العزيز الحكيم . .

ولقد تحصن الذين كفروا من أهل الكتاب بحصونهم فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب . ولقد امتنعوا بدورهم وبيوتهم فسلطهم الله على هذه الدور والبيوت يخربونها بأيديهم ، ويمكنون المؤمنين من إخرابها :

Marfat.com

« يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين » ..

وبهذا تتم حكاية ماوقع للذين كفروا من أهل الكتاب ، فى تلك الصورة الموحية ، وهذه الحركة المصورة . . والله ـ سبحانه ـ يأتيهم من وراء الحصون فتسقط بفعلهم هم ؛ ثم يزيدون فيخربونها بأيديهم وأيدى المؤمنين .

هنا يجىء أول تعقيب فى ظل هذه الصورة ، وعلى إيقاع هذه الحركة :

« فاعتبروا ياأولى الأبصار » ..

وهو هتاف يجىء فى مكانه وفى أوانه . والقلوب متهيئة للعظة متفتحة للاعتبار .

والآية التالية تقرر أن إرادة الله فى النكاية بهم ما كانت لتعفيهم بأية حالة من نكال يصيبهم فى الدنيا غير ماينتظرهم فى الآخرة :

« ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب النار » . .

فهو أمر مقرر أن ينالهم النكال من الله . بهذه الصورة التى وقعت أو بصورة أخرى. ولولا أن اختار الله جلاءهم لعذبهم عذابا آخر . غير عذاب النار الذى ينتظرهم هناك. فقد استحقوا عذاب الله فى صورة من صوره على كل حال !

« ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله . ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب » . .

والمشاقة أن يأخذوا لهم شقا غير شق الله، وجانبا غير جانبه . وقد جعل الله جانبه هو جانب رسوله حين وصف علة استحقاقهم للعذاب فى صدر الآية . فاكتفى فى عجزها بمشاقة الله وحده فهى تشمل مشاقة الرسول وتتضمنها. ثم ليقف المشاقون فى ناحية أمام الله ـ سبحانه ـ وهو موقف فيه تبجح قبيح ، حين يقف المخاليق فى وجه الخالق يشاقونه ! وموقف كذلك رعيب ، وهذه المخاليق الضئيلة الهزيلة تتعرض لغضب الله وعقابه . وهو شديد العقاب .

وهكذا تستقر فى القلوب حقيقة مصائر المشاقين لله فى كل أرض وفى كل وقت . من خلال مصير الذين كفروا من أهل الكتاب ، وما استحقوا به هذا العقاب.

ولا يفوتنا أن نلحظ تسمية القرآن ليهود بنى النضير بأنهم « الذين كفروا من أهل الكتاب » وتكرار هذه الصفة فى السورة . فهى حقيقة لأنهم كفروا بدين الله فى صورته العليا التى جاء بها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد كان اليهود ينتظرونها ويتوقعونها. وذكر هذه الصفة فى الوقت نفسه يحمل بيانا بسبب التنكيل بهم ؛ كما أنه يهيىء شعور المسلمين تجاههم تهيئة روحية تطمئن

Marfat.com

لها قلوبهم فيما فعلوا معهم ، وفيما حل بهم من نكال وعذاب على أيديهم . فذكر هذه الحقيقة هنا مقصود ملحوظ !

* * *

ثم يطمئن المؤمنين على صواب ماأوقعوه بهؤلاء الذين كفروا وشاقوا الله ورسوله من تقطيع نخيلهم وتحريقه ، أوتركه كذلك قائما ، وبيان حكم الله فيه . وقد دخل نفوس بعض المسلمين شيء من هذا :

« ماقطعتم من لينة أوتركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله ، وليخزى الفاسقين » . . واللينة الجيدة من النخل ، أونوع جيد منه معروف للعرب إذ ذاك . وقد قطع المسلمون بعض نخل اليهود ، وأبقوا بعضه . فتحرجت صدورهم من الفعل ومن الترك . وكانوا منهيين قبل هذا الحادث وبعده عن مثل هذا الاتجاه فى التخريب والتحريق . فاحتاج هذا الاستثناء إلى بيان خاص ، يطمئن القلوب . فجاءهم هذا البيان يربط الفعل والترك بإذن الله. فهو الذى تولى بيده هذه الموقعة ؛ وأراد فيها ماأراد ، وأنفذ فيها ماقدره، وكان كل ماوقع من هذا بإذنه . أراد به أن يخزى الفاسقين . وقطع النخيل يخزيهم بالحسرة على قطعه ؛ وتركه يخزيهم بالحسرة على فوته . وإرادة الله وراء هذا وذاك على السواء .

بذلك تستقر قلوب المؤمنين المتحرجة ، وتشفى صدورهم مما حاك فيها ، وتطمئن إلى أن لله هو الذى أراد وهو الذى فعل . والله فعال لما يريد . وما كانوا هم إلا أداة لإنفاذ مايريد.

* * *

فأما المقطع الثانى فى السورة فيقرر حكم الفيء الذى أفاءه الله على رسوله فى هذه الوقعة وفيما يماثلها ،مما لم يتكلف فيه المسلمون غزوا ولاقتالا .. أى الوقائع التى تولتها يد الله جهرة ومباشرة وبدون ستار من الخلق كهذه الوقعة :

« وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب . ولكن الله يسلط رسله على من يشاء، والله على كل شيء قدير. ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . كى لايكون دولة بين الأغنياء منكم . وما آتاكم الرسول فخذوه . وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ، إن الله شديد العقاب . للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون

Marfat.com

الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون . والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . والذين جاءوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا . ربنا إنك رؤوف رحيم » . .

وهذه الآيات التى تبين حكم الله فى هذا الفىء وأمثاله ، تحوى فى الوقت ذاته وصفا لأحوال الجماعة المسلمة فى حينها ؛ كما تقرر طبيعة الأمة المسلمة على توالى العصور ، وخصائصها المميزة التى تترابط بها وتتماسك على مدار الزمان ، لاينفصل فيها جيل عن جيل ، ولا قوم عن قوم ، ولا نفس عن نفس ، فى الزمن المتطاول بين أجيالها المتعاقبة فى جميع بقاع الأرض . وهى حقيقة ضخمة كبيرة ينبغى الوقوف أمامها طويلا فى تدبر عميق . .

« وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ، ولكن الله يسلط رسله على من يشاء ، والله على كل شىء قدير » .

والإيجاف : الركض والإسراع . والركاب : الجمال . والآية تذكر المسلمين أن هذا الفىء الذى خلفه وراءهم بنو النضير لم يركضوا هم عليه خيلا ، ولم يسرعوا إليه ركبا ، فحكمه ليس حكم الغنيمة التى أعطاهم الله أربعة أخماسها ، واستبقى خمسها فقط لله والرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، كما حكم الله فى غنائم بدر الكبرى . إنما حكم هذا الفىء أنه كله لله والرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الذى يتصرف فيه كله فى هذه الوجوه . وذو القربى المذكورون فى الآيتين هم قرابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن كانت الصدقات لاتحل لهم ، فليس لهم فى الزكاة نصيب ، وأن كان النبي لايورث فليس لذوى قرابته من ماله شىء . وفيهم الفقراء [1] الذين لا مورد لهم . فجعل لهم من خمس الغنائم نصيبا ، كما جعل لهم من هذا الفىء وأمثاله نصيبا . فأما بقية الطوائف والمصارف فأمرها معروف . والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو المتصرف فيها .

---

(١) هناك خلاف فقهى . هل الفقراء من قرابة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هم المستحقون أم جميعهم والراجح جميعهم .

Marfat.com

هذا هو حكم الفيء تبينه الآيات . ولكنها لاتقتصر على الحكم وعلته القريبة. إنما تفتح القلوب على حقيقة أخرى كبيرة : « ولكن الله يسلط رسله على من يشاء » . . فهو قدر الله . وهم طرف من هذا القدر يسلطه على من يشاء . « والله على كل شيء قدير » . .

بهذا يتصل شأن الرسل بقدر الله المباشر؛ ويتحدد مكانهم فى دولاب القدر الدوار . ويتبين أنهم ـ ولو أنهم بشر ـ متصلون بإرادة الله ومشيئته اتصالا خاصا ، يجعل لهم دورا معينا فى تحقيق قدر الله فى الأرض ، بإذن الله وتقديره. فما يتحركون بهواهم، ومايأخذون أويدعون لحسابهم . ومايغزون أويقعدون ، ومايخاصمون أويصالحون ، إلا لتحقيق جانب من قدر الله فى الأرض منوط بهم وبتصرفاتهم وتحركاتهم فى هذه الأرض . والله هو الفاعل من وراء ذلك كله ..وهو على كل شيء قدير ..

« وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . . كى لايكون دولة بين الأغنياء منكم . وما آتاكم الرسول فخذوه . وما نهاكم عنه فانتهوا . واتقوا الله إن الله شديد العقاب » . .

وتبين هذه الآية الحكم الذى أسلفنا تفصيلا . ثم تعلل هذه القسمة فتضع قاعدة كبرى من قواعد التنظيم الاقتصادى والاجتماعى فى المجتمع الإسلامى : « كى لايكون دولة بين الأغنياء منكم » . . كما تضع قاعدة كبرى فى التشريع الدستورى للمجتمع الإسلامى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » . . ولو أن هاتين القاعدتين جاءتا بمناسبة هذا الفيء وتوزيعه ، إلا أنهما تتجاوزان هذا الحادث الواقع إلى آماد كثيرة فى أسس النظام الاجتماعى الإسلامى .

والقاعدة الأولى ، قاعدة التنظيم الاقتصادى تمثل جانبا كبيرا من أسس النظرية الاقتصادية فى الإسلام . فالملكية الفردية معترف بها فى هذه النظرية . ولكنها محددة بهذه القاعدة. قاعدة الايكون المال دولة بين الأغنياء ، ممنوعا من التداول بين الفقراء . فكل وضع ينتهى إلى أن يكون المال دولة بين الأغنياء وحدهم هو وضع يخالف النظرية الاقتصادية الإسلامية كما يخالف هدفا من أهداف التنظيم الاجتماعى كله . وجميع الارتباطات والمعاملات فى المجتمع الإسلامى يجب أن تنظم بحيث لاتخلق مثل هذا الوضع أو تبقى عليه إن وجد .

ولقد أقام الإسلام بالفعل نظامه على أساس هذه القاعدة . ففرض الزكاة . وجعل حصيلتها

Marfat.com

فى العام اثنين ونصفا فى المئة من أصل رؤوس الأموال النقدية ، وعشرة أوخمسة فى المئة من جميع الحاصلات . وما يعادل ذلك فى الأنعام .وجعل الحصيلة فى الركاز وهو كنوز الأرض مثلها فى المال النقدى . وهى نسب كبيرة . ثم جعل أربعة أخماس الغنيمة للمجاهدين فقراء وأغنياء بينما جعل الفىء كله للفقراء . وجعل نظامه المختار فى إيجار الأرض هو المزارعة [1] ـ أى المشاركة فى المحصول الناتج بين صاحب الأرض وزارعها.وجعل للإمام الحق فى أن يأخذ فضول أموال الأغنياء فيردها على الفقراء . وأن يوظف فى أموال الأغنياء عند خلو بيت المال.وحرم الاحتكار . وحظر الربا . وهما الوسيلتان الرئيسيتان لجعل المال دولة بين الأغنياء .

وعلى الجملة أقام نظامه الاقتصادى كله بحيث يحقق تلك القاعدة الكبرى التى تعد قيدا أصيلا على حق الملكية الفردية بجانب القيود الأخرى [2] .

ومن ثم فالنظام الإسلامى نظام يبيح الملكية الفردية ، ولكنه ليس هو النظام الرأسمالى ، كما أن النظام الرأسمالى ليس منقولا عنه، فما يقوم النظام الرأسمالى إطلاقا بدون ربا وبدون احتكار ، إنما هو نظام خاص من لدن حكيم خبير . نشأ وحده . وسار وحده ، وبقى حتى اليوم وحده . نظاما فريدا متوازن الجوانب ، متعادل الحقوق والواجبات . متناسقا تناسق الكون كله . مذ كان صدوره عن خالق الكون . والكون متناسق موزون !

فأما القاعدة الثانية ـ قاعدة تلقى الشريعة من مصدر واحد : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » . . فهى كذلك تمثل النظرية الدستورية الإسلامية . فسلطان القانون فى الإسلام مستمد من أن هذا التشريع جاء به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرآنا أو سنة. . والأمة كلها والإمام معها لا تملك أن تخالف عما جاء به الرسول . فإذا شرعت ما يخالفه لم يكن لتشريعها هذا سلطان ، لأنه فقد السند الأول الذى يستمد منه السلطان . . وهذه النظرية تخالف جميع النظريات البشرية الوضعية ، بما فيها تلك التى تجعل الأمة مصدر السلطات ، بمعنى أن للأمة أن تشرع لنفسها ماتشاء ، وكل ما تشرعه فهو ذو سلطان . فمصدر السلطات فى الإسلام هو شرع الله الذى جاء به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والأمة تقوم على هذه الشريعة وتحرسها وتنفذها ـ والإمام نائب عن الأمة فى هذا ـ وفى هذا تنحصر حقوق الأمة . فليس لها أن تخالف عما آتاها الرسول فى أى تشريع .

---

(١) يوجد خلاف فقهى ولكن الراجح الظاهر هو الذى أثبتناه .
(٢) يراجع فصل سياسة المال فى كتاب : العدالة الاجتماعية فى الإسلام .

Marfat.com

فأما حين لاتوجد نصوص فيما جاء به الرسـول بخصوص أمر يعرض للأمة فسبيلها أن تشرع له بما لا يخالف أصلا من أصول ماجاءبه الرسول . وهذا لاينقض تلك النظرية ، إنما هو فرع عنها. فالمرجع فى أى تشريع هو أن يتبع ماجاء به الرسول إن كان هناك نص . وألا يخالف أصلا من أصوله فيما لانص فيه . وتنحصر سلطة الأمة ـ والإمام النائب عنها ـ فى هذه الحدود . وهو نظام فريد لايماثله نظام آخر مما عرفته البشرية من نظم وضعية . وهو نظام يربط التشريع للناس بناموس الـكون كله . وينسق بين ناموس الـكون الذى وضعه الله له والقانون الذى يحكم البشر وهو من الله . كى لايصطدم قانون البشر بناموس الـكون ، فيشقى الإنسان أو يتحطم أو تذهب جهوده أدراج الرياح !

وتربط الآية هاتين القاعدتين فى قلوب المؤمنين بمصدرها الأول . . وهو الله . . فتدعوهم إلى التقوى وتخوفهم عقاب الله : « واتقـوا الله إن الله شديد العقاب » . . وهذا هو الضمان الأكبر الذى لا احتيال عليه ، ولا هروب منه . فقد علم المؤمنون أن الله مطلع على السرائر ، خبير بالأعمال ، وإليـه المرجع والمآب . وعلموا أنه شديد العقاب . وعلموا أنهـم مكلفون ألا يـكون المال دولة بينهم ، وأن يأخذوا ما آتاهم الرسـول عن رضى وطاعة ، وأن ينتهوا عما نهاهم عنه فى غير ترخص ولا تساهل وأمامهم يوم عصيب . . .

ولقد كان توزيع ذلك الفىء ـ فىء بنى النضير ـ على المهاجرين وحدهم عدا رجلين من الأنصار إجراء خاصا بهذا الفىء ، تحقيقا لقاعدة : « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » . . فأما الحـكم العام ، فهو أن يكون للفقراء عامة . من المهاجرين ومن الأنصار وممن يأتى بعدهم من الأجيال . وهذا ما تضمنته الآيات التالية فى السياق .

ولـكن القرآن لايذكر الأحكام جافة مجردة ، إنما يوردها فى جو حىّ يتجاوب فيه الأحياء. ومن ثم أحاط كل طائفـة من هذه الطوائف الثلاث بصفاتها الواقعية الحية التى تصور طبيعتها وحقيقتها ؛ وتقرر الحـكم حيا يتعامل مع هؤلاء الأحياء :

« للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون » . .

وهى صورة صادقة تبرز فيها أهم الملامح المميزة للمهاجرين . . أخرجـوا إخراجا من ديارهم وأموالهم . أكرههم على الخروج الأذى والاضطهاد والتنـكر من قرابتهم وعشيرتهم فى

Marfat.com

مكة . لاالذنب إلا أن يقولوا ربنا الله . . . وقد خرجوا تاركين ديارهم وأموالهم « يبتغون فضلا من الله ورضوانا » اعتمادهم على الله فى فضله ورضوانه . لاملجأ لهم سواه ، ولا جناب لهم إلا حماه . . وهم مع أنهم مطاردون قليلون « ينصرون الله ورسوله » . . بقلوبهم وسيوفهم فى أحرج الساعات وأضيق الأوقات . « أولئك هم الصادقون » . . الذين قالوا كلمة الإيمان بألسنتهم ، وصدقوها بعملهم . وكانوا صادقين مع الله فى أنهم اختاروه . وصادقين مع رسوله فى أنهم اتبعوه . وصادقين مع الحق فى أنهم كانوا صورة منه تدب على الأرض ويراها الناس !

« والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم ، يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » . .

وهذه كذلك صورة وضيئة صادقة تبرز أهم الملامح المميزة للأنصار . هذه المجموعة التى تفردت بصفات ، وبلغت إلى آفاق ، لولا أنها وقعت بالفعل ، لحسبها الناس أحلاما طائرة ورؤى مجنحة ومثلا عليا قد صاغها خيال محلق ..

« والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم » . . أى دار الهجرة . يثرب مدينة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد تبوأها الأنصار قبل المهاجرين . كما تبوأوا فيها الإيمان . وكأنه منزل لهم ودار . وهو تعبير ذو ظلال . وهو أقرب مايصور موقف الأنصار من الإيمان . لقد كان دارهم ونزلهم ووطنهم الذى تعيش فيه قلوبهم، وتسكن إليه أرواحهم ، ويثوبون إليه ويطمئنون له ، كما يثوب المرء ويطمئن إلى الدار .

« يحبون من هاجر إليهم ولايجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا » . . ولم يعرف تاريخ البشرية كله حادثا جماعيا كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين . بهذا الحب الكريم . وبهذا البذل السخى . وبهذه المشاركة الرضية . وبهذا التسابق إلى الإيواء واحتمال الأعباء . حتى ليروى أنه لم ينزل مهاجر فى دار أنصارى إلا بقرعة . لأن عدد الراغبين فى الإيواء المتزاحمين عليه أكثر من عدد المهاجرين ! « ولايجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا » .. مما يناله المهاجرون من مقام مفضل فى بعض المواضع ، ومن مال يختصون به كهذا الفىء . فلايجدون فى أنفسهم شيئا من هذا . ولا يقول : حسدا ولاضيقا . إنما يقول : « شيئا » . مما يلقى ظلال النظافة الكاملة لصدورهم والبراءة المطلقة لقلوبهم، فلاتجد شيئا أصلا .

Marfat.com

« ويؤثرون على أنفسهم ولوكان بهم خصاصة » .. والإيثار على النفس مع الحاجة قمة عليا . وقد بلغ إليها الأنصار بما لم تشهد البشرية له نظيرا . وكانوا كذلك فى كل مرة وفى كل حالة بصورة خارقة لمألوف البشر قديما وحديثا .

« ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .. فهذا الشح. شح النفس . هو المعوق عن كل خير . لأن الخير بذل فى صورة من الصور . بذل فى المال . وبذل فى العاطفة . وبذل فى الجهد . وبذل فى الحياة عندالاقتضاء. ومايمكن أن يصنع الخير شحيح يهم دائما أن يأخذ ولا يهم مرة أن يعطى . ومن يوق شح نفسه، فقد وقى هذا المعوّق عن الخير ، فانطلق إليه معطيا باذلا كريما. وهذا هو الفلاح فى حقيقة معناه .

« والذين جاءوا من بعدهم ، يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولاتجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا . ربنا إنك رؤوف رحيم » ..

وهذه الصورة الثالثة النظيفة الرضية الواعية . وهى تبرز أهم ملامح التابعين . كما تبرز أخص خصائص الأمة المسلمة على الإطلاق فى جميع الأوطان والأزمان .

هؤلاء الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار ـ ولم يكونوا قد جاءوا بعد عند نزول الآية فى المدينة ، إنما كانوا قد جاءوا فى علم الله وفى الحقيقة القائمة فى هذا العلم المطلق من حدود الزمان والمكان ـ همة نفوسهم أنها تتوجه إلى ربها فى طلب المغفرة ، لا لذاتها ولكن كذلك لسلفها الذين سبقوا بالإيمان ؛ وفى طلب براءة القلب من الغل للذين آمنوا على وجه الإطلاق ، ممن يربطهم معهم رباط الإيمان . مع الشعور برأفة الله ، ورحمته ، ودعائه بهذه الرحمة ، وتلك الرأفة : « ربنا إنك رؤوف رحيم » ..

وتتجلى من وراء تلك النصوص طبيعة هذه الأمة المسلمة وصورتها الوضيئة فى هذا الوجود. تتجلى الآصرة القوية الوثيقة التى تربط أول هذه الأمة بآخرها ، وآخرها بأولها ، فى تضامن وتكافل وتواد وتعاطف . وشعور بوشيجة القربى العميقة التى تتخطى الزمان والمكان والجنس والنسب ؛ وتتفرد وحدها فى القلوب ، تحرك المشاعر خلال القرون الطويلة ، فيذكر المؤمن أخاه المؤمن بعد القرون المتطاولة، كما يذكر أخاه الحى ، أو أشد ، فى إعزاز وكرامة وحب . ويحسب السلف حساب الخلف . ويمضى الخلف على آثار السلف .. صفا واحداً وكتيبة واحدة على مدار الزمان واختلاف الأوطان ، تحت راية الله تغذ السير صعدا إلى الأفق الكريم ، متطلعة إلى ربها الواحد الرؤوف الرحيم .

Marfat.com

إنها صورة باهرة، تمثل حقيقة قائمة ؛ كما تمثل أرفع وأكرم مثال للبشرية يتصوره قلب كريم. صورة تبدو كرامتها ووضاءتها على أتمها حين تقرن مثلا إلى صورة الحقد الذميم والهدم اللئيم التى تمثلها وتبشر بها الشيوعية فى إنجيل كارل ماركس . صورة الحقد الذى ينغل فى الصدور، وينخر فى الضمير ، على الطبقات ، وعلى أجيال البشرية السابقة، وعلى أممها الحاضرة التى لاتعتنق الحقد الطبقى الذميم . وعلى الإيمان والمؤمنين من كل أمة وكل دين !

صورتان لاالتقاء بينهما فى لمحة ولاسمة، ولالمسة ولاظل .صورة ترفع البشرية إلى أعلامراقيها؛ وصورة تهبط بها إلى أدنى دركاتها . صورة تمثل الأجيال من وراء الزمان والمكان والجنس والوطن والعشيرة والنسب متضامنة مترابطة متكافلة متوادة متعارفة صاعدة فى طريقها إلى الله ، بريئة الصدور من الغل ، طاهرة القلوب من الحقد ، وصورة تمثل البشرية أعداء متناحرين يلقى بعضهم بعضا بالحقد والدخل والدغل والغش والخداع والالتواء . حتى وهم فى المعبد يقيمون الصلاة . فالصلاة ليست سوى أحبولة ، والدين كله ليس إلا فخا ينصبه رأس المال للكادحين !

« ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا . ربنا إنك رؤوف رحيم » . .

هذه هى قافلة الإيمان . وهذا هو دعاء الإيمان . وإنها لقافلة كريمة . وإنه لدعاء كريم .

* * *

وحين ينتهى السياق من رسم هذه الصورة الوضيئة ، ورفعها على الأفق فى إطار النور . يعود إلى الحادث الذى نزلت فيه السورة ، ليرسم صورة لفريق آخر ممن اشتركوا فيها . فريق المنافقين :

« ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من اهل الكتاب : لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، وإن قوتلتم لننصرنكم ، والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لاينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ، ثم لاينصرون .لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ،ذلك بأنهم قوم لايفقهون. لايقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة أومن وراء جدر، بأسهم بينهم شديد ،تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى، ذلك بأنهم قوم لايعقلون . كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ، ولهم عذاب أليم . كمثل الشيطان إذ قال للإنسان : اكفر . فلما كفر قال : إنى برىء منك ، إنى أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها ، وذلك جزاء الظالمين » .

Marfat.com

وهى حكاية لما قاله المنافقون ليهود بنى النضير ، ثم لم يفوا به ، وخذلوهم فيه ، حتى أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب . ولكن فى كل جملة قرآنية لفتة تقرر حقيقة، وتمس قلبا ، وتبعث انفعالا ، وتُقر مقوما من مقومات التربية والمعرفة والإيمان العميق .

وأول لفتة هى تقرير القرابة بين المنافقين والذين كفروا من أهل الكتاب : « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب » . فأهل الكتاب هؤلاء كفروا. والمنافقون إخوانهم ولو أنهم يلبسون رداء الإسلام !

ثم هذا التوكيد الشديد فى وعد المنافقين لإخوانهم: « لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، وإن قوتلتم لننصرنكم » ..

والله الخبير بحقيقتهم يقرر غير مايقررون ، ويؤكد غير مايؤكدون : « والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لايخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لاينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار . ثم لاينصرون » . .

وكان ماشهد به الله . وكذب ماأعلنوه لإخوانهم وقرروه !

ثم يقرر حقيقة قائمة فى نفوس المنافقين وإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب : « لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله . ذلك بأنهم قوم لايفقهون » . .

فهم يرهبون المؤمنين أشد مما يرهبون الله . ولو خافوا الله ماخافوا أحدا من عباده . فإنما هو خوف واحد ورهبة واحدة . ولايجتمع فى قلب خوف من الله وخوف من شىء سواه . فالعزة لله جميعا ، وكل قوى الكون خاضعة لأمره ، «ومامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها» فمم يخاف إذن ذلك الذى يخاف الله؟ ولكن الذين لايفقهون هذه الحقيقة يخافون عباد الله أشد مما يخافون الله .. « ذلك بأنهم قوم لايفقهون » ..

وهكذا يكشف عن حقيقة القوم الواقعة . ويقرر فى الوقت ذاته تلك الحقيقة المجردة . ويمضى يقرر حالة قائمة فى نفوس المنافقين والذين كفروا من أهل الكتاب ، تنشأ من حقيقتهم السابقة، ورهبتهم للمؤمنين أشد من رهبتهم لله .

« لايقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر . بأسهم بينهم شديد . تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى . ذلك بأنهم قوم لايعقلون » . .

ومازال الأيام تكشف حقيقة الإعجاز فى « تشخيص » حالة المنافقين وأهل الكتاب حينما

Marfat.com

التقى المؤمنون بهم فى أى زمان وفى أى مكان . بشكل واضح للعيان . ولقد شهدت الاشتباكات الأخيرة فى الأرض المقدسة بين المؤمنين الفدائيين وبين اليهود مصداق هذا الخبر بصورة عجيبة. فما كانوا يقاتلونهم إلا فى المستعمرات المحصنة فى أرض فلسطين . فإذا انكشفوا لحظة واحدة ولوا الأدبار كالجرذان . حتى لكأن هذه الآية نزلت فيهم ابتداء . وسبحان العليم الخبير !

وتبقى الملامح النفسية الأخرى « بأسهم بينهم شديد » .. « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى » على خلاف المؤمنين الذين تتضامن أجيالهم ، وتجمعهم آصرة الإيمان من وراء فواصل الزمان والمكان ، والجنس والوطن والعشيرة . . « ذلك بأنهم قوم لايعقلون » . .

والظاهر قد تخدع فنرى تضامن الذين كفروا من أهل الكتاب فيما بينهم ، ونرى عصبيتهم بعضهم لبعض، كما نرى تجمع المنافقين أحيانا فى معسكر واحد . ولكن الخبر الصادق من السماء يأتينا بأنهم ليسوا كذلك فى حقيقتهم ؛ إنما هو مظهر خارجى خادع . وبين الحين والحين ينكشف هذا الستار الخداع . فيبدو من ورائه صدق الخبر فى دنيا الواقع المنظور ، وينكشف الحال عن نزاع فى داخل المعسكر الواحد ، قائم على اختلاف المصالح ، وتفرق الأهواء ، وتصادم الاتجاهات . وما صدق المؤمنون مرة ، وتجمعت قلوبهم على الله حقا إلا وانكشف المعسكر الآخر أمامهم عن هذه الاختلافات وهذا التضارب وهذا الرياء الذى لايمثل حقيقة الحال . وما صبر المؤمنون وثبتوا إلا وشهدوا مظهر التماسك بين أهل الباطل يتفسخ وينهار ، وينكشف عن الخلاف الحاد والشقاق والكيد والدس فى القلوب الشتيتة المتفرقة !

إنما ينال المنافقون والذين كفروا من أهل الكتاب . . من المسلمين . . عندما تتفرق قلوب المسلمين ، فلا يعودون يمثلون حقيقة المؤمنين التى عرضتها الآية فى المقطع السابق فى هذه السورة . فأما فى غير هذه الحالة فالمنافقون أضعف وأعجز ، وهم والذين كفروا من أهل الكتاب متفرقو الأهواء والمصالح والقلوب « بأسهم بينهم شديد » .. « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى » . .

والقرآن يقر هذه الحقيقة فى قلوب المؤمنين ، ليهون فيها من شأن أعدائهم ؛ ويرفع منها هيبة هؤلاء الأعداء ورهبتهم . فهو إيحاء قائم على حقيقة ؛ وتعبئة روحية ترتكن إلى حق ثابت . ومتى أخذ المسلمون قرآنهم مأخذ الجد هان عليهم أمر عدوهم وعدو الله ، وتجمعت قلوبهم فى الصف الواحد ، فلم تقف لهم قوة فى الحياة .

Marfat.com

والمؤمنون بالله ينبغي لهم أن يدركوا حقيقة حالهم وحال أعدائهم . فهذا نصف المعركة . والقرآن يطلعهم على هذه الحقيقة فى سياق وصفه لحادث وقع ، وفى سياق التعقيب عليه ، وشرح ماوراءه من حقائق ودلائل ، شرحا يفيد منه الذين شهدوا ذلك الحادث بعينه ، ويتدبره كل من جاء بعدهم ، وأراد أن يعرف الحقيقة من العالم بالحقيقة !

ولم يكن حادث بنى النضير هو الأول من نوعه ، فقد سبقه حادث بنى قينقاع الذى تشير إليه الآية بعد ذلك غالبا :

« كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم » . .

ووقعة بنى قينقاع كانت بعد غزوة بدر وقبل غزوة أحد . وكان بينهم وبين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عهد . فلما انتصر المسلمون على المشركين فى بدر كره اليهود ذلك ، وحقدوا على المسلمين أن ينالوا هذا الانتصار العظيم ، وخافوا أن يؤثر هذا على موقفهم فى المدينة فيضعف من مركزهم بقدر مايقوى من مركز المسلمين . وبلغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مايتهامسون به وما يفكرون فيه من الشر ، فذكرهم العهد وحذرهم مغبة هذا الاتجاه . فردوا ردا غليظا مغيظا فيه تهديد . قالوا : يامحمد . إنك لترى أنا قومك ! لايغرنك أنك لقيت قوما لاعلم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة . إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس !

ثم أخذوا يتحرشون بالمسلمين؛ وذكرت الروايات من هذا أن امرأة من العرب قدمت ببضاعة لها فباعتها بسوق بنى قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها ، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوأتها ، فضحكوا بها ، فصاحت . فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله . وشدت يهود على المسلم فقتلوه فاستصرخ أهل المسلم المسلمين . فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع .

وحاصرهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى نزلوا على حكمه . فقام رأس المنافقين عبد الله ابن أبى ابن سلول يجادل رسول الله عنهم ، باسم ما كان بينهم وبين الخزرج من عهد ولكن الحقيقة كانت هى هذه الصلة بين المنافقين وإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب ! فرضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى النهاية أن يجلوا عن المدينة ، وأن يأخذوا معهم أموالهم ومتاعهم ـ إلا السلاح ـ ورحلوا إلى الشام .

فهذه هى الواقعة التى يشير إليها القرآن ويقيس عليها حال بنى النضير وحقيقتهم . . وحال المنافقين مع هؤلاء وهؤلاء !

Marfat.com

ويضرب للمنافقين الذين أغروا إخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب بالمقاومة ،فانتهوا بهم إلى تلك النهاية البائسة . يضرب لهم مثلا بحال دائمة . حال الشيطان مع الإنسان ، الذى يستجيب لإغرائه فينتهى وإياه إلى شر مصير :

« كمثل الشيطان إذ قال للإنسان : اكفر . فلما كفر قال : إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها ، وذلك جزاء الظالمين » . .

وصورة الشيطان هنا ودوره مع من يستجيب له من بنى الإنسان ، تتفقان مع طبيعته ومهمته . فأعجب العجب أن يستمع إليه الإنسان . وحاله هو هذا الحال !

وهى حقيقة دائمة ينتقل السياق القرآنى إليها من تلك الواقعة العارضة . فيربط بين الحادث الفرد والحقيقة الكلية ،فى مجال حى من الواقع ؛ ولا ينعزل بالحقائق المجردة فى الذهن . فالحقائق المجردة الباردة لا تؤثر فى المشاعر ، ولا تستجيش القلوب للاستجابة . وهذا فرق ما بين منهج القرآن فى خطاب القلوب ، ومنهج الفلاسفة والدارسين والباحثين !

وبهذا المثل الموحى تنتهى قصة بنى النضير . وقد صمت فى ثناياها وفى أعقابها هذا الحشد من الصور والحقائق والتوجيهات . واتصلت أحداثها المحلية الواقعة بالحقائق الكبرى المجردة الدائمة . وكانت رحلة فى عالم الواقع وفى عالم الضمير ، تمتد إلى أبعد من حدود الحادث ذاته . وتفترق روايتها فى كتاب الله عن روايتها فى كتب البشر بمقدار ما بين صنع الله وصنع البشر من فوارق لا تقاس !!

* * *

وعند هذا الحد من رواية الحادث والتعقيب عليه وربطه بالحقائق البعيدة الذى يتجه الخطاب فى السورة إلى المؤمنين ، يهتف بهم باسم الإيمان ، ويناديهم بالصفة التى تربطهم بصاحب الخطاب ، وتيسر عليهم الاستجابة لتوجيهه وتكليفه . يتجه إليهم ليدعوهم إلى التقوى . والنظر فيما أعدوه للآخرة ، واليقظة الدائمة ، والحذر من نسيان الله كالذين نسوه من قبل ، ممن رأوا مصير فريق منهم ، وممن كتب عليهم أنهم من أصحاب النار :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، ولتنظر نفس ما قدمت لغد ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون . ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، أولئك هم الفاسقون . لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة . أصحاب الجنة هم الفائزون » . .

Marfat.com

والتقوى حالة فى القلب يشير إليها اللفظ بظلاله ، ولكن العبارة لاتبلغ تصوير حقيقتها. حالة تجعل القلب يقظا حساسا شاعرا بالله فى كل حالة . خائفا متحرجا مستحييا أن يطلع عليه الله فى حالة يكرهها . وعين الله على كل قلب فى كل لحظة . فمتى يأمن أن لايراه ؟!

« ولتنظر نفس ماقدمت لغد » ..

وهو تعبير كذلك ذو ظلال وإيحاءات أوسع من ألفاظه .. ومجرد خطوره على القلب يفتح أمامه صفحة أعماله بل صفحة حياته ، ويمد ببصره فى سطورها كلها يتأملها وينظر رصيد حسابه بمفرداته وتفصيلاته . لينظر ماذا قدم لغده فى هذه الصفحة .. وهذا التأمل كفيل بأن يوقظه إلى مواضع ضعف ومواضع نقص ومواضع تقصير ، مهما يكن قد أسلف من خير وبذل من جهد . فكيف إذا كان رصيده من الخير قليلا ، ونصيبه من البر ضئيلا ؟ إنها لمسة لاينام بعدها القلب أبدا ، ولايكف عن النظر والتقليب !

ولا تنتهى الآية التى تثير كل هذه المشاعر حتى تلح على القلوب المؤمنة بمزيد من الإيقاع :

« واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » . .

فتزيد هذه القلوب حساسية ورهبة واستحياء .. والله خبير بما يعملون . .

وبمناسبة ماتدعوهم إليه هذه الآية من يقظة وتذكر يحذرهم فى الآية التالية من أن يكونوا « كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم » . . وهى حالة عجيبة . ولكنها حقيقة . . فالذى ينسى الله يهيم فى هذه الحياة بلا رابطة تشده إلى أفق أعلى ، وبلا هدف لهذه الحياة يرفعه عن السائمة التى ترعى . وفى هذا نسيان لإنسانيته . وهذه الحقيقة تضاف إليها أو تنشأ عنها حقيقة أخرى ، وهى نسيان هذا المخلوق لنفسه فلا يدخر لها زادا للحياة الطويلة الباقية ، ولا ينظر فيما قدم لها فى الغداة من رصيد .

« أولئك هم الفاسقون » . . المنحرفون الخارجون .

وفى الآية التالية يقرر أن هؤلاء هم أصحاب النار ، ويشير للمؤمنين ليسلكوا طريقا غير طريقهم وهم أصحاب الجنة . وطريق أصحاب الجنة غير طريق أصحاب النار :

« لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة . أصحاب الجنة هم الفائزون » . .

لايستويان طبيعة وحالا ، ولا طريقا ولاسلوكا ، ولا وجهة ولا مصيرا . فهما على مفرق طريقين لا يلتقيان أبدا فى طريق . ولا يلتقيان أبدا فى سمة . ولا يلتقيان أبدا فى خطة . ولا يلتقيان أبدا فى سياسة . ولا يلتقيان أبدا فى صف واحد فى دنيا ولا آخرة . .

Marfat.com

« أصحاب الجنة هم الفائزون » . . يثبت مصيرهم ويدع مصير أصحاب النار مسكوتا عنه . معروفا . وكأنه ضائع لايعنى به التعبير !

* * *

ثم يجىء الإيقاع الذى يتخلل القلب ويهزه ؛ وهو يعرض أثر القرآن فى الصخر الجامد لو تنزل عليه : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله . وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » .

وهى صورة تمثل حقيقة . فإن لهذا القرآن لثقلا وسلطانا وأثرا مزلزلا لايثبت له شىء يتلقاه بحقيقته . ولقد وجد عمر ابن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ماوجد ، عند ماسمع قارئا يقرأ: « والطور ، وكتاب مسطور ، فى رق منشور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع ، والبحر المسجور ، إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع . . . » فارتكن إلى الجدار . ثم عاد إلى بيته يعوده الناس شهرا مما ألم به !

واللحظات التى يكون فيها الكيان الإنسانى متفتحا لتلقى شىء من حقيقة القرآن يهتز فيها اهتزازا ويرتجف ارتجافا . ويقع فيه من التغيرات والتحولات ما يماثله فى عالم المادة فعل المغنطيس والكهرباء بالأجسام . أو أشد .

والله خالق الجبال ومنزل القرآن يقول : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله » . . والذين أحسوا شيئا من مس القرآن فى كيانهم يتذوقون هذه الحقيقة تذوقا لايعبر عنه إلا هذا النص القرآنى المشع الموحى .

« وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » . .

وهى خليقة بأن توقظ القلوب للتأمل والتفكير . .

* * *

وأخيرا تجىء تلك التسبيحة المديدة بأسماء الله الحسنى ؛ وكأنما هى أثر من آثار القرآن فى كيان الوجود كله ، ينطلق بها لسانه وتتجاوب بها أرجاؤه ؛ وهذه الأسماء واضحة الآثار فى صميم هذا الوجود وفى حركته وظواهره ، فهو إذ يسبح بها يشهد كذلك بآثارها :

« هو الله الذى لا إله إلا هو ، عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمان الرحيم .

« هو الله الذى لا إله إلا هو ، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر . سبحان الله عما يشركون .

Marfat.com

« هو الله الخالق البارئ المصور ، له الأسماء الحسنى ، يسبح له مافى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم » . .

إنها تسبيحة مديدة بهذه الصفات المجيدة . ذات ثلاثة مقاطع . يبدأ كل مقطع منها بصفة التوحيد : « هو الله الذى لاإله إلاهو » .. أو « هو الله » . .

ولكل اسم من هذه الأسماء الحسنى أثر فى هذا الكون ملحوظ ، وأثر فى حياة البشر ملموس . فهى توحى إلى القلب بفاعلية هذه الأسماء والصفات . فاعلية ذات أثر وعلاقة بالناس والأحياء . وليست هى صفات سلبية أومنعزلة عن كيان هذا الوجود ، وأحواله وظواهره المصاحبة لوجوده .

« هو الله الذى لاإله إلاهو » . . فتتقرر فى الضمير وحدانية الاعتقاد ، ووحدانية العبادة، ووحدانية الاتجاه ، ووحدانية الفاعلية من مبدأ الخلق إلى منتهاه . ويقوم على هذه الوحدانية منهج كامل فى التفكير والشعور والسلوك ، وارتباطات الناس بالكون وبسائر الأحياء . وارتباطات الناس بعضهم ببعض على أساس وحدانية الإله .

« عالم الغيب والشهادة » .. فيستقر فى الضمير الشعور بعلم الله للظاهر والمستور . ومن ثم تستيقظ مراقبة هذا الضمير لله فى السر والعلانية ؛ ويعمل الإنسان كل مايعمل بشعور المراقب من الله المراقِب لله ، الذى لايعيش وحده ، ولوكان فى خلوة أومناجاة ! ويتكيف سلوكه بهذا الشعور الذى لايغفل بعده قلب ولاينام !

« هو الرحمان الرحيم » فيستقر فى الضمير شعور الطمأنينة لرحمةالله والاسترواح. ويتعادل الخوف والرجاء ، والفزع والطمأنينة . فالله فى تصور المؤمن لا يطارد عباده ولكن يراقبهم . ولايريد الشر بهم بل يحب الهدى ، ولايتركهم بلا عون وهم يصارعون الشرور والأهواء .

« هوالله الذىلاإله إلاهو » .. يعيدها فى أولالتسبيحة التالية ، لأنها القاعدة التىتقومعليها سائر الصفات ..

« الملك » .. فيستقرفى الضمير أن لاملك إلاالله الذى لاإله إلاهو . وإذا توحدت الملكية لم يبق للمملوكين إلاسيد واحد يتجهون إليه ، ولايخدمون غيره . فالرجل لايخدم سيدين فى وقت واحد « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » ..

« القدوس » وهو اسم يشع القداسة المطلقة والطهارة المطلقة . ويلقى فى ضمير المؤمنهذا

Marfat.com

الإشعاع الطهور ، فيظف قلبه هو ويطهره ، ليصبح صالحا لتلقى فيوض الملك القدوس ، والتسبيح له والتقديس .

« السلام » . . وهو اسم كذلك يشيع السلام والأمن والطمأنينة فى جنبات الوجود ، وفى قلب المؤمن تجاه ربه . فهو آمن فى جواره ، سالم فى كنفه . وحيال هذا الوجود وأهله من الأحياء والأشياء . ويؤوب القلب من هذا الاسم بالسلام والراحة والاطمئنان . وقد هدأت ثورته وسكن بلباله وجنح إلى الموادعة والسلام .

« المؤمن » واهب الأمن وواهب الإيمان . ولفظ هذا الاسم يشعر القلب بقيمة الإيمان ، حيث يلتقى فيه بالله ، ويتصف منه بإحدى صفات الله . ويرتفع إذن إلى الملأ الأعلى بصفة الإيمان.

« المهيمن » . . وهذا بدء صفحة أخرى فى تصور صفة الله — سبحانه — إذ كانت الصفات السابقة : « القدوس السلام المؤمن » صفات تتعلق مجردة بذات الله . فأما هذه فتتعلق بذات الله فاعلة فى الكون والناس . توحى بالسلطان والرقابة .

وكذلك : « العزيز . الجبار . المتكبر » . . فهى صفات توحى بالقهر والغلبة والجبروت والاستعلاء . فلا عزيز إلا هو . ولا جبار إلا هو . ولا متكبر إلا هو . وما يشاركه أحد فى صفاته هذه . وما يتصف بها سواه . فهو المتفرد بها بلا شريك .

ومن ثم يجىء ختام الآية : « سبحان الله عما يشركون » . .

ثم يبدأ المقطع الأخير فى التسبيحة المديدة .

« هو الله » . . فهى الألوهية الواحدة . وليس غيره إله .

« الخالق » . . « البارئ » .. والخلق : التصميم والتقدير . والبرء: التنفيذ والإخراج، فهما صفتان متصلتان والفارق بينهما لطيف دقيق . .

« المصور » . وهى كذلك صفة مرتبطه بالصفتين قبلها . ومعناها إعطاء الملامح المتميزة والسمات التى تمنح لكل شىء شخصيته الخاصة .

وتوالى هذه الصفات المترابطة اللطيفة الفروق ، يستجيش القلب لمتابعة عملية الخلق والإنشاء والإيجاد والإخراج مرحلة مرحلة — حسب التصور الإنسانى — فأما فى عالم الحقيقة فليست هناك مراحل ولا خطوات . وما نعرفه عن مدلول هذه الصفات ليس هو حقيقتها المطلقة فهذه لايعرفها إلا الله . إنما نحن ندرك شيئا من آثارها هو الذى نعرفها به فى حدود طاقتنا الصغيرة !

Marfat.com

« له الأسماء الحسنى » . . الحسنى فى ذاتها . بلا حاجة إلى استحسان من الخلق ولا توقف على استحسانهم . والحسنى التى توحى بالحسن للقلوب وتفيضه عليها . وهى الأسماء التى يتدبرها المؤمن ليصوغ نفسه وفق إيحائها واتجاهها ، إذ يعلم أن الله يحب له أن يتصف بها . وأن يتدرج فى مراقيه وهو يتطلع إليها .

وخاتمة هذه التسبيحة المديدة بهذه الأسماء الحسنى ، والسبحة البعيدة مع مدلولاتها الموحية وفى فيوضها العجيبة ، هى مشهد التسبيح لله يشيع فى جنبات الوجود ، وينبعث من كل موجود :

« يسبح له ما فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم » . .

وهو مشهد يتوقعه القلب بعد ذكر تلك الأسماء ؛ ويشارك فيه مع الأشياء والأحياء . . كما يتلاقى فيه المطلع والختام . فى تناسق والتئام .

Marfat.com

سورة الممتحنة مدنية
وآياتها ١٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ، وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ ٱلْحَقِّ ، يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ، أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ ، إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِى سَبِيلِى وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِى ، تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ، وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ، وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ ٱلسَّبِيلِ ① إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً ، وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ ، وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ * لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ، يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ، وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إِبْرَاهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ ، إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ : إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ ، كَفَرْنَا بِكُمْ ، وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَاوَةُ وَٱلْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ ، إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ : لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ، وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللهِ مِنْ شَىْءٍ ، رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ، وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ، وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ، وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو ٱللهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ .

« عَسَى ٱللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً ، وَٱللهُ قَدِيرٌ

Marfat.com

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ، وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ، فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ، لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ، وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ، وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ، وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ، ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ .

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا ، وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ ، وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ، وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ، وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ، فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ » ﴿١٣﴾

هذه السورة حلقة فى سلسلة التربية الإيمانية والتنظيم الاجتماعى والدولة فى المجتمع المدنى . حلقة من تلك السلسلة الطويلة ،أومن ذلك المنهج الإلهى المختار للجماعة المسلمة المختارة، التى ناط بها الله تحقيق منهجه الذى يريده للحياة الإنسانية ، فى صورة واقعية عملية ، كيما يستقر فى الأرض نظاما ذا معالم وحدود وشخصية مميزة ؛ تبلغ إليه البشرية أحيانا ، وتقصر عنه أحيانا ،

Marfat.com

ولـكنها تبقى معلقة دائمـا بمحاولة بلوغه ؛ وتبقى أمامهـا صورة واقعية منه ، تحققت يوما فى هذه الأرض .

وقد اقتضى هذا ـ كما قلنا فى أول هذا الجزء ـ إعدادا طويلا فى خطوات ومراحل . وكانت الأحداث التى تقع فى محيط هذه الجماعة ، أوتتعلق بها ، مادة من مواد هذا الإعداد . مادة مقدرة فى علم الله ، تقوم عليها مادة أخرى هى التفسير والتوضيح والتعقيب والتوجيه .

وفى مضطرب الأحداث، وفى تيار الحياة المتدفق ، تمت عملية بناء النفوس المختارة لتحقيق ذلك المنهج الإلهى فى الأرض . فلم تـكن هناك عزلة إلاالعزلة بالتصور الإيمانى الجديد ، وعدم خلطه بأية رقع غريبة عنه فى أثناء التـكوين النفسى لهذه الجماعة . وكانت التربية المستمرة متجهة دائما إلى إنشاء هذا التصور الإيمانى الخاص المميز، المنعزل بحقيقته وطبيعته عن التصورات السائدة فى العالم كله يومذاك ، وفى الجزيرة العربية بصفة خاصة . أما الناس الذين يُنشأ هذا التصور المتميز فى نفوسهم فلم يكونوا بمعزل عن واقع الحياة ومضطرب الأحداث ، بل كانوا يصهرون فى بوتقة الحوادث يوما بعد يوم ، ومرة بعد مرة ، ويعاد صهرهم فى الأمر الواحد والخلق الواحد مرات كثيرة ، وتحت مؤثرات متنوعة ؛ لأن الله الذى خلق هذه النفوس يعلم أنها ليست كلها مما يتأثر ويستجيب ويتكيف ويستقر على ماتـكيف به منذ اللمسة الأولى . وكان يعلم أن رواسب الماضى ، وجواذب الميول الطبيعية ، والضعف البشرى ، وملامسات الواقع ، وتحـكم الإلف والعادة ، كلها قد تـكون معوقات قوية تغلب عوامل التربية والتوجيه مرة بعد مرة . وتحتاج فى مقاومتها إلى التذكير المتـكرر ، والصهر المتوالى .. فكانت الأحداث تتوالى كما هى منسوقة فى قدر الله ، وتتوالى الموعظة بها . والتحذير على ضوئها ، والتوجيه بهديها ، مرة بعد مرة .

وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقوم فى يقظة دائمة وإلهام بصير ، بالتقاط الأحداث والوقائع والمناسبات فى كل فرصة ، واستخدامها بحـكمة بالغة فى بناء هذه النفوس . والوحى والإلهام يؤيدانه ويسددانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى تصنع تلك الجماعة المختارة على عين الله . بتوفيق الله . على يدى رسول الله .

* * *

هذه السورة حلقة فى سلسلة ذلك الإعداد الطويل ، تستهدف ـ مع غيرها مما جاء فى مثل موضوعها ـ إقامة عالم ربانى خالص فى ضمير المسلم . عالم محوره الإيمان بالله وحده ، يشد المسلمين

Marfat.com

إلى هذا المحور وحده ، بعروة واحدة لا انفصام لها ، ويبرئ نفوسهم من كل عصبية أخرى عصبية للقوم أوللجنس أوللأرض أوللعشيرة أوللقرابة . ليجعل فى مكانها جميعا عقدة واحدة . هى عقدة الإيمان بالله . والوقوف تحت راية الله . فى حزب الله .

إن العالم الذى يريده الإسلام عالم ربانى إنسانى . ربانى بمعنى أنه يستمد كل مقوماته من توجيه الله وحكمه ، ويتجه إلى الله بكل شعوره وعمله . وإنسانى بمعنى أنه يشمل الجنس الإنسانى كله ـ فى رحاب العقيدة ـ وتذوب فيه فواصل الجنس والوطن واللغة والنسب . وسائر ما يميز إنسانا عن إنسان ، عدا عقيدة الإيمان . وهذا هو العالم الرفيع اللائق أن يعيش فيه الإنسان الكريم على الله ، المتضمن كيانه نفحة من روح الله

ودون إقامة هذا العالم تقف عقبات كثيرة ـ كانت فى البيئة العربية ومازال فى العالم كله إلى اليوم ـ عقبات من التعصب للبيت ، والتعصب للعشيرة ، والتعصب للقوم ، والتعصب للجنس ، والتعصب للأرض . كما تقف عقبات أخرى من رغائب النفوس وأهواء القلوب ، من الحرص والشح وحب الخير للذات ، ومن الكبرياء الذاتية والالتواءات النفسية .. وألوان غيرها كثير من ذوات الصدور !

وكان على الإسلام أن يعالج هذا كله فى الجماعة التى يعدها لتحقيق منهج الله فى الأرض فى صورة عملية واقعة . وكانت هذه الصورة حلقة فى سلسلة هذا العلاج الطويل .

وكان بعض المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وأهليهم فى سبيل عقيدتهم ، مازال نفوسهم مشدودة إلى بعض من خلفوا هنالك من ذرية وأزواج وذوى قربى . وعلى الرغم من كل ماذاقوا من العنت والأذى فى قريش فقد ظلت بعض النفوس تود لو وقعت بينهم وبين أهل مكة المحاسنة والمودة ؛ وأن لو انتهت هذه الخصومة القاسية التى تكلفهم قتال أهليهم وذوى قرابتهم ، وتقطع مابينهم وبينهم من صلات !

وكان الله يريد استصفاء هذه النفوس واستخلاصها من كل هذه الوشائج ، وتجريدها لدينه وعقيدته ومنهجه . وهو ـ سبحانه ـ يعلم ثقل الضغط الواقع عليها من الميول الطبيعية ورواسب الجاهلية جميعا ـ وكان العرب بطبيعتهم أشد الناس احتفالا بعصبية القبيلة والعشيرة والبيت ـ فكان يأخذهم يوما بعد يوم بعلاجه الناجع البالغ ، بالأحداث وبالتعقيب على الأحداث ، ليكون العلاج على مسرح الحوادث وليكون الطرق والحديد ساخن !

Marfat.com

وتذكر الروايات حادثا معينا نزل فيه صدر هذه السورة . وقد تكون هذه الروايات صحيحة فى سبب النزول المباشر . ولكن مدى النصوص القرآنية دائما أبعد من الحوادث المباشرة .

وقد قيل فى هذا الحادث : إن حاطب ابن أبى بلتعة كان رجلا من المهاجرين . وكان من أهل بدر أيضاً . وكان له بمكة أولاد ومال ، ولم يكن من قريش أنفسهم بل كان حليفا لعثمان. فلما عزم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على فتح مكة لما نقض أهلها عهد الحديبية أمر المسلمين بالتجهيز لغزوهم ، وقال : « اللهم عمِّ عليهم خبرنا » . . وأخبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جماعة من أصحابه بوجهته ، كان منهم حاطب . فعمد حاطب فكتب كتابا وبعثه مع امرأة مشركة ـ قيل من مزينة ـ جاءت المدينة تسترفد ـ إلى أهل مكة يعلمهم بعزم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على غزوهم ، ليتخذ بذلك عندهم يدا . فأطلع الله ـ تعالى ـ رسوله على ذلك استجابة لدعائه . وإمضاء لقدره فى فتح مكة . فبعث فى أثر المرأة ، فأخذ الكتاب منها .

وقد روى البخارى فى المغازى ، ورواه مسلم فى صحيحه من حديث حصين ابن عبدالرحمان ، عن سعد ابن عبيدة عن أبى عبد الرحمان السلمى ، عن على ـ رضى الله عنه ـ قال : « بعثنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبا مرثد والزبير ابن العوام ـ وكلنا فارس ـ وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب ابن أبى بلتعة إلى المشركين » . فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلنا : الكتاب ؟ فقالت مامعى كتاب . فأنخناها فالتمسنا فلم نر كتابا . فقلنا : ما كذب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتخرجن الكتاب أو لنجردنك . فلما رأت الجد أهوت إلى حجزتها ، وهى محتجزة بكساء ، فأخرجته . فانطلقنا به إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال عمر : يارسول الله . قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعنى فلأضرب عنقه . فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ماحملك على ماصنعت ؟ » قال حاطب : والله مابى إلا أن أكون مؤمنا بالله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أردت أن تكون لى عند القوم يد ، يدفع الله بها عن أهلى ومالى ، وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله. فقال : « صدق لاتقولوا إلا خيرا » . فقال عمر : إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدعنى فلأضرب عنقه. فقال : « أليس من أهل بدر ؟ ـ فقال ـ: لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال :

Marfat.com

اعملوا ماشئتم فقد وجبت لكم الجنة ـ أو ـ قد غفرت لكم » فدمعت عينا عمر ، وقال : الله ورسوله أعلم .. وزاد البخاري في كتاب المغازي : فأنزل الله السورة : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة » .. وفي رواية أخرى أن الذين أرسلوا كانوا هم علي والزبير والمقداد .

والوقوف قليلا أمام هذا الحادث ومادار بشأنه لايخرج بنا عن « ظلال القرآن » والتربية به وبالأحداث والتوجيهات والتعقيبات عن طريق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ القائد المربي العظيم ..

وأول مايقف الإنسان أمامه هو فعلة حاطب ،وهو المسلم المهاجر ، وهو أحد الذين أطلعهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على سر الحملة .. وفيها مايكشف عن منحنيات النفس البشرية العجيبة ، وتعرض هـذه النفس للحظات الضعف البشري مهما بلغ من كمالها وقوتها؛ وأن لاعاصم إلا الله من هذه اللحظات فهو الذي يعين عليها .

ثم يقف الإنسان مرة أخرى أمام عظمة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو لايعجل حتى يسأل: « ماحملك على ماصنعت » في سعة صدر وعطف على لحظة الضعف الطارئة في نفس صاحبه، وإدراك ملهم بأن الرجل قد صدق ، ومن ثم يكف الصحابة عنه : « صدق لاتقولوا إلا خيرا » .. ليعينه وينهضه من عثرته ، فلايطارده بها ولايدع أحدا يطارده . بينما نجد الإيمان الجاد الحاسم الجازم في شدة عمر : « إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين . فدعني فلأضرب عنقه ».. فعمر ـ رضي الله عنه ـ إنما ينظر إلى العثرة ذاتها فيثور لها حسه الحاسم وإيمانه الجازم . أما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فينظر إليها من خلال إدراكه الواسع الشامل للنفس البشرية على حقيقتها ، ومن كل جوانبها ، مع العطف الكريم الملهم الذي تنشئه المعرفة الكلية . في موقف المربي الكريم العطوف المتأني الناظر إلى جميع الملابسات والظروف ..

ثم يقف الإنسان أمام كلمات حاطب ، وهو في لحظة ضعفه ، ولكن تصوره لقدر الله وللأسباب الأرضية هو التصور الإيماني الصحيح . . ذلك حين يقول : « أردت أن تكون لي عند القوم يد . . يدفع الله بها عن أهلي ومالي » . . فالله هو الذي يدفع ، وهذه اليد لاتدفع بنفسها ، إنما يدفع الله بها . ويؤكد هذا التصور في بقية حديثه وهو يقول : « وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع . . الله . . به عن أهله وماله » فهو الله حاضر في تصوره ، وهو الذي يدفع لاالعشيرة . إنما العشيرة أداة يدفع الله بها . .

Marfat.com

ولعل حس رسول الله الملهم فدراعى هذا التصور الصحيح الحى فى قول الرجل ، فكان هذا من أسباب قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « صدق . لاتقولوا إلاخيرا » ..

وأخيرا يقف الإنسان أمام تقدير الله فى الحادث ؛ وهو أن يكون حاطب من القلة التى يعهد إليها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسر الحملة . وأن تدركه لحظة الضعف البشرى وهو من القلة المختارة . ثم يجرى قدر الله بكف ضرر هذه اللحظة عن المسلمين . كأنما القصد هو كشفها فقط وعلاجها ! ثم لايكون من الآخرين الذين لم يعهد إليهم بالسر اعتراض على ماوقع ، ولاتنفج بالقول : هاهوذا أحد من استودعوا السرخانوه ، ولو أودعناه نحن مابحنا به ! فلم يرد من هذا شىء . مما يدل على أدب المسلمين مع قيادتهم ، وتواضعهم فى الظن بأنفسهم، واعتبارهم بما حدث لأخيهم . . .

والحادث متواتر الرواية . أما نزول هذه الآيات فيه فهو أحد روايات البخارى . ولا نستبعد صحة هذه الرواية ؛ ولكن مضمون النص القرآنى ـ كما قلنا ـ أبعد مدى ، وأدل على أنه كان يعالج حالة نفسية أوسع من حادث حاطب الذى تواترت به الروايات ، بمناسبة وقوع هذا الحادث ، على طريقة القرآن .

كان يعالج مشكلة الأواصر القريبة ، والعصبيات الصغيرة ، وحرص النفوس على مألوفاتها الموروثة ليخرج بها من هذا الضيق المحلى إلى الأفق العالمى الإنسانى .

وكان ينشىء فى هذه النفوس صورة جديدة ، وقيما جديدة ، وموازين جديدة ، وفكرة جديدة عن الكون والحياة والإنسان ،ووظيفة للمؤمنين فى الأرض ، وغاية الوجود الإنسانى.

وكان كأنما يجمع هذه النبتات الصغيرة الجديدة فى كنف الله ؛ ليعلمهم الله ويبصرهم بحقيقة وجودهم وغايته ، وليفتح أعينهم على مايحيط بهم من عداوات ومكر وكيد ، وليشعرهم أنهم رجاله وحزبه ،وأنه يريد بهم أمرا، ويحقق بهم قدرا . ومن ثم فهم يوسمون بسمته ويحملون شارته، ويعرفون بهذه الشارة وتلك السمة بين الأقوام جميعا . فى الدنيا والآخرة . وإذن فليكونوا خالصين له ، منقطعين لولايته ، متجردين من كل وشيجة غير وشيجته . فى عالم الشعور وعالم السلوك .

والسورة كلها فى هذا الاتجاه . حتى الآيات التشريعية التنظيمية الواردة فى آخرها عن معاملة للهاجرات المؤمنات ، ومبايعة من يدخلن فى الإسلام ، والفصل بين المؤمنات وأزواجهن من

Marfat.com

الكفار . وبين المؤمنين وزوجاتهم من الكوافر . . فكلها تنظيمات منبثقة من ذلك التوجيه العام .

ثم ختام السورة كما بدأت بالنهى عن موالاة أعداء الله ، ممن غضب عليهم ، الله سواء من المشركين أو من اليهود . ليتم التميز والانفراد والمفاصلة من جميع الوشائج والروابط غير رابطة العقيدة وغير وشيجة الإيمان . .

* * *

« ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول وإياكم ، أن تؤمنوا بالله ربكم . إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ؛ ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل . إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ، ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ، وودوا لو تكفرون » . .

تبدأ السورة بذلك النداء الودود الموحى : « ياأيها الذين آمنوا » .. نداء من ربهم الذى آمنوا به ، يدعوهم باسم الإيمان الذى ينسبهم إليه . يدعوهم ليبصرهم بحقائق موقفهم ، ويحذرهم حبائل أعدائهم ، ويذكرهم بالمهمة الملقاة على عاتقهم .

وفى مودة يجعل عدوهم عدوه ، وعدوه عدوهم :

« لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة » . .

فيشعر المؤمنين بأنهم منه وإليه . يعاديهم من يعاديه . فهم رجاله المنتسبون إليه الذين يحملون شارته فى هذه الأرض . وهم أوداؤه وأحباؤه . فلا يجوز أن يلقوا بالمودة إلى أعدائهم وأعدائه .

ويذكرهم بجريرة هؤلاء الأعداء عليهم وعلى دينهم وعلى رسولهم ، وعدوانهم على هذا كله فى بغى وظلم :

« وقد كفروا بما جاءكم من الحق . يخرجون الرسول وإياكم . أن تؤمنوا بالله ربكم » ..

فماذا أبقوا بعد هذه الجرائر الظالمة للموالاة والمودة ؟ كفروا بالحق . وأخرجوا الرسول والمؤمنين ، لاشىء إلا لأنهم آمنوا بالله ربهم ؟ إنه يهيج فى قلوب المؤمنين هذه الذكريات المرتبطة بعقيدتهم . وهى التى حاربهم المشركون من أجلها ، لامن أجل أى سبب آخر . ويبرز

Marfat.com

القضية التى عليها الخلاف والخصومة والحرب . فهى قضية العقيدة دون سواها . قضية الحق الذى كفروا به والرسول الذى أخرجوه ، والإيمان الذى من أجله أخرجوهم .

وإذا تمحضت القضية هكذا وبرزت ، ذكرهم بأنه لا محل إذن للمودة بينهم وبين المشركين إن كانوا قد خرجوا من ديارهم ابتغاء رضوان الله وجهادا فى سبيله :

« إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى » . .

فما يجتمع فى قلب واحد أن يهاجر جهادا فى سبيل الله ابتغاء مرضاة الله ، مع مودة لمن أخرجه من أجل إيمانه بالله ، وهو عدو الله وعدو رسول الله !

ثم يحذرهم تحذيرا خفيا مما تكن قلوبهم ، وما يسرون به إلى أعدائهم وأعداء الله من المودة ، وهو مطلع على خفية القلوب وعلانيتها :

« تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم » .

ثم يهددهم تهديدا مخيفا ، يثير فى القلب المؤمن الوجل والمخافة :

« ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل » . .

وهل يخيف المؤمن شىء ما يخيفه أن يضل سواء السبيل بعد الهداية والوصول ؟ !

وهذا التهديد وذلك التحذير يتوسطان تبصير المؤمنين بحقيقة أعدائهم وما يضمرون لهم من الشر والكيد . ثم تجىء البقية :

« إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء » . .

فلا تعرض لهم فرصة يتمكنون فيها من المسلمين حتى يتصرفوا معهم تصرف العدو الأصيل . ويوقعوا بهم ما يملكون من أذى ومن تنكيل بالأيدى وبالألسنة وبكل وسيلة وكل سبيل .

والأدهى من هذا كله والأشد والأنكى :

« وودوا لو تكفرون » . .

وهذه عند المؤمن أشد من كل أذى ومن كل سوء يصيبه باليد أو اللسان . فالذى يود له أن يخسر هذا الكنز العزيز . كنز الإيمان . ويرتد إلى الكفر ، هو أعدى من كل عدو يؤذيه باليد وباللسان !

والذى يذوق حلاوة الإيمان بعد الكفر ، ويهتدى بنوره بعد الضلال ، ويعيش عيشة المؤمن بتصوراته ومداركه ومشاعره واستقامة طريقه وطمأنينة قلبه يكره العودة إلى الكفر كما يكره

Marfat.com

أن يلقى فى النار . أو أشد . فعدو الله هو الذى يود أن يرجعه إلى جحيم الكفر وقد خرج منه إلى جنة الإيمان ، وإلى فراغ الكفر الخاوى بعد عالم الإيمان المعمور .

لهذا يتدرج القرآن فى تهييج قلوب المؤمنين ضد أعدائه وأعدائهم حتى يصل إلى قمته بقولهم عنهم : « وودوا لو تكفرون » ..

* * *

هذه هى الجولة الأولى بلمساتها المتعددة . ثم تليها جولة ثانية بلمسة واحدة تعالج مشاعر القرابة ووشائجها المتأصلة ؛ والتى تشتجر فى القلوب فتجرها جرا إلى المودة ؛ وتنسيها تكاليف التميز بالعقيدة :

« لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم . يوم القيامة يفصل بينكم . والله بما تعملون بصير » ..

إن المؤمن يعمل ويرجو الآخرة يزرع هنا وينتظر الحصاد هناك . فلمسة قلبه بما يكون فى الآخرة من تقطيع وشائج القربى كلها إذا تقطعت وشيجة العقيدة ، من شأنها أن تهون عنده شأن هذه الوشائج فى فترة الحياة الدنيا القصيرة ؛ وتوجهه إلى طلب الوشيجة الدائمة التى لا تنقطع فى دنيا ولا فى آخرة .

ومن ثم يقول لهم : « لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم » .. التى تهفون إليها وتتعلق قلوبكم بها ؛ وتضطركم إلى موادة أعداء الله وأعدائكم وقاية لها ـ كما حدث لحاطب فى حرصه على أولاده وأمواله ـ وكما تجيش خواطر آخرين غيره حول أرحامهم وأولادهم الذين خلفوهم فى دار الهجرة . لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم . ذلك أنه « يوم القيامة يفصل بينكم » .. لأن العروة التى تربطكم مقطوعة . وهى العروة التى لا رباط بغيرها عند الله .

« والله بما تعملون بصير » .. مطلع على العمل الظاهر والنية وراءه فى الضمير .

* * *

ثم تأتى الجولة الثالثة فتصل المسلمين بأول هذه الأمة الواحدة : أمة التوحيد . وهذه القافلة الواحدة : قافلة الإيمان . فإذا هى ممتدة فى الزمان ، متميزة بالإيمان ، متبرئة من كل وشيجة تنافى وشيجة العقيدة .. إنها الأمة الممتدة منذ إبراهيم . أبيهم الأول وصاحب الحنيفية الأولى . وفيه أسوة لا فى العقيدة وحدها ، بل كذلك فى السيرة ، وفى التجارب التى عاناها مع عاطفة القرابة ووشائجها ؛ ثم خلص منها هو ومن آمن معه ، وتجرد لعقيدته وحدها :

Marfat.com

« قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه ؛ إذ قالوا لقومهم : إنا برآءمنكم ، ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده . إلاقول إبراهيم لأبيه ، لأستغفرن لك ، وماأملك لك من الله من شىء . ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير . ربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا ، واغفر لنا ربنا ، إنك أنت العزيز الحكيم .. لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد » ..

وينظر المسلم فإذا له نسب عريق ، وماض طويل ، وأسوة ممتدة على آماد الزمان . وإذا هو راجع إلى إبراهيم . لافى عقيدته فحسب ، بل فى تجاربه التى عاناها كذلك . فيشعرأن لهرصيدا من التجارب أكبر من رصيده الشخصى وأكبر من رصيد جيله الذى يعيش فيه . إن هذه القافلة الممتدة فى شعاب الزمان من المؤمنين بدين الله ، الواقفين تحت راية الله ، قد مرت بمثل مايمر به ، وقد انتهت فى تجربتها إلى قرار اتخذته . فليس الأمر جديدا ولامبتدعا ولاشاقا يشق على المؤمنين .. ثم إن له لأمة طويلة عريضة يلتقى معها فى العقيدة ويرجع إليها ؛ إذاانبتت الروابط بينهوبين أعداء عقيدته.فهوفرع من شجرة ضخمة باسقة عميقة الجذور كثيرة الفروع وارفة الظلال . . الشجرة التى غرسها أول المسلمين .. إبراهيم ..

مر إبراهيم والذين معه بالتجربة التى يعانيها المسلمون المهاجرون . وفيهم أسوة حسنة : « إذ قالوا لقومهم : إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده » ..

فهى البراءة من القوم ومعبوداتهم وعباداتهم. وهو الكفر بهم والإيمان بالله. وهىالعداوة والبغضاء لاتنقطع حتى يؤمن القوم بالله وحده . وهى المفاصلة الحاسمة الجازمة التى لاتستبقى شيئا من الوشائج والأواصر بعد انقطاعوشيجة العقيدة وآصرة الإيمان . وفى هذا فصلالخطاب فى مثل هذه التجربة التى يمر بها المؤمن فى أى جيل . وفى قرار إبراهيم والذين معه أسوة لخلفائهم من المسلمين إلى يوم الدين .

ولقد كان بعض المسلمين يجد فى استغفار إبراهيم لأبيه ـ وهو مشرك ـ ثغرة تنفذ منها عواطفهم الحبيسة ومشاعرهم الموصولة بذوى قرباهم من المشركين . فجاء القرآن ليشرح لهم حقيقة موقف إبراهيم فى قوله لأبيه : « لأستغفرن لك » ..

Marfat.com

فلقد قال هذا قبل أن يستيقن من إصرار أبيه على الشرك . قاله وهو يرجو إيمانه ويتوقعه: « فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه » . . كما جاء فى سورة أخرى .

ويثبت هنا أن إبراهيم فوض الأمر كله لله ، وتوجه إليه بالتوكل والإنابة والرجوع إليه على كل حال :

« وما أملك لك من الله من شىء . ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير » . .

وهذا التسليم المطلق لله ، هو السمة الإيمانية الواضحة فى إبراهيم يبرزها هنا ليوجه إليها قلوب أبنائه المسلمين . كحلقة من حلقات التربية والتوجيه بالقصص والتعقيب عليه ، وإبراز مافى ثناياه من ملامح وسمات وتوجيهات على طريقة القرآن الكريم (١) .

ويستطرد لهذا فى إثبات بقية دعاء إبراهيم ونجواه لمولاه :

« ربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا » . .

فلاتسلطهم علينا . فيكون فى ذلك فتنة لهم ، إذ يقولون : لوكان الإيمان يحمى أهله ماسلطنا عليهم وقهرناهم ! وهى الشبهة التى كثيرا ماتحيك فى الصدور ، حين يتمكن الباطل من الحق ، ويتسلط الطغاة على أهل الإيمان ـ لحكمة يعلمها الله ـ فى فترة من الفترات . والمؤمن يصبر للابتلاء ، ولكن هذا لايمنعه أن يدعو الله ألايصيبه البلاء الذى يجعله فتنة وشبهة تحيك فى الصدور .

وبقية الدعاء :

« واغفرلنا » . .

يقولها إبراهيم خليل الرحمان . إدراكا منه لمستوى العبادة التى يستحقها منه ربه ، وعجزه ببشريته عن بلوغ المستوى الذى يكافىء به نعم الله وآلاءه ، ويمجد جلاله وكبرياءه فيطلب المغفرة من ربه ، ليكون فى شعوره وفى طلبه أسوة لمن معه ولمن يأتى بعده .

ويختم دعاءه وإنابته واستغفاره بصف ربه بصفته المناسبة لهذا الدعاء :

« ربنا إنك أنت العزيز الحكيم » . .

العزيز : القادر على الفعل ، الحكيم : فيما يمضى من تدبير .

وفى نهاية هذا العرض لموقف إبراهيم والذين معه ، وفى استسلام إبراهيم وإنابته يعود فيقرر الأسوة ويكررها ؛ مع لمسة جديدة لقلوب المؤمنين :

(١) يراجع فصل : القصة فى القرآن فى كتاب : التصوير الفنى فى القرآن .

Marfat.com

« لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد » . .

فالأسوة فى إبراهيم والذين معه متحققة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . هؤلاء هم الذين يدركون قيمة التجربة التى عاناها هذا الرهط الكريم، ويجدون فيها أسوة تتبع، وسابقة تهدى. لمن كان يرجو الله واليوم الآخر فليتخذ منها أسوة . . وهو تلميح موح للحاضرين من المؤمنين .

فأما من يريد أن يتولى عن هذا المنهج . من يريد أن يحيد عن طريق القافلة . من يريد أن ينسلخ من هذا النسب العريق . فما بالله من حاجة إليه ـ سبحانه ـ « فإن الله هو الغنى الحميد » . .

وتنتهى الجولة وقد عاد المؤمنون أدراجهم إلى أوائل تاريخهم المديد ، ورجعوا بذكرياتهم إلى نشأتهم فى الأرض ؛ وعرفوا تجاربهم المذخورة لهم فى الأجيال المتطاولة ، ورأوا القرار الذى انتهى إليه من مروا بهذه التجربة ؛ ووجدوها طريقا ممهدة من قبل ليسوا هم أول السالكين فيها .

والقرآن الكريم يؤكد هذا التصور ويكرره ليتصل ركب المؤمنين ، فلا يشعر بالغربة أو الوحشة سالك ـ ولو كان وحده فى جيل ! ولا يجد مشقة فى تكليف نهض به السالكون معه فى الطريق !

* * *

بعدئذ يعود فينسم على هذه القلوب التى يعلم الله ما بها من حنين ورغبة فى زوال حالة العداء والجفوة التى تكلفهم هذه المشقة . ينسم عليها بنسمة الأمل الندية فى أن ينضم هؤلاء الأعداء إلى راية الإسلام ، وإلى صفوف المسلمين ؛ فيكون هذا هو الطريق لزوال الجفوة وقيام الود على أساسه الركين . . ثم يخفف عنهم مرة أخرى ـ وهو يضع القاعدة الإسلامية الكبرى فى العلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم، فيجعل المقاطعة والخصومة خاصة بحالة العداء والعدوان . فأما حين ينتفى العداء والعدوان فهو البر لمن يستحق البر ، وهو القسط فى المعاملة والعدل :

« عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ، والله قدير والله غفور رحيم . لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم .

Marfat.com

إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم . ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » . .

إن الإسلام دين سلام ، وعقيدة حب ، ونظام يستهدف أن يظلل العالم كله بظله ، وأن يقيم فيه منهجه ، وأن يجمع الناس تحت لواء الله إخوة متعارفين متحابين . وليس هنالك من عائق يحول دون اتجاهه هذا إلا عدوان أعدائه عليه وعلى أهله . فأما إذا سالموهم فليس الإسلام براغب فى الخصومة ولا متطوع بها كذلك ! وهو حتى فى حالة الخصومة يستبقى أسباب الود فى النفوس بنظافة السلوك وعدالة المعاملة ، انتظارا لليوم الذى يقتنع فيه خصومه بأن الخير فى أن ينضووا تحت لوائه الرفيع . ولا ييأس الإسلام من هذا اليوم الذى تستقيم فيه النفوس ، فتتجه هذا الاتجاه المستقيم .

وفى الآية الأولى من هذا المقطع إشارة إلى هذا الرجاء الذى لايغلب عليه اليأس ؛ فى معرض التخفيف على نفوس بعض المهاجرين ، وتغذية قلوبهم المتعبة بمشقة المقاطعة والحرب للأهل والعشيرة :

« عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة » . .

وهذا الرجاء من الله ، معناه القطع بتحققه . والمؤمنون الذين سمعوه لابد قد أيقنوا به . ولقد وقع بعد هذا بوقت قصير أن فتحت مكة ، وأن أسلمت قريش ، وأن وقف الجميع تحت لواء واحد ، وأن طويت الثارات والمواجد ، وأن عاد الجميع إخوة مؤتلفى القلوب .

« والله قدير » . . يفعل مايريد بلا معقب .

« والله غفور رحيم » . . يغفر ماسلف من الشرك والذنوب . .

وإلى أن يتحقق وعد الله الذى دل عليه لفظ الرجاء رخص الله لهم فى موادة من لم يقاتلوهم فى الدين ولم يخرجوهم من ديارهم . ورفع عنهم الحرج فى أن يبروهم ، وأن يحققوا العدل فى معاملاتهم معهم فلا يبخسونهم من حقوقهم شيئا . ولكنه نهى أشد النهى عن الولاء لمن قاتلوهم فى الدين وأخرجوهم من ديارهم وساعدوا على إخراجهم . وحكم على الذين يتولونهم بأنهم هم الظالمون . . ومن معانى الظلم الشرك بالرجوع إلى قوله تعالى : « إن الشرك لظلم عظيم » . . وهو تهديد رهيب يجزع منه المؤمن ، ويتقى أن يدخل فى مدلوله المخيف !

وتلك القاعدة فى معاملة غير المسلمين هى أعدل القواعد التى تتفق مع طبيعة هذا الدين

Marfat.com

ووجهنه ونظرته إلى الحياة الإنسانية، بل نظرته الكلية لهذا الوجود ، الصادر عن إله واحد ، المتجه إلى إله واحد ، المتعاون فى تصميمه اللدنى وتقديره الأزلى ، من وراء كل اختلاف وتنويع (١) .

وهى أساس شريعته الدولية ،التى تجعل حالة السلم بينه وبين الناس جميعا هى الحالة الثابتة، لايغيرها إلاوقوع الاعتداء الحربى وضرورة رده ، أوخوف الخيانة بعد المعاهدة ، وهى تهديد بالاعتداء ؛ أوالوقوف بالقوة فى وجه حرية الدعوة وحرية الاعتقاد . وهو كذلك اعتداء . وفيما عدا هذا فهى السلم والمودة والبر والعدل للناس أجمعين (٢) .

ثم هى القاعدة التى تتفق مع التصور الإسلامى الذى يجعل القضية بين المؤمنين ومخالفيهم هى قضية هذه العقيدة دون غيرها ؛ ويجعل القيمة التى يضن بها المؤمن ويقاتل دونها هى قضية العقيدة وحدها . فليس بينهم وبين الناس مايتخاصمون عليه ويتقاتلون إلاحرية الدعوة وحرية الاعتقاد ،وتحقيق منهج الله فى الأرض ، وإعلاء كلمة الله .

وهذا التوجيه يتفق مع اتجاه السورة كلها إلى إبراز قيمة العقيدة ، وجعلها هى الراية الوحيدة التى يقف تحتها المسلمون. فمن وقف معهم تحتها فهو منهم، ومن قاتلهم فيها فهو عدوهم . ومن سالمهم فتركهم لعقيدتهم ودعوتهم ، ولم يصد الناس عنها ، ولم يحل بينهم وبين سماعها ، ولم يفتن المؤمنين بها ، فهو مسالم لايمنع الإسلام من البر به والقسط معه .

إن المسلم يعيش فى هذه الأرض لعقيدته ، ويجعلها قضيته مع نفسه ومع الناس من حوله. فلا حصومة على مصلحة ، ولا جهاد فى عصبية ـ أى عصبية ـ من جنس أوأرض أوعشيرة أونسب. إنما الجهاد لتكون كلمة الله هى العليا ، ولتكون عقيدته هى المنهج المطبق فى الحياة .

ولقد نزلت بعد ذلك سورة التوبة وفيها « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين .. الخ » .. فانتهت بهذا حالة المعاهدة والموادعة بين المسلمين والمشركين كافة . بعد مهلة أربعة أشهر لأصحاب المعاهدات غير المسماة الأجل، ومهلة إلى انتهاء الأجل لأصحاب المعاهدات المسماة . ولكن هذا إنما كان بعد ماأثبتت التجارب أن القوم لايرعون عهودهم مع المسلمين إلاريثما تسنح لهم الفرصة لنقضها وهم الرابحون ؛ فانطبقت القاعدة الأخرى : « وإماتخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لايحب الخائنين » .. وكان هذا ضرورة لتأمين القاعدة

(١) يراجع فصل : طبيعة السلام فى الإسلام : فى كتاب : السلام العالمى والإسلام .
(٢) يراجع فصل : سلام العالم فى كتاب السلام العالمى والإسلام .

Marfat.com

الإسلامية ـ وهى حينئذ شبه الجزيرة كلها ـ من المتربصين بالمسلمين من أعدائهم المعايشين لهم من المشركين وأهل الكتاب الذين تكررت غدراتهم ونقضهم للعهود . وهى حالة اعتداء فى صميمها . تنطبق عليها حالة الاعتداء . وبخاصة أن الامبراطوريتين المحيطتين بأرض الإسلام قد بدأتا تجمعان له وتشعران بخطره، وتؤلبان عليه الإمارات العربية المتاخمة الخاضعة للدولتين الرومانيةوالفارسية . فلم يبق بد من تطهير المعسكر الإسلامى من بقية أعدائه قبل الالتحام فى المعارك الخارجية المتوقعة يومذاك .

ونكتفى بهذا القدر من الاستطراد لنعود إلى سياق السورة فى حكم المؤمنات المهاجرات : « ياأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمناتمهاجرات فامتحنوهن ، الله أعلم بإيمانهن،فإن علمتموهن مؤمنات فلاترجعوهن إلى الكفار ، لاهن حل لهم ولاهم يحلون لهن ، وآتوهم ماأنفقوا ، ولاجناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ؛ ولاتمسكوا بعصم الكوافر ، واسألوا ماأنفقتم وليسألوا ماأنفقوا . ذلكم حكم الله يحكم بينكم ، والله عليم حكيم . وإن فاتكم شىء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » ..

وقد ورد فى سبب نزول هذه الأحكام أنه كان بعد صلح الحديبية الذى جاء فيه : « على ألا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا » .. فلما كان الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه بأسفل الحديبية جاءته نساء مؤمنات يطلبن الهجرة والانضمام إلى دار الإسلام فى المدينة، وجاءت قريش تطلب ردهن تنفيذا للمعاهدة . ويظهر أن النص لم يكن قاطعا فى موضوع النساء ، فنزلت هاتان الآيتان تمنعان رد المهاجرات المؤمنات إلى الكفار ، يُفتَنّ فى دينهن وهن ضعاف.

ونزلت أحكام هذه الحالة الدولية معها ، تنظم التعامل فيها على أعدل قاعدة تتحرى العدل فى ذاته دون تأثر بسلوك الفريق الآخر ، ومافيها من شطط وجور . على طريقة الإسلام فى كل معاملاته الداخلية والدولية .

وأول إجراء هو امتحان هؤلاء المهاجرات لتحرى سبب الهجرة ، فلا يكون تخلصا من زواج مكروه ، ولاطلبا لمنفعة ، ولاجريا وراء حب فردى فى دار الإسلام !

قال ابن عباس : كان يمتحنهن : بالله ماخرجت من بغض زوج ، وبالله ماخرجت رغبة عن أرض إلى أرض ، وبالله ماخرجت التماس دنيا ، وبالله ماخرجت إلا حبا لله ورسوله .

Marfat.com

وقال عكرمة : يقال لها : ماجاءبك إلاحب الله ورسوله ، وماجاءبك عشق رجل منا ، ولافرارا من زوجك .

وهذا هو الامتحان . . وهو يعتمد على ظاهر حالهـن واقرارهن مع الحلف بالله . فأما خفايا الصدور فأمرها إلى الله ، لاسبيل للبشر إليها : « الله أعلم بإيمانهن . . فإذا ما أقررن هـكذا « فلا ترجعوهن إلى الـكفار » . .

« لاهن حل لهم ولا هم يحلون لهن » . .

فقد انبتت الوشيجة الأولى . . وشيجة العقيدة . . فلم تعد هناك وشيجة أخرى يمـكن أن تصل هذه القطيعة . والزوجية حالة امتزاج واندماج واستقرار ، لايمـكن أن تقوم إذا انقطعت هذه الوشيجة الأولى . والإيمان هو قوام حياة القلب الذى لاتقوم مقامه عاطفة أخرى ، فإذا خوى منه قلب لم يستطع قلب مؤمن أن يتجاوب معه ، ولا أن يأنس به ، ولا أن يواده ولا أن يسكن إليه ويطمئن فى جواره . والزواج مودة ورحمة وأنس وسكن .

وكان الأمر فى أول الهجرة متروكا بغير نص ، فلم يـكن يفرق بين الزوجة المؤمنة والزوج الـكافر ؛ ولا بين الزوج المؤمن والزوجة الـكافرة ، لأن المجتمع الإسلامى لم يكن قد استقرت قواعده بعد. فأما بعد صلح الحديبية ـ أو فتح الحديبية كما يعتبره كثير من الرواة ـ فقد آن أن تقع المفاصلة الـكاملة ؛ وأن يستقر فى ضمير المؤمنين والمؤمنات ، كما يستقر فى واقعهم ، أن لارابطة إلا رابطـة الإيمان ، وأن لا وشيجـة إلا وشيجة العقيـدة ، وأن لا ارتباط إلا بين الذين يرتبطون بالله .

ومع إجراء التفريق إجراء التعويض ـ على مقتضى العدل والمساواة ـ فيرد على الزوج الـكافر قيمة ما أنفق من المهر على زوجته المؤمنة التى فارقته تعويضا للضرر . كما يرد على الزوج المؤمن قيمة ما أنفق من المهر على زوجته الـكافرة التى يطلقها من عصمته .

وبعد ذلك يحل للمؤمنين نـكاح المؤمنات المهاجرات متى آتوهن مهورهن . . مع خلاف فقهى : هل لهن عـدة ، أم لاعدة إلا للحوامل حتى يضعهن حملهن ؟ وإذا كانت لهن عـدة فهل هى عدة المطلقات . . . ثلاثة قروء . . أم هى عدة استبراء للرحم بحيضة واحدة ؟

« وآتوهن ماأنفقوا ، ولا جناح عليـكم أن تنـكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن . ولا تمسكوا بعصم الـكوافر ، واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا »

Marfat.com

ثم يربط هذه الأحكام كلها بالضمانة الكبرى فى ضمير المؤمن . ضمانة الرقابة الإلهية وخشية الله وتقواه :

« ذلكم حكم الله يحكم بينكم ، والله عليم حكيم » ..

وهى الضمانة الوحيدة التى يؤمن عليها من النقض والالتواء والاحتيال . فحكم الله ، هو حكم العليم الحكيم . وهو حكم المطلع على ذوات الصدور . وهو حكم القوى القدير . ويكفى أن يستشعر ضمير المسلم هذه الصلة ، ويدرك مصدر الحكم ليستقيم عليه ويرعاه . وهو يوقن أن مرده إلى الله .

فإذا فات المؤمنين شىء مما أنفقوا ، بامتناع الكوافر أو أهليهن من رد حق الزوج المؤمن ـ كما حدث فى بعض الحالات ـ عوضهم الإمام مما يكون للكافرين الذين هاجرت زوجاتهم من حقوق على زوجاتهم فى دار الإسلام ، أو مما يقع من مال الكفار غنيمة فى أيدى المسلمين :

« وإن فاتكم شىء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا » ويربط هذا الحكم وتطبيقاته كذلك بالضمان الذى يتعلق به كل حكم وكل تطبيق :

« واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » ..

وهى لمسة للمؤمنين بالله عميقة الأثر فى القلوب . .

وهكذا تكون تلك الأحكام بالمفاصلة بين الأزواج تطبيقا واقعيا للتصور الإسلامى عن قيم الحياة وارتباطاتها ؛ وعن وحدة الصف الإسلامى وتميزه من سائر الصفوف ؛ وعن إقامة الحياة كلها على أساس العقيدة ، وربطها كلها بمحور الإيمان ؛ وإنشاء عالم إنسانى تذوب فيه فوارق الجنس واللون واللغة والنسب والأرض . وتبقى شارة واحدة تميز الناس .. شارة الحزب الذى ينتمون إليه .. وهما حزبان اثنان : حزب الله وحزب الشيطان ..

* * *

ثم بين لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كيف يبايعهن على الإيمان ، هن وغيرهن ممن يردن الدخول فى الإسلام . وعلى أى الأسس يبايعهن :

« ياأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصينك فى معروف ، فبايعهن ، واستغفر لهن الله ، إن الله غفور رحيم » ..

Marfat.com

وهذه الأسس هى المقومات الكبرى للعقيدة ،كما أنها مقومات الحياة الاجتماعية الجديدة..

إنهاعدم الشرك بالله إطلاقا .. وعدم إتيان الحدود .. السرقة والزنا.. وعدم قتل الأولاد. إشارة إلى ما كان يجرى فى الجاهليـة من وأد البنات ، كما أنه يشمل قتل الأجنـة لسبب من الأسباب . . وهن أمينات على ما فى بطونهـن . . « ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهـن وأرجلهن » . .قال ابن عباس : يعنى لايلحقن بأزواجهن غير أولادهن . وكذلك قال مقاتل . ولعل هذا التحفظ ـ بعد المبايعة على عدم الزنا ـ كان للحالات الواقعة فى الجاهلية من أن تبيح المرأة نفسها لعـدة رجال ، فإذا جاءت بولد ، نظرت أيهم أقرب به شبها فألحقته به ، وربمـا اختارت هى أحسنهم فألحقت به ابنها وهى تعلم من هو أبوه !

وعموم اللفظ يشمل هذه الحالة وغيرها من كل بهتـان مزور يُدّعى . ولعل ابن عباس ومقاتل خصصاه بذلك المعنى لمناسبة واقعة وقتذاك .

والشرط الأخـير : « ولا يعصينك فى معروف » . . وهو يشمل الوعد بطاعة الرسـول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى كل ما يأمرهن به . وهو لايأمر إلا بمعروف . ولـكن هذا الشرط هو أحد قواعد الدستور فى الإسلام ، وهو يقرر أن لا طاعة على الرعية لإمام أو حاكم إلا فى المعروف الذى يتفق مع دين الله وشريعته . وأنها ليست طاعـة مطلقة لولى الأمر فى كل أمر ! وهى القاعدة التى تجعـل قوة التشريع والأمر مستمدة من شريعة الله ، لامن إرادة إمام ولا من إرادة أمـة إذا خالفت شريعة الله . فالإمام والأمـة كلاهما محكوم بشريعة الله ، ومنهـا يستمدان السلطات !

فإذا بايعن على هذه الأسس الشاملة قبلت بيعتهن . واستغفر لهن الرسـول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عما سلف « إن الله غفور رحيم » . . يغفر ويرحم ويقيل العثرات

* * *

وفى الختام يجىء هذا الإيقاع العام :

« ياأيها الذين آمنوا لاتتولوا قوما غضب الله عليهم ، قد يئسوا من الآخرة كما يئس الـكفار من أصحاب القبور » .

يجىء هتافا للذين آمنوا باسم الإيمـان ، وبالصفة التى عيزهم عن سائر الأقوام ، إذ تصلهم بالله وتفصلهم عن أعداء الله .

Marfat.com

وقد وردت بعض الروايات بأن المقصود بالقوم الذين غضب الله عليهم هم اليهود . استنادا إلى دمغهم بهذه الصفة فى مواضع أخـرى من القرآن . ولـكن هذا لايمنع من عموم النص ليشمل اليهود والمشركين الذين ورد ذكرهم فى السورة ، وكل أعداء الله . وكلهم غضب عليه الله . وكلهم يائس من الآخرة ، لايعلق بهـا رجاء ، ولا يحسب لها حسابا كيأس الـكفار من الموتى ـ أصحاب القبور ـ لاعتقادهم أن أمرهم انتهى ، وما عاد لهم من بعث ولا حساب .

وهو هتاف يتجمع من كل إيقاعات السورة واتجاهاتها . فتختم به كما بدأت بمثله . ليـكون هو الإيقاع الأخير . الذى تترك السورة أصداءه فى القلوب . .

Marfat.com

سورة الصّف مدنيّة
وآياتها ١٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ ٱللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ * إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ .

« وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ : يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ؟ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ، وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ .

« وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ، مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ ، وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُ أَحْمَدُ ؛ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ قَالُوا : هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ .

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى ٱلْإِسْلَامِ ؟ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ، وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ * هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ ، وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ؟ * تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ

Marfat.com

إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ . ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا : نَصْرٌ مِنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ، وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

«يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى ٱللَّهِ ؟ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ : نَحْنُ أَنْصَارُ ٱللَّهِ . فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ، فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ ، فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ »⑭

هذه السورة تستهدف أمرين أساسيين واضحين فى سياقها كل الوضوح ، إلى جانب الإشارات والتلميحات الفرعية التى يمكن إرجاعها إلى ذينك الأمرين الأساسيين :

تستهدف أولا أن تقرر فى ضمير المسلم أن دينه هو المنهج الإلهى للبشرية فى صورته الأخيرة ، سبقته صور منه تناسب أطوارا معينة فى تاريخ البشرية ، وسبقته تجارب فى حياة الرسل وحياة الجماعات ، تمهد كلها لهذه الصورة الأخيرة من الدين الواحد ، الذى أراد الله أن يكون خاتمة الرسالات ، وأن يظهره على الدين كله فى الأرض ..

ومن ثم يذكر رسالة موسى ليقرر أن قومه الذين أرسل إليهم آذوه وانحرفوا عن رسالته فضلوا ، ولم يعودوا أمناء على دين الله فى الأرض : « وإذ قال موسى لقومه : ياقوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم . فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، والله لايهدى القوم الفاسقين » .. وإذن فقد انتهت قوامة قوم موسى على دين الله ؛ فلم يعودوا أمناء عليه ، مذ زاغوا فأزاغ الله قلوبهم ، ومذ ضلوا فأضلهم الله والله لايهدى القوم الفاسقين .

ويذكر رسالة عيسى ليقرر أنه جاء امتدادا لرسالة موسى ، ومصدقا لما بين يديه من التوراة ، وممهدا للرسالة الأخيرة ومبشرا برسولها ؛ ووصلة بين الدين الكتابى الأول والدين الكتابى الأخير : « وإذ قال عيسى ابن مريم : يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم ، مصدقا لما بين يدى من التوراة ، ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » .. وإذن فقد جاء ليسلم أمانة الدين الإلهى التى حملها بعد موسى إلى الرسول الذى يبشر به .

Marfat.com

وكان مقررا فى علم الله وتقديره أن تنتهى هذه الخطوات إلى قرار ثابت دائم ، وأن يستقر دين الله فى الأرض فى صورته الأخيرة على يدى رسوله الأخير: « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » ..

هذا الهدف الأول الواضح فى السورة يقوم عليه الهدف الثانى . فإن شعور المسلم بهذه الحقيقة، وإدراكه لقصة العقيدة ، ولنصيبه هو من أمانتها فى الأرض .. يستتبع شعوره بتكاليف هذه الأمانة شعورا يدفعه إلى صدق النية فى الجهاد لإظهار دينه على الدين كله ـ كما أراد الله ـ وعدم التردد بين القول والفعل ؛ ويقبح أن يعلن المؤمن الرغبة فى الجهاد ثم ينكص عنه ، كما يبدو أنه حدث من فريق من المسلمين كما تذكر الروايات . . ومن ثم يجىء فى مطلع السورة بعد إعلان تسبيح الكون ومافيه لله . . « ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالاتفعلون ؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالاتفعلون . إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » .

ثم يدعوهم فى وسط السورة إلى أربح تجارة فى الدنيا والآخرة : « ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم. وأخرى تحبونها : نصر من الله وفتح قريب ، وبشر المؤمنين » .

ثم يختم السورة بنداء أخير للذين آمنوا ، ليكونوا أنصار الله كما كان الحواريون أصحاب عيسى أنصاره إلى الله ، على الرغم من تكذيب بنى إسرائيل به وعدائهم له : « ياأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين: من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون: نحن أنصار الله . فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة ، فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » ..

هذان الخطان واضحان فى السورة كل الوضوح ، يستغرقان كل نصوصها تقريبا . فلا يبقى إلا التنديد بالمكذبين بالرسالة الأخيرة ـ وهذه قصتها وهذه غايتها ـ وهذا التنديد متصل دائما بالخطين الأساسيين فيها . وذلك قول الله تعالى ، عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد ذكر تبشير عيسى ـ عليه السلام ـ به : « فلما جاءهم بالبينات قالوا : هذا سحر مبين . ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام ؟ والله لايهدى القوم الظالمين. يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ، ولو كره الكافرون » ..

Marfat.com

وفيه يتضح فى ضمير المسلم أن دينه هو دين الله فى صورته الأخيرة فى الأرض ؛ وأن أمانة العقيدة فى البشرية كلها موكولة إليه ؛ يعلم أنه مكلف أن يجاهد فى سبيل الله ، كما يحب الله ؛ ويتضح طريقه ، فلا يبقى فى تصوره غبش ، ولا يبقى فى حياته مجال للتمتمة والغمغمة فى هـذه القضية ، أو للتردد والتلفت عن الهدف المرسوم والنصيب المقسوم فى عـلم الله وتقديره منذ بعيد .

وفى أثناء توجيهه إلى هذا الهدف الواضح يوجه كذلك إلى خلق المسلم وطبيعة ضميره . وهو أن لا يقول مالا يفعل ، وألا يختلف له قول وفعل ، ولا ظاهر وباطن ، ولا سريرة وعلانية . وأن يكون هو نفسه فى كل حال . متجردا لله . خالصا لدعوته . صريحا فى قوله وفعله . ثابت الخطو فى طريقه . متضامنا مع إخوانه . كالبنيان المرصوص ..

* * *

« سبح لله مافى السماوات ومافى الأرض وهو العزيز الحـكيم » . .

تجىء هـذه التسبيحة من الوجود كله لله العزيز الحـكيم ، فى مطلع السورة التى تعلن للمسلمين أن دينهم هو الحلقة الأخيرة فى دين الله ؛ وأنهم هم الأمناء على هذا الدين الذى يوحد الله ، وينكر على الـكافرين المشركين كفرهم وشركهم ، والذى يدعوهم للجهاد لنصرته ، وقد قدر الله أن يظهره على الدين كله ولو كره المشركون . فيوحى هذا المطلع أن الأمانة التى يقوم عليها المسلمون هى أمانة الوجود كله ؛ وأن العقيدة التى يطلب إليهم الجهـاد فيهـا هى عقيدة كل ما فى السماوات وما فى الأرض ؛ وأن ظهور هذا الدين على الدين كله ، هو ظاهرة كونية تتسق مع اتجاه الـكون كله إلى الله العزيز الحـكيم .

* * *

ثم يعاتب الله الذين آمنوا عتابا شـديدا على أمر حدث من طائفة منهم . أمر يـكرهه الله أشد الـكره ، ويمقته أكبر المقت ، ويستفظعه من الذين آمنوا على وجه الخصوص :

« ياأيهـا الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون . إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا ، كأنهم بنيان مرصوص » . .

قال على ابن طلحة عن ابن عبـاس قال : كان ناس من المؤمنـين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : لوددنا أن الله عز وجل دلنا على أحب الأعمال إليـه ، فنعمل به ، فأخبر الله نبيه أن

Marfat.com

أحب الأعمال إيمان به لاشك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به . فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين ، وشق عليهم أمره ، فقال الله سبحانه وتعالى : « ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون. . . . » .. وقد اختار ابن جرير فى تفسيره هذا القول .

وقال ابن كثير فى تفسيره : « وحملوا الآية ـ يعنى الجمهور ـ على أنها نزلت حين تمنوا فريضة الجهاد عليهم ، فلما فرض نكل عنه بعضهم ، كقوله تعالى : « ألم تر إلى الذين قيل لهم : كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية . وقالوا : ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ! قل :متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا .أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم فى بروج مشيدة » . .

وقال قتادة والضحاك نزلت توبيخا لقوم كانوا يقولون : قتلنا . ضربنا . طعنا . وفعلنا ... ولم يكونوا فعلوا ذلك !

والراجح من سياق الآيات وذكر القتال أن مناسبة النزول هى التى عليها الجمهور وهى اختيار ابن جرير . ولكن النصوص القرآنية دائما أبعد مدى من الحوادث المفردة التى تنزل الآيات لمواجهتها، وأشمل لحالات كثيرة غير الحالة التى نزلت بسببها . ومن ثم فإننا نسير مع هذه النصوص إلى مدلولاتها العامة ، مع اعتبار الحادث الذى تذكره روايات النزول .

إنها تبدأ بعتاب على حادث وقع أو حوادث :

« ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ؟ »

وتثنى باستنكار لهذا الفعل وهذا الخلق فى صيغة تضخم هذا الاستنكار :

« كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون! » ..

والمقت الذى يكبر « عند الله » . . هو أكبر المقت وأشد البغض وأنكر النكر . . وهذا غاية التفظيع لأمر ، وبخاصة فى ضمير المؤمن ، الذى يُنادَى بإيمانه ، والذى يناديه ربه الذى آمن به .

والآية الثالثة تشير إلى الموضوع المباشر الذى قالوا فيه مالم يفعلوا . . وهو الجهاد . . وتقرر مايحبه الله فيه ويرضاه :

Marfat.com

« إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص »..

فليس هو مجرد القتال . ولكنه هو القتال فى سبيله .والقتال فى تضامن مع الجماعة المسلمة داخل الصف . والقتال فى ثبات وصمود « صفا كأنهم بنيان مرصوص » ..

* * *

إن القرآن ـ كما قلنا فى مناسبات متعددة فى هذا الجزء ـ كان يبنى أمة . كان يبنيها لتقوم على أمانة دينه فى الأرض ، ومنهجه فى الحياة ، ونظامه فى الناس . ولم يكن بد أن يبنى نفوسها أفرادا ويبنيها جماعة ، ويبنيها عملا واقعا . . كلها فى آن واحد . . فالمسلم لايبنى فردا إلا فى جماعة . ولا يتصور الإسلام قائما إلا فى محيط جماعة منظمة ذات ارتباط ، وذات نظام ، وذات هدف جماعى منوط فى الوقت ذاته بكل فرد فيها . هو إقامة هذا المنهج الإلهى فى الضمير وفى العمل مع إقامته فى الأرض . وهو لا يقوم فى الأرض إلا فى مجتمع يعيش ويتحرك ويعمل وينتج فى حدود ذلك المنهج الإلهى .

والإسلام على شدة ماعنى بالضمير الفردى وبالتبعة الفردية ـ ليس دين أفراد منعزلين ، كل واحد منهم يعبد الله فى صومعة . . إن هذا لا يحقق الإسلام فى ضمير الفرد ذاته ، ولا يحققه بطبيعة الحال فى حياته . ولم يجىء الإسلام لينعزل هذه العزلة . إنما جاء ليحكم حياة البشرية ويصرفها . ويهيمن على كل نشاط فردى وجماعى فى كل اتجاه . والبشرية لاتعيش أفرادا إنما تعيش جماعات وأمما . والإسلام جاء ليحكمها وهى كذلك . وهو مبنى على أساس أن البشر يعيشون هكذا . ومن ثم فإن آدابه وقواعده ونظمه كلها مصوغة على هذا الأساس . وحين يوجه اهتمامه إلى ضمير الفرد فهو يصوغ هذا الضمير على أساس أنه يعيش فى جماعة . وهو والجماعة التى يعيشون فيها يتجهون إلى الله ، ويقوم ـ فيها ـ على أمانة دينه فى الأرض ، ومنهجه فى الحياة ، ونظامه فى الناس ،

ومنذ اليوم الأول للدعوة قام مجتمع إسلامى ـ أو جماعة مسلمة ـ ذات قيادة مطاعة هى قيادة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذات التزامات جماعية بين أفرادها ، وذات كيان يميزها عن سائر الجماعات حولها ، وذات آداب تتعلق بضمير الإنسان مراعى فيها ـ فى الوقت ذاته ـ حياة هذه الجماعة . . وذلك كله قبل أن تقوم الدولة المسلمة فى المدينة . بل إن قيام تلك الجماعة كان هو وسيلة إقامة الدولة فى المدينة . .

* * *

Marfat.com

وننظر فى هذه الآيات الثلاث فنرى امتزاج الخلق الفردى بالحاجة الجماعية ، فى ظل العقيدة الدينية ، وطبيعتها التى تقتضى تحقيقها فى الحياة البشرية فى صورة نظام يقوم عليه من يحرسه ويتولاه .

إن الآيتين الأوليين تتضمنان العقاب من الله سبحانه والاستنكار لأن يقول الذين آمنوا ما لايفعلون ..

وهما بهذا ترسمان الجانب الأصيل فى شخصية المسلم .. الصدق . والاستقامة . وأن يكون باطنه كظاهره ، وأن يطابق فعله قوله .. إطلاقا .. وفى حدود أبعد مدى من موضوع القتال الذى يجىء فى الآية الثالثة .

وهذه السمة فى شخصية المسلم يدق القرآن عليها كثيرا ، وتتابعها السنة فى تكرار يزيدها توكيدا : يقول الله تعالى منددا باليهود : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب. أفلاتعقلون ؟ » .. ويقول تعالى منددا بالمنافقين : « ويقولون : طاعة . فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول » .. ويقول فيهم كذلك: «ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على مافى قلبه وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لايحب الفساد » . . ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان [1] ». والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة . ولعل الحديث الذى سنذكره هنا من أدق وألطف التوجيهات النبوية الكريمة فى هذا الاتجاه . . روى الإمام أحمد وأبو داود عن عبد الله ابن عامر ابن ربيعة قال : أتانا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنا صبى ، فذهبت لأخرج لألعب . فقالت أمى : ياعبد الله تعال أعطك. فقال لها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «وما أردت أن تعطيه؟» قالت : تمرا . فقال : « أما إنك لولم تفعلى كتبت عليك كذبة » . . ولعله استقاء من هذا النبع النبوى الطاهر الرائق امتنع الإمام أحمد ابن حنبل ـ رضى الله عنه ـ من الرواية من رجل سافر إليه مسافات شاسعة ليأخذ عنه حديثا . حينما وجده يضم حجره ويدعو بغلته يوهمها بطعام وحجره فارغ ! فتحرج أن يروى عنه ، وقد كذب على بغلته !

فهذا بناء أخلاقى دقيق نظيف لضمير المسلم وشخصيته التى تليق بمن يقوم أمينا على منهج

---

(١) رواه الشيخان والترمذى والنسائى عن أبى هريرة

Marfat.com

الله فى الأرض. وهو الأمر الذى تقرره هذه السورة. وهذه حلقة من حلقات التربية فى الجماعة المسلمة التى يعدها الله لتقوم على هذا الأمر .

فإذا جئنا للموضوع المباشر الذى كانت هذه الآيات تواجهه عند نزولها . . وهو موضوع الجهاد . . فإننا نقف أمام موضوعات شتى للحديث والملاحظة والعبرة .

نقف أولا أمام النفس البشرية التى تلم بها لحظات الضعف الطارئة، فلا يعصمها منها إلا عون الله ، وإلا التذكير الدائم ، والتوجيه الدائم ، والتربية الدائمة ..فهؤلاء جماعة من المسلمين قيل فى بعض الروايات : إنهم من المهاجرين الذين كانوا يتمنون أن يأذن الله لهم فى القتال وهم فى مكة من شدة الحماس والاندفاع . وكانوا يؤمرون بكف أيديهم وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة « فلما كتب عليهم القتال » فى المدينة فى الوقت المناسب الذى قدره الله « إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وقالوا : ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب! » ..أو هم جماعة من المسلمين فى المدينة كانوا يسألون عن أحب الأعمال إلى الله ليفعلوه فلما أمروا بالجهاد كرهوه !

وهذه الوقفة كفيلة بأن تفتح أعيننا على ضرورة الموالاة للنفس للبشرية بالتقوية والتثبيت والتوجيه ؛ وهى تواجه التكاليف الشاقة ، لتستقيم فى طريقها ، وتتغلب على لحظات ضعفها ، وتتطلع دائما إلى الأفق البعيد . كما تلهمنا أن نتواضع فى طلب التكاليف وتمنيها ونحن فى حالة العافية ! فلعلنا لا نقوى على ما نقترح على الله حين يكلفنا إياه ! وهؤلاء جماعة من المسلمين الأوائل يضعفون ويقولون مالا يفعلون،حتى يعاتبهم الله هذا العتاب الشديد ، وينكر عليهم هذا الإنكار المخيف !

ونقف ثانية أمام حب الله للذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص . . نقف أمام هذا الإغراء القوى العميق على القتال فى سبيل الله . . وأول مايسجل هنا أنه كان لمواجهة حالة تقاعس وتخلف وكراهية للقتال. ولكن هذا السبب الغريب فى الحادث المحدود لاينفى أن الحض عام ، وأن وراءه حكمة دائمة .

إن الإسلام لايتشهى القتال ،ولا يريده حبا فيه . ولكنه يفرضه لأن الواقع يحتمه ، ولأن الهدف الذى وراءه كبير . فالإسلام يواجه البشرية بالمنهج الإلهى فى صورته الأخيرة المستقرة . وهذا المنهج ـ ولو أنه يلبى الفطرة المستقيمة ـ إلا أنه يكلف النفوس جهدا لتسمو إلى مستواه،

Marfat.com

ولتستقر على هذا المستوى الرفيع . وهناك قوى كثيرة فى هذه الأرض لا تحب لهذا المنهج أن يستقر ، لأنه يسلبها كثيرا من الامتيازات ، التى تستند إلى قيم باطلة زائفة ، يحاربهاهذا المنهج ويقضى عليها حين يستقر فى حياة البشر . وهذه القوى تستغل ضعف النفوس عن البقاء فى المستوى الإيمانى وتكاليفه ، كما تستغل جهل العقول ، وموروثات الأجيال ، لتعارض هذا المنهج وتقف فى طريقه . والشر عارم . والباطل متبجح . والشيطان لئيم ! ومن ثم يتعين على حملة الإيمان وحراس المنهج أن يكونوا أقوياء ليغلبوا عملاء الشر وأعوان الشيطان . أقوياء فى أخلاقهم، وأقوياء فى قتال خصومهم على السواء. ويتعين عليهم أن يقاتلوا عندمايصبح القتال هو الأداة الوحيدة لضمان حرية الدعوة للمنهج الجديد ، وحرية الاعتقاد به ، وحرية العمل وفق نظامه المرسوم .

وهم يقاتلون فى سبيل الله . . لافى سبيل ذواتهم أو عصبيتهم من أى لون . .عصبية الجنس وعصبية الأرض وعصبية العشيرة وعصبية البيت . . . فى سبيل الله وحده ، لتكون كلمة الله هىالعليا . والرسول ـ صلىالله عليه وسلم ـ يقول : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » (١)

وكلمة الله هى التعبير عن إرادته . وإرادته الظاهرة لنا ـ نحن البشر ـ هى التى تتفق مع الناموس الذى يسير عليه الكون كله . الكون الذى يسبح بحمد ربه . ومنهج الله فىصورته الأخيرة التى جاء بها الإسلام هو الذى يتناسق معذلك الناموس ؛ ويجعل الكونكله ـ والناس من ضمنه ـ يحكمون بشريعة الله . لابشريعة يضعها سواه .

ولم يكن بد أن يقاومه أفراد ، وأن تقاومه طبقات، وأن تقاومهدول . ولم يكن بد كذلك أن يمضى الإسلام فى وجه هذه المقاومة ؛ ولم يكن بدأن يكتب الجهاد على المسلمين لنصرة هذا المنهج ، وتحقيق كلمة الله فى الأرض . ولهذا أحب الله ـ سبحانه ـ الذين يقاتلون فى سبيلهصفا كأنهم بنيان مرصوص (٢) .

وتقف ثالثا أمام الحالة التى يحب الله للمجاهدين أن يقاتلوا وهم عليها : « صفا كأنهم بنيان مرصوص » .. فهو تكليف فردى فى ذاته ، ولكنه فردى فى صورة جماعية . فى جماعةذات

---

(١) أخرجه الخمسة .

(٢) يراجع فصل سلام العالم فى كتاب : السلام العالمى والإسلام .

Marfat.com

نظام ذلك أن الذين يواجهون الإسلام يواجهونه بقوى جماعية ، ويؤلبون عليه تجمعات ضخمة ؛ فلا بد لجنود الإسلام أن يواجهوا أعداءه صفا . صفا سويا منتظما ، وصفا متينا راسخا ذلك إلى أن طبيعة هذا الدين حين يغلب ويهيمن أن يهيمن على جماعة ، وأن ينشىء مجتمعا متماسكا.. متناسقا فصورة الفرد المنعزل الذى يعبد وحده ، ويجاهد وحده ، ويعيش وحده ، صورة بعيدة عن طبيعة هذا الدين ،وعن مقتضياته فى حالة الجهاد، وفى حالة الهيمنة بعد ذلك على الحياة.

وهذه الصورة التى يحبها الله للمؤمنين ترسم لهم طبيعة دينهم ، وتوضح لهم معالم الطريق ، وتكشف لهم عن طبيعة التضامن الوثيق الذى يرسمه التعبير القرآنى المبدع : « صفا كأنهم بنيان مرصوص » . . بنيان تعاون لبناته وتضام وتماسك ، وتؤدى كل لبنة دورها ، وتسد ثغرتها ، لأن البنيان كله ينهار إذا تخلت منه لبنة عن مكانها . تقدمت أو تأخرت سواء. وإذا تخلت منه لبنة عن أن تمسك بأختها تحتها أوفوقها أوعلى جانبيها سواء .. إنه التعبير المصور للحقيقة لا لمجرد التشبيه العام . التعبير المصور لطبيعة الجماعة ، ولطبيعة ارتباطات الأفراد فى الجماعة . ارتباط الشعور ، وارتباط الحركة ، داخل النظام المرسوم ، المتجه إلى هدف مرسوم .

* * *

بعدئذ يذكر قصة هذا المنهج الإلهى ومراحلها فى الرسالات قبل الإسلام .

« وإذ قال موسى لقومه : ياقوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم ؟ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، والله لايهدى القوم الفاسقين .

« وإذ قال عيسى ابن مريم : يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » ..

وإيذاء بنى إسرائيل لموسى- وهو منقذهم من فرعون وملئه، ورسولهم وقائدهم ومعلمهم- إيذاء متطاول متعدد الألوان ، وجهاده فى تقويم اعوجاجهم جهاد مضن عسير شاق . ويذكر القرآن فى قصص بنى إسرائيل صورا شتى من ذلك الإيذاء ومن هذا العناء .

كانوا يتسخطون على موسى وهو يحاول مع فرعون إنقاذهم ، ويتعرض لبطشه وجبروته وهم آمنون بذلتهم له ! فكانوا يقولون له لائمين متبرمين : « أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا » ! كأنهم لايرون فى رسالته خيرا ، أو كأنما يحملونه تبعة هذا الأذى الأخير !

وما كاد ينقذهم من ذل فرعون باسم الله الواحد الذى أنقذهم من فرعون وأغرقه وهم

Marfat.com

ينظرون . . حتى مالوا إلى عبادة فرعون وقومه . . « حتى إذا أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة » . .

وما كاد يذهب لميقات ربه على الجبل ليتلقى الألواح ، حتى اضلهم السامرى : « فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا : هذا إلهكم وإله موسى فنسى ! » . .

ثم جعلوا يتسخطون على طعامهم فى الصحراء : المن والسلوى . فقالوا : « ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها » !

وفى حادث البقرة التى كلفوا ذبحها ظلوا يماحكون ويتململون ويسيئون الأدب مع نبيهم وربهم وهم يقولون : « ادع لنا ربك يبين لنا ماهى » . . « ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها » . . « ادع لنا ربك يبين لنا ماهى إن البقر تشابه علينا » . . « فذبحوها وما كادوا يفعلون » !

ثم طلبوا يوم عطلة مقدسا فلما كتب عليهم السبت اعتدوا فيه .

وأمام الأرض المقدسة التى بشرهم الله بدخولها وقفوا متخاذلين يصعرون خدهم فى الوقت ذاته لموسى « : قالوا ياموسى إن فيها قوما جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون » . . فلما كرر عليهم التحضيض والتشجيع تبجحوا وكفروا : «قالوا ياموسى إنالن ندخلها أبدا ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون» . .

ذلك إلى إعنات موسى بالأسئلة والاقتراحات والعصيان والتمرد ، والاتهام الشخصى بالباطل كما جاء فى بعض الأحاديث .

وتذكر الآية هنا قول موسى لهم فى عتاب ومودة :

« ياقوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم ؟ » . .

وهم كانوا يعلمون عن يقين . . إنما هى لهجة العتاب والتذكير .

وكانت النهاية أنهم زاغوا بعد مابذلت لهم كل أسباب الاستقامة ، فزادهم الله زيغا ،وأزاغ قلوبهم فلم تعد صالحة للهدى . وضلوا فكتب الله عليهم الضلال أبدا : « والله لايهدى القوم الفاسقين» . .

وبهذا انتهت قوامتهم على دين الله ، فلم يعودوا يصلحون لهذا الأمر ، وهم على هذا الزيغ والضلال .

Marfat.com

ثم جاء عيسى ابن مريم . جاء يقول لبنى إسرائيل :

« يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم » ..

فلم يقل لهم : إنه الله ، ولا إنه ابن الله ، ولا إنه أقنوم من أقانيم الله .

« مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدي اسمه أحمد » ..

فى هذه الصيغة التى تصور حلقات الرسالة المترابطة ، يسلم بعضها إلى بعض ، وهى متماسكة فى حقيقتها ، واحدة فى اتجاهها ، ممتدة من السماء إلى الأرض ، حلقة بعد حلقة فى السلسلة الطويلة المتصلة .. وهى الصورة اللائقة بعمل الله ومنهجه . فهو منهج واحد فى أصله ، متعدد فى صوره ، وفق استعداد البشرية وحاجاتها وطاقاتها ، ووفق تجاربها ورصيدها من المعرفة حتى تبلغ مرحلة الرشد العقلى والشعورى ، فتجىء الحلقة الأخيرة فى الصورة الأخيرة كاملة شاملة ، تخاطب العقل الراشد ، فى ضوء تلك التجارب ، وتطلق هذا العقل يعمل فى حدوده ، داخل نطاق المنهج المرسوم للإنسان فى جملته ، المتفق مع طاقاته واستعداداته .

وبشارة المسيح بأحمد ثابتة بهذا النص ، سواء تضمنت الأناجيل المتداولة هذه البشارة أم لم تتضمنها . فثابت أن الطريقة التى كتبت بها هذه الأناجيل والظروف التى أحاطت بها لا تجعلها هى المرجع فى هذا الشأن .

وقد قرئ القرآن على اليهود والنصارى فى الجزيرة العربية وفيه: «النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل » . . وأقر بعض المخلصين من علمائهم الذين أسلموا كعبد الله ابن سلام بهذه الحقيقة ، التى كانوا يتواصون بتكتمها !

كما أنه ثابت من الروايات التاريخية أن اليهود كانوا ينتظرون مبعث نبى قد أظلهم زمانه ، وكذلك بعض الموحدين المنعزلين من أحبار النصارى فى الجزيرة العربية . ولكن اليهود كانوا يريدونه منهم . فلما شاء الله أن يكون من الفرع الآخر من ذرية إبراهيم ، كرهوا هذا وحاربوه !

وعلى أية حال فالنص القرآنى بذاته هو الفيصل فى مثل هذه الأخبار . وهو القول الأخير ..

* * *

ويبدو أن الآيات التالية فى السورة جاءت على الأكثر بصدد استقبال بنى إسرائيل ـ اليهود والنصارى ـ للنبى الذى بشرت به كتبهم . والتنديد بهذا الاستقبال ، وكيدهم للدين الجديد الذى قدر الله أن يظهره على الدين كله ، وأن يكون هو الدين الأخير !

Marfat.com

« فلما جاءهم بالبينات قالوا : هذا سحر مبين . ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام ؟ والله لايهدى القوم الظالمين ، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » .

ولقد وقف بنو إسرائيل فى وجه الدين الجديد وقفة العداء والكيد والتضليل ، وحاربوه بشتى الوسائل والطرق حربا شعواء لم تضع أوزارها حتى اليوم . حاربوه بالاتهام : « فلما جاءهم بالبينات قالوا : هذا سحر مبين » . . كما قال الذين لايعرفون الكتب ولا يعرفون البشارة بالدين الجديد . وحاربوه بالدس والوقيعة داخل المعسكر الإسلامى ، للإيقاع بين المهاجرين والأنصار فى المدينة ، وبين الأوس والخزرج من الأنصار . وحاربوه بالتآمر مع المنافقين تارة ومع المشركين تارة . وحاربوه بالانضمام إلى معسكرات المهاجمين كما وقع فى غزوة الأحزاب .وحاربوه بالإشاعات الباطلة كما جرى فى حديث الإفك على يد عبد الله ابن أبى ابن سلول ، ثم ماجرى فى فتنة عثمان على يد عدو الله عبد الله ابن سبأ . وحاربوه بالأكاذيب والإسرائيليات التى دسوها فى الحديث وفى السيرة وفى التفسير ـ حين عجزوا عن الوضع والكذب فى القرآن الكريم .

ولم تضع الحرب أوزارها لحظة واحدة حتى اللحظة الحاضرة . فقد دأبت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على الكيد للإسلام ،وظلتا تغيران عليه أوتؤلبان عليه فى غير وناة ولاهدنة فى جيل من الأجيال . حاربوه فى الحروب الصليبية فى الشرق ، وحاربوه فى الأندلس فى المغرب، وحاربوه فى الوسط فى دولة الخلافة الأخيرة حربا شعواء حتى مزقوها وقسموا تركة ما كانوا يسمونه « الرجل المريض » . . واحتاجوا أن يخلقوا أبطالا مزيفين فى أرض الإسلام يعملون لهم فى تنفيذ أحقادهم ومكايدهم ضد الإسلام . فلما أرادوا تحطيم « الخلافة » والإجهاز على آخر مظهر من مظاهر الحكم الإسلامى صنعوا فى تركيا « بطلا » ! . . ونفخوا فيه . وتراجعت جيوش الحلفاء التى كانت تحتل الأستانة أمامه لتحقق منه بطلا فى أعين مواطنيه . بطلا يستطيع إلغاء الخلافة ، وإلغاء اللغة العربية ، وفصل تركيا عن المسلمين ، وإعلانها دولة مدنية لاعلاقة لها بالدين ! وهم يكررون صنع هذه البطولات المزيفة كلما أرادوا أن يضربوا الإسلام والحركات الإسلامية فى بلد من بلاد المسلمين ، ليقيموا مكانه عصبية غير عصبية الدين ! وراية غير راية الدين .

Marfat.com

« يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم . والله متم نوره ولوكره الـكافرون » . .

وهـذا النص القرآنى يعبر عن حقيقة ، ويرسم فى الوقت ذاته صورة تدعو إلى الرثاء والاستهزاء ! فهى حقيقة أنهم كانوا يقولون بأفواههم : « هذا سحر مبين » . . ويدسون ويكيدون محاولين القضاء على الدين الجديد . وهى صورة بائسة لهم وهم يحاولون إطفاء نور الله بنفخة من أفواههم وهم هم الضعاف المهازيل !

« والله متم نوره ولو كره الـكافرون » . . وصدق وعد الله . أتم نوره فى حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأقام الجماعـة الإسلامية صورة حية واقعـة من المنهج الإلهى المختار . صورة ذات معالم واضحة وحدود مرسومة ، تترسمها الأجيال لانظرية فى بطون الـكتب ، ولـكن حقيقة فى عالم الواقع . وأتم نوره فأكمل للمسلمين دينهـم وأتم عليهم نعمته ورضى لهم الإسـلام دينا يحبونه ، ويجاهدون فى سبيـله ، ويرضى أحدهم أن يلقى فى النـار ولا يعود إلى الـكفر . فتمت حقيقة الدين فى القلوب وفى الأرض سواء . وما تزال هذه الحقيقة تنبعث بين الحين والحين ، وتنبض وتنتفض قائمة ـ على الرغم من كل ما جرد على الإسـلام والمسلمين من حرب وكيد وتنـكيل وتشريد وبطش شديد . لأن نور الله لايمـكن أن تطفئه الأفواه ، ولا أن تطمسه كذلك النار والحديد ، فى أيدى العبيد ! وإن خيـل للطغاة الجبارين ، وللأبطال المصنوعين على أعين الصليبيين واليهود أنهم بالغو هذا الهدف البعيد !

لقد جرى قدر الله أن يظهر هذا الدين ، فـكان من الحتم أن يـكون :

« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون » . .

وشهادة الله لهذا الدين بأنه « الهدى ودين الحق » هى الشهادة . وهى كلمة الفصل التى ليس بعدها زيادة . ولقد تمت إرادة الله فظهر هذا الدين على الدين كله . ظهر فى ذاته كدين ، فما يثبت له دين آخر فى حقيقته وفى طبيعته . فأما الديانات الوثنية فليست فى شىء فى هذا المجال . وأما الديانات الـكتابية فهذا الدين خاتمتها ، وهو الصورة الأخيرة الـكاملة الشاملة منها ، فهو هى ، فى الصورة العليا الصالحة إلى نهاية الزمان .

ولقد حرفت تلك الديانات وشوهت ومزقت وزيدعليها ماليس منها ، ونقصت من أطرافها ، وانتهت لحال لاتصلح معه لشىء من قيادة الحياة . وحتى لوبقيت من غير تحريف ولاتشويه فهى نسخة سابقة لم تشمل كل مطالب الحياة المتجددة أبدا ، لأنها جاءت فى تقدير الله لأمد محدود . .

Marfat.com

فهذا تحقيق وعد الله من ناحية طبيعة الدين وحقيقته . فأما من ناحية واقع الحياة ، فقد صدق وعد الله مرة ، فظهر هذا الدين قوة وحقيقة ونظام حكم على الدين كله فدانت له معظم الرقعة المعمورة فى الأرض فى مدى قرن من الزمان . ثم زحف زحفا سلميا بعد ذلك إلى قلب آسيا وأفريقية ، حتى دخل فيه بالدعوة المجردة خمسة أضعاف من دخلوا فى إبان الحركات الجهادية الأولى . . وما يزال يمتد بنفسه دون دولة واحدة ـ منذ أن قضت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على الخلافة الأخيرة فى تركيا على يدى « البطل » الذى صنعوه ! ـ وعلى الرغم من كل ما يرصد له فى أنحاء الأرض من حرب وكيد ، ومن تحطيم للحركات الإسلامية الناهضة فى كل بلد من بلاد الإسلام على أيدى «أبطال» آخرين من صنع الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على السواء.

وما تزال لهذا الدين أدوار فى تاريخ البشرية يؤديها ،ظاهرا بإذن الله على الدين كله تحقيقا لوعد الله ، الذى لاتقف له جهود العبيد المهازيل ، مهما بلغوا من القوة والكيد والتضليل !

ولقد كانت تلك الآيات حافزا للمؤمنين المخاطبين بها على حمل الأمانة التى اختارهم الله لها بعد أن لم يرعها اليهود والنصارى . وكانت تطمينا لقلوبهم وهم ينفذون قدر الله فى إظهار دينه الذى أراده ليظهر ، وإن هم إلا أداة . وما تزال حافزا ومطمئنا لقلوب المؤمنين الواثقين بوعد ربهم ، وستظل تبعث فى الأجيال القادمة مثل هذه المشاعر حتى يتحقق وعد الله مرة أخرى فى واقع الحياة . بإذن الله .

* * *

وفى ظلال قصة العقيدة، وفى مواجهة وعد الله بالتمكين لهذا الدين الأخير ، يهتف القرآن الكريم بالذين آمنوا . . من كان يواجه ذلك الخطاب ومن يأتى بعدهم من المؤمنين إلى يوم الدين . . يهتف بهم إلى أربح تجارة فى الدنيا والآخرة . تجارة الإيمان بالله والجهاد فى سبيل الله :

« ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها : نصر من الله وفتح قريب ، وبشر المؤمنين » . .

وصيغة التعبير بما فيها من فصل ووصل ، واستفهام وجواب ، وتقديم وتأخير، صيغة ظاهر فيها القصد إلى إقرار هذا الهتاف فى القلوب بكل وسائل التأثير التعبيرية .

Marfat.com

يبدأ بالنداء باسم الإيمان : « ياأيها الذين آمنوا » .. يليه الاستفهام الموحى . فالله ـ سبحانه ـ هو الذى يسألهم ويشوقهم إلى الجواب : « هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم؟ » ..

ومن ذا الذى لايشتاق لأن يدله الله على هذه التجارة ؟ وهنا تنتهى هذه الآية ، وتنفصل الجملتان للتشويق بانتظار الجواب المرموق . ثم يجىء الجواب وقد ترقبته القلوب والأسماع : « تؤمنون بالله ورسوله » .. وهم مؤمنون بالله ورسوله . فتشرق قلوبهم عند سماع شطر الجواب هذا المتحقق فيهم ! « وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم » .. وهو الموضوع الرئيسى الذى تعالجه السورة ، يجىء فى هذا الأسلوب، ويكرر هذا التكرار ، ويساق فى هذا السياق. فقد علم الله أن النفس البشرية فى حاجة إلى هذا التكرار، وهذا التنويع ، وهذه الموحيات، لتنهض بهذا التكليف الشاق ، الضرورى الذى لامفر منه لإقامة هذا المنهج وحراسته فى الأرض . . ثم يعقب على عرض هذه التجارة التى دلهم عليها بالتحسين والتزيين : « ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » . . فعلم الحقيقة يقود من يعلم إلى ذلك الخير الأكيد .. ثم يفصل هذا الخير فى آية تالية مستقلة ، لأن التفصيل بعد الإجمال يشوق القلب إليه ، ويقره فى الحس ويمكن له : « يغفر لكم ذنوبكم » .. وهذه وحدها تكفى . فمن ذا الذى يضمن أن يغفر له ذنبه ثم يتطلع بعدها إلى شىء ؟ أو يدخر فى سبيلها شيئا ؟ ولكن فضل الله ليست له حدود: « ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن » .. وإنها لأربح تجارة أن يجاهد المؤمن فى حياته القصيرة ـ حتى حين يفقد هذه الحياة كلها ـ ثم يعوض عنها تلك الجنات وهذه المساكن فى نعيم مقيم .. وحقا .. «ذلك الفوز العظيم » ..

وكأنما ينتهى هنا حساب التجارة الرابحة . وإنه لربح ضخم هائل أن يعطى المؤمن الدنيا ويأخذ الآخرة . فالذى يتجر بالدرهم فيكسب عشرة يغبطه كل من فى السوق . فكيف بمن يتجر فى أيام قليلة معدودة فى هذه الأرض ، ومتاع محدود فى هذه الحياة الدنيا ، فيكسب به خلودا لايعلم له نهاية إلاماشاء الله ، ومتاعا غير مقطوع ولاممنوع ؟

لقد تمت المبايعة على هذه الصفقة بين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعبدالله ابن رواحة ـ رضى الله عنه ـ ليلة العقبة . قال لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اشترط لربك ولنفسك ماشئت » . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أشترط لربى أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئا ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » .. قال : فمالنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : « الجنة » قالوا : ربح البيع ولانقيل ولانستقيل!

Marfat.com

ولكن فضل الله عظيم . وهو يعلم من تلك النفوس أنها تتعلق بشيء قريب في هذه الأرض ، يناسب تركيبها البشرى المحدود. وهو يستجيب لها فيبشرها بما قدره في علمه المكنون من إظهار هذا الدين في الأرض ، وتحقيق منهجه وهيمنته على الحياة في ذلك الجيل : «وأخرى تحبونها : نصر من الله وفتح قريب . وبشر المؤمنين » . .

وهنا تبلغ الصفقة ذروة الربح الذى لا يعطيه إلا الله . الله الذى لاتنفد خزائنه ، والذى لايمسك لرحمته . فهى المغفرة والجنات والمساكن الطيبة والنعيم المقيم فى الآخرة . وفوقها .. فوق البيعة الرابحة والصفقة الكاسبة النصر والفتح القريب . . فمن الذى يدله الله على هذه التجارة ثم يتقاعس عنها أو يحيد ؟ !

وهنا يعن للنفس خاطر أمام هذا الترغيب والتحبيب . . إن المؤمن الذى يدرك حقيقة التصور الإيمانى للكون والحياة ؛ ويعيش بقلبه فى هذا التصور ؛ ويطلع على آفاقه وآماده ؛ ثم ينظر للحياة بغير إيمان ، فى حدودها الضيقة الصغيرة ، وفى مستوياتها الهابطة الواطية ، وفى اهتماماتها الهزيلة الزهيدة . . هذا القلب لايطيق أن يعيش لحظة واحدة بغير ذلك الإيمان ، ولا يتردد لحظة واحدة فى الجهاد لتحقيق ذلك التصور الضخم الوسيع الرفيع فى عالم الواقع ، ليعيش فيه ، وليرى الناس من حوله يعيشون فيه كذلك .. ولعله لايطلب على جهاده هذا أجرا خارجا عن ذاته . فهو ذاته أجر . . هذا الجهاد .. وما يسكبه فى القلب من رضى وارتياح . ثم إنه لايطيق أن يعيش فى عالم بلا إيمان . ولا يطيق أن يقعد بلا جهاد لتحقيق عالم يسوده الإيمان . فهو مدفوع دفعا إلى الجهاد . كائنا مصيره فيه مايكون .

ولكن الله ـ سبحانه ـ يعلم أن النفس تضعف ، وأن الاندفاع يهبط ، وأن الجهد يكل . وأن حب السلامة قد يهبط بتلك المشاعر كلها ويقودها إلى الرضى بالواقع الهابط . .

ومن ثم يجاهد القرآن هذه النفس ذلك الجهاد ؛ ويعالجها ذلك العلاج ، ويهتف لها بالموحيات والمؤثرات ذلك الهتاف المتكرر المتنوع ، فى شتى المناسبات . ولا يكلها إلى مجرد الإيمان ، ولا إلى نداء واحد باسم هذا الإيمان .

فهاهو ذا يختم السورة بنداء جديد ، يحمل طابعا جديدا ، وإغراء جديدا ، وموحيا جديدا:

«ياأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله، كما قال عيسى ابن مريم للحواريين : من أنصارى إلى الله؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله . فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة . فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » . .

Marfat.com

والحواريون هم تلاميذ المسيح ـ عليه السلام ـ قيل : الاثنا عشر الذين كانوا يلوذون به وينقطعون للتلقى عنه . وهم الذين قاموا بعد رفعه بنشر تعاليمه وحفظ وصاياه .

والآية هنا تهدف إلى تصوير موقف لا إلى تفصيل قصة ؛ فنسير نحن معها فى ظلالها المقصودة إلى الغاية من سردها فى هذا الموضع من السورة .

« ياأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله » ..فى هذا الموضع الكريم الذى يرفعكم إليه الله . وهل أرفع من مكان يكون فيه العبد نصيرا للرب ؟ ! إن هذه الصفة تحمل من التكريم ماهو أكبر من الجنة والنعيم .. كونوا أنصار الله ، « كما قال عيسى ابن مريم للحواريين:من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله » . . فانتدبوا لهذا الأمر ونالوا هذا التكريم . وعيسى جاء ليبشر بالنبى الجديد والدين الأخير . . فما أجدر أتباع محمد أن ينتدبوا لهذا الأمر الدائم ، كما انتدب الحواريون للأمر الموقوت ! وهذه هى اللمسة الواضحة فى عرض هذا الحوار فى هذا السياق .

وماذا كانت العاقبة ؟

« فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة ، فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » .. وتأويل هذ النص يمكن أن ينصرف إلى أحد معنيين :إما أن الذين آمنوا برسالة عيسى عليه السلام هم المسيحيون إطلاقا من استقام ومن دخلت فى عقيدته الانحرافات ، وقد أيدهم الله على اليهود الذين لم يؤمنوا به أصلا كما حدث فى التاريخ .وإما أن الذين آمنوا هم الذين أصروا على التوحيد فى وجه المؤلهين لعيسى والمثلثين وسائر النحل التى انحرفت عن التوحيد. ومعنى أنهم أصبحوا ظاهرين أى بالحجة والبرهان . أوأن التوحيد الذى هم عليه هو الذى أظهره الله بهذا الدين الأخير ؛ وجعل له الجولة الأخيرة فى الأرض كما وقع فى التاريخ . وهذا المعنى الأخير هو الأقرب والأرجح فى هذا السياق .

والعبرة المستفادة من هذه الإشارة ومن هذا النداء هى العبرة التى أشرنا إليها ، وهى استنهاض همة المؤمنين بالدين الأخير ، الأمناء على منهج الله فى الأرض ، ورثة العقيدة والرسالة الإلهية . المختارين لهذه المهمة الكبرى. . استنهاض همتهم لنصرة الله ونصرة دينه « كما قال عيسى ابن مريم للحواريين : من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله » .. والنصر فى النهاية لأنصار الله المؤمنين .

إنها الجولة الأخيرة فى السورة ، واللمسة الأخيرة فى السياق ؛ وهى ذات لون وذات طعم يناسبان جو السورة وسياقها ، مع مافيها من تجدد فى اللون وتنوع فى المذاق . .

Marfat.com

سورة الجمعة مدنية
وآياتها ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ① هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

« مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ، بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قُلْ : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * قُلْ : إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ، ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

Marfat.com

« وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا . قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » ⑪.

نزلت هذه السورة بعد سورة « الصف » السابقة . وهى تعالج الموضوع الذى عالجته سورة الصف ، ولكن من جانب آخر ، وبأسلوب آخر ، وبمؤثرات جديدة .

إنها تعالج أن تقرفى أخلاد الجماعة المسلمة فى المدينة أنهاهى المختارة أخيرا لحمل أمانة العقيدة الإيمانية ؛ وأن هذا فضل من الله عليها ؛ وأن بعثة الرسول الأخير فى الأميين ـ وهم العرب ـ منة كبرى تستحق الالتفات والشكر ، وتقتضى كذلك تكاليف تنهض بها المجموعة التى استجابت للرسول ، واحتملت الأمانة ؛ وأنها موصولة على الزمان غير مقطوعة ولامنبتة ، فقد قدر الله أن تنمو هذه البذرة وتمتد . بعد مانكل بنو إسرائيل عن حمل هذه الأمانة وانقطعت صلتهم بأمانة السماء ؛ وأصبحوا يحملون التوراة كالحمار يحمل أسفارا ، ولاوظيفة له فى إدراكها ، ولامشاركة له فى أمرها !

تلك هى الحقيقة الرئيسية التى تعالج السورة إقرارها فى قلوب المسلمين . من كان منهم فى المدينة يومذاك على وجه الخصوص ، وهم الذين ناط الله بهم تحقيق المنهج الإسلامى فى صورة واقعة . ومن يأتى بعدهم ممن أشارت إليهم السورة ، وضمتهم إلى السلسلة الممتدة على الزمان.

وفى الوقت ذاته تعالج السورة بعض الحالات الواقعة فى تلك الجماعة الأولى ؛ فى أثناء عملية البناء النفسى العسيرة المتطاولة الدقيقة . وتخلصها من الجواذب المعوقة من الحرص والرغبة العاجلة فى الربح ، وموروثات البيئة والعرف . وبخاصة حب المال وأسبابه الملهية عن الأمانة الكبرى ، والاستعداد النفسى لها. وتشير إلى حادث معين . حيث كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخطبهم فى المسجد للجمعة حين حضرت قافلة من قوافلهم التجارية ؛ فما إن أعلن نبأ قدومها حتى انفض المستمعون منصرفين إلى التجارة واللهو الذى كانت القافلة تحاط به ـ على عادة الجاهلية ـ من ضرب بالدفوف وحداء وهيصة ! وتركوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائما . فيما عدا اثنى عشر من الراسخين فيهم أبو بكر وعمر بقوا يستمعون! كما تذكر الروايات، التى قد لاتكون دقيقة من حيث العدد ، ولكنها ثابتة من حيث وقوع هذه الحركة من عدد من الحاضرين اقتضى التنبيه إليها فى القرآن الكريم .

Marfat.com

وهى حادثة تكشف بذاتها عن مدى الجهد الذى بذل فى تربية تلك الجماعة الأولى حتى انتهت إلى ما انتهت إليه ؛وحتى صارت ذلك النموذج الفريد فى تاريخ الإسلام وفى تاريخ البشرية جميعا . وتلهمنا الصبر على مشقة بناء النفوس فى أى جيل من الأجيال ، لتكوين الجماعة المسلمة التى تنهض بحمل أمانة هذه العقيدة ، وتحاول تحقيقها فى عالم الواقع كما حققتها الجماعة الأولى .

وفى السورةمباهلة مع اليهود ، بدعوتهم إلى تمنى الموت للمبطلين من الفريقين وذلك ردا على دعواهم أنهم أولياء الله من دون الناس ، وأنهم شعب الله المختار ، وأن بعثة الرسول فى غيرهم لاتكون ! كما كانوا يدعون امع جزم القرآن بأنهم لن يقبلوا هذه المباهلة التىدعوا إليها فنكلوا عنها لشعورهم ببطلان دعواهم . وتعقب السورة على هذا بتقرير حقيقة الموت الذى يفرون منه ،وأنه ملاقيهم مهما فروا ، وأنهم مردودون إلى عالم الغيب والشهادة ،فنبئهم بما كانوا يعملون . . وهو تقرير لايخص اليهود وحدهم ، إنما يلقيه القرآن ويدعه يفعل فعله فى نفوس المؤمنين كذلك . فهذه الحقيقة لابد أن تستقر فى نفوس حملة أمانة الله فى الأرض ، لينهضوا بتكاليفها وهم يعرفون الطريق !

هذا هو اتجاه السورة ،وهو قريب من اتجاه سورة الصف قبلها ،مع تميز كل منها بالجانب الذى تعالجه ، وبالأسلوب الذى تأخذ القلوب به ، والظلال التى تلقيها هذه وتلك فى الاتجاه الواحد العام . فلننظر كيف يتناول الأسلوب القرآنى هذا الاتجاه . .

* * *

« يسبح لله مافى السماوات وما فى الأرض، الملك القدوس العزيز الحكيم » . .

هذا المطلع يقرر حقيقة التسبيح المستمرة من كل مافى الوجود لله ؛ ويصفه ـ سبحانه ـ بصفات ذات علاقة لطيفة بموضوع السورة . السورة التى اسمها « الجمعة » وفيها تعليم عن صلاة الجمعة ، وعن التفرغ لذكر الله فى وقتها ، وترك اللهو والتجارة ، وابتغاء ماعند الله وهو خير من اللهو ومن التجارة . . ومن ثم تذكر : « الملك » . . الذى يملك كل شىء بمناسبة التجارة التىيسارعون إليها ابتغاء الكسب . وتذكر« القدوس » الذى يتقدس ويتنزه ويتوجه إليه بالتقديس والتنزيه كل مافى السماوات والأرض، بمناسبة اللهو الذى ينصرفون إليه عن ذكره .وتذكر « العزيز ». .بمناسبة المباهلة التى يدعى إليها اليهود والموت الذى لابد أن يلاقى الناس جميعا والرجعة إليه والحساب . وتذكر « الحكيم » .. بمناسبة اختاره الأميين

Marfat.com

ليبعث فيهم رسولا يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . . وكلها مناسبات لطيفة المدخل والاتصال .

* * *

ثم يبدأ فى موضوع السورة الرئيسى :

« هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ، وهو العزيز الحكيم » . .

قيل إن العرب سموا الأميين لأنهم كانوا لايقرأون ولا يكتبون ـ فى الأعم الأغلب ـ وروى عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : الشهر هكذا وهكذا وهكذا وأشار بأصابعه وقال : « إنا نحن أمة أمية لا نحسب ولا نكتب [1] » . . وقيل : إنما سمى من لا يكتب أميا لأنه نسب إلى حال ولادته من الأم ، لأن الكتابة إنما تكون بالاستفادة والتعلم .

وربما سموا كذلك كما كان اليهود يقولون عن غيرهم من الأمم : إنهم « جوييم » باللغة العبرية أى أمميون . نسبة إلى الأمم ـ بوصفهم هم شعب الله المختار وغيرهم هم الأمم ! ـ والنسبة فى العربية إلى المفرد .. أمة .. أميون . وربما كان هذا أقرب بالنسبة إلى موضوع السورة .

ولقد كان اليهود ينتظرون مبعث الرسول الأخير منهم ، فيجمعهم بعد فرقة ، وينصرهم بعد هزيمة ، ويعزهم بعد ذل . وكانوا يستفتحون بهذا على العرب ، أى يطلبون الفتح بذلك النبى الأخير .

ولكن حكمة الله اقتضت أن يكون هذا النبى من العرب ، من الأميين غير اليهود ؛ فقد علم الله أن يهود قد فرغ عنصرها من مؤهلات القيادة الجديده الكاملة للبشرية ـ كما سيجىء فى المقطع التالى فى السورة ـ وأنها زاغت وضلت كما جاء فى سورة الصف . وأنها لاتصلح لحمل الأمانة بعد ما كان منها فى تاريخها الطويل !

وكانت هناك دعوة إبراهيم خليل الرحمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ تلك الدعوة التى أطلقها فى ظل البيت هو وإسماعيل عليه السلام : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل .. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم . إنك أنت العزيز الحكيم » . .

(١) ذكره الإمام الجصاص صاحب أحكام القرآن بغير إسناد .

Marfat.com

كانت هناك هذه الدعوة من وراء الغيب ، ومن وراء القرون ، محفوظة عند الله لاتضيع، حتى يجيء موعدها المقدور فى علم الله ، وفق حكمته ؛ وحتى تتحقق فى وقتها المناسب فى قدر الله وتنسيقه،وحتى تؤدى دورها فى الكون حسب التدبير الإلهى الذى لايستقدم معه شيء ولايستأخر عن موعده المرسوم.

وتحققت هذه الدعوة ـ وفق قدر الله وتدبيره ـ بنصها الذى تعيده السورة هنا لتذكر بحكاية ألفاظ إبراهيم . . « رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » . . كما قال إبراهيم ! حتى صفة الله فى دعاء إبراهيم : « إنك أنت العزيز الحكيم » هى ذاتها التى تعقب على التذكير بمنة الله وفضله هنا : « وهو العزيز الحكيم » . .

وقد سئل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن نفسه فقال : « دعوة أبى إبراهيم . وبشرى عيسى . ورأت أمى حين حملت بى كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام » (١) .

« هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » . .

والمنة ظاهرة فى اختيار الله للأميين ليجعلهم أهل الكتاب المبين ؛ وليرسل فيهم رسولا منهم ، يرتفعون باختياره منهم إلى مقام كريم ؛ ويخرجهم من أميتهم أومن أميتهم بتلاوة آيات الله عليهم ، وتغيير مابهم ، وتميزهم على العالمين . .

« ويزكيهم » . . وإنها لتزكية وإنه لتطهير ذلك الذى كان يأخذهم به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تطهير للضمير والشعور، وتطهير للعمل والسلوك ، وتطهير للحياة الزوجية، وتطهير للحياة الاجتماعية . تطهير ترتفع به النفوس من عقائد الشرك إلى عقيدة التوحيد ؛ ومن التصورات الباطلة إلى الاعتقاد الصحيح ، ومن الأساطير الغامضة إلى اليقين الواضح . وترتفع به من رجس الفوضى الأخلاقية إلى نظافة الخلق الإيمانى . ومن دنس الربا والسحت إلى طهارة الكسب الحلال . . إنها تزكية شاملة للفرد والجماعة ولحياة السريرة وحياة الواقع . تزكية ترتفع بالإنسان وتصوراته عن الحياة كلها وعن نفسه ونشأته إلى آفاق النور التى يتصل فيها بربه، ويتعامل مع الملأ الأعلى؛ويحسب فى شعوره وعمله حساب ذلك الملأ العلوى الكريم(٢).

(١) من رواية ابن إسحاق . . حدثنى ثور ابن زيد عن خالد ابن معدان عن أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال ابن كثير : وهذا إسناد جيد ، وروى له شواهد من وجوه آخر . .

(٢) يراجع بتوسع كتاب : « الإنسان بين المادية والإسلام» لمحمد قطب .

Marfat.com

« ويعلمهم الكتاب والحكمة » .. يعلمهم الكتاب فيصبحون أهل كتاب. ويعلمهم الحكمة فيدركون حقائق الأمور ، ويحسنون التقدير ، وتلهم أرواحهم صواب الحكم وصواب العمل وهو خير كثير .

« وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » . . ضلال الجاهلية التى وصفها جعفر ابن أبى طالب لنجاشى الحبشة حين بعثت قريش إليه عمرو ابن العاص وعبد الله ابن أبى ربيعة ليكرّهاه فى المهاجرين من المسلمين ، ويشوها موقفهم عنده ، فيخرجهم من ضيافته وجيرته . . فقال جعفر:

« أيها الملك . كنا قوما أهل جاهلية . نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف . . فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه . فدعانا إلى الله لنوحده ولنعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ؛ وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء . ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات . وأمرنا أن نعبد الله ولانشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام » . .

ومع كل ما كانوا عليه فى الجاهلية من ضلال فقد علم الله أنهم هم حملة هذه العقيدة الأمناء عليها ، بما علم فى نفوسهم من استعداد للخير والصلاح ؛ ومن رصيد مذخور للدعوة الجديدة ؛ وقد فرغت منه نفوس اليهود التى أفسدها الذل الطويل فى مصر ، فامتلأت بالعقد والالتواءات والانحرافات ، ومن ثم لم تستقم أبدا بعد ذلك ، لافى حياة موسى عليه السلام ، ولا من بعده . حتى كتب الله عليهم لعنته وغضبه ، وانتزع من أيديهم أمانة القيام على دينه فى الأرض إلى يوم القيامة .

وعلم الله أن الجزيرة فى ذلك الأوان هى خير مهد للدعوة التى جاءت لتحرير العالم كله من ضلال الجاهلية ، ومن انحلال الحضارة فى الامبراطوريات الكبيرة ، التى كان سوس الانحلال قد نخر فيها حتى اللباب ! هذه الحالة التى يصفها كاتب أوربى حديث فيقول :

« ففى القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من الفوضى . لأن العقائد التى كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت ، ولم يك ثم مايعتد به مما يقوم مقامها . وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى التى تكلف بناؤها أربعة آلاف سنة ، مشرفة على التفكك

Marfat.com

والاحلال ؛ وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية، إذ القبائل تتحارب وتتناحر ، لاقانون ولانظام . أما النظم التى خلقتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار بدلا من الاتحاد والنظام . وكانت المدنية ، كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله ، واقفة تترنح وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب .. وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذى وحد العالم جميعه [1] » .

وهذه الصورة مأخوذة من زاوية النظر لكاتب أوربى . وهى من زاوية النظر الإسلامية أشد عتاما وظلاما !

وقد اختار الله ـ سبحانه ـ تلك الأمة البدوية فى شبه الجزيرة الصحراوية لتحمل هذا الدين، بما علم فى نفوسها وفى ظروفها من قابلية للاستصلاح وذخيرة مرصودة للبذل والعطاء . فأرسل فيهم الرسول يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين .

« وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ، وهو العزيز الحكيم » . .

وهؤلاء الآخرون وردت فيهم روايات متعددة ..

قال الإمام البخارى ـ رحمه الله تعالى ـ : حدثنا عبد العزيز ابن عبد الله ، حدثنا سليمان ابن بلال ، عن ثور ، عن أبى الغيث ، عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : « كنا جلوسا عند النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنزلت عليه سورة الجمعة (وآخرين لما يلحقوا بهم) قالوا : من هم يارسول الله ؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثا ، وفينا سلمان الفارسى ، فوضع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يده على سلمان الفارسى ثم قال : « لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال أو رجل من هؤلاء » . فهذا يشير إلى أن هذا النص يشمل أهل فارس . ولهذا قال مجاهد فى هذه الآية : هم الأعاجم وكل من صدق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من غير العرب .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا إبراهيم ابن العلاء الزبيدى ، حدثنا الوليد ابن مسلم، حدثنا أبو محمد عيسى ابن موسى عن أبى حازم ، عن سهل ابن سعد الساعدى. قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن فى أصلاب أصلاب أصلاب رجال ونساء من أمتى يدخلون

---

(١) للكاتب ج . ه دنيسون فى كتاب : العواطف كأساس لحضارة .. نقلا من كتاب : الإسلام والنظام العالمى الجديد تأليف مولاى محمد على وترجمة الأستاذ أحمد جودة السحار .

Marfat.com

الجنة بغير حساب » ثم قرأ : (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) . . يعنى بقية من بقى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وكلا القولين يدخل فى مدلول الآية . فهى تدل على آخرين غير العرب . وعلى آخرين غير الجيل الذى نزل فيه القرآن . وتشير إلى أن هذه الأمة موصولة الحلقات ممتدة فى شعاب الأرض وفى شعاب الزمان ، تحمل هذه الأمانة الكبرى ، وتقوم على دين الله الأخير .

«وهو العزيز الحكيم» . .القوى القادر على الاختيار .الحكيم العليم بمواضع الاختيار . . واختياره للمتقدمين والمتأخرين فضل وتكريم :

« ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » . .

وإن اختيار الله لأمة أو جماعة أو فرد ليحمل هذه الأمانة الكبرى ، وليكون مستودع نور الله وموضع تلقى فيضه ، والمركز الذى تتصل فيه السماء بالأرض . . إن اختيار الله هذا لفضل لايعدله فضل . فضل عظيم يربى على كل ما يبذله المؤمن من نفسه وماله وحياته ؛ ويربى على متاعب الطريق وآلام الكفاح وشدائد الجهاد .

والله يذكر الجماعة المسلمة فى المدينة ، والذين يأتون بعدها الموصولين بها والذين لم يلحقوا بها . يذكرهم هذا الفضل فى اختيارهم لهذه الأمانة ، ولبعث الرسول فيهم يتلو عليهم الكتاب ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . ويترك للآتين فى أطواء الزمان ذلك الرصيد الضخم من الزاد الإلهى ، ومن الأمثلة الواقعية فى حياة الجماعة الأولى . يذكرهم هذا الفضل العظيم الذى تصغر إلى جانبه جميع القيم ،وجميع النعم؛ كما تصغر إلى جانبه جميع التضحيات والآلام . .

* * *

بعد ذلك يذكر ما يفيد أن اليهود قد انتهى دورهم فى حمل أمانة الله ؛ فلم تعد لهم قلوب تحمل هذه الأمانة التى لاتحملها إلا القلوب الحية الفاقهة المدركة الواعية المتجردة العاملة بما تحمل :

« مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا . بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ! والله لايهدى القوم الظالمين » . .

فبنو إسرائيل حملوا التوراة ، وكلفوا أمانة العقيدة والشريعة . . « ثم لم يحملوها » . . فحملها يبدأ بالإدراك والفهم والفقه ،وينتهى بالعمل لتحقيق مدلولها فى عالم الضمير وعالم الواقع.

Marfat.com

ولكن سيرة بنى إسرائيل كما عرضها القرآن الكريم ـ وكما هى فى حقيقتها ـ لاتدل على أنهم قدروا هذه الأمانة ،ولا أنهم فقهوا حقيقتها ، ولا أنهم عملوا بها .ومن ثم كانوا كالحمار يحمل الكتب الضخام ، وليس له منها إلا ثقلها . فهو ليس صاحبها . وليس شريكا فى الغاية منها !

وهى صورة زرية بائسة ، ومثل سيء شائن ، ولكنها صورة معبرة عن حقيقة صادقة « بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لايهدى القوم الظالمين » . .

ومثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها . . كل الذين حملوا أمانة العقيدة ثم لم يحملوها. والمسلمون الذين غبرت بهم أجيال كثيرة ،والذين يعيشون فى هذا الزمان ، وهم يحملون أسماء المسلمين ولا يعملون عمل المسلمين . وبخاصة أولئك الذين يقرأون القرآن والكتب ، وهم لاينهضون بما فيها . . أولئك كلهم ، كالحمار يحمل أسفارا. وهم كثيرون كثيرون! فليست المسألة مسألة كتب تحمل وتدرس . إنما هى مسألة فقه وعمل بما فى الكتب .

* * *

وكان اليهود يزعمون ـ كما يزعمون حتى اليوم ـ أنهم شعب الله المختار ،وأنهم هم أولياؤه من دون الناس وأن غيرهم هم « الجويم» أو الأميون أو الأميون. وأنهم من ثم غير مطالبين بمراعاة أحكام دينهم مع غيرهم من الأميين : « قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل » . . إلى آخر هذه الدعاوى التى تفترى الكذب على الله بلا دليل ! فهنا دعوة لهم إلى المباهلة التى تكررت معهم ومع النصارى ومع المشركين :

« قل : ياأيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين. ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . قل : إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ،ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة ، فينبئكم بما كنتم تعملون » . .

والمباهلة معناها وقوف الفريقين المتنازعين وجها لوجه ، ودعاؤهما معا إلى الله أن ينكل بالمبطل منهما . . وقد خاف كل من دعاهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى هذه المباهلة ونكلوا عنها ،ولم يقبلوا التحدى فيها . مما يدل على أنهم فى قرارة نفوسهم كانوا يعرفون صدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحقية هذه الدين .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ابن يزيد الزرقى ، حدثنا أبو يزيد ، حدثنا فرات ، عن عبد الكريم ابن مالك الجزرى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : قال أبو جهل

Marfat.com

ـ لعنه الله ـ إن رأيت محمدا عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه . قال : فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لو فعل لأخذته الملائكة عيانا . ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار .ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لرجعو لايجدون أهلا ولا مالا » (١)

وقد لاتكون هذه مباهلة ولكن مجرد تحد لهم، بما أنهم يزعمون أنهم أولياء لله من دون الناس . فما يخيفهم إذن من الموت ، ويجعلهم أجبن خلق الله ؟ وهم حين يموتون ينالون ماعند الله مما يلقاه الأولياء والمقربون ؟!

ثم عقب على هذا التحدى بما يفيد أنهم غير صادقين فيما يدعون ، وأنهم يعرفون أنهم لم يقدموا بين أيديهم مايطمئنون إليه ، ومايرجون الثواب والقربى عليه ، إنما قدموا المعصية التى تخيفهم من الموت وماوراءه . والذى لم يقدم الزاد يجفل من ارتياد الطريق :

« ولايتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين » ..

وفى نهاية الجولة يقرر حقيقة الموت ومابعده ، ويكشف لهم عن قلة الجدوى فى فرارهم من الموت ، فهو حتم لامهرب منه ، ومابعده من رجعة إلى الله ، وحساب على العمل حتم كذلك لاريب فيه :

« قل : إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم . ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة ، فينبئكم بما كنتم تعملون » .

وهى لفتة من اللفتات القرآنية الموحية للمخاطبين بها وغير المخاطبين . تقر فى الأخلاد حقيقة ينساها الناس ، وهى تلاحقهم أينما كانوا . . فهذه الحياة إلى انتهاء. والبعد عن الله فيها ينتهى للرجعة إليه ، فلا ملجأ منه إلا إليه . والحساب والجزاء بعد الرجعة كائنان لامحالة . فلا مهرب ولافكاك .

روى الطبرى فى معجمه من حديث معاذ ابن محمد الهذلى عن يونس عن الحسن عن سمرة مرفوعا : « مثل الذى يفر من الموت كمثل الثعلب ، تطلبه الأرض بدَيْن ، فجاء يسعى ، حتى إذا أعيا وأنهر دخل جحره ، فقالت له الأرض : ياثعلب ! دَيْنى . فخرج له حصاص . فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه فمات » ..

---

(١) ورواه البخارى والترمذى والنسائى من حديث عبد الرزاق عن معمر عن عبد الكريم.

Marfat.com

وهى صورة متحركة موحية عميقة الإيحاء . .

* * *

والآن يجىء المقطع الأخير فى السورة خاصا بتعليم يتعلق بالجمعة ، بمناسبة ذلك الحادث الذى وقع ربما أكثر من مرة ، لأن الصيغة تفيد التكرار :

« ياأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون .

« وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما . قل : ماعند الله خيرمن اللهوومن التجارة . والله خير الرازقين » . .

وصلاة الجمعة هى الصلاة الجامعة ، التى لاتصح إلاجماعة . . وهى صلاة أسبوعية يتحتم أن يتجمع فيها المسلمون ويلتقوا ويستمعوا إلى خطبة تذكرهم بالله . وهى عبادة تنظيمية على طريقة الإسلام فى الإعداد للدنيا والآخرة فى التنظيم الواحد وفى العبادة الواحدة ؛ وكلاهما عبادة[1] . وهى ذات دلالة خاصة على طبيعة العقيدة الإسلامية الجماعية التى تحدثنا عنها فى ظلال سورة الصف . وقد وردت الأحاديث الكثيرة فى فضل هذه الصلاة والحث عليها والاستعداد لها بالغسل والثياب والطيب .

جاء فى الصحيحين عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: « إذا جاء أحدكم إلى الجمعة فليغتسل » . .

وروى أصحاب السنة الأربعة من حديث أوس ابن أوس الثقفى قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : من غسل واغتسل يوم الجمعة ، وبكر وابتكر ، ومشى ولم يركب ، ودنا من الإمام واستمع ولم يلغ ، كان له بكل خطوة أجر سنة صيامها وقيامها » . .

وروى الإمام أحمد من حديث كعب ابن مالك عن أبى أيوب الأنصارى قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب أهله إن كان عنده ، ولبس من أحسن ثيابه ، ثم خرج يأتى المسجد ، فيركع إن بدا له ، ولم يؤذ أحدا ، ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلى ، كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى » . .

---

(١) يراجع فصل العبادات الإسلامية فى كتاب : « فى النفس والمجتمع » لمحمد قطب .

Marfat.com

والآية الأولى فى هذا المقطع تأمر المسلمين أن يتركوا البيع ـ وسائر نشاط المعاش ـ بمجرد سماعهم للأذان :

«ياأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع » ..

وترغبهم فى هذا الانخلاع من شؤون المعاش والدخول فى الذكر فى هذا الوقت :

« ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » . .

مما يوحى بأن الانخلاع من شؤون التجارة والمعاش كان يقتضى هذا الترغيب والتحبيب . وهو فى الوقت ذاته تعليم دائم للنفوس ؛ فلا بد من فترات ينخلع فيها القلب من شواغل المعاش وجواذب الأرض ،ليخلو إلى ربه، ويتجرد لذكره ،ويتذوق هذا الطعم الخاص للتجرد والاتصال بالملأ الأعلى ، ويملأ قلبه وصدره من ذلك الهواء النقى الخالص المطر ويستروح شذاه !

ثم يعود إلى مشاغل العيش مع ذكر الله :

« فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » . .وهذا هو التوازن الذى يتسم به المنهج الإسلامى .التوازن بين مقتضيات الحياة فى الأرض ، من عمل وكد ونشاط وكسب . وبين عزلة الروح فترة عن هذا الجو وانقطاع القلب .وتجرده للذكر . وهى ضرورة لحياة القلب لايصلح بدونها للاتصال والتلقى والنهوض بتكاليف الأمانة الكبرى . وذكر الله لا بد منه فى أثناء ابتغاء المعاش ، والشعور بالله فيه هو الذى يحول نشاط المعاش إلى عبادة . ولكنه ـ مع هذا ـ لابد من فترة للذكر الخالص ، والانقطاع الكامل ، والتجرد للمحض . كما توحى هاتان الآيتان.

وكان عراك ابن مالك ـ رضى الله عنه ـ إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال :اللهم إنى أجبت دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتنى . فارزقنى من فضلك وأنت خير الرازقين » . . (رواه ابن أبى حاتم) . .وهذه الصورة تمثل لنا كيف كان يأخذ الأمر جدا ، فى بساطة تامة ، فهو أمر للتنفيذ فور سماعه بحرفيته وبحقيقته كذلك !

ولعل هذا الإدراك الجاد الصريح البسيط هو الذى ارتقى بتلك المجموعة إلى مستواها الذى بلغت إليه ،مع كل ما كان فيها من جواذب الجاهلية. مما تصوره الآية الأخيرة فى السورة:

« وإذا رأوا تجارة أولهوا انفضوا إليها وتركوك قائما . قل : ماعند الله خير من اللهو ومن التجارة . والله خير الرازقين » .

Marfat.com

عن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال : « بينا نحن نصلى مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ أقبلت عير تحمل طعاما ، فالتفتوا إليها حتى مابقى مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلااثنا عشر رجلا ، منهم أبوبكر وعمر رضى الله عنهما . فنزلت : «وإذا رأوا تجارة أولهوا انفضوا إليها وتركوك قائما » (١) ..

وفى الآية تلويح لهم بما عند الله وأنه خير من اللهو ومن التجارة . وتذكير لهم بأن الرزق من عند الله « والله خير الرازقين » ..

وهذا الحادث كما أسلفنا يكشف عن مدى الجهد الذى بذل فى التربية وبناء النفوس حتى انتهت إلى إنشاء تلك الجماعة الفريدة فى التاريخ . ويمنح القائمين على دعوة الله فى كل زمان رصيدا من الصبر على مايجدونه من ضعف ونقص وتخلف وتعثر فى الطريق . فهذه هى النفس البشرية بخيرها وشرها . وهى قابلة أن تصعد مراقى العقيدة والتطهر والتزكى بلا حدود ، مع الصبر والفهم والإدراك والثبات والمثابرة ، وعدم النكوص من منتصف الطريق . والله المستعان .

(١) رواه الشيخان والترمذى .

Marfat.com

سُورَةُ المُنَافِقُونَ مَدَنِيَّة
وآياتها ١١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

«إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُنَافِقُونَ قَالُوا : نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ، وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ، وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ① ٱتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ، فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ، قَاتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ ، وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ * سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ * هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ : لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا، وَلِلَّهِ خَزَائِنُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ : لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ، وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ * وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ : رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّالِحِينَ ! * وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ، وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » ⑪

Marfat.com

هذه السورة التى تحمل هذا الاسم الخاص « المنافقون » الدال على موضوعها . . ليست هى السورة الوحيدة التى فيها ذكر النفاق والمنافقين ، ووصف أحوالهم ومكائدهم . فلاتكاد تخلو سورة مدنية من ذكر المنافقين تلميحا أوتصريحا . ولكن هذه السورة تكاد تكون مقصورة على الحديث عن المنافقين ، والإشارة إلى بعض الحوادث والأقوال التى وقعت منهم ورويت عنهم .

وهى تتضمن حملة عنيفة على أخلاق المنافقين وأكاذيبهم ودسائسهم ومناوراتهم ، ومافى نفوسهم من البغض والكيد للمسلمين ، ومن اللؤم والجبن وانطماس البصائر والقلوب .

وليس فى السورة عدا هذا إلالفتة فى نهايتها إلى الذين آمنوا لتحذيرهم من كل مايلصق بهم صفة من صفات المنافقين ، ولو من بعيد . وأدنى درجات النفاق عدم التجرد لله ، والغفلة عن ذكره اشتغالا بالأموال والأولاد ، والتقاعس عن البذل فى سبيل الله حتى يأتى اليوم الذى لاينفع فيه البذل والصدقات .

وحركة النفاق التى بدأت بدخول الإسلام المدينة ، واستمرت إلى قرب وفاة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم تنقطع فى أى وقت تقريبا ، وإن تغيرت مظاهرها ووسائلها بين الحين والحين . . هذه الحركة ذات أثر واضح فى سيرة هذه الفترة التاريخية وفى أحداثها ؛ وقد شغلت من جهد المسلمين ووقتهم وطاقتهم قدرا كبيرا ؛ وورد ذكرها فى القرآن الكريم وفى الحديث الشريف مرات كثيرة تدل على ضخامة هذه الحركة ،وأثرها البالغ فى حياة الدعوة فى ذلك الحين .

وقد ورد عن هذه الحركة فصل جيدفى كتاب: «سيرة الرسول :صور مقتبسة من القرآن الكريم » لمؤلفه الأستاذ « محمد عزة دروزة » نقتطف منه فقرات كاشفة :

«وعلة ظهورتلك الحركة فى المدينة واضحة، فالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمون الأولون فى مكة لم يكونوا من القوة والنفوذ فى حالة تستدعى وجود فئة من الناس ترهبهم أو ترجو خيرهم ، فتتملقهم وتتزلف إليهم فى الظاهر ، وتتآمر عليهم وتكيد لهم وتمكر بهم فى الخفاء ، كما كان شأن المنافقين بوجه عام . ولقد كان أهل مكة وزعماؤها خاصة يناوئون النبى جهارا ، ويتناولون من استطاعوا من المسلمين بالأذى الشديد ، ويقاومون الدعوة بكل وسيلة دون ماتحرز أو تحفظ ؛ وكانت القوة لهم حتى اضطر المسلمون إلى الهجرة فرارا بدينهم. ودمهم إلى

Marfat.com

الحبشة أولا ، ثم إلى يثرب ؛ وحتى فتن بعضهم عن دينه بالعنف والإكراه ، أو بالإغراء والتهويش ؛ وحتى تزلزل بعضهم وتبرم ونافق المشركين ، وحتى مات بعض من ناله الأذى ممن ثبت على دينه نتيجة للتعذيب . . .

« أما فى المدينة فقد كان الأمر مختلفا جدا . فالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ استطاع قبل أن يهاجر إليها أن يكسب أنصارا أقوياء من الأوس والخزرج ؛ ولم يهاجر إلا بعد أن استوثق من موقفه ، ولم يبق تقريبا بيت عربى فيها لم يدخله الإسلام . فى هذه الحالة لم يكن من الهين أن يقف الذين لم يؤمنوا به ـ إما عن جهالة وغباء ، وإما عن غيظ وحقد وعناد ، لأنهم رأوا فى قدوم النبي حدا لنفوذهم وسلطانهم ـ موقف الجحود والعداء العلنى للنبي والمسلمين من المهاجرين والأنصار ؛ وكان للعصبية فى الوقت نفسه أثر غير قليل فى عدم الوقوف هذا الموقف ، لأن سواد الأوس والخزرج أصبحوا أنصار النبي ، ومرتبطين به بمواثيق الدفاع والنصر ، إلى أن جلهم قد حسن إسلامهم ، وغدوا يرون فى النبي رسول الله ، وقائدهم الأعلى الواجب الطاعة ، ومرشدهم الأعظم الواجب الاتباع ، فلم يكن يسع الذين ظلت تغلبهم نزعة الشرك ، ويتحكم فيهم مرض القلب والمكابرة والحقد ، ويحملهم ذلك على مناوأة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودعوته ونفوذه ـ أن يظهروا علنا فى نزعتهم وعدائهم ، ولم يكن أمامهم إلا التظاهر بالإسلام ، والقيام بأركانه ، والتضامن مع قبائلهم . وجعل مكرهم وكيدهم ودسهم ومؤامراتهم بأسلوب المراوغة والخداع والتمويه ، وإذا كانوا وقفوا أحيانا مواقف علنية فيها كيد ودس ، وعليها طابع من النفاق بارز ، فإنما كان هذا منهم فى بعض الظروف والأزمات الحادة التى كانت تحدق بالنبي والمسلمين ، والتى كانوا يتخذونها حجة لتلك المواقف بداعى المصلحة والمنطق والاحتياط ؛ ولم يكونوا على كل حال يعترفون بالكفر أو النفاق ، غير أن نفاقهم وكفرهم ومواقفهم فى الكيد والدس والتآمر لم تكن لتخفى على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمخلصين من أصحابه من المهاجرين والأنصار ، كما أن المواقف العلنية التى كانوا يقفونها فى فرص الأزمات كانت مما تزيد كفرهم ونفاقهم فضيحة ومقتا . وقد كانت الآيات القرآنية توجه إليهم كذلك الفضائح المرة بعد المرة ، وتدل عليهم بما يفعلون أو يمكرون ، وتدمغهم بشرورهم وخبثهم ومكايدهم ، وتحذر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمين منهم فى كل ظرف ومناسبة .

« ولقد كانت مواقف المنافقين ومكايدهم بعيدة المدى والأثر على ما تلهم الآيات المدنية ، حتى

Marfat.com

لـكأنه نضال قوى ، يذكر بما كان من نضال بين النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وزعماء مكة ، وإن اختلفت الأدوار والنتائج ، إذ أن النبي لم يلبث أن أخذ مركزه يتوطد وقوته تزداد ، ودائرة الإسلام تتسع ، وصار صاحب سلطان وأمر نافذ وجانب عزيز ؛ وإذ لم يكن المنافقون كتلة متضامنة ذات شخصية خاصة بارزة ، وكان ضعفهم وضآلة عددهم وشأنهم يسيران سيرا متناسبا عكسيا مع ما كان من تزايد قوة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ واتساع دائرة الإسلام ، وتوطد عزته وسلطانه .

« ويكفيك لأجل أن تشعر بخطورة الدور الذى قام به المنافقون ، وخاصة فى أوائل العهد ، أن تلاحظ أن المنافقين كانوا أقوياء نسبيا بعصبياتهم التى كانت ماتزال قوية الأثر فى نفوس سواد قبائلهم ، كما أنهم لم يكونوا مفضوحين فضيحة تامة ، ولم يكن الإسلام قد رسخ فى هذا السواد رسوخا كافيا ؛ وأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان محوطا بالمشركين الجاحدين من كل جانب ، وأهل مكة خصومه الألداء ، وهم قبلة الجزيرة يتربصون به الدوائر ، ويتحينون كل فرصة ووسيلة للقضاء عليه ؛ واليهود فى المدينة وحولها قد تنكروا له منذ عهد مبكر وتطيروا به ، ثم جاهروه بالكفر والعداء والمكر ؛ ولم يلبث أن انعقد بينهم وبين المنافقين حلف طبيعى على توحيد المسعى ، والتضامن فى موقف المعارضة والكيد ، حتى لتمكن القول : إن المنافقين لم يقووا ويثبتوا ويكن منهم ذلك الأذى الشديد والاستمرار فى الكيد والدس إلا بسبب مالقوه من اليهود من تعضيد ، وما انعقد بينهم من تضامن وتواثق ، ولم يضعف شأنهم ويخف خطرهم إلا بعد أن مكن الله للنبي من هؤلاء وأظهره عليهم ، وكفاه شرهم [1] »

* * *

وهذه السورة تبدأ بوصف طريقتهم فى مداراة مافى قلوبهم من الكفر ، وإعلانهم الإسلام والشهادة بأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو رسول الله . وحلفهم كذبا ليصدقهم المسلمون ، واتخاذهم هذه الأيمان وقاية وجنة يخفون وراءها حقيقة أمرهم ، ويخدعون المسلمين فيهم :

« إذا جاءك المنافقون قالوا : نشهد إنك لرسول الله ـ والله يعلم إنك لرسوله ـ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون » . .

فهم كانوا يجيئون إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيشهدون بين يديه برسالته شهادة

(١) يراجع الفصل بتمامه من ص ١٧٦ إلى ٢١٦ بالجزء الثانى من الكتاب .

Marfat.com

باللسان ،لايقصدون بها وجه الحق ، إنما يقولونهاللتقية، وليخفوا أمرهم وحقيقتهم على المسلمين. فهم كاذبون فى أنهم جاءوا ليشهدوا هذه الشهادة ، فقد جاءوا ليخدعواالمسلمين بها ،ويداروا أنفسهم بقولها . ومن ثم يكذبهم الله فى شهادتهم بعد التحفظ الذى يثبت حقيقة الرسالة :« والله يعلم إنك لرسوله » .. « والله يشهد إن المنافقين لـكاذبون » ..

والتعبير من الدقة والاحتياط بصورة تثير الانتباه . فهو يبادر بتثبيت الرسالة قبل تـكذيب مقالة المنافقين . ولولا هذا التحفظ لأوهم ظاهر العبارة تـكذيب المنافقين فى موضوع شهادتهم وهو الرسالة . وليس هذا هو المقصود . إنما المقصود تـكذيب إقرارهم فهم لايقرون الرسالة حقا ولايشهدون بها خالصى الضمير !

« اتخذوا أيمانهم جنة » . . وهى توحى بأنهم كانوا يحلفون الأيمان كلما انـكشف أمرهم ، أوعرف عنهم كيد أوتدبير ، أونقلت عنهم مقالة سوء فى المسلمين . كانوا يحلفون ليتقوا مايترتب على افتضاح أمر من أمورهم ، فيجعلون أيمانهم وقاية وجنة يحتمون وراءها ، ليواصلوا كيدهم ودسهم وإغواءهم للمخدوعين فيهم . « فصدوا عن سبيل الله » .. صدوا أنفسهم وصدوا غيرهم مستمينين بتلك الأيمان الـكاذبة . « إنهم ساء ما كانوا يعملون » . . وهل أسوأ من الـكذب للخداع والتضليل ؟ !

ويعلل حالهم هذه من شهادة مدخولة كاذبة ، وأيمان مكذوبة خادعة ، وصد عن سبيل الله وسوء عمل . . يعلله بأنهم كفروا بعد الإيمان ، واختاروا الـكفر بعد أن عرفوا الإسلام :

« ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم ، فهم لايفقهون » . .

فهم عرفوا الإيمان إذن ، ولـكنهم اختاروا العودة إلى الـكفر ومايعرف الإيمان ثم يعود إلى الـكفر قلب فيه فقه ، أوتذوق ، أوحياة . وإلافمن ذا الذى يذوق ويعرف ، ويطلع على التصور الإيمانى للوجود ، وعلى التذوق الإيمانى للحياة ، ويتنفس فى جو الإيمان الذكى ، ويحيا فى نور الإيمان الوضىء ،ويتفيأ ظلال الإيمان الندية ..ثم يعود إلى الـكفر الـكالح الميت الخاوى المجدب الـكنود ؟ من ذا الذى يصنع هذا إلا المطموس الـكنود الحقود ، الذى لايفقه ولايحس ولايشعر بهذا الفارق البعيد ! « فطبع على قلوبهم فهم لايفقهون » . .

ثم يرسم لهم السياق صورة فريدة مبدعة ؛ تثير السخرية والهزء والزراية بهذا الصنف الممسوخ المطموس من الناس ، وتسمهم بالفراغ والخواء والانطماس والجبن والفزع والحقد والـكنود . بل تنصبهم تمثالا وهدفا للسخرية فى معرض الوجود :

Marfat.com

« وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم . وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة . يحسبون كل صيحة عليهم . هم العدو فاحذرهم . قاتلهم الله ! أنى يؤفكون ؟ » . .

فهم أجسام تعجب. لاأناسى تتجاوب ! وماداموا صامتين فهم أجسام معجبة للعيون . . فأما حين ينطقون فهم خواء من كل معنى ومن كل حس ومن كل خالجة.. « تسمع لقولهم كأنهم خشب».. ولكنها ليست خشبا فحسب . إنما هى « خشب مسندة » . . لاحركة لها ، ملطوعة بجانب الجدار !

هذا الجمود الراكد البارد يصورهم من ناحية فقه أرواحهم إن كانت لهم أرواح ! ويقابله من ناحية أخرى حالة من التوجس الدائم والفزع الدائم والاهتزاز الدائم :

« يحسبون كل صيحة عليهم » ..

فهم يعرفون أنهم منافقون مستورون بستار رقيق من التظاهر والحلف والملق والالتواء. وهم يخشون فى كل لحظة أن يكون أمرهم قد افتضح وسترهم قد انكشف . والتعبير يرسمهم أبدا متلفتين حواليهم ، يتوجسون من كل حركة ومن كل صوت ومن كل هاتف ، يحسبونه يطلبهم ، وقد عرف حقيقة أمرهم !!

وبينما هم خشب مسندة ملطوعة إذا كان الأمر أمر فقه وروح وشعور بإيقاعات الإيمان . . إذا هم كالقصبة المرتجفة فى مهب الريح إذا كان الأمر أمر خوف على الأنفس والأموال !

وهم بهذا وذاك يمثلون العدو الأول للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وللمسلمين :

« هم العدو فاحذرهم » ..

هم العدو الحقيقى . العدو الكامن داخل المعسكر ، المختبئ فى الصف . وهو أخطر من العدو الخارجى الصريح . « فاحذرهم » .. ولكن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يؤمر هنا بقتلهم ، فأخذهم بخطة أخرى فيها حكمة وسعة وثقة بالنجاة من كيدهم (كما سيجىء نموذج من هذه المعاملة بعد قليل) ..

« قاتلهم الله أنى يؤفكون » ..

فالله مقاتلهم حيثما صرفوا وأنى توجهوا . والدعاء من الله حكم بمدلول هذا الدعاء ، وقضاء نافذ لاراد له ولامعقب عليه .. وهذا هو الذى كان فى نهاية المطاف .

* * *

Marfat.com

ويستطرد السياق فى وصف تصرفاتهم الدالة على دخل قلوبهم ، وتبييتهم للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكذبهم عند المواجهة .. وهى مجموعة من الصفات اشتهر بها المنافقون :

« وإذا قيل لهم : تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ، ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون . سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم ، إن الله لايهدى القوم الفاسقين . هم الذين يقولون : لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا . ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لايفقهون . يقولون : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين . ولكن المنافقين لايعلمون » ..

وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل فى عبد الله ابن أبى ابن سلول :

وفصل ابن إسحاق هذا فى حديثه عن غزوة بنى المصطلق سنة ست على المريسيع .. ماءلهم .. فبينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ذلك الماء ـ بعد الغزوة ـ وردت واردة الناس ، ومع عمر ابن الخطاب أجير له من بنى غفار يقال له : جهجاه ابن مسعود يقود فرسه ، فازدحم جهجاه وسنان ابن وبر الجهنى حليف بنى عون ابن الخزرج على الماء ، فاقتتلا ، فصرخ الجهنى : يامعشر الأنصار . وصرخ جهجاه : يامعشر المهاجرين . فغضب عبد الله ابن أبى ابن سلول ، وعنده رهط من قومه ، فيهم زيد ابن أرقم غلام حدث . فقال : أوقد فعلوها ؟ قدنافرونا وكاثرونا فى بلادنا . والله ما أعدُّنا وجلابيب قريش (١) إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم : هذا مافعلتم بأنفسكم : أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لوأمسكتم عنهم بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم . فسمع ذلك زيد ابن أرقم . فمشى به إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك عند فراغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عدوه ، فأخبره الخبر ، وعنده عمر ابن الخطاب . فقال : مربه عباد ابن بشر فليقتله . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « فكيف ياعمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ؟ لاولكن أذن بالرحيل » . وذلك فى ساعة لم يكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرتحل فيها . فارتحل الناس ، وقد مشى عبدالله ابن أبى ابن سلول إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين بلغه أن زيد ابن أرقم قد بلغه ماسمع منه ـ فحلف بالله ماقلت ماقال ولا تكلمت به . وكان فى قومه شريفا عظيما . فقال

---

(١) الجلابيب : اسم كان يلقب به المنافقون أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المهاجرين .

Marfat.com

من حضر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الأنصار من أصحابه : يارسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه ولم يحفظ ماقال الرجل . حدباً على ابن أبى ابن سلول ودفعا عنه .

قال ابن إسحاق فلما استقل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسار لقيه أسيد ابن حضير، فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ، ثم قال : يانبى الله ، والله لقد رحت فى ساعة منكرة ما كنت تروح فى مثلها . فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أو ما بلغك ماقال صاحبكم ؟ » قال : وأى صاحب يارسول الله ؟ قال «عبدالله ابن أبى » قال : وما قال ؟ قال : « زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل؟»قال : فأنت يارسول الله والله لتخرجنه منها إن شئت. هو والله الذليل وأنت العزيز . ثم قال : يارسول الله ارفق به . فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكا !

ثم مشى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس . ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياما ، وإنما فعل ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس من حديث عبد الله ابن أبى .

قال ابن إسحاق : ونزلت السورة التى ذكر الله فيها المنافقين ،فى ابن أبى ومن كان على مثل أمره . فلما نزلت أخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأذن زيد ابن أرقم ، ثم قال : « هذا الذى أوفى لله بأذنه » . . وبلغ عبد الله ابن عبد الله ابن أبى الذى كان من أمر أبيه .

قال ابن إسحاق . فحدثنى عاصم ابن عمر ابن قتادة أن عبد الله أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يارسول الله ، إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله ابن أبى فيما بلغك عنه . فإن كنت لابد فاعلا فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى ، وإنى أخشى أن تأمر غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله ابن أبى يمشى فى الناس ، فأقتله ، فأقتل مؤمنا بكافر ، فأدخل النار . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « بل ترفق به ونحسن صحبته مابقى معنا » .

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه وينفونه .فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعمر ابن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم : « كيف ترى

Marfat.com

ياعمر ؟أما والله لو قتلته يوم قلت لى: اقتله لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم تقتله لقتلته » . .
قال : قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعظم بركة من أمرى . .

وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله ابن عبد الله ابن أبى على باب المدينة ، واستل سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه ، فلما جاء أبوه عبد الله ابن أبى قال له ابنه : وراءك ! فقال مالك؟ ويلك! فقال :والله لاتجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنه العزيز وأنت الذليل !فلما جاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان إنما يسير ساقة [1] ، فشكا إليه عبد الله ابن أبى ابنه . فقال ابنه عبد الله : والله يارسول الله لايدخلها حتى تأذن له . فأذن له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : أما إذ أذن لك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجز الآن . .[2]

* * *

وننظر مرة إلى الأحداث ، ومرة إلى الرجال ، ومرة إلى النص القرآنى ، فنجدنا مع السيرة ، ومع المنهج التربوى الإلهى ، ومع قدر الله العجيب فى تصريف الأمور . .

فهذا هو الصف المسلم يندس فيه المنافقون ؛ ويعيشون فيه ـ فى حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرابة عشر سنوات . والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لايخرجهم من الصف ، ولا يعرفهم الله له بأسمائهم وأعيانهم إلا قبيل وفاته . وإن كان يعرفهم فى لحن القول ، بالالتواء والمداورة . ويعرفهم بسيماهم وما يبدو فيهامن آثار الانفعالات والانطباعات . ذلك كى لايكل الله قلوب الناس للناس . فالقلوب له وحده ، وهو الذى يعلم ما فيها ويحاسب عليه ، فأما الناس فلهم ظاهر الأمر ؛ كى لايأخذوا الناس بالظنة ، وكى لايقضوا فى أمورهم بالفراسة ! وحتى حينما عرف الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالنفر الذين ظلوا على نفاقهم إلى أواخر حياته ، فإنه لم يطردهم من الجماعة وهم يظهرون الإسلام ويؤدون فرائضه .إنما عرفهم وعرّف بهم واحدا فقط من رجاله هو حذيفة ابن اليمان ـ رضى الله عنه ـ ولم يشع ذلك بين المسلمين . حتى إن عمر ـ رضى الله عنه ـ كان يأتى حذيفة ليطمئن منه على نفسه أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

---

(١) فى مؤخرة الجيش ينظر المتخلف والضال والمحتاج إلى معونة . . .
(٢) مما يلاحظ أن حديث الإفك المشهور قد وقع فى أعقاب تلك الغزوة وكان الذى تولى كبره هو عبد الله بن أبى ابن سلول !

Marfat.com

لم يسمه له من المنافقين ! وكان حذيفة يقول له : ياعمر لست منهم . ولا يزيد ! وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أمر ألا يصلى على أحد منهم مات أبدا . فكان أصحابه يعرفون عند ما يرون الرسول لايصلى على ميت . فلما قبض ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان حذيفة لايصلى على من عرف أنه منهم. وكان عمر لاينهض للصلاة على ميت حتى ينظر . فإن رأى حذيفة هناك علم أنه ليس من المجموعة وإلا لم يصل هو الآخر ولم يقل شيئا !

وهكذا كانت تجرى الأحداث ـ كما يرسمها القدر ـ لحكمتها ولغايتها ، للتربية والعبرة وبناء الأخلاق والنظم والآداب .

وهذا الحادث الذى نزلت فيه تلك الآيات هو وحده موضع عبر وعظات جمة . .

هذاعبد الله ابن أبى ابن سلول. يعيش بين المسلمين . قريبا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . تتوالى الأحداث والآيات من بين يديه ومن خلفه على حقيقة هذا الدين وصدق هذا الرسول . ولكن الله لايهدى قلبه للإيمان ، لأنه لم يكتب له هذه الرحمة وهذه النعمة . وتقف دونه ودون هذا الفيض المتدفق من النور والتأثير ، تقف دونه إحنة فى صدره أن لم يكن ملكا على الأوس والخزرج ، بسبب مقدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالإسلام إلى المدينة ! فتكفه هذه وحدها عن الهدى . الذى تواجهه دلائله من كل جانب . وهو يعيش فى فيض الإسلام ومده فى يثرب !

وهذا ابنه عبد الله ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ نموذج رفيع للمسلم المتجرد الطائع . يشق بأبيه ويضيق بأفاعيله ويخجل من مواقفه . ولكنه يكن له مايكنه الولد البار العطوف. ويسمع أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يريد أن يقتل أباه هذا . فيختلج قلبه بعواطف ومشاعر متباينة ، يواجهها هو فى صراحة وفى قوة وفى نصاعة . إنه يحب الإسلام ، ويحب طاعة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ. ويحب أن ينفذ أمره ولوفى أبيه . ولكنه لايطيق أن يتقدم أحد فيضرب عنق أبيه ويظل يمشى على الأرض بعده أمام ناظريه . وهو يخشى أن تخونه نفسه ، وألايقدرعلى مغالبة شيطان العصبية ، وهتاف الثأر. وهنا يلجأ إلى نبيه وقائده ليعينه على خلجات قلبه ، ويرفع عنه هذا العنت الذى يلاقيه . فيطلب منه إن كان لابد فاعلا أن يأمره هو بقتل أبيه . وهو لابد مطيع . وهو يأتيه برأسه . كى لايتولى ذلك غيره ، فلايطيق أن يرى قاتل أبيه يمشى على الأرض . فيقتله . فيقتل مؤمنا بكافر . فيدخل النار . .

Marfat.com

وإنها لروعة تواجه القلب أينما اتجه وأينما قلب النظر فى هذا الموقف الكريم . روعة الإيمان فى قلب إنسان ،وهو يعرض على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يكل إليه أشق عمل على النفس البشرية ـ أن يقتل أباه ـ وهو صادق النية فيما يعرض . يتقى به ماهو أكبر فى نظره وأشق . . وهو أن تضطره نوازعه البشرية إلى قتل مؤمن بكافر ، فيدخل النار . . وروعة الصدق والصراحة وهو يواجه ضعفه البشرى تجاه أبيه وهو يقول : « فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى » . وهو يطلب من نبيه وقائده أن يعينه على هذا الضعف ويخرجه من هذا الحرج ؛ لا بأن يرد أمره أو يغيره ـ فالأمر مطاع والإشارة نافذة ـ ولكن بأن يكل إليه هو أن يأتيه برأسه !

والرسول الكريم يرى هذه النفس المؤمنة المحرجة ، فيمسح عنها الحرج فى سماحة وكرامة: « بل نترفق به ونحسن صحبته مابقى معنا » . . ومن قبل هذا يكف عمر ابن الخطاب رضى الله عنه عن رأيه : « فكيف ياعمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ؟ » .

ثم تصرف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الحادث تصرف القائد الملهم الحكيم . . وأمره بالسير فى غير أوان ، ومتابعة السير حتى الإعياء ، ليصرف الناس عن العصبية المنتنة التى أثارها صياح الرجلين المتقاتلين : ياللأنصار ! ياللمهاجرين ! وليصرفهم كذلك عن الفتنة التى أطلقها المنافق عبدالله ابن أبى ابن سلول ، وأرادها أن تحرق مابين الأنصار والمهاجرين من مودة وإخاء فريدين فى تاريخ العقائد وفى تاريخ الإنسان .. وحديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع أسيد ابن حضير ، ومافيه من تعبئة روحية ضد الفتنة ، واستجاشة للأخذ على يد صاحبها وهو صاحب المكانة فى قومه حتى بعد الإسلام !

وأخيرا نقف أمام المشهد الرائع الأخير . مشهد الرجل المؤمن عبدالله ابن عبدالله ابن أبى . وهو يأخذ بسيفه مدخل المدينة على أبيه فلا يدعه يدخل . تصديقا لمقاله هو: « ليخرجن الأعز منها الأذل » . ليعلم أن رسول الله هو الأعز . وأنه هو الأذل . ويظل يقفه حتى يأتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيأذن له. فيدخلها بإذنه .ويتقرر بالتجربة الواقعة من هو الأعز ومن هو الأذل . فى نفس الواقعة . وفى ذات الأوان .

ألا إنها لقمة سامقة تلك التى رفع الإيمان إليها أولئك الرجال . رفعهم إلى هذه القمة، وهم بعد بشر، بهم ضعف البشر ، وفيهم عواطف البشر ، وخوالج البشر . وهذا هو أجمل وأصدق

Marfat.com

مافى هذه العقيدة ، حين يدركها الناس على حقيقتها ، وحين يصبحون هم حقيقتها التى تدب على الأرض فى صورة أناسىّ تأكل الطعام وتمشى فى الأسواق .

* * *

ثم نعيش فى ظلال النصوص القرآنية التى تضمنت تلك الأحداث :

« وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ، ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون » . .

فهم يفعلون الفعلة ، ويطلقون القولة . فإذا عرفوا أنها بلغت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جبنوا وتخاذلوا وراحوا يقسمون بالأيمان يتخذونها جنة . فإذا قال لهم قائل : تعالوا يستغفر لكم رسول الله، وهم فى أمن من مواجهته، لووا رؤوسهم ترفعا واستكبارا! وهذه وتلك سمتان متلازمتان فى النفس المنافقة . وإن كان هذا التصرف يجىء عادة ممن لهم مركز فى قومهم ومقام . ولكنهم هم فى ذوات أنفسهم أضعف من المواجهة ؛ فهم يستكبرون ويصدون ويلوون رؤوسهم ماداموا فى أمان من المواجهة . حتى إذا ووجهوا كان الجبن والتخاذل والأيمان !

ومن ثم يتوجه الخطاب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما قضاه الله فى شأنهم على كل حال . وبعدم جدوى الاستغفار لهم بعد قضاء الله :

« سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم . إن الله لا يهدى القوم الفاسقين » . .

ويحكى طرفا من فسقهم ، الذى استوجب قضاء الله فيهم :

« هم الذين يقولون : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا » . .

وهى قولة يتجلى فيها خبث الطبع ، ولؤم النحيزة . وهى خطة التجويع التى يبدو أن خصوم الحق والإيمان يتواصون بها على اختلاف الزمان والمكان ، فى حرب العقيدة ومناهضة الأديان . ذلك أنهم لخسة مشاعرهم يحسبون لقمة العيش هى كل شىء فى الحياة كما هى فى حسهم فيحاربون بها المؤمنين .

إنها خطة قريش وهى تقاطع بنى هاشم فى الشعب لينفضوا عن نصرة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويسلموه للمشركين !

وهى خطة المنافقين كما تحكيها هذه الآية لينفض أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنه تحت وطأة الضيق والجوع !

Marfat.com

وهى خطة الشيوعيين فى حرمان المتدينين فى بلادهم من بطاقات التموين ، ليموتوا جوعا أويكفروا بالله ، ويتركوا الصلاة !

وهى خطة غيرهم ممن يحاربون الدعوة إلى الله وحركة البعث الإسلامى فى بلاد الإسلام ، بالحصار والتجويع ومحاولة سد أسباب العمل والارتزاق ..

وهكذ يتوافى على هذه الوسيلة الخسيسة كل خصوم الإيمان ، من قديم الزمان ، إلى هذا الزمان . . ناسين الحقيقة البسيطة التى يذكرهم القرآن بها قبل ختام هذه الآية :

« ولله خزائن السماوات والأرض . ولكن المنافقين لايفقهون » . .

ومن خزائن الله فى السماوات والأرض يرتزق هؤلاء الذين يحاولون أن يتحكموا فى أرزاق المؤمنين، فليسوا هم الذين يخلقون رزق أنفسهم . فما أغباهم وأقل فقههم وهم يحاولون قطع الرزق عن الآخرين !

وهكذا يثبت الله المؤمنين ويقوى قلوبهم على مواجهة هذه الخطة اللئيمة والوسيلة الخسيسة، التى يلجأ أعداء الله إليها فى حربهم . ويطمئنهم إلى أن خزائن الله فى السماوات والأرض هى خزائن الأرزاق للجميع . والذى يعطى أعداءه لاينسى أولياءه . فقد شاءت رحمته ألا يأخذ حتى أعداءه من عباده بالتجويع وقطع الأرزاق . وقد علم أنهم لايرزقون أنفسهم كثيرا ولا قليلا لو قطع عنهم الأرزاق ! وهو أكرم أن يكل عباده ـ ولو كانوا أعداءه ـ إلى مايعجزون عنه البتة . فالتجويع خطة لايفكر فيها إلا أخس الأخساء وألأم اللؤماء !

ثم قولتهم الأخيرة :

« يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » . .

وقد رأينا كيف حقق ذلك عبد الله ابن عبدالله ابن أبى او كيف لم يدخلها الأذل إلا بإذن الأعز !

« ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين . ولكن المنافقين لا يعلمون » . .

ويضم الله ـ سبحانه ـ رسوله والمؤمنين إلى جانبه ، ويضفى عليهم من عزته، وهو تكريم هائل لايكرمه إلا الله ! وأى تكريم بعد أن يوقف الله ـ سبحانه ـ رسوله والمؤمنين معه إلى جواره . ويقول : هاأنتم أولاء ! هذا لواء الأعزاء . وهذا هو الصف العزيز !

وصدق الله . فجعل العزة صنو الإيمان فى القلب المؤمن . العزة المستمدة من عزته تعالى . العزة التى لاتهون ولا تهن ، ولا تنحنى ولا تلين . ولا تزايل القلب المؤمن فى أحرج اللحظات إلا أن يتضعضع فيه الإيمان . فإذا استقر الإيمان ورسخ فالعزة معه مستقرة راسخة . .

Marfat.com

« ولـكن المنافقين لايعلمون » . .

وكيف يعلمون وهم لايتذوقون هذه العزة ولا يتصلون بمصدرها الأصيل ؟

* * *

لهؤلاء المؤمنين الذين أوقفهم الله فى صفه مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجعل عزتهم من عزته يوجه النداء الأخير فى السورة ، ليرتفعوا إلى هذا المكان الكريم ، ويبرأوا من كل صفة تشبه صفات المنافقين ، ويختاروا ذلك المقام الأسنى على الأموال والأولاد ، فلا يدعوها تلهيهم عن بلوغ ذلك المقام الوضىء :

«ياأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله . ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون . وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت ، فيقول : رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين .ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها ، والله خبير بما تعملون » . .

والأموال والأولاد ملهاة ومشغلة إذا لم يستيقظ القلب ، ويدرك غاية وجوده ، ويشعر أن له هدفا أعلى يليق بالمخلوق الذى نفخ الله فيه من روحه ، فأودع روحه الشوق إلى تحقيق بعض صفاته الإلهية فى حدود طاقته البشرية . وقد منحه الأموال والأولاد ليقوم بالخلافة فى الأرض لا لتلهيه عن ذكر الله والاتصال بالمصدر الذى تلقى منه ماهو به إنسان . ومن يغفل عن الاتصال بذلك المصدر ، ويلهيه عن ذكر الله ليتم له هذا الاتصال « فأولئك هم الخاسرون » . . وأول مايخسرونه هو هذه السمة . سمة الإنسان . فهى موقوفة على الاتصال بالمصدر الذى صار به الإنسان إنسانا . ومن يخسر نفسه فقد خسر كل شىء . مهما يملك من مال ومن أولاد .

ويلمسهم فى موضوع الإنفاق لمسات متنوعة فى آية واحدة . .

« وأنفقوا مما رزقناكم » . . فيذكرهم بمصدر هذا الرزق الذى فى أيديهم .فهو من عند الله الذى آمنوا به والذى يأمرهم بالإنفاق .

« من قبل أن يأتى أحدكم الموت . . . » . .

فيترك كل شىء وراءه لغيره ؛ وينظر فلا يجد أنه قدم شيئا لنفسه ، وهذا أحمق الحمق وأخسر الخسران .

Marfat.com

ثم يرجو حينئذ ويتمنى أن لو كان قد أمهل ليتصدق وليكون من الصالحين !

وأنى له هذا ؟ : « ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها » ؟

وأنى له مايتقدم به ؟ « والله خبير بما تعملون » ؟ .

إنها اللمسات المنوعة فى الآية الواحدة . فى مكانها المناسب بعد عرض سمات المنافقين وكيدهم للمؤمنين . ولواذ المؤمنين بصف الله الذى يقيهم كيد المنافقين . . فما أجدرهم إذن أن ينهضوا بتكاليف الإيمان ، وألايغفلوا عن ذكر الله . وهو مصدر الأمان . .

وهكذا يربى الله المسلمين بهذا القرآن الكريم ..

Marfat.com

سورة التغابن مدنية
وآياتها ١٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ، لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُؤْمِنٌ ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ، وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ، وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ * يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ . وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَاتِ ، فَقَالُوا : أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ؟ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا ، وَٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ، وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ .

« زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا . قُلْ : بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ، وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * فَآمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَٱلنُّورِ ٱلَّذِي أَنزَلْنَا ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ، ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ . وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ، وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ * مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ، وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ، وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ ، فَإِنْ

Marfat.com

تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ . وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ . وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » ﴿١٨﴾

هذه السورة أشبه شيء بالسور المكية في موضوعها وفي سياقها وفي ظلالها وإيحاءاتها ، وبخاصة المقاطع الأولى منها . فلايكاد الجو المدني يتبين إلافي فقراتها الأخيرة .

والفقرات الأولى إلى ابتداء النداء: « ياأيها الذين آمنوا » .. تستهدف بناء أسس العقيدة، وإنشاء التصور الإسلامي فيالقلوب بأسلوب السور المكيةالتي تواجه الكفارالمشركين ابتداء ، وتخاطبهم بهذا التصور خطاب المبتدئ في مواجهته. ثمهي تستخدم المؤثرات الكونية والنفسية كما تستعرض مصائر الغابرين من المكذبين قبلهم ؛ وتعرض عليهم مشاهد القيامة لإثبات البعث، وتوكيده توكيدا شديدا ، يدل على أن المخاطبين به من المنكرين الجاحدين .

فأما الفقرات الأخيرة فهي تخاطب الذين آمنوا بمايشبه خطابهم في السور المدنية ، لحثهم على الإنفاق ، وتحذيرهم فتنة الأموال والأولاد .وهي الدعوة التي تكررت نظائرها في العهد المدني بسبب مقتضيات الحياة الإسلامية الناشئة فيها. كما أن فيها ماقد يكون تعزية عن مصاب أوتكاليف وقعت على عاتق المؤمنين ، ورد الأمر فيها إلى قدر الله ، وتثبيت هذا التصور ..وهو مايتكرر في السور المدنية وبخاصة بعد الأمر بالجهاد وما ينشأ عنهمن تضحيات .

ولقد وردت روايات أن السورة مكية ، ووردت روايات أخرى أنها مدنية مع ترجيحها. وكدت أميل إلى اعتبارها مكية تأثرا بأسلوب الفقرات الأولى فيها وجوها . ولكني أبقيت

Marfat.com

اعتبارها مدنية ـ مع الرأى الراجح فيها ـ لأنه ليس مايمنع أن تكون الفقرات الأولى فيها خطابا للكفار بعد الهجرة سواء كانوا كفار مكة أم الكفار القريبين من المدينة . كما أنه ليس مايمنع أن يستهدف القرآن المدنى فى بعض الأحيان جلاء أسس العقيدة ، وإيضاح التصور الإسلامى ، بهذا الأسلوب الغالب على أسلوب القرآن المكى .. والله أعلم ..

* * *

والمقطع الأول فى السورة يستهدف بناء التصور الإيمانى الكونى . وعرض حقيقة الصلة بين الخالق ـ سبحانه ـ وهذا الكون الذى خلقه . وتقرير حقيقة بعض صفات الله وأسمائه الحسنى وأثرها فى الكون وفى الحياة الإنسانية :

« يسبح لله مافى السماوات ومافى الأرض ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير . هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير . خلق السماوات والأرض بالحق ، وصوركم فأحسن صوركم ، وإليه المصير . يعلم مافى السماوات والأرض ويعلم ماتسرون وماتعلنون. والله عليم بذات الصدور » ..

وهذا التصور الكونى الإيمانى هو أدق وأوسع تصور عرفه المؤمنون فى تاريخ العقيدة . ولقد جاءت الرسالات الإلهية كلها بوحدانية الله، وإنشائه لهذا الوجود ولكل مخلوق ، ورعايته لكل كائن فى الوجود . . لاشك فى هذا لأن القرآن يحكيه عن الرسل وعن الرسالات كلها. ولاعبرة بما نجده فى الكتب المفتراة والمحرفة ؛ أوفيما يكتبه عن الديانات المقارنة أناس لايؤمنون بالقرآن كله أو بعضه . إنما جاء الانحراف عن العقيدة الإيمانية من أتباعها ، فبدا أنها لم تأت بالتوحيد الخالص ، أولم تأت بهيمنة الله واتصاله بكل كائن . فهذا من التحريف الطارىء لامن أصل الديانة . فدين الله واحد منذ أولى الرسالات إلى خاتمة الرسالات . ويستحيل أن ينزل الله دينا يخالف هذه القواعد ، كما يزعم الزاعمون بناء على مايجدونه فى كتب مفتراة أو محرفة باسم الدين !

ولكن تقرير هذه الحقيقة لاينافى أن التصور الإسلامى عن الذات الإلهية ، وصفاتها العلوية، وآثار هذه الصفات فى الكون وفى الحياة الإنسانية .. أن هذا التصور أوسع وأدق وأكمل من كل تصور سابق فى الديانات الإلهية . . وهذا متفق مع طبيعة الرسالة ومهمتها الأخيرة . ومع الرشد البشرى الذى جاءت هذه الرسالة لتخاطبه وتوجهه ؛ وتنشىء فيه هذا التصور الشامل الكامل بكل مقتضياته وفروعه وآثاره .

Marfat.com

ومن شأن هذا التصور أن يدرك القلب البشرى ـ بمقدار مايطيق ـ حقيقة الألوهية وعظمتها، ويشعر بالقدرة الإلهية ويراها فى آثارها المشهودة فى الكون ، ويحسها فى ذوات الأنفس بآثارها المشهودة والمدركة ؛ ويعيش فى مجال هذه القدرة وبين آثارها التى لاتغيب عن الحس والعقل والإلهام . ويراها محيطة بكل شىء ، مهيمنة على كل شىء ، مدبرة لكل شىء ، حافظة لكل شىء ، لايند عنها شىء . سواء فى ذلك الكبير والصغير والجليل والحقير .

ومن شأنه كذلك أن يعيش القلب البشرى فى حساسية مرهفة، وتوفز دائم، وخشية وارتقاب ، وطمع ورجاء ؛ وأن يمضى فى الحياة معلقا فى كل حركة وكل خالجة بالله، شاعرا بقدرته وهيمنته ، شاعرا بعلمه ورقابته ، شاعرا بقهره وجبروته ، شاعرا برحمته وفضله ، شاعرا بقربه منه فى كل حال .

وأخيرا فإن من شأنه أن يحس بالوجود كله متجها إلى خالقه فيتجه معه ، مسبحا بحمد ربه فيشاركه تسبيحه ، مدبرا بأمره وحكمته فيخضع لشريعته وقانونه . . ومن ثم فهو تصور إيمانى كونى بهذا المعنى ، وبمعان أخرى كثيرة تتجلى فى المواضع المتعددة فى القرآن التى تضمنت عرض جوانب من هذا التصور الإيمانى الشامل الكامل المحيط الدقيق . وأقرب مثل منها ماورد فى ختام سورة الحشر ، فى هذا الجزء (١)

* * *

« يسبح لله مافى السماوات ومافى الأرض ، له الملك وله الحمد » . .

فكل مافى السماوات والأرض متوجه إلى ربه، مسبح بحمده ؛ وقلب هذا الوجود مؤمن ، وروح كل شىء فى هذا الوجود مؤمنة ، والله مالك كل شىء . وكل شىء شاعر بهذه الحقيقة . والله محمود بذاته ممجد من مخلوقاته . فإذا وقف الإنسان وحده فى خضم هذا الوجود الكبير كافر القلب جامد الروح ، متمردا عاصيا ، لايسبح لله ، ولا يتجه إلى مولاه ، فإنه يكون شاذا بارز الشذوذ ، كما يكون فى موقف المنبوذ من كل مافى الوجود .

« وهو على كل شىء قدير » . .

فهى القدرة المطلقة، التى لاتتقيد بقيد . وهى حقيقة يطبعها القرآن فى القلب المؤمن فيعرفها ويتأثر بمداولها ، ويعلم أنه حين يركن إلى ربه فإنما يركن إلى قدرة تفعل ماتشاء ، وتحقق ماتريد . بلا حدود ولاقيود .

(١) فكرة الإسلام من الكون والحياة والإنسان . . بحث أرجو بتوفيق الله لإخراجه إلى حيز الوجود.

Marfat.com

وهذا التصور لقدرة الله وتسبيح كل شيء له ، وتوجه الوجود إليه بالحمد .. هو طرف من ذلك التصور الإيمانى الكبير .

واللمسة الثانية فى صميم القلب الإنسانى ، الذى يقف فى خضم الوجود المؤمن المسبح بحمد الله . مؤمنا تارة وكافرا تارة . وهو وحده الذى يقف هذا الموقف الفريد .

« هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن » ..

فمن إرادة الله وعن قدرته صدر هذا الإنسان ؛ وأودع إمكان الاتجاه إلى الكفر وإمكان الاتجاه إلى الإيمان ؛ وتميز بهذا الاستعداد المزدوج من بين خلق الله ؛ ونيطت به أمانة الإيمان بحكم هذا الاستعداد . وهى أمانة ضخمة وتبعة هائلة . ولكن الله كرم هذا المخلوق فأودعه القدرة على التمييز والقدرة على الاختيار ؛ وأمده بعد ذلك بالميزان الذى يزن به عمله ويقيس به اتجاهه - وهو الدين الذى نزله على رسل منه . فأعانه بهذا كله على حمل هذه الأمانة . ولم يظلمه شيئا .

« والله بما تعملون بصير » . .

فهو رقيب على هذا الإنسان فيما يعمل ، بصير بحقيقة نيته واتجاهه ، فليعمل إذن وليحذر هذا الرقيب البصير ..

وهذا التصور لحقيقة الإنسان وموقفه هو طرف من التصور الإسلامى الواضح المستقيم لموقف الإنسان فى هذا الوجود ، واستعداداته وتبعاته أمام خالق الوجود .

واللمسة الثالثة تشير إلى الحق الأصيل الكامن فى طبيعة الوجود ، الذى تقوم به السماوات والأرض ، كما تشير إلى صنعة الله المبدعة فى كيان المخلوق الإنسانى . وتقرر رجعة الجميع إليه فى نهاية المطاف :

« خلق السماوات والأرض بالحق ، وصوركم فأحسن صوركم ، وإليه المصير » . .

وصدر هذا النص : «خلق السماوات والأرض بالحق » . . يقر فى شعور المؤمن أن الحق أصيل فى كيان هذا الكون ، ليس عارضا وليس نافلة ؛ فبناء الكون قام على هذا الأساس . والذى يقرر هذه الحقيقة هو الله الذى خلق السماوات والأرض، والذى يعلم على أى أساس قامتا. واستقرار هذه الحقيقة فى الحس يمنحه الطمأنينة والثقة فى الحق الذى يقوم عليه دينه ، ويقوم عليه الوجود من حوله ؛ فهو لابد ظاهر ، ولابد باق ، ولابد مستقر فى النهاية بعد زبد الباطل!

Marfat.com

والحقيقة الثانية : « وصوركم فأحسن صوركم » . . تشعر الإنسان بكرامته على الله، وبفضل الله عليه فى تحسين صورته : صورته الخلقية وصورته الشعورية . فالإنسان هو أكمل الأحياء فى الأرض من ناحية تكوينه الجثمانى ؛ كما أنه أرقاها من ناحية تكوينه الشعورى واستعداداته الروحية ذات الأسرار العجيبة. ومن ثم وكلت إليه خلافة الأرض ، وأقيم فى هذا الملك العريض بالقياس إليه !

ونظرة فاحصة إلى الهندسة العامة لتركيب الإنسان ، أو إلى أى جهاز من أجهزته ، تثبت تلك الحقيقة وتجسمها : « وصوركم فأحسن صوركم » . . وهى هندسة يجتمع فيها الجمال إلى الكمال . ويتفاوت الجمال بين شكل وشكل . ولكن التصميم فى ذاته جميل وكامل الصنعة ، وواف بكل الوظائف والخصائص التى يتفوق بها الإنسان فى الأرض على سائر الأحياء.

« وإليه المصير » . . مصير كل شىء، وكل أمر وكل خلق . . مصير هذا الكون ومصير هذا الإنسان. فمن إرادته انبثق، وإليه ـ سبحانه ـ يعود . ومنه المنشأ وإليه المصير. وهو الأول والآخر . المحيط بكل شىء من طرفيه : مبدئه ونهايته . وهو ـ سبحانه ـ غير محدود!

واللمسة الرابعة فى هذا المقطع هى تصوير العلم الإلهى المحيط بكل شىء ، المطلع على سر الإنسان وعلانيته ، وعلى ماهو أخفى من السر ، من ذوات الصدور الملازمة للصدور :

« يعلم مافى السماوات والأرض، ويعلم ماتسرون وما تعلنون ،والله عليم بذات الصدور » . .

واستقرار هذه الحقيقة فى القلب المؤمن يفيده المعرفة بربه ، فيعرفه بحقيقته . ويمنحه جانبا من التصور الإيمانى الكونى . ويؤثر فى مشاعره واتجاهاته ؛ فيحيا حياة الشاعر بأنه مكشوف كله لعين الله . فليس له سر يخفى عليه ، وليس له نية غائرة فى الضمير لايراها وهو العليم بذات الصدور .

وإن آيات ثلاثا كهذه لكافية وحدها ليعيش بها الإنسان مدركا لحقيقة وجوده ، ووجود الكون كله ، وصلته بخالقه ، وأدبه مع ربه ، وخشيته وتقواه ، فى كل حركة وكل اتجاه . .

* * *

والمقطع الثانى فى السورة يذكر بمصير الغابرين من المكذبين بالرسل والبينات ، المعترضين على بشرية الرسل . كما كان المشركون يكذبون ويعترضون على بشرية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويكفرون بما جاءهم به من البينات :

Marfat.com

« ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ؟ ولهم عذاب أليم . ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ، فقالوا : أبشر يهدوننا ؟ فكفروا وتولوا ، واستغنى الله ، والله غنى حميد » . .

والخطاب هنا للمشركين ـ غالبا ـ وهو تذكير لهم بعاقبة المكذبين وتحذير لهم من مثل هذه العاقبة . والاستفهام قد يكون لإنكار حالهم بعد ماجاءهم من نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم . وقد يكون للفت أنظارهم إلى هذا النبأ الذى يقصه عليهم . وهم كانوا يعرفون ويتناقلون أنباء بعض الهلكى من الغابرين . كعاد وثمود وقرى لوط . وهم يمرون عليها فى شبه الجزيرة ، فى رحلاتهم للشمال والجنوب .

ويضيف القرآن إلى المعروف من مآلهم فى الدنيا ما ينتظرهم هنالك فى الآخرة : « ولهم عذاب أليم » . . ثم يكشف عن السبب الذى استحقوا به مانالهم وما ينتظرهم : « ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا : أبشر يهدوننا ؟ » . . وهو الاعتراض ذاته الذى يعترضه المشركون على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو اعتراض فج ناشئ عن الجهل بطبيعة الرسالة، وكونها منهجا إلهيا للبشر ، فلا بد أن تتمثل واقعيا فى بشر ،يحيا بها ، ويكون بشخصه ترجمانا لها ؛فيصوغ الآخرون أنفسهم على مثاله بقدر مايستطيعون .ولا ينعزل هو عنهم بجنسه، فيتعذر أن يجدوا للرسالة صورة واقعية يحاولون تحقيقها فى ذوات أنفسهم ، وفى حياتهم ومعاشهم . وناشئ كذلك من الجهل بطبيعة الإنسان ذاته ورفعة حقيقته بحيث يتلقى رسالة السماء ويبلغها ، بدون حاجة إلى أن يحملها إلى الناس ملك كما كانوا يقترحون . ففى الإنسان تلك النفخة من روح الله، وهى تهيئة لاستقبال الرسالة من الله ، وأداتها كاملة كما تلقاها من الملأ الأعلى . وهى كرامة للجنس البشرى كله لايرفضها إلا جاهل بقدر هذا الإنسان عند الله ، حين يحقق فى ذاته حقيقة النفخة من روح الله اوناشئ فى النهاية من التعنت والاستكبار الكاذب عن اتباع رسول من البشر . كأن فى هذا غضا من قيمة هؤلاء الجهال المتكبرين ! فجائز فى عرفهم أن يتبعوا رسولا من خلق آخر غير جنسهم بلا غضاضة . أما أن يتبعوا واحدا منهم فهى فى نظرهم حطة وقلة قيمة !

ومن ثم كفروا وتولوا معرضين عن الرسل ومامعهم من البينات ، ووقعت فى صدورهم هذه الكبرياء وذلك الجهل . فاختاروا لأنفسهم الشرك والكفر . .

Marfat.com

« واستغنى الله . والله غنى حميد » . . استغنى الله عنهم وعن إيمانهم وعن طاعتهم .. وماهو ـ سبحانه ـ بمحتاج إلى شيء منهم ولا من غيرهم ،ولا بمحتاج أصلا : « والله غنى حميد » .

فهذا نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم . وهذا سبب ماذاقوا وما ينتظرهم فكيف يكذب بعد هذا النبأ مكذبون جدد ؟ أليلقوا مصيرا كهذا المصير ؟

* * *

والمقطع الثالث بقية للمقطع الثانى يحكى تكذيب الذين كفروا بالبعث ـ وظاهر أن الذين كفروا هم المشركون الذين كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يواجههم بالدعوة ـ وفيه توجيه للرسول أن يؤكد لهم أمر البعث توكيدا وثيقا . وتصوير لمشهد القيامة ومصير المكذبين والمصدقين فيه ؛ ودعوة لهم إلى الإيمان والطاعة ورد كل شيء لله فيما يقع لهم فى الحياة :

« زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا . قل بلى وربى لتبعثن ، ثم لتنبؤن بما عملتم . وذلك على الله يسير . فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا . والله بما تعملون خبير . يوم يجمعكم ليوم الجمع ، ذلك يوم التغابن ، ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ، ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا . ذلك الفوز العظيم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير . ماأصاب من مصيبة إلا بإذن الله ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، والله بكل شيء عليم ، وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين . الله لاإله إلاهو ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . .

ومنذ البدء يسمى مقالة الذين كفروا عن عدم البعث زعما ، فيقضى بكذبه من أول لفظ فى حكايته . ثم يوجه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى توكيد أمر البعث بأوثق توكيد ، وهو أن يحلف بربه . وليس بعد قسم الرسول بربه توكيد : « قل : بلى وربى لتبعثن » . . « ثم لتنبؤن بما عملتم » . . فليس شيء منه بمتروك والله أعلم منهم بعملهم حتى لينبئهم به يوم القيامة ! « ذلك على الله يسير » . . فهو يعلم مافى السماوات والأرض ويعلم السر والعلن وهو عليم بذات الصدور . وهو على كل شيء قدير . كما جاء فى مطلع السورة تمهيدا لهذا التقرير .

وفى ظل هذا التوكيد الوثيق يدعوهم إلى الإيمان بالله ورسوله والنور الذى أنزله مع رسوله. وهو هذا القرآن . وهو هذا الدين الذى يبشر به القرآن . وهو نور فى حقيقته بما أنه من عند الله . والله نور السماوات والأرض . وهو نور فى آثاره إذ ينير القلب فيشرق بذاته ويبصر الحقيقة الكامنة فيه هو ذاته .

Marfat.com

ويعقب على دعوتهم إلى الإيمان ، بما يشعرهم أنهم مكشوفون لعين الله لايخفى عليه منهم شيء : « والله بما تعملون خبير » ..

وبعد هذه الدعوة يعود إلى استكمال مشهد البعث الذى أكده لهم أوثق توكيد :

« يوم يجمعكم ليوم الجمع . ذلك يوم التغابن » ..

فأما أنه يوم الجمع فلأن جميع الخلائق فى جميع الأجيال تبعث فيه ، كما يحضره الملائكة وعددهم لايعلمه إلاالله . ولكن قد يقربه إلى التصور ماجاء فى حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن أبى ذر رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «إنى أرى مالاترون ، وأسمع مالاتسمعون . أطت السماء وحق لها أن تيط ، مافيها موضع أربع أصابع إلاوفيه ملك واضع جبهته لله تعالى ساجدا. والله لوتعلمون ماأعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا ، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى . لوددت أنى شجرة تعضد [1] » .

والسماء التى ليس فيها موضع أربع أصابع إلاوفيه ملك . هى هذا الاتساع الهائل الذى لايعرف له البشر حدودا . والذى تبدو فيه شمس كشمسنا ذرة كالهباءة الطائرة فى الفضاء افهل هذا يقرب شيئا للتصور البشرى عن عدد الملائكة ؟ إنهم من بين الجمع فى يوم الجمع !

وفى مشهد من هذا الجمع يكون التغابن ! والتغابن مفاعلة من الغبن . وهو تصوير لما يقع من فوز المؤمنين بالنعيم ؛ وحرمان الكافرين من كل شيء منه ثم صيرورتهم إلى الجحيم . فهما نصيبان متباعدان . وكأنما كان هناك سباق للفوز بكل شيء ، وليغبن كل فريق مسابقه ! ففاز فيه المؤمنون وهزم فيه الكافرون ! فهو تغابن بهذا المعنى المصور للتحرك ! يفسره مابعده :

«ومن يؤمن بالله ويعمل صالحايكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا. ذلك الفوز العظيم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير » . .

وقبل أن يكمل نداءه إليهم بالإيمان يقرر قاعدة من قواعد التصور الإيمانى فى القدر ، وفى أثر الإيمان بالله فى هداية القلب :

---

(١) أخرجه الترمذى .

Marfat.com

« ماأصاب من مصيبة إلا بإذن الله . ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، والله بكل شيء عليم » .

ولعل مناسبة ذكر هذه الحقيقة هنا هي مجرد بيانها في صدد عرض حقيقة الإيمان الذي دعاهم إليه في هذا المقطع . فهو الإيمان الذي يرد كل شيء إلى الله ، ويعتقد أن كل مايصيب من خير ومن شر فهو بإذن الله . وهي حقيقة لايكون إيمان بغيرها . فهي أساس جميع المشاعر الإيمانية عند مواجهة الحياة بأحداثها خيرها وشرها . كما يجوز أن تكون هناك مناسبة حاضرة في واقع الحال عند نزول هذه السورة . أو هذه الآية من السورة ، فيما كان يقع بين المؤمنين والمشركين من وقائع .

وعلى أية حال فهذا جانب ضخم من التصور الإيماني الذي ينشئه الإسلام في ضمير المؤمن . فيحس يد الله في كل حدث ، ويرى يد الله في كل حركة ، ويطمئن قلبه لما يصيبه من الضراء ومن السراء. يصبر للأولى ويشكر للثانية .وقد يتسامى إلى آفاق فوق هذا ، فيشكر في السراء وفي الضراء ؛إذ يرى في الضراء كما في السراء فضل الله ورحمته بالتنبيه أو بالتكفير أو بترجيح ميزان الحسنات ، أو بالخير على كل حال :

وفي الحديث المتفق عليه : « عجبا للمؤمن ! لا يقضي الله قضاء إلا كان خيرا له . إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له . وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له . وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » . .

« ومن يؤمن بالله يهد قلبه » . .

وقد فسرها بعض السلف بأنها الإيمان بقدر الله والتسليم له عند المصيبة . وعن ابن عباس يعني يهدى قلبه هداية مطلقة . ويفتحه على الحقيقة اللدنية المكنونة . ويصله بأصل الأشياء والأحداث ، فيرى هناك منشأها وغايتها . ومن ثم يطمئن ويقر ويستريح . ثم يعرف المعرفة الواصلة الكلية فيستغني عن الرؤية الجزئية المحفوفة بالخطأ والقصور .

ومن ثم يكون التعقيب عليها :

« والله بكل شيء عليم » . .

فهي هداية إلى شيء من علم الله ،يمنحه لمن يهديه ،حين يصح إيمانه فيستحق إزاحة الحجب، وكشف الأسرار . . بمقدار . .

ويتابع دعوتهم إلى الإيمان فيدعوهم إلى طاعة الله وطاعة الرسول :

Marfat.com

« وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين » . .

وقد عرض عليهم من قبل مصير الذين تولوا . وهنا يقرر لهم أن الرسول مبلغ . فإذا بلغ فقد أدى الأمانة ، ونهض بالواجب ، وأقام الحجة . وبقى ماينتظرهم هم من المعصية والتولى ، مما ذكروا به منذ قليل .

ثم يختم هـذا المقطع بتقرير حقيقة الوحدانية التى ينكرونها ويكذبونها ، ويقرر شأن المؤمنين بالله فى تعاملهم مع الله :

« الله لاإله إلاهو ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ..

وحقيقة التوحيد هى أساس التصور الإيمانى كله . ومقتضاها أن يكون التوكل عليه وحده . فهذا هو أثر التصور الإيمانى فى القلوب .

وبهذه الآية يدخل السياق فى خطاب المؤمنين . فهى وصلة بين مامضى من السورة ومايجىء .

* * *

وفى النهاية يوجه الخطاب إلى المؤمنين يحذرهم فتنة الأزواج والأولاد والأموال ، ويدعوهم إلى تقوى الله ، والسمع والطاعة والإنفاق ، كما يحذرهم شح الأنفس ، ويعدهم على ذلك مضاعفة الرزق والمغفرة والفلاح . ويذكرهم فى الختام بعلم الله للحاضر والغائب ، وقدرته وغلبته ، مع خبرته وحكمته :

« ياأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ، وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم . إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، والله عنده أجر عظيم . فاتقوا الله مااستطعتم ، واسمعوا وأطيعوا ، وأنفقوا خيرا لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ، ويغفر لكم ، والله شكور حليم . عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم » . .

وقد ورد عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ فى الآية الأولى من هذا السياق وقد سأله عنها رجل فقال : فهؤلاء رجال أسلموا من مكة ، فأرادوا أن يأتوا إلى رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم . فلما أتوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأوا الناس قد فقهوا فى الدين ، فهموا أن يعاقبوهم ، فأنزل الله هذه الآية : « وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم » .. وهكذا رواه الترمذى بإسناد آخر وقال : حسن صحيح . وهكذا قال عكرمة مولى ابن عباس .

Marfat.com

ولكن النص القرآنى أشمل من الحادث الجزئى وأبعد مدى وأطول أمدا . فهذا التحذير من الأزواج والأولاد كالتحذير الذى فى الآية التالية من الأموال والأولاد معا: « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » . . والتنبيه إلى أن من الأزواج والأولاد من يكون عدوا .. إن هذا يشير إلى حقيقة عميقة فى الحياة البشرية . ويمس وشائج متشابكة دقيقة فى التركيب العاطفى وفى ملابسات الحياة سواء . فالأزواج والأولاد قد يكونون مشغلة وملهاة عن ذكر الله . كما أنهم قد يكونون دافعا للتقصير فى تبعات الإيمان اتقاء للمتاعب التى تحيط بهم لو قام المؤمن بواجبه فلقى ما يلقاه المجاهد فى سبيل الله ! والمجاهد فى سبيل الله يتعرض لخسارة الكثير ، وتضحية الكثير . كما يتعرض هو وأهله للعنت . وقد يحتمل العنت فى نفسه ولا يحتمله فى زوجه وولده . فيبخل ويجبن ليوفر لهم الأمن والقرار أو المتاع والمال ! فيكونون عدوا له ، لأنهم صدوه عن الخير ، وعوقوه عن تحقيق غاية وجوده الإنسانى العليا. كما أنهم قد يقفون له فى الطريق يمنعونه من النهوض بواجبه، اتقاء لما يصيبهم من جرائه ، أو لأنهم قد يكونون فى طريق غير طريقه ، ويعجز هو عن المفاصلة بينه وبينهم والتجرد لله .. وهى كذلك صور من العداوة متفاوتة الدرجات . . وهذه وتلك مما يقع فى حياة المؤمن فى كل آن .

ومن ثم اقتضت هذه الحال المعقدة المتشابكة ، التحذير من الله ، لإثارة اليقظة فى قلوب الذين آمنوا ، والحذر من تسلل هذه المشاعر ، وضغط هذه المؤثرات .

ثم كرر هذا التحذير فى صورة أخرى من فتنة الأموال والأولاد وكلمة فتنة تحتمل معنيين :

الأول أن الله يفتنكم بالأموال والأولاد بمعنى يختبركم ، فانتبهوا لهذا ، وحاذروا وكونوا أبدا يقظين لتنجحوا فى الابتلاء ، وتخلصوا وتتجردوا لله . كما يفتن الصائغ الذهب بالنار ليخلصه من الشوائب !

والثانى أن هذه الأموال والأولاد فتنة لكم توقعكم بفتنتها فى المخالفة والمعصية ، فاحذروا هذه الفتنة لا تجرفكم وتبعدكم عن الله .

وكلا المعنيين قريب من قريب .

وقد روى الإمام أحمد - بإسناده - عن عبد الله ابن بريدة : سمعت أبى بريدة يقول : « كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يخطب ، فجاء الحسن والحسين - رضى الله عنهما - عليهما قميصان

Marfat.com

أحمران ، يمشيان ويعثران فنزل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المنبر فحملهما ، فوضعهما بين يديه . ثم قال: « صدق الله ورسوله . إنما أموالكم وأولادكم فتنة. نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما » . . ورواه أهل السنة من حديث ابن واقد . فهذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهذان ابنا بنته . . وإنه لأمر إذن خطير . وخطر . وإن التحذير والتنبيه فيه لضرورة يقدرها من خلق قلوب الناس ، وأودعها هذه المشاعر ، لتكف نفسها عن التمادي والإفراط ، وهي تعلم أن هذه الوشائج الحبيبة قد تفعل بها ما يفعل العدو ، وتؤدي بها إلى ما تؤدي إليه مكايد الأعداء !

ومن ثم يلوح لها بما عند الله بعد التحذير من فتنة الأموال والأولاد ، والعداوة المستترة في بعض الأبناء والأزواج . فهذه فتنة « والله عنده أجر عظيم » . .

ويهتف للذين آمنوا بتقوى الله في حدود الطاقة والاستطاعة ، وبالسمع والطاعة :

« فاتقوا الله ما استطعتم ـ واسمعوا وأطيعوا » . .

وفي هذا القيد : « ما استطعتم » يتجلى لطف الله بعباده ، وعلمه بمدى طاقتهم في تقواه وطاعته . وقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه »[1] فالطاعة في الأمر ليس لها حدود، ومن ثم يقبل فيها ما يستطاع . أما النهي فلا تجزئة فيه فيطلب بكامله دون نقصان .

ويهيب بهم إلى الإنفاق :

« وأنفقوا خيرا لأنفسكم » . .

فهم ينفقون لأنفسهم . وهو يأمرهم أن ينفقوا الخير لأنفسهم . فيجعل ما ينفقونه كأنه نفقة مباشرة لذواتهم ، ويعدها الخير لهم حين يفعلون .

ويريهم شح النفس بلاء ملازماً . السعيد السعيد من يخلص منه ويوقاه ؛ والوقاية منه فضل من الله :

« ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » . .

ثم يمضي في إغرائهم بالبذل وتحبيبهم في الإنفاق ، فيسمي إنفاقهم قرضا لله . ومن ذا الذي لا يربح هذه الفرصة التي يقرض فيها مولاه ؟ وهو يأخذ القرض ليضاعفه ويغفر به ، ويشكر للقرض ، ويحلم عليه حين يقصر في شكره . وهو الله !

(١) رواه الشيخان من أبي هريرة .

Marfat.com

« إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم . والله شكور حليم » . .

وتبارك الله . ما أكرمه ! وما أعظمه ! وهو ينشىء العبد ثم يرزقه . ثم يسأله فضل ما أعطاه . قرضا . يضاعفه . ثم . . يشكر لعبده الذى أنشأه وأعطاه ! ويعامله بالحلم فى تقصيره هو عن شكر مولاه ! . . يالله ! ! !

إن الله يعلمنا ـ بصفاته ـ كيف نتسامى على نقصنا وضعفنا ، ونتطلع إلى أعلى دائما لنراه ـ سبحانه ـ ونحاول أن نقلده فى حدود طاقتنا الصغيرة المحدودة . وقد نفخ الله فى الإنسان من روحه . فجعله مشتاقا أبدا إلى تحقيق المثل الأعلى فى حدود طاقته وطبيعته ، ومن ثم تبقى الآفاق العليا مفتوحة دائما ليتطلع هذا المخلوق إلى الكمال المستطاع ، ويحاول الارتفاع درجة بعد درجة ، حتى يلقى الله بما يحبه له ويرضاه .

ويختم هذه الجولة بعد هذا الإيقاع العجيب ، بصفة الله التى بها الاطلاع والرقابة على القلوب :

« عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم » . .

فكل شىء مكشوف لعلمه ، خاضع لسلطانه ، مدبر بحكمته . كى يعيش الناس وهم يشعرون بأن عين الله تراهم ، وسلطانه عليهم ، وحكمته تدبر الأمر كله حاضره وغائبه . ويكفى أن يستقر هذا التصور فى القلوب ، لتتقى الله وتخلص له وتستجيب .

Marfat.com

سورة الطلاق مدنيّة
وآياتها ١٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ، وَأَحْصُوا ٱلْعِدَّةَ ، وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ، لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ ، وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ، وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ، لَا تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْراً ①

« فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ، وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ ، وَأَقِيمُوا ٱلشَّهَادَةَ لِلَّهِ ، ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ، وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ، إِنَّ ٱللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ، قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً .

« وَٱللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَٱللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ، وَأُولَاتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً * ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ ، وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً .

« أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ ، وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ، وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ

Marfat.com

أُجُورَهُنَّ ، وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ، وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى * لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ، لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا ، سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً .

« وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ، وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً ، فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا ، قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً * رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ، قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ، يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ، لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً » ⑫

هذه سورة الطلاق ، يبين الله فيها أحكامه ، ويفصل فيها الحالات التى لم تفصل فى السورة الأخرى (سورة البقرة) التى تضمنت بعض أحكام الطلاق ؛ ويقرر فيها أحكام الحالات المتخلفة عن الطلاق من شؤون الأسرة . وقد تضمنت هذه السورة بيان الوقت الذى يمكن أن يقع فيه الطلاق الذى يقبله الله ويجرى وفق سنته: « ياأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن » ..

وحق للمطلقة وواجبها فى البقاء فى بيتها ـ وهو بيت مطلقها ـ فترة العدة لاتخرج ولاتخرج إلا أن تأتى بفاحشة مبينة : « لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » ..

وحقها بعد انقضاء العدة فى الخروج لتفعل بنفسها ماتشاء ، مالم يكن الزوج قد راجعها وأمسكها فى فترة العدة ، لاليضارها ويؤذيها بهذا الإمساك ويعطلها عن الزواج ، ولكن لتعود الحياة الزوجية بينهما بالمعروف : « فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أوفارقوهن

Marfat.com

بمعروف » . . وهذا مع الإشهاد على الإمساك أوالفراق : « وأشهدوا ذوى عدل منكم » . .

وفى سورة البقرة بين مدة العدة للمطلقة ذات الحيض ـ وهى ثلاثة قروء بمعنى ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار من الحيضات على خلاف فقهى ـ وهنا بين هذه المدة بالنسبة للآيسة التى انقطع حيضها وللصغيرة التى لم تحض : « واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن » . .

وبين عدة الحامل : « وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن » . .

ثم فصل حكم المسكن الذى تعتد فيه المعتدة ونفقة ذات الحمل حتى تضع : « أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ، ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن . وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن » . .

ثم حكم الرضاعة لولد المطلقة حين تضعه ،وأجر الأم على الرضاعة فى حالة الاتفاق بينها وبين أبيه على مصلحة الطفل بينهما ، وفى حالة إرضاعه من أخرى : « فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف . وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى » . .

ثم زاد حكم النفقة والأجر فى جميع الحالات تفصيلا ، فجعله تابعا لحالة الزوج وقدرته : « لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله . لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها » . .

وهكذا تتبعت النصوص سائر الحالات ، وما يتخلف عنها ، بأحكام مفصلة دقيقة ، ولم تدع شيئا من أنقاض الأسرة المفككة بالطلاق إلا أراحته فى مكانه ، وبينت حكمه ، فى رفق وفى دقة وفى وضوح . .

* * *

ويقف الإنسان مدهوشا أمام هذه السورة وهى تتناول أحكام هذه الحالة ومتخلفاتها . وهى تحشد للأمر هذا الحشد العجيب من الترغيب والترهيب ، والتعقيب على كل حكم، ووصل هذا الأمر بقدر الله فى السماوات والأرضين ، وسنن الله فى هلاك العاتين عن أمره ، وفى الفرج والسعة لمن يتقونه . وتكرار الأمر بالمعروف والسماحة والتراضى ، وإيثار الجميل . والإطماع فى الخير . والتذكير بقدر الله فى الخلق وفى الرزق ، وفى اليسر والعسر . .

يقف الإنسان مدهوشا أمام هذا الحشد من الحقائق الكونية الكبرى فى معرض الحديث

Marfat.com

عن الطلاق أمام هذا الاحتفال والاهتمام ـ حتى ليوجه الخطاب إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشخصه ، وهو أمر عام للمؤمنين وحكم عام للمسلمين ، زيادة في الاهتمام وإشعارا بخطورة الأمر المتحدث فيه . وأمام هذا التفصيل الدقيق للأحكام حالة حالة، والأمر المشدد في كل حكم بالدقة في مراعاته ، وتقوى الله في تنفيذه ، ومراقبة الله في تناوله . والإطالة في التعقيب بالترغيب والترهيب ، إطالة تشعر القلب كأن هذا الأمر هو الإسلام كله ! وهو الدين كله ! وهو القضية التي تفصل فيها السماء ، وتقف لتراقب تنفيذ الأحكام ! وتعد المتقين فيها بأكبر وأسمى مايتطلع إليه المؤمن ؛ وتوعد الملتوين والمتلكئين والمضارين بأعنف وأشد مايلقاه عاص ؛ وتلوح للناس بالرجاء الندى والخير المخبوء وراء أخذ الأمر بالمعروف والسماحة والتجمل والتيسير .

ويقرأ القارئ في هذه السورة . . « واتقوا الله ربكم » .. « وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » .. « لاتدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا » .. « وأشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله » .. « ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر » . . « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب . ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره . قد جعل الله لكل شيء قدرا » .. « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا » . « ذلك أمر الله أنزله إليكم » « ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا » . . « سيجعل الله بعد عسر يسرا » ..

كما يقرأ ذلك التهديد العنيف الطويل المفصل : « وكأى من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا ،وعذبناها عذابا نكرا. فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا . أعد الله لهم عذابا شديدا » . .

يعقبه التحذير من مثل هـذا المصير ، والتذكير بنعمة الله بالرسول ومامعه من النور ، والتلويح بالأجر الكبير : « فاتقوا الله ياأولى الألباب الذين آمنوا ، قد أنزل الله إليكم ذكرا: رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور . ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا » . .

ثم يقرأ هذا الإيقاع الهائل الضخم في المجال الكوني الكبير: « الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ، يتنزل الأمر بينهن ، لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما » ..

Marfat.com

يقرأ هذا كله تعقيبا على أحكام الطلاق . ويجد سورة كاملة فى القرآن ، من هذا الطراز ، كلها موقوفة على تنظيم هذه الحالة ومتخلفاتها كذلك ! وربطها هكذا بأضخم حقائق الإيمان فى المجال الكونى والنفسى . وهى حالة تهدم لا حالة بناء ، وحالة انتهاء لا حالة إنشاء .. لأسرة . . لا لدولة .. وهى توقع فى الحس أنها أضخم من إنشاء دولة !

علام يدل هذا ؟

إن له عدة دلالات تجتمع كلها عند سمو هذا الدين وجديته وانبثاقه من نبع غير بشرى على وجه التأكيد . حتى لو لم تكن هناك دلالة أخرى سوى دلالة هذه السورة !

إنه يدل ابتداء على خطورة شأن الأسرة فى النظام الإسلامى :

فالإسلام نظام أسرة . البيت فى اعتباره مثابة وسكن ، فى ظله تلتقى النفوس على المودة والرحمة والتعاطف والستر والتجمل والحصانة والطهر ؛ وفى كنفه تنبت الطفولة ، وتدرج الحداثة ؛ ومنه تمتد وشائج الرحمة وأواصر التكافل .

ومن ثم يصور العلاقة البيتية تصويرا رفافا شفيفا ، يشع منه التعاطف ، وترف فيه الظلال ، ويشيع فيه الندى ، ويفوح منه العبير : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » . . « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » .. فهى صلة النفس بالنفس ، وهى صلة السكن والقرار ، وهى صلة المودة والرحمة ، وهى صلة الستر والتجمل . وإن الإنسان ليحس فى الألفاظ ذاتها حنوا ورفقا ، ويستروح من خلالها نداوة وظلا . وإنها لتعبير كامل عن حقيقة الصلة التى يفترضها الإسلام لذلك الرباط الإنسانى الرفيق الوثيق . ذلك فى الوقت الذى يلحظ فيه أغراض ذلك الرباط كلها ، بما فيها امتداد الحياة بالنسل ، فيمنح هذه الأغراض كلها طابع النظافة والبراءة ، ويعترف بطهارتها وجديتها ، وينسق بين اتجاهاتها ومقتضياتها . ذلك حين يقول : « نساؤكم حرث لكم » . فيلحظ كذلك معنى الإخصاب والإكثار .

ويحيط الإسلام هذه الخلية ، أو هذا المحضن ، أو هذه المثابة بكل رعايته وبكل ضماناته . وحسب طبيعة الإسلام الكلية ، فإنه لا يكتفى بالإشعاعات الروحية ، بل يتبعها التنظيمات القانونية والضمانات التشريعية (١)

---

(١) كتاب السلام العالمى والإسلام . فصل : إسلام البيت

Marfat.com

والذى ينظر فى تشريعات الأسرة فى القرآن والسنة فى كل وضع من أوضاعها ولكل حالة من حالاتها ، وينظر فى التوجيهات المصاحبة لهذه التشريعات ، وفى الاحتشاد الظاهر حولها بالمؤثرات والمعقبات ؛ وفى ربط هذا الشأن بالله مباشرة فى كل موضع ، كما هو الحال فى هذه السورة وفى غيرها . . يدرك إدراكا كاملا ضخامة شأن الأسرة فى النظام الإسلامى ، وقيمة هذا الأمر عند الله ، وهو يجمع بين تقواه ـ سبحانه ـ وتقوى الرحم فى أول سورة النساء حيث يقول : « ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيبا » . . كما يجمع بين عبادة الله والإحسان للوالدين ، سورة الإسراء وفى غيرها : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا » . . وبين الشكر لله والشكر للوالدين فى سورة لقمان : « أن اشكر لى ولوالديك » . .

وإن هذه العناية القصوى بأمر الأسرة لتتناسق مع مجرى القدر الإلهى بإقامة الحياة البشرية ابتداء على أساس الأسرة ، حين جرى قدر الله أن تكون أول خلية فى الوجود البشرى هى أسرة آدم وزوجه ، وأن يتكاثر الناس بعد ذلك من هذه الخلية الأولى . وكان الله ـ سبحانه ـ قادرا على أن يخلق الملايين من الأفراد الإنسانيين دفعة واحدة . ولكن قدره جرى بهذا لحكمة كامنة فى وظيفة الأسرة الضخمة فى حياة هذا المخلوق ، حيث تلبى حياة الأسرة فطرته واستعداداته ، وحيث تنمى شخصيته وفضائله ، وحيث يتلقى فيها أعمق المؤثرات فى حياته . ثم جرت هذه العناية فى النظام الإسلامى ـ منهج الله الأخير فى الأرض ـ مع القدر الإلهى فى خلقة الإنسان ابتداء . كما هو الشأن فى تناسق كل مايصدر عن الله بلا تفاوت ولا اختلاف (١)

والدلالة الثانية لسياق السورة ، وللاحتفال بشأن العلاقات الزوجية والعائلية هذا الاحتفال فى القرآن كله ، هى اتجاه النظام الإسلامى لرفع هذه العلاقات الإنسانية إلى مستوى القداسة المتصلة بالله ؛ واتخاذها وسيلة للتطهر الروحى والنظافة الشعورية ـ لا كما كان ينظر إليها فى العقائد الوثنية ، وعند أتباع الديانات المحرفة ، البعيدة بهذا التحريف عن فطرة الله التى فطر الناس عليها .

« إن الإسلام لايحارب دوافع الفطرة ولا يستقذرها ، إنما ينظمها ويطهرها ، ويرفعها عن المستوى الحيوانى ، ويرقيها حتى تصبح هى المحور الذى يدور عليه الكثير من الآداب النفسية

(١) كتاب : نحو مجتمع إسلامى . فصل : « مجتمع عائلى » .. لم يصدر بعد ..

Marfat.com

والاجتماعية . ويقيم العلاقات الجنسية على أساس من المشاعر الإنسانية الراقية ، التى تجعل من التقاء جسدين ، التقاء نفسين وقلبين وروحين . وبتعبير شامل التقاء إنسانين ، تربط بينهما حياة مشتركة ،وآمال مشتركة ، وآلام مشتركة ، ومستقبل مشترك ، يلتقى فى الذرية المرتقبة ، ويتقابل فى الجيل الجديد ، الذى ينشأ فى العش المشترك ، الذى يقوم عليه الوالدان حارسين لا يفترقان » (١)

ويعد الإسلام الزواج وسيلة للتطهر والارتفاع فيدعو الأمة المسلمة لتزويج رجالها ونسائها إذا قام المال عقبة دون تحقيق هذه الوسيلة الضرورية لتطهير الحياة ورفعها: « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ، إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم . وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله » . . ويسمى الزواج إحصانا أى وقاية وصيانة. ويستقر فى أخلاد المؤمنين أن البقاء بدون إحصان ولو فترة قصيرة لا ينال رضى الله . فيقول الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ وقد سارع بالزواج عقب وفاة زوجه فاطمة بنت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لقد خشيت أن ألقى الله وأنا عزب » . . فيدخل الزواج فى عرف المؤمن فى الطاعات التى يتقرب بها إلى ربه . وترتفع هذه الصلة إلى مكان القداسة فى ضميره بما أنها إحدى الطاعات لربه .

والدلالة الثالثة لسياق سورة الطلاق ونظائرها هى واقعية هذا النظام الإسلامى ومعاملته للحياة وللنفس البشرية كما هى فى فطرتها ، مع محاولة رفعها إلى ذلك المستوى الكريم ، عن طريق استعداداتها وملابسات حياتها .ومن ثم لا يكتفى بالتشريع الدقيق فى هذا الأمر الموكول إلى الضمير . ولا يكتفى بالتوجيه . ويستخدم هذا وذاك فى مواجهة واقع النفس وواقع الحياة .

إن الأصل فى الرابطة الزوجية هو الاستقرار والاستمرار . والإسلام يحيط هذه الرابطة بكل الضمانات التى تكفل استقرارها واستمرارها . وفى سبيل هذه الغاية يرفعها إلى مرتبة الطاعات ، ويعين على قيامها بمال الدولة للفقراء والفقيرات ، ويفرض الآداب التى تمنع التبرج والفتنة كى تستقر العواطف ولا تتلفت القلوب على هتاف الفتنة المتبرجة فى الأسواق ! ويفرض حد الزنا وحد القذف ؛ويجعل للبيوت حرمتها بالاستئذان عليها والاستئذان بين أهلها فى داخلها.

وينظم الارتباطات الزوجية بشريعة محددة ، ويقيم نظام البيت على أساس قوامة أحد

---

(١) فى ظلال القرآن . الجزء ١٨ ص ٦٠

Marfat.com

الشريكين وهو الأقدر على القوامة . منعا للفوضى والاضطراب والنزاع ... إلى آخر الضمانات والتنظيمات الواقية من كل اهتزاز . فوق التوجيهات العاطفية . وفوق ربط هذه العلاقة كلها بتقوى الله ورقابته .

ولكن الحياة الواقعية للبشر تثبت أن هناك حالات تتهدم وتتحطم على الرغم من جميع الضمانات والتوجيهات .وهى حالات لابدأن تواجه مواجهة عملية ، اعترافا بمنطق الواقع الذى لا يجدى إنكاره حين تتعذر الحياة الزوجية ، ويصبح الإمساك بالزوجية عبثا لا يقوم على أساس !

« والإسلام لايسرع إلى رباط الزوجية المقدسة فيفصمه لأول وهلة ،ولأول بادرة من خلاف . إنه يشد على هذا الرباط بقوة ، فلا يدعه يفلت إلا بعد المحاوله واليأس .

« إنه يهتف بالرجال : « وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » . . فيميل بهم إلى التريث والمصابرة حتى فى حالة الكراهية، ويفتح لهم تلك النافذة المجهولة : « فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » فما يدريهم أن فى هؤلاء النسوة المكروهات خيرا ، وأن الله يدخر لهم هذا الخير . فلا يجوز أن يفلتوه . إن لم يكن ينبغى لهم أن يستمسكوا به ويعزوه ! وليس أبلغ من هذا فى استحياء الانعطاف الوجدانى واستثارته ، وترويض الكره وإطفاء شرته .

« فإذا تجاوز الأمر مسألة الحب والكره إلى النشوز والنفور ، فليس الطلاق أول خاطر يهدى إليه الإسلام . بل لابد من محاولة يقوم بها الآخرون ، وتوفيق يحاوله الخيرون : «وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله ، وحكما من أهلهاإن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما . إن الله كان عليما خبيرا » .. « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أوإعراضا . فلاجناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير » ..

« فإذا لم تجد هذه الوساطة ، فالأمر إذن جد ، وهناك مالاتستقيم معه هذه الحياة ، ولا يستقر لها قرار . وإمساك الزوجية على هذا الوضع إنما هو محاولة فاشلة ، يزيدها الضغط فشلا ، ومن الحكمة التسليم بالواقع ،وإنهاء هذه الحياة على كره من الإسلام ، فإن أبغض الحلال إلى الله الطلاق (١) .

---

(١) كتاب السلام العالمى والإسلام ص ٦٥ ـ ٦٦ .

Marfat.com

فإذا أراد أن يطلق فليس فى كل لحظة يجوز الطلاق . إنما السنة أن يكون فى طهر لم يقع فيه وطء .. وفى هذا مايؤجل فصم العقدة فترة بعد موقف الغضب والانفعال . وفى خلال هذه الفترة قد تتغير النفوس ، وتقر القلوب ، ويصلح الله بين المتخاصمين فلا يقع الطلاق !

ثم بعد ذلك فترة العدة . ثلاثة قروء للتى تحيض وتلد . وثلاثة أشهر للآيسة والصغيرة . وفترة الحمل للحوامل . وفى خلالها مجال للمعاودة إن نبضت فى القلوب نابضة من مودة ، ومن رغبة فى استئناف ماانقطع من حبل الزوجية .

ولكن هذه المحاولات كلها لاتنفى أن هناك انفصالا يقع ، وحالات لابد أن تواجهها الشريعة مواجهة عملية واقعية ، فتشرع لها ، وتنظم أوضاعها ، وتعالج آثارها . وفى هذا كانت تلك الأحكام الدقيقة المفصلة ، التى تدل على واقعية هذا الدين فى علاجه للحياة ، مع دفعها دائما إلى الأمام . ورفعها دائما إلى السماء .

والدلالة الرابعة للسورة ومافيها من الترغيب والترهيب والتعقيب والتفصيل الشديد والتوكيد ، هو أنها كانت تواجه حالات واقعة فى الجماعة المسلمة متخلفة من رواسب الجاهلية ، وما كانت تلاقيه المرأة من العنت والخسف ، مما اقتضى هذا التشديد ، وهذا الحشد من المؤثرات النفسية ، ومن التفصيلات الدقيقة ، التى لاتدع مجالا للتلاعب والالتواء مع ما كان مستقرا فى النفوس من تصورات متخلفة عن علاقات الجنسين ، ومن تفكك وفوضى فى الحياة العائلية (١) .

ولم يكن الحال هكذا فى شبه الجزيرة وحدها ، إنما كان شائعا فى العالم كله يومذاك . فكان وضع المرأة هو وضع الرقيق أوماهو أسوأ من الرقيق فى جنبات الأرض جميعا . فوق ما كان ينظر إلى العلاقات الجنسية نظرة استقذار ، وإلى المرأة كأنها شيطان يغرى بهذه القذارة .

ومن هذه الوهدة العالمية ارتفع الإسلام بالمرأة وبالعلاقات الزوجية إلى ذلك المستوى الرفيع الطاهر الكريم الذى سبقت الإشارة إليه . وأنشأ للمرأة ماأنشأ من القيمة والاعتبار والحقوق والضمانات.. وليدة لاتوأد ولاتهان . ومخطوبة لاتنكح إلا بإذنها ثيبا أوبكرا . وزوجة لها حقوق الرعاية فوق ضمانات الشريعة . ومطلقة لها هذه الحقوق المفصلة فى هذه السورة وفى سورة البقرة وغيرها ..

شرع الإسلام هذا كله . لالأن النساء فى شبه الجزيرة أوفى أى مكان فى العالم حينذاك شعرن

---

(١) يراجع الجزء الرابع من الظلال ص ٩٦ ـ ٩٧ والجزء الواحد والعشرون ص ١٢٢ ـ ١٢٣

Marfat.com

بأن مكانهن غير مرض ! ولالأن شعور الرجال كذلك قد تأذى بوضع النساء . ولالأنه كان هناك اتحاد نسائى عربى أوعالمى ! ولالأن المرأة دخلت دار الندوة أومجلس الشورى ! ولالأن هاتفا واحدا فى الأرض هتف بتغيير الأحوال .. إنما كانت هى شريعة السماء للأرض . وعدالة السماء للأرض . وإرادة السماء بالأرض . . أن ترتفع الحياة البشرية من تلك الوهدة ، وأن تتطهر العلاقات الزوجية من تلك الوصمة ، وأن يكون للزوجين من نفس واحدة حقوق الإنسان وكرامة الإنسان .

. . هـذا دين رفيع . . لايعرض عنه إلا مطموس . ولا يعيبه إلامنكوس ، ولا يحاربه إلاموكوس . فإنه لا يدع شريعة الله إلى شريعة الناس إلا من أخلد إلى الأرض واتبع هواه .

* * *

والآن نستعرض الأحكام فى سياق السورة ـ بعد هذا الاستطراد الذى لا يبعد كثيرا عن جو هذا الجزء ومافيه من تنظيم وبناء للجماعة المسلمة ـ والأحكام فى سياق السورة شىء آخر غير ذلك التلخيص . شىء حى . فيه روح . وفيه حركة . وفيه حياة . وفيه إيحاء .. وله إيقاع. وهـذا هو الفارق الأصيل بين مدارسة الأحـكام فى القرآن ومدارستها فى كتب الفقه والأصول . .

* * *

« ياأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم ، لاتخرجوهن من بيوتهن ، ولايخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة . وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه . لاتدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا » . .

هذه هى أول مرحلة وهذا هو أول حكم يوجه الخطاب به إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ياأيها النبى » .. ثم يظهر أن الحكم خاص بالمسلمين لا بشخصه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إذا طلقتم النساء ... الخ » فيوحى هذا النسق من التعبير بما وراءه ، وهو إثارة الاهتمام، وتصوير الجدية . فهو أمر ذو بال ، ينادى الله نبيه بشخصه ليلقى إليه فيه بأمره ، كما يبلغه لمن وراءه . وهى إيحاءات نفسية واضحة الدلالة على مايراد بها من احتفال واحتشاد .

« إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن » : .

وقد ورد فى تحديد معنى هذا النص حديث صحيح رواه البخارى ولفظه : « حدثنا يحيى

Marfat.com

ابن بكير ، حدثنا الليث ، حدثنى عقيل ، عن ابن شهاب ، أخبرنى سالم ، أن عبد الله ابن عمر أخبره أنه طلق امرأة له وهى حائض ، فذكر عمر لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتغيظ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال : « ليراجعها ، ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرا قبل أن يمسها ، فتلك العدة التى أمر بها الله عز وجل »..

ورواه مسلم ولفظه : « ... فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء » ..

ومن ثم يتعين أن هناك وقتا معينا لإيقاع الطلاق ؛ وأنه ليس للزوج أن يطلق حينما شاء إلا أن تكون امرأته فى حالة طهر من حيض ، ولم يقع بينهما فى هذا الطهر وطء . وتفيد آثار أخرى أن هناك حالة ثانية يجوز فيها الطلاق ، وهو أن تكون الزوجة حاملا بينة الحمل. والحكمة فى ذلك التوقيت هى أولا إرجاء إيقاع الطلاق فترة بعد اللحظة التى تتجه فيها النفس للطلاق ؛ وقد تسكن الفورة إن كانت طارئة وتعود النفوس إلى الوئام . كما أن فيه تأكدا من الحمل أو عدمه قبل الطلاق . فقد يمسك عن الطلاق لو علم أن زوجه حامل . فإذا مضى فيه وقد تبين حملها دل على أنه مريد له ولو كانت حاملا . فاشتراط الطهر بلا وطء هو للتحقق من عدم الحمل ، واشتراط تبين الحمل هو ليكون على بصيرة من الأمر .

وهذه أول محاولة لرأب الصدع فى بناء الأسرة ، ومحاولة دفع المعول عن ذلك البناء .

وليس معنى هذا أن الطلاق لايقع إلا فى هذه الفترة . فهو يقع حيثما طلق [1] . ولكنه يكون مكروها من الله ، مغضوبا عليه من رسول الله . وهذا الحكم يكفى فى ضمير المؤمن ليمسك به حتى يأتى الأجل . فيقضى الله مايريد فى هذه المسألة .

« وأحصوا العدة » ..

كى لا يكون فى عدم إحصائها إطالة للأمد على المطلقة ، ومضارة لها بمنعها من الزواج بعد العدة . أو نقص فى مدتها لايتحقق به الغرض الأول ، وهو التأكد من براءة رحم المطلقة من الحمل المستكن حفظا للأنساب . ثم هو الضبط الدقيق الذى يوحى بأهمية الأمر ، ومراقبة السماء له ، ومطالبة أصحابه بالدقة فيه !

« واتقوا الله ربكم . لاتخرجوهن من بيوتهن ، ولايخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ».

وهذا أول تنبيه ـ بعد وهلة النداء الأول ـ وأول تحذير من الله وتقديم تقواه . قبل الأمر

(١) هذا هو الرأى الفقهى الراجح . وهناك قول بعدم وقوع الطلاق إلا فى هذه الفترة .

Marfat.com

بعدم إخراجهن من بيوتهن ـ وهى بيوت أزواجهن ولكنه يسميها بيوتهن لتوكيد حقهن فى الإقامة بها فترة العدة ـ لا يُخرَجن منها ولا يَخرجن ، إلا فى حالة وقوع فاحشة ظاهرة منهن . وقد ورد أن هذه الفاحشة قد تكون الزنا فتخرج للحد : وقد تكون إيذاء أهل الزوج . وقد تكون هى النشوز على الزوج ـ ولو أنه مطلق ـ وعمل مايؤذيه . ذلك أن الحكمة من إبقاء المطلقة فى بيت الزوج هى إتاحة الفرصة للرجعة ، واستثارة عواطف المودة ، وذكريات الحياة المشتركة . حيث تكون الزوجة بعيدة بحكم الطلاق قريبة من العين ؛ فيفعل هذا فى المشاعر فعله بين الاثنين! فأما حين ترتكس فى حمأة الزنا وهى فى بيته! أو تؤذى أهله، أو تنشز عليه ، فلا محل لاستحياء المشاعر الطيبة ، واستجاشة المودة الدفينة . ولا حاجة إلى استبقائها فى فترة العدة . فإن قربها منه حينذاك يقطع الوشائج ولا يستحييها !

« وتلك حدود الله . ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » . .

وهذا هو التحذير الثانى . فالحارس لهذا الحكم هو الله . فأى مؤمن إذن يتعرض لحد يحرسه الله ؟ ! إنه الهلاك والبوار . . « ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » . . ظلم نفسه لتعريضها هكذا لبأس الله القائم على حدوده يحرسها ويرعاها . وظلم نفسه بظلم زوجه . وهى وهو من نفس واحدة ، فما يظلمها يظلمه كذلك بهذا الاعتبار . . ثم . .

« لاتدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا » .

وهى لمسة موحية مؤثرة . فمن ذا الذى يعلم غيب الله وقدره المخبوء وراء أمره بالعدة ، وأمره ببقاء المطلقات فى بيوتهن . إنه يلوح هناك أمل ، ويوصوص هناك رجاء . وقد يكون الخير كله . وقد تتغير الأحوال وتتبدل إلى هناءة ورضى . فقدر الله دائم الحركة ، دائم التغيير ، ودائم الأحداث . والتسليم لأمر الله أولى ، والرعاية له أوفق ، وتقواه ومراقبته فيها الخير يلوح هناك !

* * *

والنفس البشرية قد تستغرقها اللحظة الحاضرة ، وما فيها من أوضاع وملابسات، وقد تغلق عليها منافذ المستقبل ، فتعيش فى سجن اللحظة الحاضرة ، وتشعر أنها سرمد ، وأنها باقية ، وأن مافيها من أوضاع وأحوال سيرافقها ويطاردها .. وهذا سجن نفسى مغلق مفسد للأعصاب فى كثير من الأحيان .

Marfat.com

وليست هذه هى الحقيقة . فقدر الله دائما يعمل، ودائما يغير ، ودائما يبدل ، ودائما ينشىء ما لايجول فى حسبان البشر من الأحوال والأوضاع. فرج بعد ضيق . وعسر بعديسر . وبسط بعد قبض . والله كل يوم هو فى شأن ، يبديه للخلق بعد أن كان عنهم فى حجاب .

ويريد الله أن تستقر هذه الحقيقة فى نفوس البشر ، ليظل تطلعهم إلى مايحدثه الله من الأمر متجددا ودائما . ولتظل أبواب الأمل فى تغيير الأوضاع مفتوحة دائمة . ولتظل نفوسهم متحركة بالأمل ، ندية بالرجاء ، لاتغلق المنافذ ولا تعيش فى سجن الحاضر . واللحظة التالية قد تحمل ماليس فى الحسبان . . « لاتدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا » . .

«فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أوفارقوهن بمعروف ، وأشهدوا ذوى عدل منكم. وأقيموا الشهادة لله . ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب .ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره .قد جعل الله لكل شىء قدرا » . .

وهذه هى المرحلة الثانية وهذاهو حكمها . وبلوغ الأجل آخر فترة المدة .وللزوج مادامت المطلقة لم تخرج من المدة ـ على آجالها المختلفة التى سبق بيانها ـ أن يراجعها فتعود إلى عصمته بمجرد مراجعتها ـ وهذا هو إمساكها ـ أو أن يدع المدة تمضى فتبين منه ولا تحل له إلا بعقد جديد كالزوجة الجديدة .وسواء راجع أم فارق فهو مأمور بالمعروف فيها . منهى عن المضارة بالرجعة ، كأن يراجعها قبيل انتهاء المدة ثم يعود فيطلقها الثانية ثم الثالثة ليطيل مدة بقائها بلا زواج !أوأن يراجعها ليبقيها كالمعلقة ،ويكايدها لتفتدى منه نفسها ـ وكان كلاهما يقع عند نزول هذه السورة ، وهو مايزال يقع كلما انحرفت النفوس عن تقوى الله . وهى الضمان الأول لأحكامه فى المعاشرة والفراق . كذلك هو منهى عن المضارة فى الفراق بالسب والشتم والغلظة فى القول والغضب ، فهذه الصلة تقوم بالمعروف وتنتهى بالمعروف استبقاء لمودات القلوب ؛ فقد تعود إلى العشرة ،فلا تنطوى على ذكرى رديئة ،لكلمة نابية ، أو غمزة شائكة ،أو شائبة تعكر صفاءها عند ماتعود . ثم هو الأدب الإسلامى المحض الذى يأخذ الإسلام به الألسنة والقلوب .

وفى حالتى الفراق أو الرجعة تطلب الشهادة على هذه وذاك . شهادة اثنين من العدول . قطعا للريبة .فقد يعلم الناس بالطلاق ولايعلمون بالرجعة، فتثور شكوك وتقال أقاويل .والإسلام يريد النصاعة والطهارة فى هذه العلاقات وفى ضمائر الناس وألسنتهم على السواء . والرجعة تتم

Marfat.com

وكذلك الفرقة بدون الشهادة عند بعض الفقهاء ولا تتم عند بعضهم إلا بها . ولكن الإجماع أن لابد من الشهادة بعد أو مع الفرقة أو الرجعة على القولين .

وعقب بيان الحكم تجيء اللمسات والتوجيهات تترى :

« وأقيموا الشهادة لله » . .

فالقضية قضية الله ، والشهادة فيها لله ، هو يامر بها ، وهو يراقب استقامتها ، وهو يجزى عليها . والتعامل فيها معه لامع الزوج ولا الزوجة ولا الناس !

« ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر » .

والمخاطبون بهذه الأحكام هم المؤمنون المعتقدون باليوم الآخر . فهو يقول لهم : إنه يعظهم بما هو من شأنهم . فإذا صدقوا الإيمان به وباليوم الآخر فهم إذن سيتعظون ويعتبرون . وهذا هو محك إيمانهم ، وهذا هو مقياس دعواهم فى الإيمان !

« ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب » ..

مخرجا من الضيق فى الدنياوالآخرة ، ورزقا من حيث لايقدر ولاينتظر.وهو تقريرعام، وحقيقة دائمة . ولكن إلصاقها هنا بأحكام الطلاق يوحى بدقة انطباقها وتحققها عندما يتقى المتقون الله فى هذا الشأن بصفة خاصة . وهو الشأن الذى لاضابط فيه أحس ولاأدق من ضابط الشعور والضمير ، فالتلاعب فيه مجاله واسع ، لايقف دونه إلاتقوى الله وحساسية الضمير .

« ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره » . .

فمجال الكيد فى هذه العلاقة واسع ، ومسالكه كثيرة ، وقد تؤدى محاولة إتقاء الكيد إلى الكيد ! فهنا إيحاء بترك هذه المحاولة ،والتوكل على الله ، وهو كاف لمن يتوكل عليه . فالله بالغ أمره . فما قدر وقع ، وما شاء كان ؛ فالتوكل عليه توكل على قدرة القادر ، وقوة القاهر . الفعال لما يريد . البالغ مايشاء .

والنص عام . والمقصود به هو إنشاء التصور الإيمانى الصحيح فى القلب ، بالنسبة لإرادة الله وقدره . . ولكن وروده هنا بمناسبة أحكام الطلاق له إيحاؤه فى هذا المجال وأثره .

« قد جعل الله لكل شىء قدرا » . .

فكل شىء مقدر بمقداره ، وبزمانه ، وبمكانه ،وبملابساته ،وبنتائجه وأسبابه . وليس شىء مصادفة ، وليس شىء جزافا . فى هذا الكون كله ، وفى نفس الإنسان وحياته .. وهى حقيقة

Marfat.com

ضخمة يقوم عليها جانب كبير من التصور الإيمانى . (وقد فصلنا الحديث عنها عند استعراض قوله تعالى : « وخلق كل شىء فقدره تقديرا » فى سورة الفرقان . وعند قوله تعالى : « إنا كل شىء خلقناه بقدر » . . فى سورة القمر) . ولكن ذكر هذه الحقيقة الكلية هنا يربط بها ماقدره الله من الطلاق وفترته ، والعدة ووقتها ، والشهادة وإقامتها . ويطبع هذه الأحكام بطابع السنة الإلهية النافذة ، والناموس الكلى العام . ويوقع فى الحس أن الأمر جد من جد النظام الكونى المقدر فى كل خلق الله .

* * *

« واللائى يئسن من المحيض من نسائكم ـ إن ارتبتم ـ فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن . وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن . ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا . ذلك أمر الله أنزله إليكم ، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا » . .

وهذا تحديد لمدة العدة لغير ذوات الحيض والحمل . يشمل اللواتى انقطع حيضهن ، واللاتى لم يحضن بعد لصغر أو لعلة . ذلك أن المدة التى بينت من قبل فى سورة البقرة كانت تنطبق على ذوات الحيض ـ وهى ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار من الحيضات . حسب الخلاف الفقهى فى المسألة ـ فأما التى انقطع حيضها والتى لم تحض أصلا فكان حكمها موضع لبس : كيف تحسب عدتها ؟ فجاءت هذه الآية تبين وتنفى اللبس والشك ، وتحدد ثلاثة أشهر لهؤلاء وهؤلاء ، لاشتراكهن فى عدم الحيض الذى تحسب به عدة أولئك . أما الحوامل فجعل عدتهن هى الوضع . طال الزمن بعد الطلاق أم قصر . ولو كان أربعين ليلة فترة الطهر من النفاس . لأن براءة الرحم بعد الوضع مؤكدة ، فلا حاجة إلى الانتظار . والمطلقة تبين من مطلقها بمجرد الوضع ، فلا حكمة فى انتظارها بعد ذلك ، وهى غير قابلة للرجعة إليه إلا بعقد جديد على كل حال . وقد جعل الله لكل شىء قدرا . فليس هناك حكم إلا ووراءه حكمة .

هذا هو الحكم ثم تجىء اللمسات والتعقيبات :

« ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا » . .

واليسر فى الأمر غاية مايرجوه إنسان . وإنها لنعمة كبرى أن يجعل الله الأمور ميسرة لعبد من عباده . فلا عنت ولا مشقة ولا عسر ولا ضيقة . يأخذ الأمور بيسر فى شعوره وتقديره .

Marfat.com

وينالها بيسر فى حركته وعمله . ويرضاها بيسر فى حصيلتها ونتيجتها . ويعيش من هذا فى يسر رخى ندى ، حتى يلقى الله . . ألا إنه لإغراء باليسر فى قضية الطلاق مقابل اليسر فى سائر الحياة !

« ذلك أمر الله أنزله إليكم » . .

وهذه لمسة أخرى فى جانب آخر . لمسة الجد والانتباه إلى مصدر الأمر .. فقد أنزله الله. أنزله للمؤمنين به ، فطاعته تحقيق لمعنى الإيمان ، ولحقيقة الصلة بينهم وبين الله .

ثم عودة إلى التقوى التى يدق عليها دقا متواصلا فى هذا المجال :

« ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا » ..

فالأولى تيسير للأمور . والثانية تكفير للسيئات وإعظام للأجر بعد التكفير .. فهو الفيض المغرى والعرض المثير . وهو حكم عام ووعد شامل . ولكنه يخلع على موضوع الطلاق ظلاله ، ويغمر القلب بالشعور بالله وفضله العميم . فماله إذن يعسر ويعقد والله يغمره بالتيسير والمغفرة والأجر الكبير ؟

* * *

« أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ، ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن . وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن . فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ، وأتمروا بينكم بمعروف ، وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى . لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ، لايكلف الله نفسا إلا ما آتاها ، سيجعل الله بعد عسر يسرا » . .

وهذا هو البيان الأخير لتفصيل مسألة الإقامة فى البيوت ، والإنفاق فى فترة العدة ـ على اختلاف مدتها . فالمأمور به هو أن يسكنوهن مما يجدون هم من سكنى . لاأقل مما هم عليه فى سكناهم ، وما يستطيعونه حسب مقدرتهم وغناهم . غير عامدين إلى مضارتهم سواء بالتضييق عليهن فى فسحة المسكن أومستواه أوفى المعاملة فيه . وخص ذوات الأحمال بذكر النفقة ـ مع وجوب النفقة لكل معتدة ـ لتوهم أن طول مدة الحمل يحدد زمن الإنفاق ببعضه دون بقيته ، أوبزيادة عنه إذا قصرت مدته . فأوجب النفقة حتى الوضع ، وهو موعد انتهاء العدة لزيادة الإيضاح التشريعى .

ثم فصل مسألة الرضاعة فلم يجعلها واجبا على الأم بلامقابل . فما دامت ترضع الطفل المشترك

Marfat.com

بينهما، فمن حقها أن تنال أجرا على رضاعته تستعين به على حياتها وعلى إدرار اللبن للصغير ،وهذا منتهى المراعاة للأم فى هذه الشريعة وفى الوقت ذاته أمر الأب والأم أن يأتمرا بينهما بالمعروف فى شأن هذا الوليد ، ويتشاورا فى أمره ورائدهما مصلحته ، وهو أمانة بينهما ،فلا يكون فشلهما هما فى حياتهما نكبة على الصغير البرىء فيهما !

وهذه هى المياسرة التى يدعوهما الله إليها. فأما إذا تعاسرا ولم يتفقا بشأن الرضاعة وأجرها، فالطفل مكفول الحقوق : « فسترضع له أخرى » . . دون اعتراض من الأم ودون تعطيل لحق الطفل فى الرضاعة ، بسبب تعاسرهما بعد فشلهما !

ثم يفصل الأمر فى قدر النفقة . فهو اليسر والتعاون والعدل . لا يجور هو ، ولا تتعنت هى. فمن وسع الله عليه رزقه فلينفق عن سعة . سواء فى السكن أو فى نفقة المعيشة أو فى أجر الرضاعة. ومن ضيق عليه فى الرزق ، فليس عليه من حرج ، فالله لا يطالب أحدا أن ينفق إلا فى حدود ما آتاه . فهو المعطى ، ولا يملك أحد أن يحصل على غير ما أعطاه الله . فليس هناك مصدر آخر للعطاء غير هـذا المصدر ، وليست هناك خزانة غير هـذه الخزانة : « لا يـكلف الله نفسا إلا ما آتاها » ..

ثم لمسة الإرضاء ، وإفساح الرجاء ، للاثنين على السواء :

« سيجعل الله بعد عسر يسرا » . .

فالأمر منوط بالله فى الفرج بعـد الضيق ، واليسر بعـد العسر . فأولى لهما إذن أن يعقدا به الأمر كله ، وأن يتجها إليه بالأمر كله ، وأن يراقباه ويتقياه والأمر كله إليه . وهو المانع المانع . القابض الباسط . وبيده الضيق والفرج ، والعسر واليسر ، والشدة والرخاء

* * *

وإلى هنا يكون قد تناول سائر أحكام الطلاق ومتخلفاته ، وتتبع كل أثر من آثاره حتى انتهى إلى حل واضح ؛ ولم يدع من البيت المتهدم أنقاضا ولا غبارا يملأ النفوس ويغشى القلوب ، ولم يترك بعده عقابيل غير مستريحة بعلاج ، ولا قلاقل تثير الاضطراب .

وكذلك يكون قد عالج جميع الوساوس والهواجس التى تثور فى القلوب ، فتمنعها من السماحة والتيسير والتجمل للأمر . فأبعد أشباح الفقر والضيق وضياع الأموال من نفس الزوج إذا هو أسكن وأنفق ووسع على مطلقته أو مرضعة ولده . ومن نفس الزوجة التى تضيق بنفقة

Marfat.com

الإعسار ، أوتطمع فى زيادة ماتصيب من مال زوجها السابق . فأكد اليسر بعد العسر لمن اتقى، والضيق بعد الفرج ، والرزق من حيث لايحتسب . وفوق رزق الدنيا رزق الآخرة والأجر الكبير هناك بعد التكفير .

كما عالج ماتخلفه حالة الخلاف والشقاق التى أدت إلى الطلاق . من غيظ وحنق ومشادة وغبار فى الشعور والضمير . . فمسح على هذا كله بيد الرفق والتجمل ، ونسم عليه من رحمة الله والرجاء فيه ؛ ومن ينابيع المودة والمعروف التى تجرها فى القلوب بلمسات التقوى والأمل فى الله وانتظار رضاه .

وهذا العلاج الشامل الكامل ، وهذه اللمسات المؤثرة العميقة ، وهذا التوكيد الوثيق المتكرر . . هذه كلها هى الضمانات الوحيدة فى هذه المسألة لتنفيذ الشريعة المقررة . فليس هناك ضابط إلا حساسية الضمائر وتقوى القلوب . وإن كلا الزوجين ليملك مكايدة صاحبه حتى تنفقىء مرارته إذا كانت الحواجز هى فقط حواجز القانون ! ! وبعض الاوامر من المرونة بحيث تسع كل هذا . فالأمر بعدم المضارة : « ولاتضاروهن » يشمل النهى عن ألوان من العنت لايحصرها نص قانونى مهما اتسع . والأمر فيه موكول إلى هذه المؤثرات الوجدانية ، وإلى استجاشة حاسة التقوى وخوف الله المطلع على السرائر ، المحيط بكل شىء علما . وإلى التعويض الذى يعده الله للمتقين فى الدنيا والآخرة . وبخاصة فى مسألة الرزق التى تكرر ذكرها فى صور شتى ، لأنها عامل مهم فى تيسير الموقف ، وتندية الجفاف الذى تنشئه حالة الطلاق .

وإن الزوجين ليفارقان ـ فى ظل تلك الأحكام والتوجيهات ـ وفى قلوبهما بذور للود لم تمت ، ونداوة قد تحيى هذه البذور فتنبت . . ذلك إلى الأدب الجميل الرفيع الذى يريد الإسلام أن يصبغ به حياة الجماعة المسلمة ، ويشيع فيها أرجه وشذاه .

* * *

فإذا انتهى السياق من هذا كله ساق العبرة الأخيرة فى مصير الذين عتوا عن أمر ربهم ورسله، فلم يسمعوا ولم يستجيبوا . وعلق هذه العبرة على الرؤوس ، تذكرهم بالمصير البائس الذى ينتظر من لايتقى ولا يطيع . كما تذكرهم بنعمة الله على المؤمنين المخاطبين بالسورة والتشريع :

« وكأى من قرية عتت عن أمر ربها ورسله ، فحاسبناها حساباً شديدا وعذبناها عذابا نكرا . فذاقت وبال أمرها ، وكان عاقبة أمرها خسرا . أعد الله لهم عذابا شديدا . فاتقوا

Marfat.com

الله ياأولى الألباب الذين آمنوا،قد أنزل الله إليكم ذكرا :رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور . ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً . قد أحسن الله له رزقا » . .

وهو إنذار طويل وتحذير مفصل المشاهد. كما أنه تذكير عميق بنعمة الله بالإيمان والنور، ووعده بالأجرفى الآخرة وهو أحسن الرزق وأكرمه .

فأخذ الله لمن يعتو عن أمره ولا يسلم لرسله هو سنة متكررة :« وكأى من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا » . .وتفصيل أخذها وذكر الحساب العسير والعذاب النكير ، ثم تصوير العاقبة وسوء المصير : « فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا » .. ثم تأخير صورة هذه العاقبة الخاسرة فى الآية التالية : « أعد الله لهم عذابا شديدا » .. كل هذا لإطالة المشهد وتفصيل خطواته ومراحله . وهى طريقة من طرق الأسلوب القرآنى فى تعميق الأثر فى الحس وإطالة مكثه فى الأعصاب (١)

ونقف لحظة أمام هذا التحذير فنرى أن الله أخذ القرى واحدة بعد واحدة كلما عتت عن أمرها ورسله .. ونجد أن هذا التحذير يساق هنا بمناسبة الطلاق وأحكامه ، فيرتبط الطلاق وحكمه بهذه السنة الكلية . ويوحى هذا الارتباط أن أمر الطلاق ليس أمر أسر أو أزواج . إنما هو أمر الأمة المسلمة كلها . فهى المسؤولة عن هذا الأمر . وهى المسؤولة فيه عن شريعة الله . ومخالفتها عن أمر الله فيه ـ أو مخالفتها عن أمر الله فى غيره من أحكام هذا النظام ، أو هذاالمنهج الإلهى المتكامل للحياة ـ هى عتو عن أمر الله، لايؤاخذ بهالأفراد الذين يرتكبونه، إنما تؤاخذ به القرية أو الأمة التى تقع فيها المخالفة ، والتى تنحرف فى تنظيم حياتها عن نهج الله وأمره : فقد جاء هذا الدين ليطاع ، ولينفذ كله ، وليهيمن على الحياة كلها . فمن عتا عن أمر الله فيه ـ ولو كان هذا فى أحوال الأفراد الشخصية ـ فقد تعرض لما تعرضت له القرى من سنة الله التى لاتتخلف أبدا .

وتلك القرى ذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا .. ذاقته فى هذه الأرض قبل يوم الحساب الأخير . ولقد ذاقت هذا الوبال قرى وأمم وشعوب عتت عن منهج الله فى الأرض . ونحن نشهد وأسلافنا شهدوا هذا الوبال . ذاقته فسادا واضطرابا ، وفقرا وقحطا ،

---

(١) يراجع فصل « التناسق الفنى » فى كتاب « التصوير الفنى فى القرآن » .

Marfat.com

وظلما وجورا ، وحياة مفزعة لاأمن فيها ولاسلام ، ولاطمأنينة فيها ولااستقرار . وفى كل يوم نرى مصداق هذا النذير !

وذلك فوق العذاب الشديد الذى ينتظر العتاة عن أمر الله ونهجه فى الحياة حيث يقول الله : « أعد الله لهم عذابا شديدا » .. والله أصدق القائلين .

إن هذا الدين منهج نظام جماعى ـ كما أسلفنا الحديث فى سورة الصف ـ جاء لينشىء جماعة مسلمة ذات نظام خاص . وجاء ليصرف حياة هذه الجماعة كلها . ومن ثم فالجماعة كلها مسؤولة عنه ، مسؤولة عن أحكامه . ولن تخالف عن هذه الأحكام حتى يحق عليها هذا النذير الذى حق على القرى التى عتت عن أمر ربها ورسله .

وفى مواجهة هذا الإنذار ومشاهده الطويلة يهتف بأولى الألباب الذين آمنوا . الذين هدتهم ألبابهم إلى الإيمان . يهتف بهم ليتقوا الله الذى أنزل لهم الذكر : « قد أنزل الله إليكم ذكرا » .. ويجسم هذا الذكر ويمزجه بشخص الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيجعل شخصه الكريم هو الذكر ، أو بدلا منه فى العبارة : « رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات » ..

وهنا لفتة مبدعة عميقة صادقة ذات دلائل منوعة .

إن هذا الذكر الذى جاء من عند الله مر إليهم من خلال شخصية الرسول الصادق حتى لكأن الذكر نفذ إليهم مباشرة بذاته ، لم تحجب شخصية الرسول شيئا من حقيقته .

والوجه الثانى لإيحاء النص هو أن شخصية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد استحالت ذكرا ، فهى صورة مجسمة لهذا الذكر صنعت به فصارت هو . وهو ترجمة حية لحقيقة القرآن . وكذلك كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهكذا وصفته عائشة ـ رضى الله عنها ـ وهى تقول : « كان خلقه القرآن » .. وهكذا كان القرآن فى خاطره فى مواجهة الحياة . وكان هو القرآن يواجه الحياة !

وفوق نعمة الذكر والنور والهداية والصلاح ، وعد بنعيم الجنات خالدين فيها أبدا . وتذكير بأن هذا الرزق هو أحسن الرزق ، فلا يقاس إليه رزق الأرض : « قد أحسن الله له رزقا » .. وهو الرازق فى الدنيا والآخرة ، ولكن رزقا خير من رزق ، واختياره للأحسن هو الاختيار الحق الكريم :

Marfat.com

وهكذا يلمس نقطة الرزق مرة أخرى ،ويهون بهذه الإشارة من رزق الأرض .إلى جانب رزق الجنة . بعد ماوعد فى المقاطع الأولى بسعة رزق الأرض أيضا ..

* * *

وفى الختام يحى ذلك الإيقاع الكونى الهائل، فيربط موضوع السورة وتشريعاتها وتوجيهاتها بقدر الله وقدرة الله ، وعلم الله ، فى المجال الكونى العريض :

« الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ،يتنزل الأمر بينهن ، لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما » . .

والسماوات السبع لاعلم لنا بحقيقة مدلولها وأبعادها ومساحاتها . وكذلك الأراضى السبع. فقد تكون أرضنا هذه التى نعرفها واحدة منهن والباقيات فى علم الله . وقد يكون معنى مثلهن أن هذه الأرض من جنس السماوات فهى مثلهن فى تركيبها أو خصائصها . . وعلى أية حال فلا ضرورة لمحاولة تطبيق هذه النصوص على مايصل إليه علمنا ، لأن علمنا لايحيط بالكون ، حتى نقول على وجه التحقيق : هذا مايريده القرآن . ولن يصح أن نقول هكذا إلا يوم يعلم الإنسان تركيب الكون كله علما يقينيا . . وهيهات . . !

فنتقع بإيحاء هذه الإشارة إلى تلك الحقيقة فى مجالها النفسى ، وفى إنشاء التصور الإيمانى الكونى الصحيح .

والإشارة إلى هذا الكون الهائل : « سبع سماوات ومن الأرض مثلهن » .. يهول الحس ويقف القلب وجها لوجه أمام مشهد من مشاهد قدرة الخالق ،وسعة ملكه ،تصغر أمامه هذه الأرض كلها ، فضلا على بعض مافيها ، فضلا على حادث من أحداثها . فضلا على دريهات ينفقها الزوج أو تتنازل عنها الزوجة !

وبين هذه السماوات السبع والأرض أوالأرضين السبع يتنزل أمر الله ـ ومنه هذا الأمر الذى هم بصدده فى هذا السياق . فهو أمر هائل إذن ، حتى بمقاييس البشر وتصوراتهم فى المكان والزمان بقدر مايطيقون التصور . والمخالفة عنه مخالفة عن أمر تتجاوب به أقطار السماوات والأرضين ، ويتسامع به الملأ الأعلى وخلق الله الآخرون فى السماوات والأرضين . فهى مخالفة بلقاء شنعاء ، لايقدم عليها ذو عقل مؤمن ، جاءه رسول يتلو عليه آيات الله مبينات ، ويبين له هذا الأمر ، ليخرجه من الظلمات إلى النور . .

وهذا الأمر يتنزل بين السماوات والأرض ، لينشئ فى قلب المؤمن عقيدة أن الله على كل شىء

Marfat.com

قدير ؛ فلا يعجزه شيء مما يريد . وأنه أحاط بكل شيء علما ؛ فلا يند عن علمه شيء مما يكون في ملكه الواسع العريض ، ولا مما يسرونه في حنايا القلوب .

ولهذه اللمسة قيمتها هنا من وجهين :

الأول أن الله الذي أحاط بكل شيء علما هو الذي يأمر بهذه الأحكام . فقد أنزلها وهو يحيط بكل ظروفهم وملابساتهم ومصالحهم واستعداداتهم . فهي أولى بالاتباع لا يلتفتون عنها أدنى التفات ؛ وهي من وضع العليم المحيط بكل شيء علما .

والثاني أن هذه الأحكام بالذات موكولة إلى الضمائر ، فالشعور بعلم الله واطلاعه على كل شيء هو الضمان لحساسية هذه الضمائر ، في شأن لا يجدي فيه شيء إلا تقوى الله العليم بذات الصدور .

* * *

وهكذا تختم السورة بهذا الإيقاع الذي يهول ويروع ، بقدر ما يحرك القلوب لتخبت وتطيع . فسبحان خالق القلوب ، العليم بما فيها من المنحنيات والدروب !

Marfat.com

سورة التحريم مدنية
وآياتها ١٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ، تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ، وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ① قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ، وَٱللَّهُ مَوْلَاكُمْ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ .

« وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً ، فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ، فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ : مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا ؟ قَالَ : نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ .

« إِنْ تَتُوبَا إِلَىٰ ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ، وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَٱلْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ، ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ، عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ، لَا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا ٱلْيَوْمَ ، إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَىٰ ٱللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً ، عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ، يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ

Marfat.com

ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ، نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمَانِهِمْ ، يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَا ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

« يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَاهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَافِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ ٱلْمَصِيرُ .

« ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَةَ نُوحٍ وَٱمْرَأَةَ لُوطٍ ، كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ، فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْئًا ، وَقِيلَ : ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّاخِلِينَ .

« وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ ، إِذْ قَالَتْ : رَبِّ ٱبْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ ، وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ، وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ * وَمَرْيَمَ ٱبْنَةَ عِمْرَانَ ٱلَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ، فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ، وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَانِتِينَ » ﴿١٢﴾

عندما جرى قدر الله أن يجعل الإسلام هو الرسالة الأخيرة ؛ وأن يجعل منهجه هو المنهاج الباقى إلى آخر الخليقة ؛ وأن تجرى حياة المؤمنين به وفق الناموس الكونى العام ؛ وأن يكون هذا الدين هو الذى يقود حياة البشرية ويهيمن على نشاطها فى كل ميدان ..

عندما جرى قدر الله بهذا كله جعل الله هذا المنهج فى هذه الصورة ، شاملا كاملا متكاملا، يلبى كل طاقات البشر واستعداداتهم ، فى الوقت الذى يرفع هذه الطاقات وهذه الاستعدادات إلى الأفق اللائق بخليفة الله فى الأرض ، وبالكائن الذى كرمه الله على كثير من عباده ، ونفخ فيه من روحه .

وجعل طبيعة هذا الدين الانطلاق بالحياة إلى الأمام : نموا وتكاثرا ، ورفعة وتطهرا ، فى آن واحد . فلم يعطل طاقة بانية ، ولم يكبت استعدادا نافعا . بل نشط الطاقات وأيقظ الاستعدادات وفى الوقت ذاته حافظ على توازن حركة الاندفاع إلى الأمام مع حركة الارتفاع

Marfat.com

إلى الأفق الكريم ، الذى يهىء الأرواح فى الدنيا لمستوى نعيم الآخرة ، ويعد المخلوق الفانى فى الأرض للحياة الباقية فى دار الخلود .

وعندما جرى قدر الله أن يجعل طبيعة هذه العقيدة هكذا جرى كذلك باختيار رسولها ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنسانا تتمثل فيه هذه العقيدة بكل خصائصها ، وتتجسم فيه بكل حقيقتها ، ويكون هو بذاته وبحياته الترجمة الصحيحة الكاملة لطبيعتها واتجاهها . إنسانا قد اكتملت طاقاته الإنسانية كلها . ضليع التكوين الجسدى ، قوى البنية ، سليم البناء ؛ صحيح الحواس ، يقظ الحس ، يتذوق المحسوسات تذوقا كاملا سليما . وهو فى ذات الوقت ضخم العاطفة ، حى الطبع ، سليم الحساسية ، يتذوق الجمال ، متفتح للتلقى والاستجابة . وهو فى الوقت ذاته كبير العقل ، واسع الفكر ، فسيح الأفق ، قوى الإرادة ، يملك نفسه ولا تملكه .. ثم هو بعد ذلك كله .. النبى .. الذى تشرق روحه بالنور الكلى ، والذى تطيق روحه الإسراء والمعراج ، والذى ينادى من السماء ، والذى يرى نور ربه ، والذى تتصل حقيقته بحقيقة كل شىء فى الوجود من وراء الأشكال والظواهر ، فيسلم عليه الحصى والحجر ، ويحن له الجذع ، ويرتجف به أحد ـ الجبل .. ! .. ثم تتوازن فى شخصيته هذه الطاقات كلها . فإذا هو التوازن المقابل لتوازن العقيدة التى اختير لها ..

ثم يجعل الله حياته الخاصة والعامة كتابا مفتوحا لأمته وللبشرية كلها ، تقرأ فيه صور هذه العقيدة ، وترى فيه تطبيقاتها الواقعية . ومن ثم لا يجعل فيها سرا مخبوءا ، ولا سترا مطويا . بل يعرض جوانب كثيرة منها فى القرآن ، ويكشف منها ما يطوى عادة عن الناس فى حياة الإنسان العادى . حتى مواضع الضعف البشرى الذى لا حيلة فيه لبشر . بل إن الإنسان ليكاد يلمح القصد فى كشف هذه المواضع فى حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للناس !

إنه ليس له فى نفسه شىء خاص . فهو لهذه الدعوة كله . فعلام يخبىء جانب من حياته ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو يخبأ ؟ إن حياته هى المشهد المنظور القريب الممكن التطبيق من هذه العقيدة ؛ وقد جاء ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليعرضها للناس فى شخصه وفى حياته ، كما يعرضها بلسانه وتوجيهه . ولهذا خلق ، ولهذا جاء .

ولقد حفظ عنه أصحابه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونقلوا للناس بعدهم ـ جزاهم الله خيرا ـ أدق تفصيلات هذه الحياة . فلم تبق صغيرة ولا كبيرة حتى فى حياته اليومية العادية ، لم تسجل

Marfat.com

ولم تنقل .. وكان هذا طرفا من قدر الله فى تسجيل حياة هذا الرسول ، أوتسجيل دقائق هذه العقيدة مطبقة فى حياة الرسول . فكان هذا إلى جانب ماسجله القرآن الكريم من هذه الحياة السجل الباقى للبشرية إلى نهاية الحياة .

* * *

وهذه السورة تعرض فى صدرها صفحة من الحياة البيتية لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصورة من الانفعالات والاستجابات الإنسانية بين بعض نسائه وبعض، وبينهن وبينه! وانعكاس هذه الانفعالات والاستجابات فى حياته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى حياة الجماعة المسلمة كذلك.. ثم فى التوجيهات العامة للأمة على ضوء ماوقع فى بيوت رسول الله وبين أزواجه .

والوقت الذى وقعت فيه الأحداث التى تشير إليها السورة ليس محددا . ولكن بالرجوع إلى الروايات التى جاءت عنه يتأكد أنه بعد زواج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من زينب بنت جحش قطعا .

ولعله يحسن أن نذكر هنا ملخصا عن قصة أزواج النبى ،وعن حياته البيتية يعين على تصور الحوادث والنصوص التى جاءت بصددها فى هذه السورة ونعتمد فى هذا الملخص على ما أثبته الإمام ابن حزم فى كتابه : « جوامع السيرة » .. وعلى السيرة لابن هشام مع بعض التعليقات السريعة :

أول أزواجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ خديجة بنت خويلد . تزوجها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو ابن خمس وعشرين سنة وقيل ثلاث وعشرون، وسنها ـ رضى الله عنها ـ أربعون أو فوق الأربعين ، وماتت ـ رضى الله عنها ـ قبل الهجرة بثلاث سنوات ، ولم يتزوج غيرها حتى ماتت . وقد تجاوزت سنه الخمسين .

فلما ماتت خديجة تزوج عليه السلام سودة بنت زمعة ـ رضى الله عنها ـ ولم يرو أنها ذات جمال ولا شباب. إنما كانت أرملة للسكران ابن عمرو ابن عبد شمس . كان زوجها من السابقين إلى الإسلام من مهاجرى الحبشة . فلما توفى عنها ، تزوجها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .

ثم تزوج عائشة ـ رضى الله عنها ـ بنت الصديق أبى بكر ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ وكانت صغيرة فلم يدخل بها إلا بعد الهجرة . ولم يتزوج بكرا غيرها . وكانت أحب نسائه إليه ، وقيل كانت سنها تسع سنوات وبقيت معه تسع سنوات وخمسة أشهر . وتوفى عنها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

Marfat.com

ثم تزوج حفصة بنت عمر ـ رضى الله عنه وعنها ـ بعد الهجرة بسنتين وأشهر . تزوجها ثيبا . بعد ماعرضها أبوها على أبى بكر وعلى عثمان فلم يستجيبا . فوعده النبى خيرا منهما وتزوجها !

ثم تزوج زينب بنت خزيمة . وكان زوجها الأول عبيدة ابن الحارث ابن عبد المطلب قد قتل يوم بدر . وتوفيت زينب هذه فى حياته ـ صلى الله عليه وسلم ـ .وقيل كان زوجهاقبل النبى هو عبد الله ابن جحش الأسدى المستشهد يوم أحد . ولعل هذا هو الأقرب .

وتزوج أم سلمة . وكانت قبله زوجا لأبى سلمة ، الذى جرح فى أحد ، وظل جرحه يعاوده حتى مات به . فتزوج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أرملته . وضم إليه عيالها من أبى سلمة .

وتزوج زينب بنت جحش . بعد أن زوجها لمولاه ومتبناه زيد ابن حارثة فلم تستقم حياتهما فطلقها. وقد عرضنا قصتها فى سورة الأحزاب فى الجزء الثانى والعشرين، وكانت جميلة وضيئة . وهى التى كانت عائشة ـ رضى الله عنها ـ تحس أنها تساميها ، لنسبها من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهى بنت عمته ، ولوضاءتها !

ثم تزوج جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق بعد غزوة بنى المصطلق فى أواسط السنة السادسة الهجرية . قال ابن إسحاق : وحدثنى محمد ابن جعفر ابن الزبير ، عن عروة ابن الزبير عن عائشة رضى الله عنها . قالت : « لما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا بنى المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث فى أسهم الثابت ابن قيس ابن الشماس أولابن عم له فكاتبته على نفسها، وكانت امرأة حلوة مليحة ملاحة لايراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تستعينه فى كتابتها . قالت عائشة : فوالله ماهو إلاأن رأيتها على باب حجرتى فكرهتها! وعرفت أنه سيرى منها ـ صلى الله عليه وسلم ـ مارأيت ، فدخلت عليه فقالت : يارسول الله . أناجويرية بنت الحارث ابن أبى ضرار سيد قومه . وقد أصابنى من البلاء مالم يخف عليك فوقعت فى السهم لثابت ابن قيس ابن الشماس ـ أولابن عم له ـ فكاتبته على نفسى ، فجئت أستعينك على كتابتى . قال : « فهل لك فى خيرمن ذلك؟ قالت : وماهو يارسول الله ؟ قال : « أقضى عنك كتابتك وأتزوجك ؟ » قالت : نعم يارسول الله . قال : « قد فعلت » . .

ثم تزوج أم حبيبة بنت أبى سفيان بعد الحديبية . وكانت مهاجرة مسلمة فى بلاد الحبشة ،

Marfat.com

فارتد زوجها عبد الله ابن جحش إلى النصرانية وتركها . فخطبها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمهرها عنه نجاشي الحبشة . وجاءت من هناك إلى المدينة .

وتزوج إثر فتح خيبر بعد الحديبية صفية بنت حيي ابن أخطب زعيم بني النضير . وكانت زوجة لكنانة ابن أبي الحقيق وهو من زعماء اليهود أيضا . ويذكر ابن إسحاق في قصة زواجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ منها : أنه أتى بها وبأخرى معها من السبي، فمر بهما بلال ـ رضي الله عنه ـ على قتلى من قتلى اليهود فلما رأتهم التي مع صفية صاحت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اعزبوا عني هذه الشيطانة » وأمر بصفية فحيزت خلفه ، وألقى عليها رداءه فعرف المسلمون أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد اصطفاها لنفسه . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لبلال ـ فيما بلغني ـ حين رأى بتلك اليهودية مارأى : « أنزعت منك الرحمة يابلال ؟ حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما ؟» . .

ثم تزوج ميمونة بنت الحارث ابن حزن . وهي خالة خالد ابن الوليد وعبدالله ابن عباس. وكانت قبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند أبي رهم ابن عبد العزى . وقيل حويطب ابن عبد العزى . وهي آخر من تزوج صلى الله عليه وسلم .

وهكذا ترى أن لكل زوجة من أزواجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قصة وسببا في زواجه منها. وهن فيمن عدا زينب بنت جحش ، وجويرية بنت الحارث ، لم يكن شواب ولا ممن يرغب فيهن الرجال لجمال. وكانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ هي أحب نسائه إليه . وحتى هاتان اللتان عرف عنهما الجمال والشباب كان هناك عامل نفسي وإنساني آخر ـ إلى جانب جاذبيتهن ـ ولست أحاول أن أنفي عنصر الجاذبية الذي لحظته عائشة في جويرية مثلا ،ولا عنصر الجمال الذي عرفت به زينب . فلا حاجة أبدا إلى نفي مثل هذه العناصر الإنسانية من حياة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وليست هذه العناصر موضع اتهام يدفعه الأنصار عن نبيهم . إذا حلا لأعدائه أن يتهموه ! فقد اختير ليكون إنسانا .ولكن إنسانا رفيعا . وهكذا كان .وهكذا كانت دوافعه في حياته وفي أزواجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على اختلاف الدوافع والأسباب.

ولقد عاش في بيته مع أزواجه بشرا رسولا كما خلقه الله ،.وكما أمره أن يقول : « قل : سبحان ربي ! هل كنت إلا بشرا رسولا ؟ » . .

استمتع بأزواجه وأمتعهن ، كما قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ عنه : « كان إذا خلا

Marfat.com

بنسائه ألين الناس. وأكرم الناس ضحاكا بساما [1]» .. ولكنه إنما كان يستمتع بهن ويمتعهن من ذات نفسه ، ومن فيض قلبه ، ومن حسن أدبه ، ومن كريم معاملته . فأما حياتهن المادية فكانت فى غالبها كفافا حتى بعد أن فتحت له الفتوح وتبحبح المسلمون بالغنائم والفىء . وقد سبق فى سورة الأحزاب قصة طلبهن الوسعة فى النفقة ، وما أعقب هذا الطلب من أزمة ، انتهت بتخييرهن بين الله ورسوله والدار الآخرة ، أو المتاع والتسريح من عصمته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة [2].

ولكن الحياة فى جو النبوة فى بيوت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم تكن لتقضى على المشاعر البشرية ، والهواتف البشرية فى نفوس أزواجه ـ رضى الله عنهن ـ فقد كان يعتر أو يشجر بينهن ، مالا بد أن يشجر فى قلوب النساء فى مثل هذه الحال . وقد سلف فى رواية ابن إسحاق عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها كرهت جويرية بمجرد رؤيتها لما توقعته من استملاح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لها إذا رآها .وصح ماتوقعته فعلا ! وكذلك روت هى نفسها حادثا لها مع صفية . قالت . « قلت للنبى ـ صلى الله عليه وسلم : حسبك من صفية كذا وكذا . قال الراوى : تعنى قصيرة ! فقال صلى الله عليه وسلم : « لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته [3] » . . كذلك روت عن نفسها أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين نزلت آية التخيير التى فى الأحزاب ، فاختارت هى الله ورسوله والدار الآخرة ، طلبت إليه ألا يخبر زوجاته عن اختيارها! ـ وظاهر لماذا طلبت هذا ! ـ فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: « إن الله تعالى لم يبعثنى معنفا ، ولكن بعثنى معلما ميسرا . لاتسألنى امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها . . [4] »

وهذه الوقائع التى روتها عائشة ـ رضى الله عنها ـ عن نفسها ـ بدافع من صدقها ولتربيتها الإسلامية الناصعة ـ ليست إلا أمثلة لغيرها تصور هذا الجو الإنسانى الذى لابد منه فى مثل هذه الحياة . كما تصور كيف كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يؤدى رسالته بالتربية والتعلية فى بيته كما يؤديها فى أمته سواء .

* * *

(١) رواه السيوطى فى الجامع الصغير عن ابن سعد وابن عساكر عن عائشة
(٢) ص ٦ ـ ٨ الجزء الثانى والعشرون
(٣) أخرجه أبو داود
(٤) أخرجه مسلم .

Marfat.com

وهذا الحادث الذى نزل بشأنه صدر هذه السورة هو واحد من تلك الأمثلة التى كانت تقع فى حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى حياة أزواجه . وقد وردت بشأنه روايات متعددة ومختلفة سنعرض لها عند استعراض النصوص القرآنية فى السورة .

وبمناسبة هذا الحادث وماورد فيه من توجيهات . وبخاصة دعوة الزوجتين المتآمرتين فيه إلى التوبة . أعقبه فى السورة دعوة إلى التوبة وإلى قيام أصحاب البيوت على بيوتهم بالتربية ، ووقاية أنفسهم وأهليهم من النار . كما ورد مشهد للكافرين فى هذه النار . واختتمت السورة بالحديث عن امرأة نوح وامرأة لوط كمثل للكفر فى بيت مؤمن . وعن امرأة فرعون كمثل للإيمان فى بيت كافر ، وكذلك عن مريم ابنة عمران التى تطهرت فتلقت النفخة من روح الله وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين . .

« ياأيها النبى لم تحرم ماأحل الله لك ، تبتغى مرضاة أزواجك ، والله غفور رحيم. قدفرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم .

« وإذ أسر النبى إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض ، فلما نبأها به قالت : من أنبأك هذا ؟ قال : نبأنى العليم الخبير .

« إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما، وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين، والملائكة بعد ذلك ظهير. عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا » ..

وردت فى سبب نزول هذه الآيات روايات متعددة منها مارواه البخارى عند هذه الآية قال : حدثنا إبراهيم ابن موسى ، أخبرنا هشام ابن يوسف ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن عبيد ابن عمير، عن عائشة ، قالت: كان النبى ـ صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ـ يشرب عسلا عند زينب بنت جحش ، ويمكث عندها . فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له : أكلت مغافير (١) . إنى أجد منك ريح مغافير . قال : « لا . ولكنى كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود له . وقد حلفت . لاتخبرى بذلك أحدا » . . فهذا هو ماحرمه على نفسه وهو حلال له : « لم تحرم ماأحل الله لك ؟ » .

---

(١) المغافير : صمغ حلو الطعم كريه الرائحة .

Marfat.com

ويبدو أن التى حدثها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا الحديث وأمرها بستره قالت لزميلتها المتآمرة معها . فأطلع الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الأمر . فعاد عليها فى هذا وذكر لها بعض مادار بينها وبين زميلتها دون استقصاء لجميعه . تمشيا مع أدبه الكريم . فقد لمس الموضوع لمسا مختصرا لتعرف أنه يعرف وكفى. فدهشت هى وسألته : « من أنبأك هذا؟».. ولعله دار فى خلدها أن الأخرى هى التى نبأته ! ولكنه أجابها : « نبأنى العليم الخبير » . . فالخبر من المصدر الذى يعلمه كله . ومضمون هذا أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعلم كل مادار ، لاالطرف الذى حدثها به وحده !

وقد كان من جراء هذا الحادث ، وما كشف عنه من تآمر ومكايدات فى بيت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن غضب .فآلى من نسائه لايقربهن شهرا ، وهم بتطليقهن ـ على ماتسامع المسلمون ـ ثم نزلت هذه الآيات . وقد هدأ غضبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعاد إلى نسائه بعد تفصيل سنذكره بعد عرض رواية أخرى للحادث .

وهذه الرواية الأخرى أخرجها النسائى من حديث أنس ، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان له أمة يطؤها ، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها . فأنزل الله عز وجل : «ياأيها النبى لم تحرم ماأحل الله لك ؛ تبتغى مرضاةأزواجك » ...

وفى رواية لابن جرير ولابن إسحاق أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وطىء مارية أم ولده إبراهيم فى بيت حفصة . فغضبت وعدتها إهانة لها . فوعدها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتحريم سارية وحلف بهذا . وكلفها كتمان الأمر .فأخبرت به عائشة .. فهذاهو الحديث الذى جاء ذكره فى السورة .

وكلا الروايتين يمكن أن يكون هو الذى وقع. وربما كانت هذه الثانية أقرب إلى جو النصوص وإلى ماأعقب الحادث من غضب كاد يؤدى إلى طلاق زوجات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ نظرا لدقة الموضوع وشدة حساسيته . ولكن الرواية الأولى أقوى إسنادا . وهى فى الوقت ذاته ممكنة الوقوع ، ويمكن أن تحدث الآثار التى ترتبت عليها . إذا نظرنا إلى المستوى الذى يسود بيوت النبى ، مما يمكن أن تعد فيه الحادثة بهذا الوصف شيئا كبيرا .. والله أعلم أى ذلك كان .

أما وقع هذا الحادث ـ حادث إيلاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أزواجه ، فيصوره

Marfat.com

الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وهو يرسم كذلك جانبا من صورة المجتمع الإسلامى يومذاك . . قال : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن الزهرى، عن عبيد الله ابن عبدالله ابن أبى ثور، عن ابن عباس قال: «لم أزل حريصا على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اللتين قال الله تعالى : (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) حتى حج عمر وحججت معه، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة ، فتبرز ، ثم أتانى فسكبت على يديه فتوضأ ، فقلت : يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ اللتان قال الله تعالى : (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما)؟ فقال عمر : واعجبا لك يا ابن عباس ! (قال الزهرى : كره والله ما سأله عنه ولم يكتمه) قال: هي عائشة وحفصة . قال : ثم أخذ يسوق الحديث ، قال : كنا معشر قريش قوما نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم . قال: وكان منزلى فى دار أمية ابن زيد بالعوالى . قال: فغضبت يوما على امرأتى ، فإذا هى تراجعنى ، فأنكرت أن تراجعنى . فقالت : ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل ! قال : فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت : أتراجعين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : نعم ! قلت : وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل ؟ قالت : نعم اقلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ! أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هى قد هلكت ؟ لا تراجعى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا تسأليه شيئا وسلينى من مالى ما بدا لك ، ولا يغرنك إن كانت جارتك هى أوسم ـ أى أجمل ـ وأحب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ منك ـ يريد عائشة ـ قال: وكان لى جار من الأنصار وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينزل يوما وأنزل يوما ، فيأتينى بخبر الوحى وغيره وآتيه بمثل ذلك. قال: وكنا نتحدث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا . فنزل صاحبى يوما ثم أتى عشاء فضرب بابى ثم نادى ، فخرجت إليه ، فقال : حدث أمر عظيم . فقلت : وما ذاك ؟ أجاءت غسان ؟ قال : لا . بل أعظم من ذلك وأطول اطلق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نساءه ! فقلت : قد خابت حفصة وخسرت! قد كنت أظن هذا كائنا . حتى إذا صليت الصبح شددت على ثيابى ثم نزلت فدخلت على حفصة وهى تبكى . فقلت : أطلقكن رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ؟ ـ فقالت : لا أدرى . هو هذا معتزل فى هذه المشربة .

Marfat.com

فأتيت غلاما أسود فقلت :استأذن لعمر . فدخل الغلام ثم خرج إلى فقال :ذكرتك له فصمت ! فانطلقت حتى أتيت المنبر ، فإذا عنده رهط جلوس يبكى بعضهم . فجلست عنده قليلا ، ثم غلبنى ماأجد ، فأتيت الغلام فقلت : استأذن لعمر . فدخل ثم خرج إلىّ فقال : ذكرتك له فصمت ! فرجعت فجلست إلى المنبر ، ثم غلبنى ماأجد ، فأتيت الغلام فقلت . استأذن لعمر . فدخل ثم خرج إلىّ فقال : ذكرتك له فصمت ! فوليت مدبرا فإذا الغلام يدعونى . فقال : ادخل قد أذن لك . فدخلت فسلمت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإذا هو متكئ على رمل حصير قد أثر فى جنبه . فقلت:أطلقت يارسول الله نساءك ؟ فرفع رأسه إلىّ وقال : « لا » . فقلت : الله أكبر ! ولورأيتنا يارسول الله وكنا معشر قريش قوما نغلب النساء . فلما قدمنا المدينةوجدنا قوما تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم ، فغضبت على امرأتى يوما ، فإذا هى تراجعنى ، فأنكرت أن تراجعنى ، فقالت : ماتنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل . فقلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ! أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هى قد هلكت؟ فتبسم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلت: يارسول الله قد دخلت على حفصة فقلت: لايغرنك أن كانت جارتك هى أوسم أوأحب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منك ! فتبسم أخرى . فقلت : أستأنس يارسول الله ! قال : « نعم » فجلست ، فرفعت رأسى فى البيت فوالله مارأيت فى البيت شيئا يرد البصر إلاهيبة مقامه فقلت : ادع الله يارسول الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم وهم لايعبدون الله.فاستوى جالسا وقال : « أفى شك أنت ياابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا » . فقلت : استغفر لى يارسول الله .. وكان أقسم ألايدخل عليهن شهرا من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله عز وجل » .. (وقد رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى من طرق عن الزهرى بهذا النص) ..

* * *

هذه رواية الحادث فى السير . فلننظر فى السياق القرآنى الجميل :

تبدأ السورة بهذا العتاب من الله سبحانه لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« ياأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك ، تبتغى مرضاة أزواجك ، والله غفور رحيم ؟ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ، والله مولاكم ، وهو العليم الحكيم » ..

Marfat.com

وهو عتاب مؤثر موح . فمايجوز أن يحرم المؤمن على نفسه ماأحله الله لهمن متاع .والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن حرم العسل أو مارية بمعنى التحريم الشرعى ؛ إنما كان قد قرر حرمان نفسه . فجاء هذا العتاب يوحى بأن ماجعله الله حلالا فلا يجوز حرمان النفس منه عمدا وقصدا إرضاء لأحد . . والتعقيب : « والله غفور رحيم » . . يوحى بأن هذا الحرمان من شأنه أن يستوجب المؤاخذة ، وأن تتداركه مغفرة الله ورحمته . وهو إيحاء لطيف

فأما اليمين التى يوحى النص بأن الرسول ـ صلى الله عليـه وسلم ـ قد حلفها ، فقد فرض الله تحلتها . أى كفارتها التى يحل منها . مادامت فى غير معروف والعدول عنها أولى . « والله مولاكم » . . فهو يعينكم على ضعفكم وعلى مايشق عليـكم .ومن ثم فرض تحلة الأيمان ،للخروج من العنت والمشقة . . « وهو العليم الحـكيم » . . يشرع لـكم عن علم وعن حكمة ، ويأمركم بما يناسب طاقتـكم ومايصلح لـكم .فلا تحرموا إلا ماحرم ،ولا تحلوا غير ماأحل . وهو تعقيب يناسب ماقبله من توجيه .

ثم يشير إلى الحديث ولايذكر موضوعه ولا تفصيله ،لأن موضوعه ليس هوالمهم ، وليس هو العنصر الباقى فيه . إنما العنصر الباقى هو دلالته وآثاره :

« وإذ أسر النبى إلى بعض أزواجه حديثا » . .

ومن النص نطلع على نموذج من تلك الفترة العجيبة فى تاريخ البشرية . الفترة التى يعيش فيها الناس مع السماء . والسماء تتدخل فى أمرهم علانيـة وتفصيلا . ونعلم أن الله قد أطلع نبيه على ما دار بين زوجيه بشأن ذلك الحـديث الذى أسره إلى بعض أزواجه . وأنه ... الله عليـه وسلم ـ حين راجعها فيه اكتفى بالإشارة إلى جانب منه . ترفعا عن الـ وتجملا عن الإطالة فى التفصيل ؛ وأنه أنبأها بمصدر علمه وهو المصدر الأصيل.

« فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض . فلما نبأها به قالت :من أنبأك هذا ؟ قال : نبأنى العليم الخبير » . .

والإشارة إلى العلم والخبرة هنا إشارة مؤثرة فى حالة التآمر والمكايدات المحبوكة وراء الأستار ! ترد السائلة إلى هذه الحقيقة التى ربما نسيتها أو غفلت عنها ، وترد القلوب بصفة عامة إلى هذه الحقيقة كلما قرأت هذا القرآن .

Marfat.com

ويتغير السياق من الحكاية عن حادث وقع إلى مواجهة وخطاب للمرأتين كأن الأمر حاضر:

« إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما . وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير » . .

وحين نتجاوز صدر الخطاب ،ودعوتهما إلى التوبة لتعود قلوبهما فتميل إلى الله، فقد بعدت عنه بما كان منهما . . حين نتجاوز هذه الدعوة إلى التوبة نجد حملة ضخمة هائلة وتهديدا رعيبا مخيفا . .

ومن هذه الحملة الضخمة الهائلة ندرك عمق الحادث وأثره فى قلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى احتاج الأمر إلى إعلان موالاة الله وجبريل وصالح المؤمنين . والملائكة بعد ذلك ظهير ! ليطيب خاطر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويحس بالطمأنينة والراحة من ذلك الأمر الخطير !

ولا بد أن الموقف فى حس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى محيطه كان من الضخامة والعمق والتأثير إلى الحد الذى يتناسب مع هذه الحملة . ولعلنا ندرك حقيقته من هذا النص ومما جاء فى الرواية على لسان الأنصارى صاحب عمر ـ رضى الله عنهما ـ وهو يسأله : جاءت غسان؟ فيقول لا بل أعظم من ذلك وأطول . وغسان هى الدولة العربية الموالية للروم فى الشام على حافة الجزيرة ، وهجومها إذ ذاك أمر خطير . ولكن الأمر الآخر فى نفوس المسلمين كان أعظم وأطول ! فقد كانوا يرون أن استقرار هذا القلب الكبير ، وسلام هذا البيت الكريم أكبر من كل شأن . وأن اضطرابه وقلقه أخطر على الجماعة المسلمة من هجوم غسان عملاء الروم ! وهو تقدير يوحى بشق الدلالات على نظرة أولئك الناس للأمور . وهو تقدير يلتقى بتقدير السماء للأمر ، فهو إذن صحيح قويم عميق .

وكذلك دلالة الآية التالية ، وتفصيل صفات النساء اللواتى يمكن أن يبدل الله النبى بهن من أزواجه لو طلقهن . مع توجيه الخطاب للجميع فى معرض التهديد :

« عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات،مؤمنات ،قانتات ، تائبات عابدات ، سائحات . ثيبات وأبكارا » . .

وهى الصفات التى يدعوهن إليها عن طريق الإيحاء والتلميح .

الإسلام الذى تدل عليه الطاعة والقيام بأوامر الدين . والإيمان الذى يعمر القلب ، وعنه

Marfat.com

ينبثق الإسلام حين يصح ويتكامل . والقنوت وهو الطاعة القلبية . والتوبة وهى الندم على ماوقع من معصية والاتجاه إلى الطاعة . والعبادة وهى أداة الاتصال بالله والتعبير عن العبودية له . والسياحة وهى التأمل والتدبر والتفكر فى إبداع الله والسياحة بالقلب فى ملكوته..وهن ـ مع هذه الصفات ـ من الثيبات ومن الأبكار . كما أن نساءه الحاضرات كان فيهن الثيب وفيهن البكر .

وهو تهديد لهن لابد كان له مايقتضيه من تأثير مكايداتهن فى قلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما كان ليغضب من قليل !

وقد رضيت نفس النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد نزول هذه الآيات ، وخطاب ربه له ولأهل بيته . واطمأن هذا البيت الكريم بعد هذه الزلزلة ،وعاد إليه هدوؤه بتوجيه الله سبحانه. وهو تكريم لهذا البيت ورعاية تناسب دوره فى إنشاء منهج الله فى الأرض وتثبيت أركانه .

وبعد فهذه صورة من الحياة البيتية لهذا الرجل الذى كان ينهض بإنشاء أمة ، وإقامة دولة ، على غير مثال معروف ، وعلى غير نسق مسبوق . أمة تنهض بحمل أمانة العقيدة الإلهية فى صورتها الأخيرة ، وتنشىء فى الأرض مجتمعا ربانيا ، فى صورة واقعية يتأسى بها الناس .

وهى صورة من حياة إنسان كريم رفيع جليل عظيم . يزاول إنسانيته فى الوقت الذى يزاول فيه نبوته . فلا تفترق هذه عن تلك ؛ لأن القدر جرى بأن يكون بشرا رسولا ، حينما جرى بأن يحمله الرسالة الأخيرة للبشر أو منهج الحياة الأخير .

إنها الرسالة الكاملة يحملها الرسول الكامل . ومن كمالها أن يظل الإنسان بها إنسانا . فلا تكبت طاقة من طاقاته البانية ، ولا تعطل استعدادا من استعداداته النافعة ؛ وفى الوقت ذاته تهذبه وتربيه ، وترتفع به إلى غاية مراقيه .

وكذلك فعل الإسلام بمن فقهوه وتكيفوا به ، حتى استحالوا نسخا حية منه . وكانت سيرة نبيهم وحياته الواقعية ، بكل مافيها من تجارب الإنسان،ومحاولات الإنسان ، وضعف الإنسان، وقوة الإنسان ، مختلطة بحقيقة الدعوة السماوية ، مرتقية بها خطوة خطوة ـ كما يبدو فى سيرة أهله وأقرب الناس إليه ـ كانت هى النموذج العملى للمحاولة الناجحة ، يراها ويتأثر بها من يريد القدوة الميسرة العملية الواقعية ، التى لاتعيش فى هالات ولافى خيالات !

وتحققت حكمة القدر فى تنزيل الرسالة الأخيرة للبشر بصورتها الكاملة الشاملة المتكاملة.

Marfat.com

وفى اختيار الرسول الذى يطيق تلقيها وترجمتها فى صورة حية . وفى جعل حياة هذا الرسول كتابا مفتوحا يقرؤه الجميع . وتراجعه الأجيال بعد الأجيال ...

* * *

وفى ظلال هذا الحادث الذى كان وقعه عميقا فى نفوس المسلمين ، يهيب القرآن بالذين آمنوا ليؤدوا واجبهم فى بيوتهم من التربية والتوجيه والتذكير ، فيقوا أنفسهم وأهلهم من النار . ويرسم لهم مشهدا من مشاهدها . وحال الكفار عندها . وفى ظلال الدعوة إلى التوبة التى وردت فى سياق الحادث يدعو الذين آمنوا إلى التوبة ، ويصور لهم الجنة التى تنتظر التائبين . ثم يدعو النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى جهاد الكفار والمنافقين . . وهذا هو المقطع الثانى فى السورة :

« ياأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا ، وقودها الناس والحجارة ، عليها ملائكة غلاظ شداد لايعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ياأيها الذين كفروا لاتعتذروا اليوم ، إنما تجزون ما كنتم تعملون . ياأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ، ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، يوم لايخزى الله النبى والذين آمنوا معه ، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا ، واغفر لنا إنك على كل شىء قدير . ياأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ، ومأواهم جهنم وبئس المصير » . .

إن تبعة المؤمن فى نفسه وفى أهله تبعة ثقيلة رهيبة . فالنار هناك وهو متعرض لها هو وأهله ،وعليه أن يحول دون نفسه وأهله ودون هذه النار التى تنتظر هناك . إنها نار . فظيعة متسعرة : « وقودها الناس والحجارة » . . الناس فيها كالحجارة سواء . فى مهانة الحجارة . وفى رخص الحجارة ، وفى قذف الحجارة . دون اعتبار ولا عناية . وما أفظعها نارا هذه التى توقد بالحجارة ! وما أشده عذابا هذا الذى يجمع إلى شدة اللذع المهانة والحقارة ! وكل ما بها وما يلابسها فظيع رهيب : « عليها ملائكة غلاظ شداد » . تتناسب طبيعتهم مع طبيعة العذاب الذى هم به موكلون . . « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون » . . فمن خصائصهم طاعة الله فيما يأمرهم ، ومن خصائصهم كذلك القدرة على النهوض بما يأمرهم . . وهم بغلظتهم هذه وشدتهم موكلون بهذه النار الشديدة الغليظة . وعلى المؤمن أن يقى نفسه وأهله

Marfat.com

أهله من هذه النار . وعليه أن يحول بينها وبينهم قبل أن تضيع الفرصة ولا ينفع الاعتذار . فهاهم أولاء الذين كفروا يعتذرون وهم عليها وقوف ، فلا يؤبه لاعتذارهم ، بل يجبهون بالتيئيس:

« يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم . إنما تجزون ما كنتم تعملون » . .

لاتعتذروا فليس اليوم يوم اعتذار ، إنما هو يوم الجزاء على ما كان من عمل . وقد عملتم ماتجزون عليه بهذه النار !

فكيف يقى المؤمنون أنفسهم وأهليهم من هذه النار ؟ إنه يبين لهم الطريق ، ويطمعهم بالرجاء :

« ياأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا ، عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ، ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار . يوم لايخزى الله النبي والذين آمنوا معه ، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا ، واغفر لنا إنك على كل شيء قدير » . .

هذا هو الطريق . . توبة نصوح . . توبة تنصح القلب وتخلصه ، ثم لاتغشه ولا تخدعه .

توبة عن الذنب والمعصية ، تبدأ بالندم على ما كان ، وتنتهى بالعمل الصالح والطاعة ، فهى عندئذ تنصح القلب فتخلصه من رواسب المعاصى وعكارها ؛ وتحضه على العمل الصالح بعدها . فهذه هى التوبة النصوح . التوبة التى تظل تذكر القلب بعدها وتنصحه فلا يعود إلى الذنوب.

فإذا كانت هذه التوبة فهى مرجوة إذن فى أن يكفر الله بها السيئات . وأن يدخلهم الجنات . فى اليوم الذى يخزى فيه الكفار كما هم فى المشهد الذى سبق فى السياق . ولا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه .

وإنه لإغراء مطمع ، وتكريم عظيم ، أن يضم الله المؤمنين إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيجعلهم معه صفا يتلقى الكرامة فى يوم الخزى . ثم يجعل لهم نورا « يسعى بين أيديهم وبأيمانهم » . نورا يعرفون به فى ذلك اليوم الهائل المائج المصيب الرهيب . ونورا يهتدون به فى الزحام المريج . ونورا يسعى بين أيديهم وبأيمانهم إلى الجنة فى نهاية المطاف !

وهم فى رهبة الموقف وشدته يلهمون الدعاء الصالح بين يدى الله : « يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا ، واغفر لنا ، إنك على كل شيء قدير » .. وإلهامهم هذا الدعاء فى هذا الموقف الذى يلجم الألسنة ويسقط القلوب ، هو علامة الاستجابة . فما يلهم الله المؤمنين هذا الدعاء إلا وقد جرى قدره بأنه سيستجيب . فالدعاء هنا نعمة يمن بها الله عليهم تضاف إلى منة الله بالتكريم وبالنور .

Marfat.com

فأين هذا من النار التى وقودها الناس والحجارة ؟

إن هذا الثواب ، كذلك العقاب ، كلاهما يصور تبعة المؤمن فى وقاية نفسه وأهله من النار ، وإنالتهم هذا النعيم فى جنات تجرى من تحتها الأنهار .

وفى ظلال ذلك الحادث الذى كان فى بيوت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ندرك الإيحاء المقصود هنا من وراء هذه النصوص .

إن المؤمن مكلف هداية أهله ، وإصلاح بيته ، كما هو مكلف هداية نفسه وإصلاح قلبه .

إن الإسلام دين أسرة ـ كما أسلفنا فى سورة الطلاق ـ ومن ثم يقرر تبعة المؤمن فى أسرته ، وواجبه فى بيته . والبيت المسلم هو نواة الجماعة المسلمة ، وهو الخلية التى يتألف منها ومن الخلايا الأخرى ذلك الجسم الحى .. المجتمع الإسلامى . .

إن البيت الواحد قلعة من قلاع هذه العقيدة . ولابد أن تكون القلعة متماسكة من داخلها حصينة فى ذاتها ، كل فرد فيها يقف على ثغرة لاينفذ إليها . وإلا تكن كذلك سهل اقتحام المعسكر من داخل قلاعه . فلايصعب على طارق ، ولايستعصى على مهاجم !

وواجب المؤمن أن يتجه بالدعوة أول مايتجه إلى بيته وأهله . واجبه أن يؤمن هذه القلعة من داخلها . واجبه أن يسد الثغرات فيها قبل أن يذهب عنها بدعوته بعيدا .

ولابد من الأم المسلمة . فالأب المسلم وحده لايكفى لتأمين القلعة . لابد من أب وأم ليقوما كذلك على الأبناء والبنات. فعبثا يحاول الرجل أن ينشئ المجتمع الإسلامى بمجموعة من الرجال. لابد من النساء فى هذا المجتمع فهن الحارسات على النشء ، وهو بذور المستقبل وثماره .

ومن ثم كان القرآن يتنزل للرجال وللنساء ؛ وكان ينظم البيوت ، ويقيمها على المنهج الإسلامى ، وكان يحمل المؤمنين تبعة أهليهم كما يحملهم تبعة أنفسهم : « ياأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا » . .

هذا أمر ينبغى أن يدركه الدعاة إلى الإسلام وأن يدركوه جيدا . إن أول الجهد ينبغى أن يوجه إلى البيت. إلى الزوجة . إلى الأم . ثم إلى الأولاد؛ وإلى الأهل بعامة . ويجب الاهتمام البالغ بتكوين المسلمة لتنشئ البيت المسلم . وينبغى لمن يريد بناء بيت مسلم أن يبحث له أولا عن الزوجة المسلمة . وإلا فسيتأخر طويلا بناء الجماعة الإسلامية . وسيظل البنيان متخاذلا كثير الثغرات !

Marfat.com

وفى الجماعة المسلمة الأولى كان الأمر أيسر مما هو فى أيامنا هذه . . كان قد أنشئ مجتمع مسلم ـ فى المدينة ـ يهيمن عليه الإسلام . يهيمن عليه بتصوره النظيف للحياة البشرية ، ويهيمن عليه بتشريعه المنبثق من هذا التصور . وكان المرجع فيه ، مرجع الرجال والنساء جميعا ، إلى الله ورسوله . وإلى حكم الله وحكم رسوله . فإذا نزل الحكم فهو القضاء الأخير .. وبحكم وجود هذا المجتمع وسيطرة تصوره وتقاليده على الحياة كان الأمر سهلا بالنسبة للمرأة لكى تصوغ نفسها كما يريد الإسلام . وكان الأمر سهلا بالنسبة للأزواج كى ينصحوا نساءهم ويربوا أبناءهم على منهج الإسلام . .

نحن الآن فى موقف متغير . نحن نعيش فى جاهلية جاهلية مجتمع . وجاهلية تشريع . وجاهلية أخلاق . وجاهلية تقاليد . وجاهلية نظم . وجاهلية آداب . وجاهلية ثقافة كذلك !!

والمرأة تتعامل مع هـذا المجتمع الجاهلى ، وتشعر بثقل وطأته الساحقة حين تهم أن تلبى الإسلام ، سواء اهتدت إليه بنفسها ، أو هداها إليه رجلها . زوجها أو أخوها أو أبوها . .

هناك كان الرجل والمرأة والمجتمع . كلهم . يتحاكمون إلى تصور واحد ، وحكم واحد ، وطابع واحد. فأما هنا فالرجل المسلم يتحاكم إلى تصور مجرد لاوجود له فى دنيا الواقع . والمرأة تنوء تحت ثقل المجتمع الذى يعادى ذلك التصور عداء الجاهلية الجامح ! وما من شك أن ضغط المجتمع وتقاليده على حس المرأة أضعاف ضغطه على حس الرجل !

وهنا يتضاعف واجب الرجل المؤمن . إن عليه أن يقى نفسه النار ! ثم عليه أن يقى أهله وهم تحت هذا الضغط الساحق والجذب العنيف !

فينبغى له أن يدرك ثقل هـذا الواجب ليبذل له من الجهـد المباشر أضعاف ما كان يبذله أخوه فى الجماعة المسلمة الأولى . ويتعين حينئذ على من يريد أن ينشئ بيتا أن يبحث أولا عن حارسة للقلعة ، تستمد تصورها من مصدر تصوره هو . . من الإسلام . . وسيضحى فى هذا بأشياء :سيضحى بالالتماع الكاذب فى المرأة . سيضحى بخضراء الدمن ! سيضحى بالمظهر البراق للجيف الطافية على وجه المجتمع . ليبحث عن ذات الدين ، التى تعينه على بناء بيت مسلم ، وعلى إنشاء قلعة مسلمة ! ويتعين على الآباء المؤمنين الذين يريدون البعث الإسلامى أن يعلموا أن الخلايا الحية لهذا البعث وديعة فى أيديهم . وأن عليهم أن يتوجهوا إليهن وإليهم بالدعوة والتربية والإعداد قبل أى أحد آخر . وأن يستجيبوا لله وهو يدعوهم :« يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا » ! .

Marfat.com

ونرجع الكرة ـ بهذه المناسبة ـ إلى طبيعة الإسلام التى تقتضى قيام الجماعة المسلمة التى يهيمن عليها الإسلام، والتى يتحقق فيها وجوده الواقعى . فهو مبنى على أساس أن تكون هناك جماعة. الإسلام عقيدتها ، والإسلام نظامها ، والإسلام شريعتها ، والإسلام منهجها الكامل الذى تستق منه كل تصوراتها (١) .

هذه الجماعة هى المحضن الذى يحمى التصور الإسلامى ويحمله إلى النفوس ، ويحميها من ضغط المجتمع الجاهلى ، كما يحميها من فتنة الإيذاء سواء

ومن ثم تتبين أهمية الجماعة المسلمة التى تعيش فيها الفتاة المسلمة والمرأة المسلمة ، محتمية بها من ضغط المجتمع الجاهلى حولها . فلا تتمزق مشاعرها بين مقتضيات تصورها الإسلامى وبين تقاليد المجتمع الجاهلى الضاغط الساحق . ويجد فيها الفتى المسلم شريكة فى العش المسلم ، أو فى القلعة المسلمة ، التى يتألف منها ومن نظيراتها المعسكر الإسلامى .

إنها ضرورة ـ وليست نافلة ـ أن تقوم جماعة مسلمة ، تتواصى بالإسلام ، وتحتضن فكرته وأخلاقه وآدابه وتصوراته كلها ،فتعيش بهافيما بينها ،وتعيش لهاتحرسها وتحميها وتدعو إليها ، فى صورة واقعية يراها من يدعون إليهامن المجتمع الجاهلى الضال ليخرجوا من الظلمات إلى النور بإذن الله . إلى أن يأذن الله بهيمنة الإسلام . حتى تنشأ الأجيال فى ظله ، فى حماية من الجاهلية الضاربة الأطناب . .

وفى سبيل حماية الجماعة المسلمة الأولى كان الأمر لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمجاهدة أعدائها :

« ياأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين ، واغلظ عليهم ، ومأواهم جهنم وبئس المصير » . .

وهى لفتة لها معناها وقيمتها بعد ماتقدم من أمر المؤمنين بوقاية أنفسهم وأهليهم من النار. وبالتوبة النصوح التى تكفر عنهم السيئات وتدخلهم الجنة تجرى من تحتها الأنهار . .

لها معناها وقيمتها فى ضرورة حماية المحضن الذى تتم فيه الوقاية من النار . فلاتترك هذه العناصر المفسدة الجائرة الظالمة ، تهاجم المعسكر الإسلامى من خارجه كما كان الكفار يصنعون. أوتهاجمه من داخله كما كان المنافقون يفعلون .

وتجمع الآية بين الكفار والمنافقين فى الأمر بجهادهم والغلظة عليهم . لأن كلا من الفريقين

---

(١) الظلال ـ هذا الجزء ـ سورة الصف ص ٧٧

Marfat.com

يؤدى دورا مماثلا فى تهديد المعسكر الإسلامى ، وتحطيمه أوتفتيته . فجهادهم هو الجهاد الواقى من النار . وجزاؤهم هو الغلظة عليهم من رسول الله والمؤمنين فى الدنيا .

« ومأواهم جهنم وبئس المصير » فى الآخرة !

وهكذا تتناسق هذه الجولة فيما بين آياتها واتجاهاتها ؛ كما تتناسق بجملتها مع الجولة الأولى فى السياق . .

* * *

ثم تجىء الجولة الثالثة والأخيرة . وكأنها التكملة المباشرة للجولة الأولى . إذ تتحدث عن نساء كافرات فى بيوت أنبياء . ونساء مؤمنات فى وسط كفار :

« ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ، وقيل : ادخلا النار مع الداخلين . . وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ، إذقالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ، ونجنىمن فرعون وعمله ، ونجنىمن القومالظالمين . ومريم ابنة عمران التى أحصنتفرجها فنفخنا فيهمن روحنا ، وصدقت بكلمات ربها وكتبه . وكانت من القانتين » . .

والمأثور فى تفسير خيانة امرأة نوح وامرأة لوط ، أنها كانت خيانة فى الدعوة ، وليست خيانة الفاحشة . امرأة نوح كانت تسخر منه مع الساخرين من قومه ؛ وإمرأة لوط كانت تدل القوم على ضيوفه وهى تعلم شأنهم مع ضيوفه !

والمأثور كذلكعنامرأة فرعون أنها كانت مؤمنة فى قصره ـ ولعلها كانت أسيوية من بقايا المؤمنين بدين سماوى قبل موسى . وقد ورد فى التاريخ أن أم « أمنحوتب الرابع » الذى وحد الآلهة فى مصر ورمز للإله الواحد بقرص الشمس ، وسمى نفسه « إخناتون » . . كانت أسيوية على دين غير دين المصريين .. والله أعلم إن كانت هى المقصودة فى هذه السورة أم إنها امرأة فرعون موسى . وهو غير « أمنحوتب » هذا . .

ولايعنينا هنا التحقيق التاريخى لشخص امرأةفرعون . فالإشارة القرآنية تعنى حقيقة دائمة مستقلة عن الأشخاص . والأشخاص مجرد أمثلة لهذه الحقيقة ..

إن مبدأ التبعة الفردية يراد إبرازه هنا ، بعد الأمر بوقاية النفس والأهل من النار . كما يراد أن يقال لأزواج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأزواج المؤمنين كذلك : إن عليهن

Marfat.com

أنفسهن بعد كل شيء . فهن مسؤولات عن ذواتهن ، ولن يعفيهن من التبعة أنهن زوجات نبي أوصالح من المسلمين !

وهاهى ذى امرأة نوح . وكذلك امرأة لوط . « كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين » .. « فخانتاهما » .. « فلم يغنيا عنهما من الله شيئا » .. « وقيل : ادخلا النار مع الداخلين » ..

فلا كرامة ولاشفاعة فى أمر الكفر والإيمان . وأمر الخيانة فى العقيدة حتى لأزواج الأنبياء !

وهاهى ذى امرأة فرعون، لم يصدها طوفان الكفر الذى تعيش فيه .. فى قصر فرعون .. عن طلب النجاة وحدها . . وقد تبرأت من قصر فرعون طالبة إلى ربها بيتا فى الجنة . وتبرأت من صلتها بفرعون فسألت ربها النجاة منه . وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شيء وهى ألصق الناس به : « ونجنى من فرعون وعمله » . . وتبرأت من قوم فرعون وهى تعيش بينهم : « ونجنى من القوم الظالمين » ..

ودعاء امرأة فرعون وموقفها مثل للاستعلاء على عرض الحياة الدنيا فى أزهى صوره . فقد كانت امرأة فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذ . فى قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه : أة ماتشتهى .. ولكنها استعلت على هذا بالإيمان . ولم تعرض عن هذا العرض فحسب ، بل اعتبرته شرا ودنسا وبلاء تستعيذ بالله منه ، وتتفلت من عقابيله ، وتطلب النجاة منه !

وهى امرأة واحدة فى مملكة عريضة قوية .. وهذا فضل آخر عظيم . فالمرأة ـ كما أسلفنا ـ أشد شعورا وحساسية بوطأة المجتمع وتصوراته . ولكن هذه المرأة . . وحدها . . فى وسط ضغط المجتمع، وضغط القصر ، وضغط الملك ، وضغط الحاشية ، والقام الملوكى . . فى وسط هذا كله رفعت رأسها إلى السماء . . وحدها . . فى خضم هذا الكفر الطاغى !

وهى نموذج عالى التجرد فمن كل هذه المؤثرات وكل هذه الأواصر ، وكل هذه المعوقات، وكل هذه العواطف . ومن ثم استحقت هذه الإشارة فى كتاب الله الخالد . الذى تردد كلماته فى جنبات الكون وهى تنزل من الملأ الأعلى . .

« ومريم ابنة عمران » . . إنها كذلك مثل للتجرد لله منذ نشأتها التى قصها الله فى سور أخرى . ويذكر هنا تطهيرها : « التى أحصنت فرجها » .. يبرئها مما رمتها به يهود الفاجرة ! « فنفخنا فيه من روحنا » .. ومن هذه النفخة كان عيسى عليه السلام ، كما هو مفصل فى

Marfat.com

السورة المنصة لهذا المولد « سورة مريم » فلا نستطرد معه هنا تمشيا مع ظل النص الحاضر ، الذى يستهدف تصوير طهارة مريم وإيمانها الكامل وطاعتها : « وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » . .

وإفراد امرأة فرعون الذكر هنا مع مريم ابنة عمران يدل على المكانة العالية التى جعلتها قرينة مريم فى الذكر . بسبب ملابسات حياتها التى أشرنا إليها . . وهما الاثنتان نموذجان للمرأة المتطهرة المؤمنة المصدقة القانتة يضربهما الله لأزواج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمناسبة الحادث الذى نزلت فيه آيات صدر السورة ، ويضربهما للمؤمنات من بعد فى كل جيل . .

* * *

وأخيرا فإن هذه السورة ـ وهذا الجزء كله ـ قطعة حية من السيرة ، رسمها القرآن بأسلوبه الموحى . لا تملك روايات البشر التاريخية عن تلك الفترة أن ترسمها . فالتعبير القرآنى أكثر إيحاء ، وأبعد آمادا ، وهو يستخدم الحادثة المفردة لتصوير الحقيقة المجردة ، الباقية وراء الحادثة ووراء الزمان والمكان . . كما هو شأن القرآن . .

تم الجزء الثامن والعشرون ويليه الجزء التاسع والعشرون مبدوءا بسورة تبارك

Marfat.com

فی ظلال القرآن

الجزء التاسع والعشرون

بقلم

سید قطب

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

من سورة الملك والقلم والحاقة والمعارج ونوح والجن والمزمل والمدثر
والإنسان والمرسلات

Marfat.com

سُورَةُ المُلْكِ مكيَّة
وآياتُها ٣٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ * الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ، مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ ، فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ؟ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ .

« وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ، وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ * وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ، كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا : أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ * قَالُوا : بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا : مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا : لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ !

« إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ .

« وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ؟

« هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ،

Marfat.com

وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ * أَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ؟ * أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ؟ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ * وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ؟

« أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ؛ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَانُ ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ * أَمْ مَنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَانِ ؟ إِنِ ٱلْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ * أَمْ مَنْ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ؟ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ * أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ ؟ أَمْ مَن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ؟

« قُلْ : هُوَ ٱلَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَفْئِدَةَ ، قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ * قُلْ : هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ .

« وَيَقُولُونَ : مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ؟ * قُلْ : إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا. وَقِيلَ : هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ .

« قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا ؛ فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ؟

« قُلْ : هُوَ ٱلرَّحْمَانُ آمَنَّا بِهِ ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ .

« قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً ، فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ؟ » ﴿٣٠﴾

هذا الجزء كله من السور المكية. كما كان الجزء الذى سبقه كله من السور المدنية .ولكل منها طابع مميز ، وطعم خاص . . وبعض مطالع السور فى هذا الجزء من بواكير ما نزل من

Marfat.com

القرآن كمطلع سورة «المدثر» ومطلع سورة «المزمل» . كما أن فيه سورا يحتمل أن تكون قد نزلت بعد البعثة بحوالى ثلاث سنوات كسورة «القلم» . وبحوالى عشر سنوات كسورة «الجن» التى يروى أنها نزلت فى عودة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الطائف ، حيث أوذى من ثقيف . ثم صرف الله إليه نفرا من الجن فاستمعوا إليه وهو يرتل القرآن ، مما حكته سورة الجن فى هذا الجزء . وكانت هذه الرحلة بعد وفاة خديجة وأبى طالب قبيل الهجرة بعام أو عامين وإن كانت هناك رواية أخرى هى الأرجح بأن السورة نزلت فى أوائل البعثة.

والقرآن المكى يعالج ـ فى الغالب ـ إنشاء العقيدة . فى الله وفى الوحى ، وفى اليوم الآخر. وإنشاء التصور المنبثق من هذه العقيدة لهذا الوجود وعلاقته بخالقه . والتعريف بالخالق تعريفا يجعل الشعور به حيا فى القلب ، مؤثرا موجها موحيا بالمشاعر اللائقة بعبد يتجه إلى رب ، وبالأدب الذى يلزمه العبد مع الرب ، وبالقيم والموازين التى يزن بها المسلم الأشياء والأحداث والأشخاص . وقد رأينا نماذج من هذا فى السور المكية السابقة ، وسنرى نماذج منه فى هذا الجزء .

والقرآن المدنى يعالج ـ فى الغالب ـ تطبيق تلك العقيدة وذاك التصور وهذه الموازين فى الحياة الواقعية ؛ وحمل النفوس على الاضطلاع بأمانة العقيدة والشريعة فى معترك الحياة ، والنهوض بتكاليفها فى عالم الضمير وعالم الظاهر سواء . وقد رأينا نماذج من هذا فى السور المدنية السابقة ومنها سور الجزء الماضى .

* * *

وهذه السورة الأولى ـ سورة تبارك ـ تعالج إنشاء تصور جديد للوجود وعلاقاته بخالق الوجود. تصور واسع شامل يتجاوز عالم الأرض الضيق وحيز الدنيا المحدود ، إلى عوالم فى السماوات، وإلى حياة فى الآخرة . وإلى خلائق أخرى غير الإنسان فى عالم الأرض كالجن والطير ، وفى العالم الآخر كجهنم وخزنتها . وإلى عوالم فى الغيب غير عالم الظاهر تعلق بها قلوب الناس ومشاعرهم ، فلا تستغرق فى الحياة الحاضرة الظاهرة ، فى هذه الأرض . كما أنها تثير فى حسهم التأمل فيما بين أيديهم وفى واقع حياتهم وذواتهم مما يمرون به غافلين .

وهى تهز فى النفوس جميع الصور والانطباعات والرواسب الجامدة الهامدة المتخلفة من تصور الجاهلية وركودها ؛ وتفتح النافذ هنا وهناك ، وتنفض الغبار ، وتطلق الحواس والعقل

Marfat.com

والبصيره ترتاد آفاق الكون ،وأغوار النفس ، وطاق الجو ،ومسارب الماء ،وخفايا الغيوب ، فترى هناك يد الله المبدعة ،وتحس حركة الوجود المنبعثة من قدرة الله .وتؤوب من الرحلة وقد شعرت أن الأمر أكبر ،وأن المجال أوسع .وتحولت من الأرض- على سعتها - إلى السماء .ومن الظواهر إلى الحقائق . ومن الجمود إلى الحركة . مع حركة القدر ، وحركة الحياة ، وحركة الأحياء .

الموت والحياة أمران مألوفان مكروران . ولكن السورة تبعث حركة التأمل فيما وراء الموت والحياة من قدر الله وبلائه ،ومن حكمة الله وتدبيره: « الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ، وهو العزيز الغفور » .

والسماء خلق ثابت أمام الأعين الجاهلة لاتتجاوزه إلى اليد التى أبدعته ، ولا تلتفت لما فيه من كمال.ولكن السورة تبعث حركة التأمل والاستغراق فى هذا الجمال والكمال وماوراءها من حركة وأهداف: « هو الذى خلق سبع سماوات طباقا .ماترى فى خلق الرحمان من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ؟ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير . . ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين . . ».

والحياة الدنيا تبدو فى الجاهلية غاية الوجود ، ونهاية المطاف . ولكن السورة تكشف الستار عن عالم آخر هو حاضر للشياطين وللكافرين . وهو خلق آخر حافل بالحركة والتوفز والانتظار :«وأعتدنا لهم عذاب السعير . وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير . إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور . تكاد تميز من الغيظ . كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها : ألم يأتكم نذير ؟ قالوا : بلى ! قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا : مانزل الله من شىء ؛ إن أنتم إلا فى ضلال كبير وقالو :لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير .فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير ! » .

والنفوس فى الجاهلية لاتكاد تتجاوز هذا الظاهر الذى تعيش فيه ، ولا تلق بالا إلى الغيب وما يحتويه . وهى مستغرقة فى الحياة الدنيا محبوسة فى قفص الأرض الثابتة المستقرة فالسورة تشد قلوبهم وأنظارهم إلى الغيب وإلى السماء وإلى القدرة التى لم ترها عين ، ولكنها قادرة تفعل ماتشاء حيث تشاء وحين تشاء ؛ وتهز فى حسهم هذه الأرض الثابتة التى يطمئنون إليها ويستغرقون فيها « إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير . وأسروا قولكم

Marfat.com

أو اجهروا به ، إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور . أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ؟ أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا ؟ فستعلمون كيف نذير » . .

والطير . إنه خلق يرونه كثيرا ولا يتدبرون معجزته إلا قليلا . ولكن السورة تمسك بأبصارهم لتنظر وبقلوبهم لتتدبر ، وترى قدرة الله الذى صور وقدر : « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ؟ ما يمسكهن إلا الرحمان ، إنه بكل شىء بصير » .

وهم آمنون فى دارهم ، مطمئنون إلى مكانهم ، طمأنينة الغافل عن قدرة الله وقدره . ولكن السورة تهزهم من هذا السبات النفسى ، بعد أن هزت الأرض من تحتهم وأثارت الجو من حولهم تهزهم على قهر الله وجبروته الذى لا يحسبون حسابه : « أم من هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمان ؟ إن الكافرون إلا فى غرور » .

والرزق الذى تناله أيديهم ، إنه فى حسهم قريب الأسباب ، وهى بينهم تنافس وغلاب . ولكن السورة تمد أبصارهم بعيدا هنالك فى السماء ، ووراء الأسباب المعلومة لهم كما يظنون : « أم من هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه ؟ بل لجوا فى عتو ونفور » . .

وهم سادرون فى غيهم يحسبون أنهم مهتدون وهم ضالون . فالسورة ترسم لهم حقيقة حالهم وحال المهتدين حقا ، فى صورة متحركة موحية : « أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى ؟ أم من يمشى سويا على صراط مستقيم ؟ » .

وهم لا ينتفعون بما رزقهم الله فى ذوات أنفسهم من استعدادات ومدارك ؛ ولا يتجاوزون ما تراه حواسهم إلى التدبر فيما وراء هذا الواقع القريب . فالسورة تذكرهم بنعمة الله فيما وهبهم ، وتوجههم إلى استخدام هذه الهبة فى تنور المستقبل المغيب وراء الحاضر الظاهر ، وتدبر الغاية من هذه البداية : « قل : هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلا ما تشكرون . قل : هو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون » . .

وهم يكذبون بالبعث والحشر ، ويسألون عن موعده . فالسورة تصوره لهم واقعا مفاجئا قريبا يسوءهم أن يكون : « ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ قل : إنما العلم عند الله ، وإنما أنا نذير مبين . فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا ، وقيل : هذا الذى كنتم به تدعون ! » . .

Marfat.com

وهم يتربصون بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه أن يهلكوا فيستريحوا من هذا الصوت الذى يقض عليهم مضجعهم بالتذكير والتحذير والإيقاظ من راحة الجمود ! فالسورة تذكرهم بأن هلاك الحفنة المؤمنة أو بقاءها لا يؤثر فيما ينتظرهم هم من عذاب الله على الكفر والتكذيب ، فأولى لهم أن يتدبروا أمرهم وحالهم قبل ذلك اليوم العصيب : « قل : أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معى أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم ؟ قل : هو الرحمان آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو فى ضلال مبين » .

وتنذرهم السورة فى ختامها بتوقع ذهاب الماء الذى به يعيشون ، والذى يجريه هو الله الذى به يكفرون ! « قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ؟ » . .

إنها حركة . حركة فى الحواس ، وفى الحس ، وفى التفكير ، وفى الشعور .

* * *

ومفتاح السورة كلها ، ومحورها الذى تشد إليه تلك الحركة فيها ، هو مطلعها الجامع الموحى: « تبارك الذى بيده الملك ، وهو على كل شىء قدير » . .

وعن حقيقة الملك وحقيقة القدرة تتفرع سائر الصور التى عرضتها السورة ، وسائر الحركات المغيبة والظاهرة التى نبهت القلوب إليها . .

فمن الملك ومن القدرة كان خلق الموت والحياة ، وكان الابتلاء بهما . وكان خلق السماوات وتزيينها بالمصابيح وجعلها رجوما للشياطين . وكان إعداد جهنم بوصفها وهيئتها وخزنتها . وكان العلم بالسر والجهر . وكان جعل الأرض ذلولا للبشر . وكان الخسف والحاصب والنكير على المكذبين الأولين . وكان إمساك الطير فى السماء . وكان القهر والاستعلاء . وكان الرزق كما يشاء . وكان الإنشاء وهبة السمع والأبصار والأفئدة . وكان الذرء فى الأرض والحشر . وكان الاختصاص بعلم الآخرة . وكان عذاب الكافرين . وكان الماء الذى به الحياة وكان الذهاب به عندما يريد . .

فكل حقائق السورة وموضوعاتها ، وكل صورها وإيحاءاتها مستمدة من إيحاء ذلك المطلع ومدلوله الشامل الكبير : « تبارك الذى بيده الملك ، وهو على كل شىء قدير » !!

وحقائق السورة وإيحاءاتها تتوالى فى السياق ، وتتدفق بلا توقف ، مفسرة مدلول المطلع المجمل الشامل ، مما يصعب معه تقسيمها إلى مقاطع ! ويستحسن معه استعراضها فى سياقها بالتفصيل :

* * *

Marfat.com

« تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير » . .

هذه التسبيحة فى مطلع السورة توحى بزيادة بركة الله ومضاعفتها ، وتمجيد هذه البركة الرابية الفائضة . وذكر الملك بجوارها يوحى بفيض هذه البركة على هذا الملك ، وتمجيدها فى الكون بعد تمجيدها فى جناب الذات الإلهية . وهى ترنيمة تتجاوب بها أرجاء الوجود ، ويعمر بها قلب كل موجود . وهى تنطلق من النطق الإلهى فى كتابه الكريم ، من الكتاب المكنون ، إلى الكون المعلوم .

« تبارك الذى بيده الملك » . . فهو المالك له ، المهيمن عليه ، القابض على ناصيته ، المتصرف فيه . . وهى حقيقة . حين تستقر فى الضمير تحدد له الوجهة والمصير ؛ وتخليه من التوجه أو الاعتماد أو الطلب من غير المالك المهيمن المتصرف فى هذا الملك بلاشريك ؛ كما تخليه من العبودية والعبادة لغير المالك الواحد ، والسيد الفريد !

« وهو على كل شىء قدير » . . فلا يعجزه شىء ، ولا يفوته شىء ، ولا يحول دون إرادته شىء ، ولا يحد مشيئته شىء . يخلق مايشاء ، ويفعل مايريد ، وهو قادر على مايريده غالب على أمره ؛ لاتتعلق بإرادته حدود ولا قيود . . وهى حقيقة حين تستقر فى الضمير تطلق تصوره لمشيئة الله وفعله من كل قيد يرد عليه من مألوف الحس أو مألوف العقل أو مألوف الخيال ! فقدرة الله وراء كل ما يخطر للبشر على أى حال . . والقيود التى ترد على تصور البشر بحكم تكوينهم المحدود تجعلهم أسرى لما يألفون فى تقدير مايتوقعون من تغيير وتبديل فيما وراء اللحظة الحاضرة والواقع المحدود . فهذه الحقيقة تطلق حسهم من هذا الإسار . فيتوقعون من قدرة الله كل شىء بلا حدود . ويكلون لقدرة الله كل شىء بلا قيود . وينطلقون من أسر اللحظة الحاضرة والواقع المحدود

* * *

« الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ، وهو العزيز الغفور » . .

ومن آثار تمكنه المطلق من الملك وتصريفه له ، وآثار قدرته على كل شىء وطلاقة إرادته . . أنه خلق الموت والحياة . والموت يشمل الموت السابق على الحياة والموت اللاحق لها . والحياة تشمل الحياة الأولى والحياة الآخرة . وكلها من خلق الله كما تقرر هذه الآية . التى تنشىء هذه الحقيقة فى التصور الإنسانى ؛ وتثير إلى جانبها اليقظة لما وراءها من قصد وابتلاء . فليست

Marfat.com

المسألة مصادفة بلا تدبير وليست كذلك جزافا بلا غاية . إنما هو الابتلاء لإظهار المكنون في علم الله من سلوك الأناسي على الأرض ، واستحقاقهم للجزاء على العمل : « ليبلوكم أيكم أحسن عملا » .. واستقرار هذه الحقيقة في الضمير يدعه أبدا يقظا حذرا متلفتا واعيا للصغيرة والكبيرة في النية المستسرة والعمل الظاهر . ولايدعه يغفل أويلهو . كذلك لايدعه يطمئن أويستريح . ومن ثم يجيء التعقيب : « وهو العزيز الغفور » ليسكب الطمأنينة في القلب الذي يرعى الله ويخشاه . فالله عزيز غالب ولكنه غفور مسامح . فإذا استيقظ القلب ، وشعر أنه هنا للابتلاء والاختبار ، وحذر وتوقى ، فإن له أن يطمئن إلى غفران الله ورحمته وأن يقر عندها ويستريح !

إن الله في الحقيقة التي يصورها الإسلام لتستقر في القلوب ، لايطارد البشر ، ولايعنتهم ، ولا يحب أن يعذبهم . إنما يريد لهم أن يتيقظوا لغاية وجودهم ؛ وأن يرتفعوا إلى مستوى حقيقتهم ؛ وأن يحققوا تكريم الله لهم بنفخة روحه في هذا الكيان وتفضيله على كثير من خلقه. فإذا تم لهم هذا فهناك الرحمة السابغة والعون الكبير والسماحة الواسعة والعفو عن كثير .

* * *

ثم يربط هذه الحقيقة بالكون كله في أكبر وأرفع مجاليه ؛ كما يربط به من الناحية الأخرى حقيقة الجزاء في الآخرة ، بعد الابتلاء بالموت والحياة :

« الذي خلق سبع سماوات طباقا ، ماترى في خلق الرحمان من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور ؟ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير . ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ، وجعلناها رجوما للشياطين ، وأعتدنا لهم عذاب السعير . وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم ، وبئس المصير . إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور . تكاد تميز من الغيظ ، كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها : ألم يأتكم نذير ؟ قالوا : بلى ! قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا : مانزل الله من شيء ، إن أنتم إلا في ضلال كبير . وقالوا : لوكنا نسمع أونعقل ما كنا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير ! » .

وكل مافي هذه الآيات آثار لمدلول الآية الأولى ، ومظاهر للهيمنة المتصرفة في الملك ، وللقدرة التي لايقيدها قيد . ثم هي بعد ذلك تصديق للآية الثانية من خلق للموت والحياة للابتلاء ، ثم الجزاء ..

Marfat.com

والسماوات السبع الطباق التى تشير إليها الآية لايمكن الجزم بمدلولها ، استقاء من نظريات الفلك ، فهذه النظريات قابلة للتعديل والتصحيح ، كلما تقدمت وسائل الرصد والكشف . ولا يجوز تعليق مدلول الآية بمثل هذه الكشوف القابلة للتعديل والتصحيح . ويكفى أن نعرف أن هناك سبع سماوات . وأنها طباق بمعنى أنها طبقات على أبعاد متفاوتة .

والقرآن يوجه النظر إلى خلق الله . فى السماوات بصفة خاصة وفى كل ماخلق بصفة عامة . يوجه النظر إلى خلق الله ، وهو يتحدى بكماله كمالا يرد البصر عاجزا كليلا مبهورا مدهوشا .

« ماترى فى خلق الرحمان من تفاوت » . . فليس هناك خلل ولا نقص ولا اضطراب . . «فارجع البصر» .. وانظر مرة أخرى للتأكد والتثبت « هل ترى من فطور ؟ » .. وهل وقع نظرك على شق أوصدع أو خلل؟ « ثم ارجع البصر كرتين » فربما فاتك شىء فى النظرة السابقة لم تتبينه ، فأعد النظر ثم أعده « ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير » ..

وأسلوب التحدى من شأنه أن يثير الاهتمام والجد فى النظر إلى السماوات وإلى خلق الله كله . وهذه النظرة الحادة الفاحصة المتأملة المتدبرة هى التى يريد القرآن أن يثيرها وأن يبعثها. فبلادة الألفة تذهب بروعة النظرة إلى هـذا الكون الرائع العجيب الجميل الدقيق ، الذى لا تشبع العين من تملى جماله وروعته ، ولا يشبع القلب من تلقى إيحاءاته وإيماءاته ؛ ولا يشبع العقل من تدبر نظامه ودقته . والذى يعيش منه من يتأمله بهذه العين فى مهرجان إلهى باهر رائع ، لاتخلق بدائعه ، لأنها أبدا متجددة للعين والقلب والعقل .

والذى يعرف شيئا عن طبيعة هذا الكون ونظامه ـ كما كشف العلم الحديث عن جوانب منها ـ يدركه الدهش والذهول . ولكن روعة الكون لاتحتاج إلى هذا العلم . فمن نعمة الله على البشر أن أودعهم القدرة على التجاوب مع هذا الكون بمجرد النظر والتأمل ؛ فالقلب يتلقى إيقاعات هذا الكون الهائل الجميل تلقيا مباشرا حين يتفتح ويستشرف . ثم يتجاوب مع هذه الإيقاعات تجاوب الحى مع الحى ؛ قبل أن يعلم بفكره وبأرصاده شيئا عن هـذا الخلق الهائل العجيب .

ومن ثم يكل القرآن الناس إلى النظر فى هذا الكون ، وإلى تملى مشاهده وعجائبه . ذلك أن القرآن يخاطب الناس جميعا ، وفى كل عصر . يخاطب ساكن الغابة وساكن الصحراء ، كما يخاطب ساكن المدينة ورائد البحار. وهو يخاطب الأمى الذى لم يقرأ ولم يخط حرفا، كما يخاطب

Marfat.com

العالم الفلكى والعالم الطبيعى والعالم النظرى سواء. وكل واحد من هؤلاء يجد فى القرآن مايصله بهذا الكون ، وما يثير فى قلبه التأمل والاستجابة والمتاع .

والجمال فى تصميم هذا الكون مقصود كالكمال . بل إنهما اعتباران لحقيقة واحدة . فالكمال يبلغ درجة الجمال . ومن ثم يوجه القرآن النظر إلى جمال السماوات بعدأن وجه النظر إلى كمالها :

« ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح » . .

وما السماء الدنيا ؟ لعلها هى الأقرب إلى الأرض وسكانها المخاطبين بهذا القرآن . ولعل المصابيح المشار إليها هنا هى النجوم والكواكب الظاهرة للعين ، التى نراها حين ننظر إلى السماء . فذلك يتسق مع توجيه المخاطبين إلى النظر فى السماء . وما كانوا يملكون إلا عيونهم ، وما تراه من أجرام مضيئة تزين السماء .

ومشهد النجوم فى السماء جميل . مافى هذا شك . جميل جمالا يأخذ بالقلوب . وهو جمال متجدد تتعدد ألوانه بتعدد أوقاته ؛ ويختلف من صباح إلى مساء ، ومن شروق إلى غروب ، ومن الليلة القمراء إلى الليلة الظلماء . ومن مشهد الصفاء إلى مشهد الضباب والسحاب . . بل إنه ليختلف من ساعة لساعة . ومن مرصد لمرصد . ومن زاوية لزاوية . . وكله جمال وكله يأخذ بالألباب .

هذه النجمة الفريدة التى توصوص هناك ، وكأنها عين جميلة ، تلتمع بالمحبة والنداء !

وهاتان النجمتان المنفردتان هناك ، وقد خلصتا من الزحام تتناجيان !

وهذه المجموعات المتضامة المتناثرة هنا وهناك ، وكأنهافى حلقة سمرفى مهرجان السماء . وهى تجتمع وتفترق كأنها رفاق ليلة فى مهرجان !

وهذا القمر الحالم الساهى ليلة . والزاهى المزهو ليلة . والمنكسر الخفيض ليلة . والوليد المتفتح للحياة ليلة . والفانى الذى يدلف للفناء ليلة . . !

وهذا الفضاء الوسيع الذى لا يمل البصر امتداده ، ولا يبلغ البصر آماده .

إنه الجمال . الجمال الذى يملك الإنسان أن يعيشه ويتملاه، ولكن لايجد له وصفا فيما يملك من الألفاظ والعبارات !

والقرآن يوجه النفس إلى جمال السماء ،وإلى جمال الكون كله ، لأن إدراك جمال الوجود

Marfat.com

هو أقرب وأصدق وسيلة لإدراك جمال خالق الوجود . وهذا الإدراك هو الذى يرفع الإنسان إلى أعلى أفق يمكن أن يبلغه ، لأنه حينئذ يصل إلى النقطة التى يتهيأ فيها للحياة الخالدة ، فى عالم طليق جميل ، برىء من شوائب العالم الأرضى والحياة الأرضية . وإن أسعد لحظات القلب البشرى لهى اللحظات التى يتقبل فيها جمال الإبداع الإلهى فى الكون ذلك أنها هى اللحظات التى تهيئه وتمهد له ليتصل بالجمال الإلهى ذاته ويتملاه .

* * *

ويذكر النص القرآنى هنا أن هذه المصابيح التى زين الله السماء الدنيا بها هى كذلك ذات وظيفة أخرى :

« وجعلناها رجوما للشياطين » . .

وقد جرينا فى هذه الظلال على قاعدة ألا نزيد بشىء فى أمر الغيبيات التى يقص الله علينا طرفا من خبرها ؛ وأن نقف عند حدود النص القرآنى لا نتعداه . وهو كاف بذاته لإثبات ما يعرض له من أمور .

فنحن نؤمن أن هناك خلقا اسمهم الشياطين ، وردت بعض صفاتهم فى القرآن ، وسبقت الإشارة إليها فى هذه الظلال ، ولا نزيد عليها شيئا ونحن نؤمن أن الله جعل من هذه المصابيح التى تزين السماء الدنيا رجوما للشياطين ، فى صورة شهب كما جاء فى سورة أخرى : « وحفظا من كل شيطان مارد إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » . . كيف ؟ من أى حجم ؟ فى أية صورة ؟ كل ذلك لم يقل لنا الله عنه شيئا ، وليس لنا مصدر آخر يجوز استفتاؤه فى مثل هذا الشأن . فلنعلم هذا وحده ولنؤمن بوقوعه . وهذا هو المقصود . ولو علم الله أن هناك خيرا فى الزيادة أو الإيضاح أو التفصيل لفصل سبحانه . فمالنا نحن نحاول ما لم يعلم الله أن فيه خيرا ؟ : فى مثل هذا الأمر . أمر رجم الشياطين ؟ !

ثم يستطرد فيما أعده الله للشياطين غير الرجوم :

« وأعتدنا لهم عذاب السعير » . .

فالرجوم فى الدنيا وعذاب السعير فى الآخرة لأولئك الشياطين . ولعل مناسبة ذكر هذا . الذى أعده الله للشياطين فى الدنيا والآخرة هى ذكر السماء أولا ، ثم ما يجىء بعد من ذكر الذين كفروا . والعلاقة بين الشياطين والذين كفروا علاقة ملحوظة . فلماذا ذكر مصابيح السماء

Marfat.com

ذكر اتخاذها رجوما للشياطين . ولما ذكر ماأعد للشياطين من عذاب السعير ذكر بعده ماأعده للذين كفروا من أتباع هؤلاء الشياطين :

« وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير »..

ثم يرسم مشهدا لجهنم هذه ، وهى تستقبل الذين كفروا فى غيظ وحنق شديد :

« إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور . تكاد تميز من الغيظ ! »..

وجهنم هنا مخلوقة حية ، تكظم غيظها ، فترتفع أنفاسها فى شهيق وتفور ؛ ويملأ جوانحها الغيظ فتكاد تتمزق من الغيظ الكظيم وهى تنطوى على بغض وكره يبلغ إلى حد الغيظ والحنق على الكافرين !

والتعبير فى ظاهره يبدو مجازا تصويرياً لحالة جهنم . ولكنه ـ فيما نحس ـ يقرر حقيقة . فكل خليقة من خلائق الله حية ذات روح من نوعها. وكل خليقة تعرف ربها وتسبح بحمده ؛ وتدهش حين ترى الإنسان يكفر بخالقه ، وتتغيظ لهذا الجحود المنكر الذى تنكره فطرتها وتنفر منه روحها وهذه الحقيقة وردت فى القرآن فى مواضع شتى تشعر بأنها تقرر حقيقة مكنونة فى كل شىء فى هذا الوجود .

فقد جاء بصريح العبارة فى القرآن : « تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لاتفقهون تسبيحهم » . . وورد كذلك : « ياجبال أوبى معه والطير » . . وهى تعبيرات صريحة مباشرة لامجال فيها للتأويل .

كذلك ورد « ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض : إئتيا طوعا أو كرها قالتا : أتينا طائعين » . . مما يحتمل أن يقال فيه إنه مجاز تصويرى لحقيقة خضوع السماء والأرض لناموس الله . ولكن هذا التأويل لاضرورة له . بل هو أبعد من المعنى المباشر الصريح .

ووردت صفة جهنم هذه . كما ورد فى موضع آخر تعبير عن دهشة الكائنات وغيظها للشرك بربها: « لقد جئتم شيئا إدًّا . تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هدا ، أن دعوا للرحمان ولدا ، ومايبغى للرحمان أن يتخذ ولدا » . .

وكل هذه النصوص تشير إلى حقيقة . حقيقة إيمان الوجود كله بخالقه ، وتسبيح كل شىء بحمده . ودهشة الخلائق وارتياعها لشذوذ الإنسان حين يكفر ، ويشذ عن هذا الموكب ؛ وتحفز هذه الخلائق للانقضاض على الإنسان فى غيظ وحنق ؛ كالذى يطعن فى عزيز عليه كريم

Marfat.com

على نفسه ، فيغتاظ ويحنق ، ويكاد من الغيظ يتمزق . كما هو حال جهنم وهى : « تفور . تكاد تميز من الغيظ ! » .

كذلك نلمح هذه الظاهرة فى خزنة جهنم :

« كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها . ألم يأتكم نذير ؟ » ..

وواضح أن هذا السؤال فى هذا الموضع هو للتأنيب والترذيل . فهى مشاركة لجهنم فى الغيظ والحنق . كما هى مشاركة لها فى التعذيب ، وليس أمرّ من الترذيل والتأنيب للضائق المكروب !

والجواب فى ذلة وانكسار واعتراف بالحمق والغفلة ، بعد التبجح والإنكار واتهام الرسل بالضلال :

« قالوا : بلى ! قد جاءنا نذير فكذبنا ، وقلنا : ماأنزل الله من شىء . إن أنتم إلا فى ضلال كبير . وقالوا: لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ! » . .

فالذى يسمع أو يعقل ، لايورد نفسه هذا المورد الوبىء . ولا يجحد بمثل ماجحد به أولئك المناكيد . ولا يسارع باتهام الرسل بالضلال على هذا النحو المتبجح الوقح ، الذى لايستند فى الإنكار إلى دليل . ثم ينكر ويدعى ذلك الادعاء العريض على رسل الله الصادقين يقول : ما نزل الله من شىء : إن أنتم إلا فى ضلال كبير » !

« فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير » . .

والسحق البعد . وهو دعاء عليهم من الله بعد اعترافهم بذنبهم فى الموقف الذى لم يؤمنوا به ولم يصدقوا بوقوعه . والدعاء من الله قضاء . فهم مبعدون من رحمته . لارجاء لهم فى مغفرة ، ولا إقالة لهم من عذاب . وهم أصحاب السعير الملازمون له . ويالها من صحبة ! ويالها من مصير !

وهذا العذاب ، عذاب السعير ، فى جهنم التى تشهق بأنفاسها وهى تفور ، عذاب شديد مروع حقا . والله لايظلم أحدا . ونحسب ـ والله أعلم ـ أن النفس التى تكفر بربها ـ وقد أودع فطرتها حقيقة الإيمان ودليله ـ هى نفس فرغت من كل خير . كما فرغت من كل صفة تجعل لها اعتبارا فى الوجود ، فهى كالحجر الذى توقد به جهنم . وقد انتهت إلى نكسة وارتكاس مكانها هذه النار . إلى غير نجاة منها ولا قرار !

Marfat.com

والنفس التى تكفر بالله فى الأرض تظل تنتكس وترتكس فى كل يوم تعيشه، حتى تنتهى إلى صورة بشعة مسيخة شنيعة ، صورة منكرة جهنمية نكيرة . صورة لايماثلها شىء فى هذا الكون فى بشاعتها ومسخها وشناعتها . فكل شىء روحه مؤمنة ، وكل شىء يسبح بحمد ربه، وكل شىء فيه هذا الخير ، وفيه هذه الوشيجة التى تشده إلى محور الوجود.. ماعدا هذه النفوس الشاردة المفلتة من أواصر الوجود، الآبدة الشريرة ، الجاسية الممسوخة النفور. فأى مكان فى الوجود كله تنتهى إليه ،وهى مبتوتة الصلة بكل شىء فى الوجود؟ إنها تنتهى إلى جهنم المتغيظة المتلظية ، الحارقة . المهدرة لكل معنى ولكل حق ولكل كرامة ؛ بعد أن لم يعد لتلك النفوس معنى ولاحق ولا كرامة !

والمألوف فى سياق القرآن أن يعرض صفحتين متقابلتين فى مشاهد القيامة . فهو يعرض هنا صفحة المؤمنين فى مقابل صفحة الكافرين ، تتمة لمدلول الآية الثانية فى السورة: « ليبلوكم أيكم أحسن عملا » .. بذكر الجزاء بعد ذكر الابتلاء : .

« إن الذين يخشون ربهم بالغيب ، لهم مغفرة وأجر كبير » ..

والغيب المشار إليه هنا يشمل خشيتهم لربهم الذى لم يروه ، كما يشمل خشيتهم لربهم وهم فى خفية عن الأعين . وكلاهما معنى كبير ، وشعور نظيف ، وإدراك بصير . يؤهل لهذا الجزاء العظيم الذى يذكره السياق فى إجمال : وهو المغفرة والتكفير ، والأجر الكبير .

ووصل القلب بالله فى السر والخفية، وبالغيب الذى لاتطلع عليه العيون، هو ميزان الحساسية فى القلب البشرى وضمانة الحياة للضمير . . قال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده : حدثنا طالوت ابن عباد ، حدثنا الحارث ابن عبيد ، عن ثابت، عن أنس ، قال : قالوا : يارسول الله إنا نكون عندك على حال ، فإذا فارقناك كنا على غيره . قال : « كيف أنتم وربكم ؟ » قالوا: الله ربنا فى السر والعلانية . قال : « ليس ذلكم النفاق » . .

فالصلة بالله هى الأصل . فمتى انعقدت فى القلب فهو مؤمن صادق موصول .

***

وهذه الآية السابقة تربط ماقبلها فى السياق بما بعدها ، فى تقرير علم الله بالسر والجهر ، وهو يتحدى البشر وهو الذى خلق نفوسهم ، ويعلم مداخلها ومكامنها ، التى أودعها إياها :

« وأسروا قولكم أو اجهروا به، إنه عليم بذات الصدور. ألا يعلم من خلق؟ وهو اللطيف الخبير؟ » .

Marfat.com

أسروا أو اجهروا فهو مكشوف لعلم الله سواء . وهو يعلم ماهو أخفى من الجهر والسر «إنه عليم بذات الصدور » التى لم تفارق الصدور ! عليم بها . فهو الذى خلقها فى الصدور ، كما خلق الصدور ! « ألا يعلم من خلق ؟ » ألا يعلم وهو الذى خلق ؟ « وهو اللطيف الخبير ؟ » الذى يصل علمه إلى الدقيق الصغير والخفى المستور .

إن البشر وهم يحاولون التخفى من الله بحركة أو سر أو نية فى الضمير ، يبدون مضحكين! فالضمير الذى يخفون فيه نيتهم من خلق الله ، وهو يعلم دروبه وخفاياه . والنية التى يخفونها هى كذلك من خلقه وهو يعلمها ويعلم أين تكون . فماذا يخفون ؟ وأين يستخفون ؟

والقرآن يعنى بتقرير هذه الحقيقة فى الضمير . لأن استقرارها فيه ينشىء له إدراكا صحيحا للأمور . فوق مايودعه هناك من يقظة وحساسية وتقوى ، تناط بها الأمانة التى يحملها المؤمن فى هذه الأرض . أمانة العقيدة ، وأمانة العدالة ، وأمانة التجرد لله فى العمل والنية . وهو لا يتحقق إلا حين يستيقن القلب أنه هو وما يكمن فيه من سر ونية هو من خلق الله الذى يعلمه الله . وهو اللطيف الخبير . .

عندئذ يتقى المؤمن النية المكنونة ، والهاجس الدفين ، كما يتقى الحركة المنظورة ، والصوت الجهير . وهو يتعامل مع الله الذى يعلم السر والجهر . الله الذى خلق الصدور فهو يعلم ما فى الصدور .

* * *

ثم ينتقل بهم السياق من ذوات أنفسهم التى خلقها الله ، إلى الأرض التى خلقها لهم . وذللها وأودعها أسباب الحياة :

« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ، وإليه النشور » . . .

والناس لطول ألفتهم لحياتهم على هذه الأرض ؛ وسهولة استقرارهم عليها ، وسيرهم فيها ، واستغلالهم لتربتها ومائها وهوائها وكنوزها وقواها وأرزاقها جميعا . . ينسون نعمة الله فى تذليلها لهم وتسخيرها . والقرآن يذكرهم هذه النعمة الهائلة ، ويبصرهم بها ، فى هذا التعبير الذى يدرك منه كل أحد وكل جيل بقدر ماينكشف له من علم هذه الأرض الذلول .

والأرض الذلول كانت تعنى فى أذهان المخاطبين القدامى ، هذه الأرض المذللة للسير فيها

Marfat.com

بالقدم وعلى الدابة ،وبالفلك التى تمخر البحار . والمذللة للزرع والجنى والحصاد . والمذللة للحياة فيها بما تحويه من هواء وماء وتربة تصلح للزرع والإنبات .

وهى مدلولات مجملة يفصلها العلم ـ فيما اهتدى إليه حتى اليوم ـ تفصيلا يمد فى مساحة النص القرآنى فى الإدراك .

فما يقوله العلم فى مدلول الأرض الذلول : إن هذا الوصف : «ذلولا» . . الذى يطلق عادة على الدابة ، مقصود فى إطلاقه على الأرض ! فالأرض هذه التى نراها ثابتة مستقرة ساكنة ، هى دابة متحركة . . بل رامحة راكضة مهطعة ! ! وهى فى الوقت ذاته ذلول لاتلقى براكبها عن ظهرها ، ولا تتعثر خطاها ، ولا تخضه وتهزه وترهقه كالدابة غير الذلول ! ثم هى دابة حلوب مثلما هى ذلول !

إن هذه الدابة التى نركبها تدور حول نفسها بسرعة ألف ميل فى الساعة، ثم تدور مع هذا حول الشمس بسرعة حوالى خمسة وستين ألف ميل فى الساعة. ثم تركض هى والشمس والمجموعة الشمسية كلها بمعدل عشرين ألف ميل فى الساعة ، مبتعدة نحو برج الجبار فى السماء . . ومع هذا الركض كله يبقى الإنسان على ظهرها آمنا مستريحا مطمئنا مما فى لا تتمزق أوصاله ، ولا تتناثر أشلاؤه ، بل لايرتج مخه ولا يدوخ ، ولا يقع مرة عن ظهر هذه الدابة الذلول !

وهذه الحركات الثلاث لها حكمة . وقد عرفنا أثر اثنتين منها فى حياة هذا الإنسان ، بل فى الحياة كلها على ظهر هذه الأرض. فدورة الأرض حول نفسها هى التى ينشأ عنها الليل والنهار . ولو كان الليل سرمدا لجمدت الحياة كلها من البرد ، ولو كان النهار سرمدا لاحترقت الحياة كلها من الحر .. ودورتها حول الشمس هى التى تنشأ عنها الفصول . ولو دام فصل واحد على الأرض ماقامت الحياة فى شكلها هـذا كما أرادها الله . أما الحركة الثالثة ـ فلم يكشف ستار الغيب عن حكمتها بعد . ولابد أن لها ارتباطا بالتناسق الكونى الكبير.

وهذه الدابة الذلول التى تتحرك كل هذه الحركات الهائلة فى وقت واحد ، ثابتة على وضع واحد فى أثناء الحركة ـ يحدده ميل محورها بمقدار ٢٣٫٥° لأن هذا الميل هو الذى تنشأ عنه الفصول الأربعة مع حركة الأرض حول الشمس ، والذى لو اختل فى أثناء الحركة لاختلت الفصول التى تترتب عليها دورة النبات بل دورة الحياة كلها فى هذه الحياة الدنيا !

والله جعل الأرض ذلولا للبشر بأن جعل لها جاذبية تشدهم إليها فى أثناء حركاتها الكبرى،

Marfat.com

كما جعل لها ضغطا جويا يسمح بسهولة الحركة فوقها . ولو كان الضغط الجوى أثقل من هذا لتعذر أو تعسر على الإنسان أن يسير ويتنقل ـ حسب درجة ثقل الضغط ـ فإما أن يسحقه أو يعوقه. ولو كان أخف لاضطربت خطى الإنسان أو لانفجرت تجاويفه لزيادة ضغطه الذاتى على ضغط الهواء حوله، كما يقع لمن يرتفعون فى طبقات الجو العليا بدون تكييف لضغط الهواء !

والله جعل الأرض ذلولا ببسط سطحها وتكوين هذه التربة اللينة فوق السطح . ولوكانت صخورا صلدة ـ كما يفترض العلم بعد برودها وتجمدها ـ لتعذر السير فيها ، ولتعذر الإنبات . ولكن العوامل الجوية من هواء وأمطار وغيرها هى التى فتتت هذه الصخور الصلدة ، وأنشأ الله بها هذه التربة الخصبة الصالحة للحياة . وأنشأ مافيها من النبات والأرزاق التى يحلبها راكبو هذه الدابة الذلول !

والله جعل الأرض ذلولا بأن جعل الهواء المحيط بها محتويا للعناصر التى تحتاج الحياة إليها . بالنسب الدقيقة التى لو اختلت ماقامت الحياة ، وماعاشت إن قدر لها أن تقوم من الأساس . فنسبة الأكسيجين فيه هى ٢١ ٪ تقريبا ونسبة الأزوت أوالنتروجين هى ٧٨ ٪ تقريبا والبقية من ثانى أكسيد الكربون بنسبة ثلاثة أجزاء من عشرة آلاف وعناصر أخرى . وهذه النسب هى اللازمة بالضبط لقيام الحياة على الأرض !

والله جعل الأرض ذلولا بآلاف من هذه الموافقات الضرورية لقيام الحياة . . ومنها حجم الأرض وحجم الشمس والقمر ، وبعد الأرض عن الشمس والقمر . ودرجة حرارة الشمس . وسمك قشرة الأرض . ودرجة سرعتها . وميل محورها . ونسبة توزيع الماء واليابس فيها . وكثافة الهواء المحيط بها.. إلى آخره ..إلى آخره. وهذه الموافقات مجتمعة هى التى جعلت الأرض ذلولا . وهى التى جعلت فيها رزقا ، وهى التى سمحت بوجود الحياة . وبحياة هذا الإنسان على وجه خاص .

والنص القرآنى يشير إلى هذه الحقائق ليمهد كل فرد وكل جيل بالقدر الذى يطيق ، وبالقدر الذى يبلغ إليه علمه وملاحظته . ليشعر بيد الله ـ الذى بيده الملك ـ وهى تتولاه وتتولى كل شىء حوله ، وتذلل له الأرض ، وتحفظه وتحفظها. ولو تراخت لحظة واحدة عن الحفظ لاختل هذا الكون كله وتحطم بمن عليه وماعليه !

فإذا استيقظ ضميره لهذه الحقيقة الهائلة أذن له الخالق الرحمان الرحيم بالمشى فى مناكبها والأكل من رزقه فيها :

Marfat.com

« فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » .

والمناكب المرتفعات . أوالجوانب . وإذا أذن له بالمشى فى مناكبها فقد أذن له بالمشى فى سهولها وبطاحها من باب أولى . فمتى أذن له فى الشموس منها فقد أذن له فى الذلول !

والرزق الذى فيها كله من خلقه،وكله من ملكه ، وهو أوسع مدلولا مما يتبادر إلى أذهان الناس من كلمة الرزق . فليس هو المال الذى يجده أحدهم فى يده ، ليحصل به على حاجياته ومتاعه . إنما هو كل ماأودعه الله هذه الأرض ، من أسباب الرزق ومكوناته . وهى فى الأصل ترجع إلى طبيعة تكوين الأرض من عناصرها التى تكونت منها ، وطبيعة تقسيم هذه العناصر بهذه النسب التى وجدت بها . ثم القدرة التى أودعها الله النبات والحيوان ـ ومنه الإنسان ـ على الانتفاع بهذه العناصر .

وفى اختصار نشير إلى أطراف من حقيقة الرزق بهذا المعنى :

« تعتمد حياة كل نبات كما هو معروف على المقادير التى تكاد تكون متناهية فى الصغر من ثانى أكسيد الكربون الموجود فى الهواء .والتى يمكن القول بأنها تتنسمها . ولكى نوضح هذا التفاعل الكيماوى المركب المختص بالتركيب الضوئى بأبسط طريقة ممكنة نقول : « إن أوراق الشجر هى رئات ، وإن لها القدرة فى ضوء الشمس على تجزئة ثانى أكسيد الكربون العنيد إلى كربون وأكسيجين . وبتعبير آخر يلفظ الأكسيجين ويحتفظ بالكربون متحدا مع هيدروجين الماء الذى يستمده النبات من جذوره (حيث يفصل الماء إلى هيدروجين وأكسجين) . وبكيمياء سحرية تصنع الطبيعة من هذه العناصر سكرا أوسليلوزا ومواد كيمائية أخرى عديدة ، وفواكه وأزهارا . ويغذى النبات نفسه ، وينتج فائضا يكفى لتغذية كل حيوان على وجه الأرض . وفى الوقت نفسه يلفظ النبات الأكسجين الذى تتنسمه والذى بدونه تنتهى الحياة بعد خمس دقائق .

« وهكذا نجد أن جميع النباتات والغابات والأعشاب وكل قطعة من الطحلب ، وكل مايتعلق بمياه الزرع ، تبنى تكوينها من الكربون والماء على الأخص . والحيوانات تلفظ ثانى أكسيد الكربون ، بينما تلفظ النباتات الأكسجين . ولو كانت هذه المقايضة غير قائمة ، فإن الحياة الحيوانية أوالنباتية كانت تستنفد فى النهاية كل الأكسجين ، أوكل ثانى أكسيد الكربون تقريبا . ومتى انقلب التوازن تماما ذوى النبات أومات الإنسان ، فيلحق به الآخر وشيكا .

Marfat.com

وقد اكتشف أخيرا أن وجود ثانى أكسيد الكربون بمقادير صغيرة هو أيضا ضرورى لمظم حياة الحيوان ، كما اكتشف أن النباتات تستخدم بعض الأكسجين .

« ويجب أن يضاف الهيدروجين أيضا ، وإن كنا لانتنسمه . فبدون الهيدروجين كان للماء لايوجد . ونسبة الماء من المادة الحيوانية أوالنباتية هى كبيرة لدرجة تدعو إلى الدهشة ولاغنى عنه مطلقا »[1] .

وهناك دور الأزوت أو النتروجين فى رزق الأرض .

« وبدون النتروجين فى شكل ما لايمكن أن ينمو أى نبات من النباتات الغذائية . وإحدى الوسيلتين اللتين يدخل بها النتروجين فى التربة الزراعية هى طريق نشاط جراثيم « بكتريا » معينة تسكن فى جذور النباتات البقلية ، مثل البرسيم والحمص والبسلة والفول وكثير غيرها . وهذه الجراثيم تأخذ نتروجين الهواء وتحيله إلى نتروجين مركب . قابل لأن يمتصه النبات وحين يموت النبات يبقى بعض هذا النتروجين المركب فى الأرض

«وهناك طريقة أخرى يدخل بها النتروجين إلى الأرض . وذلك عن طريق عواصف الرعد. وكلما ومض برق خلال الهواء ، وحد بين قدر قليل من الأكسجين وبين النتروجين ، فيسقطه المطر إلى الأرض كنتروجين مركب[2]» (أى فى الصورة التى يستطيع النبات امتصاصها لأنه لايقدر على امتصاص النتروجين الخالص من الهواء ونسبته فيه حوالى ٧٨٪ كما أسلفنا) .

والأرزاق المخبوءة فى جو الأرض من معادن جامدة وسائلة كلها ترجع إلى طبيعة تكوين الأرض والأحوال التى لابستها . ولا نطيل شرحها . فالرزق فى ضوء هذه البيانات السريعة أوسع مدلولا مما يفهمه الناس من هذا اللفظ . وأعمق أسبابا فى تكوين الأرض ذاتها وفى تصميم الكون كله . وحين يأذن الله للناس فى الأكل منه ، فهو يتفضل بتسخيره لهم وتيسير تناوله ؛ كما يمنح البشر القدرة على تناولها والانتفاع بها : « فامشوا فى مناكبها وكلو من رزقه » . .

وهو محدود بزمن مقدر فى علم الله وتدبيره . زمن الابتلاء بالموت والحياة ، وبكل مايسخره الله للناس فى هذه الحياة . فإذا انقضت فترة الابتلاء كان الموت وكان مابعده :

---

(١) كتاب : العلم يدعو للإيمان ترجمة محمود صالح الفلكى ص ٧٠ ـ ٧١
(٢) المصدر نفسه ص ٧٦ ـ ٧٧

Marfat.com

« وإليه النشور » ..

إليه .. وإلا فإلى أين إن لم يكن إليه ؟ والملك بيده ؟ ولاملجأ منه إلاإليه ؟ وهو على كل شيء قدير ؟

* * *

والآن ـ وبينما هم فى هذا الأمان على ظهر الأرض الذلول ، وفى هذا اليسر الفائض بإذن الله وأمره.. الآن يهز هذه الأرض الساكنة من تحت أقدامهم هزا ويرجهارجا فإذا هى تمور. ويثير الجو من حولهم فإذا هو حاصب يضرب الوجوه والصدور . . يهز هذه الأرض فى حسهم ويثير هذا الحاصب فى تصورهم ، لينتبهوا من غفلة الأمان والقرار ،ويمدوا بأبصارهم إلى السماء وإلى الغيب ، ويعلقوا قلوبهم بقدر الله :

« أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ؟ أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا ؟ فستعلمون كيف نذير ! ولقد كذب الذين من قبلهم . فكيف كان نكير ؟ » ..

والبشر الذين يعيشون على ظهر هذه الدابة الذلول ، ويحلبونها فينالون من رزق الله فيها نصيبهم المعلوم ! يعرفون كيف تتحول إلى دابة غير ذلول ولاحلوب ، فى بعض الأحيان، عند ما يأذن الله بأن تضطرب قليلا فيرتج كل شيء فوق ظهرها أو يتحطم ! ويمور كل ماعليها ويضطرب فلاتمسكه قوة ولاحيلة . ذلك عند الزلازل والبراكين ، التى تكشف عن الوحش الجامح ، الكامن فى الدابة الذلول ، التى يمسك الله بزمامها فلاتثور إلابقدر ،ولاتجمح إلاثوانى ممدودات يتحطم فيها كل ماشيد الإنسان على ظهرها ؛ أو يغوص فى جوفها عندما تفتح أحد أفواهها وتخسف كسفة منها . . وهى تمور .. البشر ولايملكون من هذا الأمر شيئا ولا يستطيعون .

وهم يبدون فى هول الزلزال والبركان والخسف كالفئران الصغيرة محصورة فى قفص الرعب، من حيث كانت آمنة لاهية غافلة عن القدرة الكبرى الممسكة بالزمام !

والبشر كذلك يشهدون العواصف الجامحة الحاصبة التى تدمر وتخرب ، وتحرق وتصعق . وهم بإزائها ضعاف عاجزون ،بكل مايعلمون ومايعملون . والعاصفة حين تزأر وتضرب بالحصى الحاصب ، وتأخذ فى طريقها كل شيء فى البر أوالبحر أوالجو يقف الإنسان أمامها صغيرا هزيلا حسيرا حتى يأخذ الله بزمامها فتسلس وتلين !

Marfat.com

والقرآن يذكر البشر الذين يخدعهم سكون الدابة وسلامة مقادتها ،ويغريهم الأمان بنسيان خالقها ومروضها . يذكرهم بهذه الجحات التى لايملكون من أمرها شيئا . والأرض الثابتة تحت أقدامهم ترتج وتمور ، وتقذف بالحمم وتفور . والريح الرخاء من حولهم تتحول إلى إعصار حاصب لاتقف له قوة فى الأرض من صنع البشر ، ولا تصده عن التدمير . . يحذرهم وينذرهم فى تهديد يرج الأعصاب ويخلخل المفاصل .

« فستعلمون كيف نذير » ! ! !

ويضرب لهم الأمثلة من واقع البشرية ، ومن وقائع الغابرين المكذبين :

« ولقد كذب الذين من قبلهم ، فكيف كان نكير ؟ » . .

والنكير الإنكار وما يتبعه من الآثار ولقد أنكر الله ممن كذبوا قبلهم أن يكذبوا . وهو يسألهم : « فكيف كان نكير؟ » وهم يعلمون كيف كان، فقد كانت آثار الدمار والخراب تصف لهم كيف كان هذا النكير ! وكيف كان ما أعقبه من تدمير !

والأمان الذى ينكره الله على الناس ،هو الأمان الذى يوحى بالغفلة عن الله وقدرته وقدره. وليس هو الاطمئنان إلى الله ورعايته ورحمته . فهذا غير ذاك .فالمؤمن يطمئن إلى ربه، ويرجو رحمته وفضله . ولكن هذا لايقوده إلى الغفلة والنسيان والانغمار فى غمرة الأرض ومتاعها. إنما يدعوه إلى التطلع الدائم ، والحياء من الله ، والحذر من غضبه ، والتوقى من المخبوء فى قدره ، مع الإخبات والاطمئنان .

قال الإمام أحمد ـ بإسناده ـ عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها قالت : « مارأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ مستجمعا ضاحكا حتى أرى منه لهواته . إنما كان يتبسم . وقالت : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا رأى غيما أو ريحا عرف ذلك فى وجهه . قالت: يارسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرفت فى وجهك الكراهية . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ : « ياعائشة مايؤمننى أن يكون فيه عذاب ؟ قد عذب قوم بالريح . وقد رأى قوم العذاب وقالوا ، هذا عارض ممطرنا (١) »

فهذا هو الإحساس اليقظ الدائم بالله وقدره ، وبما قصه القرآن من هذا فى سيره . وهو لا ينافى الاطمئنان إلى رحمة الله وتوقع فضله .

---

(١) أخرجاه فى الصحيحين من حديث ابن وهب .

Marfat.com

ثم هو إرجاع جميع الأسباب الظاهرة إلى السبب الأول . ورد الأمر بحاله وكليته إلى من بيده الملك وهو على كل شيء قدير . فالخسف والخاصب ، والبراكين والزلازل ، والعواصف ، وسائر القوى الكونية والظواهر الطبيعية ليس فى أيدى البشر من أمرها شيء . إنما أمرها إلى الله . وكل مايذكره البشر عنها فروض يحاولون بها تفسير حدوثها ، ولكنهم لايتدخلون فى إحداثها ، ولا يحمون أنفسهم منها . وكل ما ينشئونه على ظهر الأرض تذهب به رجفة من رجفاتها ، أو إعصار من أعاصيرها، كما لو كان لعبا من الورق ! فأولى لهم أن يتوجهوا فى أمرها إلى خالق هذا الكون ،ومنشئ نواميسه التى تحكم هذه الظواهر ،ومودعه القوى التى يتجلى جانب منها فى هذه الأحداث . وأن يتطلعوا إلى السماء ـ حيث هى رمز للعلو ـ فيتذكروا الله الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير .

إن الإنسان قوى بالقدر الذى وهبه الله من القوة . عالم بالقدر الذى أعطاه الله من العلم . ولكن هذا الكون الهائل زمامه فى يد خالقه ، ونواميسه من صنعه ، وقواه من إمداده . وهذه القوى تسير وفق نواميسه فى حدود قدره .ومايصيب الإنسان منها مقدور مرسوم ،ومايعلمه الإنسان منها مقدور معلوم. والوقائع التى تحدث تقف هذا الإنسان بين الحين والحين أمام قوى الكون الهائلة مكتوف اليدين حسيرا ، ليس له إلا أن يتذكر خالق هذه القوى ومروضها ؛ وإلا أن يتطلع إلى عونه ليواجهها ، ويسخر ماهو مقدور له أن يسخره منها .

وحين ينسى هذه الحقيقة ، ويغتر وينخدع بما يقسم الله له من العلم ومن القدرة على تسخير بعض قوى الكون ، فإنه يصبح مخلوقا مسيخا مقطوعا عن العلم الحقيقى الذى يرفع الروح إلى مصدرها الرفيع ؛ ويخلد إلى الأرض فى عزلة عن روح الوجود ! بينما العالم المؤمن يركع فى مهرجان الوجود الجميل، ويتصل بيارئ الوجود الجليل. وهو متاع لايعرفه إلا من ذاق حلاوته حين يكتبها الله له !

على أن قوى الكون الهائلة تلجىء الإنسان إلجاء إلى موقف العجز والتسليم سواء رزق هذه الحلاوة أم حرمها . فهو يكشف مايكشف ، ويبدع مايبدع ، ويبلغ من القوة مايبلغ . ثم يواجه قوى الكون فى انكسار الحسير الصغير المزيل . وقد يستطيع أن يتقى العاصفة أحيانا ولكن العاصفة تمضى فى طريقها لايملك وقفها. ولا يملك أن يقف فى طريقها ، وقصارى مايبلغ إليه جهده وعلمه أن يحتمى من العاصفة وينزوى عنها ! . . أحيانا . . وأحيانا تقتله

Marfat.com

وتسحقه من وراء جدرانه وبنيانه . وفى البحر تتناوحه الأمواج والأعاصير فإذا أكبر سفائنه كلعبة الصبى فى مهب الرياح . أما الزلزال والبركان فهما هما من أول الزمان إلى آخر الزمان ! فليس إلا العمى هو الذى يهيئ لبعض الناكيد أن « الإنسان يقوم وحده » فى هذا الوجود، أو أنه سيد هذا الوجود !

إن الإنسان مستخلف فى هذه الأرض بإذن الله . موهوب من القوة والقدرة والعلم مايشاء الله . والله كالئه وحاميه . والله رازقه ومعطيه . ولو تخلت عنه يد الله لحظة لسحقته أقل القوى المسخرة له ، ولأكله الذباب وما هو أصغر من الذباب . ولكنه بإذن الله ورعايته مكلوء ومحفوظ . وكريم . فليعرف من أين يستمد هذا التكريم ، وذلك الفضل العظيم

* * *

بعدئذ ينتقل بهم من لمسة التهديد والنذير ، إلى لمسة التأمل والتفكير فى مشهد يرونه كثيرا ، ولايتدبرونه إلا قليلا . وهو مظهر من مظاهر القدرة ، وأثر من آثار التدبير الإلهى اللطيف .

« أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ؟ مايمسكهن إلا الرحمان ، إنه بكل شىء بصير » . .

وهذه الخارقة التى تقع فى كل لحظة ، تنسينا بوقوعها المتكرر ، ما تشى به من القدرة والعظمة . ولكن تأمل هذا الطير ، وهو يصف جناحيه ويفردهما ، ثم يقبضهما ويضمهما ، وهو فى الحالين : حالة الصف الغالبة ، وحالة القبض العارضة يظل فى الهواء ، يسبح فيه سباحة فى يسر وسهوله ؛ ويأتى بحركات يخيل إلى الناظر أحيانا أنها حركات استعراضية لجمال التحليق والانقضاض والارتفاع !

تأمل هذا المشهد ، ومتابعة كل نوع من الطير فى حركاته الخاصة بنوعه ، لا يمله النظر ، ولايمله القلب . وهو متعة فوق ماهو مثار تفكير وتدبر فى صنع الله البديع ، الذى يتمانق فى الكمال والجمال !

والقرآن يشير بالنظر إلى هذا المشهد المثير :

« أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ؟ » . .

ثم يوحى بما وراءه من التدبير والتقدير :

Marfat.com

« مايمسكهن إلاالرحمان » . .

والرحمان يمسكهن بنواميس الوجود المتناسقة ذلك التناسق العجيب، الملحوظ فيه كل صغيرة وكبيرة ، المحسوب فيه حساب الخلية والذرة .. النواميس التى تكفل توافر آلاف الموافقات فى الأرض والجو وخلقة الطير ، لتتم هذه الخارقة وتتكرر ، وتظل تتكرر بانتظام .

والرحمان يمسكهن بقدرته القادرة التى لاتكل ، وعنايته الحاضرة التى لاتغيب . وهى التى تحفظ هذه النواميس أبدا فى عمل وفى تناسق وفى انتظام فلاتفتر ولاتختل ولاتضطرب غمضة عين إلى ماشاء الله : « مايمسكهن إلاالرحمان » . . بهذا التعبير المباشر الذى يشى بيد الرحمان تمساك بكل طائر وبكل جناح ، والطائر صاف جناحيه وحين يقبض ، وهو معلق فى الفضاء!

« إنه بكل شىء بصير » . .

يبصره ويراه . ويبصر أمره ويخبره . ومن ثم يهيئ وينسق ، ويعطى القدرة ، ويرعى كل شئ فى كل لحظة . رعاية الخبير البصير .

وإمساك الطير فى الجو كإمساك الدواب على الأرض الطائرة بما عليها فى الفضاء . كإمساك سائر الأجرام التى لايمسكها فى مكانها إلاالله . ولكن القرآن يأخذ بأبصار القوم وقلوبهم إلى كل مشهد يملكون رؤيته وإدراكه ؛ ويلمس قلوبهم بإيحاءاته وإيقاعاته . وإلافصنعة الله كلها إعجاز وكلها إبداع ، وكلها إيحاء وكلها إيقاع . وكل قلب وكل جيل يدرك منها مايطيقه ، ويلحظ منها مايراه . حسب توفيق الله .

* * *

ثم يلمس قلوبهم لمسة أخرى تعود بهم إلى مشهد البأس والفزع من الخسف والحاصب ، بعدأن جال بهم هذه الجولة مع الطير السابح الآمن . فيردد قلوبهم بين شتى اللمسات عودا وبدءا، كما يعلم الله من أثر هذا الترداد فى قلوب العباد :

« أم من هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمان ؟ إن الكافرون إلا فى غرور » . .

وقد خوفهم الخسف وخوفهم الحاصب ، وذكرهم مصائر الغابرين الذين أنكر الله عليهم فأصابهم التدمير . فهو يعود ليسألهم : من هو هذا الذى ينصرهم ويحميهم من الله ، غير الله ؟ من هو هذا الذى يدفع عنهم بأس الرحمان إلاالرحمان ؟ « إن الكافرون إلا فى غرور » . . غرور

Marfat.com

يهيئ لهم أنهم فى أمن وفى حماية وفى اطمئنان ، وهم يتعرضون لغضب الرحمان وبأس الرحمان ، بلاشفاعة لهم من إيمان ولاعمل يستنزل رحمة الرحمان .

ولمسة أخرى فى الرزق الذى يستمتعون به ، وينسون مصدره ، ثم لايخشون ذهابه ، ثم يلجون فى التبجح والإعراض :

« أم من هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه ؟ بل لجوا فى عتو ونفور » ..

ورزق البشر كله ـ كما سلف ـ معقود بإرادة الله فى أول أسبابه ، فى تصميم هذا الكون وفى عناصر الأرض والجو . وهى أسباب لاقدرة للبشر عليها إطلاقا ، ولاتعلق بعملهم بتاتا . فهى أسبق منهم فى الوجود ، وهى أكبر منهم فى الطاقة ، وهى أقدر منهم على محو كل أثر للحياة حين يشاء الله .

فمن يرزق البشر إن أمسك الماء ، أو أمسك الهواء ، أو أمسك العناصر الأولى التى منها ينشأ وجود الأشياء ؟

إن مدلول الرزق أوسع مدى وأقدم عهدا وأعمق جذورا مما يتبادر إلى الذهن عندما يسمع هذه الكلمة ومرد كل صغيرة وكبيرة فيه إلى قدرة الله وقدره ، وإرساله للأسباب وإمساكها حين يشاء .

وفى هذا المدلول الكبير الواسع العميق تنطوى سائر المدلولات القريبة لكلمة الرزق ، مما يتوهم الإنسان أنها من كسبه وفى طوقه ، كالعمل ، والإبداع ، والإنتاج .. وكلها مرتبطة بقيام الأسباب والعناصر الأولى من جهة ومتوقفة على هبة الله للأفراد والأمم من جهة أخرى . فأى نفس يتنفسه العامل ، وأى حركة يتحركها ، إلا من رزق الله ، الذى أنشأه ، ومنحه القدرة والطاقة ، وخلق له النفس الذى يتنفسه ، والمادة التى تحترق فى جسده فتمنحه القدرة على الحركة؟ وأى جهد عقلى يبذله مخترع إلا وهو من رزق الله الذى منحه القدرة على التفكير والإبداع ؟ وأى إنتاج ينتجه عامل أو مبدع إلا فى مادة هى من صنع الله ابتداء ، وإلا بأسباب كونية وإنسانية هى من رزق الله أصلا ؟ . . « أم من هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه ؟ ! » . .

« بل لجوا فى عتو ونفور » .

والتعبير يرسم خدا مصعرا ، وهيئة متبجحة ، بعد تقريره لحقيقة الرزق ، وأنهم عيال على الله فيه . وأقبح العتو والنفور ، والتبجح والتصعير ، مايقع من العيال فى مواجهة المطعم الكافى ،

Marfat.com

الرازق العـائل وهم خلو من كل شيء إلا مايتفضل به عليهـم . وهم بعـد دمت عاتون ممرضون وقحاء !

وهو تصوير لحقيقة النفوس التى تعرض عن الدعوة إلى الله فى طغيان عات ، وفى إعراض نافر ، وتنسى أنهامن صنع الله ،وأنها تعيش على فضله ، وأنها لاتملك من أمر وجودها وحياتها ورزقها شيئا على الإطلاق !

* * *

ولقد كانوا ـ مع هذا ـ يتهمون النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه بالضلال ؛ ويزعمون لأنفسهم أنهم أهدى سبيلا ! كما يصنع أمثالهم مع الدعاة إلى الله فى كل زمان . ومن ثم يصور لهم واقع حالهم وحال المؤمنين فى مشهد حى يجسم حقيقة الحال :

« أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى ؟ أم من يمشى سويا على صراط مستقيم ؟ » .. والذى يمشى مكبا على وجهه إما أن يـكون هو الذى يمشى على وجهه فعلا لا على رجليه فى استقامة كما خلقه الله وإما أن يـكون هو الذى يعثر فى طريقه فينكب على وجهه ،ثم ينهض ليعثر من جديد! وهذه كتلك حال بائسة تعانى المشقة والعسر والتعثر ،ولا تنتهى إلى هدى ولا خير ولا وصول ! وأين هى من حال الذى يمشى مستقيما سويا فى طريق لا عوج فيه ولا عثرات . وهدفه أمامه واضح مرسوم . !

إن الحال الأولى هى حال الشقى المنـكود الضال عن طريق الله، المحروم من هداه ، الذى يصطدم بنواميسه ومخلوقاته ، لأنه يعترضها فى سيره ، ويتخذ له مسارا غير مسارها ، وطريقا غير طريقها ، فهو أبدا فى تعثر ، وأبدا فى عناء ، وأبدا فى ضلال .

والحال الثانية هى حال السعيد المجـدود المهتدى إلى الله ، الممتع بهداه ، الذى يسير وفق نواميسه فى الطريق اللاحب المعمور ،الذى يسلـكه موكب الإيمان والحمد والتمجيد .وهو موكب هذا الوجود كله بما فيه من أحياء وأشياء .

إن حياة الإيمـان هى اليسر والاستقـامة .والقصد . وحياة الـكفر هى العسر والتعثر والضلال . .

فأيهما أهدى ؟ وهل الأمر فى حاجة إلى جواب ؟ إنما هو سؤال التقرير والإيجاب !

ويتوارى السؤال والجواب ليتراءى للقلب هـذا المشهد الحى الشاخص المتحرك . . مشهد جماعة يمشون على وجوههم، أو يتعثرون وينـكبون على وجوههم لاهدف لهم ولا طريق. ومشهد

Marfat.com

جماعة أخرى تسير مرتفعة الهامات ، مستقيمة الخطوات ، فى طريق مستقيم ، لهدف مرسوم .

إنه تجسيم الحقائق، وإطلاق الحياةفى الصور ،على طريقة القرآن [1]فى التعبير بالتصوير . .

* * *

وعلى ذكر الهدى والضلال ، يذكرهم بما وهبهم الله منوسائل الهدى ، وأدوات الإدراك؛ ثم لم ينتفعوا بها ، ولم يكونوا من الشاكرين :

« قل :هو الذى أنشأكم ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، قليلا ماتشكرون » . .

وحقيقة أن الله هو الذى أنشأ الإنسان ، حقيقة تلح على العقل البشرى ، وتثبت ذاتها بتوكيد يصعب رده . فالإنسان قد وجد ــ وهو أرفع وأعلم وأقدر مايعلم من الخلائق ــ وهو لم يوجد نفسه ، فلابد أن يكون هناك من هو أرفع وأعلم وأقدر منه أوجده . . ولامفر من الاعتراف بخالق . فوجود الإنسان ذاته يواجهه بهذه الحقيقة . والمماراة فيها نوع من المماحكة لاتستحق الاحترام .

والقرآن يذكر هذه الحقيقة هنا ليذكر بجانبها مازود الله به الإنسان من وسائل المعرفة :

« وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » . .

وماقابل الإنسان به هذه النعمة : نعمة الإنشاء ونعمة السمعوالأبصار والأفئدة :

« قليلا ماتشكرون » ..

والسمع والأبصار معجزتان كبيرتان عرف عنهما بعض خواصهما العجيبة . والأفئدة التى يعبربها القرآن عن قوة الإدراك والمعرفة ،معجزة أعجب وأغرب. ولم يعرف بعد عنها الاالقليل. وهى سر الله فى هذا المخلوق الفريد ..

وللعلم الحديث محاولات فى معرفة شىء عن معجزتى السمع والبصر نذكر منها لمحة :

« تبدأ حاسة السمع بالأذنالخارجية ، ولايعلم إلاالله أين تنتهى . ويقول العلم: إنالاهتزاز الذى يحدثه الصوت فى الهواء ينقل إلى الأذن ، التى تنظم دخوله ، ليقع على طبلة الأذن . وهذه تنقلها إلى التيه داخل الأذن .

« والتيه يشتمل على نوع من الأمية بين لولبية ونصف مستديرة . وفى القسم اللولبى وحده أربعة آلاف قوس صغيرة متصلة بعصب السمع فى الرأس .

---

(١) يراجع فصل : «طريقة القرآن» . وفصل «التخييل الحسى والتجسيم» فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » .

Marfat.com

« فما طول القوس منها وحجمها ؟ وكيف ركبت هذه الأقواس التى تبلغ عدة آلاف كل منها تركيبا خاصا ؟ وماالحيز الذى وضعت فيه ؟ ناهيك عن العظام الأخرى الدقيقة المتماوجة . هذا كله فى التيه الذى لايكاد يرى، وفى الأذن مئة ألف خلية سمعية . وتنتهى الأعصاب بأهداب دقيقة . دقة وعظمة تحير الألباب » (١) .

« ومركز حاسة الإبصار العين ، التى تحتوى على مئة وثلاثين مليونا من مستقبلات الضوء، وهى أطراف أعصاب الإبصار. وتتكون العين من الصلبة والقرنية والمشيمة والشبكية .. وذلك بخلاف العدد الهائل من الأعصاب والأوعية (٢) .

« وتتكون الشبكية من تسع طبقات منفصلة ، والطبقة التى فى أقصى الداخل تتكون من أعواد ومخروطات .ويقال : إن عدد الأولى ثلاثون مليون عود ، وعدد الثانية ثلاثة ملايين مخروط . وقد نظمت كلها فى تناسب محكم بالنسبة لبعضها البعض وبالنسبة للعدسات . . وعدسة عينيك تختلف فى الكثافة ، ولذا تجمع كل الأشعة فى بؤرة ، ولايحصل الإنسان على مثل ذلك فى أية مادة من جنس واحد كالزجاج مثلا (٣) » . .

فأما الأفئدة فهى هذه الخاصية التى صار بها الإنسان إنسانا. وهى قوة الإدراك والتمييز والمعرفة التى استخلف بها الإنسان فى هذا الملك العريض . والتى حمل بها الأمانة التى أشفقت من حملها السماوات والأرض والجبال . أمانة الإيمان الاختيارى ،والاهتداء الذاتى ، والاستقامة الإرادية على منهج الله القويم (٤) ولايعلم أحد ماهية هذه القوة ، ولامركزها ، داخل الجسم أوخارجه! فهى سر الله فى الإنسان لم يعلمه أحد سواه .

وعلى هذه الهبات الضخمة التى أعطيها الإنسان لينهض بتلك الأمانة الكبرى،فإنه لم يشكر: « قليلا ماتشكرون » . . وهو أمر يثير الخجل والحياء عند التذكير به ، كما يذكرهم القرآن فى هذا المجال ويذكر كل جاحد وكافر ، لايشكر نعمة الله عليه ؛ وهو لايوفيها حقها لوعاش للشكر دون سواه !

* * *

---

(١) منقول عن كتاب : الله والعلم الحديث للأستاذ عبد الرزاق نوفل ص ٥٧

(٢) منقول عن كتاب : المصدر السابق ص ٥٨ .

(٣) نقلا عن كتاب : العلم يدعو للإيمان ترجمة الأستاذ محمود صالح الفلكى ص ١١٣ :

(٤) يراجع تفسير قوله تعالى : إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال .. . فى ص ٤٩ ــ ٥١ من الجزء ٢٢ من الظلال .

Marfat.com

ثم يذكرهم أن الله لم ينشئ البشر ويمنحهم هذه الخصائص عبثا ولا جزافا لغير قصد ولا غاية . إنما هي فرصة الحياة للابتلاء . ثم الجزاء فى يوم الجزاء :

« قل : هو الذى ذرأكم فى الأرض ، وإليه تحشرون » . .

والذرء : الإكثار . ويحمل كذلك معنى الانتشار . والحشر : الجمع بعد النشر فى الأرجاء . وهما حركتان متقابلتان من الناحية التصورية ، تقابلهما من الناحية المعنوية . ذلك مشهد للإكثار من الخلق ونشرهم أو نثرهم فى الأرض . وهذا مشهد لجمعهم منها وحشرهم بعد النشر والنثر ! ويجمعهما السياق فى آية واحدة ، ليتقابل المشهدان فى الحس والتصور على طريقة القرآن. وليتذكر البشر وهم منتشرون فى الأرض أن هناك غاية هم صائرون إليها . هى الجمع والحشر . وأن هناك أمرا وراء هذا ، ووراء الابتلاء بالموت والحياة .

ثم يحكى شكهم فى هذا الحشر ، وارتيابهم فى هذا الوعد :

« ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ » . .

وهو سؤال الشاك المستريب . كما أنه سؤال المماحل المتعنت : فإن معرفة موعد هذا الوعد وميقاته لا تقدم ولا تؤخر ؛ ولا علاقة لها بحقيقته ، وهو أنه يوم الجزاء بعد الابتلاء . ويستوى بالقياس إليهم أن يجىء غدا أو أن يجىء بعد ملايين السنين . . فالمهم أنه آت ، وأنهم محشورون فيه ، وأنهم مجازون بما عملوا فى الحياة .

ومن ثم لم يطلع الله أحدا من خلقه على موعده ، لأنه لا مصلحة لهم فى معرفته ، ولا علاقة لهذا بطبيعة هذا اليوم وحقيقته ، ولا أثر له فى التكاليف التى يطالب الناس بها استعدادا لملاقاته. بل المصلحة والحكمة فى إخفاء ميقاته عن الخلق كافة ، واختصاص الله بعلم ذلك الموعد ، دون الخلق جميعا :

« قل إنما العلم عند الله ، وإنما أنا نذير مبين » .

وهنا يبرز بجلاء فارق ما بين الخالق والخليق . وتتجرد ذات الله ووحدانيته بلا شبيه ولا شريك . ويتمحض العلم له سبحانه . ويقف الخلق ـ بما فيهم الرسل والملائكة ـ[1] فى مقامهم

---

(١) فى حديث حقيقة الإسلام والإيمان ... سأل جبريل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الساعة ، فقال: « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » . . أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .

Marfat.com

متأدبين عند مقام الألوهية العظيم : « قل : إنما العلم عند الله . وإنما أنا نذير مبين » . . وظيفتى الإنذار ، ومهمتى البيان . أما العلم فعند صاحب العلم الواحد بلا شريك .

وبينما هم يسألون فى شك ويجابون فى جزم ، يخيل السياق القرآنى كأن هذا اليوم الذى يسألون عنه قد جاء ، والموعد الذى يشكون فيه قد حان ؛ وكأنما هم واجهوه الآن . فكان فيه ما كان :

« فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا ، وقيل : هذا الذى كنتم به تدعون » !

فقد رأوه قريبا مواجها لهم حاضرا أمامهم دون توقع ودون تمهيد . فسيئت وجوههم . وبدا فيها الاستياء . ووجه إليهم التأنيب : « وقيل : هذا الذى كنتم به تدعون » .. هذا هو حاضرا قريبا . وهو الذى كنتم تدعون أنه لن يكون !

وهذه الطريقة فى عرض ماسيكون تتكرر فى القرآن ، لمواجهة حالة التكذيب أو الشك بمفاجأة شعورية تصويرية تقف المكذب أو الشاك وجها لوجه مع مشهد حاضر لما يكذب به أو يشك فيه .

ثم هى فى الوقت ذاته تصور حقيقة . فهذا اليوم كائن فى علم الله ؛ أما خط الزمن بينه وبين البشر فهو قائم بالقياس إلى البشر . وهى مسألة نسبية لا تمثل الحقيقة المجردة كما هى فى حساب الله . ولو أذن الله لرأوه اللحظة كما هو فى علم الله . فهذا الانتقال المفاجىء لهم من الدنيا إلى الآخرة ، ومن موقف الشك والارتياب إلى موقف المواجهة والمفاجأة ، يشير إلى حقيقة قائمة لو أذن الله بها لانكشفت لهم . فى الوقت الذى يصور لهم هذه الحقيقة تصويرا يهز مشاعرهم .

* * *

ولقد كانوا يتربصون بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والحفنة المؤمنة التى معه أن يهلكوا فيستريحوا منهم ؛ وكانوا يتواصون بينهم بالصبر عليه حتى يوافيه الأجل ، فتسكن هذه الزوبعة التى أثارتها الدعوة فى صفوفهم . كما كانوا يتبجحون أحيانا فيزعمون أن الله سيهلك محمدا ومن معه لأنهم ضالون ، ولأنهم يكذبون على الله فيما يقولون ! فهنا أمام مشهد الحشر والجزاء ، ينبههم إلى أن أمنيتهم حتى لو تحققت لا تعصمهم هم من عاقبة الكفر والضلال . فأولى لهم أن يتدبروا أمرهم قبل هذا الموعد الذى واجههم به كأنه واقع بهم :

« قل : أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معى أو رحمنا ، فمن يجير الكافرين من عذاب أليم ؟ » . .

Marfat.com

وهو سؤال يردهم إلى تدبر حالهم ، والتفكير فى شأنهم ، وهو الأولى ! فماينفعهم أن تتحقق أمانيهم فيهلك الله النبي ومن معه ـ كما لاينقذهم بطبيعة الحال أن يرحم الله نبيه ومن معه . والله باق لايموت . وهو الذى ذرأهم فى الأرض وإليه يحشرون ..

ولكنه لايقول لهم : فمن يجيركم من عذاب أليم ؟ ولاينص على أنهم كافرون ، إنما يلوح لهم بالعذاب الذى ينتظر الكافرين : « فمن يجير الكافرين من عذاب أليم » .. وهو أسلوب فى الدعوة حكيم . يخوفهم من ناحية ، ويدع لهم فرصة للتراجع عن موقفهم من ناحية . فلو جابههم بأنهم كافرون ، وأنه لامفر لهم من العذاب الأليم . . فربما جهلوا وحمقوا وأخذتهم العزة بالإثم أمام الاتهام المباشر والتهديد .

. ففى بعض الحالات يكون أسلوب التلميح أفعل فى النفس من أسلوب التصريح !

ثم يترقى من هذه التسوية بين الأمرين ، إلى تقرير موقف المؤمنين من ربهم وثقتهم به وتوكلهم عليه . مع التلميح إلى اطمئنانهم لإيمانهم ، وثقتهم بهداهم ، وبأن الكافرين فى ضلال مبين .

« قل : هو الرحمان آمنا به وعليه توكلنا . فستعلمون من هو فى ضلال مبين » . .

. وذكر صفة « الرحمان » هنا يشير إلى رحمته العميقة الكبيرة برسوله والمؤمنين معه ؛ فهو لن يهلكهم كما يتمنى الكافرون أو كما يدعون .

ويوجه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى إبراز الصلة التى تربطهم بربهم الرحمان صلة الإيمان « آمنا به » . . وصلة التوكل « وعليه توكلنا » . . عليه وحده . . والتعبير يشى بالقربى بينهم وبين الرحمان . والله ـ سبحانه ـ هو الذي يتفضل على رسوله وعلى المؤمنين فيأذن له بإعلان هذه القربى ، ويوجهه إلى هذا الإعلان . وكأنما ليقول له : لاتخف مما يقوله الكفار . فأنت ومن معك موصولون بى منتسبون إلى . وأنت مأذون منى فى أن تظهر هذه الكرامة ، وهذا المقام! فقل لهم ... وهذا ود من الله وتكريم ..

ثم ذلك التهديد الملفوف : « فستعلمون من هو فى ضلال مبين » . . وهو أسلوب كذلك من شأنه أن يخلخل الإصرار على الجحود ؛ ويدعوهم إلى مراجعة موقفهم مخافة أن يكونوا هم الضالين ! فيتعرضوا للعذاب الذى سبق ذكره فى الآية : « فمن يجير الكافرين من عذاب

Marfat.com

أليم ؟ » وفى الوقت ذاته لايجبههم بأنهم ضالون فعلا ، حتى لاتأخذهم العزة بالإثم . وهو أسلوب فى الدعوة يناسب بعض حالات النفوس . .

* * *

وأخيرا يجىء الإيقاع الأخير فى السورة يلمح لهم بعذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ، وذلك بحرمانهم من سبب الحياة الأول . وهو المـاء :

« قل : أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ؟ » . .

والماء الغور : الغائر الذاهب فى الأرض لايقدرون عليه . والمعين :النابع الفائض المتدفق . وهى لمسة قريبة فى حياتهم ، إن كانوا مايزالون يستبعدون ذلك اليوم ويشكون فيه . . والملك بيد الله وهو على كل شىء قدير. فكيف لوتوجهت إرادته إلى حرمانهم مصدر الحياة القريب ! ثم يدعهم يتدبرون مايكون لوأذن الله بوقوع هذا المحذور !

* * *

وهكذا تنتهى هذه السورة ، وينتهى هذا الحشد من الإيقاعات واللمسات ، وهذه الرحلات والجولات . فى آفاق وأغوار وأبعاد مترامية الأطراف . وكل آية على وجه التقريب كانت إيقاعا خاصا . أو كانت رحلة فى عالم مجهول مغيب ، أومنظور لاتلتفت إليه الأنظار والقلوب .

إنها سورة ضخمة . سورة أكبر من حجمها وحيزها وعدد آياتها . وكأنما هى سهام تشير إلى بعيد ، ويكاد كل سهم يستقل بكشف عالم جديد !

وهى تبنى من قواعد التصور الإسلامى جوانب رئيسية هامة ؛ فهى تقر فى الضمير حقيقة القدرة المطلقة ، وحقيقة الهيمنة المطلقة . وحقيقة الابتلاء بالموت والحياة تمهيدا للحشر والجزاء. وحقيقة الكمال والجمال فى صنعة الله . وحقيقة العلم المطلق بالسر والنجوى . وحقيقة مصدر الرزق . وحقيقة حفظ الله للخلائق ، وحضوره ـ سبحانه ـ مع كل مخلوق . . . وجملة من هذه الحقائق التى يقوم عليها تصور المسلم لربه . وتصوره للوجود وارتباطه بخالق الوجود . هذا التصور الذى ينبثق منه منهج حياة المؤمن كله . مع ربه . ومع نفسه . ومع الناس . ومع الأحياء . ومع الكون كله من أحياء وأشياء . والذى يتكيف به شعوره وضميره وشخصيته وقيمه وموازينه ، واستقباله للحياة . . .

Marfat.com

سورة القلم مكية
وآياتها ٥٢

بسم الله الرحمن الرحيم

« نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ * فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ * وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ * أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ .

« إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ * فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا : إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ : أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ : لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ؟ * قَالُوا : سُبْحَانَ رَبِّنَا ! إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ * قَالُوا : يَا وَيْلَنَا ! إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَا ، إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ * .. كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

Marfat.com

« إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ * أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ؟ * مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟ * أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ؟ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ! * أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ؟ * سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ؟ * أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ؟ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ * يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ، وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ .

« فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ، سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ ، إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ؟ * أَمْ عِنْدَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ؟

« فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ .

« وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ، لَمَّا سَمِعُوا ٱلذِّكْرَ ، وَيَقُولُونَ : إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ » ۝

لايمكن تحديد التاريخ الذى نزلت فيه هذه السورة سواء مطلعها أو جملتها . كما أنه لايمكن الجزم بأن مطلعها قد نزل أولا ، وأن سائرها نزل أخيرا ـ ولا حتى ترجيح هذا الاحتمال . لأن مطلع السورة وختامها يتحدثان عن أمر واحد ، وهو تطاول الذين كفروا على شخص رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقولهم : إنه مجنون !

والروايات التى تقول : إن هذه السورة هى الثانية فى النزول بعد سورة العلق كثيرة ، ومن المتفق عليه فى ترتيب المصاحف المختلفة أنها هى السورة الثانية؛ ولكن سياق السورة وموضوعها وأسلوبها يجعلنا نرجح غير هذا . حتى ليكاد يتعين أنها نزلت بعد فترة من الدعوة العامة ، التى

Marfat.com

جاءت بعد نحو ثلاث سنوات من الدعوة الفردية ، فى الوقت الذى أخذت فيه قريش تدفع هذه الدعوة وتحاربها ، فتقول عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تلك القولة الفاجرة ؛ وأخذ القرآن يردها وينفيها ، ويهدد المناهضين للدعوة ، ذلك التهديد الوارد فى السورة .

واحتمال أن مطلع السورة نزل مبكرا وحده بعد مطلع سورة العلق . وأن الجنون المنفى فيه : «ما أنت بنعمة ربك بمجنون » .. جاء بمناسبة ما كان يتخوفه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على نفسه فى أول الوحى ، من أن يكون ذلك جنونا أصابه .. هذا الاحتمال ضعيف .لأن هذا التخوف ذاته على هذا النحو ليست فيه رواية محققة ، ولأن سياق السورة المتماسك يدل على أن هذا النفى ينصب على ما جاء فى آخرها من قوله تعالى : « وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون :إنه لمجنون » .. فهذا هو الأمر الذى افتتح السورة بنفيه، كما يتبادر إلى الذهن عند قراءة السورة المتماسكة الحلقات .

كذلك ذكرت بعض الروايات أن فى السورة آيات مدنية من الآية السابعة عشرة إلى نهاية الآية الثالثة والثلاثين . وهى الآيات التى ذكرت قصة أصحاب الجنة وابتلاءهم، والآيات من الثانية والأربعين إلى نهاية الخمسين وهى التى تشير إلى قصة صاحب الحوت . . ونحن نستبعد هذا كذلك . ونعتقد أن السورة كلها مكية . لأن طابع هذه الآيات عميق فى مكيته . وهو أنسب شىء لأن يجىء فى سياق السورة عند نزولها متسقا مع الموضوع ومع الحالة التى تعالجها .

والذى نرجحه بشأن السورة كلها أنها ليست الثانية فى ترتيب النزول ؛ وأنها نزلت بعد فترة من البعثة النبوية بعد أمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالدعوة العامة . وبعد قول الله تعالى له : « وأنذر عشيرتك الأقربين ». وبعد نزول طائفة من القرآن فيها شىء من قصص الأولين وأخبارهم ، التى قال عنها قائلهم : « أساطير الأولين » . . وبعد ما أصبحت قريش مدعوة إلى الإسلام كافة ، وأصبحت تدفع هذه الدعوة بالاتهامات الباطلة والحرب العنيفة التى اقتضت تلك الحملة العنيفة الواردة فى السورة على المكذبين،والتهديد القاصم فى أولها وفى آخرها على السواء.. والمشهد الأخير فى السورة يوحى بهذا كذلك : « وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون : إنه لمجنون » .. فهو مشهد دعوة عامة لمجموعات كبيرة . ولم يكن الأمر كذلك فى أول الدعوة . إنما كانت الدعوة توجه إلى أفراد . بوسيلة فردية . ولا تلقى إلى الذين كفروا وهم متجمعون . ولم يقع شىء من هذا ـ كما تقول الروايات الراجحة ـ إلا بعد ثلاث سنوات من بدء الدعوة .

Marfat.com

والسورة تشير إلى شيء من عروض المشركين على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ للالتقاء في منتصف الطريق ، والتهادن على تراض في القضية التي يختلفون عليها وهي قضية العقيدة : « ودوا لو تدهن فيدهنون » .. وظاهر أن مثل هذه المحاولة لا تكون والدعوة فردية، ولا خطر منها . إنما تكون بعد ظهورها ، وشعور المشركين بخطرها .

وهكذا تتضافر الشواهد على أن هذه السورة نزلت متأخرة عن أيام الدعوة الأولى . وأن هناك ثلاث سنوات على الأقل ـ قابلة للزيادة ـ بين بدء الدعوة وبين وقت نزولها . ولا يعقل أن ثلاث سنوات مرت لم يتنزل فيها قرآن . والطبيعي أن تكون هناك سور كثيرة ، وأجزاء من سور قد نزلت في هذه الفترة ، تتحدث عن ذات العقيدة بدون مهاجمة عنيفة للمكذبين بها كالوارد في هذه السورة منذ مطلعها .

ولكن هذا لا ينفي أن تكون هذه السورة وسورتا المدثر والمزمل قد نزلت في الفترة الأولى من الدعوة . وإن لم يكن ذلك أول ما نزل كما هو وارد في المصاحف ، للأسباب التي أوردناها هنا . وهي تكاد تنطبق كذلك على سورتي المزمل والمدثر .

* * *

لقد كانت هذه الغرسة ـ غرسة العقيدة الإسلامية ـ تودع في الأرض لأول مرة في صورتها الرفيعة المجردة الناصعة . وكانت غريبة على حس الجاهلية السائدة ، لا في الجزيرة العربية وحدها بل كذلك في أنحاء الأرض جميعا .

وكانت النقلة عظيمة بين الصورة الباهتة المحرفة المشوهة من ملة إبراهيم التي يستمسك بخيوط حائلة منها مشركو قريش ، ويلصقون بها الترهات والأساطير والأباطيل السائدة عندهم ، وبين الصورة الباهرة العظيمة المستقيمة الواضحة البسيطة الشاملة المحيطة التي جاءهم بها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ متفقة في أصولها مع الحنيفية الأولى ـ دين إبراهيم عليه السلام ـ وبالغة نهاية الكمال الذي يناسب كونها الرسالة الأخيرة للأرض ، الباقية لتخاطب الرشد العقلي في البشرية إلى آخر الزمان .

وكانت النقلة عظيمة بين الشرك بالله وتعدد الأرباب ، وعبادة الملائكة وتماثيلها ، والتعبد للجن وأرواحها، وسائر هذه التصورات المضطربة المفككة التي تتألف منها العقيدة الجاهلية .. وبين الصورة الباهرة التي يرسمها القرآن للذات الإلهية الواحدة وعظمتها وقدرتها ، وتعلق إرادتها بكل مخلوق :

Marfat.com

كذلك كانت النقلة عظيمة بين الطبقية السائدة فى الجزيرة، والكهانة السائدة فى دياناتها ، واختصاص طبقات بالذات بالسيادة والشرف وسدانة الكعبة والقيام بينها وبين العرب الآخرين . . وبين البساطة والمساواة أمام الله والاتصال المباشر بينه وبين عباده كما جاء بها القرآن .

ومثلها كانت النقلة بين الأخلاق السائدة فى الجاهلية والأخلاق التى جاء القرآن يبشر بها ، وجاء محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعو إليها ويمثلها .

وكانت هذه النقلة وحدها كافية للتصادم بين العقيدة الجديدة وبين قريش ومعتقداتها وأخلاقها . ولكن هذه لم تكن وحدها. فقد كان إلى جانبها اعتبارات ـ ربما كانت أضخم فى تقدير قريش من العقيدة ذاتها ـ على ضخامتها !

كانت هناك الاعتبارات الاجتماعية التى دعت بعضهم أن يقول كما حكى عنهم القرآن الكريم: « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ! » . . والقريتان هما مكة والطائف . فإن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع شرف نسبه ، وأنه فى الذؤابة من قريش ، لم تكن له مشيخة فيهم ولا رياسة قبل البعثة . بينما كان هناك مشيخة قريش ومشيخة ثقيف وغيرهما ، فى بيئة تجعل للمشيخة والرياسة القبلية كل الاعتبار . فلم يكن من السهل الانقياد خلف محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من هؤلاء المشيخة !

وكانت هناك الاعتبارات العائلية التى تجعل رجلا كأبى جهل (عمرو ابن هشام) يأبى أن يسلم بالحق الذى يواجهه بقوة فى الرسالة الإسلامية ، لأن نبيها من بنى عبد مناف . . وذلك كما ورد فى قصته مع الأخنس ابن شريق وأبى سفيان ابن حرب ، حين خرجوا ثلاث ليال يستمعون القرآن خفية ، وهم فى كل ليلة يتواعدون على عدم العودة خيفة أن يراهم الناس فيقع فى نفوسهم شىء . فلما سأل الأخنس ابن شريق أباجهل رأيه فيما سمع من محمد كان جوابه : « ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا . حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء . فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لانؤمن به أبدا ولا نصدقه ! » .

وكانت هناك اعتبارات أخرى نفعية وطبقية ونفسية من ركام الجاهلية فى المشاعر والتصورات والأوضاع كلها تحاول قتل تلك الغرسة الجديدة فى مغرسها بكل وسيلة قبل أن

Marfat.com

تثبت جذورها وتتعمق ، وقبل أن تمتد فروعها وتتشابك .وبخاصة بعدأن تجاوزت دور الدعوة الفردية ؛ وأمر الله تعالى نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يجهر بالدعوة ؛ وأخذت معالم الدعوة الجديدة تبرز ، كما أخذ القرآن يتنزل بتسفيه عقيدة الشرك وما وراءها من الآلهة المدعاة والتصورات المنحرفة والتقاليد الباطلة .

والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولو أنه نبي ، ولو أنه يتلقى من ربه الوحى ،ولو أنه يتصل بالملإ الأعلى . . هو بشر ، تخالجه مشاعر البشر . وكان يتلقى هذه المقاومة العنيفة ، وتلك الحرب التى شنها عليه المشركون ، ويعانى وقعها العنيف الأليم ، هو والحفنة القليلة التى آمنت به على كره من المشركين .

وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسمع والمؤمنون به يسمعون ،ما كان يتقوله عليه المشركون ، ويتطاولون به على شخصه الكريم ، « ويقولون : إنه لمجنون » . . ولم تكن هذه إلا واحدة من السخريات الكثيرة ، التى حكاها القرآن فى السور الأخرى ؛والتى كانت توجه إلى شخصه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإلى الذين آمنوا معه . وغير الأذى الذى كان يصيب الكثيرين منهم على أيدى أقربائهم الأقربين !

والسخرية والاستهزاء ـ مع الضعف والقلة ـ مؤذيان أشد الإيذاء للنفس البشرية . ولو كانت هى نفس رسول .

ومن ثم نرى فى السور المكية ـ كسور هذا الجزء ـ أن الله كأنما يحتضن ـ سبحانه ـ رسوله والحفنة المؤمنة معه ، ويواسيه ويسرى عنه ، ويثنى عليه وعلى المؤمنين . ويبرز العنصر الأخلاقى الذى يتمثل فى هذه الدعوة وفى نبيها الكريم . وينفى مايقوله المتقولون عنه ، ويطمئن قلوب المستضعفين بأنه هو يتولى عنهم حرب أعدائهم ، ويعفيهم من التفكير فى أمر هؤلاء الأعداء الأقوياء الأغنياء !

ونجد من هذا فى سورة القلم مثل قوله تعالى عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم » . .

وقوله تعالى عن المؤمنين :

« إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم . أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ مالكم ؟ كيف تحكمون ؟ ! » . .

Marfat.com

ويقول عن أحد أعداء النبي البارزين :

« ولاتطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم. أن كان ذا مال وبنين . إذا تتلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين . سنسمه على الخرطوم ! » ..

ثم يقول عن حرب المكذبين عامة :

« فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث . سنستدرجهم من حيث لايعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين » ..

وذلك غير عذاب الآخرة المذل للمتكبرين :

« يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة . وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون » ..

ويضرب لهم أصحاب الجنة ـ جنة الدنيا ـ مثلا على عاقبة البطر . تهديدا لكبراء قريش المعتزين بأموالهم وأولادهم ممن لهم مال وبنون ؛ الكائدون للدعوة بسبب مالهم من مال وبنين.

وفى نهاية السورة يوصى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالصبر الجميل : « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت .. » .

ومن خلال هذه المواساة وهذا الثناء وهذا التثبيت ، مع الحملة القاصمة على المكذبين والتهديدالرهيب ، يتولى الله ـ سبحانه ـ بذاته حربهم فى ذلك الأسلوب المنيف .. من خلال هذا كله تتبين ملامح تلك الفترة . فترة الضعف والقلة، وفترة المعاناة والشدة ، وفترة المحاولة القاسية لغرس تلك الغرسة الكريمة فى تلك التربة العنيدة !

كذلك نلمح من خلال أسلوب السورة وتعبيرها وموضوعاتها ملامح البيئة التى كانت الدعوة الإسلامية تواجهها . وهى ملامح فيها سذاجة وبدائية فى التصور والتفكير والمشاعر والاهتمامات والمشكلات على السواء .

نلمح هذه السذاجة فى طريقة محاربتهم للدعوة بقولهم للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إنه لمجنون » ! وهو اتهام لاحبكة فيه ولابراعة ، وأسلوب من لايجد إلاالشتمة الغليظة يقولها بلا تمهيد ولابرهان ، كما يفعل السذج البدائيون .

ونلمحها فى الطريقة التى يرد الله بها عليهم فريتهم ردا يناسب حالهم : « ماأنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم . فستبصر ويبصرون . بأيكم

Marfat.com

المفتون » . . وكذلك فى التهديد المكشوف العنيف : « فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث . سنستدرجهم من حيث لايعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين » .

ونلمحها فى رد هذا السب على رجل منهم : « ولاتطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم. مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم ... » .

ونلمحهافى القصة ـ قصة أصحاب الجنة ـ التى ضربها الله لهم . وهى قصة قوم سذج فى تفكيرهم وتصورهم وبطرهم ، وفى حركاتهم كذلك وأقوالهم « وهم يتخافتون . ألايدخلها اليوم عليكم مسكين .. الخ » .

وأخيرا نلمح سذاجتهم من خلال مايوجهه إليهم من الجدل : « أم لكم كتاب فيه تدرسون : إن لكم فيه لما تخيرون ؟ أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ؟ سلهم أيهم بذلك زعيم ؟ » . . .

وهى ملامح تظهر بوضوح من خلال التعبير القرآنى ، وتفيد فى دراسة السيرة ووقائعها وخطوات الدعوة فيها ؛ ومدى ما ارتفع القرآن بعد ذلك بهذه البيئة وبتلك الجماعة فى أواخر عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومدى مانقلها من هذه السذاجة فى التفكير والتصور والشعور والاهتمام . كما يتضح فى أساليب الخطاب فيما بعد ، وفى الحقائق والمشاعر والتصورات والاهتمامات بعد عشرين عاما لاتزيد . وهى فى حياة الأمم ومضة لاتذكر . ولاتقاس إليها تلك النقلة الواسعة الشاملة . . التى انتقلتها الجماعة فى هذا الوقت القصير . والتى تسلمت بها قيادة البشرية فارتفعت بتصوراتها وأخلاقها إلى القمة التى لم ترتفع إليها قيادة قط فى تاريخ البشرية . لامن ناحية طبيعة العقيدة ، ولامن ناحية آثارها الواقعية فى حياة الإنسان فى الأرض ، ولامن ناحية السعة والشمول لتضم الإنسانية كلها بين جوانحها فى سماحة وعطف ، وفى تلبية لكل حاجاتها الشعورية ، وحاجاتها الفكرية ، وحاجاتها الاجتماعية ، وحاجاتها التنظيمية فى شتى الميادين . .

إنها المعجزة تتجلى فى النقلة من هذه السذاجة التى تبدو ملامحها من خلال مثل هذه السورة إلى ذلك العمق والشمول. وهى نقلة أوسع وأكبر من تحول القلة إلى كثرة ، والضعف إلى قوة . لأن بناء النفوس والعقول أعسر من بناء الأعداد والصفوف .

* * *

« ن ، والقلم ومايسطرون . ماأنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا غير ممنون .

Marfat.com

وإنك لعلى خلق عظيم . فستبصر ويبصرون . بأيكم المفتون . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين. فلا تطع المكذبين . ودوا لو تدهن فيدهنون . ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال وبنين . إذا تتلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين . سنسمه على الخرطوم » ..

يقسم الله ـ سبحانه ـ بنون . وبالقلم . وبالكتابة . والعلاقة واضحة بين الحرف (نون) بوصفه أحد حروف الأبجدية وبين القلم ، والكتابة . . فأما القسم بها فهو تعظيم لقيمتها ، وتوجيه إليها ، فى وسط الأمة التى لم تكن تتجه إلى العلم عن هذا الطريق ، وكانت الكتابة فيها متخلفة ونادرة . فى الوقت الذى كان دورها المقدر لها فى علم الله يتطلب نمو هذه المقدرة فيها، وانتشارها بينها ، لتقوم بنقل هذه العقيدة وما يقوم عليها من مناهج الحياة إلى أرجاء الأرض. ثم لتنهض بقيادة البشرية قيادة رشيدة . . ومامن شك أن الكتابة عنصر أساسى فى النهوض بهذه المهمة الكبرى .

ومما يؤكد هذا المفهوم أن يبدأ الوحى بقوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم. الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم » .. وأن يكون هذا الخطاب موجها للنبى الأمى ـ الذى قدر الله أن يكون أميا لحكمة معينة ـ ولكنه بدأ الوحى إليه منوها بالقراءة والتعليم بالقلم . ثم أكد هذه اللفتة هنا بالقسم بنون ، والقلم ومايسطرون . وكان هذا حلقة من المنهج الإلهى لتربية هذه الأمة وإعدادها للقيام بالدور الكونى الضخم الذى قدره لها فى علمه المكنون .

* * *

يقسم الله ـ سبحانه ـ بنون والقلم وما يسطرون ، منوها بقيمة الكتابة معظما لشأنها كما أسلفنا لينفى عن رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تلك الفرية التى رماه بها المشركون ، مستبعدا لها ، ونعمته على رسوله ترفضها .

« ماأنت بنعمة ربك بمجنون » ..

فيثبت فى هذه الآية القصيرة وينفى . . يثبت نعمة الله على نبيه ، فى تعبير يوحى بالقربى والمودة : حين يضيفه سبحانه إلى ذاته : « ربك » . وينفى تلك الصفة المفتراة التى لا تجتمع مع نعمة الله ، على عبد نسبه إليه وقربه واصطفاه .

Marfat.com

وإن العجب ليأخذ كل دارس لسيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى قومه ،من قولتهم هذه عنه ،وهم الذين علموا منه رجاحة العقل حتى حكموه بينهم فى رفع الحجر الأسود قبل النبوة بأعوام كثيرة . وهم الذين لقبوه بالأمين ، وظلوا يستودعونه أماناتهم حتى يوم هجرته ، بعد عدائهم العنيف له ، فقد ثبت أن عليا ـ كرم الله وجهه ـ تخلف عن رسول الله أياما فى مكة ، ليرد إليهم ودائعهم التى كانت عنده ؛ حتى وهم يحادونه ويعادونه ذلك العداء العنيف . وهم الذين لم يعرفوا عليه كذبة واحدة قبل البعثة . فلما سأل هرقل أبا سفيان عنه : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل نبوته؟ قال أبو سفيان ـ وهو عدوه قبل إسلامه ـ لا، فقال هرقل : ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ،

إن الإنسان ليأخذه العجب أن يبلغ الغيظ بالناس إلى الحد الذى يدفع مشركى قريش إلى أن يقولوا هذه القولة وغيرها عن هذا الإنسان الرفيع الكريم ، المشهور بينهم برجاحة العقل وبالخلق القويم . ولكن الحقد يعمى ويصم ، والغرض يقذف بالفرية دون تحرج ! وقائلها يعرف قبل كل أحد ، أنه كذاب أثيم !

« ما أنت بنعمة ربك بمجنون » . . هكذا فى عطف وفى إيناس وفى تكريم ، ردا على ذلك الحقد الكافر ، وهذا الافتراء الذميم .

« وإن لك لأجرا غير ممنون » . .

وإن لك لأجرا دائما موصولا ،لاينقطع ولا ينتهى .أجرا عند ربك الذى أنعم عليك بالنبوة ومقامها الكريم .. وهو إيناس كذلك وتسرية وتعويض فائض غامر عن كل حرمان وعن كل جفوة وعن كل بهتان يرميه به المشركون . وماذا فقد من يقول له ربه : « وإن لك لأجرا غير ممنون » ؟ فى عطف وفى مودة وفى تكريم ؟

* * *

ثم تجىء الشهادة الكبرى والتكريم العظيم :

« وإنك لعلى خلق عظيم » . .

وتتجاوب أرجاء الوجود بهذا الثناء الفريد على النبى الكريم ؛ ويثبت هذا الثناء العلوى فى صميم الوجود !

ويعجز كل قلم ،ويعجز كل تصور، عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من رب الوجود،

Marfat.com

وهى شهادة من الله ، فى ميزان الله ، لعبد الله ، يقول له فيها : « وإنك لعلى خلق عظيم » ومدلول الخلق العظيم هو ماهو عند الله مما لا يبلغ إلى إدراك مداه أحد من العالمين !

ودلالة هذه الكلمة العظيمة على عظمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ تبرز من نواح شتى :

تبرز من كونها كلمة من الله الكبير المتعال ، يسجلها ضمير الكون ، وتثبت فى كيانه . وتتردد فى الملأ الأعلى إلى ماشاء الله .

وتبرز من جانب آخر . من جانب إطاقة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتلقيها . وهو يعلم من ربه هذا ، قائل هذه الكلمة . ماهو ؟ ما عظمته ؟ مادلالة كلماته ؟ مامداها ؟ ماصداها ؟ ويعلم من هو إلى جانب هذه العظمة المطلقة ، التى يدرك هو منها مالا يدركه أحد من العالمين .

إن إطاقة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتلقى هذه الكلمة . من هذا المصدر . وهو ثابت . لاينسحق تحت ضغطها الهائل ـ ولو أنها ثناء ـ ولا تتأرجح شخصيته تحت وقعها وتضطرب .. تلقيه لها فى طمأنينة وفى تماسك وفى توازن . . هو ذاته دليل على عظمة شخصيته فوق كل دليل .

ولقد رويت عن عظمة خلقه فى السيرة ، وعلى لسان أصحابه روايات منوعة كثيرة . وكان واقع سيرته أعظم شهادة من كل ماروى عنه . ولكن هذه الكلمة أعظم بدلالتها من كل شىء آخر . أعظم بصدورها عن العلى الكبير . وأعظم بتلقى محمد لها وهو يعلم من هو العلى الكبير . وبقائه بعدها ثابتا راسخا مطمئنا . لايتكبر على العباد ، ولا ينتفخ ، ولا يتعاظم ، وهو الذى سمع ماسمع من العلى الكبير !

والله أعلم حيث يجعل رسالته . وما كان إلا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعظمة نفسه هذه ـ من يحمل هذه الرسالة الأخيرة بكل عظمتها الكونية الكبرى . فيكون كفئا لها ، كما يكون صورة حية منها

إن هذه الرسالة من الكمال والجمال ، والعظمة والشمول ، والصدق والحق ، بحيث لايحملها إلا الرجل الذى يثنى عليه الله هذا الثناء . فتطيق شخصيته كذلك تلق هذا الثناء . فى تماسك وفى توازن ، وفى طمأنينة . طمأنينة القلب الكبير الذى يسع حقيقة تلك الرسالة وحقيقة هذا الثناء العظيم . ثم يتلقى ـ بعد ذلك ـ عتاب ربه له ومؤاخذته إياه على بعض تصرفاته ، بذات التماسك وذات التوازن وذات الطمأنينة . ويعلن هذه كما يعلن تلك ، لايكتم من هذه شيئا ولا تلك . . وهو هو فى كلتا الحالتين النبى الكريم . والعبد الطائع . والمبلغ الأمين .

Marfat.com

إن حقيقة هذه النفس من حقيقة هذه الرسالة . وإن عظمة هذه النفس من عظمة هذه الرسالة .وإن الحقيقة المحمدية كالحقيقة الإسلامية لأبعدمن مدى أيمجهر يملكه بشر .وقصارى مايملكه راصد لعظمة هذه الحقيقة المزدوجة أن يراها ولا يحدد مداها .وأن يشير إلى مسارها الكونى دون أن يحدد هذا المسار !

ومرة أخرى أجد نفسى مشدودا للوقوف إلى جوار الدلالة الضخمة لتلقى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهذه الكلمة من ربه ، وهو ثابت راسخ متوازن مطمئن الكيان . . لقد كان ـ وهو بشر ـ يثنى على أحد أصحابه ، فيهتز كيان صاحبه هذا وأصحابه من وقع هذا الثناء العظيم .. وهو بشر وصاحبه يعلم أنه بشر . وأصحابه يدركون أنه بشر. إنه نبي نعم .ولكن فى الدائرة المعلومة الحدود . دائرة البشرية ذات الحدود . . فأما هو فيتلقى هذه الكلمة من الله . وهو يعلم من هو الله . هو بخاصة يعلم من هو الله ! هو يعلم منه مالايعلمه سواه . ثم يصطبر ويتماسك ويتلقى ويسير ... إنه أمر فوق كل تصور وفوق كل تقدير !!!

إنه محمد ـ وحده ـ هو الذى يرقى إلى هذا الأفق من العظمة .. إنه محمد ـ وحده ـ هو الذى يبلغ قمة الكمال الإنسانى المجانس لنفخة الله فى الكيان الإنسانى . إنه محمد ـ وحده ـ هو الذى يكافئ هذه الرسالة الكونية العالمية الإنسانية ؛ حتى لتتمثل فى شخصه حية ، تمشى على الأرض فى إهاب إنسان . . إنه محمد ـ وحده ـ الذى علم الله منه أنه أهل لهذا المقام . والله أعلم حيث يجعل رسالته ـ وأعلن فى هذه أنه على خلق عظيم . وأعلن فى الأخرى أنه ـ جل شأنه وتقدست ذاته وصفاته . يصلى عليه هو وملائكته « إن الله وملائكته يصلون على النبي » . . وهو ـ جل شأنه ـ وحده القادر على أن يهب عبدا من عباده ذلك الفضل العظيم..

* * *

ثم إن لهذه اللفتة دلالتها على تمجيد العنصر الأخلاقى فى ميزان الله ؛ وأصالة هذا العنصر فى الحقيقة الإسلامية كأصالة الحقيقة المحمدية .

والناظر فى هذه العقيدة ،كالناظر فى سيرة رسولها ، يجد العنصر الأخلاقى بارزا أصيلا فيها ، تقوم عليه أصولها التشريعية وأصولها التهذيبية على السواء .. الدعوة الكبرى فى هذه العقيدة إلى الطهارة والنظافة والأمانة والصدق والعدل والرحمة والبر وحفظ العهد ، ومطابقة القول للفعل ، ومطابقتهما معا للنية والضمير ؛ والنهى عن الجور والظلم والخداع والغش وأكل

Marfat.com

أموال الناس بالباطل ، والاعتداء على الحرمات والأعراض ، وإشاعة الفاحشة بأية صورة من الصور .. والتشريعات فى هذه العقيدة لحماية هذه الأسس وصيانة العنصر الأخلاقى فى الشعور والسلوك ، وفى أعماق الضمير وفى واقع المجتمع . وفى العلاقات الفردية والجماعية والدولية على السواء .

والرسول الكريم يقول : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .. فيلخص رسالته فى هذا الهدف النبيل . وتتوارد أحاديثه تترى فى الحض على كل خلق كريم . وتقوم سيرته الشخصية مثالا حيا وصفحة نقية ، وصورة رفيعة ، تستحق من الله أن يقول عنها فى كتابه الخالد: « وإنك لعلى خلق عظيم » .. فيمجد بهذا الثناء نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما يمجد به العنصر الأخلاقى فى منهجه الذى جاء به هذا النبى الكريم . ويشد به الأرض إلى السماء ، ويعلق به قلوب الراغبين إليه ـ سبحانه ـ وهو يدلهم على مايحب ويرضى من الخلق القويم .

وهذا الاعتبار هو الاعتبار الفذ فى أخلاقية الإسلام. فهى أخلاقية لم تنبع من البيئة، ولا من اعتبارات أرضية إطلاقا ؛ وهى لاتستمد ولاتعتمد على اعتبار من اعتبارات العرف أو المصلحة أو الارتباطات التى كانت قائمة فى الجيل . إنما تستمد من السماء وتعتمد على السماء . تستمد من هتاف السماء للأرض لكى تتطلع إلى الأفق . وتستمد من صفات الله المطلقة ليحققها البشر فى حدود الطاقة ، كى يحققوا إنسانيتهم العليا ، وكى يصبحوا أهلا لتكريم الله لهم واستخلافهم فى الأرض ؛ وكى يتأهلوا للحياة الرفيعة الأخرى : « فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » .. ومن ثم فهى غير مقيدة ولامحدودة بحدود من أى اعتبارات قائمة فى الأرض ؛ إنما هى طليقة ترتفع إلى أقصى مايطيقه البشر ، لأنها تتطلع إلى تحقيق صفات الله الطليقة من كل حد ومن كل قيد .

ثم إنها ليست فضائل مفردة : صدق . وأمانة . وعدل . ورحمة . وبر ... إنما هى منهج متكامل ، تتعاون فيه التربية التهذيبية مع الشرائع التنظيمية ؛ وتقوم عليه فكرة الحياة كلها واتجاهاتها جميعا ، وتنتهى فى خاتمة المطاف إلى الله . لا إلى أى اعتبار آخر من اعتبارات هذه الحياة !

وقد تمثلت هذه الأخلاقية الإسلامية بكمالها وجمالها وتوازنها واستقامتها واطرادها وثباتها فى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتمثلت فى ثناء الله العظيم ، وقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

* * *

Marfat.com

وبعد هذا الثناء الكريم على عبده يطمئنه إلى غده مع المشركين ، الذين رموه بذلك البهت اللئيم ؛ ويهددهم بافتضاح أمرهم وانكشاف بطلانهم وضلالهم المبين :

« فستبصر ويبصرون . بأيكم المفتون . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » . .

والمفتون الذى يطمئن الله نبيه إلى كشفه وتبينه هو الضال . أوهو للمتحن الذى يكشف الامتحان عن حقيقته . وكلا المدلولين قريب من قريب .. وهذا الوعد فيه من الطمأنينة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وللمؤمنين معه ، بقدر مافيه من التهديد للمناوئين له المفترين عليه .. أيا كان مدلول الجنون الذى رموه به . والأقرب إلى الظن أنهم لم يكونوا يقصدون به ذهاب العقل . فالواقع يكذب هـذا القول . إنما كانوا يعنون به مخالطة الجنة له ، وإيحاءهم إليه بهذا القول الغريب البديع ـ كما كانوا يظنون أن لكل شاعر شيطانا هو الذى يمده بديع القول ! ـ وهو مدلول بعيد عن حقيقة حال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وغريب عن طبيعة مايوحى إليه من القول الثابت الصادق المستقيم .

وهذا الوعد من الله يشير إلى أن الغد سيكشف عن حقيقة النبى وحقيقة مكذبيه . ويثبت أيهم المتحن بما هو فيه ؛ أوأيهم الضال فيما يدعيه . ويطمئنه إلى أن ربه « هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » . . وربه هو الذى أوحى إليه ، فهو يعلم أنه المهتدى ومن معه . وفى هذا مايطمئنه وما يقلق أعداءه ، ومايبعث فى قلوبهم التوجس والقلق لماسيجىء !

* * *

ثم يكشف الله له عن حقيقة حالهم ، وحقيقة مشاعرهم ، وهم يخاصمونه ويجادلونه فى الحق الذى معه ، ويرمونه بما يرمونه ، وهم مزعزعو العقيدة فيما لديهم من تصورات الجاهلية ، التى يتظاهرون بالتصميم عليها . إنهم على استعداد للتخلى عن الكثير منها فى مقابل أن يتخلى هو عن بعض مايدعوهم إليه ! على استعداد أن يدهنوا ويلينوا ويحافظوا فقط على ظاهر الأمر لكى يدهن هو لهم ويلين . فهم ليسوا أصحاب عقيدة يؤمنون بأنها الحق . وإنما هم أصحاب ظواهر يهمهم أن يستروها :

« فلاتطع المكذبين . ودوا لوتدهن فيدهنون » ..

فهى المساومة إذن ، والالتقاء فى منتصف الطريق . كما يفعلون فى التجارة . وفرق بين

Marfat.com

الاعتقاد والتجارة كبيرا فصاحب العقيده لايتخلى عن شيء منها ؛ لأن الصغير منها كالكبير . بل ليس فى العقيدة صغير وكبير. إنها حقيقة واحدة متكاملة الأجزاء . لايطيع فيها صاحبها أحدا ، ولايتخلى عن شيء منها أبدا .

وما كان يمكن أن يلتقى الإسلام والجاهلية فى منتصف الطريق ، ولا أن يلتقيا فى أى طريق. وذلك حال الإسلام مع الجاهلية فى كل زمان ومكان . جاهلية الأمس وجاهلية اليوم ، وجاهلية الغد كلها سواء . إن الهوة بينها وبين الإسلام لاتعبر ، ولا تقام عليها قنطرة ، ولا تقبل قسمة ولا صلة . وإنما هو النضال الكامل الذى يستحيل فيه التوفيق !

ولقد وردت روايات شتى فيما كان يدهن به المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم ليدهن لهم ويلين ؛ ويترك سب آلهتهم وتسفيه عبادتهم، أو يتابعهم فى شيء مما هم عليه ليتابعوه فى دينه ، وهم حافظون ماء وجوههم أمام جماهير العرب ! على عادة المساومين الباحثين عن أنصاف الحلول ! ولكن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان حاسما فى موقفه من دينه ، لايدهن فيه ولا يلين . وهو فيما عدا الدين ألين الخلق جانبا وأحسنهم معاملة وأبرهم بعشيرة وأحرصهم على اليسر والتيسير . فأما الدين فهو الدين ! وهو فيه عند توجيه ربه : « فلا تطع المكذبين » !

ولم يساوم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى دينه وهو فى أحرج المواقف العصيبة فى مكة . وهو محاصر بدعوته . وأصحابه القلائل يتخطفون ويعذبون ويؤذون فى الله أشد الإيذاء وهم صابرون. ولم يسكت عن كلمة واحدة ينبغى أن تقال فى وجوه الأقوياء المتجبرين ، تأليفا لقلوبهم ، أو دفعا لأذاهم . ولم يسكت كذلك عن إيضاح حقيقة تمس العقيدة من قريب أو من بعيد . .

روى ابن هشام فى السيرة عن ابن إسحاق قال :

« فلما بادى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قومه بالإسلام. وصدع به كما أمره الله ، لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه ـ فيما بلغنى ـ حتى ذكر آلهتهم وعابها . فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه ، وأجمعوا خلافه وعداوته ـ إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام وهم قليل مستخفون ـ وحدب على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عمه أبو طالب ومنعه . وقام دونه ، ومضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أمر الله مظهرا لأمره ، لايرده عنه شيء .

« فلما رأت قريش أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لايعتبهم من شيء أنكروه عليه من فراقهم وعيب آلهتهم ، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حدب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم ،

Marfat.com

مشى رجال من أشراف قريش إلى أبى طالب .. عتبة وشيبة أبنا ربيعة ،وأبو سفيان ابن حرب ابن أمية . وأبو البخترى واسمه العاص ابن هشام . والأسود ابن المطلب ابن أسد .وأبو جهل (واسمه عمرو ابن هشام وكان يكنى أبا الحكم) والوليد ابن المغيرة ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ابن عامر . . أو من مشى منهم .. فقالوا : ياأبا طالب . إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ماعن عليه من خلافه ؛ فنكفيكه ! فقال لهم أبو طالب قولا رفيقا ، وردهم ردا جميلا ، فانصرفوا عنه .

« ومضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ماهو عليه : يظهر دين الله ،ويدعو إليه. ثم شرى (١) الأمر بينه وبينهم حتى تباعدوا وتضاغنوا ، وأكثرت قريش ذكر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتذامروا (٢) فيه . وحض بعضهم بعضا عليه . ثم إنهم مشوا إلى أبى طالب مرة أخرى . فقالوا : له ياأبا طالب . إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا . وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ؛ وإنا والله لانصبر على هذا :من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين ـ أو كما قالوا له . . ثم انصرفوا عنه . فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم ،ولم يطب نفسا بإسلام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم ولا خذلانه .قال ابن إسحاق :وحدثنى يعقوب ابن عقبة ابن المغيرة ابن الأخنس ، أنه حدث ، أن قريشا حين قالوا لأبى طالب هذه المقالة بعث إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له : ياابن أخى . إن قومك قد جاءونى فقالوا لى : كذا وكذا (للذى كانوا قالوا له) فأبق على وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق . قال : فظن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قد بدا لعمه فيه بداء ،وأنه خاذله ومسلمه وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه . قال : فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: « ياعم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ماتركته » . . قال : واستعبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فبكى . ثم قام . فلما ولى ناداه أبو طالب فقال : أقبل ياابن أخى . قال :فأقبل عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: اذهب ياابن أخى فقل ماأحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبدا» .

---

(١) زاد واشتد .

(٢) تغيظوا وحض بعضهم بعضا عليه .

Marfat.com

فهذه صورة من إصرار النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على دعوته فى اللحظة التى تخلى عنه فيها عمه . حاميه وكافيه . وآخر حصن من حصون الأرض يمنعه المتربصين به المتذامرين فيه !

هذه هى صورة قوية رائعة جديدة فى نوعها من حيث حقيقتها ،ومن حيث صورها وظلالها ومن حيث عباراتها وألفاظها ... جديدة جدة هذه العقيدة ، رائعة روعة هذه العقيدة ، قوية قوة هذه العقيدة . فيها مصداق قول الله العظيم : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

وصورة أخرى رواها كذلك ابن إسحاق، كانت فى مساومة مباشرة من المشركين لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد إذ أعياهم أمره ، . ووثبت كل قبيلة على من أسلم منها تعذبه وتفتنه عن دينه .

قال ابن إسحاق : وحدثنى يزيد ابن زياد ، عن محمد ابن كعب القرظى ، قال: حدثت أن عتبة ابن ربيعة وكان سيدا ، قال يوما وهو جالس فى نادى قريش ،ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالس فى المسجد وحده: يامعشر قريش .ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة ، ورأوا أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يزيدون ويكثرون . فقالوا : ياأبا الوليد قم إليه فكلمه . فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : ياابن أخى . إنك منا حيث علمت : من السطة (١) فى العشيرة والمكان فى النسب ؛ وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم .فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها ،لعلك تقبل منها بعضها . قال : فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « قل ياأبا الوليد أسمع » . . قال : ياابن أخى . إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا . وإن كنت إنما تريد به شرفا سودناك علينا حتى لانقطع أمرا دونك .وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لاتستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه ! ـ أو كما قال له ـ حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يستمع منه قال : « أقد فرغت ياأبا الوليد ؟ » قال : نعم . قال : « فاستمع منى » . قال : أفعل . فقال : «بسم الله الرحمن الرحيم.

(١) أى المنزلة الرفيعة المهيبة .

Marfat.com

حم . تنزيل من الرحمان الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون . وقالوا : قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب، فاعمل إننا عاملون. قل : إنماأنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين . . . » ثم مضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يقرؤها عليه. فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليها يسمع منه. ثم انتهى رسول الله ـصلى الله عليه وسلم ـ إلى السجدة منها فسجد . ثم قال . « قد سمعت ياأبا الوليد ماسمعت . فأنت وذاك » .. فقام عتبة إلى أصحابه ،فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبوالوليد بغير الوجه الذى ذهب به .فلما جلس إليهم قالوا: ماوراءك ياأباالوليد؟ قال : ورائى أنى سمعت قولا والله ماسمعت مثله قط ، والله ماهو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يامعشر قريش أطيعونى ، واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم . فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم . وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به . قالوا : سحرك والله ياأبا الوليد بلسانه . قال : هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم . .

وفى رواية أخرى أن عتبة استمع حتى جاء الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى قوله تعالى : « فإن أعرضوا فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » . . فقام مذعورا فوضع يده على فم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : أنشدك الله والرحم ياحمد ! وذلك مخافة أن يقع النذير . وقام إلى القوم فقال ماقال !

وعلى أية حال فهذه صورة أخرى من صور للمساومة .وهى كذلك صورة من صور الخلق العظيم . تبدو فى أدبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يستمع إلى عتبة حتى يفرغ من قوله الفارغ الذى لايستحق الانتباه من مثل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى تصوره لقيم هذا الكون . وفى ميزانه للحق ولعرض هذه الأرض . ولكن خلقه يمسك به لايقاطع ولايتعجل ولايغضب ولايضجر ، حتى يفرغ الرجل من مقالته ، وهو مقبل عليه . ثم يقول فى هدوء: « أقد فرغت ياأبا الوليد ؟ » زيادة فى الإملاء والتوكيد . إنها الطمأنينة الصادقة للحق مع الأدب الرفيع فى الاستماع والحديث .. وهما معاً بعض دلالة الخلق العظيم .

وصورة ثالثة للمساومة فيما رواه ابن اسحاق قال :

Marfat.com

« واعترض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يطوف بالكعبة ـ فيما بلغنى ـ الأسود ابن المطلب ابن أسد ابن عبدالعزى والوليد ابن المغيرة ، وأمية ابن خلف ، والعاص ابن وائل السهمى . وكانوا ذوى أسنان فى قومهم . فقالوا : يامحمد ، هلم فلنعبد ماتعبد ، وتعبد مانعبد، فنشترك نحن وأنت فى الأمر . فإن كان الذى تعبد خيرا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان مانعبد خيرا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه ! فأنزل الله تعالى فيهم : « قل : ياأيها الكافرون. لاأعبد ماتعبدون » : السورة كلها ..

وحسم الله المساومة المضحكة بهذه المفاصلة الجازمة . وقال لهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ماأمره ربه أن يقول ...

* * *

ثم يبرز قيمة العنصر الأخلاقى مرة أخرى فى نهى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن إطاعة أحد هؤلاء المكذبين بالذات ، ويصفه بصفاته المزرية المنفرة ، ويتوعده بالإذلال والمهانة:

« ولاتطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال وبنين . إذا تتلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين . سنسمه على الخرطوم » . .

وقد قيل : إنه الوليد ابن المغيرة ، وإنه هو الذى نزلت فيه كذلك آيات من سورة المدثر: « ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد. كلا !! إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا . إنه فكر وقدر . فقتل ! كيف قدر ؟ ثم قتل ! كيف قدر ؟ ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلاقول البشر . سأصليه سقر » . .

ورويت عنه مواقف كثيرة فى الكيد لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإنذار أصحابه، والوقوف فى وجه الدعوة ، والصد عن سبيل الله . . كما قيل : إن آيات سورة القلم نزلت فى الأخنس ابن شريق .. وكلاهما كان ممن خاصموا رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولجوا فى حربه والتأليب عليه أمدا طويلا .

وهذه الحملة القرآنية العنيفة فى هذه السورة ، والتهديدات القاصمة فى السورة الأخرى ، وفى سواها ، شاهد على شدة دوره سواء كان هو الوليد أو الأخنس والأول أرجح ، فى حرب الرسول والدعوة ، كما هى شاهد على سوء طويته ، وفساد نفسه ، وخلوها من الخير .

Marfat.com

والقرآن يصفه هنا بتسع صفات كلها ذميم . .

فهو حلاف . . كثير الحلف . ولايكثر الحلف إلاإنسان غير صادق ، يدرك أن الناس يكذبونه ولايثقون به ، فيحلف ويكثر من الحلف ليدارى كذبه ، ويستجلب ثقة الناس .

وهو مهين .. لايحترم نفسه، ولايحترم الناس قوله . وآية مهانته حاجته إلى الحلف، وعدم ثقته بنفسه وعدم ثقة الناس به . ولو كان ذا مال وذا بنين وذا جاه . فالمهانة صفة نفسية تلصق بالمرء ولوكان سلطانا طاغية جبارا. والعزة صفة نفسية لاتفارق النفس الكريمة ولوتجردت من كل أعراض الحياة الدنيا !

وهو هماز .. يهمز الناس ويعيبهم بالقول والإشارة فى حضورهم أوفى غيبتهم سواء . وخلق الهمز يكرهه الإسلام أشد الكراهية ؛ فهو يخالف المروءة ، ويخالف أدب النفس ، ويخالف الأدب فى معاملة الناس وحفظ كراماتهم صغروا أم كبروا. وقد تكرر ذم هذا الخلق فى القرآن فى غير موضع ؛ فقال : « ويل لكل همزة لمزة » .. وقال : « ياأيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولانساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن . ولا تلمزوا أنفسكم . ولاتنابزوا بالألقاب » وكلها أنواع من الهمز فى صورة من الصور ..

وهو مشاء بنميم . يمشى بين الناس بما يفسد قلوبهم ، ويقطع صلاتهم ، ويذهب بمودآتهم . وهو خلق ذميم كما أنه خلق مهين ، لايتصف به ولايقدم عليه إنسان يحترم نفسه أويرجو لنفسه احتراما عند الآخرين . حتى أولئك الذين يفتحون آذانهم للنمام ، ناقل الكلام ، المشاء بالسوء بين الأوداء . حتى هؤلاء الذين يفتحون آذانهم له لايحترمونه فى قرارة نفوسهم ولايودونه .

ولقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينهى أن ينقل إليه أحد مايغير قلبه على صاحب من أصحابه . وكان يقول : « لايبلغنى أحد عن أحد من أصحابى شيئا فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » (١) .

وثبت فى الصحيحين من حديث مجاهد عن طاووس عن ابن عباس قال : مر رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ـ بقبرين ، فقال . « إنهما ليعذبان ، ومايعذبان فى كبير . أما أحدهما فكان لايستتر من البول ، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة » .

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذى من حديث ابن مسعود .

Marfat.com

وروى الإمام أحمد ـ بإسناده ـ عن حذيفة قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: « لايدخل الجنه قتات » أى نمام (ورواه الجماعة إلا ابن ماجه) .

وروى الإمام أحمد كذلك ـ بإسناده ـ عن يزيد ابن السكن . أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « ألاأخبركم بخياركم ؟ » قالوا : بلى يارسول الله . قال : « الذين إذا رؤوا ذكر الله عز وجل » ثم قال : « ألا أخبركم بشراركم ؟ المشاءون بالنميمة المفسدون بين الأحبة ، الباغون للبرآء العيب » .

ولم يكن بدللإسلام أن يشدد فى النهى عن هذا الخلق الذميم الوضيع ، الذى يفسد القلب ، كما يفسد الصحب ، ويتدنى بالقائل قبل أن يفسد بين الجماعة ، ويأ كل قلبه وخلقه قبل أن يأ كل سلامة المجتمع ، ويفقد الناس الثقة بعضهم ببعض ، ويجنى على الأبرياء فى معظم الأحايين !

وهو مناع للخير . . يمنع الخير عن نفسه وعن غيره . ولقد كان يمنع الإيمان وهو جماع الخير . وعرف عنه أنه كان يقول لأولاده وعشيرته ، كلما آنس منهم ميلا إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لئن تبع دين محمد منكم أحد لا أنفعه بشىء أبدا. فكان يمنعهم بهذا التهديد عن الإسلام . ومن ثم سجل القرآن عليه هذه الصفة « مناع للخير » فيما كان يفعل ويقول .

وهو معتد . . متجاوز للحق والعدل إطلاقا. ثم هو معتد على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى المسلمين وعلى أهله وعشيرته الذين يصدهم عن الهدى ويمنعهم من الدين . . والاعتداء صفة ذميمة تنالمن عناية القرآن والحديث اهتماما كبيرا . . وينهى عنها الإسلام فى كل صورة من صورها . حتى فى الطعام والشراب: « كلوا من طيبات مارزقناكم ولا تطغوا فيه » . . لأن العدل والاعتدال طابع الإسلام الأصيل .

وهو أثيم . . يرتكب المعاصى حتى يحق عليه الوصف الثابت . « أثيم » . . بدون تحديد لنوع الآثام التى يرتكبها . فاتجاه التعبير إلى إثبات الصفة ، وإلصاقها بالنفس كالطبع المقيم !

وهو بعد هذا كله « عتل » . . وهى لفظة تعبر بجرسها وظلها عن مجموعة من الصفات ومجموعة من السمات ، لاتبلغها مجموعة ألفاظ وصفات . فقد يقال : إن العتل هو الغليظ الجافى. وإنه الأكول الشروب. وإنه الشره المنوع . وإنه الفظ فى طبعه اللئيم، فى نفسه ، السىء فى معاملته .. وعن أبى الدرداء رضى الله عنه: « العتل كل رغيب الجوف، وثيق الخلق ، أكول

Marfat.com

شروب ، جموع للمال ، منوع له » . . ولكن تبقى كلمة « عتل » بذاتها أدل على كل هذا ، وأبلغ تصويرا للشخصية الكريهة من جميع الوجوه .

وهو زنيم .. وهذه خاتمة الصفات الذميمة الكريهة المتجمعة فى عدو من أعداء الإسلام ـ وما يعادى الإسلام ويصر على عداوته إلا أناس من هذا الطراز الذميم ـ والزنيم من معانيه اللصيق فى القوم لانسب له فيهم ، أوأن نسبه فيهم ظنين . ومن معانيه ، الذى اشتهر وعرف بين الناس بلؤمه وخبثه وكثرة شروره . والمعنى الثانى هو الأقرب فى حالة الوليد ابن المغيرة . وإن كان إطلاق اللفظ يدمغه بصفة تدعه مهينا فى القوم ، وهو المختال الفخور .

ثم يعقب على هذه الصفات الذاتية بموقفه من آيات الله ، مع التشنيع بهذا الموقف الذى يجزى به نعمة الله عليه بالمال والبنين :

« أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين » . .

وما أقبح مايجزى إنسان نعمة الله عليه بالمال والبنين ؛ استهزاء بآياته ، وسخرية من رسوله ، واعتداء على دينه . . وهذه وحدها تعدل كل مامر من وصف ذميم .

ومن ثم يجىء التهديد من الجبار القهار ، يلمس فى نفسه موضع الاختيال والفخر بالمال والبنين ؛ كما لمس وصفه من قبل موضع الاختيال بمكانته ونسبه . . ويسمع وعد الله القاطع :

« سنسمه على الخرطوم » . .

ومن معانى الخرطوم طرف أنف الخنزير البرى . . ولعله هو المقصود هنا كناية عن أنفه ! والأنف فى لغة العرب يكنى به عن العزة فيقال : أنف أشم للعزيز . وأنف فى الرغام للذليل .. أى فى التراب ! ويقال ورم أنفه وحمى أنفه ، إذا غضب معتزا . ومنه الأنفة .. والتهديد بوسمه على الخرطوم يحوى نوعين من الإذلال والتحقير . . الأول الوسم كما يوسم العبد . . والثانى جعل أنفه خرطوما كخرطوم الخنزير !

ومامن شك أن وقع هذه الآيات على نفس الوليد كان قاصما .فهو من أمة كانت تعد هجاء شاعر ـ ولو بالباطل ـ مذمة يتوقاها الكريم ! فكيف بدمغه بالحق من خالق السماوات والأرض . بهذا الأسلوب الذى لايبارى . فى هذا السجل الذى تتجاوب بكل لفظ من ألفاظه جنبات الوجود . ثم يستقر فى كيان الوجود . . فى خلود . .

Marfat.com

إنهـا القاصمة التى يستأهلها عدو الإسـلام وعدو الرسول الـكريم صاحب الخلق العظيم . .

* * *

وبمناسبة الإشارة إلى المال والبنين ،والبطر الذى يبطره المـكذبون ، يضرب لهم مثلا بقصة يبدو أنها كانت معروفة عندهم ، شائعة بينهم ، ويذكرهم فيها بعاقبة البطر بالنعمة ، ومنع الخير والاعتداء على حقوق الآخرين ؛ويشعرهم أن مابين أيديهم من نعم المال والبنين ،إنما هو ابتلاء لهم كما ابتلى أصحاب هذه القصة، وأن له مابعده، وأنهم غير متروكين لما هم فيه:

« إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ، ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم . فتنادوا مصبحين : أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافتون :ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين . وغدوا على حرد قادرين. فلما رأوها قالوا :إنا لضالون، بل نحن محرومون. قال أوسطهم: ألم أقل لكم لولا تسبحون ! قالوا : سبحان ربنا إنا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون، قالوا: ياويلنا إنا كنا طاغين ،عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون . . كذلك العذاب، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » . .

وهذه القصة قد تكون متداولة ومعروفة ، ولـكن السياق القرآنى يكشف عما وراء حوادثها من فعل الله وقدرته ، ومن ابتلاء وجزاء لبعض عباده . ويكون هذا هو الجديد فى سياقها القرآنى .

ومن خلال نصوصها وحركاتها نلمح مجموعة من الناس ساذجة بدائية أشبه فى تفكيرها وتصورها وحركتها بأهل الريف البسطاء السذج. ولعل هذا المستوى من النماذج البشرية كان أقرب إلى المخاطبين بالقصة ، الذين كانوا يعاندون ويجحدون ، ولـكن نفوسهم ليست شديدة التعقيد ، إنما هى أقرب إلى السذاجة والبساطة !

والقصة من ناحية الأداء تمثل إحدى طرق الأداء الفنى للقصة فى القرآن ؛ وفيه مفاجآت مشوقة ، كما أن فيه سخرية بالـكيد البشرى العاجز أمام تدبير الله وكيده . وفيه حيوية فى العرض حتى لـكأن السامع ـ أو القارىء ـ يشهد القصة حية تقع أحداثها أمامه وتتوالى [1]. فلنحاول أن نراها كما هى فى سياقها القرآنى :

---

(١) يراجع فصل : القصة فى القرآن فى كتاب : التصوير الفنى فى القرآن .

Marfat.com

هانحن أولاء أمام أصحاب الجنة ـ جنة الدنيا لاجنة الآخرة ـ وهاهم أولاء يبيتون فى شأنها أمرا . لقد كان للمساكين حظ من ثمرة هذه الجنة ـ كما تقول الروايات ـ على أيام صاحبها الطيب الصالح . ولكن الورثة يريدون أن يستأثروا بثمرها الآن ، وأن يحرموا المساكين حظهم . . فلننظر كيف تجرى الأحداث إذن !

« إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة . إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون » .

لقد قر رأيهم على أن يقطعوا ثمرها عند الصباح الباكر ، دون أن يستثنوا منه شيئا للمساكين . وأقسموا على هذا ، وعقدوا النية عليه، وباتوا بهذا الشر فيما اعتزموه . . فلندعهم فى غفلتهم أو فى كيدهم الذى بيتوه، ولننظر ماذا يجرى من ورائهم فى بهمة الليل وهم لايشعرون. فإن الله ساهر لاينام كما ينامون ، وهو يدبر لهم غير مايدبرون ، جزاء على مابيتوا من بطر بالنعمة ومنع للخير ،وبخل بنصيب المساكين المعلوم . . إن هناك مفاجأة تتم فى خفية . وحركة لطيفة كحركة الأشباح فى الظلام . والناس نيام :

« فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم » (١) . .

فلندع الجنة وماألم بها مؤقتا لننظر كيف يصنع المبيتون الماكرون .

هاهم أولاء يصحون مبكرين كما دبروا ، وينادى بعضهم بعضا لينفذوا مااعتزموا :

« فتنادوا مصبحين : أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين » ..

يذكر بعضهم بعضا ، ويوصى بعضهم بعضا ، ويحمس بعضهم بعضا !

ثم يمضى السياق فى السخرية منهم ، فيصورهم منطلقين ، يتحدثون فى خفوت ، زيادة فى إحكام التدبير ، ليحتجنوا الثمر كله لهم ، ويحرموا منه المساكين !

« فانطلقوا وهم يتخافتون : ألايدخلنها اليوم عليكم مسكين » !!!

وكأنما نحن الذين نسمع القرآن أونقرؤه نعلم مالايعلمه أصحاب الجنة من أمرها . . أجل فقد شهدنا تلك اليد الخفية اللطيفة تمتد إليها فى الظلام ، فتذهب بثمرها كله . ورأيناها كأنما هى مقطوعة الثمار بعد ذلك الطائف الخفى الرهيب ! فلنمسك أنفاسنا إذن ، لنرى كيف يصنع الماكرون المبيتون .

إن السياق مايزال يسخر من الماكرين المبيتين :

---

(١) كأنها مقطوعة الثمار . فقد ذهب الطائف الذى طاف عليها بكل ثمرها !

Marfat.com

« وغدوا على حرد قادرين » !

أجل إنهم لقادرون على المنع والحرمان . . حرمان أنفسهم على أقل تقدير !!

وهاهم أولاء يفاجأون . فلننطلق مع السياق ساخرين . ونحن نشهدهم مفجوءين :

« فلما رأوها قالوا : إنا لضالون » . .

ماهذه جنتنا الموقرة بالثمار . فقد ضللنا إليها الطريق ! .. ولكنهم يعودون فيتأكدون :

« بل نحن محرومون » ..

وهذا هو الخبر اليقين !

والآن وقد حاقت بهم عاقبة المكر والتبييت ، وعاقبة البطر والمنع ، يتقدم أوسطهم وأعقلهم وأصلحهم — ويبدو أنه كان له رأى غير رأيهم . ولكنه تابعهم عندما خالفوه وهو فريد فى رأيه . ولم يصر على الحق الذى رآه فناله الحرمان كما نالهم . ولكنه يذكرهم ماكان من نصحه وتوجيهه :

« قال : ألم أقل لكم : لولا تسبحون » ؟!

والآن فقط يسمعون للناصح بعد فوات الأوان :

« قالوا : سبحان ربنا ، إنا كنا ظالمين » ..

وكما يتنصل كل شريك من التبعة عند ما تسوء العاقبة ، ويتوجه باللوم إلى الآخرين . . هاهم أولاء يصنعون :

« فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون » !

ثم هاهم أولاء يتركون التلاوم ليعترفوا جميعا بالخطيئة أمام العاقبة الرديئة . عسى أن يغفر الله لهم ، ويعوضهم من الجنة الضائعة على مذبح البطر والمنع والكيد والتدبير :

« قالوا : ياويلنا ! إنا كنا طاغين . عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون » ..

وقبل أن يسدل السياق الستار على المشهد الأخير نسمع التعقيب:

« كذلك العذاب . ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » ..

وكذلك الابتلاء بالنعمة . فليعلم المشركون أهل مكة . « إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة » ولينظروا ماذا وراء الابتلاء . . ثم ليحذروا ماهو أكبر من ابتلاء الدنيا وعذاب الدنيا : « ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » !

* * *

Marfat.com

وكذلك يسوق إلى قريش هذه التجربة من واقع البيئة، ومما هو متداول بينهم من القصص، فيربط بين سنته فى الغابرين وسنته فى الحاضرين ؛ ويلمس قلوبهم بأقرب الأساليب إلى واقع حياتهم . وفى الوقت ذاته يشعر المؤمنين بأن مايرونه على المشركين ـ من كبراء قريش ـ من آثار النعمة والثروة إنما هو ابتلاء من الله ، له عواقبه ، وله نتائجه . وسنته أن يبتلى بالنعمة كما يبتلى بالبأساء سواء. فأما المتبطرون المانعون للخير المخدوعون بما هم فيه من نعيم، فذلك كان مثلا لعاقبتهم : « ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » .. وأما المتقون الحذرون فلهم عند ربهم جنات النعيم :

« إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم » ..

وهو التقابل فى العاقبة ، كما أنه التقابل فى المسلك والحقيقة . . تقابل النقيضين اللذين اختلفت بهما الطريق ، فاختلفت بهما خاتمة الطريق !

* * *

وعند هاتين الخاتمتين يدخل معهم فى جدل لاتعقيد فيه كذلك ولاتركيب . ويتحداهم ويحرجهم بالسؤال تلو السؤال عن أمور ليس لها إلا جواب واحد تصعب المغالطة فيه ؛ ويهددهم فى الآخرة بمشهد رهيب ، وفى الدنيا بحرب من العزيز الجبار القوى الشديد :

« أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ مالكم ؟ كيف تحكمون ؟ أم لكم كتاب فيه تدرسون ؟ إن لكم فيه لما تخيرون ؟ أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ؟ سلهم أيهم بذلك زعيم ؟ أم لهم شركاء ؟ فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين . يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة . وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون . فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث ، سنستدرجهم من حيث لايعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين . أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ؟ أم عندهم الغيب فهم يكتبون » ؟!

والتهديد بعذاب الآخرة وحرب الدنيا يجىء ـ كما نرى ـ فى خلال ذلك الجدل ، وهذا التحدى . فيرفع من حرارة الجدل ، ويزيد من ضغط التحدى .

والسؤال الاستنكارى الأول : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ » يعود إلى عاقبة هؤلاء وهؤلاء التى عرضها فى الآيات السابقة . وهو سؤال ليس له إلا جواب واحد .. لا. لايكون .

Marfat.com

فالمسلمون المذعنون المستسلمون لربهم ، لا يكونون أبدا كالمجرمين الذين يأتون الجريمة عن لجاج يسمهم بهذا الوصف الذميم ! ومايجوز فى عقل ولا فى عدل أن يتساوى المسلمون والمجرمون فى جزاء ولامصير .

ومن ثم يجىء السؤال الاستنكارى الآخر : « مالكم ؟ كيف تحكمون ؟ » . . ماذا بكم ؟ وعلام تبنون أحكامكم ؟ وكيف تزنون القيم والأقدار ؟ حتى يستوى فى ميزانكم وحكمكم من يسلمون ومن يجرمون ؟!

ومن الاستنكار والإنكار عليهم ينتقل إلى التهكم بهم والسخرية منهم : « أم لكم كتاب فيه تدرسون ؟إن لكم فيه لما تخيرون ؟ » .. فهو التهكم والسخرية أن يسألهم إن كان لهم كتاب يدرسونه ، هو الذى يستمدون منه مثل ذلك الحكم الذى لايقبله عقل ولا عدل ؛ وهو الذى يقول لهم : إن المسلمين كالمجرمين ! إنه كتاب مضحك يوافق هواهم ويماق رغباتهم ، فلهم فيه مايتخيرون من الأحكام وما يشتهون ! وهو لايرتكن إلى حق ولا إلى عدل ، ولا إلى معقول أو معروف !

« أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ؟ » . . فإن لايكن ذلك فهو هذا . وهو أن تكون لهم مواثيق على الله ، سارية إلى يوم القيامة ، مقتضاها أن لهم مايحكمون ، وما يختارون وفق مايشتهون ! وليس من هذا شىء . فلا عهود لهم عند الله ولا مواثيق . فعلام إذن يتكلمون ؟ ! وإلام إذن يستندون ؟ !

« سلهم أيهم بذلك زعيم ؟ » . . سلهم من منهم المتعهد بهذا ؟ من منهم المتعهد بأن لهم على الله ما يشاءون ، وأن لهم ميثاقا عليه سارى المفعول إلى يوم القيامة أن لهم مايحكمون ؟ !

وهو تهكم ساخر عميق بليغ يذيب الوجوه من الحرج والتحدى السافر المكشوف !

« أم لهم شركاء ؟ فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين » ..

وهم كانوا يشركون بالله . ولكن التعبير يضيف الشركاء إليهم لا لله ويتجاهل أن هناك شركاء . ويتحداهم أن يدعوا شركاءهم هؤلاء إن كانوا صادقين . . ولكن متى يدعونهم ؟

« يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة . وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون » . .

فيقفهم وجها لوجه أمام هذا المشهد كأنه حاضر اللحظة ، وكأنه يتحداهم فيه أن يأتوا

Marfat.com

بشركائهم المزعومين .وهذا اليوم حقيقة حاضرة فى علم الله لاتتقيد فى علمه بزمن. واستحضارها للمخاطبين على هـذا النحو يجعـل وقعها عميقا حيا حاضرا فى النفوس على طريقـة القرآن الـكريم .

والـكشف عن الـساق كناية ـ فى تعبيرات اللغة العربية المأثورة ـ عن الشدة والـكرب . فهو يوم القيامة الذى يشمر فيه عن الساعد ويكشف فيه عن الـساق ،ويشتد الـكرب والضيق .. ويدعى هؤلاء المتـكبرون إلى السجود فلا يملكون السجود.إما لأن وقته قد فات . وإما لأنهم كما وصفهم فى موضع آخر يكونون : « مهطعين مقنعى رؤوسهم » وكأن أجسامهم وأعناقهم مشدودة من الهـول على غير إرادة منهـم ! وعلى أية حال فهو تعبير يشى بالـكرب والعجز والتحدى المخيف . .

ثم يـكمل رسم هيئتهم: « خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة» . . هؤلاء المتـكبرون المتبجحون. والأبصار الخاشعة والذلة المرهقة هما المقابلان لهامات الشامخة والـكبرياء المنفوخة .وهى تذكر بالتهديدالذى جاء فى أول السورة :« سنسمه على الخرطوم » . . فإيحاء الذلة والانـكسارظاهر عميق مقصود !

وبينما هم فى هذا الموقف المرهق الذليل ، يذكرهم بما جرهم إليه من إعراض واستكبار: « وقد كانوا يدعـون إلى السجود وهم سالمون » . . قادرون على السجود . فـكانوا يأبون ويستكبرون . . كانوا . فهم الآن فى ذلك المشهد المرهق الذليل . والدنيا وراءهم . وهم الآن يدعون إلى السجود فلا يستطيعون !

وبينما هم فى هذا الـكرب ، يجيئهم التهديد الرعيب الذى يهد القلوب :

« فذرنى ومن يـكذب بهذا الحديث » . .

وهو تهديد مزلزل .. والجبار القهار القوى المتين يقول للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : خل بينى وبين من يكذب بهذا الحديث . وذرنى لحربه فأنا به كفيل !

ومن هو هذا الذى يكذب بهذا الحديث ؟

إنه ذلك المخلوق الصغير المزيل المسكين الضعيف ! هذه النملة المنمنمة . بل هذه الحباحبة المثورة . . بل هذا العدم الذى لايعنى شيئا أمام جبروت الجبار القهار العظيم !

. فيا محمد . خل بينى وبين هذا المخلوق . واسترح أنت ومن معك من المؤمنين . فالحرب

Marfat.com

معى لاممك ولا مع المؤمنين . الحرب معى . وهذا المخلوق عدوى ، وأنا سأتولى أمره فدعه لى ، وذرنى معه ، واذهب أنت ومن معك فاستريحوا !

أى هول مزلزل للمكذبين ! وأى طمأنينة للنبي والمؤمنين . . المستضعفين . . ؟

ثم يكشف لهم الجبار القهار عن خطة الحرب مع هذا المخلوق الهزيل الصغير الضعيف !

« سنستدرجهم من حيث لايعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين » . .

وإن شأن المكذبين ، وأهل الأرض أجمعين ، لأهون وأصغر من أن يدبر الله لهم هذه التدابير.. ولكنه ـ سبحانه ـ يحذرهم نفسه ليدركوا أنفسهم قبل فوات الأوان . وليعلموا أن الأمان الظاهر الذى يدعه لهم هو الفخ الذى يقعون فيه وهم غارّون . وأن إمهالهم على الظلم والبغى والإعراض والضلال هو استدراج لهم إلى أسوأ مصير . وأنه تدبير من الله ليحملوا أوزارهم كاملة ، ويأتوا إلى الموقف مثقلين بالذنوب ، مستحقين للخزى والرهق والتعذيب . .

وليس أكبر من التحذير ، وكشف الاستدراج والتدبير ، عدلا ولا رحمة .والله سبحانه يقدم لأعدائه وأعداء دينه ورسوله عدله ورحمته فى هذا التحذير وذلك النذير . وهم بعد ذلك وما يختارون لأنفسهم ، فقد كشف القناع ووضحت الأمور !

إنهسبحانه يمهل ولا يهمل.ويملى للظالمحتى إذا أخذه لم يفلته.وهو هنا يكشف عن طريقته وعنسنته التى قدرها بمشيئته . ويقول لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذرنى ومن يكذب بهذا الحديث ، وخل بينى وبين المعتزين بالمال والبنين والجاه والسلطان . فسأملى لهم ، وأجعل هذه النعمة نقمة عليهم ! فيطمئن رسوله ، ويحذر أعداءه . . ثم يدعهم لذلك التهديد الرعيب !

وفى ظل مشهد القيامة المكروب وظل هـذا التهديد المرهوب يكمل الجدل والتحدى والتعجيب من موقفهم الغريب :

« أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ؟ » . .

فثقل الغرامة التى تطلبها منهم أجرا على الهداية هو الذى يدفعهم إلى الإعراض والتكذيب، ويجعلهم يؤثرون ذلك المصير البشع ، على فداحة مايؤدون ؟ !

« أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ » . .

ومن ثم فهم على ثقة مما فى الغيب ، فلا يخيفهم ماينتظرهم فيه ، فقد اطلعوا عليه وكتبوه وعرفوه ؟ أو أنهم هم الذين كتبوا مافيه . فكتبوه ضامنا لما يشتهون ؟

Marfat.com

ولا هذا ولا ذاك : فما لهم يقفون هذا الموقف الغريب المريب ؟ !

* * *

وبذلك التعبير العجيب المرحى الرعيب: « فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث » .. وبالإعلان عن خطة المعركة والكشف عن سنة الحرب بين الله وأعدائه المخدوعين . . بهذا وذلك يخلى الله النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين من المعركة بين الإيمان والكفر . وبين الحق والباطل. فهى معركته ـ سبحانه ـ وهى حربه التى يتولاها بذاته .

والأمر كذلك فى حقيقته . مهما بدا أن للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وللمؤمنين دورا فى هذه الحرب أصيلا . إن دورهم حين ييسره الله لهم هو طرف من قدر الله فى حربه مع أعدائه . فهم أداة يفعل الله بها أو لا يفعل . وهو فى الحالين فعال لما يريد . وهو فى الحالين يتولى المعركة بذاته وفق سنته التى يريد .

وهذا النص نزل والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مكة ، والمؤمنون معه قلة لا تقدر على شىء . فكانت فيه الطمأنينة للمستضعفين ، والفزع للمغترين بالقوة والجاه والمال والبنين . ثم تغيرت الأحوال والأوضاع فى المدينة . وشاء الله أن يكون للرسول ومن معه من المؤمنين دور ظاهر فى المعركة . ولكنه هنالك أكد لهم ذلك القول الذى قاله لهم وهم فى مكة قلة مستضعفون . وقال لهم وهم منتصرون فى بدر : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ، وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا ، إن الله سميع عليم » . .

وذلك ليقر فى قلوبهم هذه الحقيقة حقيقة أن المعركة معركته هو سبحانه . وأن الحرب حربه هو سبحانه . وأن القضية قضيته هو سبحانه . وأنه حين يجعل لهم فيها دورا فإنما ذلك ليبليهم منه بلاء حسنا . وليكتب لهم بهذا البلاء أجرا . أما حقيقة الحرب فهو الذى يتولاها . وأما حقيقة النصر فهو الذى يكتبها .. وهو سبحانه يجريها بهم وبدونهم . وهم حين يخوضونها أداة لقدرته ليست هى الأداة الوحيدة فى يده !

وهى حقيقة واضحة من خلال النصوص القرآنية فى كل موضع ، وفى كل حال ، وفى كل وضع . كما أنها هى الحقيقة التى تتفق مع التصور الإيمانى لقدرة الله وقدره ، ولسنته ومشيئته ، ولحقيقة القدرة البشرية التى تنطلق لتحقيق قدر الله . . أداة . . ولن تزيد على أنه تكون أداة . .

Marfat.com

وهى حقيقة تسكب الطمأنينة فى قلب المؤمن، فى حالتى قوته وضعفه على السواء . مادام يخلص قلبه لله ، ويتوكل فى جهاده على الله . فقوته ليست هى التى تنصره فى معركة الحق والباطل والإيمان والكفر ، إنما هو الله الذى يكفل له النصر . وضعفه لا يهزمه لأن قوة الله من ورائه وهى التى تتولى المعركة وتكفل له النصر . ولكن الله يملى ويستدرج ويقدر الأمور فى مواقيتها وفق مشيئته وحكمته ، ووفق عدله ورحمته .

كما أنها حقيقة تفزع قلب العدو ، سواء كان المؤمن أمامه فى حالة ضعف أم فى حالة قوة . فليس المؤمن هو الذى ينازله . إنما هو الله الذى يتولى المعركة بقوته وجبروته . الله الذى يقول لنبيه « فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث » وخل بينى وبين هذا البائس المتموس ! والله يملى ويستدرج فهو فى الفخ الرعيب الفزع المخيف ، ولو كان فى أوج قوته وعدته . فهذه القوة هى ذاتها الفخ وهذه المدة هى ذاتها المصيدة . . « وأملى لهم إن كيدى متين » ! أما متى يكون . فذلك علم الله المكنون ! فمن يأمن غيب الله ومكره؟ وهل يأمن مكر الله إلا القوم الفاسقون؟

* * *

وأمام هذه الحقيقة يوجه الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الصبر . الصبر على تكاليف الرسالة . والصبر على التواءات النفوس . والصبر على الأذى والتكذيب . الصبر حتى يحكم الله فى الوقت المقدر كما يريد . ويذكره بتجربة أخ له من قبل ضاق صدره بهذه التكاليف ، فلولا أن تداركته نعمة الله لنبذ وهو مذموم :

« فاصبر لحكم ربك، ولا تكن كصاحب الحوت. إذ نادى وهو مكظوم . لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم . فاجتباه ربه فجعله من الصالحين » . .

وصاحب الحوت هو يونس ـ عليه السلام ـ كما جاء فى سورة الصافات . وملخص تجربته التى يذكر الله بها محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتكون له زادا ورصيدا ، وهو خاتم النبيين ، الذى سبقته تجارب النبيين أجمعين فى حقل الرسالة ، ليكون هو صاحب الحصاد الأخير ، وصاحب الرصيد الأخير ، وصاحب الزاد الأخير . فيعينه هذا على عبئه الثقيل الكبير . عبء هداية البشرية جميعها لا قبيلة ولا قرية ولا أمة . وعبء هداية الأجيال جميعها لا جيل واحد ولا قرن واحد كما كانت مهمة الرسل قبله . وعبء إمداد البشرية بعده بكل أجيالها وكل أقوامها بمنهج دائم ثابت صالح لتلبية ما يجد فى حياتها من أحوال وأوضاع وتجارب . وكل يوم يأتى بجديد . .

Marfat.com

ملخص تلك التجربة أن يونس ابن متى ـ سلام الله عليه ـ أرسله الله إلى أهل قرية . قيل اسمها نينوى بالموصل . فاستبطأ إيمانهم ، وشق عليه تلكؤهم ، فتركهم مغاضبا ، قائلا فى نفسه : إن الله لن يضيق علىّ بالبقاء بين هؤلاء المتمنعين المعاندين ، وهو قادر على أن يرسلنى إلى قوم آخرين ! وقد قاده الغضب والضيق إلى شاطئ البحر ، حيث ركب سفينته ، فلما كانوا فى وسط اللج ثقلت السفينة وتعرضت للغرق . فأقرعوا بين الركاب للتخفف من واحد منهم لتخف السفينة . . فكانت القرعة على يونس . فألقوه فى اليم . فابتلعه الحوت .

عندئذ نادى يونس ـ وهو كظيم ـ فى هذا الكرب الشديد فى الظلمات فى بطن الحوت ، وفى وسط اللجة، نادى ربه: « لا إله إلا أنت سبحانك ! إنى كنت من الظالمين » فتداركته نعمة من ربه ، فنبذه الحوت على الشاطىء . . لحما بلا جلد . . ذاب جلده فى بطن الحوت . وحفظ الله حياته بقدرته التى لا يقيدها قيد من مألوف البشر المحدود !

وهنا يقول : إنه لولا هذه النعمة لنبذه الحوت وهو مذموم . أى مذموم من ربه . . على فعلته . وقلة صبره . وتصرفه فى شأن نفسه قبل أن يأذن الله له . ولكن نعمة الله وقته هذا ، وقبل الله تسبيحه واعترافه وندمه . وعلم منه ما يستحق عليه النعمة والاجتباء . « فاجتباه ربه فجعله من الصالحين » . .

هذه هى التجربة التى مر بها صاحب الحوت . يذكر الله بها رسوله محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى موقف المنت والتكذيب . بعد ما أخلاه من المعركة كما هى الحقيقة ، وأمره بتركها له يتولاها كما يريد. وقتما يريد. وكلفه الصبر لحكم الله وقضائه فى تحديد الموعد ،وفى مشقات الطريق حتى يحين الموعد المضروب !

إن مشقة الدعوة الحقيقية هى مشقة الصبر لحكم الله ، حتى يأتى موعده ، فى الوقت الذى يريده بحكمته . وفى الطريق مشقات كثيرة . مشقات التكذيب والتعذيب . ومشقات الالتواء والعناد . ومشقات انتفاش الباطل وانتفاخه . ومشقات افتتان الناس بالباطل المزهو المنتصر فيما تراه العيون. ثم مشقات إمساك النفس على هذا كله راضية مستقرة مطمئنة إلى وعد الله الحق، لا ترتاب ولا تتردد فى قطع الطريق ، مهما تكن مشقات الطريق . . وهو جهد ضخم مرهق يحتاج إلى عزم وصبر ومدد من الله وتوفيق . . أما المعركة ذاتها فقد قضى الله فيها ، وقدر أنه

Marfat.com

هو الذى يتولاها، كما قدر أنه يعلى ويستدرج لحكمة يراها . كذلك وعد نبيه الكريم ، فصدقه الوعد بعد حين .

* * *

وفى الختام يرسم مشهدا للكافرين وهم يتلقون الدعوة من الرسول الكريم ، فى غيظ عنيف ، وحسد عميق ينسكب فى نظرات مسمومة قاتلة يوجهونها إليه ، ويصفها القرآن بمالا مزيد عليه :

« وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر . ويقولون: إنه لمجنون» .

فهذه النظرات تكاد تؤثر فى أقدام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتجعلها تزل وتزلق وتفقد توازنها على الأرض وثباتها ! وهو تعبير فائق عما تحمله هذه النظرات من غيظ وحنق وشر وحسد ونقمة وضغن ، وحمى وسم . . مصحوبة هذه النظرات المسمومة المحمومة بالسب القبيح ، والشتم البذىء ، والافتراء الذميم : « ويقولون : إنه لمجنون » .

وهو مشهد تلتقطه الريشة المبدعة وتسجله من مشاهد الدعوة العامة فى مكة . فهو لايكون إلا فى حلقة عامة بين كبار المعاندين المجرمين ، الذين ينبعث من قلوبهم وفى نظراتهم كل هذا الحقد الذميم المحموم !

يعقب عليه بالقول الفصل الذى ينهى كل قول :

« وماهو إلا ذكر للعالمين » .

والذكر لايقوله مجنون ، ولايحمله مجنون . .

وصدق الله وكذب المفترون . .

* * *

ولابد قبل نهاية الحديث من لفتة إلى كلمة « للعالمين » .. هنا والدعوة فى مكة تقابل بذلك الجحود ، ويقابل رسولها بتلك النظرات المسمومة المحمومة ، ويرصد المشركون لحربها كل مايملكون .. وهى فى هذا الوقت المبكر ، وفى هذا الضيق المستحكم ، تعلن عن عالميتها . كما هى طبيعتها وحقيقتها . فلم تكن هذه الصفة جديدة عليها حين انتصرت فى المدينة ـ كما يدعى المفترون اليوم ـ إنما كانت صفة مبكرة فى أيام مكة الأولى . لأنها حقيقة ثابتة فى صلب هذه الدعوة منذ نشأتها .

كذلك أرادها الله . وكذلك اتجهت منذ أيامها الأولى . وكذلك تتجه إلى آخر الزمان . والله الذى أرادها كما أرادها هو صاحبها وراعيها . وهو المدافع عنها وحاميها . وهو الذى يتولى المعركة مع المكذبين . وليس على أصحابها إلا الصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين . .

Marfat.com

سورة الحاقة مكية
وآياتها ٥٢

بسم الله الرحمن الرحيم

« الْحَاقَّةُ ① مَا الْحَاقَّةُ ؟ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ؟ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً ، فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ؟ * وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً * إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ .

« فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا ، وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ * يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ .

« فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَأُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ .

Marfat.com

« وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ : يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ .

« خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ .

« فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ، قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ * وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ * وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » ۝

هذه سورة هائلة رهيبة ؛ قل أن يتلقاها الحس إلا بهزة عميقة ؛ وهى منذ افتتاحها إلى ختامها تقرع هذا الحس ، وتطالعه بالهول القاصم ، والجد الصارم ، والمشهد تلو المشهد ، كله إيقاع ملح على الحس ، بالهول آنا وبالجلال آنا ، وبالعذاب آنا ، وبالحركة القوية فى كل آن !

والسورة بجملتها تلقى فى الحس بكل قوة وعمق إحساسا واحدا بمعنى واحد . . أن هذا الأمر ، أمر الدين والعقيدة ، جد خالص حازم جازم . جد كله لاهزل فيه . ولامجال فيه للهزل . جد فى الدنيا وجد فى الآخرة ، وجد فى ميزان الله وحسابه . جد لايحتمل التلفت عنه هنا أوهناك كثيرا ولاقليلا . وأى تلفت عنه من أى أحد يستنزل غضب الله الصارم ، وأخذه الحاسم . ولوكان الذى يتلفت عنه هو الرسول . فالأمر أكبر من الرسول وأكبر من البشر . . إنه الحق . حق اليقين . من رب العالمين .

Marfat.com

يبرز هذا المعنى فى اسم القيامة المختار فى هذه السورة ، والذى سميت به السورة : «الحاقة». وهى بلفظها وجرسها ومعناها تلقى فى الحس معنى الجد والصرامة والحق والاستقرار . وإيقاع اللفظ بذاته أشبه شىء برفع الثقل طويلا ، ثم استقراره استقرارا مكينا . رفعه فى مدة الحاء بالألف، وجده فى تشديد القاف بعدها ، واستقراره بالانتهاء بالتاء المربوطة التى تنطق هاء ساكنة .

ويبرز فى مصارع المكذبين بالدين وبالعقيدة وبالآخرة قوما بعد قوم، وجماعة بعد جماعة. مصارعهم العاصفة القاصمة الحاسمة الجازمة : « كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية. سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية ؟ وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة ، فعصوا رسول ربهم ، فأخذهم أخذة رابية . إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية ، لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ».. وهكذا كل من تلفت عن هذا الأمر أخذ أخذة مروعة داهمة قاصمة ، تتناسب مع الجد الصارم الحاسم فى هذا الأمر العظيم الهائل، الذى لا يحتمل هزلا ، ولا يحتمل لعبا ، ولا يحتمل تلفتاً عنه من هنا أو هناك !

ويبرز فى مشهد القيامة للروع، وفى نهاية الكون الرهيبة ، وفى جلال التجلى كذلك وهو أروع وأهول : « فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة، وانشقت السماء فهى يومئذ واهية..والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » . .

ذلك الهول . وهذا الجلال . يخلعان الجد الرائع الجليل على مشهد الحساب عن ذلك الأمر المهول . ويشاركان فى تعميق ذلك المعنى فى الحس مع سائر إيقاعات السورة وإيحاءاتها . هو ومابعده من مقالة الناجين والمعذبين: « فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول: هاؤم اقرأوا كتابيه. إنى ظننت أنى ملاق حسابيه » . . فقد نجا ومايكاد يصدق بالنجاة . . « وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول : ياليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ماحسابيه . ياليتها كانت القاضية . ماأغنى عنى ماليه . هلك عنى سلطانيه » . . بهذا التفجع الطويل ، الذى يطبع فى الحس وقع هـذا المصير . .

ثم يبدو ذلك الجد الصارم والهول القاصم فى النطق العلوى بالقضاء الرهيب الرعيب ، فى اليوم الهائل ، وفى الموقف الجليل : « خذوه . فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعها

Marfat.com

سبعون ذراعا فاسلكوه » . . وكل فقرة كأنها تحمل ثقل السماوات والأرض ، وتنقض فى جلال مذهل، وفى هول مروع ، وفى جد ثقيل ..

ثم ما يعقب كلمة القضاء الجليل ، من بيان لموجبات الحكم الرهيب ونهاية المذنب الرعيبة : « إنه كان لايؤمن بالله العظيم . ولايحض على طعام المسكين . فليس له اليوم هاهنا حميم . ولاطعام إلامن غسلين . لايأكله إلا الخاطئون » ..

ثم يبرز ذلك المعنى فى التلويح بقسم هائل ، وفى تقرير الله لحقيقة الدين الأخير : « فلا أقسم بما تبصرون ومالاتبصرون . إنه لقول رسول كريم . وماهو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون ، ولابقول كاهن ، قليلا ماتذكرون . تنزيل من رب العالمين » .

وأخيرا يبرز الجد فى الإيقاع الأخير. وفى التهديد الجازم والأخذ القاصم لكل من يتلاعب فى هذا الأمر أويبدل . كائنا من كان ، ولو كان هو محمدا الرسول : « ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين » .. فهو الأمر الذى لاتسامح فيه ولاهوادةولا لين ..

وعندئذ تختم السورة بالتقرير الجازم الحاسم والقول الفصل الأخير عن هذا الأمر الخطير : « وإنه لتذكرة للمتقين .وإنا لنعلم أن منكم مكذبين . وإنه لحسرة على الكافرين . وإنه لحق اليقين .. فسبح باسم ربك العظيم » . . وهو الختام الذى يقطع كل قول ، ويلقى بكلمة الفصل ، وينتهى إلى الفراغ من كل لغو، والتسبيح باسم الله العظيم . .

* * *

ذلك المعنى الذى تمحض السورة لإلقائه فى الحس ، يتكفل أسلوبها وإيقاعها ومشاهدها وصورها وظلالها بإلقائه وتقريره وتعميقه بشكل مؤثر حى عجيب :

إن أسلوب السورة يحاصر الحس بالمشاهد الحية ، المتناهية الحيوية ، بحيث لايملك منها فكاكا ، ولايتصور إلا أنهاحية واقعة حاضرة ،تطالعه بحيويتها وقوتها وفاعليتها بصورة عجيبة !

فهذه مصارع ثمود وعاد وفرعون وقرى لوط (المؤتفكات) حاضرة شاخصة ، والهول المروع يجتاح مشاهدها بصورة لافكاك للحس منها . وهذا مشهد الطوفان وبقايا البشرية محمولة فى الجارية مرسوما فى آيتين اثنتين سريعتين . . ومن ذا الذى يقرأ : « وأما عاد فأهلكوا

Marfat.com

ريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما . فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية ؟ » . . ولايتمثل لحسه منظر العاصفة المزمجرة المحطمة المدمرة . سبع ليال وثمانية أيام. ومشهد القوم بعدها صرعى مجدلين « كأنهم أعجاز نخل خاوية ! ». وهو مشهد حى ماثل للعين ، ماثل للقلب ، ماثل للخيال ! وكذلك سائر مشاهد الأخذ الشديد العنيف فى السورة .

ثم هـذه مشاهد النهاية المروعة لهذا الكون . هذه هى تخايل للحس ، وتقرقع حوله ، وتغمره بالرعب والهول والكآبة . ومن ذا الذى يسمع : « وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة » .. ولايسمع حسه القرقعة بعد ماترى عينه الرفعة ثم الدكة !! ومن الذى يسمع : « وانشقت السماء فهى يومئذ واهية . والملك على أرجائها » .. ولايتمثل خاطره هـذه النهاية الحربية . وهذا المشهد المفجع للسماء الجميلة المتينة ؟ ! ثم من الذى لايغمر حسه الجلال والهول وهو يسمع : « والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية » . .

ومشهد الناجى الآخذ كتابه بيمينه والدنيا لاتسعه من الفرحة ، وهو يدعو الخلائق كلها لتقرأ كتابه فى رنة الفرح والغبطة : « هاؤم اقرأوا كتابيه . إنى ظننت أنى ملاق حسابيه » !

ومشهد الهالك الآخذ كتابه بشماله . والحسرة تئن فى كلماته ونبراته وإيقاعاته : « ياليتنى لم أوت كتابيه . ولم أدر ماحسابيه . ياليتها كانت القاضية . ماأغنى عنى ماليه، هلك عنى سلطانيه».

ومن ذا الذى لايرتعش حسه ، وهو يسمع ذلك القضاء الرهيب : « خذوه ، فغلوه ، ثم الجحيم صلوه ، ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه . . . الخ » . . وهو يشهد كيف يتسابق المأمورون إلى تنفيذ الأمر الرهيب الجليل فى ذلك البائس الحسير !

وحاله هنـاك : « فليس له اليوم هاهنا حميم ، ولا طعـام إلا من غسلين . لا يأكله إلا الخاطئون » .

وأخيرا فمن ذا الذى لاتأخذه الرجفة وتلفه الرهبة ، وهو يتمثل فى الخيال صورة التهديد الشديد: « ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين ! » . .

Marfat.com

إنها مشاهد من القوة والحيوية والحضور بحيث لا يملك الحس أن يتلفت عنها طوال السورة، وهى تلح عليه ، وتضغط ، وتتخلل الأعصاب والمشاعر فى تأثير حقيق عنيف !

* * *

ويشارك إيقاع الفاصلة فى السورة ، برنته الخاصة ، وتنوع هذه الرنة ، وفق المشاهد والمواقف فى تحقيق ذلك التأثير الحى العميق .. فمن المد والتشديد والسكت فى مطلع السورة : « الحاقة . ماالحاقة ؟ وماأدراك ماالحاقة ؟ » . . إلى الرنة المدوية فى الياء والهاء الساكنة بعده! . سواء كانت تاء مربوطة يوقف عليها بالسكون ، أو هاء سكت مزيدة لتنسيق الإيقاع ، طوال مشاهد التدمير فى الدنيا والآخرة ، ومشاهد الفرحة والحسرة فى موقف الجزاء . ثم يتغير الإيقاع عند إصدار الحكم إلى رنة رهيبة جليلة مديدة : « خذوه . فغلوه . ثم الجحيم صلوه . . . » . . ثم يتغير مرة أخرى عند تقرير أسباب الحكم ، وتقرير جدية الأمر ، إلى رنة رزينة جادة حاسمة ثقيلة مستقرة على الميم أو النون : « إنه كان لايؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين. فليس له اليوم هاهنا حميم ولا طعام إلا من غسلين » . . « وإنه لحق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم » . .

وهذا التغير فى حرف الفاصلة وفى نوع المد قبلها وفى الإيقاع كله ظاهرة ملحوظة تتبع تغير السياق والمشاهد والجو ،وتتناسق مع الموضوع والصور والظلال تمام التناسق .وتشارك فى إحياء المشاهد وتقوية وقعها على الحس . فى السورة القوية الإيقاع العميقة التأثير.

إنها سورة هائلة رهيبة . قل أن يتلقاها الحس إلا بهزة عميقة . وهى بذاتها أقوى من كل استعراض ومن كل تحليل ، ومن كل تعليق !

* * *

« الحاقة . ما الحاقة ؟ . وما أدراك ما الحاقة ؟ » . .

القيامة ومشاهدها وأحداثها تشغل معظم هذه السورة. ومن ثم تبدأ السورة باسمها ،وتسمى به،وهو اسم مختار بجرسه ومعناه كما أسلفنا. فالحاقة هى التى تحق فتقع .أو تحق فتنزل بحكمها على الناس. أو تحق فيكون فيها الحق . . وكلها معان تقريرية جازمة تناسب اتجاه السورة وموضوعها . ثم هى بجرسها كما بينا من قبل تلقى إيقاعا معينا يساوق هذا المعنى الكامن فيها ، ويشارك فى إطلاق الجو المراد بها ؛ ويمهد لما حق على المكذبين بها . فى الدنيا وفى الآخرة جميعا .

Marfat.com

والجو كله فى السورة جو جد وجزم ، كما أنه جو هول وروع . وهو يوقع فى الحس إلى جانب ماأسلفنا فى التقديم .شعورا بالقدرة الإلهية الكبرى من جهة، وبضآلة الكائن الإنسانى تجاه هذه القدرة من جهة أخرى ؛ وأخذها له أخذا شديدا فى الدنيا والآخرة ، عندما يحيد أو يتلفت عن هذا النهج الذى يريده الله للبشرية ، ممثلا فيما يجىء به الرسل من الحق والعقيدة والشريعة ؛فهو لايجىء ليهمل ،ولا ليبدل ،إنما يجىء ليطاع ويحترم ،ويقابل بالتحرج والتقوى. وإلا فهناك الأخذ والقصم ، وهناك الهول والروع .

والألفاظ فى السورة بجرسها وبمعانيها وباجتماعها فى التركيب ، وبدلالة التركيب كله.. تشترك فى إطلاق هذا الجو وتصويره . فهو يبدأ فيلقيها كلمة مفردة ، لا خبرلها فى ظاهر اللفظ : « الحاقة » . . ثم يتبعها باستفهام حافل بالاستهوال والاستعظام لماهية هذا الحدث العظيم : « ما الحاقة ؟ » . . ثم يزيد هذا الاستهوال والاستعظام بالتجهيل ، وإخراج المسألة عن حدود العلم والإدراك : « وما أدراك ما الحاقة ؟ » .. ثم يسكت فلا يجيب على هذا السؤال . ويدعك واقفا أمام هذا الأمر المستهول المستعظم ، الذى لاتدريه ، ولا يتأتى لك أن تدريه ! لأنه أعظم من أن يحيط به العلم والإدراك !

* * *

ويبدأ الحديث عن المكذبين به ، وما نالهم من الهول ، وما أخذوا به من القصم ، فذلك الأمر جد لا يحتمل التكذيب ، ولا يذهب ناجيا من يصر فيه على التكذيب :

« كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية. سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما .فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية ؟ »

وهذا اسم جديد للحاقة . إنها فوق أنها تحق..فهى تقرع .. والقرع ضرب الشىء الصلب والنقرعليه بشىء مثله . والقارعةتقرع القلوب بالهول والرعب ،وتقرع الكون بالدمار والحطم. وهاهى ذى بجرسها تقعقع وتقرقع،وتقرع وتفزع .. وقد كذبت بها ثمود وعاد. فلننظر كيف كانت عاقبةالتكذيب . .

« فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية » . .

وثمود ـ كما جاء فى مواضع أخرى ـ كانت تسكن الحجر فى شمالى الحجاز بين الحجاز

Marfat.com

والشام . وكان أخذهم بالصيحة كما سماها فى غير موضع . أماهنا فهو يذكر وصف الصيحة دون لفظها . . « بالطاغية » . .لأن هذا الوصف يفيض بالهول المناسب لجو السورة . ولأن إيقاع اللفظ يتفق مع إيقاع الفاصلة فى هـذا المقطع منها . ويكتفى بهذه الآية الواحدة تطوى ثمود طيا ، وتغمرهم غمرا ، وتعصف بهم عصفا ، وتطغى عليهم فلاتبقى لهم ظلا !

وأماعاد فيفصل فى أمر نكبتها ويطيل ، فقد استمرت وقعتها سبع ليال وثمانية أيام حسوما. على حين كانت وقعة ثمود خاطفة .. صيحة واحدة . طاغية.. « وأماعاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية » . والريح الصرصر : الشديدة الباردة . واللفظ ذاته فيه صرصرة الريح . وزاد شدتها بوصفها « عاتية» .. لتناسب عتو عاد وجبروتها المحكى فى القرآن، وقد كانوا يسكنون الأحقاف فى جنوب الجزيرة بين اليمن وحضرموت . وكانوا أشداء بطاشين جبارين .هذه الريح الصرصر العاتية : « سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما » . . والحسوم القاطعة المستمرة فى القطع . والتعبير يرسم مشهد العاصفة المزمجرة المدمرة المستمرة هـذه الفترة الطويلة المحددة بالدقة : « سبع ليال وثمانية أيام » . ثم يعرض المشهد بعدها شاخصا : « فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية» .. فترى.. فالمنظر معروض تراه ، والتعبير يلح به على الحس حتى يتملاه! « صرعى » .. مصروعين مجدلين متناثرين « كأنهم أعجاز نخل » بأصولها وجذوعها «خاوية» فارغة تآكلت أجوافها فارتمت ساقطة على الأرض هامدة ! إنه مشهد حاضر شاخص . مشهد ساكن كئيب بعد العاصفة المزمجرة المدمرة .. « فهل ترى لهم من باقية ؟ » .. لا ! فليس لهم من باقية !!!

ذلك شأن عاد وثمود . . وهو شأن غيرهما من المكذبين . وفى آيتين اثنتين يجمل وقائع شتى :

« وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة . فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابيـة » . .

وفرعون كان فى مصر ـ وهو فرعون موسى ـ ومن قبله لايذكر عنهم تفصيل. والمؤتفكات قرى لوط المدمرة التى انبعت الإفك أوالتى انقلبت ، فاللفظ يعنى هذا وهذا . ويجمل السياق فعال هؤلاء جميعا ، فيقول عنهم إنهم جاءوا « بالخاطئة » أى بالفعلة الخاطئة .. من الخطيئة .. « فعصوا رسول ربهم » . . وهم عصوا رسلا متعددين ؛ ولكن حقيقتهم واحدة ، ورسالتهم

Marfat.com

فى صميمها واحدة . فهم إذن رسول واحد، يمثل حقيقة واحدة ـ وذلك من بدائع الإشارات القرآنية الموحية ـ وفى إجمال يذكر مصيرهم فى تعبير يلقى الهول والحسم حسب جو السورة : « فأخذهم أخذة رابية » . . والرابية العالية الغامرة الطامرة . لتناسب « الطاغية » التى أخذت ثمود « والعاتية » التى أخذت عادا ، وتناسب جو الهول والرعب فى السياق بدون تفصيل ولا تطويل !

ثم يرسم مشهد الطوفان والسفينة الجارية ، مشيرا بهذا المشهد إلى مصرع قوم نوح حين كذبوا . وممتنا على البشر بنجاة أصولهم التى انبثقوا منها ، ثم لم يشكروا ولم يعتبروا بتلك الآية الكبرى :

« إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية ، لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » . .

ومشهد طغيان الماء ومشهد الجارية على الماء الطاغى ، كلاهما يتناسق مع مشاهد السورة وظلالها . وجرس الجارية وواعية يتمشى كذلك مع إيقاع القافية . وهذه اللمسة « لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » تلمس القلوب الخامدة والآذان البليدة ، التى تكذب بعد كل ماسبق من النذر وكل ماسبق من المصائر ، وكل ماسبق من الآيات ، وكل ماسبق من العظات، وكل ماسبق من آلاء الله ونعمه على أصول هؤلاء الغافلين !

* * *

وكل هذه المشاهد المروعة الهائلة القاصمة الحاسمة تبدو ضئيلة صغيرة إلى جانب الهول الأكبر . هول الحاقة والقارعة التى يكذب بها المكذبون ، وقد شهدوا مصارع المكذبين . .

إن الهول فى هذه المصارع ـ على ضخامتها ـ محدود إذا قيس إلى هول القارعة المطلق من الحدود المدخر لذلك اليوم المشهود . وهنا بعد هذا التمهيد يكمل العرض ، ويكشف عن الهول كأنه التكملة المدخرة للمشاهد الأولى :

« فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهى يومئذ واهية . والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » . .

ونحن نؤمن أن هناك نفخة فى الصور وهو البوق تحدث بعدها هذه الأحداث. ولا نزيد

Marfat.com

فى تفصيلها شيئا لأنها غيب ليس عندنا من دلائله إلا مثل هذه النصوص المجملة ؛ وليس لنا مصدر آخر لتفصيل هذا الإجمال . والتفصيل لايزيد فى حكمة النص شيئا ، والجرى وراءه عبث لا طائل تحته ، إلا اتباع الظن المنهى عنه أصلا .

فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ،فتبع هذه النفخة تلك الحركة الهائلة : « وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة» .. ومشهد حمل الأرض والجبال ونفضها ودكها دكة واحدة تسوى عاليها بسافلها .. مشهد مروع حقا . هذه الأرض التى يجوس الإنسان خلالها آمنا مطمئنا ،وهى تحته مستقرة مطمئنة . وهـذه الجبال الراسيـة الوطيدة الراسخة التى تهول الإنسان بروعتهـا واستقرارها .. هذه مع هذه تحمل فتدك كالـكرة فى يد الوليد .. إنه مشهد يشعر معه الإنسان بضآلته وضآلة عالمه إلى جانب هذه القدرة القادرة ، فى ذلك اليوم العظيم . .

فإذا وقع هذا . إذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة .. فهو حينئذ الأمر الذى تتحدث عنه السورة :« فيومئذ وقعت الواقعة » .. والواقعة اسم من أسمائها كالحاقة والقارعة . فهى الواقعة لأنها لابد واقعة. كأن طبيعتها وحقيقتها الدائمة أن تـكون واقعة ! وهو اسم ذو إيحاء معين وهو إيحـاء مقصود فى صـدد الارتياب فيها والتـكذيب !

ولايقتصر الهول على حمل الأرض والجبال ودكها دكة واحدة ، فالسماء فى هـذا اليوم الهائل ليست بناجية :

« وانشقت السماء فهى يومئذ واهية » . .

ونحن لاندرى على وجه التحقيق ما السماء المقصودة بهذا اللفظ فى القرآن . ولـكن هذا النص والنصوص الأخرى التى تشير إلى الأحداث الـكونية فى ذلك اليوم العظيم كلها تشير إلى انفراط عقد هذا الـكون المنظور ، واختلال روابطه وضوابطه التى تمسك به فى هذا النظام البديع الدقيق ، وتناثر أجزائه بعد انفلاتها من قيد الناموس ..

ولعله من المصادفات الغريبة أن يتنبأ الآن علماء الفلك بشىء يشبه هـذا تـكون فيه نهاية العالم،استنباطا من ملاحظتهم العلمية البحتة ، وحسب القليل الذى عرفوه من طبيعة هذا الـكون ، وقصته كما افترضوها . .

فأما نحن فنـكاد نشهد هذه المشاهد المذهلة ، من خلال النصوص القرآنية الجازمة؛ وهى

Marfat.com

نصوص مجملة توحى بشىء عام ؛ ونحن نقف عند إيحاء هذه النصوص ، فهى عندنا الخبر الوحيد المستيقن عن هذا الشأن ، لأنها صادرة من صاحب الشأن ، الذى خلق ، والذى يعلم ماخلق علم اليقين. نكاد نشهد الأرض وهى تحمل بجبالها بكتلتها هذه ، الضخمة بالقياس إلينا ، الصغيرة كالهباءة بالقياس إلى الكون ، فتدك دكة واحدة ؛ ونكاد نشهد السماء وهى مشققة واهية والكواكب وهى متناثرة منكدرة . . كل ذلك من خلال النصوص القرآنية الحية ، المشخصة المشاهد بكامل قوتها كأنها حاضرة .

ثم يغمر الجلال المشهد ويغشيه ، وتسكن الضجة التى تملأ الحس من النفخة والدكة والتشقق والانتثار. يسكن هذا كله ويظهر فى المشهد عرش الواحد القهار :

« والملك على أرجائها ، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » . .

والملائكة على أرجاء هذه السماء المنشقة وأطرافها ، والعرش فوقهم يحمله ثمانية . . ثمانية أملاك أو ثمانية صفوف منهم ، أو ثمانية طبقات من طبقاتهم ، أو ثمانية مما يعلم الله . لاندرى نحن من هم ولاماهم . كما لاندرى نحن ماالعرش ؟ ولا كيف يحمل ؟ ونخلص من كل هذه الغيبيات التى لاعلم لنا بها ، ولم يكلفنا الله من علمها إلا ماقص علينا . نخلص من مفردات هذه الغيبيات إلى الظل الجليل الذى تخلعه على الموقف. وهو المطلوب منا أن تستشعره ضمائرنا. وهو المقصود من ذكر هذه الأحداث ليشعر القلب البشرى بالجلال والرهبة والخشوع، فى ذلك اليوم العظيم، وفى ذلك الموقف الجليل :

« يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية » . .

فالكل مكشوف. مكشوف الجسد، مكشوف النفس، مكشوف الضمير ، مكشوف العمل ، مكشوف المصير . وتسقط جميع الأستار التى كانت تحجب الأسرار ، وتتعرى النفوس تعرى الأجساد ، وتبرز الغيوب بروز الشهود .. ويتجرد الإنسان من حيطته ومن مكره ومن تدبيره ومن شعوره ، ويفتضح منه ما كان حريصا على أن يستره حتى عن نفسه ! وما أقبى الفضيحة على الملأ . وما أخزاها على عيون الجموع ! أما عين الله فكل خافية مكشوفة لها فى كل آن . ولكن لعل الإنسان لايشعر بهذا حق الشعور ، وهو مخدوع بستور الأرض . فهاهو ذا يشعر به كاملا وهو مجرد فى يوم القيامة . وكل شىء بارز فى الكون كله . الأرض مدكوكة مسواة لاتحجب شيئا وراءه تتوه ولا بروز . والسماء متشققة واهية لاتحجب وراءها شيئا ،

Marfat.com

والأجسام معراة لايسترها شيء ، والنفوس كذلك مكشوفة ليس من دونها ستر وليس فيها سر !

ألا إنه لأمر عصيب . أعصب من دك الأرض والجبال ، وأشد من تشقق السماء ! وقوف الإنسان عريان الجسد ، عريان النفس ، عريان المشاعر ، عريان التاريخ ، عريان العمل ماظهر منه وما استتر . أمام تلك الحشود الهائلة من خلق الله ، من الإنس والجن والملائكة ، وتحت جلال الله وعرشه المرفوع فوق الجميع .

وإن طبيعة الإنسان لمعقدة شديدة التعقيد ؛ فى نفسه منحنيات شتى ودروب ، تتخفى فيها نفسه وتتدسس بمشاعرها ونزواتها وهفواتها وخواطرها وأسرارها وخصوصياتها . وإن الإنسان ليصنع أشد مما تصنعه القوقعة الرخوة الهلامية حين تتعرض لوخزة إبرة ، فتنطوى سريعا ، وتنكمش داخل القوقعة ، وتغلق على نفسها تماما . إن الإنسان ليصنع أشد من هذا حين يحس أن عينا تدسست عليه فكشفت منه شيئا مما يخفيه ، وأن لمحة أصابت منه دربا خفيا أو منحنى سريا ! ويشعر بقدر عنيف من الألم الواخز حين يطلع عليه أحد فى خلوة من خلواته الشعورية . .

فكيف بهذا المخلوق وهو عريان . عريان حقا . عريان الجسد والقلب والشعور والنية والضمير . عريان من كل ساتر . عريان . . . كيف به وهو كذلك تحت عرش الجبار، وأمام الحشد الزاخر بلا ستار ؟ !

ألا أنه لأمر . أمرٌ من كل أمر ! ! !

* * *

وبعدئذ يعرض مشهد الناجين والمعذبين ، كأنه حاضر تراه العيون .

« فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول : هاؤم اقرأوا كتابيه ، إنى ظننت أنى ملاق حسابيه .. فهو فى عيشة راضية . فى جنة عالية. قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية » .

وأخذ الكتاب باليمين وبالشمال ومن وراء الظهر قد يكون حقيقة مادية، وقد يكون تمثيلا لغويا جاريا على اصطلاحات اللغة العربية من تعبيرهم عن وجهة الخير باليمين ووجهة الشر بالشمال

Marfat.com

أو من وراء الظهر . . وسواء كان هذا أو ذاك فالمدلول واحد ، وهو لايستدعى جدلا يضيع فيه جلال الموقف !

والمشهد المعروض هو مشهد الناجى فى ذلك اليوم العصيب ، وهو ينطلق فى فرحة غامرة ، بين الجموع الجاشدة ، تملأ الفرحة جوانحه ، وتغلبه على لسانه ، فيهتف : « هاؤم اقرأوا كتابيه » . . ثم يذكر فى بهجة أنه لم يكن يصدق أنه ناج ، بل كان يتوقع أن يناقش الحساب . . « ومن نوقش الحساب عذب » كما جاء فى الأثر : عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من نوقش الحساب عذب » فقلت : أليس يقول الله تعالى : « فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب إلى أهله مسرورا » فقال : « إنما ذلك العرض وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك (١) » .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا بشر ابن مطر الواسطى ، حدثنا يزيد ابن هارون ، أخبرنا عاصم ، عن الأحول ، عن أبى عثمان ، قال : المؤمن يعطى كتابه بيمينه فى ستر من الله ، فيقرأ سيئاته ، فكلما قرأ سيئة تغير لونه ، حتى يمر بحسناته فيقرؤها فيرجع إليه لونه ، ثم ينظر فإذا سيئاته قد بدلت حسنات . قال : فعند ذلك يقول : « هاؤم اقرأوا كتابيه » .

وروى عن عبد الله ابن حنظلة ـ غسيل الملائكة (٢) ـ قال : إن الله يوقف عبده يوم القيامة فيبدى ـ أى يظهر ـ سيئاته فى ظهر صحيفته ، فيقول له : أنت عملت هذا ؟ فيقول : نعم أى رب ! فيقول له : إنى لم أفضحك به ، وإنى قد غفرت لك . فيقول عند ذلك : « هاؤم اقرأوا كتابيه . إنى ظننت أنى ملاق حسابيه » .

وفى الصحيح من حديث ابن عمر حين سئل عن النجوى ، فقال : « سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « يدنى الله العبد يوم القيامة ، فيقرره بذنوبه كلها ، حتى إذا رأى أنه قد هلك قال الله تعالى : إنى سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم . ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه . وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين » ..

---

(١) أخرجه الشيخان والترمذى وابو داود .

(٢) استشهد حنظلة ابن أبى عامر فى غزوة أحد فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . « إن صاحبكم ـ يعنى حنظلة ـ لتغسله الملائكة » . فسألوا أهله: ماشأنه ؟ فسئلت صاحبته عنه ، فقالت : خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة (من رواية ابن إسحاق) .

Marfat.com

ثم يعلن على رؤوس الأشهاد ما أعد لهذا الناجى من النعيم ، الذى تبدو فيه هنا ألوان من النعيم الحسى ،تناسب حال المخاطبين إذ ذاك ، وهم حديثو عهد بجاهلية ، ولم يسر من آمن منهم شوطا طـويلا فى الإيمان ، ينطبع به حسه ، ويعـرف به من النعيم ماهو أرق وأعلى من كل متاع :

« فهو فى عيشة راضية . فى جنة عالية . قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية » . .

وهذا اللون من النعيم ،مع هذا اللون من التـكريم فى الالتفات إلى أهله بالخطاب وقوله : « كلوا واشربوا هنيئا بمـا أسلفتم فى الأيام الخالية » .. فوق أنه اللون الذى تبلغ إليه مدارك المخاطبين بالقرآن فى أول العهد بالصلة بالله ، قبل أن تسمو المشاعر فترى فى القرب من الله ماهو أعجب من كل متاع .. فوق هذا فإنه يلبى حاجات نفوس كثيرة على مدى الزمان. والنعيم ألوان غير هذا وألوان . .

« وأما من أوتى كتابه بشماله » وعرف أنه مؤاخذ بسيئاته ، وأن إلى العذاب مصيره ، فيقف فى هذا المعرض الحافل الحاشد ، وقفة المتحسر الـكسير الـكئيب . . « فيقول : ياليتنى لم أوت كتابيـه ! ولم أدر ماحسابيه ! ياليتهـا كانت القاضية ! ما أغنى عنى ماليه ! هلك عنى سلطانيه ! » . .

وهى وقفة طويلة ، وحسرة مديدة ، ونغمة يائسة ، ولهجة بائسة . والسياق يطيل عرض هذه الوقفة حتى ليخيل إلى السامع أنها لاتنتهى إلى نهاية، وأن هذا التفجع والتحسر سيمضى بلا غاية ! وذلك من عجائب العرض القرآنى فى إطالة بعض المواقف ، وتقصير بعضها ، وفق الإيحاء النفسى الذى يريد أن يتركه فى النفوس. وهنا يراد طبع موقف الحسرة وإيحاء الفجيعة من وراء هذا المشهد الحسير. ومن ثم يطول ويطول ، فى تنغيم وتفصيل. ويتمنى ذلك البائس أنه لم يأت هذا الموقف ، ولم يؤت كتابه ، ولم يدر ماحسابه ؛ كما يتمنى أن لو كانت هذه القارعة هى القاضية ، التى تنهى وجوده أصلا فلا يعود بعدها شيئا . . ثم يتحسر أن لاشىء نافعه مما كان يعتز به أو يجمعه : « ماأغنى عنى ماليه » . . « هلك عنى سلطانيه » . . فلا المال أغنى أو نفع . ولا السلطان بقى أو دفع . . والرنة الحزينة الحسيرة المديدة فى طرف الفاصلة الساكنة

Marfat.com

وفى ياء العلة قبلها بعد المد بالألف ، فى تحزن وتحسر . . هى جزء من ظلال الموقف الموحية بالحسرة والأسى إيحاء عميقا بليغا [1] . .

ولا يقطع هذه الرنة الحزينة المديدة إلا الأمر العلوى الجازم ، بجلاله وهوله وروعته :

« خذوه . فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » . .

ياللهول الهائل ! ويا للرعب القاتل ! ويا للجلال الماثل !

« خذوه » . .

كلمة تصدر من العلى الأعلى. فيتحرك الوجود كله على هذا المسكين الصغير الهزيل . ويبتدره المكلفون بالأمر من كل جانب، كما يقول ابن أبى حاتم بإسناده عن المنهال ابن عمرو : « إذا قال الله تعالى : خذوه ابتدره سبعون ألف ملك . إن الملك منهم ليقول هكذا فيلقى سبعين ألفا فى النار » . . كلهم يبتدر هذه الحشرة الصغيرة المكروبة المذهولة !

« فغلوه » . .

فأى السبعين ألفا بلغه جعل الغل فى عنقه ؟ !

« ثم الجحيم صلوه » . .

ونكاد نسمع كيف تشويه النار وتصليه . .

« ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » . .

وذراع واحدة من سلاسل النار تكفيه ! ولكن إيحاء التطويل والتهويل ينضح من وراء لفظ السبعين وصورتها . ولعل هذا الإيحاء هو المقصود ! [2] .

فإذا انتهى الأمر ، نشرت أسبابه على الحشود :

« إنه كان لايؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين » . .

إنه قد خلا قلبه من الإيمان بالله ، والرحمة بالعباد . فلم يعد هذا القلب يصلح إلا لهذه النار وذلك العذاب .

خلا قلبه من الإيمان بالله فهو موات ، وهو خرب ، وهو بور. وهو خلو من النور . وهو

---

(١) يراجع فصل: التناسق الفنى. فى كتابه: التصوير الفنى فى القرآن. كما تراجع سورة الحاقة فى كتاب: مشاهد القيامة فى القرآن .

(٢) مشاهد القيامة : سورة الحاقة .

Marfat.com

مسخ من الكائنات لايساوى الحيوان بل لايساوى الجماد . فكل شيء مؤمن ، يسبح بحمد ربه ، موصول بمصدر وجوده . أما هو فمقطوع من الله . مقطوع من الوجود المؤمن بالله .

وخلا قلبه من الرحمة بالعباد. والمسكين هوأحوج العباد إلى الرحمة. ولكن هذالم يستشعر قلبه مايدعو إلىالاحتفال بأمر المسكين .ولم يحض على طعامه وهى خطوة وراء إطعامه. توحى بأن هناك واجبا اجتماعيا يتحاض عليه المؤمنون . وهو وثيق الصلة بالإيمان .يليه فى النص ويليه فى الميزان !

« فليس له اليوم هاهنا حميم . ولا طعام إلا من غسلين . لايأكله إلا الخاطئون » . .

وهى تكملة الإعلان العلوى عن مصير ذلك الشقى . فلقد كان لايؤمن بالله العظيم ،وكان لايحض على طعام المسكين . فهو هنا مقطوع « فليس له اليوم هاهنا حميم » . . وهو ممنوع : «ولا طعام إلا من غسلين » .. والغسلين هو غسالة أهل جهنم من قيح وصديد !وهويناسب قلبه النكد الخاوى من الرحمة بالعبيد! طعام « لايأكله إلا الخاطئون » .. المذنبون المتصفون بالخطيئة . . وهو منهم فى الصميم !

وبعد، فذلك هوالذى يجعله الله مستحقا للأخذ والغلوالتصلية والسلسلة التىذرعها سبعون ذراعا فى الجحيم .وهو أشد دركات جهنم عذابا .. فكيف بمن يمنع طعام المسكين ومن يجيع الأطفال والنساء والشيوخ ، ومن يبطش بطشة الجبارين بمن يمد إليهم يده باللقمة والكساء فى برد الشتاء ؟ أين ترى يذهب هؤلاء ، وهم يوجدون فىالأرض بين الحينوالحين ؟ وما الذى أعده الله لهم وقد أعد لمن لايحض على طعام المسكين ، ذلك العذاب فى الجحيم ؟

وينتهى هذا المشهد العنيف المثير . الذى لعله جاء فى هذه الصورة المفزعة لأن البيئة كانت جبارة قاسية عنيدة تحتاجإلى عرض هذه المشاهد العنيفة كىتؤثر فيها وتهزها وتستحيها .ومثل هذه البيئة يتكرر فى الجاهليات التى تمر بها البشرية ، كما أنه يوجد فى الوقت الواحد مع أرق البيئات وأشدها تأثرا واستجابة . لأن رقعة الأرض واسعة . وتوزيع المستويات والنفسيات فيها مختلف . والقرآن يخاطب كل مستوى وكل نفس بما يؤثر فيها ، وبما تستجيب له حين يدعوها .والأرض تحتوى اليوم فى بعض نواحيها قلوبا أقسى ،وطبائع أجسى، وجبلات لايؤثر فيها إلا كلمات من نار وشواظ كهذه الكلمات . ومشاهد وصور مثيرة كهذه المشاهد والصور المثيرة . .

* * *

Marfat.com

وفى ظل هذه المشاهد العنيفة المثيرة ، المتوالية منذ أول السورة ، مشاهد الأخذ فى الدنيا والآخرة ، ومشاهد التدمير الكونية الشاملة ، ومشاهد النفوس المكشوفة العارية ، ومشاهد الفرحة الطائرة والحسرة الغامرة ..

فى ظل هذه المشاهد العميقة الأثر فى المشاعر يجىء التقرير الحاسم الجازم عن حقيقة هذا القول الذى جاءهم به الرسول الكريم ، فتلقوه بالشك والسخرية والتكذيب :

« فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون . إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر ، قليلا ماتؤمنون. ولا بقول كاهن ، قليلا ماتذكرون . تنزيل من رب العالمين » ..

إن الأمر لايحتاج إلى قسم وهو واضح هـذا الوضوح ، ثابت هذا الثبوت ، واقع هـذا الوقوع . لايحتاج إلى قسم أنه حق ، صادر عن الحق ، وليس شعر شاعر ، ولا كهانة كاهن، ولا افتراء مفتر ! لا . فما هو بحاجة إلى توكيد بيمين :

« فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون » ..

بهذه الفخامة وبهـذه الضخامة ، وبهـذا التهويل بالغيب المكنون ، إلى جانب الحاضر المشهود . . والوجود أضخم بكثير مما يرى البشر . بل مما يدركون . وما يبصر البشر من الكون وما يدركون إلا أطرافا قليلة محصورة ، تلبى حاجتهم إلى عمارة هذه الأرض والخلافة فيها ـ كما شاءالله لهم ـ والأرض كلها ليست سوى هباءة لاتكاد ترى أو تحس فى ذلك الكون الكبير . والبشر لايملكون أن يتجاوزوا ماهو مأذون لهم برؤيته وبإدراكه من هذا الملك العريض ، ومن شؤونه وأسراره ونواميسه التى أودعها إياه خالق الوجود . .

« فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون » . .

ومثل هذه الإشارة تفتح القلب وتنبه الوعى إلى أن هناك وراء مد البصر ووراء حدود الإدراك جوانب وعوالم وأسرارا أخـرى لايبصرها ولا يدركها . وتوسع بذلك آفاق التصور الإنسانى للكون والحقيقة . فلا يعيش الإنسان سجين ماتراه عيناه ، ولا أسير ما يدركه وعيه المحدود . فالكون أرحب والحقيقة أكبر من ذلك الجهاز الإنسانى المزود بقـدر محدود من الطاقة يناسب وظيفته فى هذا الكون. ووظيفته فى الحياة الدنيا هى الخلافة فى هذه الأرض . ولكنه يملك أن يكبر ويرتفع إلى آماد وآفاق أكبر وأرفع حين يستيقن أن عينه ومداركه محدودة، وأن هناك وراء ماتدركه عينه ووعيه عوالم وحقائق أكبر ـ بما لايقاس ـ مما وصل

Marfat.com

إليه . . عندئذ يتسامى على ذاته ويرتفع على نفسه ، ويتصل بينابيع المعرفة الكلية التي تفيض على قلبه بالعلم والنور والاتصال المباشر بما وراء الستور !

إن الذين يحصرون أنفسهم في حدود ماترى العين ، ويدرك الوعي ، بأدواته الميسرة له .. مساكين ! سجناء حسهم وإدراكهم المحدود . محصورون في عالم ضيق على سعته ، صغير حين يقاس إلى ذلك الملك الكبير . .

وفي فترات مختلفة من تاريخ هذه البشرية كان كثيرون أوقليلون يسجنون أنفسهم بأيديهم في سجن الحس المحدود ، والحاضر المشهود ؛ويغلقون على أنفسهم نوافذ المعرفة والنور ،والاتصال بالحق الكبير ،عن طريق الإيمان والشعور . ويحاولون أن يغلقوا هذه النوافذ على الناس بعد ماأغلقوها على أنفسهم بأيديهم .. تارة باسم الجاهلية .وتارة باسم العلمانية !وهذه كتلك سجن كبير . وبؤس مرير . وانقطاع عن ينابيع المعرفة والنور !

والعلم يتخلص في هذا القرن الأخير من تلك القضبان الحديدية التي صاغها ـ بحمق وغرور ـ حول نفسه في القرنين الماضيين . . يتخلص من تلك القضبان ، ويتصل بالنور ـ عن طريق تجاربه ذاتها ـ بعد ماأفاق من سكرة الغرور والاندفاع من أسر الكنيسة الطاغية في أوربا (١)؛ وعرف حدوده ، وجرب أن أدواته المحدودة تقوده إلى غير المحدود في هذا الكون وفي حقيقته المكنونة. وعاد « العلم يدعو إلى الإيمان »(٢) في تواضع تبشر أوائله بالفرج ! أي نعم بالفرج . فما يسجن الإنسان نفسه وراء قضبان المادة الموهومة إلا وقد قدر عليه الضيق !

ولقد رأينا عالما مثل ألكسيس كاريل الطبيب المتخصص في بحوث الخلية ونقل الدم والمشتغل بالطب علما وجراحة وإشرافا على معاهد العلاج والنظريات العلاجية ، وصاحب جائزة نوبل سنة ١٩١٢ ومدير معهد الدراسات الإنسانية بفرنسا خلال الحرب العالمية الثانية يرى :

« أن الكون على رحبه مملوء بعقول فعالة غير عقولنا ، وأن العقل الإنساني هاد قاصد بين دروب التيه التي حوله إذا كان معوله كله على هدايته . وأن الصلاة من وسائل الاتصال بالعقول التي حولنا ، وبالعقل الأبدي المسيطر على مقادير الأكوان قاطبة ، فيما هو ظاهر لنا وما هو محتجب عنا في طي الخفاء» (٣).

---

(١) يراجع بتوسع كتاب: الإنسان بين المادية والإسلام لمحمد قطب .. فصل نظرة المسيحية وفصل فرويد.
(٢) عنوان ترجمة كتاب ا . كريسي موريسون رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك لمحمود صالح الفلكي .
(٣) عن كتاب : عقائد المفكرين في القرن العشرين للعقاد .

Marfat.com

«وأن الشعور بالقداسة مع غيره من قوى النشاط الروحانى له شأن خاص فى الحياة ، لأنه يقيمنا على اتصال بآفاق الخفاء الهائل من عالم الروح » . . [1] .

ورأينا طبيبا آخر مثل « دى نوى » الذى اشتغل بمباحث التشريح والعلم الطبيعى ،وعمل مع الأستاذ كورى وقرينته ، واستدعاه معهد روكفلر لمواصلة بحث مع أعضائه فى خصائص وعلاج الجراح . . يقول :

« كثير من الأذكياء وذوى النية الحسنة يتخيلون أنهم لا يستطيعون الإيمان بالله لأنهم لايستطيعون أن يدركوه . على أن الإنسان الأمين الذى تنطوى نفسه على الشوق العلمى لايلزمه أن يتصور الله إلا كما يلزم العالم الطبيعى أن يتصور الكهرب . فإن التصور فى كلتا الحالتين ناقص وباطل . وليس الكهرب قابلا للتصور فى كيانه المادى ! وإنه مع هذا لأثبت فى آثاره من قطعة الخشب » .. [1] .

ورأينا عالما طبيعيا ، هو سير أرثر طومسون المؤلف الاسكتلندى الشهير يقول : « إننا فى زمن شفت فيه الأرض الصلبة ، وفقد فيه الأثير كيانه المادى ، فهو أقل الأزمنة صلاحاً للغلو فى التأويلات المادية » .

ويقول فى مجموعة « العلم والدين »:

«ليس للعقل المتدين أن يأسف اليوم لأن العالم الطبيعى لايخلص من الطبيعة إلى رب الطبيعة. إذ ليست هذه وجهته . وقد تكون النتيجة أكبر جدا من المقدمة إذا خرج العلماء بالاستنتاج من الطبيعة إلى مافوق الطبيعة . إلا أننا خلقاء أن نغتبط لأن العلماء الطبيعيين قد يسروا للنزعة الدينية أن تتنفس فى جو العلم ، حيث لم يكن ذلك يسيرا فى أيام آبائنا وأجدادنا . . . فإذا لم يكن عمل الطبيعيين أن يبحثوا فى الله ــ كما زعم مستر لانجدون دافيز خطأ فى كتابه البديع عن الإنسان وعالمه ــ فنحن نقرر عن روية أن أعظم خدمة قام بها العلم ، أنه قاد الإنسان إلى فكرة عن الله أنبل وأسمى ، ولا نجاوز المعنى الحرفى حين نقول : إن العلم أنشأ للإنسان سماء جديدة وأرضا جديدة ، وحفزه من ثم إلى غاية جهده العقلى ، فإذا به ، فى كثير من الأحيان ، لايجد السلام إلا حيث يتخطى مدى الفهم ، وذلك فى اليقين والاطمئنان إلى الله » [1] .

---

(١) عقائد المفكرين فى القرن العشرين .

Marfat.com

ورأينا عالما مثل « ا . كريسى موريسون» رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك وعضو المجلس التنفيذى لمجلس البحوث القومى بالولايات المتحدة سابقا يقول فى كتابه : « الإنسان لايقوم وحده [1] » :

«إننا نقترب فعلا من عالم المجهول الشاسع ، إذ ندرك أن المادة كلها قد أصبحت من الوجهة العلمية مجرد مظهر لوحدة عالمية هى فى جوهرها كهربائية . ولكن مما لاريب فيه أن المصادفة لم يكن لها دخل فى تكوين الكون ، لأن هذا العالم العظيم خاضع للقانون .

« إن ارتقاء الإنسانى الحيوانى إلى درجة كائن مفكر شاعر بوجوده ، هو خطوة أعظم من أن تتم عن طريق التطور المادى ، ودون قصد ابتداعى .

« وإذا قبلت واقعية القصد ، فإن الإنسان بوصفه هذا قد يكون جهازا . ولكن ماالذى يدير هذا الجهاز ؟ لأنه بدون أن يدار لافائدة منه . والعلم لايعلل من يتولى إدارته ، وكذلك لايزعم أنه مادى .

« لقد بلغنا من التقدم درجة تكفى لأن نوقن بأن الله قد منح الإنسان قبسا من نوره . . . » .

وهكذا بدأ العلم يخرج من سجن المادية وجدرانها بوسائله الذاتية ، فيتصل بالجو الطليق الذى يشير القرآن إليه بمثل تلك الآية الكريمة : « فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون » . ونظائره المتعددة. وإن يكن بيننا نحن من أقزام التفكير والشعور من لايزال يغلق بكلتا يديه نوافذ النور على نفسه وعلى من حوله باسم العلم ! فى تخلف عقلى عن العلم . وفى تخلف روحى عن الدين . وفى تخلف شعورى عن الحرية الطليقة فى معرفة الحقيقة ! وفى تخلف إنسانى عما يليق بالكائن الإنسانى الكريم !

فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون . . « إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين » . .

ولقد كان مما تقوّل به المشركون على القرآن وعلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قولهم : إنه شاعر . وإنه كاهن . متأثرين فى هذا بشبهة سطحية، منشؤها أن هذا القول فائق فى طبيعته على كلام البشر . وأن الشاعر فى وهمهم له رئى من الجن يأتيه بالقول الفائق ، وأن الكاهن

---

(١) المترجم بعنوان : العلم يدعو إلى الإيمان .

Marfat.com

كذلك متصل بالجن . فهم الذين يعدونه بعلم ماوراء الواقع ! وهى شبهة تسقط عند أقل تدبر لطبيعة القرآن والرسالة . وطبيعة الشعر أو الكهانة . .

فالشعر قد يكون موسيقى الإيقاع ، رائع الأخيلة . جميل الصور والظلال ؛ ولكنه لايختلط أبدا ولا يشتبه بهذا القرآن إن هنالك فارقا أساسيا فاصلا بينهما . إن هذا القرآن يقرر منهجا متكاملا للحياة يقوم على حق ثابت ، ونظرة موحدة ؛ ويصدر عن تصور للوجود الإلهى ثابت ، وللكون والحياة كذلك .والشعر انفعالات متوالية وعواطف جياشة ،قلما تثبت على نظرة واحدة للحياة فى حالات الرضى والغضب ، والانطلاق والانكماش ،والحب والكره، والتأثرات المتغيرة على كل حال !

هذا إلى أن التصور الثابت الذى جاء به القرآن قد أنشأه القرآن إنشاء من الأساس ، فى كلياته وجزئياته ، مع تعين مصدره الإلهى. فكل مافى هذا التصور يوحى بأنه ليس من عمل البشر ، فليس من طبيعة البشر أن ينشئوا تصورا كونيا كاملا كهذا التصور . . لم يسبق لهم هذا ولم يلحق . . وهذا كل ما أبدعته قرائح البشر من تصورات للكون وللقوة المنشئة له المدبرة لنظامه . . هذا هو معروضا مسجلا فى الفلسفة وفى الشعر وفى غيرها من المذاهب الفكرية ؛ فإذا قرن إلى التصور القرآنى وضح أن هذا التصور صادر من جهة غير تلك الجهة ! وأنه متفرد بطابع معين يميزه من كل تصورات البشر.

كذلك الأمر فى الكهانة وما يصدر عنها . فلم يعرف التاريخ من قبل أو بعد كاهنا أنشأ منهجا متكاملا ثابتا كالمنهج الذى جاء به القرآن . وكل مانقل عن الكهنة أسجاع لفظية أو حكمة مفردة ، أو إشارة ملغزة !

وهناك لفتات ليس من طبيعة البشر أن يلتفتوها ، وقد وقفنا عند بعضها فى هذه الظلال أحيانا. فلم يسبق لبشر ولم يلحق كذلك أن أراد التعبير عن العلم الشامل الدقيق اللطيف ،فاتجه إلى مثل هذه الصورة التى جاءت فى القرآن :

« وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ، ويعلم مافى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين [1] » . . أو إلى مثل هذه الصورة : « يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج

(١) سورة الأنعام : آية ٥٩ .

Marfat.com

فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير [1] » أو إلى مثل هذه الصورة : « وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه . وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب . إن ذلك على الله يسير [2] »

كذلك لم يسبق لبشر ولم يلحق أن التفت مثل هذه اللفتة إلى القدرة التى تمسك هذا الكون وتدبره : « إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا . ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده [3] . . » أو هذه اللفتة إلى انبثاقات الحياة فى الكون من يد القدرة المبدعة وما يحيط بالحياة من موافقات كونية مدبرة مقدرة :

« إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى . ذلكم الله . فأنى تؤفكون . فالق الإصباح . وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ، ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضرا ، نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » [4] . .

وهذه اللفتات الكونية كثيرة فى القرآن كثرة ملحوظة ، ولا نظير لها فيما تتجه إليه خواطر البشر للتعبير عن مثل المعانى التى يعبر عنها القرآن . . وهذه وحدها كافية لمعرفة مصدر هذا الكتاب . . بغض النظر عن كل دلالة أخرى من صلب الكتاب أو من الملابسات المصاحبة له على السواء .

فالشبهة واهية سطحية . حتى حين كان القرآن لم يكتمل ، ولم تنزل منه إلا سور وآيات عليها ذلك الطابع الإلهى الخاص ، وفيها ذلك القبس الموحى بمصدرها الفريد.

وكبراء قريش كانوا يراجعون أنفسهم ، ويردون على هذه الشبهة بين الحين والحين . ولكن

---

(١) سورة الحديد : آية ٤
(٢) سورة فاطر : آية ١١
(٣) سورة فاطر : آية ٤١
(٤) سورة الأنعام : آية ٩٥ ـ ٩٩

Marfat.com

الغرض يعمى ويصم .وإذ لم يهتدوا به فسيقولون: هذا إفك قديم . كما يقول القرآن الكريم !

وقد حكت كتب السيرة مواقف متعددة لزعماء قريش ،وهم يراجعون هذه الشبهة وينفونها فيما بينهم .

من ذلك مارواه ابن إسحاق عن الوليد ابن المغيرة ، وعن النضر ابن الحارث ، وعن عتبة ابن ربيعة وقد جاء فى روايتهعن الأول:

«ثم إن الوليد ابن المغيرة اجتمع إليهنفر منقريش .وكان ذا سن فيهم ،وقد حضر الموسم. فقال لهم : يامعشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ؛ فأجمعوا فيه رأيا واحدا ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ، ويرد قولكم بعضه بعضا، فقالوا : فأنت ياأبا عبد شمس فقل ، وأقم لنا رأيا نقل به . قال : بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : نقول : كاهن . قال : لاوالله ، ماهو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول : مجنون . قال : ماهو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هوبخنقه ولاتخالجه ولاوسوسته. قالوا:فنقول: شاعر. قال: ماهو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فماهو بالشعر. قالوا : فنقول: ساحر . قال : ماهو بساحر ؛ لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم . . قالوا : فما نقول ياأبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لمذق ، وإن فرعه لجناة (١) وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته . فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس ـ حين قدموا الموسم ـ لايمر بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا لهم أمره . . . »

وحكى عن الثانى (النضر ابن الحارث) قال :

« فقال يامعشر قريش . إنه والله قد نزل بكم أمر ماأتيتم له بحيلة بعد . قد كان محمد فيكم غلاما حدثا ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ساحر الا والله ، ماهو بساحر . لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم . وقلتم كاهن ! لا والله ماهو بكاهن . قد رأينا الكهنة وتخالجهم ، وسمعنا سجعهم .

(١) المذق : الكثير الشعب والأطراف . والجناة : مافيه ثمر يجنى .

Marfat.com

وقلتم : شاعر ! لا والله ماهو بشاعر . قد رأينا الشعر ، وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه . وقلتم : مجنون ! لقد رأينا الجنون فماهو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه. يامعشر قريش، فانظروا فى شأنكم : فإنه والله قد نزل بكم أمر عظيم . . . » .

والمطابقة تكاد تكون تامة ـ بين قوله وقول عتبة . وقد يكون هو حادثا واحدا نسب مرة إلى هذا ومرة إلى ذاك . ولكن لانستبعد كذلك أن يتطابق قولان لرجلين من كبار قريش فى موقفين متشابهين من مواقف حيرتهم تجاه هذا القرآن !

وإما موقف عتبة فقد سبقت حكايته فى استعراضنا لسورة القلم فى هذا الجزء .. وهو قريب من موقف الوليد والنضر تجاه محمد وتجاه القول الذى جاء به . .

فما كان قولهم : ساحر أو كاهن . إلا حيلة ماكرة أحيانا وشبهة مفضوحة أحيانا . والأمر أوضح من أن يلتبس عند أول تدبر وأول تفكير . وهو من ثم لايحتاج إلى قسم بما يعلمون وما لايعلمون : إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر . ولا بقول كاهن . . إنما هو تنزيل من رب العالمين .

وتقرير أنه قول رسول كريم لايعنى أنه من إنشائه . ولكن المراد هنا أنه قول من نوع آخر . لايقوله شاعر . ولا يقوله كاهن . إنما يقوله رسول . يرسل به من عند الله . فيحمله من هناك . من ذلك المصدر الذى أرسله . والذى يعين هذا المعنى هو كلمة رسول . أى مرسل به من عند ربه ،وليس شاعرا ولا كاهنا بقوله من عند نفسه . أو بمساعدة رئى أو شيطان .. إنما هو رسول يقول مايحمله عمن أرسله . ويقرر هذا تقريرا حاسما ماجاء بعده : « تنزيل من رب العالمين » ..

والتعقيب : « قليلا ماتؤمنون » . . « قليلا ماتذكرون » . . مدلوله نفى الإيمان ، ونفى التذكر. وفق تعبيرات اللغة المألوفة . وفى الحديث فى وصف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إنه كان يقل اللغو » . أى لايلغو أصلا .. فقد نفى عنهم أصل الإيمان وأصل التذكر .وإلافمه يقول مؤمن عن الرسول : إنه شاعر ، ولا يقول متذكر متدبر : إنه كاهن . إنما هما الكفر والغفلة ينضحان بهذا القول النكير !

* * *

وفى النهاية يجىء ذلك التهديد الرعيب ، لمن يفترى على الله فى شأن العقيدة وهى الجد الذى

Marfat.com

لاهوادة فيه . يجيء لتقرير الاحتمال الواحد الذى لا احتمال غيره ، وهو صدق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمانته فيما أبلغه إليهم أو يبلغه. بشهادة أن الله لم يأخذه أخذا شديدا. كما هو الشأن لو انحرف أقل انحراف عن أمانة التبليغ :

« ولو تقول علينا بعض الأقاويل .لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين .فما منكم من أحد عنه حاجزين » . .

ومفاد هذا القول من الناحية التقريرية أن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ صادق فيما أبلغهم. وأنه لو تقول بعض الأقاويل التى لم يوح بها إليه ،لأخذه الله فقتله على هذا النحو الذى وصفته الآيات . ولما كان هذا لم يقع فهو لابد صادق .

هذه هى القضية من الناحية التقريرية .. ولكن المشهد المتحرك الذى ورد فيه هذا التقرير شيء آخر ، يلقى ظلالا بعيدة وراء المعنى التقريرى . ظلالا فيها رهبة وفيها هول . كما أن فيها حركة وفيها حياة . ووراءها إيحاءات وإيماءات وإيقاعات !

فيها حركة الأخذ باليمين وقطع الوتين. وهى حركة عنيفة هائلة مروعة حية فى الوقت ذاته. ووراءها الإيحاء بقدرة الله العظيمة وعجز المخلوق البشرى أمامها وضعفه . . البشر أجمعين . . كما أن وراءها الإيماء إلى جدية هذا الأمر التى لاتحتمل تسامحا ولا مجاملة لأحد كائنا من كان . ولو كان هو محمد الكريم عند الله الأثير الحبيب . ووراءها بعد هذا كله إيقاع الرهبة والهول والخشوع !

* * *

وأخيرا تجيء الخاتمة التقريرية بحقيقة هذا الأمر وطبيعته القوية :

« وإنه لتذكرة للمتقين . وإنا لنعلم أن منكم مكذبين .وإنه لحسرة على الكافرين . وإنه لحق اليقين » .

فهذا القرآن يذكر القلوب التقية فتذكر . إن الحقيقة التى جاء بها كامنة فيها .فهو يثيرها فيها ويذكرها بها فتتذكرها . فأما الذين لايتقون فقلوبهم مطموسة غافلة لاتنفتح ولا تتذكر ، ولا تفيد من هذا الكتاب شيئا. وإن المتقين ليجدون فيه من الحياة والنور والمعرفة والتذكير ما لا يجده الغافلون .

« وإنا لنعلم أن منكم مكذبين » .. ولكن هذا لايؤثر فى حقيقة هذا الأمر ، ولا يغير من هذه الحقيقة . فأمركم أهون من أن يؤثر فى حقائق الأمور .

Marfat.com

« وإنه لحسرة على الكافرين » .. بما يرفع من شأن المؤمنين ،ويحط من قدر المكذبين. وبما ينتهى إليه من إقرار الحق وإزهاق الباطل الذى يستمسك به الكافرون . ثم إنه حجة عليهم عند الله فى اليوم الآخر ، يعذبون به ، ويتحسرون لما يصيبهم بسببه . فهو حسرة على الكافرين فى الدنيا والآخرة .

« وإنه لحق اليقين » .. مع تكذيب المكذبين .حق اليقين. فليس مجرد اليقين ،ولكنه الحق فى هذا اليقين . وهو تعبير خاص يضاعف المعنى ويضاعف التوكيد . وإن هذا القرآن لعميق فى الحق ، عميق فى اليقين . وإنه ليكشف من الحق الخالص فى كل آية مايشى بأن مصدره هو الحق الأول الأصيل ..

فهذه هى طبيعة هذا الأمر وحقيقته المستيقنة .لاهو قول شاعر .ولا هو قول كاهن . ولا هو تقول على الله . إنما هو التنزيل من رب العالمين . وهو التذكرة للمتقين . وهو حق اليقين .

هنا يجىء التلقين العلوى للرسول الكريم ،فى أنسب وقت وأنسب حالة لهذا التلقين :

« فسبح باسم ربك العظيم » . .

والتسبيح بما فيه من تنزيه وتمجيد . وبما فيه من اعتراف وتحقيق . وبما فيه من عبودية وخشوع . . . هو الشعور الذى يخالج القلب ،بعد هذا التقرير الأخير ،وبعد ذلك الاستعراض الطويل ، لقدرة الله العظيم ، وعظمة الرب الكريم . .

Marfat.com

سورة المعارج مكيّة
وآياتها ٤٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ ٱلْمَلَائِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلًا * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً * يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَاءُ كَٱلْمُهْلِ * وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ * وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ * كَلَّا! إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةً لِلشَّوَىٰ * تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ * وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ .

« إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَٱلَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَٱلْمَحْرُومِ * وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * وَٱلَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ .

Marfat.com

« فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ؟ * عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ؟ * أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِىءٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ؟ * كَلَّا ! إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ * فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَارِقِ وَٱلْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ ، وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ * يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ » ﴿٤١﴾

هذه السورة حلقة من حلقات العلاج البطىء ،المديد ، العميق، الدقيق ، لعقابيل الجاهلية فى النفس البشرية كما واجهها القرآن فى مكة ؛ وكما يمكن أن يواجهها فى أية جاهلية أخرى مع اختلافات فىالسطوح لافى الأعماق! وفى الظواهر لافى الحقائق!

أو هى جولة من جولات المعركة الطويلة الشاقة التى خاضها فى داخل هـذه النفس ، وفى خلال دروبها ومنحنياتها ، ورواسبها وركامها . وهى أضخم وأطول من المعارك الحـربية التى خاضها المسلمون ـ فيما بعد ـ كما أن هذه الرواسب وتلك العقابيل هى أكبر وأصعب من القوى التى كانت مرصودة ضد الدعـوة الإسلاميـة والتى ماتزال مرصودة لها فى الجاهليـات القديمة والحديثة!

والحقيقة الأساسية التى تعالج السورة إقرارها هى حقيقة الآخرة وما فيها من جزاء ؛ وعلى وجه الخصوص مافيهـا من عذاب للـكافرين ، كما أوعدهم القرآن الـكريم . وهى تلم ـ فى طريقها إلى إقرار هذه الحقيقة ـ بحقيقة النفس البشرية فى الضراء والسراء. وهى حقيقة تختلف حين تـكون مؤمنة وحين تـكون خاوية من الإيمان . كما تلم بسمات النفس المؤمنة ومنهجها فى الشعور والسلوك ، واستحقاقها للتـكريم . وبهوان الذين كفروا على الله وما أعده لهم من مذلة ومهانة تليق بالمستكبرين . . وتقرر السورة كذلك اختلاف القيم والمقاييس فى تقدير الله وتقدير البشر ، واختلاف الموازين . . .

وتؤلف بهذه الحقائق حلقة من حلقات العلاج الطويل لعقابيل الجاهلية وتصوراتها ،

Marfat.com

أو جولة من جولات المعركة الشاقة فى دروب النفس البشرية ومنحنياتها. تلك المعركة التى خاضها القرآن فانتصر فيها فى النهاية مجردا من كل قوة غير قوته الذاتية . فقد كان انتصار القرآن الحقيقى فى داخل النفس البشرية ـ ابتداء ـ قبل أن يكون له سيف يدفع الفتنة عن المؤمنين به فضلا على أن يرغم به أعداءه على الاستسلام له!

والذى يقرأ هذا القرآن ـ وهو مستحضر فى ذهنه لأحداث السيرة ـ يشعر بالقوة الغالبة والسلطان البالغ الذى كان هذا القرآن يواجه به النفوس فى مكة ويروضها حتى تسلس قيادها راعبة مختارة . ويرى أنه كان يواجه النفوس بأساليب متنوعة تنوعا عجيبا . . تارة يواجهها بمايشبه الطوفان الغامر من الدلائل الموحية والمؤثرات الجارفة اوتارة يواجهها بمايشبه الهراسة الساحقة التى لايثبت لها شىء مماهو راسخ فى كيانها من التصورات والرواسب اوتارة يواجهها بما يشبه السياط اللاذعة تلهب الحس فلا يطيق وقعها ولا يصبر على لذعها ! وتارة يواجهها بما يشبه المناجاة الحبيبة ، ولمسارة الودود ، التى تهفو لها المشاعر وتأنس لها القلوب ! وتارة يواجهها بالهول المرعب ،والصرحة المفزعة ،التى تفتح الأعين على الخطر الداهم القريب ! وتارة يواجهها بالحقيقة فى بساطة ونصاعة لاتدع مجالا للتلفت عنها ولا الجدال فيها . وتارة يواجهها بالرجاء الصبوح والأمل الندى الذى يهتف لها ويناجيها . وتارة يتخلل مساربها ودروبها ومنحنياتها فيلقى عليها الأضواء التى تكشفها لذاتها فترى مايجرى فى داخلها رأى العين ،وتخجل من بعضه ، وتكره بعضه ، وتتيقظ لحركاتها وانفعالاتها التى كانت غافلة عنها ! . . ومئات من اللمسات ، ومئات من اللفتات ، ومئات من الهتافات ، ومئات من المؤثرات . . يطلع عليها قارىء القرآن ، وهو يتبع تلك المعركة الطويلة ، وذلك العلاج البطىء . ويرى كيف انتصر القرآن على الجاهلية فى تلك النفوس العصية العنيدة .

وهذه السورة تكشف عن جانب من هذه المحاولة فى إقرار حقيقة الآخرة ، والحقائق الأخرى التى ألمت بها فى الطريق إليها.

وحقيقة الآخرة هى ذاتها التى تصدت لها سورة الحاقة ، ولكن هذه السورة تعالجها بطريقة أخرى ، وتعرض لها من زاوية جديدة ، وصور وظلال جديدة . .

فى سورة الحاقة كان الاتجاه إلى تصوير الهول والرعب فى هذا اليوم ، ممثلين فى حركات عنيفة فى مشاهد الكون الهائلة : « فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال

Marfat.com

فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة ،وانشقت السماء فهى يومئذ واهية » . . وفى الجلال المهوب فى ذلك المشهد المرهوب : « والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » . . وفى التكشف الذى ترتج له وتستهوله المشاعر : « يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية » . .

كذلك كان الهول والرعب يتمثلان فى مشاهد العذاب، حتى فى النطق بالحكم بهذا العذاب: « خذوه . فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » . . كما يتجلى فى صراخ المعذبين وتأوهاتهم وحسراتهم : « ياليتنى لم أوت كتابيه . ولم أدر ماحسابيه . ياليتها كانت القاضية . . »

فأما هنا فى هذه السورة فالهول يتجلى فى ملامح النفوس وسماتها وخوالجها وخطواتها ، أكثر مما يتجلى فى مشاهد الكون وحركاته . حتى المشاهد الكونية يكاد الهول يكون فيها نفسيا ! وهو على كل حال ليس أبرز مافى الموقف من أهوال . إنما الهول مستكن فى النفس يتجلى مداه فى مدى مايحدثه فيها من خلخلة وذهول وروعة : « يوم تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن . ولا يسأل حميم حميما . يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه ، وصاحبته وأخيه ، وفصيلته التى تؤويه ، ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه » . .

وجهنم هنا «نفس» ذات مشاعر وذات وعى تشارك مشاركة الأحياء فى سمة الهول الحى : « إنها لظى . نزاعة للشوى . تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى » . .

والعذاب ذاته يغلب عليه طابع نفسى أكثر منه حسيا : « يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ، ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون » . .

فالمشاهد والصور والظلال لهذا اليوم تختلف فى سورة المعارج عنها فى سورة الحاقة ، باختلاف طابعى السورتين فى عمومه . مع اتحاد الحقيقة تعرضها السورتان هذه المشاهد .

ومن ثم فقد تناولت سورة المعارج ـ فيما تناولت ـ تصوير النفس البشرية فى الضراء والسراء ، فى حالتى الإيمان والخواء من الإيمان . وكان هذا متناسقا مع طابعها « النفسى » الخاص : فجاء فى صفة الإنسان : « إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه

Marfat.com

الخير منوعا. إلا المصلين ، الذين هم على صلاتهم دائمون . . . الخ » . واستطرد السياق فصور هنا صفات النفوس المؤمنة وسماتها الظاهرة والمضمرة تمشيا مع طبيعة السورة وأسلوبها : « إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم يحافظون. والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم. والذين يصدقون بيوم الدين. والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . إن عذاب ربهم غير مأمون. والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون. والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم بشهاداتهم قائمون . والذين هم على صلاتهم يحافظون . . . » . .

* * *

ولقد كان الاتجاه الرئيسى فى سورة الحاقة إلى تقرير حقيقة الجد الصارم فى شأن العقيدة . ومن ثم كانت حقيقة الآخرة واحدة من حقائق أخرى فى السورة ، كحقيقة أخذ المكذبين أخذا صارما فى الأرض ؛ وأخذ كل من يبدل فى العقيدة بلا تسامح . . فأما الاتجاه الرئيسى فى سورة المعارج فهو إلى تقرير حقيقة الآخرة وما فيها من جزاء ، وموازين هذا الجزاء . فحقيقة الآخرة هى الحقيقة الرئيسية فيها .

ومن ثم كانت الحقائق الأخرى فى السورة كلها متصلة اتصالا مباشرا بحقيقة الآخرة فيها . من ذلك حديث السورة عن الفارق بين حساب الله فى أيامه وحساب البشر ، وتقدير الله لليوم الآخر وتقدير البشر : « تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، فاصبر صبرا جميلا . إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا . . . الخ » وهو متعلق باليوم الآخر .

ومنه ذلك الفارق بين النفس البشرية فى الضراء والسراء فى حالتى الإيمان والخلو من الإيمان. وهما مؤهلان للجزاء فى يوم الجزاء .

ومنه غرور الذين كفروا وطمعهم أن يدخلوا كلهم جنة نعيم ، مع هوانهم على الله وعجزهم عن سبقه والتفلت من عقابه وهو متصل اتصالا وثيقا بمحور السورة الأصيل .

وهكذا تكاد السورة تقتصر على حقيقة الآخرة وهى الحقيقة الكبيرة التى تتصدى لإقرارها فى النفوس . مع تنوع اللمسات والحقائق الأخرى المصاحبة للموضوع الأصيل .

* * *

ظاهرة أخرى فى الإيقاع الموسيقى للسورة ، الناشىء من بنائها التعبيرى . . فقد كان التنوع

Marfat.com

الإيقاعى فى الحاقة ناشئا من تغير القافية فى السياق من فقرة لفقرة . وفق المعنى والجو فيـه . . فأما هنا فى سورة المعارج فالتنوع أبعد نطاقا ، لأنه يشمل تنوع الجملة الموسيقية كلها لا إيقاع القافية وحدها . والجملة الموسيقية هنا أعمق وأعرض وأشد تركيبا . ويكثر هذا التنوع فى شطر السورة الأول بشكل ملحوظ .

فى هذا المطلع ثلاث جمل موسيقية منوعة ـ مع اتحاد الإيقاع فى نهاياتها ـ من حيث الطول، ومن حيث الإيقاعات الجزئية فيها على النحو التالى :

« سأل سائل بعذاب واقع. للكافرين ليس له دافع . من الله ذى المعارج . تعرج الملائكة والروح إليه . فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة . فاصبر صبرا جميلا » . . حيث تنتهى بعد الألف فى الإيقاع الخامس .

« إنهم يرونه بعيدا . ونراه قريبا » .. حيث يتكرر الإيقاع بعد الألف مرتين .

« يوم تكون السماء كالمهل . وتكون الجبال كالعهن . ولا يسأل حميم حميما » . . حيث تنتهى بعد الألف فى الإيقاع الثالث . مع تنوع الإيقاع فى الداخل .

« يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه . وصاحبته وأخيه . وفصيلته التى تؤويه . ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه . كلا إنها لظى » . . حيث ينتهى بعد الألف فى الإيقاع الخامس كالأول .

« نزاعة للشوى . . تدعو من أدبر وتولى . وجمع فأوعى . إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا » .. حيث يتكرر إيقاع المد بالألف خمس مرات منهما اثنتان فى النهاية تختلفان عن الثلاثة الأولى .

ثم يستقيم الإيقاع فى باقى السورة على الميم والنون وقبلها واو أو ياء . .

والتنويع الإيقاعى فى مطلع السورة عميق وشديد التعقيد فى الصياغة الموسيقية بشكل يلفت الأذن الموسيقية إلى ما فى هذا التنويع المعقد الراقى ـ موسيقيا ـ من جمال غريب على البيئة العربية وعلى الإيقاع الموسيقى العربى . ولكن الأسلوب القرآنى يطوعه ويمنحه اليسر الذى يدخل به إلى الأذن العربية فتقبل عليه ، وإن كان فنا إبداعيا عميقا جديدا على مألوفها الموسيقى (١) .

---

(١) الذين يعرفون شيئا عن الأصول الموسيقية لن يجدوا صعوبة فى فهم مدلول هذا الكلام . ولتقريبه للآخرين يراجع فصل : التناسق الفنى فى كتاب : التصوير الفنى فى القرآن .

Marfat.com

والآن نستعرض السورة تفصيلا . . .

* * *

« سأل سائل بعذاب واقع، للكافرين ليس له دافع ، من الله ذى المعارج ، تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، فاصبر صبرا جميلا ، إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا ، يوم تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن ، ولا يسأل حميم حميما ، يبصرونهم ، يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه، وصاحبته وأخيه ، وفصيلته التى تؤويه، ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه . كلا ! إنها لظى . نزاعة للشوى، تدعو من أدبر وتولى ، وجمع فأوعى » . .

كانت حقيقة الآخرة من الحقائق العسيرة الإدراك عند مشركى العرب ؛ وقد لقيت منهم معارضة نفسية عميقة ، وكانوا يتلقونها بغاية العجب والدهش والاستغراب ؛ وينكرونها أشد الإنكار ، ويتحدون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى صورشتى أن يأتيهم بهذا اليوم الموعود، أو أن يقول لهم : متى يكون .

وفى رواية عن ابن عباس أن الذى سأل عن العذاب هو النضر ابن الحارث . وفى رواية أخرى عنه : قال : ذلك سؤال الكفار عن عذاب الله وهو واقع بهم .

وعلى أية حال فالسورة تحكى أن هناك سائلا سأل وقوع العذاب واستعجله . وتقرر أن هذا العذاب واقع فعلا، لأنه كائن فى تقدير الله من جهة ،ولأنه قريب الوقوع من جهة أخرى وأن أحدا لايمكنه دفعه ولا منعه. فالسؤال عنه واستعجاله ـ وهو واقع ليس له من دافع ـ يبدو تعاسة من السائل المستعجل ؛ فردا كان أو مجموعة !

وهذا العذاب للكافرين . . إطلاقا . . فيدخل فيه أولئك السائلون المستعجلون كما يدخل فيه كل كافر . وهو واقع من الله « ذى المعارج » . . وهو تعبير عن الرفعة والتعالى ، كما قال فى السورة الأخرى : « رفيع الدرجات ذو العرش » . .

وبعدهذا الافتتاح الذى يقرر كلمة الفصل فى موضوع العذاب ،ووقوعه ،ومستحقيه ،ومصدره ، وعلو هذا المصدر ورفعته ، مما يجعل قضاءه أمرا علويا نافذا لامرد له ولا دافع . . بعد هذا أخذ فى وصف ذلك اليوم الذى سيقع فيه هذا العذاب ، والذى يستعجلون به وهو منهم قريب. ولكن تقدير الله غير تقدير البشر ، ومقاييسه غير مقاييسهم :

Marfat.com

« تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، فاصبر صبرا جميلا ، إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا » . .

والأرجح أن اليوم المشار إليه هنا هو يوم القيامة ، لأن السياق يكاد يعين هـذا المعنى . وفى هذا اليوم تصعد الملائكة والروح إلى الله. والروح : الأرجح أنه جبريل عليه السلام ، كما سمى بهذا الاسم فى مواضع أخرى . وإنما أفرد بالذكر بعد الملائكة لماله من شأن خاص. وعروج الملائكة والروح فى هذا اليوم يفرد كذلك بالذكر ، إيحاء بأهميته فى هذا اليوم وخصوصيته ، وهم يعرجون فى شؤون هذا اليوم ومهامه . ولا ندرى نحن ـ ولم نكلف أن ندرى ـ طبيعة هذه المهام ، ولا كيف يصعد الملائكة ، ولا إلى أين يصعدون . فهذه كلها تفصيلات فى شأن الغيب لاتزيد شيئا من حكمة النص ،وليس لنا إليها من سبيل ،وليس لنا عليها من دليل. فحسبنا أن نشعر من خلال هذا المشهد بأهمية ذلك اليوم ، الذى ينشغل فيه الملائكة والروح بتحركات تتعلق بمهام ذلك اليوم العظيم .

وأما « كان مقداره خمسين ألف سنة » . . فقد تكون كناية عن طول هذا اليوم كما هو مألوف فى التعبير العربى . وقد تعنى حقيقة معينة ، ويكون مقدار هـذا اليوم خمسين ألف سنة من سنى أهل الأرض فعلا وهو يوم واحد ! وتصور هذه الحقيقة قريب جدا الآن . فإن يومنا الأرضى هو مقياس مستمد من دورة الأرض حـول نفسها فى أربع وعشرين ساعة . وهناك نجوم دورتها حول نفسها تستغرق مايعادل يومنا هذا آلاف المرات . . ولا يعنى هـذا أنه هو المقصود بالخمسين ألف سنة هنا : ولكننا نذكر هذه الحقيقة لتقرب إلى الذهن تصور اختلاف المقاييس بين يوم ويوم !

وإذا كان يوم واحد من أيام الله يساوى خمسين ألف سنة ، فإن عـذاب يوم القيامة قد يرونه هم بعيدا ،وهو عند الله قريب .ومن ثم يدعو الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الصبر الجميل على استعجالهم وتكذيبهم بذلك العذاب القريب .

« فاصبر صبرا جميلا . إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا » . .

والدعوة إلى الصبر والتوجيه إليه صاحبت كل دعوة ، وتكررت لكل رسول ، ولكل مؤمن يتبع الرسـول . وهى ضرورية لثقل العبء ومشقة الطريق ، ولحفظ هـذه النفوس متماسكة راضية ، موصولة بالهدف البعيد ، متطلعة كذلك إلى الأفق البعيد . .

Marfat.com

والصبر الجميل هو الصبر المطمئن ، الذى لايصاحبه السخط ولا القلق ولا الشك فى صدق الوعد . صبر الواثق من العاقبة، الراضى بقدر الله، الشاعر بحكمته من وراء الابتلاء ، الموصول بالله المحتسب كل شىء عنده مما يقع به .

وهذا اللون من الصبر هو الجدير بصاحب الدعوة . فهى دعوة الله ، وهى دعوة إلى الله. ليس له هو منها شىء . وليس له وراءها من غاية . فكل مايلقاه فيها فهو فى سبيل الله ، وكل مايقع فى شأنها هو من أمر الله . فالصبر الجميل إذن ينبعث متناسقا مع هذه الحقيقة ، ومع الشعور بها فى أعماق الضمير .

والله صاحب الدعوة التى يقف لها المكذبون ، وصاحب الوعد الذى يستعجلون به ويكذبون ،يقدر الأحداث ويقدر مواقيتها كما يشاء وفق حكمته وتدبيره للكون كله . ولكن البشر لايعرفون هذا التدبير وذلك التقدير ؛ فيستعجلون . وإذا طال عليهم الأمد يستريبون . وقد يساور القلق أصحاب الدعوة أنفسهم ، وتجول فى خاطرهم أمنية ورغبة فى استعجال الوعد ووقوع الموعود . . عندئذ يجىء مثل هذا التثبيت وهذا التوجيه من الله الخبير :

« فاصبر صبرا جميلا » . .

والخطاب هنا للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تثبيتا لقلبه على مايلقى من عنت المناوأة والتكذيب . وتقريرا للحقيقة الأخرى : وهى أن تقدير الله للأمور غير تقدير البشر ؛ ومقاييسه المطلقة غير مقاييسهم الصغيرة :

« إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا » . .

ثم يرسم مشاهد اليوم الذى يقع فيه ذلك العذاب الواقع ،الذى يرونه بعيدا ويراه الله قريبا. يرسم مشاهده فى مجالى الكون وأغوار النفس . وهى مشاهد تشى بالهول المذهل المزلزل فى الكون وفى النفس سواء :

« يوم تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن » ..

والمهل ذوب المعادن الكدر كدردىّ الزيت . والعهن هو الصوف المنتفش . والقرآن يقرر فى مواضع مختلفة أن أحداثا كونية كبرى ستقع فى هذا اليوم ، تغير أوضاع الأجرام الكونية وصفاتها ونسبها وروابطها . ومن هذه الأحداث أن تكون السماء كالمعادن المذابة . وهذه النصوص جديرة بأن يتأملها المشتغلون بالعلوم الطبيعية والفلكية . فمن المرجح عندهم

Marfat.com

أن الأجرام السماوية مؤلفة من معادن منصهرة إلى الدرجة الغازية ـ وهى بعد درجة الانصهار والسيولة بمراحل ـ فلعلها فى يوم القيامة ستنطفىء (كما قال : « وإذا النجوم انكدرت ») وستبرد حتى تصير معادن سائلة ! وبهذا تتغير طبيعتها الحالية وهى الطبيعة الغازية !

على أية حال هـذا مجرد احتمال ينفع الباحثين فى هذه العلوم أن يتدبروه . أما نحن فنقف أمام هذا النص نتملى ذلك المشهد المرهوب ، الذى تكون فيه السماء كذوب المعادن الكبر ، وتكون فيه الجبال كالصوف الواهن المنتفش . ونتملى ما وراء هـذا المشهد من الهول اللاحل الذى ينطبع فى النفوس ، فيعبر عنه القرآن أعمق تعبير :

« ولا يسأل حميم حميما . يبصرونهم . يود المجرم لو يفتدى من عـذاب يومئذ ببنيه ، وصاحبته وأخيه . وفصيلته التى تؤويه . ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه » . .

إن الناس فى هم شاغل ، لا يدع لأحد منهم أن يتلفت خارج نفسه ، ولا يجد فسحة فى شعوره لغيره : « ولا يسأل حميم حميما » . . فلقد قطع الهول المروّع جميع الوشائج ، وحبس النفوس على همها لا تتعداه . . وإنهم ليعرضون بعضهم على بعض « يبصرونهم » كأنما عمدا وقصدا ! ولكن لكل منهم همه ، ولكل ضمير منهم شغله . فلا يهجس فى خاطر صديق أن يسأل صديقه عن حاله ، ولا أن يسأله عونه . فالكرب يلف الجميع ، والهول يغشى الجميع . .

فما بال « المجرم » ؟ إن الهول ليأخذ بحسه ، وإن الرعب ليذهب بنفسه ، وإنه ليود لو يفتدى من عذاب يومئذ بأعز الناس عليه ، ممن كان يفتديهم بنفسه فى الحياة ، ويناضل عنهم ، ويعيش لهم . . بنيه . وزوجه . وأخيه . وعشيرته القريبة التى تؤويه وتحميه : بل إن لهفته على النجاة لتفقده الشعور بغيره على الإطلاق ، فيود لو يفتدى بمن فى الأرض جميعا ثم ينجيه . . وهى صورة للهفة الطاغية والفزع المذهل والرغبة الجامحة فى الإفلات ! صورة مبطنة بالهول ، مغمورة بالكرب ، موشاة بالفزع ، ترتسم من خلال التعبير القرآنى الموحى .

وبينما المجرم فى هـذه الحال ، يتمنى ذلك المحال ، يسمع ما ييئس ويقنط من كل بارقة من أمل ، أو كل حديث خادع من النفس . كما يسمع الملأ جميعا حقيقة الموقف وما يجرى فيه :

« كلا ! إنها لظى . نزاعة للشوى . تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى » . .

إنه مشهد تطير له النفس شعاعا ، بعد ما أذهلها كرب الموقف وهوله . . « كلا ! » فى ردع عن تلك الأمانى المستحيلة فى الافتداء بالبنين والزوج والأخ والعشيرة ومن فى الأرض جميعا . .

Marfat.com

« كلا! إنها لظى» نار تتلظى وتتحرق «نزاعة للشوى» تنزع الجلود عن الوجوه والرؤوس نزعا .. وهى غول مفزعة . ذات نفس حية تشارك فى الهول والعذاب عن إرادة وقصد : « تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى » . . تدعوه كما كان يدعى من قبل إلى الهدى فيدبر ويتولى . ولكنه اليوم إذ تدعوه جهنم لا يملك أن يدبر ويتولى ! ولقد كان من قبل مشغولا عن الدعوة بجمع المال وحفظه فى الأوعية ! فأما اليوم فالدعوة من جهنم لا يملك أن يلهو عنها . ولا يملك أن يفتدى بما فى الأرض كله منها !

والتوكيد فى هذه السورة والسورة السابقة قبلها وفى سورة القلم كذلك على منع الخير ، وعدم الحض على طعام المسكين ، وجمع المال فى الأوعية إلى جانب الكفر والتكذيب والمعصية .. هذا التوكيد يدل على أن الدعوة كانت تواجه فى مكة حالات خاصة يجتمع فيها البخل والحرص والجشع إلى الكفر والتكذيب والضلالة . مما اقتضى تكرار الإشارة إلى هذا الأمر ، والتخويف من عاقبته ، بوصفه من موجبات العذاب بعد الكفر والشرك بالله .

وفى هذه السورة إشارات أخرى تفيد هذه المعنى . وتؤكد ملامح البيئة المكية التى كانت تواجهها الدعوة. فقد كانت بيئة مشغولة بجمع المال من التجارة ومن الربا. وكان كبراء قريش هم أصحاب هذه المتاجر ، وأصحاب القوافل فى رحلتى الشتاء والصيف . وكان هنالك تكالب على الثراء ، وشح النفوس بجعل الفقراء محرومين ، واليتامى مضيعين . ومن ثم تكرر الأمر فى هذا الشأن وتكرر التحذير . وظل القرآن يعالج هذا الجشع وهذا الحرص ؛ ويخوض هذه المعركة مع الجشع والحرص فى أغوار النفس ودروبها قبل الفتح وبعده على السواء . مما هو ظاهر لمن يتتبع التحذير من الربا ، ومن أكل أموال الناس بالباطل ، ومن أكل أموال اليتامى إسرافا وبدارا أن يكبروا ! ومن الجور على اليتيمات واحتجازهن للزواج الجائر رغبة فى أموالهن ! ومن نهر السائل . وقهر اليتيم ، ومن حرمان المساكين .. إلى آخر هذه الحملات المتتابعة العنيفة الدالة على الكثير من ملامح البيئة . فضلا على أنها توجيهات دائمة لعلاج النفس الإنسانية فى كل بيئة . وحب المال ، والحرص عليه ، وشح النفس به ، والرغبة فى احتجانه ، آفة تساور النفوس مساورة عنيفة ، وتحتاج للانطلاق من إسارها والتخلص من أوهاقها ، والتحرر من ربقتها ، إلى معارك متلاحقة ، وإلى علاج طويل !

* * *

Marfat.com

والآن وقد انتهى من تصوير الهـول فى مشاهد ذلك اليوم . وفى صورة ذلك العـذاب ؛ فإنه يتجه إلى تصوير حقيقة النفس البشرية فى مواجهة الشر والخير . فى حالتى إيمانها وخلوها من الإيمان . ويقرر مصير المؤمنين كما قرر مصير المجرمين :

« إن الإنسان خلق هلوعا : إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا . إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون. والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم . والذين يصدقون بيوم الدين. والذين هم من عـذاب ربهم مشفقون . إن عذاب ربهم غـير مأمون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم بشهاداتهم قائمون . والذين هم على صلاتهم يحافظون . أولئك فى جنات مكرمون » .

وصورة الإنسان ـ عند خواء قلبه من الإيمان ـ كما يرسمها القرآن صورة عجيبة فى صدقها ودقتها وتعبيرها الـكامل عن الملامح الأصيلة فى هذا المخلوق؛ والتى لايعصمه منها ولا يرفعه عنها إلا العنصر الإيمانى ، الذى يصله بمصدر يجد عنده الطمأنينة التى تمسك به من الجزع عند ملاقاة الشر ، ومن الشح عند امتلاك الخير .

« إن الإنسان خلق هلوعا : إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا » . .

لـكأنما كل كلمة لمسة من ريشة مبدعة تضع خطا فى ملامح هذا الإنسان . حتى إذا اكتملت الآيات الثلاث القصار المعدودة الـكلمات نطقت الصورة ونبضت بالحياة . وانتفض من خلالها الإنسان بسماته وملامحه الثابتة . هلوعا . . جزوعا عند مس الشر ، يتألم للذعته ، ويجزع لوقعه ، ويحسب أنه دائم لا كاشف له . ويظن اللحظة الحاضرة سرمدا مضروبا عليه ؛ ويحبس نفسه بأوهامه فى قمقم من هذه اللحظة وما فيها من الشر الواقع به. فلا يتصور أن هناك فرجا ؛ ولا يتوقع من الله تغييرا . ومن ثم يأكله الجزع ، ويمزقه الهلع . ذلك أنه لايأوى إلى ركن ركين يشد من عزمه ، ويعلق به رجاءه وأمله . . منوعا للخير إذا قدر عليه . يحسب أنه من كده وكسبه فيضن به على غيره ، ويحتجنه لشخصه ، ويصبح أسير ماملك منه ، مستعبدا للحرص عليه؛ ذلك أنه لا يدرك حقيقة الرزق ودوره هو فيه . ولا يتطلع إلى خير منه عنـد ربه وهو منقطع عنه بخاوى القلب من الشعور به . . فهو هلوع فى الحالتين . . هلوع من الشر . هلوع على الخير . . وهى صورة بائسة للإنسان ، حين يخلو قلبه من الإيمان .

Marfat.com

ومن ثم يبدو الايمان بالله مسألة ضخمة فى حياة الإنسان . لا كلمة تقال باللسان ،ولا شعائر تعبدية تقام . إنه حالة نفس ومنهج حياة ، وتصور كامل للقيم والأحداث والأحوال . وحين يصبح القلب خاويا من هذا المقوم فإنه يتأرجح ويهتز وتتناوبه الرياح كالريشة ! ويبيت فى قلق وخوف دائم ، سواء أصابه الشر فجزع ، أم أصابه الخير فمنع . فأما حين يعمره الإيمان فهو منه فى طمأنينة وعافية ، لأنه متصل بمصدر الأحداث ومدبر الأحوال ؛ مطمئن إلى قدره شاعر برحمته، مقدر لابتلائه ، متطلع دائما إلى فرجه من الضيق ،ويسره من العسر . متجه إليه بالخير . عالم أنه ينفق مما رزقه ، وأنه مجزى على ما أنفق فى سبيله ، معوض عنه فى الدنيا والآخرة . . فالإيمان كسب فى الدنيا يتحقق قبل جزاء الآخرة ، يتحقق بالراحة والطمأنينة والثبات والاستقرار طوال رحلة الحياة الدنيا .

وصفة المؤمنين المستثنين من الهلع ، تلك السمة العامة للإنسان ، يفصلها السياق هنا ويحددها :

« إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون » ..

والصلاة فوق أنها ركن الإسلام وعلامة الإيمان ، هى وسيلة الاتصال بالله والاستمداد من ذلك الرصيد . ومظهر العبودية الخالصة التى يتجرد فيها مقام الربوبية ومقام العبودية فى صورة معينة . وصفة الدوام التى يخصصها بها هنا : « الذين هم على صلاتهم دائمون » . . تعطى صورة الاستقرار والاستطراد ، فهى صلاة لايقطعها الترك والإهمال والكسل وهى صلة بالله مستمرة غير منقطعة . . وقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا عمل شيئا من العبادة أثبته ـ أى داوم عليه ـ وكان يقول : « وإن أحب الأعمال إلى الله تعالى مادام وإن قل [1] » . . لملاحظة صفة الاطمئنان والاستقرار والثبات على الاتصال بالله ، كما ينبغى من الاحترام لهذا الاتصال . فليس هو لعبة توصل أو تقطع . . حسب المزاج !

« والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » . .

وهى الزكاة على وجه التخصيص والصدقات المعلومة القدر .. وهى حق فى أموال المؤمنين.. أو لعل المعنى أشمل من هذا وأكبر . وهو أنهم يجعلون فى أموالهم نصيبا معلوما يشعرون أنه حق للسائل والمحروم . وفى هذا تخلص من الشح واستعلاء على الحرص ؛ كما أن فيه شعورا

(١) من حديث لعائشة أخرجه الستة

Marfat.com

بواجب الواجد تجاه المحروم ، فى هذه الأمة المتضامنة المتكافلة .. والسائل الذى يسأل ؛والمحروم الذى لايسأل ولايعبر عن حاجته فيحرم .أو لعلهالذى نزلت بهالنوازل فحرم وعفعن السؤال. والشعور بأن للمحتاجين والمحرومين حقا فى الأموال هو شعور بفضل الله من جهة ، وبآصرة الإنسانية من جهة ، فوق مافيه من تحرر شعورى من ربقة الحرص والشح . وهو فى الوقت ذاته ضمانة اجتماعية لتكافل الأمة كلها وتعاونها . فهى فريضة ذات دلالات شتى . فى عالم الضمير وعالم الواقع سواء . . وذكرها هنا فوق أنه يرسم خطا فى ملامح النفس المؤمنة فهو حلقة من حلقات العلاج للشح والحرص فى السورة .

« والذين يصدقون بيوم الدين » . .

وهذه الصفة ذات علاقة مباشرة بموضوع السورة الرئيسى . وهى فى الوقت ذاته ترسم خطا أساسيا فى ملامح النفس المؤمنة . فالتصديق بيوم الدين شطر الإيمان. وهو ذو أثر حاسم فى منهج الحياة شعورا وسلوكا . والميزان فى يد المصدق بيوم الدين غير الميزان فى يد المكذب بهذا اليوم أو المستريب فيه . ميزان الحياة والقيم والأعمال والأحداث . . المصدق بيوم الدين يعمل وهو ناظر لميزان السماء لاالميزان الأرض، ولحساب الآخرة لاالحساب الدنيا. ويتقبل الأحداث خيرها وشرها وفى حسابه أنها مقدمات نتائجها هناك ، فيضيف إليها النتائج المرتقبة حين يزنها ويقومها . . والمكذب بيوم الدين يحسب كل شىء بحسب مايقع له منه فى هذه الحياة القصيرة المحدودة، ويتحرك وحدوده هى حدود هذه الأرض وحدود هذا العمر . ومن ثم يتغير حسابه وتختلف نتائج موازينه ، وينتهى إلى نتائج خاطئة فوق ماينحصر فى مساحة من المكان ومساحة من الزمان محدودة . . وهو بائس مسكين معذب قلق لأن مايقع فى هذا الشطر من الحياة الذى يحصر فيه تأملاته وحساباتهوتقديراته ، قد لايكونمطمئنا ولا مريحا ولا عادلا ولاممقولا ، مالم يضف إليه حساب الشطر الآخر وهو أكبر وأطول . ومن ثم يشقى به من لايحسب حساب الآخرة أو يشقى غيره من حوله . ولا تستقيم له حياة رفيعة لايجد جزاءها فى هذه الأرض واضحا . . ومن ثم كان التصديق باليوم الآخر شطر الإيمان الذى يقوم عليه منهج الحياة فى الإسلام .

« والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . إن عذاب ربهم غير مأمون » . .

وهذه درجة أخرى وراء مجرد التصديق بيوم الدين . درجة الحساسية المرهفة ، والرقابة

Marfat.com

اليقظة، والشعور بالتقصير فى جناب الله على كثرة العبادة ، والخوف من تلفت القلب واستحقاقه للعذاب فى أية لحظة، والتطلع إلى الله للحماية والوقاية .

ولقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو من هو عند الله . وهو يعرف أن الله قد اصطفاه ورعاه . . كان دائم الحذر دائم الخوف لعذاب الله . وكان على يقين أن عمله لا يعصمه ولا يدخله الجنة إلا بفضل من الله ورحمة . وقال لأصحابه : « لن يدخل الجنة أحداً عمله » قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته (١) »

وفى قوله هنا : « إن عذاب ربهم غير مأمون » . . إيحاء بالحساسية الدائمة التى لا تغفل لحظة ، فقد تقع موجبات العذاب فى لحظة الغفلة فيحق العذاب. والله لا يطلب من الناس إلا هذه اليقظة وهذه الحساسية ، فإذا غلبهم ضعفهم معها ، فرحمته واسعة ، ومغفرته حاضرة . وباب التوبة مفتوح ليست عليه مغاليق ! وهذا قوام الأمر فى الإسلام بين الغفلة والقلق . والإسلام غير هذا وتلك . والقلب الموصول بالله يحذر ويرجو ، ويخاف ويطمع ،وهو مطمئن لرحمة الله على كل حال .

« والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » .

وهذه تعنى طهارة النفس والجماعة ، فالإسلام يريد مجتمعا طاهرا نظيفا ، وفى الوقت ذاته ناصا صريحا . مجتمعا تؤدى فيه كل الوظائف الحيوية . وتلبى فيه كل دوافع الفطرة . ولكن بغير فوضى ترفع الحياء الجميل ، وبغير التواء يقتل الصراحة النظيفة . مجتمعا يقوم على أساس الأسرة الشرعية المتينة القوائم . وعلى البيت العانى الواضح المعالم مجتمعا يعرف فيه كل طفل أباه ، ولا يخجل من مولده . لا لأن الحياء منزوع من الوجوه والنفوس ، ولكن لأن العلاقات الجنسية قائمة على أساس نظيف صريح ، طويل الأمد ،واضح الأهداف ، يرمى إلى النهوض بواجب إنسانى واجتماعى ، لا لمجرد إرضاء النزوة الحيوانية والشهوة الجنسية !

ومن ثم يذكر القرآن هنا من صفات المؤمنين « والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » . .

---

(١) رواه الشيخان والنسائى .

Marfat.com

فيقرر نظافة الاتصال بالأزواج وبما ملكت الأيمان ـ من الإماء حين يوجدن بسبب مشروع ـ والسبب المشروع الوحيد الذى يعترف به الإسلام هو السبى فى قتال فى سبيل الله . وهى الحرب الوحيدة التى يقرها الإسلام ـ والأصل فى حكم هذا السبى هو ماذكرته آية سورة محمد : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق . فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » ولكن قد يتخلف بعض السبى بلا منّ ولا فداء لملابسات واقعية ؛ فهذا يظل رقيقا إذا كان المعسكر الآخر يسترق أسرى المسلمين فى أية صورة من صور الرق ـ ولوسماه بغير اسمه ! ـ ويجوّز الإسلام وطء الإماء عندئذ من صاحبهن وحده، ويجعل عتقهن موكولا إلى الوسائل الكثيرة التى شرعها الإسلام لتجفيف هذا المورد . ويقف الإسلام بمبادئه صريحا نظيفا لايدع هؤلاء الأسيرات لفوضى الاختلاط الجنسى القذر كما يقع لأسيرات الحروب قديما وحديثا ؛ ولا يتدسس ويلتوى فيسميهن حرات وهن إماء فى الحقيقة !

« فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » . . وبذلك يغلق الباب فى وجه كل قذارة جنسية ، فى أية صورة غيرهاتين الصورتين الواضحتين الصريحتين .. فلا يرى فى الوظيفه الطبيعية قذارة فى ذاتها ؛ ولكن القذارة فى الالتواء بها . والإسلام نظيف صريح قويم . (١)

« والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » .

وهذه من القوائم الأخلاقية التى يقيم الإسلام عليها نظام المجتمع. ورعاية الأمانات والعهود فى الإسلام تبدأ من رعاية الأمانة الكبرى التى عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان . وهى أمانة العقيدة والاستقامة عليها اختيارا لااضطرارا .. ومن رعاية العهد الأول المقطوع على فطرة الناس وهم بعد فى الأصلاب أن الله ربهم الواحد ، وهم بخلقتهم على هذا العهد شهود . . ومن رعاية تلك الأمانة وهذا العهد تنبثق رعاية سائر الأمانات والعهود فى معاملات الأرض وقد شدد الإسلام فى الأمانة والعهد وكرر وأكد ،ليقيم المجتمع على أسس متينة من الخلق والثقة والطمأنينة وجعل رعاية الأمانة والعهد سمة النفس المؤمنة ، كما جعل خيانة الأمانة وإخلاف العهد سمة النفس المنافقة والكافرة . ورد هذا فى مواضع شتى من القرآن والسنة لاتدع مجالا للشك فى أهمية هذا الأمر البالغة فى عرف الإسلام .

---

(١) تراجع سورة المؤمنون جزء ١٨ ص ١١ـ١٢ وسورة محمد جزء ٢٦ ص ٥٠ ـ ٥٤

Marfat.com

« والذين هم بشهاداتهم قائمون » . .

وقد ناط الله بأداء الشهادة حقوقاً كثيرة ، بل ناط بها حدود الله ، التى تقام بقيام الشهادة. فلم يكن بد أن يشدد الله فى القيام بالشهادة ، وعدم التخلف عنها ابتداء ، وعدم كتمانها عند التقاضى ، ومن القيام بها أداؤها بالحق دون ميل ولا تحريف . وقد جعلها الله شهادة له هو ليربطها بطاعته ، فقال : « وأقيموا الشهادة لله » . . وجعلها هنا سمة من سمات المؤمنين وهى أمانة من الأمانات ، أفردها بالذكر للتعظيم من شأنها وإبراز أهميتها . .

وكما بدأ سمات النفوس المؤمنة بالصلاة ، ختمها كذلك بالصلاة :

« والذين هم على صلاتهم يحافظون » . .

وهى صفة غير صفة الدوام التى ذكرت فى صدر هذه الصفات . تتحقق بالمحافظة على الصلاة فى مواعيدها ، وفى فرائضها ، وفى سننها ، وفى هيئتها ، وفى الروح التى تؤدى بها . فلا يضيعونها إهمالا وكسلا . ولا يضيعونها بعدم إقامتها على وجهها . . وذكر الصلاة فى المطلع والختام يوحى بالاحتفال والاهتمام . وبهذا تختم سمات المؤمنين . .

وعندئذ يقرر مصير هذا الفريق من الناس بعد ماقرر من قبل مصير الفريق الآخر :

« أولئك فى جنات مكرمون » . .

ويجمع هذا النص القصير بين لون من النعيم الحسى ولون من النعيم الروحى . فهم فى جنات . وهم يلقون الكرامة فى هذه الجنات . فتجتمع لهم اللذة بالنعيم مع التكريم . جزاء على هذا الخلق الكريم . الذى يتميز به المؤمنون .

* * *

ثم يعرض السياق مشهدا من مشاهد الدعوة فى مكة ، والمشركون يسرعون الخطى إلى المكان الذى يكون فيه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتلو القرآن . ثم يتفرقون حواليه جماعات . ويستنكر إسراعهم هذا وتجمعهم فى غير مارغبة فى الاهتداء بما يسمعون :

« فمال الذين كفروا قبلك مهطعين ؟ عن اليمين وعن الشمال عزين ؟ » . .

المهطع هو الذى يسرع الخطى مادا عنقه كالمقود . وعزين جمع عزة كفئة وزنا ومعنى . . وفى التعبير تهكم خفى بحركتهم المريبة . وتصوير لهذه الحركة والهيئة التى تتم بها . وتعجب منهم وتساؤل عن هذا الحال منهم ! وهم لايسرعون الخطى تجاه الرسول ليسمعوا ويهتدوا ،

Marfat.com

ولكن فقط ليستطلعوا فى دهشة ثم يتفرقوا كى يتحلقوا حلقات يتناجون فى الكيد والرد على مايسمعون !

مالهم ؟ « أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم ؟ » . .

وهم على هذه الحال التى لاتؤدى إلى جنة نعيم ، إنما تؤدى إلى لظى مأوى المجرمين!

ألعلهم يحسبون أنفسهم شيئا عظيما عند الله؛ فهم يكفرون ؛ ويؤذون الرسول ، ويسمعون القرآن ويتناجون بالكيد . ثم يدخلون الجنة بعد هذا كله لأنهم فى ميزان الله شىء عظيم ؟!

« كلا ! » فى ردع وفى تحقير . . « إنا خلقناهم مما يعلمون » !

وهم يعلمون مم خلقوا ! من ذلك الماء المهين الذى يمرفون ! والتعبير القرآنى المبدع يلمسهم هذه اللمسة الخفيفة العميقة فى الوقت ذاته ؛ فيمسح بها كبرياءهم مسحا ، وينكس بها خيلاءهم تنكيسا . دون لفظة واحدة نابية ، أو تعبير واحد جارح . بينما هذه الإشارة العابرة تصور الهوان والزهادة والرخص أكمل تصوير ! فكيف يطمعون أن يدخلوا جنة نعيم على الكفر وسوء الصنيع ؟ وهم مخلوقون مما يعلمون ! وهم أهون على الله من أن تكون لهم دالة عليه ، وخرق لسنته فى الجزاء العادل باللظى وبالنعيم .

واستطرادا فى تهوين أمرهم ، وتصغير شأنهم ، وتنكيس كبريائهم ، يقرر أن الله قادر على أن يخلق خيرا منهم ، وأنهم لايعجزونه فيذهبون دون مايستحقون من جزاء أليم :

« فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون ، على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين » .

والأمر ليس فى حاجة إلى قسم . ولكن التلويح بذكر المشارق والمغارب ، يوحى بعظمة الخالق . والمشارق والمغارب قد تعنى مشارق النجوم الكثيرة ومغاربها فى هذا الكون الفسيح . كما أنها قد تعنى للمشارق والمغارب المتوالية على بقاع الأرض . وهى تتوالى فى كل لحظة فنى كل لحظة أثناء دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس يطلع مشرق ويختفى مغرب . .

وأيا كان مدلول المشارق والمغارب ، فهو يوحى إلى القلب بضخامة هذا الوجود، وبعظمة الخالق لهذا الوجود. فهل يحتاج أمر أولئك المخلوقين مما يعلمون إلى قسم برب المشارق والمغارب،

Marfat.com

على أنه ـ سبحانه ـ قادر على أن يخلق خيرا منهم، وأنهم لايسبقونه ولا يفوتونه ولا يهربون من مصيرهم المحتوم ؟ !

* * *

وعند مايبلغ السياق هذا المقطع ، بعد تصوير هول العذاب فى ذلك اليوم المشهود ؛ وكرامة النعيم للمؤمنين، وهوان شأن الكافرين . يتجه بالخطاب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليدعهم لذلك اليوم ولذلك العذاب ، ويرسم مشهدهم فيه ، وهو مشهد مكروب ذليل :

« فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون . يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ، ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون » . .

وفى هـذا الخطاب من تهوين شأنهم ، ومن التهـديد لهم ، مايثير الخوف والترقب . وفى مشهدهم وهيئتهم وحركتهم فى ذلك اليوم مايثير الفزع والتخوف . كما أن فى التعبير من التهكم والسخرية مايناسب اعتزازهم بأنفسهم واغترارهم بمكانتهم . .

فهؤلاء الخارجون من القبور يسرعون الخطى كأنما هم ذاهبون إلى نصب يعبدونه .. وفى هذا التهكم تناسق مع حالهم فى الدنيا. لقد كانوا يسارعون إلى الأنصاب فى الأعياد ويتجمعون حولها . فهاهم أولاء يسارعون اليوم ، ولكن شتان بين يوم ويوم !

ثم تتم سماتهم بقوله : « خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة » فنلمح من خلال الكلمات سيماهم كاملة ، وترتسم لنا من قسماتهم صورة واضحة . صورة ذليلة عانية . . لقد كانوا يخوضون ويلعبون فهم اليوم أذلاء مرهقون . .

« ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون »

فكانوا يستريبون فيه ويكذبون ويستعجلون !

* * *

بهذا يلتئم المطلع والختام، وتتم هذه الحلقةمن حلقات العلاج الطويل لقضية البعث والجزاء، وتنتهى هذه الجولةمن جولات المعركة الطويلة بين التصور الجاهلى والتصور الإسلامى للحياة.

Marfat.com

سورة نوح مكيّة
وآياتها ٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ : أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ① قَالَ : يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ، وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

« قَالَ : رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ، وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ، وَأَصَرُّوا ، وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا * مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ؟ * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ؟ * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ؟ * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا .

« قَالَ نُوحٌ : رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا *

Marfat.com

وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً * وَقَالُوا : لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ، وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً ، وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا .

« مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً، فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصَاراً .

« وَقَالَ نُوحٌ : رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً * رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَلِوَالِدَيَّ ، وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً » ﴿٢٨﴾

هذه السورة كلها تقص قصة نوح ـ عليه السلام ـ مع قومه ؛ وتصف تجربة من تجارب الدعوة فى الأرض ؛ وتمثل دورة من دورات العلاج الدائم الثابت المتكرر للبشرية ، وشوطا من أشواط المعركة الخالدة بين الخير والشر ، والهدى والضلال ، والحق والباطل .

هذه التجربة تكشف عن صورة من صور البشرية العنيدة، الضالة ، الذاهبة وراء القيادات المضللة، المستكبرة عن الحق، المعرضة عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان ، المعروضة أمامها فى الأنفس والآفاق ، المرقومة فى كتاب الكون المفتوح ، وكتاب النفس المكنون .

وهى فى الوقت ذاته تكشف عن صورة من صور الرحمة الإلهية تتجلى فى رعاية الله لهذا الكائن الإنسانى ، وعنايته بأن يهتدى . تتجلى هذه العناية فى إرسال الرسل تترى إلى هذه البشرية العنيدة الضالة الذاهبة وراء القيادات المضللة المستكبرة عن الحق والهدى .

ثم هى بعد هذا وذلك تعرض صورة من صور الجهد المضنى، والعناء المرهق، والصبر الجميل، والإصرار الكريم من جانب الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ لهداية هذه البشرية الضالة العنيدة العصية الجامحة . وهم لامصلحة لهم فى القضية ولا أجر يتقاضونه من المهتدين على الهداية ، ولا مكافأة ولا جُعل يحصلونه على حصول الإيمان ! كالمكافأة أو النفقة التى تتقاضاها المدارس والجامعات والمعاهد والمعلمون ، فى زماننا هذا وفى كل زمان فى صورة نفقات للتعليم !

هذه الصورة التى يعرضها نوح ـ عليه السلام ـ على ربه ، وهو يقدم له حسابه الأخير بعد ألف سنة إلا خمسين عاما قضاها فى هذا الجهد المضنى ، والعناء المرهق ، مع قومه المعاندين ، الذاهبين وراء قيادة ضالة مضللة ذات سلطان ومال وعزوة . وهو يقول :

Marfat.com

« رب . إنى دعوت قومى ليلا ونهارا . فلم يزدهم دعائى إلا فرارا . وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم ، وأصروا واستكبروا استكبارا . ثم إنى دعوتهم جهارا . ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا . فقلت : استغفروا ربكم ، إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا . مالكم لاترجون لله وقارا؟ وقد خلقكم أطوارا؟ ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا؟ وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ؟ والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا . والله جعل لكم الأرض بساطا ، لتسلكوا منها سبلا فجاجا » . .

ثم يقول بعد عرض هذا الجهد الدائب الملح الثابت المصر :

« رب إنهم عصونى ، واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا . ومكروا مكرا كبارا . وقالوا : لاتذرن آلهتكم ، ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا . وقد أضلوا كثيرا . . . » . .

وهى حصيلة مريرة . ولكن الرسالة هى الرسالة !

هذه التجربة المريرة تعرض على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو الذى انتهت إليه أمانة دعوة الله فى الأرض كلها فى آخر الزمان ، ٠ اضطلع بأكبر عبء كلفه رسول . . يرى فيها صورة الكفاح النبيل الطويل لأخ له من قبل ، لإقرار حقيقة الإيمان فى الأرض . ويطلع منها على عناد البشرية أمام دعوة الحق ؛ وفساد القيادة الضالة وغلبتها على القيادة الراشدة . ثم إرادة الله فى إرسال الرسل تترى بعد هذا العناد والضلال منذ فجر البشرية على يدى جدها نوح عليه السلام .

وتعرض على الجماعة المسلمة فى مكة ، وعلى الأمة المسلمة بعامة ، وهى الوارثة لدعوة الله فى الأرض ، وللمنهج الإلهى المنبثق من هذه الدعوة ، القائمة عليه فى وسط الجاهلية المشتركة يومذاك ، وفى وسط كل جاهلية تالية . . ترى فيها صورة الكفاح والإصرار والثبات هذا المدى الطويل من أبى البشرية الثانى. كما ترى فيها عناية الله بالقلة المؤمنة، وإنجاءها من الهلاك الشامل فى ذلك الحين .

وتعرض على المشركين ليروا فيها مصير أسلافهم المكذبين ؛ ويدركوا نعمة الله عليهم فى إرساله إليهم رسولا رحيما بهم، لايدعو عليهم بالهلاك الشامل ؛ وذلك لما قدره الله من الرحمة

Marfat.com

بهم وإمهالهم إلى حين . فلم تصبهم من نبيهم دعوة كدعوة نوح ، بعد مااستنفد كل الوسائل ، وألهم الدعاء على القوم بما ألهم :

« ولا تزد الظالمين إلا ضلالا » . .

« وقال نوح رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفاراً » . .

* * *

ومن خلال عرض هذه الحلقة من حلقات الدعوة الإلهية على البشرية تتجلى حقيقة وحدة العقيدة وثبات أصولها ، وتأصل جذورها . كما يتجلى ارتباطها بالكون وبإرادة الله وقدره، وأحداث الحياة الواقعة وفق قدر الله . وذلك من خلال دعوة نوح لقومه : « قال : ياقوم إنى لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى ، إن أجل الله إذا جاء لايؤخر ، لو كنتم تعلمون » . . وفى حكاية قوله لهم : « مالكم لاترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا ؟ ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا؟ وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ؟ والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا ، والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا » . .

ولإقرار هذه الحقيقة فى نفوس المسلمين قيمته فى شعورهم بحقيقة دعوتهم ، وحقيقة نسبهم العريق ! وحقيقة موكبهم المتصل من مطلع البشرية . وحقيقة دورهم فى إقرار هذه الدعوة والقيام عليها . وهى منهج الله القويم القديم .

* * *

وإن الإنسان ليأخذه الدهش والعجب ،كما تغمره الروعة والخشوع ،وهو يستعرض ـ بهذه المناسبة ـ ذلك الجهد الموصول من الرسل ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ لهداية البشرية الضالة المعاندة . ويتدبر إرادة الله المستقرة على إرسال هؤلاء الرسل واحدا بعد واحد لهذه البشرية المعرضة العنيدة .

وقد يعن للإنسان أن يسأل : ترى تساوى الحصيلة هذا الجهد الطويل ، وتلك التضحيات النبيلة. من لدن نوح ـ عليه السلام ـ إلى محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثم ما كان بينها وماتلاها من جهود المؤمنين بدعوة الله وتضحياتهم الضخام ؟

Marfat.com

ترى هل تساوى هـذا الجهد الذى وصفه نوح فى هـذه السورة وفى غيرها من سور القرآن ، وقد استغرق عمرا طويلا بالغ الطول ، لم يكتف قومه فيه بالإعراض ، بل أتبعوه بالسخرية والاتهام . وهو يتلقاها بالصبر والحسنى ، والأدب الجميل والبيان المنير .

ثم تلك الجهود الموصولة منذ ذلك التاريخ ، وتلك التضحيات النبيلة التى لم تنقطع على مدار التاريخ . من رسل يستهزأ بهم ، أو يحرقون بالنار ، أو ينشرون بالمنشار ، أو يهجرون الأهل والديار . . حتى تجىء الرسالة الأخيرة ، فيجهد فيها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك الجهد المشهود المعروف ،هو والمؤمنون معه .ثم تتوالى الجهود المضنية والتضحيات المذهلة من القائمين على دعوته فى كل أرض وفى كل جيل ؟ ؟

ترى تساوى الحصيلة كل هـذه الجهود ، وكل هذه التضحيات ، وكل هـذا الجهاد المرير الشاق ؟ ثم : . ترى هـذه البشرية كلها تساوى تلك العناية الكريمة من الله ، المتجلية فى استقرار إرادته سبحانه على إرسال الرسل تترى بعد العناد والإعراض والإصرار والاستكبار، من هذا الخلق الهزيل الصغير المسمى بالإنسان ؟ !

والجواب بعد التدبر : أن نعم . . وبلا جدال . . !

إن استقرار حقيقة الإيمان بالله فى الأرض يساوى كل هذا الجهد ، وكل هذا الصبر ، وكل هذه المشقة ، وكل هذه التضحيات النبيلة المطردة من الرسل وأتباعهم الصادقين فى كل جيل !

ولعل استقرار هـذه الحقيقة أكبر من وجـود الإنسان ذاته ؛ بل أكبر من الأرض وما عليها ؛بل أكبر من هذا الكون الهائل الذى لاتبلغ الأرض أن تكون فيه هباءة ضائعة لاتكاد تحس أو ترى !

وقد شاءت إرادة الله أن يخلق هذا الكائن الإنسانى بخصائص معينة ، تجعل استقرار هذه الحقيقة فى ضميره وفى نظام حياته موكولا إلى الجهد الإنسانى ذاته ، بعون الله وتوفيقه . ولسنا نعلم لم خلق الله هـذا الكائن بهذه الخصائص . ووكله إلى إدراكه وجهده وإرادته فى تحقيق حقيقة الإيمان فى ذاته وفى نظام حياته ؛ولم يجبله على الإيمان والطاعة لايعرف غيرهما كالملائكة، أو يحضه للشر والمعصية لايعرف غيرهما كإبليس .

لسنا نعلم سر هذا . ولكننا نؤمن بأن هنالك حكمة تتعلق بنظام الوجود كله فى خلق هذا الكائن بهذه الخصائص !

Marfat.com

وإذن فلابد من جهد بشرى لإقرار حقيقة الإيمان فى عالم الإنسان . هـذا الجهد اختار الله له صفوة من عباده هم الأنبياء والرسل . وثلة مختارة من أتباعهم هم المؤمنون الصادقون . اختارهم لإقرار هذه الحقيقةفى الأرض، لأنها تساوى كل مايبذلون فيها من جهود مضنيةمريرة ، وتضحيات شاقة نبيلة .

إن استقرار هـذه الحقيقة فى قلب معناه أن ينطوى هـذا القلب على قبس من نور الله ؛ وأن يكون مستودعا لسر من أسراره ؛ وأن يكون أداة من أدوات قدره النافذ فى هـذا الوجود . . وهذه حقيقة لامجرد تصوير وتقريب . . وهى حقيقة أكبر من الإنسان ذاته ومن أرضه وسمائه ، ومن كل هذا الكون الكبير !

كما أن استقرار حقيقة الإيمان فى حياة البشر ـ أو جماعة منهم ـ معناه اتصال هـذه الحياة الأرضية بالحياة الأبدية ،وارتفاعها إلى المستوى الذى يؤهلها لهذا الاتصال . معناه اتصال الفناء بالبقاء والجزء بالكل والمحدود الناقص بالكمال المطلق . . . وهى حصيلة تربى على كل جهد وكل تضحية ولو تحققت على الأرض يوما أو بعض يوم فى عمر البشرية الطويل . لأن تحققها ـ ولو فى هـذه الصورة ـ يرفع أمام البشرية فى سائر أجيالها مشعل النور فى صورة عملية واقعية ، تجاهد لتبلغ إليها طوال الأجيال !

ولقد أثبت الواقع التاريخى المتكرر أن النفس البشرية لم تبلغ إلى آفاق الكمال المقدر لها بأية وسيلة كما بلغتها باستقرار حقيقة الإيمان بالله فيها . وأن الحياة البشرية لم ترتفع إلى هـذه الآفاق بوسيلة أخرى كما ارتفعت بهذه الوسيلة . وأن الفترات التى استقرت فيها هذه الحقيقة فى الأرض ، وتسلم أهلها قيادة البشرية كانت قمة فى تاريخ الإنسان سامقة . بل كانت حلما أكبر من الخيال ، ولكنه متمثل فى واقع يحياه الناس .

وما يمكن أن ترتقى البشرية ولا أن ترتفع عن طريق فلسفة أو علم أو فن أو مذهب من المذاهب أو نظام ، إلى المستوى الذى وصلت أو تصل إليه عن طريق استقرار حقيقة الإيمان بالله فى نفوس الناس وحياتهم وأخلاقهم وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم . . وهذه الحقيقة ينبثق منها منهج حياة كامل ، سواء جاءت مجملة كما هى فى الرسالات الأولى ، أو مفصلة شاملة دقيقة كما هى فى الرسالة الأخيرة .

والدليل القاطع على أن هذه العقيدة حقيقة من عند الله؛ هو هذا الذى أثبته الواقع التاريخى

Marfat.com

من بلوغ البشرية باستقرار حقيقة الإيمان فى حياتها مالم تبلغه قط بوسيلة أخرى من صنع البشر: لاعلم . ولا فلسفة . ولا فن . ولا نظام من النظم . وأنها حين فقدت قيادة المؤمنين الحقيقيين لم ينفعها شىء من ذلك كله ؛ بل انحدرت قيمها وموازينها وإنسانيتها . كما غرقت فى الشقاء النفسى والحيرة الفكرية والأمراض العصبية ، على الرغم من تقدمها الحضارى فى سائر الميادين، وعلى الرغم من توافر عوامل الراحة البدنية والمتاع العقلى ، وأسباب السعادة المادية بجملتها . ولكنها لم تنل السعادة والطمأنينة والراحة الإنسانية أبدا . ولم يرتفع تصورها للحياة قط كما ارتفع فى ظل الحقيقة الإيمانية ، ولم تتوثق صلتها بالوجود قط كما توثقت فى ظل هذه العقيدة ، ولم تشعر بكرامة « النفس الإنسانية » قط كما شعرت بها فى تلك الفترة التى استقرت فيها تلك الحقيقة . والدراسة الواعية للتصور الإسلامى لغاية الوجود كله وغاية الوجود الإنسانى تنتهى حتما إلى هذه النتيجة .

وهذا كله يستحق ـ بدون تردد ـ كل مايبذله المؤمنون من جهود مضنية ، ومن تضحيات نبيلة ، لإقرار حقيقة الإيمان بالله فى الأرض . وإقامة قلوب تنطوى على قبس من نور الله ، وتتصل بروح الله. وإقامة حياة إنسانية يتمثل فيها منهج الله للحياة . وترتفع فيها تصورات البشر وأخلاقهم ، كما يرتفع فيها واقع حياتهم إلى ذلك المستوى الرفيع ، الذى شهدته البشرية واقعا فى فترة من فترات التاريخ .

وستعرض البشرية كما أعرضت عن دعوة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم الكرام . وستذهب مع القيادات الضالة المضلة الممعنة فى الضلال . وستعذب الدعاة إلى الحق أنواعا مختلفة من العذاب، وتنكل بهم ألوانا شتى من النكال . كما ألقت إبراهيم فى النار، ونشرت غيره بالمنشار ، وسخرت واستهزأت بالرسل والأنبياء على مدار التاريخ .

ولكن الدعوة إلى الله لابد أن تمضى فى طريقها كما أراد الله . لأن الحصيلة تستحق الجهود المضنية والتضحيات النبيلة . ولو صغرت فانحصرت فى قلب واحد ينطوى على قبس من نور الله، ويتصل بروح الله !

إن هذا الموكب المتصل من الرسل والرسالات من عهد نوح ـ عليه السلام ـ إلى عهد محمد ـ عليه أزكى السلام ـ لينبىء عن استقرار إرادة الله على اطراد الدعوة إلى حقيقة الإيمان الكبيرة ، وعلى قيمة هذه الدعوة وقيمة الحصيلة . وأقل نسبة لهذه الحصيلة هى أن تستقر

Marfat.com

حقيقة الإيمان فى قلوب الدعاة أنفسهم حتى يلاقوا الموت وما هو أشد من الموت فى سبيلها ولاينكصون عنها . وبهذا يرتفعون على الأرض كلها وينطلقون من جواذبها ، ويتحررون من ربقتها. وهذا وحده كسب كبير، أكبر من الجهد المرير . كسب للدعاة. وكسب للإنسانية التى تشرف بهذا الصنف منها وتكرم .وتستحق أن يُسجد الله الملائكة لهذا الكائن ، الذى يفسد فى الأرض ويسفك الدماء . ولكنه يتهيأ ـ بجهده هو ومحاولته وتضحيته ـ لاستقبال قبس من نور الله . كما يتهيأ لأن ينهض ـ وهو الضعيف العاجز ـ بتحقيق قدر الله فى الأرض ، وتحقيق منهجه فى الحياة . ويبلغ من الطلاقة والتحرر الروحى أن يضحى بالحياة، ويحتمل من المشقة ماهو أكبر من ضياع الحياة ، لينجو بعقيدته وينهض بواجبه فى محاولة إقرارها فى حياة الآخرين ، وتحقيق السعادة لهم والتحرر والارتفاع . وحين يتحقق لروح الإنسان هذا القدر من التحرر والانطلاق ، يهون الجهد ، وتهون المشقة ، وتهون التضحية ، ويتوارى هذا كله ، لتبرز تلك الحصيلة الضخمة التى ترجح الأرض والسماء فى ميزان الله . . .

والآن نستعرض قصة نوح فى هذه السورة ، وما تمثله من حقيقة تلك الحقيقة !

* * *

«إنا أرسلنا نوحا إلى قومه : أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم. قال : ياقوم: إنى لكم نذير مبين : أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم إلى أجل مسمى ، إن أجل الله إذا جاء لايؤخر ، لو كنتم تعلمون » . .

تبدأ السورة بتقرير مصدر الرسالة والعقيدة وتوكيده : « إنا أرسلنا نوحا إلى قومه » .. فهذا هو المصدر الذى يتلقى منه الرسل التكليف ، كما يتلقون حقيقة العقيدة . وهو المصدر الذى صدر منه الوجود كله ، وصدرت منه الحياة . وهو الله الذى خلق البشر وأودع فطرتهم الاستعداد لأن تعرفه وتعبده ، فلما انحرفوا عنها وزاغوا أرسل إليهم رسله ، يردونهم إليه . ونوح ـ عليه السلام ـ كان أول هؤلاء الرسل ـ بعد آدم عليه السلام . وآدم لايذكر القرآن له رسالة بعد مجيئه إلى هذه الأرض ، وممارسته لهذه الحياة ؛ ولعله كان معلما لأبنائه وحفدته حتى إذا طال عليهم الأمد بعد وفاته ضلوا عن عبادة الله الواحد ، واتخذوا لهم أصناما آلهة . اتخذوها فى أول الأمر أنصابا ترمز إلى قوى قدسوها . قوى غيبية أومشهودة .ثم نسوا الرمز وعبدوا الأصنام ! وأشهرها تلك الخمسة التى سيرد ذكرها فى السورة . فأرسل الله إليهم نوحا

Marfat.com

يردهم إلى التوحيد ، ويصحح لهم تصورهم عن الله وعن الحياة والوجود . والكتب المقدمة السابقة تجعل إدريس ـ عليه السلام ـ سابقا لنوح . ولكن ماورد فى هذه الكتب لايدخل فى تكوين عقيدة المسلم ، لشبهة التحريف والتزيد والإضافة إلى تلك الكتب

والذى يتجه إليه من يقرأ قصص الأنبياء فى القرآن ، أن نوحا كان فى فجر البشرية ؛ وأن طول عمره الذى قضى منه ألف سنة إلا خمسين عاما فى دعوته لقومه ، ولابد أنهم كانوا طوال الأعمار بهذه النسبة . . أن طول عمره وأعمار جيله هكذا يوحى بأن البشر كانوا مايزالون قلة لم تتكاثر بعد كما تكاثرت فى الأجيال التالية . وذلك قياسا على مانراه من سنة الله فى الأحياء من طول العمر إذا قل العدد ، كأن ذلك للتعويض التعادل . . والله أعلم بذلك . . إنما هى نظرة فى سنة الله وقياس !

تبدأ السورة بتقرير مصدر الرسالة وتوكيده ، ثم تذكر فحوى رسالة نوح فى اختصار وهى الإنذار :

« أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم » . .

والحالة التى كان قوم نوح قد انتهوا إليها ، من إعراض واستكبار وعناد وضلال ـ كما تبرز من خلال الحساب الذى قدمه نوح فى النهاية لربه ـ تجعل الإنذار هو أنسب ماتلخص به رسالته ، وأول مايفتتح به الدعوة لقومه . الإنذار بعذاب أليم ، فى الدنيا أو فى الآخرة ، أو فيهما جميعا .

ومن مشهد التكليف ينتقل السياق مباشرة إلى مشهد التبليغ فى اختصار ، البارز فيه هو الإنذار ، مع الإطماع فى المغفرة على ما وقع من الخطايا والذنوب ؛ وتأجيل الحساب إلى الأجل المضروب فى الآخرة للحساب ؛ وذلك مع البيان المجمل لأصول الدعوة التى يدعوهم إليها :

« قال: ياقوم إنى لكم نذير مبين. أن اعبدوا الله، واتقوه، وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى . إن أجل الله إذا جاء لايؤخر لو كنتم تعلمون » . .

« ياقوم إنى لكم نذير مبين » . . مفصح عن نذارته ، مبين عن حجته ، لايتمتم ولا يجمجم ، ولا يتلعثم فى دعوته ، ولا يدع لبسا ولا غموضا فى حقيقة مايدعو إليه ، وفى حقيقة ماينتظر المكذبين بدعوته .

وما يدعو إليه بسيط واضح مستقيم : « أن اعبدوا الله، واتقوه وأطيعون » .. عبادة لله

Marfat.com

وحده بلا شريك . وتقوى الله تهيمن على الشعور والسلوك. وطاعة لرسوله تجعل أمره هو المصدر الذى يستمدون منه نظام الحياة وقواعد السلوك .

وفى هذه الخطوط العريضة تتلخص الديانة السماوية على الإطلاق . ثم تفترق بعد ذلك فى التفصيل والتفريع . وفى مدى التصور وضخامته وعمقه وسعته وشموله وتناوله للجوانب المختلفة للوجود كله ، وللوجود الإنسانى فى التفصيل والتفريع .

وعبادة الله وحده منهج كامل للحياة ، يشمل تصور الإنسان لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ؛ ولحقيقة الصلة بين الخلق والخالق ، ولحقيقة القوى والقيم فى الكون وفى حياة الناس .. ومن ثم ينبثق نظام للحياة البشرية قائم على ذلك التصور ، فيقوم منهج للحياة خاص. منهج ربانى مرجعه إلى حقيقة الصلة بين العبودية والألوهية ، وإلى القيم التى يقررها الله للأحياء والأشياء .

وتقوى الله . . هى الضمانة الحقيقية لاستقامة الناس على ذلك المنهج ، وعدم التلفت عنه هنا أو هناك ، وعدم الاحتيال عليه أو الالتواء فى تنفيذه . كما أنها هى مبعث الخلق الفاضل المنظور فيه إلى الله ، بلا رياء ولا تظاهر ولا مماراة .

وطاعة الرسول . . هى الوسيلة للاستقامة على الطريق ، وتلقى الهدى من مصدره المتصل بالمصدر الأول للخلق والهداية ، وبقاء الاتصال بالسماء عن طريق محطة الاستقبال المباشرة السليمة المضمونة !

فهذه الخطوط العريضة التى دعا نوح إليها قومه فى فجر البشرية هى خلاصة دعوة الله فى كل جيل بعده ، وقد وعدهم عليها ماوعد الله به التائبين التائبين :

« يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى » . .

وجزاء الاستجابة للدعوة إلى عبادة الله وتقواه وطاعة رسوله هى المغفرة والتخليص من الذنوب التى سلفت ؛ وتأخير الحساب إلى الأجل المضروب له فى علم الله . وهو اليوم الآخر . وعدم الأخذ فى الحياة الدنيا بعذاب الاستئصال (وسيرد فى الحساب الذى قدمه نوح لربه أنه وعدهم أشياء أخرى فى أثناء الحياة) .

ثم بين لهم أن ذلك الأجل المضروب حتمى يجىء فى موعده ، ولا يؤخر كما يؤخر عذاب الدنيا . . وذلك لتقرير هذه الحقيقة الاعتقادية الكبرى :

Marfat.com

« إن أجل الله إذا جاء لايؤخر ، لو كنتم تعلمون » . .

كما أن النص يحتمل أن يكون هذا تقريرا لكل أجل يضربه الله ؛ ليقر فى قلوبهم هذه الحقيقة بوجه عام . بمناسبة الحديث عن الوعد بتأخير حسابهم ـ لو أطاعوا وأنابوا ـ إلى يوم الحساب .

* * *

وراح نوح ـ عليه السلام ـ يواصل جهوده النبيلة الخالصة الكريمة لهداية قومه ، بلا مصلحة له ، ولا منفعة ؛ ويحتمل فى سبيل هذه الغاية النبيلة مايحتمل من إعراض واستكبار واستهزاء . . ألف سنة إلا خمسين عاما .. وعدد المستجيبين له لايكاد يزيد؛ ودرجة الإعراض والإصرار على الضلال ترتفع وتزداد ! ثم عاد فى نهاية المطاف يقدم حسابه لربه الذى كلفه هذا الواجب النبيل وذلك الجهد الثقيل ! عاد يصف ماصنع وما لاقى .. وربه يعلم . وهو يعرف أن ربه يعلم . ولكنها شكوى القلب المتعب فى نهاية المطاف ، إلى الجهة الوحيدة التى يشكو إليها الأنبياء والرسل والمؤمنون حقيقة الإيمان . . إلى الله . .

« قال : رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا ، فلم يزدهم دعائى إلا فرارا ؛ وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، وأصروا ، واستكبروا استكبارا . ثم إنى دعوتهم جهارا ، ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا . فقلت : استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا. مالكم لاترجون لله وقارا ؟وقد خلقكم أطوارا ؟ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا؟ وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ؟والله أنبتكم من الأرض نباتا ،ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا . والله جعل لكم الأرض بساطا ، لتسلكوا منها سبلا فجاجا » . .

هذا ماصنع نوح وهذا ما قال ؛ عاد يعرضه على ربه وهو يقدم حسابه الأخير فى نهاية الأمد الطويل . وهو يصور الجهد الدائب الذى لاينقطع : « إنى دعوت قومى ليلا ونهارا » . .

ولا يمل ولا يفتر ولا ييئس أمام الإعراض والإصرار : « فلم يزدهم دعائى إلا فراراً » .. فرارا من الداعى إلى الله . مصدر الوجود والحياة ، ومصدر النعم والآلاء ، ومصدر الهدى والنور . وهو لايطلب أجرا على السماع ولا ضريبة على الاهتداء ! الفرار ممن يدعوهم إلى الله ليغفر لهم ويخلصهم من جريرة الإثم والمعصية والضلال !

Marfat.com

فإذا لم يستطيعوا الفرار ، لأن الداعى واجههم مواجهة ، وتحين الفرصة ليصل إلى أسماعهم بدعوته ، كرهوا أن يصل صوته إلى أسماعهم . وكرهوا أن تقع عليه أنظارهم ، وأصروا على الضلال ، واستكبروا عن الاستجابة لصوت الحق والهدى : « وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم، واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا » .. وهى صورة لإصرار الداعية على الدعوة وتحين كل فرصة ليبلغهم إياها ؛ وإصرارهم هم على الضلال . تبرز من ثناياها ملامح الطفولة البشرية العنيدة . تبرز فى وضع الأصابع فى الآذان ، وستر الرؤوس والوجوه بالثياب . والتعبير يرسم بكلماته صورة العناد الطفولى الكامل ، وهو يقول : إنهم « جعلوا أصابعهم فى آذانهم » وآذانهم لاتسع أصابعهم كاملة، إنما هم يسدونها بأطراف الأصابع . ولكنهم يسدونها فى عنف بالغ ، كأنما يحاولون أن يجعلوا أصابعهم كلها فى آذانهم ضمانا لعدم تسرب الصوت إليها بتاتا ! وهى صورة غليظة للإصرار والعناد ، كما أنها صورة بدائية لأطفال البشرية الكبار !

ومع الدأب على الدعوة ، وتحين كل فرصة ، والإصرار على المواجهة . . اتبع نوح ـ عليه السلام ـ كل الأساليب فجهر بالدعوة تارة ، ثم زاوج بين الإعلان والإسرار تارة : « ثم إنى دعوتهم جهارا ، ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا » . .

وفى أثناء ذلك كله أطمعهم فى خير الدنيا والآخرة . أطمعهم فى الغفران إذا استغفروا ربهم فهو ـ سبحانه ـ غفار للذنوب : « فقلت : استغفروا ربكم إنه كان غفارا » . . وأطمعهم فى الرزق الوفير الميسور من أسبابه التى يعرفونها ويرجونها وهى المطر الغزير ، الذى تنبت به الزروع، وتسيل به الأنهار ، كما وعدهم برزقهم الآخر من الذرية التى يحبونها ـ وهى البنين ـ والأموال التى يطلبونها ويعزونها : « يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا » . .

وقد ربط بين الاستغفار وهذه الأرزاق . وفى القرآن مواضع متكررة فيها هذا الارتباط بين صلاح القلوب واستقامتها على هدى الله ، وبين تيسير الأرزاق ، وعموم الرخاء . . جاء فى موضع : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون [1] » . . وجاء فى موضع : « ولو أن أهل الكتاب

(١) سورة الأعراف . آية : ٩٦

Marfat.com

آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم . . . [1] » . . وجاء فى موضع : « ألا تعبدوا إلا الله إنى لكم منه نذير وبشير ، وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله . . . [2] »

وهذه القاعدة التى يقررها القرآن فى مواضع متفرقة، قاعدة صحيحة تقوم على أسبابها من وعد الله ، ومن سنة الحياة ؛ كما أن الواقع العملى يشهد بتحققها على مدار القرون . والحديث فى هذه القاعدة عن الأمم لا عن الأفراد وما من أمة قام فيها شرع الله ، واتجهت اتجاها حقيقيا لله بالعمل الصالح والاستغفار المنبىء عن خشية الله . . مامن أمة اتقت الله وعبدته وأقامت شريعته، تحققت العدل والأمن للناس جميعا ، إلا فاضت فيها الخيرات ، ومكن الله لها فى الأرض واستخلفها فيها بالعمران وبالصلاح سواء .

ولقد نشهد فى بعض الفترات أمما لا تتقى الله ولا تقيم شريعته ؛ وهى ـ مع هذا ـ موسع عليها فى الرزق ، ممكن لها فى الأرض . . ولكن هذا إنما هو الابتلاء : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » ثم هو بعد ذلك رخاء مؤوف ، تأكله آفات الاختلال الاجتماعى والانحدار الأخلاقى ، أو الظلم والبغى وإهدار كرامة الإنسان . وأمامنا الآن دولتان كبيرتان موسع عليهما فى الرزق ، ممكن لهما فى الأرض . إحداهما رأسمالية والأخرى شيوعية . وفى الأولى يهبط المستوى الأخلاقى إلى الدرك الأسفل من الحيوانية ، ويهبط تصور الحياة إلى الدرك الأسفل كذلك فيقوم كله على الدولار ! ! وفى الثانية تهدر قيمة « الإنسان » إلى درجة دون الرقيق وتسود الجاسوسية ويعيش الناس فى وجل دائم من المذابح المتوالية ؛ ويبيت كل إنسان وهو لا يضمن أنه سيصبح ورأسه بين كتفيه لا يطيح فى تهمة تحاك فى الظلام ! وليست هذه أو تلك حياة إنسانية توسم بالرخاء !

ونمضى مع نوح فى جهاده النبيل الطويل فنجده يأخذ بقومه إلى آيات الله فى أنفسهم وفى الكون من حولهم ، وهو يعجب من استهتارهم وسوء أدبهم مع الله ، وينكر عليهم ذلك الاستهتار :

---

(١) سورة المائدة . آية : ٦٥ ـ ٦٦

(٢) سورة هود . آية ٢ ـ ٣

Marfat.com

« مالكم لاترجون لله وقارا ؟ وقد خلقكم أطوارا ؟ » . .

والأطوار التى يخاطب بها قوم نوح فى ذلك الزمان لابد أن تكون أمرا يدركونه ، أوأن يكون أحد مدلولاتها مما يملك أولئك القوم فى ذلك الزمان أن يدركوه . ليرجو من وراء تذكيرهم به أن يكون له فى نفوسهم وقع مؤثر ، يقودهم إلى الاستجابة . والذى عليه أكثر المفسرين أنها الأطوار الجنينية من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى الهيكل إلى الخلق الكامل.. وهذا يمكن أن يدركه القوم إذا ذكر لهم . لأن الأجنة التى تسقط قبل اكتمالها فى الأرحام يمكن أن تعطيهم فكرة عن هذه الأطوار .وهذا أحد مدلولات هذه الآية . ويمكن أن يكون مدلولها مايقوله علم الأجنة . من أن الجنين فى أول أمره يشبه حيوان الخلية الواحدة ؛ ثم فى فترة من الحمل يمثل الجنين شبه الحيوان المتعدد الخلايا . ثم يأخذ شكل حيوان مائى . ثم شكل حيوان ثدىى . ثم شكل المخلوق الإنسانى . . وهذا أبعد عن إدراك قوم نوح . فقد كشف هذا حديثا جدا . وقد يكون هذا هو مدلول قوله تعالى فى موضع آخر بعد ذكر أطوار الجنين : « ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين (١) » . . كما أن هذا النص وذاك قد تكون لهما مدلولات أخرى لم تتكشف للعلم بعد . . ولا نقيدها . .

وعلى أية حال فقد وجه نوح قومه إلى النظر فى أنفسهم ، وأنكر عليهم أن يكون الله خلقهم أطوارا ، ثم هم بعد ذلك لايستشعرون فى أنفسهم توقيرا للجليل الذى خلقهم . . وهذا أعجب وأنكر مايقع من مخلوق !

كذلك وجههم إلى كتاب الكون المفتوح : « ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا ؟وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا؟ » .. والسماوات السبع لايمكن حصرها فى مدلول مماتقول به الفروض العلمية فى التعريف بالكون .فهى كلها مجرد فروض . إنما وجه نوح قومه إلى السماء وأخبرهم ـ كما علمه الله ـ أنها سبع طباق . فيهن القمر نور وفيهن الشمس سراج . وهم يرون القمر ويرون الشمس ،ويرون مايطلق عليه اسم السماء . وهو هذا الفضاء ذو اللون الأزرق . أما ماهو ؟ فلم يكن ذلك مطلوبا منهم . ولم يجزم أحد إلى اليوم بشىء فى هذا الشأن .. وهذا التوجيه يكفى لإثارة التطلع والتدبر فيماوراء هذه الخلائق الهائلة من قدرة مبدعة .. وهذا هو المقصود من ذلك التوجيه . ثم عاد نوح فوجه قومه إلى النظر فى نشأتهم من

(١) سورة المؤمنون : آيه ١٤

Marfat.com

الأرض وعودتهم إليها بالموت ليقرر لهم حقيقة إخراجهم منها بالبعث: «والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا » . .

والتعبير عن نشأة الإنسان من الأرض بالإنبات تعبير عجيب موح . وهو يكرر فى القرآن فى صور شتى . كقوله تعالى : « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لايخرج إلا نكدا » . وهو يشير فى هذا إلى نشأة الناس كنشأة النبات . كما يقرن نشأة الإنسان بنشأة النبات فى مواضع متفرقة :ففى سورة الحج يجمع بينهما فى آية واحدة فى صدد البرهنة على حقيقة البعث فيقول : « ياأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة، لنبين لكم، ونقر فى الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ،ثم لتبلغوا أشدكم ،ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لايعلم من بعد علم شيئا . وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » . . وفى سورة « المؤمنون » يذكر أطوار النشأة الجنينية قريبا مما ذكرت فى سورة الحج ويجىء بعدها : « فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب » . . وهكذا . .

وهى ظاهرة تستدعى النظر ولا ريب . فهى توحى بالوحدة بين أصول الحياة على وجه الأرض ، وأن نشأة الإنسان من الأرض كنشأة النبات . من عناصرها الأولية يتكون . ومن عناصرها الأولية يتغذى وينمو ؛ فهو نبات من نباتها . وهبه الله هذا اللون من الحياة كما وهب النبات ذلك اللون من الحياة . وكلاهما من نتاج الأرض ، وكلاهما يرضع من هذه الأم !

وكذلك ينشىء الإيمان فى المؤمن تصورا حقيقيا حيا لعلاقته بالأرض وبالأحياء. تصورا فيه دقة العلم وفيه حيوية الشعور . لأنه قائم على الحقيقة الحية فى الضمير . وهذه ميزة المعرفة القرآنية الفريدة .

والناس الذين نبتوا من الأرض يعودون إلى جوفها مرة أخرى . يعيدهم الله إليها كما أنبتهم منها . فيختلط رفاتهم بتربتها ، وتندمج ذراتهم فى ذراتها ، كما كانوا فيها من قبل أن ينبتوا منها ؛ ثم يخرجهم الذى أخرجهم أول مرة ؛ وينبتهم كما أنبتهم أول مرة . . مسألة سهلة يسيرة لاتستدعى التوقف عندها لحظة ، حين ينظر الإنسان إليها من هذه الزاوية التى يعرضها القرآن منها !

Marfat.com

ونوح ـ عليه السلام ـ وجه قومه إلى هذه الحقيقة لتستشعر قلوبهم يد الله وهى تنبتهم من هذه الأرض نباتا . وهى تعيدهم فيها مرة أخرى . ثم تتوقع النشأة الأخرى وتحسب حسابها ، وهى كائنة بهذا اليسر وبهذه البساطة . بساطة البداهة التى لاتقبل جدلا !

وأخيرا وجه نوح قلوب قومه إلى نعمة الله عليهم فى تيسير الحياة لهم على هـذه الأرض وتذليلها لسيرهم ومعاشهم وانتقالهم وطرائق حياتهم: «والله جعل لكم الأرض بساطا ، لتسلكوا منها سبلا فجاجا » .

وهذه الحقيقة القريبة من مشاهدتهم وإدراكهم تواجههم مواجهة كاملة ، ولا يملكون الفرار منها كما كانوا يفرون من صوت نوح وإنذاره . فهذه الأرض بالقياس إليهم مبسوطة ممهدة ـ حتى جبالها قد جعل لهم عبرها دروبا وفجاجا ، كما جعل فى سهولها من باب أولى . وفى سبلها ودروبها يمشون ويركبون وينتقلون ؛ ويبتغون من فضل الله، ويتعايشون فى يسر وتبادل للمنافع والأرزاق .

وهم كانوا يدركون هـذه الحقيقة للمشاهدة لهم بدون حاجة الى دراسات علمية عويصة ، يدرسون بها النواميس التى تحكم وجودهم على هذه الأرض ، وتيسر لهم الحياة فيها . وكلما زاد الإنسان علما أدرك من هذه الحقيقة جوانب جديدة وآفاقا بعيدة (١)

هـكذا سلك نوح ـ أو حاول أن يسلك ـ إلى آذان قومه وقلوبهـم وعقولهم بشتى الأساليب ، ومتنوع الوسائل فى دأب طويل ، وفى صبر جميل ، وفى جهد نبيل ، ألف سنة إلا خمسين عاما . ثم عاد إلى ربه الذى أرسله إليهم ، يقدم حسابه ، ويبث شكواه ، فى هذا البيان المفصل ، وفى هـذه اللهجة المؤثرة . ومن هذا البيان الدقيق نطلع على تلك الصورة النبيلة من الصبر والجهد والمشقة ، وهى حلقة واحدة فى سلسلة الرسالة السماوية لهذه البشرية الضالة العصية! فماذا كان بعد كل هذا البيان ؟

« قال نوح : رب إنهم عصونى ، واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا . ومكروا مكرا كبارا . وقالوا لاتذرن آلهتكم ، ولا تذرن ودا ولاسواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا . وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا » . .

---

(١) تراجع سورة الملك عند قوله تعالى : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » . ص ٥ .

Marfat.com

رب إنهم عصونى ! بعد كل هذا الجهاد ، وبعد كل هذا العناء . وبعد كل هذا التوجيه . وبعد كل هذا التنوير . وبعد الإنذار والإطماع والوعد بالمال والبنين والرخاء . . بعد هـذا كله كان العصيان . وكان السير وراء القيادات الضالة المضللة ، التى تخدع الأتباع بما تملك من المال والأولاد ، ومظاهر الجاه والسلطان . ممن « لم يزده ماله وولده إلا خسارا » فقد أغراهم المال والولد بالضلال والإضلال ، فلم يكن وراءهما إلا الشقاء والخسران .

هؤلاء القادة لم يكتفوا بالضلال .. « ومكروا مكرا كبارا » .. مكرا متناهيا فى الكبر. مكروا لإبطال الدعوة وإغلاق الطريق فى وجهها إلى قلوب الناس . ومكروا لتزيين الكفر والضلالوالجاهلية التى تخبط فيها القوم. وكان من مكرهم تحريض الناس على الاستمساك بالأصنام التى يسمونها آلهة : « وقالوا : لاتذرن آلهتكم » . . بهذه الإضافة : « آلهتكم » لإثارة النخوة الكاذبة والحمية الآثمة فى قلوبهم . وخصصوا من هـذه الأصنام أكبرها شأنا فخصوها بالذكر ليهيج ذكرها فى قلوب العامة المضللين الحمية والاعتزاز . . « ولا تذرن ودا ، ولا سواعا ، ولا يغوث ، ويعوق ، ونسرا » . . وهى أكبر آلهتهم التى ظلت تعبد فى الجاهليات بعدهم إلى عهد الرسالة المحمدية .

وهكذا تلك القيادات الضالة المضللة تقيم أصناما ، تختلف أسماؤها وأشكالها ، وفق النمرة السائدة فى كل جاهلية ؛ وتجمع حواليها الأتباع ، وتهيج فى قلوبهم الحمية لهذه الأصنام ، كى توجههم من هذا الحطام إلى حيث تشاء ، وتبقيهم على الضلال الذى يكفل لها الطاعة والانقياد: « وقد أضلوا كثيرا » ككل قيادة ضالة تجمع الناس حول الأصنام . . أصنام الأحجار . وأصنام الأشخاص . وأصنام الأفكار . . سواء ! ! للصد عن دعوة الله، وتوجيه القلوب بعيدا عن الدعاة ، بالمكر الكبار ، والكيد والإصرار !

* * *

هنا انبعث من قلب النبي الكريم نوح ـ عليه السلام ـ ذلك الدعاء على الظالمين الضالين المضلين ، الماكرين الكائدين :

« ولا تزد الظالمين إلا ضلالا » . .

ذلك الدعاء المنبعث من قلب جاهد طويلا ، وعانى كثيرا ، وانتهى ـ بعد كل وسيلة ـ إلى اقتناع بأن لاخير فى القلوب الظالمة الباغية العاتية ؛ وعلم أنها لاتستحق الهدى ولا تستأهل النجاة .

Marfat.com

وقبل أن يعرض السياق بقية دعاء نوح ـ عليـه السلام ـ يعرض ماصار إليه الظالمون الخاطئون فى الدنيا والآخـرة جميعا ! فأمر الآخرة كأمر الدنيـا حاضر بالقياس إلى علم الله ، وبالقياس إلى الوقوع الثابت الذى لاتغيير فيه :

« مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا . فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا » .

فبخطيئاتهم وذنوبهم ومعصياتهم أغرقوا فأدخلوا نارا . والتعقيب بالفاء مقصود هنا ،لأن إدخالهم النار موصول بإغراقهم ؛ والفاصل الزمنى القصير كأنه غير موجود ، لأنه فى موازين الله لايحسب شيئا . فالترتيب مع التعقيب كائن بين إغراقهم فى الأرض وإدخالهم النار يوم القيامة. وقد يكون هو عذاب القبر فى الفترة القصيرة بين الدنيا والآخرة . . « فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا » . .

لابنون ولا مال ولا سلطان ولا أولياء من الآلهة المدعاة !

وفى آيتين اثنتين قصيرتين ينتهى أمر هؤلاء العصاة العتاة ، ويطوى ذكرهم من الحياة ! وذلك قبل أن يذكر السياق دعاء نوح عليهم بالهلاك والفناء . . ولا يفصل هنا قصة غرقهم ، ولا قصة الطـوفان الذى أغرقهم . لأن الظل المراد إيقاؤه فى هـذا الموقف هو ظل الإجهاز السريع ، حتى ليعبر المسافة بين الإغراق والإحـراق فى حرف الفاء ! على طريقة القرآن فى إيقاعاته التعبيرية والتصويرية المبدعة . فنقف نحن فى ظـلال السياق لانتعداها إلى تفصيل قصـة الإغراق . . ولا الإحراق . . !

ثم يـكمل دعاء نوح الأخير ؛ وابتهاله إلى ربه فى نهاية المطاف :

« وقال نوح : رب لاتذر على الأرض من الـكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا . رب اغفرلى ولوالدى ، ولمن دخل بيتى مؤمنا ، وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا » . .

فقد ألهم قلب نوح أن الأرض تحتاج إلى غسل يطهر وجهها من الشر العارم الخالص الذى انتهى إليه القوم فى زمانه .وأحيانا لايصلح أى علاج آخر غير تطهير وجه الأرض من الظالمين، لأن وجودهم يجمد الدعوة إلى الله نهائيا ، ويحول بينها وبين الوصول إلى قلوب الآخرين . وهى الحقيقة التى عبر عنها نوح، وهو يطلب الإجهاز على أولئك الظالمين إجهازا كاملا لايبقى منهم ديارا ـ أى صاحب ديار ـ فقال : « إنك إن تذرهم يضلوا عبادك » . . ولفظة « عبادك »

Marfat.com

توحى بأنهم المؤمنون . فهى تجىء فى السياق القرآنى فى مثل هذا الموضع بهذا المعنى . وذلك بفتنتهم عن عقيدتهم بالقوة الغاشمة ، أو بفتنة قلوبهم بما ترى من سلطان الظالمين وتركهم من الله فى عافية !

ثم إنهم يوجدون بيئة وجوا يولد فيها الكفار ، وتوحى بالكفر من الناشئة الصغار . بما يطبعهم به الوسط الذى ينشئه الظالمون ، فلا توجد فرصة لترى الناشئة النور ، من خلال ماتغمرهم به البيئة الضالة التى صنعوها . وهى الحقيقة التى أشار إليها قول النبى الكريم نوح عليه السلام ، وحكاها عنه القرآن : « ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا » . . فهم يطلقون فى جو الجماعة أباطيل وأضاليل ، وينشئون عادات وأوضاعا ونظما وتقاليد ، ينشأ معها المواليد فجارا كفارا ، كما قال نوح . .

من أجل هذا دعا نوح ـ عليه السلام ـ دعوته الماحقة الساحقة . ومن أجل هذا استجاب الله دعوته ، فغسل وجه الأرض من ذلك الشر ؛ وجرف العواثير التى لاتجرفها إلا قوة الجبار القدير .

وإلى جانب الدعوة الساحقة الماحقة التى جعلها خاتمة دعائه وهو يقول : « ولا تزد الظالمين إلا تبارا » ـ أى هلاكا ودمارا ـ إلى جانب هذا كان الابتهال الخاشع الودود :

« رب اغفرلى ولوالدى ، ولمن دخل بيتى مؤمنا ، وللمؤمنين والمؤمنات . . . » . .

ودعاء نوح النبى لربه أن يغفر له .. هو الأدب النبوى الكريم فى حضرة الله العلى العظيم .. أدب العبد فى حضرة الرب . العبد الذى لاينسى أنه بشر ، وأنه يخطىء ، وأنه يقصر ، مهما يطع ويعبد ، وأنه لايدخل الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله بفضله ، كما قال أخوه النبى الكريم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهذا هو الاستغفار الذى دعا قومه العصاة الخاطئين إليه ، فاستكبروا عليه . . وهو هو النبى يستغفر بعد كل هذا الجهد وكل هذا العناء . يستغفر وهو يقدم لربه سجل الحساب !

ودعاؤه لوالديه . . هو بر النبوة بالوالدين المؤمنين ـ كما نفهم من هذا الدعاء ـ ولو لم يكونا مؤمنين لروجع فيهما كما روجع فى شأن ولده الكافر الذى أغرق مع المغرقين (كما جاء فى سورة هود) .

ودعاؤه الخاص لمن دخل بيته مؤمنا .. هو بر المؤمن بالمؤمن ؛ وحب الخير لأخيه كما يحبه

Marfat.com

لنفسه، وتخصيص الذى يدخل بيته مؤمنا. لأن هذه كانت علامة النجاة ، وحصر المؤمنين الذين سيصحبهم معه فى السفينة .

ودعاؤه العام بعد ذلك للمؤمنين والمؤمنات . . هو بر المؤمن بالمؤمنين كافة فى كل زمان ومكان . وشعوره بآصرة القربى على مدار الزمن واختلاف السكن .وهو السر العجيب فى هذه العقيدة التى تربط بين أصحابها برباط الحب الوثيق، والشوق العميق ،على تباعد الزمان والمكان. السر الذى أودعه الله هذه العقيدة ، وأودعه هذه القلوب المربوطة برباط العقيدة . .

وفى مقابل هذا الحب للمؤمنين ، كان الكره للظالمين .

« ولا تزد الظالمين إلا تبارا » . .

* * *

وتختم السورة ، وقد عرضت تلك الصورة الوضيئة لجهاد النبى الكريم نوح عليه السلام. وتلك الصورة المطموسة لإصرار المعاندين الظالمين . . وقد تركت هذه وتلك فى القلب حبا لهذا الروح الكريم وإعجابا بهذا الجهاد النبيل .وزادا للسير فى هذا الطريق الصاعد .أيا كانت المشاق والمتاعب . وأيا كانت التضحيات والآلام .فهو الطريق الوحيد الذى ينتهى بالبشرية إلى أقصى الكمال المقدر لها فى هذه الأرض . حين ينتهى بها إلى الله ، العلى الأعلى ، الجليل العظيم . .

Marfat.com

سورة الجنّ مكيّة
وآياتها ٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

« قُلْ : أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ ، فَقَالُوا : إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً ① يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ، وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً * وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً * وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطاً * وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِباً * وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً * وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ أَحَداً * وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ، فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً * وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً * وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ، كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً * وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللهَ فِي الْأَرْضِ ، وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً * وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً * وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ، فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً .

« وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً * وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً * وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً .

Marfat.com

« قُلْ : إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّى وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً .

« قُلْ : إِنِّى لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَداً .

« قُلْ : إِنِّى لَنْ يُجِيرَنِى مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً * إِلَّا بَلَاغاً مِنَ اللهِ وَرِسَالَاتِهِ ، وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً * حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً .

« قُلْ : إِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّى أَمَداً * عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ، فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ ، وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ، وَأَحْصَى كُلَّ شَىْءٍ عَدَداً » (٢٨)

هذه السورة تبدء الحس ـ قبل أن ينظر إلى المعانى والحقائق الواردة فيها ـ بشىء آخر واضح كل الوضوح فيها . . إنها قطعة موسيقية مطردة الإيقاع، قوية التنغيم ،ظاهرة الرنين ؛مع صبغة من الحزن فى إيقاعها ، ومسحة من الأسى فى تنغيمها ، وطائف من الشجى فى رنينها . يساند هذه الظاهرة ويتناسق معها صور السورة وظلالها ومشاهدها، ثم روح الإيحاء فيها . وبخاصة فى الشطر الأخير منها بعد انتهاء حكاية قول الجن، والاتجاه بالخطاب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا الخطاب الذى يثير العطف على شخص الرسول فى قلب المستمع لهذه السورة، عطفا مصحوبا بالحب وهو يؤمر أن يعلن تجرده من كل شىء فى أمر هذه الدعوة إلا البلاغ ، والرقابة الإلهية المضروبة حوله وهو يقوم بهذا البلاغ :

« قل : إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا .. قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا ، إلا بلاغا من الله ورسالاته ، ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا ،حتى إذا رأوا مايوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا .. قل : إن أدرى أقريب ماتوعدون أم يجعل له ربى أمدا ، عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ، إلا من ارتضى

Marfat.com

من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، وأحاط بما لديهم ، وأحصى كل شيء عددا » . .

وذلك كله إلى جانب الإيقاع النفسى للحقائق التى وردت فى حكاية قول الجن ، وبيانهم الطويل المديد . وهى حقائق ذات ثقل ووزن فى الحس والتصور ؛ والاستجابة لها تغشى الحس بحالة من التدبر والتفكير ، تناسب مسحة الحزن ورنة الشجى المتمشية فى إيقاع السورة الموسيقى !

وقراءة هذه السورة بشيء من الترتيل الهادىء توقع فى الحس هذا الذى وصفناه من المسحة الغالبة عليها .

* * *

فإذا تجاوزنا هذه الظاهرة التى تبدو الحس ؛ إلى موضوع السورة ومعانيها واتجاهها فإننا نجدها حافلة بشتى الدلالات والإيحاءات .

إنها ابتداء شهادة من عالم آخر بكثير من قضايا العقيدة التى كان المشركون يجحدونها ويجادلون فيها أشد الجدل ، ويرجمون فى أمرها رجما لا يستندون فيه إلى حجة ، ويزعمون أحيانا أن محمدا — صلى الله عليه وسلم — يتلقى من الجن مايقوله لهم عنها ! فتجىء الشهادة من الجن أنفسهم بهذه القضايا التى يجحدونها ويجادلون فيها ؛ وبتكذيب دعواهم فى استمداد محمد من الجن شيئا . والجن لم يعلموا بهذا القرآن إلا حين سمعوه من محمد — صلى الله عليه وسلم — فهالهم وراعهم ومسهم منه ما يدهش ويذهل ، وملأ نفوسهم وفاض حتى ما يملكون السكوت على ما سمعوا ، ولا الإجمال فيما عرفوا ، ولا الاختصار فيما شعروا . فانطلقوا يحدثون فى روعة المأخوذ ، ووهلة المشدوه ، عن هذا الحدث العظيم ، الذى شغل السماء والأرض والإنس والجن والملائكة والكواكب . وترك آثاره ونتائجه فى الكون كله ! . . وهى شهادة لها قيمتها فى النفس البشرية حتما .

ثم إنها تصحيح لأوهام كثيرة عن عالم الجن فى نفوس المخاطبين ابتداء بهذه السورة ، وفى نفوس الناس جميعا من قبل ومن بعد ؛ ووضع حقيقة هذا الخلق الغيب فى موضعها بلا غلو ولا اعتساف . فقد كان العرب المخاطبون بهذا القرآن أول مرة يعتقدون أن للجن سلطانا فى الأرض ، فكان الواحد منهم إذا أمسى بواد أو قفر ، لجأ إلى الاستعاذة بعظيم الجن الحاكم

Marfat.com

لما نزل فيه من الأرض ، فقال : أعوذ بسيد هـذا الوادى من سفهاء قومه . . ثم بات آمنا ! كذلك كانوا يعتقدون أن الجن تعلم الغيب وتخبر به الكهان فيتنبأون بما يتنبأون . وفيهم من عبد الجن وجعل بينهم وبين الله نسبا ، وزعم له سبحانه وتعالى زوجة منهم تلد له الملائكة !

والاعتقاد فى الجن على هـذا النحو أو شبهه كان فاشيا فى كل جاهلية ، ولا تزال الأوهام والأساطير من هذا النوع تسود بيئات كثيرة إلى يومنا هذا ! ! !

وبينما كانت الأوهام والأساطير تغمر قلوب الناس ومشاعرهم وتصوراتهم عن الجن فى القديم ، وما تزال . . نجد فى الصف الآخر اليوم منكرين لوجود الجن أصلا . يصفون أى حديث عن هذا الخلق المغيب بأنه حديث خرافة . .

وبين الإغراق فى الوهم ، والإغراق فى الإنكار ، يقرر الإسلام حقيقة الجن ، ويصحح التصورات العامة عنهم ، ويحرر القلوب من خوفها وخضوعها لسلطانهم الموهوم :

فالجن لهم حقيقة موجودة فعلا وهم كما يصفون أنفسهم هنا : « وأنامنا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا » . . ومنهم الضالون المضلون ومنهم السذج الأبرياء الذين ينخدعون: « وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا ،وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا » .. وهم قابلون للهداية من الضلال ،مستعدون لإدراك القرآن سماعا وفهما وتأثرا : « قل : أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا :إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا » . . وأنهم قابلون بخلقتهم لتوقيع الجزاء عليهم وتحقيق نتائج الإيمان والكفر فيهم : « وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به، فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا .وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون ، فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا، وأما القاسطون ، فكانوا لجهنم حطبا » .. وأنهم لاينفعون الإنس حين يلوذون بهم بل يرهقونهم : « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » . . وأنهم لايعلمون الغيب ، ولم تعد لهم صلة بالسماء : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ، وأنا لاندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا » .. وأنهم لاصهر بينهم وبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولانسب : « وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا » . . وأن الجن لاقوة لهم مع قوة الله ولاحيلة : « وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا » . . .

Marfat.com

وهذا الذى ذكر فى هذه السورة عن الجن بالإضافة إلى ماجاء فى القرآن من صفات أخرى كتسخير طائفة من الشياطين لسليمان ـ وهم من الجن ـ وأنهم لم يعلموا بموته إلا بعد فترة ، فدل هذا على أنهم لايعلمون الغيب : « فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته إلادابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين [1] » . .

ومثل قوله تعالى عن خصيصة من خصائص إبليس وقبيله ـ وهو من الجن ـ غير أنه تمحض للشر والفساد والإغراء : « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم [2] » . . وما يدل عليه من أن كيان الجن غير مرئى للبشر ، فى حين أن كيان الإنس مرئى للجن .

هذا بالإضافة إلى ماقرره فى سورة الرحمان عن المادة التى منها كيان الجن والمادة التى منها كيان الإنسان فى قوله : « خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار » . . يعطى صورة عن ذلك الخلق المغيب ، تثبت وجوده ، وتحدد الكثير من خصائصه ؛ وفى الوقت ذاته تكشف الأوهام والأساطير ، العالقة بالأذهان عن ذلك الخلق ، وتدع تصور المسلم عنه واضحا دقيقا متحررا من الوهم والخرافة ، ومن التعسف فى الإنكار الجامح كذلك !

وقد تكفلت هذه السورة بتصحيح ما كان مشركو العرب وغيرهم يظنونه عن قدرة الجن ودورهم فى هذا الكون . أما الذين ينكرون وجود هذا الخلق إطلاقا ، فلا أدرى علام يبنون هذا الإنكار ، بصيغة الجزم والقطع ، والسخرية من الاعتقاد بوجوده ، وتسميته خرافة !

ألأنهم عرفوا كل مافى هذا الكون من خلائق فلم يجدوا الجن من بينها ؟ ! إن أحدا من العلماء لايزعم هذا حتى اليوم . وإن فى هذه الأرض وحدها من الخلائق الحية لكثيرا مما يكشف وجوده يوما بعد يوم ، ولم يقل أحد إن سلسلة الكشوف للأحياء فى الأرض وقفت أو ستقف فى يوم من الأيام !

ألأنهم عرفوا كل القوى المكنونة فى هذا الكون فلم يجدوا الجن من بينها ؟ ! إن أحدا لايدعى هذه الدعوى . فهناك قوى مكنونة تكشف كل يوم ؛ وهى كانت مجهولة بالأمس .

---

(١) سورة سبأ . آية ١٤

(٢) سورة الأعراف آية ٢٧

Marfat.com

والعلماء جادون فى التعرف إلى القوى الكونية ، وهم يعلنون فى تواضع قادتهم إليه كشوفهم العلمية ذاتها ، أنهم يقفون على حافة المجهول فى هذا الكون ، وأنهم لم يكادوا يبدأون بعد !

ألأنهم رأوا كل القوى التى استخدموها . فلم يروا الجن من بينها ؟ ! ولا هذه . فإنهم يتحدثون عن الكهرب بوصفه حقيقة علمية منذ توصلوا إلى تحطيم الذرة . ولكن أحدا منهم لم ير الكهرب قط . وليس فى معاملهم من الأجهزة ما يفرزون به كهربا من هذه الكهارب التى يتحدثون عنها !

ففيم إذن هذا الجزم بنفى وجود الجن ؟ ومعلومات البشر عن هذا الكون وقواه وسكانه من الضآلة بحيث لاتسمح لإنسان يحترم عقله أن يجزم بشىء ؟ ألأن هذا الخلق المسمى الجن تعلقت به خرافات شتى وأساطير كثيرة ؟ إن طريقنا فى هذه الحالة هو إبطال هذه الخرافات والأساطير كما صنع القرآن الكريم، لاالتبجح بنفى وجود هذا الخلق من الأساس، بلا حجة ولا دليل ! ومثل هذا الغيب ينبغى تلقى نبئه من المصدر الوحيد الموثوق بصحته ، وعدم معارضة هذا المصدر بتصورات سابقة لم تستمد منه . فما يقوله هو كلمة الفصل فى مثل هذا الموضوع .

* * *

والسورة التى بين أيدينا ـ بالإضافة إلى ماسبق ـ تساهم مساهمة كبيرة فى إنشاء التصور الإسلامى عن حقيقة الألوهية ، وحقيقة العبودية ، ثم عن هذا الكون وخلائقه ، والصلة بين هذه الخلائق المنوعة .

وفى مقالة الجن مايشهد بوحدانية الله ، ونفى الصاحبة والولد، وإثبات الجزاء فى الآخرة ؛ وأن أحدا من خلق الله لايعجزه فى الأرض ولا يفلت من يديه ويفوته، فلا يلاقى جزاءه العادل. وتتكرر بعض هذه الحقائق فيما يوجه للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الخطاب : « قل : إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا . قل : إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا » . . وذلك بعد شهادة الجن بهذه الحقيقة شهادة كاملة صريحة .

كما أن تلك الشهادة تقرر أن الألوهية لله وحده ،وأن العبودية هى أسمى درجة يرتفع إليها البشر : « وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا » . . ويؤكد السياق هذه الحقيقة فيما يوجه للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من خطاب : « قل : إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا » .

والغيب موكول لله وحده ؛ لاتعرفه الجن : « وأنا لاندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم

Marfat.com

أراد بهم ربهم رشدا » . . ولاتعرفه الرسل إلا مايطلعهم الله عليه منه لحكمة يعلمها : « قل : إن أدرى أقريب ماتوعدون أم يجعل له ربى أمدا عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ، إلا من ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا . . . . » . .

أما العباد والعبيد فى هـذا الكون ، فقد علمتنا السورة أن بين بعضها والبعض الآخر مشاركات ومنافذ ،ولو اختلف تكوينها ، كالمشاركات التى بين الجن والإنس ،مما حكته السورة وحكاه القرآن فى مواضع أخرى . فالإنسان ليس بمعزل ـ حتى فى هذه الأرض ـ عن الخلائق الأخرى . وبينه وبينها اتصال وتفاعل فى صورة من الصور . وهذه العزلة التى يحسها الإنسان بجنسه ـ بله العزلة الفردية أو القبلية أو القومية ـ لاوجو . لها فى طبيعة الكون ولا فى واقعه . وأحرى بهذا التصور أن يفسح فى شعور الإنسان بالكون وما يعمره من أرواح وقوى وأسرار . قد يجهلها الإنسان ، ولكنها موجودة بالفعل من حوله ، فهو ليس الساكن الوحيد لهذا الكون كما يعن له أحيانا أن يشعر !

ثم إن هناك ارتباطا بين استقامة الخلائق على الطريقة ، وتحركات هذا الكون ونتائجها ، وقدر الله فى العباد : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه . ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا » . . وهذه الحقيقة تؤلف جانبا من التصور الإسلامى للارتباطات بين الإنسان والكون وقدر الله .

وهكذا تمتد إيحاءات السورة إلى مساحات ومسافات وأبعاد وآماد واسعة بعيدة ، وهى سورة لاتتجاوز الثمانى والعشرين آية ، نزلت فى حادثة معينة ومناسبة خاصة . .

* * *

فأما هذا الحادث الذى أشارت إليه السورة . حادث استماع نفر من الجن للقرآن . فتختلف بشأنه الروايات .

قال الإمام الحافظ أبو بكر البيهقى فى كتابه : « دلائل النبوة » : أخبرنا أبو الحسن على ابن أحمد ابن عبدان ، أخبرنا أحمد ابن عبيد الصفار ، حدثنا إسماعيل القاضى ، أخبرنا مسدد، حدثنا أبو عوانة ، عن أبى بشر ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : « ماقرأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الجن ولا رآهم . انطلق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، أرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم ، فقالوا : مالكم ؟ فقالوا :

Marfat.com

حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. قالوا :ماحال بينكم وبين خبر السماء إلاشيء حدث. فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، وانظروا ماهذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء. فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ماهذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء . فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو بنخلةعامدا إلى سوق عكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا إليه ، فقالوا : هذا والله الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم قالوا : «ياقومنا .. إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدىإلى الرشد فآمنا بهولن نشرك بربناأحدا » . . وأنزل الله على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « قل: أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن » .. وإنما أوحى إليه قول الجن (ورواه البخارى عن مسدد بنحو هذا ،وأخرجه مسلم عن شيبان ابن فروخ عن أبى عوانة بهذا النص) .

فهذه رواية . وهناك رواية أخرى . . قال مسلم فى صحيحه : حدثنا محمد ابن المثنى حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا داود وهو ابن أبى هند ، عن عامر ، قال : سألت علقمة : هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة الجن ؟ قال فقال علقمة : أنا سألت ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ فقلت : هل شهد أحد منكم مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة الجن ؟ قال : لا ، ولكنا كنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات ليلة ، ففقدناه فالتمسناه فى الأودية والشعاب، فقيل : استطير ؟ اغتيل ؟ قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فلما أصبحنا إذا هو ، جاء من قبل حراء . قال : فقلنا : يارسول الله ، فقدناك فطلبناك فلم نجدك ، فبتنابشر ليلة بات بها قوم . فقال : « أتانى داعى الجن، فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن » . قال : فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم » وسألوه الزاد فقال : « كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر مايكون لحما ، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم » . .

وهناكرواية أخرى عنابن مسعود أنه كان تلك الليلة مع رسول الله ـصلى الله عليه وسلم ـ ولكن إسناد الرواية الأولى أوثق . فنضرب عن هذه وأمثالها . . ومن الروايتين الواردتين فى الصحيحين يتبين أن ابن عباس يقول : إن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يعرف بحضور النفر من الجن ، وأن ابن مسعود يقول : إنهم استدعوه . ويوفق البيهقى بين الروايتين بأنهما حادثان لاحادث واحد .

Marfat.com

وهناك رواية ثالثة لابن إسحاق قال :

« ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الأذى مالم تكن تنال منه فى حياة عمه أبى طالب . فخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف ، والمنعة بهم من قومه ، ورجاء أن يقبلوا منه ماجاءهم به من الله عز وجل ، فخرج إليهم وحده .

«قال ابن إسحاق: فحدثنى يزيد ابن زياد، عن محمد ابن كعب القرظى قال :لما انتهى رسول الله ـصلى الله عليه وسلمـ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة : ياليل ابن عمر ابن عمير ، ومسعود ابن عمرو ابن عمير ، وحبيب ابن عمرو ابن عمير . . . وعند أحدهم امرأة من قريش من بنى جمح . فجلس إليهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فدعاهم إلى الله ، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام ، والقيام معه على من خالفه من قومه . فقال له أحدهم : هو يمرط ثياب الكعبة (أى يمزقها) إن كان الله أرسلك: وقال الآخر :أما وجد الله أحدا يرسله غيرك ؟وقال الثالث :والله لا أكلمك أبدا لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام . ولئن كنت تكذب على الله ماينبغى لى أن أكلمك . فقام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف . وقد قال لهم ـ فيما ذكر لى ـ : « إذ فعلتم مافعلتم فاكتموا عنى » . وكره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يبلغ قومه عنه ، فيذئرهم (أى يحرشهم) ذلك عليه !

«فلم يفعلوا ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، والجأوه إلى حائط (أى بستان) لعتبة ابن ربيعة وشيبة ابن ربيعة ـ وهما فيه ـ ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد إلى ظل حبلة من عنب (أى طاقة من قضبان الكرم) فجلس فيه ، وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان مالقى من سفهاء أهل الطائف . . . فلما اطمأن رسول الله ـصلى الله عليه وسلم ـ قال ـ فيما ذكر لى ـ :« اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ،وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، ياأرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ،لك العتبى حتى ترضى ،ولا حول ولا قوة إلا بك » . .

Marfat.com

«قال : فلما رآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة ومالق تحركت له رحمهما ،فدعوا غلاما لهما نصرانيا يقال له : عداس . فقال له : خذ قطفا من هذا العنب ، فضعه فى هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، فقل له يأ كل منه . ففعل عداس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال له : كل . فلما وضع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيه يده قال : « بسم الله »ثم أ كل .فنظر عداس فى وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام مايقوله أهل هذه البلاد .فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: « ومن أهل أى البلاد أنت ياعداس؟ وما دينك ؟ قال : نصرانى ، وأنا رجل من أهل نينوى . فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: « من قرية الرجل الصالح يونس ابن متى ؟» فقال عداس : وما يدريك مايونس ابن متى ؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «ذاك أخى . كان نبيا وأنا نبى » فأ كب عداس على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقبل رأسه ويديه وقدميه .قال :يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه أما غلامك فقد أفسده عليك ! فلما جاءهما عداس قالا له : ويلك ياعداس مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال : ياسيدى مافى الأرض شىء خير من هذا . لقد أخبرنى بأمر مايعلمه إلا نبى . قالا له : ويحك ياعداس ! لا يصرفنك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه !

«قال : ثم إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ انصرف من الطائف راجعا إلى مكة، حين يئس من خير ثقيف ، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلى . فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى ،وهم ـ فيما ذكر لى ـ سبعة نفر من جن أهل نصيبين ،فاستمعوا له ، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين ، قد آمنوا وأجابوا إلى ماسمعوا . فقص الله خبرهم عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال الله عز وجل : « وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن » إلى قوله :« ويجركم من عذاب أليم » . وقال تبارك وتعالى :« قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن » إلى آخر القصة من خبرهم فى هذه السورة » .

وقد علق ابن كثير فى تفسيره على رواية ابن إسحاق هذه فقال : « هذا صحيح . ولكن قوله : إن الجن كان استماعهم تلك الليلة فيه نظر . فإن الجن كان استماعهم فى ابتداء الإيحاء كما دل عليه حديث ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ المذكور . وخروجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الطائف كان بعد موت عمه . وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين كما قرره ابن إسحاق وغيره . والله أعلم » .

Marfat.com

وإذا صحت رواية ابن إسحاق عن أن الحادث وقع عقب عودة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الطائف ، مكسور الخاطر من التصرف اللئيم العنيد الذى واجهه به كبراء ثقيف ، وبعد ذلك الدعاء الكبير الودود لربه ومولاه ، فإنه ليكون عجيبا حقا من هذا الجانب . أن يصرف الله إليه ذلك النفر من الجن ، وأن يبلغه مافعلوا وما قالوا لقومهم . وفيه من الدلالات اللطيفة الموحية مافيه . .

وأيا كان زمان هذا الحادث وملابساته فهو أمر ولا شك عظيم . عظيم فى دلالاته وفيما انطوى عليه . وفيما أعقبه من مقالة الجن عن هذا القرآن وعن هذا الدين . . فلنمض مع هذا كله كما يعرضه القرآن الكريم .

* * *

« قل : أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا ، وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ، وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا ، وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا . وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا . وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا » .

والنفر مابين الثلاثة والتسعة كالرهط . وقيل كانوا سبعة .

وهذا الافتتاح يدل على أن معرفة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأمر استماع الجن له ، وما كان منهم بعد أن سمعوا القرآن منه .. كانت بوحى من الله سبحانه إليه ، وإخبارا عن أمر وقع ولم يعلم به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكن الله أطلعه عليه . وقد تكون هذه هى المرة الأولى ، ثم كانت هناك مرة أو مرات أخرى قرأ النبي فيها على الجن عن علم وقصد . ويشهد بهذا ما جاء بشأن قراءته ـ صلى الله عليه وسلم ـ سورة الرحمان « أخرجه الترمذى بإسناده ـ عن جابر رضى الله عنه قال : « خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمان إلى آخرها ، فسكتوا . فقال : « لقد قرأتها على الجن فكانوا أحسن ردودا منكم . كنت كلما أتيت على قوله تعالى : «فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » قالوا : لابشىء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد » . . وهذه الرواية تؤيد رواية ابن مسعود ـ رضى الله عنه التى سبقت الإشارة إليها فى المقدمة .

Marfat.com

ولا بد أن هذه المرة التى تحكيها هذه السورة هى التى تحكيها آيات الأحقاف : « وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن . فلما حضروه قالوا: أنصتوا . فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا : ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى ، مصدقا لما بين يديه ، يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم . ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء ، أولئك فى ضلال مبين » . . .

فإن هذه الآيات ـ كالسورة ـ تنبىء عن وهلة المفاجأة بهذا القرآن للجن ؛ مفاجأة أطارت تماسكهم . وزلزلت قلوبهم ، وهزت مشاعرهم ، وأطلقت فى كيانهم دفعة عنيفة من التأثر امتلأ بها كيانهم كله وفاض . فانطلقوا إلى قومهم بنفوس محتشدة مملوءة فائضة بما لا تملك له دفعا ، ولا تملك عليه صبرا ، قبل أن تفيضه على الآخرين فى هذا الأسلوب المتدفق ، النابض بالحرارة والانفعال ، وبالجد والاحتفال فى نفس الأوان ، وهى حالة من يفاجأ أول مرة بدفعة قوية ترج كيانه ، وتخلخل تماسكه ، وتدفعه دفعا إلى نقل مايحسه إلى نفوس الآخرين فى حماسة واندفاع ، وفى جد كذلك واحتفال !

« إنا سمعنا قرآنا عجبا » . . .

فأول مابدههم منه أنه « عجب » غير مألوف ، وأنه يثير الدهش فى القلوب ، وهذه صفة القرآن عند من يتلقاه بحس واع وقلب مفتوح ، ومشاعر مرهفة ، وذوق ذواق .. عجب ! ذو سلطان متسلط ، وذو جاذبية غلابة ، وذو إيقاع يلمس المشاعر ويهز أوتار القلوب . . عجب ! فملا . يدل على أن أولئك النفر من الجن كانوا حقيقة يتذوقون !

« يهدى إلى الرشد » . .

وهذه هى الصفة الثانية البارزة كذلك فى هذا القرآن ، والتى أحسها النفر من الجن ، حين وجدوا حقيقتها فى قلوبهم . . وكلمة الرشد فى ذاتها ذات دلالة واسعة المدى . فهو يهدى إلى الهدى والحق والصواب . ولكن كلمة الرشد تلقى ظلا آخر وراء هذا كله . ظل النضوج والاستواء والمعرفة الرشيدة للهدى والحق والصواب . ظل الإدراك الذاتى البصير لهذه الحقائق والمقومات ، فهو ينشىء حالة ذاتية فى النفس تهتدى بها إلى الخير والصواب .

والقرآن يهدى إلى الرشد بما ينشئه فى القلب من تفتح وحساسية ، وإدراك ومعرفة ،

Marfat.com

واتصال بمصدر النور والهدى ، واتساق مع النواميس الإلهية الكبرى . كما يهدى إلى الرشد بمنهجه التنظيمى للحياة وتصريفها . هذا المنهج الذى لم تبلغ البشرية فى تاريخها كله ، فى ظل حضارة من الحضارات ، أو نظام من الأنظمة ، ما بلغته فى ظله أفرادا وجماعات ، قلوبا ومجتمعات ، أخلاقا فردية ومعاملات اجتماعية . . على السواء .

« فآمنا به » . .

وهى الاستجابة الطبيعية المستقيمة لسماع القرآن ، وإدراك طبيعته ، والتأثر بحقيقته .. يعرضها الوحى على المشركين الذين كانوا يسمعون هذا القرآن ثم لا يؤمنون . وفى الوقت ذاته ينسبونه إلى الجن ، فيقولون : كاهن أو شاعر أو مجنون . . وكلها صفات للجن فيها تأثير . وهؤلاء هم الجن مبهورين بالقرآن مسحورين متأثرين أشد التأثر ، منفعلين أشد الانفعال ، لا يملكون أنفسهم من الهزة التى ترج كيانهم رجا .. ثم يعرفون الحق ، فيستجيبون له مذعنين معلنين هذا الإذعان : « فآمنا به » غير منكرين لما مس نفوسهم منه ولا معاندين ، كما كان المشركون يفعلون !

« ولن نشرك بربنا أحدا » ..

فهو الإيمان الخالص الصريح الصحيح . غير مشوب بشرك ، ولا ملتبس بوهم ، ولا ممتزج بخرافة ، الإيمان الذى ينبعث من إدراك حقيقة القرآن ، والحقيقة التى يدعو إليها القرآن ، حقيقة التوحيد لله بلا شريك .

« وأنه تعالى جد ربنا ، ما اتخذ صاحبة ولا ولدا » .

والجد : الحظ والنصيب . وهو القدر والمقام . وهو العظمة والسلطان . . وكلها إشعاعات من اللفظ تناسب المقام . والمعنى الإجمالى منها فى الآية هو التعبير عن الشعور باستعلاء الله ـ سبحانه ـ وبعظمته وجلاله عن أن يتخذ صاحبة ـ أى زوجة ـ وولدا بنين أو بنات !

وكانت العرب تزعم أن الملائكة بنات الله ، جاءته من صهر مع الجن ! فجاءت الجن تكذب هذه الخرافة الأسطورية فى تسبيح لله وتنزيه ، واستنكاف من هذا التصور أن يكون! وكانت الجن حرية أن تفخر بهذا الصهر الخرافى الأسطورى لو كان يشبه أن يكون ! فهى قذيفة ضخمة تطلق على ذلك الزعم الواهى فى تصورات المشركين ! وكل تصور يشبه هذه التصورات ، ممن زعموا أن لله ولدا سبحانه فى أية صورة وفى أى تصوير !

Marfat.com

« وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا ، وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا » .

وهذه مراجعة من الجن لما كانوا يسمعون من سفهائهم من الشرك بالله ، وادعاء الصاحبة والولد والشريك، بعد ماتبين لهم من سماع القرآن أنه لم يكن حقا ولا صوابا ، وأن قائليه إذن سفهاء فيهم خرق وجهل ؛وهم يعللون تصديقهم لهؤلاء السفهاء من قبل بأنهم كانوا لايتصورون أن أحدا يمكن أن يكذب على الله من الإنس أو الجن .. فهم يستعظمون ويستهولون أن يجرؤ أحد على الكذب على الله . فلما قال لهم سفهاؤهم :إن لله صاحبة وولدا ،وإن لهشريكا صدقوهم ، لأنهم لم يتصوروا أنهم يكذبون على الله أبدا .. وهذا الشعور من هؤلاء النفر بنكارة الكذب على الله ، هو الذى أهلهم للإيمان . فهو دلالة على أن قلوبهم نظيفة مستقيمة ؛ إنما جاءها الضلال من الغرارة والبراءة ! فلما مسها الحق انتفضت ، وأدركت ، وتذوقت وعرفت . وكان منهم هذا الهتاف المدوى : « إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا . وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا » . .

وهذه الانتفاضة من مس الحق ، جديرة بأن تنبه قلوبا كثيرة مخدوعة فى كبراء قريش ، وزعمهم أن لله شركاء أو صاحبة وولدا . وأن تثير فى هـذه القلوب الحذر واليقظة ، والبحث عن الحقيقة فيما يقوله محمـد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما يقوله كبراء قريش ، وأن تزلزل الثقة العمياء فى مقالات السفهاء من الكبراء اوقد كان هذا كله مقصودا بذكر هذه الحقيقة . وكان جولة من المعركة الطويلة بين القرآن وبين قريش العصية المعاندة ؛ وحلقة من حلقات العلاج البطىء لعقايل الجاهلية وتصوراتها فى تلك القلوب . التى كان الكثير منها غرا بريئا، ولكنه مضلل مقود بالوهم والخرافة وأضاليل المضللين من القادة الجاهليين !

« وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » . .

وهذه إشارة من الجن إلى ما كان متعارفا فى الجاهلية ـ وما يزال متعارفا إلى اليوم فى بيئات كثيرة ـ من أن للجن سلطانا على الأرض وعلى الناس ،وأن لهم قدرة على النفع والضر ، وأنهم محكمون فى مناطق من الأرض أو البحر أو الجو . . إلى آخر هذه التصورات .مما كان يقتضى القوم إذا باتوا فى فلاة أو مكان موحش ،أن يستعينوا بسيد الوادى من سفهاء قومه ،ثم يبيتون بعد ذلك آمنين !

Marfat.com

والشيطان مسلط على قلوب بنى آدم ـ إلا من اعتصم بالله فهو فى نجوة منه ـ وأما من يركن إليه فهو لاينفعه . فهو له عدو . إنما يرهقه ويؤذيه . . وهؤلاء النفر من الجن يحكون ما كان يحدث : « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » .. ولعل هذا الرهق هو الضلال والقلق والحيرة التى تنوش قلوب من يركنون إلى عدوهم ، ولا يعتصمون بالله منه ويستعيذون ! كما هم مأمورون منذ أبيهم آدم وما كان بينه وبين إبليس من العداء القديم !

والقلب البشرى حين يلجأ إلى غير الله ، طمعا فى نفع ، أو دفعا لضر ، لا يناله إلا القلق والحيرة ، وقلة الاستقرار والطمأنينة ... وهـذا هو الرهق فى أسوأ صوره . . الرهق الذى لايشعر معه القلب بأمن ولاراحة !

إن كل شىء ـ سوى الله ـ وكل أحد ، متقلب غير ثابت ، ذاهب غير دائم ، فإذا تعلق به قلب بقى يتأرجح ويتقلب ويتوقع ويتوجس ؛ وعاد يغير اتجاهه كلما ذهب هـذا الذى عقد به رجاءه . والله وحده هو الباقى الذى لايزول . الحى الذى لايموت . الدائم الذى لايتغير . فمن اتجه إليه اتجه إلى المستقر الثابت الذى لايزول ولايحول :

« وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا » ..

يتحدثون إلى قومهم ، عن أولئك الرجال من الإنس الذين كانوا يعوذون برجال من الجن ، يقولون : إنهم كانوا يظنون ـ كما أنكم تظنون ـ أن الله لن يبعث رسولا . ولكن هاهو ذا قد بعث رسولا ، بهذا القرآن الذى يهدى إلى الرشد . . أوأنهم ظنوا أنه لن يكون هناك بعث ولاحساب ـ كما ظننتم ـ فلم يعملوا للآخرة شيئا ، وكذبوا ماوعدهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أمرها ، لأنهم كانوا لايعتقدون من قبل فيها .

وكلا الظنين لاينطبق على الحقيقة ، وفيه جهل وقلة إدراك لحكمة الله فى خلق البشر . فقد خلقهم باستعداد مزدوج للخير والشر والهدى والضلال (كما نعرف من هذه السورة أن للجن هذه الطبيعة المزدوجة كذلك إلا من تمحض منهم للشر كإبليس ، وطرد من رحمة الله بمعصيته الفاجرة ، وانتهى إلى الشر الخالص بلا ازدواج) ومن ثم اقتضت رحمة الله أن يعين أولئك البشر بالرسل ، يستجيشون فى نفوسهم عنصر الخير ، ويستنقذون مافى فطرتهم من استعداد للهدى . فلامجال للاعتقاد بأنه لن يبعث إليهم إحدا .

Marfat.com

هـذا إذا كان المعنى هو بعث الرسل . فأما بعث الآخرة فهو ضرورة كذلك لهذه النشأة التى لا تستكمل حسابها فى الحياة الدنيا ، لحكمة أرادها الله ، وتتعلق بتنسيق للوجود يعلمه ولا نعلمه ؛ فجعل البعث فى الآخرة لتستوفى الخلائق حسابها ، وتنتهى إلى ماتؤهلها له سيرتها الأولى فى الحياة الدنيا . فلا مجال للظن بأنه لن يبعث أحدا من الناس . فهذا الظن مخالف للاعتقاد فى حكمة الله وكماله . سبحانه وتعالى ..

وهؤلاء النفر من الجن يصححون لقومهم ظنهم ، والقرآن فى حكايته عنهم يصحح للمشركين أوهامهم .

* * *

ويمضى الجن فى حكاية مالقوه وماعرفوه من شأن هذه الرسالة فى جنبات الكون ، وفى أرجاء الوجود ، وفى أحوال السماء والأرض ، لينفضوا أيديهم من كل محاولة لا تتفق مع إرادة الله بهذه الرسالة ، ومن كل ادعاء بمعرفة الغيب ، ومن كل قدرة على شىء من هذا الأمر :

« وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا . وأنا لاندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ؟ » . .

وهـذه الوقائع التى حكاها القرآن عن الجن من قولهم ، توحى بأنهم قبل هذه الرسالة الأخيرة ــ ربما فى الفترة بينها وبين الرسالة التى قبلها وهى رسالة عيسى عليه السلام ــ كانوا يحاولون الاتصال بالملإ الأعلى ، واستراق شىء مما يدور فيه ، بين الملائكة ، عن شؤون الخلائق فى الأرض ، مما يكلفون قضاءه تنفيذا لمشيئة الله وقدره . ثم يوحون بما التقطوه لأوليائهم من الكهان والعرافين ، ليقوم هؤلاء بفتنة الناس وفق خطة إبليس ! على أيدى هؤلاء الكهان والعرافين الذين يستغلون القليل من الحق فيمزجونه بالكثير من الباطل ، ويروجونه بين جماهير الناس فى الفترة بين الرسالتين ، وخلو الأرض من رسول . . أما كيفية هذا وصورته فلم يقل لنا عنها شيئا ، ولاضرورة لتقصيها . إنما هذه هى جملة هذه الحقيقة وفحواها .

وهذا النفر من الجن يقول : إن استراق السمع لم يمكنا ، وإنهم حين حاولوه الآن ــ وهو مايعبرون عنه بلمس السماء ــ وجدوا الطريق إليه محروسا بحرس شديد ، يرجمهم بالشهب ، فتنقض عليهم وتقتل من توجه إليه منهم . ويعلنون أنهم لايدرون شيئا عن الغيب المقدر

Marfat.com

للبشر : « وأنا لاندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا » . . فهذا الغيب موكول لعلم الله لايعلمه سواه . فأما نحن فلا نعلم ماذا قدر الله لعباده فى الأرض : قدر أن ينزل بهم الشر . فهم متروكون للضلال . أم قدر لهم الرشد ـ وهو الهداية ـ وقد جعلوها مقابلة للشر . فهى الخير ، وعاقبتها هى الخير .

وإذا كان المصدر الذى يزعم الكهان أنهم يستقون منه معلوماتهم عن الغيب ، يقرر أنه هو لايدرى عن ذلك شيئا ، فقد انقطع كل قول ، وبطل كل زعم ، وانتهى أمر الكهانة والعرافة . وتمحض الغيب لله ، لا يجترىء أحد على القول بمعرفته ، ولا على التنبؤ به . وأعلن القرآن تحرير العقل البشرى من كل وهم وكل زعم من هذا القبيل ! وأعلن رشد البشرية منذ ذلك اليوم وتحررها من الخرافات والأساطير !

أما أين يقف ذلك الحرس ؟ ومن هو ؟ وكيف يرجم الشياطين بالشهب ؟ فهذا كله مما لم يقل لنا عنه القرآن ولا الأثر شيئا ، وليس لنا مصدر سواهما نستقى منه عن هذا الغيب شيئا ؛ ولو علم الله أن فى تفصيله خيرا لنا لفعل . وإذ لم يفعل فمحاولتنا نحن فى هـذا الاتجاه عبث ؛ لايضيف إلى حياتنا ولا إلى معرفتنا الثمرة شيئا !

ولا مجال كذلك للاعتراض أو الجدل حول الشهب ، وأنها تسير وفق نظام كونى ، قبل البعثة وبعدها ، ووفق ناموس يحاول علماء الفلك تفسيره ، بنظريات تخطىء وتصيب . وحتى على فرض صحة هـذه النظريات فإن هـذا لايدخل فى موضوعنا ، ولا يمنع أن ترجم الشياطين بهذه الشهب عند انطلاقها . وأن تنطلق هـذه الشهب رجوما وغير رجوم وفق مشيئة الله الذى يجرى عليها القانون !

فأما الذين يرون فى هذا كله مجرد تمثيل وتصوير لحفظ الله للذكر من الالتباس بأى باطل ؛ وأنه لايجوز أن يؤخذ على ظاهره . . فسبب هذا عندهم أنهم يجيئون إلى القرآن بتصورات مقررة سابقة فى أذهانهم ، أخذوها من مصادر أخرى غير القرآن . ثم يحاولون أن يفسروا القرآن وفق تلك التصورات السابقة المقررة فى أذهانهم من قبل . . ومن ثم يرون الملائكة تمثيلا لقوة الخير والطاعة . والشياطين تمثيلا لقوة الشر والمعصية . والرجوم تمثيلا للحفظ والصيانة . . . الخ لأن فى مقرراتهم السابقة ـ قبل أن يواجهوا القرآن ـ أن هذه المسميات : الملائكة والشياطين أو الجن ، لايمكن أن يكون لها وجود مجسم على هذا النحو ، وأن تكون لها هذه التحركات الحسية ، والتأثيرات الواقعية ! ! !

Marfat.com

من أين جاءوا بهذا ؟ من أين جاءوا بهذه المقررات التي يحاكمون إليها نصوص القرآن والحديث ؟

إن الطريق الأمثل في فهم القرآن وتفسيره ، وفي التصور الإسلامي وتكوينه . . أن ينتفض الإنسان من ذهنه كل تصور سابق ، وأن يواجه القرآن بغير مقررات تصورية أو عقلية أو شعورية سابقة ، وأن يبني مقرراته كلها حسبما يصور القرآن والحديث حقائق هذا الوجود . ومن ثم لايحاكم القرآن والحديث لغير القرآن . ولا ينفي شيئا يثبته القرآن ولا يؤوله ! ولا يثبت شيئا ينفيه القرآن أو يبطله . وما عدا المثبت والمنفي في القرآن ، فله أن يقول فيه مايهديه إليه عقله وتجربته . .

نقول هذا بطبيعة الحال للمؤمنين بالقرآن . . . وهم مع ذلك يؤولون نصوصه هذه لتوائم مقررات سابقة في عقولهم ، وتصورات سابقة في أذهانهم لما ينبغي أن تكون عليه حقائق الوجود [1] . .

فأما الذين لايؤمنون بهذا القرآن ، ويعتسفون نفي هذه التصورات لمجرد أن العلم لم يصل إلى شيء منها ، فهم مضحكون حقا ! فالعلم لايعلم أسرار الموجودات الظاهرة بين يديه ، وإنما يستخدمها في تجاربه . وهذا لاينفي وجودها طبعا ! فضلا على أن العلماء الحقيقيين أخذت كثرة منهم تؤمن بالمجهول على طريق المتدينين ، أو على الأقل لاينكرون مالايعلمون ! لأنهم بالتجربة وحدوا أنفسهم — عن طريقة العلم ذاته — أمام مجاهيل فيما بين أيديهم مما كانوا يحسبون أنهم فرغوا من الإحاطة بعلمه ! فتواضعوا تواضعا علميا نبيلا ليست عليه سمة الادعاء ، ولاطابع التطاول على المجهول ، كما يتطاول مدعو العلم ومدعو التفكير العلمي ، ممن ينكرون حقائق الديانات ، وحقائق المجهول !

إن الكون من حولنا حافل بالأسرار ، عامر بالأرواح ، حاشد بالقوى . وهذه السورة من القرآن — كغيرها — تمنحنا جوانب من الحقائق في هذا الوجود ، تعين على بناء تصور حقيقي صحيح للوجود ومافيه من قوى وأرواح وحيوات تعج من حولنا ، وتتفاعل مع حياتنا

---

(١) وما أبرىء نفسي أني فيما سبق من مؤلفاتي وفي الأجزاء الأولى من هذه الظلال قد انسقت إلى شيء من هذا . . وأرجو أن أتداركه في الطبعة التالية إذا وفق الله . . وما أقرره هنا هو ما أعتقده الحق بهداية من الله .

Marfat.com

وذواتنا . وهذا التصور هو الذى يميز المسلم ويقف به وسطا بين الوهم والخرافة ، وبين الادعاء والتطاول . ومصدره هو القرآن والسنة . وإليها يحاكم المسلم كل تصور آخر وكل قول وكل تفسير . .

وإن هنالك مجالا للعقل البشرى معينا فى ارتياد آفاق المجهول ؛ والإسلام يدفعه إلى هذا دفعا . . ولكن وراء هذا المجال المعين مالاقدرة لهذا العقل على ارتياده ، لأنه لاحاجة به إلى ارتياده . ومالا حاجة له به فى خلافة الأرض فلا مجال له إليه ،ولا حكمةفى إعانته عليه . لأنه ليس من شأنه ، ولا داخلا فى حدود اختصاصه . والقدر الضرورى له منه ليعلم مركزه فى الكون بالقياس إلى ماحوله ومن حوله ، قد تكفل الله سبحانه ببيانه له ، لأنه أكبر من طاقته . وبالقدر الذى يدخل فى طاقته . ومنه هذا الغيب الخاص بالملائكة والشياطين والروح والمنشأ والمصير . . .

فأما الذين اهتدوا بهدى الله ، فقد وقفوا فى هذه الأمور عند القدر الذى كشفه الله لهم فى كتبه وعلى لسان رسله . وأفادوا منه الشعور بعظمة الخالق ، وحكمته فى الخلق ، والشعور بموقف الإنسان فى الأرض من هذه العوالم والأرواح . وشغلوا طاقاتهم العقلية فى الكشف والعلم المهيأ للعقل فى حدود هذه الأرض وما حولها من أجرام بالقدر الممكن لهم . واستغلوا ماعلموه فى العمل والإنتاج وعمران هذه الأرض والقيام بالخلافة فيها ،على هدى من الله ،متجهين إليه ، مرتفعين إلى حيث يدعوهم للارتفاع .

وأما الذين لم يهتدوا بهدى الله فانقسموا فرقتين كبيرتين :

فرقة ظلت تجاهد بعقولها المحدودة لإدراك غير المحدود من ذاته تعالى ، والمعرفة الحقيقية المغيبة عن غير طريق الكتب المنزلة .وكان منهم فلاسفة حاولوا تفسير هذا الوجود وارتباطاته، فظلوا يتعثرون كالأطفال الذين يصعدون جبلا شاهقا لاغاية لقمته ، أو يحاولون حل لغز الوجود وهم لم يتقنوا بعد أبجدية الهجاء ! وكانت لهم تصورات مضحكة ـ وهم كبار فلاسفة ـ مضحكة حقا حين يقرنها الإنسان إلى التصور الواضح المستقيم الجميل الذى ينشئه القرآن . مضحكة بعثراتها. ومضحكة بمفارقاتها. ومضحكة بتخلخلها. ومضحكة بقزامتها بالقياس إلى عظمة الوجود الذى يفسرونه بها . . لا أستثنى من هذا فلاسفة الإغريق الكبار ، ولا فلاسفة المسلمين الذين

Marfat.com

قلدوهم فى منهج التفكير . ولا فلاسفة العصر الحديث ! وذلك حين يقاس تصورهم إلى التصور الإسلامى للوجود (١)

فهذه فرقة . فأما الفرقة الأخرى ، فقد يئست من جدوى هذا الاتجاه فى المعرفة . فعدلت عنه إلى حصر نفسها وجهدها فى العلم التجريبى والتطبيقى . ضاربة صفحا عن المجهول ، الذى ليس إليه من سبيل . وغير مهتدية فيه بهدى الله . لأنها لا تستطيع أن تدرك الله ! وهذه الفرقة كانت فى أوج غلوائها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ولكنها أخذت منذ مطلع هذا القرن تفيق من الغرور العلمى الجامح ، على هروب المادة من بين أيديها وتحولها إلى إشعاع « مجهول الكنه » ويكاد يكون مجهول القانون !

وبقى الإسلام ثابتا على صخرة اليقين . يمنح البشر من المجهول القدر الذى لهم فيه خير . ويوفر طاقتهم العقلية للعمل فى خلافة الأرض . ويهيىء لعقولهم المجال الذى تعمل فيه فى أمن . ويهديهم للتى هى أقوم فى المجهول وغير المجهول !

* * *

بعد ذلك أخذ الجن يصفون حالهم وموقفهم من هدى الله ؛ بما نفهم منه أن لهم طبيعة مزدوجة كطبيعة الإنسان فى الاستعداد للهدى والضلال . ويحدثنا هذا النفر عن عقيدتهم فى ربهم وقد آمنوا به . وعن ظنهم بعاقبة من يهتدى ومن يضل :

« وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك ، كنا طرائق قددا . وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا . وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به ، فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا . وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون : فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا » . .

وهذا التقرير من الجن بأن منهم صالحين وغير صالحين ، مسلمين وقاسطين ، يفيد ازدواج طبيعة الجن ، واستعدادهم للخير والشر كالإنسان - إلا من تمحض للشر منهم وهو إبليس وقبيله - وهو تقرير ذو أهمية بالغة فى تصحيح تصورنا العام عن هذا الخلق . فأغلبنا حتى الدارسين الفاهمين - على اعتقاد أن الجن يمثلون الشر ، وقد خلصت طبيعتهم له . وأن الإنسان وحده بين

---

(١) فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان . . بحث يرجو المؤلف أن يوفق الى إخراجه بعون الله .

Marfat.com

الخلائق هو ذو الطبيعة المزدوجة . وهـذا ناشىء من مقررات سابقة فى تصوراتنا عن حقائق هذا الوجود كما أسلفنا . وقد آن أن نراجعها على مقررات القرآن الصحيحة !

وهـذا النفر من الجن يقول : « وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك » . . ويصف حالهم بصفة عامة : « كنا طرائق قددا » . . أى لـكل منا طريقته المنفصلة المقدودة المنقطعة عن طريقة الفريق الآخر .

ثم بين النفر معتقدهم الخاص بعد إيمانهم :

« وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ، ولن نعجزه هربا » . .

فهم يعرفون قدرة الله عليهم فى الأرض ، ويعرفون عجزهم عن الهرب من سلطانه ـ سبحانه ـ والإفلات من قبضته ، والفـكاك من قدره فلاهم يعجزون الله وهم فى الأرض ، ولاهم يعجزونه بالهرب منها . وهو ضعف العبد أمام الرب ، وضعف المخلوق أمام الخالق . والشعور بسلطان الله القاهر الغالب .

وهؤلاء الجن هم الذين يعـوذ بهم رجال من الإنس ! وهم الذين يستعين بهـم الإنس فى الحوائج ! وهم الذين جعل المشركون بين الله ـ سبحانه ـ وبينهم نسبا ! وهؤلاء هم يعترفون بعجزهم وقدرة الله . وضعفهم وقوة الله . وانـكسارهم وقهر الله . فيصححون ، لا لقومهم فحسب بل للمشركين كذلك ، حقيقة القوة الواحدة الغالبة على هذا الـكون ومن فيه .

ثم يصفون حالهم عند ماسمعوا الهـدى ، وقد قرروه من قبل ، ولـكنهم يـكررونه هنا بمناسبة الحديث عن فرقهم وطوائفهم تجاه الإيمان :

« وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به » . .

كما ينبغى لـكل من يسمع الهـدى . وهم سمعوا القرآن . ولـكنهم يسمونه هـدى كما هى حقيقته ونتيجته .

ثم يقررون ثقتهم فى ربهم ، وهى ثقة المؤمن فى مولاه :

« فمن يؤمن بربه فلايخاف بخسا ولارهقا » . .

وهى ثقة المطمئن إلى عدل الله ، وإلى قدرته ، ثم إلى طبيعة الإيمان وحقيقته . . فالله ـ سبحانه ـ عادل . ولن يبخس المؤمن حقه ، ولن يرهقه بما فوق طاقته . والله ـ سبحانه ـ قادر . فيحمى عبده المؤمن من البخس وهو نقص الاستحقاق إطلاقا ، ومن الرهق وهو الجهد

Marfat.com

والمشقة فوق الطاقة . ومن ذا الذى يملك أن يبخس المؤمن أو يرهقه وهو فى حماية الله ورعايته ؟ ولقد يقع للمؤمن حرمان من بعض أعراض هذه الحياة الدنيا ؛ ولكن هذا ليس هو البخس . فالعوض عما يحرمه منها يمنع عنه البخس . وقد يصيبه الأذى من قوى الأرض ؛ لكن هـذا ليس هو الرهق، لأن ربه يدركه بطاقة تحتمل الألم وتفيد منه وتكبر به ! وصلته بربه تهوّن عليه المشقة فتمحضها لخيره فى الدنيا والآخرة .

المؤمن إذن فى أمان نفسى من البخس ومن الرهق : « فلا يخاف بخسا ولا رهقا » ..وهذا الأمان يولد الطمأنينة والراحة طوال فترة العافية ، فلا يعيش فى قلق وتوجس . حتى إذا كانت الضراء لم يهلع ولم يجزع ، ولم يخف ، ولم تغلق على نفسه المنافذ . إنما يعد الضراء ابتلاء من ربه يصبر له فيؤجر . ويرجو فرج الله منها فيؤجر . وهو فى الحالين لم يخف بخسا ولا رهقا. ولم يكابد بخسا ولا رهقا .

وصدق النفر المؤمن من الجن فى تصوير هذه الحقيقة المنيرة .

ثم يقررون تصورهم لحقيقة الهدى والضلال . والجزاء على الهدى والضلال :

« وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون. فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا » .

والقاسطون : الجائرون المجانبون للعدل والصلاح . وقد جعلهم هـذا النفر من الجن فريقا يقابل المسلمين . وفى هـذا إيماءة لطيفة بليغة المدلول . فالمسلم عادل مصلح ، يقابله القاسط : الجائر المفسد . .

« فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا » . والتعبير بلفظ « تحروا » يوحى بأن الاهتداء إلى الإسلام معناه الدقة فى طلب الرشد والاهتداء ـ ضد الغى والضلال ـ ومعناه تحرى الصواب واختياره عن معرفة وقصد بعد تبين ووضوح . وليس هو خبط عشواء ولا انسياقا بغير إدراك. ومعناه أنهم وصلوا فعلا إلى الصواب حين اختاروا الإسلام . . وهو معنى دقيق وجميل . .

« وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا » أى تقرر أمرهم وانتهى إلى أن يكونوا حطبا لجهنم . تتلظى بهم وتزداد اشتعالا ، كما تتلظى النار بالحطب . .

ودل هذا على أن الجن يعذبون بالنار . ومفهومه أنهم كذلك ينعمون بالجنة . . هكذا يوحى النص القرآنى . وهو الذى نستمد منه تصورنا . فليس لقائل بعد هذا أن يقول

Marfat.com

شيئا يستند فيه إلى تصور غير قرآنى ، عن طبيعة الجن وطبيعة النار أوطبيعة الجنة.. فسيكون ماقاله الله حقا بلا جدال !

ومايطبق على الجن مما ينوه لقومهم ، ينطبق على الإنس وقد قاله لهم الوحى بلسان نبيهم . .

* * *

وإلى هنا كان الوحى يحكى قول الجن بألفاظهم المباشرة عن أنفسهم ؛ ثم عدل عن هـذا النسق إلى تلخيص مقالة لهم عن فعل الله مع الذين يستقيمون على الطريقة إليه ، وذكرها بفحواها لابألفاظها :

« وأن لواستقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه ، ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا » . .

يقول الله ـ سبحانه ـ إنه كان من مقالة الجن عنا : مافحواه أن الناس لواستقاموا على الطريقة ،أو أن القاسطين لواستقاموا على الطريقة لأسقيناهم نحن ماء موفورا نغدقه عليهم ، فيفيض عليهم بالرزق والرخاء .. « لنفتنهم فيه » . . ونبتليهم أيشكرون أم يكفرون .

وهـذا العدول عن حكاية قول الجن إلى ذكر فحوى قولهم فى هذه النقطة ، يزيد مدلولها توكيدا بنسبة الإخبارفيها والوعد إلى الله سبحانه . ومثل هذه اللفتات كثيرفى الأسلوب القرآنى ، لإحياء المعانى وتقويتها وزيادة الانتباه إليها .

وهذه اللفتة تحتوى جملة حقائق ، تدخل فى تكوين عقيدة المؤمن ، وتصورهعن مجريات الأمور وارتباطاتها .

والحقيقة الأولى : هى الارتباط بين استقامة الأمم والجماعات على الطريقة الواحدةالواصلة إلى الله ، وبين إغداق الرخاء وأسبابه ؛ وأول أسبابه توافر الماء واغدوداقه . وما تزال الحياة تجرى على خطوات المـاء فى كل بقعة . ومايزال الرخاء يتبع هـذه الخطوات المباركة حتى هـذا العصر الذى انتشرت فيه الصناعة ، ولم تعد الزراعة هى المصدر الوحيد للرزق والرخاء. ولـكن المـاء هو الماء فى أهميته العمرانية . .

وهـذا الارتباط بين الاستقامة على الطريقة وبين الرخاء والتمكين فى الأرض حقيقة قائمة . وقد كان العرب فى جوف الصحراء يعيشون فى شظف ، حتى استقاموا على الطريقة ،

Marfat.com

ففتحت لهم الأرض التي يغدودق فيها الماء ، وتتدفق فيها الأرزاق . ثم حادوا عن الطريقة فاستلبت منهم خيراتهم استلابا . وما يزالون في نكد وشظف ، حتى يفيئوا إلى الطريقة ، فيتحقق فيهم وعد الله .

وإذا كانت هناك أمم لاتستقيم على طريقة الله ، ثم تنال الوفر والغنى ، فإنها تعذب بآفات أخرى في إنسانيتها أو أمنها أو قيمة الإنسان وكرامته فيها ، تسلب عن ذلك الغنى والوفر معنى الرخاء. وتحيل الحياة فيها لعنة مشؤومة على إنسانية الإنسان وخلقه وكرامته وأمنه وطمأنينته (كما سبق بيانه في سورة نوح) .

والحقيقة الثانية التي تنبثق من نص هذه الآية : هي أن الرخاء ابتلاء من الله للعباد وفتنة. ونبلوكم بالشر والخير فتنة . والصبر على الرخاء والقيام بواجب الشكر عليه والإحسان فيه أشق وأندر من الصبر على الشدة ! على عكس مايلوح للنظرة العجلى . . فكثيرون هم الذين يصبرون على الشدة ويتماسكون لها ، بحكم ما تثيره في النفس من تجمع ويقظة ومقاومة ؛ ومن ذكر الله والتجاء إليه واستعانة به ، حين تسقط الأسناد في الشدة فلا يبقى إلا ستره . فأما الرخاء فينسي ويلهي ، ويرخي الأعضاء وينيم عناصر المقاومة في النفس ، ويهيء الفرصة للغرور بالنعمة والاستنامة للشيطان !

إن الابتلاء بالنعمة في حاجة ملحة إلى يقظة دائمة تعصم من الفتنة . . نعمة المال والرزق كثيرا ما تقود إلى فتنة البطر وقلة الشكر ، مع السرف أو مع البخل ، وكلاهما آفة للنفس والحياة .. ونعمة القوة كثيرا ماتقود إلى فتنة البطر وقلة الشكر مع الطغيان والجور ، والتطاول بالقوة على الحق وعلى الناس ، والتهجم على حرمات الله . . ونعمة الجمال كثيرا ماتقود إلى فتنة الخيلاء والتيه وتتردى في مدارك الإثم والغواية . . ونعمة الذكاء كثيرا ماتقود إلى فتنة الغرور والاستخفاف بالآخرين وبالقيم والموازين . . وما تكاد تخلو نعمة من الفتنة إلا من ذكر الله فعصمه الله . .

والحقيقة الثالثة أن الإعراض عن ذكر الله ، الذي قد تنتهي إليه فتنة الابتلاء بالرخاء ، مؤد إلى عذاب الله . والنص يذكر صفة للعذاب « يسلكه عذابا صعدا » . . توحي بالمشقة مذكان الذي يصعد في المرتفع يجد مشقة في التصعيد كلما تصعد . وقد درج القرآن على الرمز للمشقة بالتصعيد. فجاء في موضع : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن

Marfat.com

يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء [1] » . وجاء فى موضع : « سأرهقه صعودا [2] » . وهى حقيقة مادية معروفة . والتقابل واضح بين الفتنة بالرخاء وبين العذاب الشاق عند الجزاء !

* * *

والآية الثالثة فى السياق يجوز أن تكون حكاية لقول الجن ، ويجوز أن تكون من كلام الله ابتداء :

« وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا » .

وهى فى الحالتين توحى بأن السجود ـ أو مواضع السجود وهى المساجد ـ لا تكون إلا لله، فهناك يكون التوحيد الخالص،ويتوارى كل ظل لكل أحد، ولكل قيمة ، ولكل اعتبار. ويتفرد الجو ويتمحض للعبودية الخالصة لله . ودعاء غير الله قد يكون بعبادة غيره ؛ وقد يكون بالالتجاء إلى سواه ؛ وقد يكون باستحضار القلب لأحد غير الله .

فإن كانت الآية من مقولات الجن فهى توكيد لما سبق من قولهم : « ولن نشرك بربنا أحدا » فى موضع خاص ، وهو موضع العبادة والسجود . وإن كانت من قول الله ابتداء ، فهى توجيه بمناسبة مقالة الجن وتوحيدهم لربهم ، يجىء فى موضعه على طريقة القرآن .

وكذلك الآية التالية :

« وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا » ..

أى متجمعين متكتلين عليه ، حين قام يصلى ويدعو ربه . والصلاة معناها فى الأصل الدعاء .

فإذا كانت من مقولات الجن ،فهى حكاية منهم عن مشركى العرب ،الذين كانوا يتجمعون فئات حول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يصلى أو وهو يتلو القرآن كما قال فى « سورة المعارج » : « فمال الذين كفروا قبلك مهطعين عن اليمين وعن الشمال عزين ؟ » .. يتسمعون فى دهش ولا يستجيبون . أو وهم يتجمعون لإيقاع الأذى به ، ثم يعصمه الله منهم كما وقع ذلك مرارا . . ويكون قول الجن هذا لقومهم للتعجيب من أمر هؤلاء المشركين !

---

(١) سورة الأنعام . آية : ١٢٥

(٢) سورة المدثر . آية : ١٧

Marfat.com

وإذا كانت من إخبار الله ابتداء ، فقد تكون حكاية عن حال هذا النفر من الجن ، حين سمعوا القرآن . . العجب . . فأخذوا ودهشوا ، وتكأكأوا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعضهم لصق بعض ، كما تكون لبدة الصوف المنسوق شعرها ، بعضه لصق بعض ! . . ولعل هـذا هو الأقرب لمدلول الآية لاتساقه مع العجب والدهشة والارتياع والوهلة البادية فى مقالة الجن كلها ! والله أعلم ..

* * *

وعندما تنتهى حكاية مقالة الجن عن هذا القرآن ، وعن هذا الأمر ، الذى فاجأ نفوسهم، وهز مشاعرهم، وأطلعهم على انشغال السماء والأرض والملائكة والكواكب بهذا الأمر ؛ وعلى ما أحدثه من آثار فى نسق الكون كله ؛ وعلى الجد الذى يتضمنه ، والنواميس التى تصاحبه .

عند ما ينتهى هذا كله يتوجه الخطاب إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى إيقاعات جادة صارمة حاسمة ، بالتبليغ ، والتجرد من هذا الأمر كله بعد التبليغ ، والتجرد كذلك من كل دعوى فى الغيب أو فى حظوظ الناس ومقادرهم . . وذلك كله فى جو عليه مسحة من الحزن والشجى تناسب مافيه من جد ومن صرامة :

« قل : إنما أدعو ربى ولاأشرك به أحدا . قل : إنى لاأملك لكم ضرا ولارشدا . قل : إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا . إلا بلاغا من الله ورسالاته .ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا . حتى إذا رأوا مايوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا . قل : إن أدرى أقريب ماتوعدون أم يجعل له ربى أمدا . عالم الغيب فلايظهر على غيبه أحدا . إلا من ارتضى من رسول . فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عددا » . .

قل يامحمد للناس : « إنما أدعو ربى ولاأشرك به أحدا » . . وهذا الإعلان يجىء بعد إعلان الجن لقومهم : « ولن نشرك بربنا أحدا » . . فيكون له طعمه وله إيقاعه . فهى كلمة الإنس والجن ، يتعارفان عليها . فمن شذ عنها كالمشركين فهو يشذ عن العالمين .

* * *

« قل : إنى لاأملك لكم ضرا ولارشدا » . . يؤمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يتجرد ، ويؤمر أن ينفض يديه من كل ادعاء لشىء هو من خصائص الله الواحد الذى يعبده

Marfat.com

ولايشرك به أحدا . فهو وحده الذى يملك الضر ويملك الخير . ويجعل مقابل الضر الرشد،وهو الهداية ، كما جاء التعبير فى مقالة الجن من قبل : « وأنا لاندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا » . . فيتطابق القولان فى اتجاهها وفى ألفاظهما تقريبا ، وهو تطابق مقصود فى القصة والتعقيب عليها ، كما يكثر هـذا فى الأسلوب القرآنى . .

وبهذا وذلك يجرد الجن ـ وهو موضع الشبهة فى القدرة على النفع والضر ـ ويتجرد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتتفرد الذات الإلهية بهذا الأمر . ويستقيم التصور الإيمانى على هذا التجرد الكامل الصريح الواضح

« قل : إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا . إلا بلاغا من الله ورسالاته . . . » . .

وهـذه هى القولة الرهيبة ، التى تملأ القلب بجدية هذا الأمر .. أمر الرسالة والدعوة .. والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يؤمر بإعلان هذه الحقيقة الكبيرة . . إنى لن يجيرنى من الله أحد ، ولن أجد من دونه ملجأ أو حماية ، إلا أن أبلغ هـذا الأمر ، وأؤدى هـذه الأمانة ، فهذا هو الملجأ الوحيد ، وهذه هى الإجارة المأمونة . إن الأمر ليس أمرى ، وليس لى فيه شىء إلا التبليغ ، ولامفر لى من هذا التبليغ . فأنا مطلوب به من الله ولن يجيرنى منه أحد ، ولن أجد من دونه ملجأ يعصمنى ، إلا أن أبلغ وأؤدى !

ياللرهبة ! ويالروعة ! ويالجد !

إنها ليست تطوعا يتقدم به صاحب الدعوة . إنما هو التكليف . التكليف الصارم الجازم ، الذى لامفر من أدائه . فالله من ورائه !

وإنها ليست اللذة الذاتية فى حمل الهدى والخير للناس . إنما هو الأمر العلوى الذى لايمكن التلفت عنه ولاالتردد فيه !

وهكذا يتبين أمر الدعوة ويتحدد .. إنها تكليف وواجب . وراءه الهول، ووراءه الجد ، ووراءه الكبير المتعال !

« ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا . حتى إذا رأوا مايوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا » .

Marfat.com

فهو التهديد الظاهر والملفوف لمن يبلغه هـذا الأمر ثم يعصى . بعد التلويح بالجد الصارم فى التـكليف بذلك البلاغ .

وإذا كان المشركون يركنون إلى قوة وإلى عدد ، ويقيسون قوتهم إلى قوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين القلائل معه ، فسيعلمون حين يرون مايوعدون ـ إما فى الدنيا وإما فى الآخرة ـ « من أضعف ناصرا وأقل عددا » . . وأى الفريقين هو الضعيف المخذول القليل الهزيل !

ونعود إلى مقالة الجن فنجدهم يقولون : « وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا » فنجد التعقيب على القصة يتناسق معها . ونجد القصة تمهد للتعقيب فيجىء فى أوانه وموعده المطلوب !

* * *

ثم يؤمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يتجرد وينفض يديه من أمر الغيب أيضا :

« قل : إن أدرى أقريب ما توعدون أم يجعل له ربى أمدا » . .

إن الدعوة ليست من أمره ، وليس له فيها شىء ، إلا أن يبلغها قياما بالتـكليف ، والتجاء بنفسه إلى منطقة الأمان ـ الذى لايبلغه إلا أن يبلغ ويؤدى . وإن مايوعدونه على العصيان والتـكذيب هو كذلك من أمر الله ، وليس له فيه يد ، ولا يعلم له موعدا . فما يدرى أقريب هو أم بعيد يجعل له الله أمدا ممتدا . سواء عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة . فـكله غيب فى علم الله ؛ وليس للنبى من أمره شىء ، ولا حتى علم موعده متى يكون ! والله ـ سبحانه ـ هو المختص بالغيب دون العالمين :

« عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا » . .

ويقف النبى ـ صلى الله عليـه وسلم ـ متجردا من كل صفة إلا صفة العبودية . فهو عبد الله . وهذا وصفه فى أعلى درجاته ومقاماته . . ويتجرد التصور الإسلامى من كل شبهة ومن كل غبش . والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يؤمر أن يبلغ فيبلغ : « قل : إن أدرى أقريب ماتوعدون أم يجعل له ربى أمدا ، عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا » . .

* * *

هناك فقط استثناء واحد . . وهو مايأذن به الله من الغيب ، فيطلع عليه رسله ، فى حدود

Marfat.com

ما يعاونهم على تبليغ دعوته إلى الناس . فما كان مايوحى به إليهم إلا غيبا من غيبه ، يكشفه لهم فى حينه ويكشفه لهم بقدر ، ويرعاهم وهم يبلغونه ، ويراقبهم كذلك . . ويؤمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعلن هذا فى صورة جادة رهيبة :

« إلا من ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، وأحاط بما لديهم ، وأحصى كل شىء عددا » . .

فالرسل الذين يرتضيهم الله لتبليغ دعوته ، يطلعهم على جانب من غيبه ، هو هذا الوحى : موضوعه ، وطريقته ، والملائكة الذين يحملونه ، ومصدره ، وحفظه فى اللوح المحفوظ ... إلى آخر ما يتعلق بموضوع رسالتهم مما كان فى ضمير الغيب لايعلمه أحد منهم .

وفى الوقت ذاته يحيط هؤلاء الرسل بالأرصاد والحراس من الحفظة ، للحفظ وللرقابة . يحمونهم من وسوسة الشيطان ونزغه ، ومن وسوسة النفس وتمنيتها ، ومن الضعف البشرى فى أمر الرسالة ، ومن النسيان أو الانحراف . ومن سائر ما يعترض البشر من النقص والضعف . .

والتعبير الرهيب ـ « فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا » . . يصور الرقابة الدائمة الكاملة للرسول ، وهو يؤدى هذا الأمر العظيم . . « ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم » .. والله يعلم . ولكن المقصود هو أن يقع منهم البلاغ فيتعلق به علمه فى عالم الواقع .

« وأحاط بما لديهم » . . فما من شىء فى نفوسهم وفى حياتهم ومن حولهم ، إلا وهو فى قبضة العلم لا يند منه شىء . .

« وأحصى كل شىء عددا » .. لايقتصر على مالدى الرسل ؛ بل يحيط بكل شىء إحصاء وعدا ، وهو أدق الإحاطة والعلم !

وتصور هذا الحال . والرسول محوط بالحراس والأرصاد . وعلم الله على كل مالديه . وكل ماحوله . وهو يتلقى التكليف جنديا لايملك إلا أن يؤدى . ويمضى فى طريقه ليس متروكا لنفسه . ولا متروكا لضعفه ، ولامتروكا لهواه ، ولامتروكا لما يحبه ويرضاه . إنما هو الجد الصارم والرقابة الدقيقة . وهو يعلم هذا ويستقيم فى طريقه لايتلفت هنا أوهناك . فهو يعلم ماذا حوله من الحرس والرصد ، ويعلم ماهو مسلط عليه من علم وكشف !

إنه موقف يثير العطف على موقف الرسول ، كما يثير الرهبة حول هذا الشأن الخطير .

* * *

Marfat.com

وبهذا الإيقاع الهائل الرهيب تختم السورة ، التى بدأت بالروعة والرجفة والانبهار بادية فى مقالة الجن الطويلة المفصلة ، الحافلة بآثار البهر والرجفة والارتياع !

وتقرر السورة التى لاتتجاوز الثمانى والعشرين آية ، هذا الحشد من الحقائق الأساسية التى تدخل فى تكوين عقيدة المسلم ، وفى إنشاء تصوره الواضح المتزن المستقيم ، الذى لايغلو ولا يفرط ، ولايغلق على نفسه نوافذ المعرفة ، ولا يجرى ـ مع هذا ـ خلف الأساطير والأوهام

وصدق النفر الذى آمن حين سمع القرآن ، وهو يقول : « إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به » . .

Marfat.com

سُورَةُ المزمّل مكيّة
وآياتها ٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ، وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا .

« وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا * وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا * إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا .

« إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا * فَكَيْفَ تَتَّقُونَ - إِنْ كَفَرْتُمْ - يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا * السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا .

« إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا .

« إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ، وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ، وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ، عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ ، وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ، وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ،

Marfat.com

وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ، وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً ، وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » ۝

يروى فى سبب نزول هذه السورة أن قريشا اجتمعت فى دار الندوة تدبر كيدها للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وللدعوة التى جاءهم بها . فبلغ ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاغتم له ؛ والتف بثيابه وتزمل ونام مهموما . فجاءه جبريل عليه السلام بشطر هذه السورة الأول «ياأيها المزمل قم الليل إلا قليلا . . . الخ » وتأخر شطر السورة الثانى من قوله تعالى : إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل . . . » إلى آخر السورة . تأخر عاما كاملا . حين قام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وطائفة من الذين معه ، حتى ورمت أقدامهم ، فنزل التخفيف فى الشطر الثانى بعد اثنى عشر شهرا .

وتروى رواية أخرى تتكرر بالنسبة لسورة المدثر كذلك ـ كما سيجىء فى عرض سورة المدثر إن شاء الله .

وخلاصتها أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يتحنث فى غار حراء ـ قبل البعثة بثلاث سنوات ـ أى يتطهر ويتعبد ـ وكان تحنثه ـ عليه الصلاة والسلام ـ شهرا من كل سنة ـ هو شهر رمضان ـ يذهب فيه إلى غار حراء على مبعدة نحو ميلين من مكة ، ومعه أهله قريبا منه . فيقيم فيه هذا الشهر ، يطعم من جاءه من المساكين ، ويقضى وقته فى العبادة والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون ، وفيما وراءها من قدرة مبدعة . . وهو غير مطمئن لما عليه قومه من عقائد الشرك المهلهلة ، وتصوراتها الواهية ، ولكن ليس بين يديه طريق واضح ، ولا منهج محدد ، ولا طريق قاصد يطمئن إليه ويرضاه .

وكان اختياره ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهذه العزلة طرفا من تدبير الله له ليعده لما ينتظره من الأمر العظيم . فى هذه العزلة كان يخلو إلى نفسه ، ويخلص من زحمة الحياة وشواغلها الصغيرة ؛ ويفرغ لموحيات الكون ، ودلائل الإبداع ؛ وتسبح روحه مع روح الوجود ؛ وتتعانق مع هذا الجمال وهذا الكمال ؛ وتتعامل مع الحقيقة الكبرى وتمرن على التعامل معها فى إدراك وفهم .

Marfat.com

ولا بد لأى روح يراد لها أن تؤثر فى واقع الحياة البشرية فتحولها وجهة أخرى . . لابد لهـذه الروح من خلوة وعزلة بعض الوقت ، وانقطاع عن شواغل الأرض ، وضجة الحياة ، وهموم الناس الصغيرة التى تشغل الحياة .

لابد من فترة للتأمل والتدبر والتعامل مع الـكون الـكبير وحقائقه الطليقة . فالاستغراق فى واقع الحياة يجعل النفس تألفه وتستنيم له، فلا تحاول تغييره . أما الانخلاع منه فترة ، والانعزال عنه ، والحياة فى طلاقة كاملة من أسر الواقع الصغير ، ومن الشواغل التافهة فهو الذى يؤهل الروح الـكبير لرؤية ماهو أكبر ، ويدربه على الشعور بتـكامل ذاته بدون حاجة إلى عرف الناس ، والاستمداد من مصدر آخر غير هذا العرف الشائع !

وهـكذا دبر الله لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يعده لحمل الأمانة الـكبرى ، وتغيير وجه الأرض ، وتعديل خط التاريخ .. دبر له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات . ينطلق فى هـذه العزلة شهرا من الزمان ، مع روح الوجود الطليقة ، ويتدبر ماوراء الوجود من غيب مكنون ، حتى يحين موعد التعامل مع هذا الغيب عندما يأذن الله .

فلما أن أذن ، وشاء ـ سبحانه ـ أن يفيض من رحمته هذا الفيض على أهل الأرض ، جاء جبريل عليه السلام إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو فى غار حراء . . وكان ماقصه رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ من أمره معه فيما رواه ابن إسحق عن وهب ابن كيسان ، عن عبيد ، قال :

« فجاءنى جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال : اقرأ . قال : قلت : ما أقرأ (وفى الروايات : ماأنا بقارىء) قال : فغتنى به (أى ضغطنى) حتى ظننت أنه الموت . ثم أرسلنى فقال : اقرأ . قلت : ماأقرأ . قال : فغتنى حتى ظننت أنه الموت . ثم أرسلنى فقال : اقرأ . قلت : ما أقرأ . قال : فغتنى حتى ظننت أنه الموت . ثم أرسلنى فقال : اقرأ . قال : قلت : ماذا أقرأ ؟ قال : ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لى بمثل ماصنع بى. فقال: « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم » . . قال : فقرأتها . ثم انتهى فانصرف عنى . وهببت من نومى فـكأنما كتبت فى قلبى كتابا . قال : فخرجت حتى إذا كنت فى وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يامحمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال : فرفعت رأسى إلى السماء أنظر . فإذا جبريل فى صورة

Marfat.com

رجل ، صاف قدميه فى أفق السماء يقول : ياحمـد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال : فوقفت أنظر إليه . فما أتقدم وما أتأخر . وجعلت أحول وجهى عنه فى آفاق السماء . قال : فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك . فما زلت واقفا ما أتقدم أمامى وما أرجع ورائى ، حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى ، فبلغوا أعلى مكة ،ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى ذلك . ثم انصرف عنى وانصرفت راجعا إلى أهلى ، حتى أتيت خديجة ، فجلست إلى فخذها مضيفا إليها (أى ملتصقا بها مائلا إليها) فقالت ياأبا القاسم أين كنت ؟فوالله لقد بعثت فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلىّ . ثم حدثتها بالذى رأيت فقالت : « أبشر يابن عم واثبت . فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة » .

ثم فتر الوحى مدة عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى أن كان بالجبل مرة أخرى فنظر فإذا جبريل ، فأدركته منه رجفة ، حتى جثى وهوى إلى الأرض ، وانطلق إلى أهله يرجف ، يقول : « زملونى . دثرونى » . . ففعلوا . وظل يرتجف مما به من الروع . وإذا جبريل يناديه : « ياأيها المزمل » . . (وقيل : ياأيها المدثر) والله أعلم أيتهما كانت .

وسواء صحت الرواية الأولى عن سبب نزول شطر السورة . أو صحت هذه الرواية الثانية عن سبب نزول مطلعها ، فقد علم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه لم يعد هناك نوما وأن هناك تكليفا ثقيلا، وجهادا طويلا، وأنه الصحو والكد والجهد منذ ذلك النداء الذى يلاحقه ولايدعه ينام !

وقيل لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « قم » . . فقام . وظل قائما بعدها أكثر من عشرين عاما ! لم يسترح . ولم يسكن . ولم يعش لنفسه ولا لأهله . قام وظل قائما على دعوة الله . يحمل على عاتقه العبء الثقيل الباهظ ولاينوء به . عبء الأمانة الكبرى فى هذه الأرض . عبء البشرية كلها ، وعبء العقيدة كلها ، وعبء الكفاح والجهاد فى ميادين شتى .

حمل عبء الكفاح والجهاد فى ميدان الضمير البشرى الغارق فى أوهام الجاهلية وتصوراتها المثقل بأثقال الأرض وجواذبها ، المكبل بأوهاق الشهوات وأغلالها . . حتى إذا خلص هذا الضمير فى بعض صحابته مما يثقله من ركام الجاهلية والحياة الأرضية بدأ معركة أخرى فى ميدان آخر . . بل معارك متلاحقة . . مع أعداء دعوة الله المتألبين عليها وعلى المؤمنين بها ، الحريصين على قتل هذه الغرسة الزكية فى منبتها ، قبل أن تنمو وتمد جذورها فى التربة وفروعها فى

Marfat.com

الفضاء ، وتظلل مساحات أخرى . . ولم يكد يفرغ من معارك الجزيرة العربية حتى كانت الروم تعدّ لهذه الأمة الجديدة وتتهيأ للبطش بها على تخومها الشمالية .

وفى أثناء هذا كله لم تكن المعركة الأولى ـ معركة الضمير ـ قد انتهت . فهى معركة خالدة ، الشيطان صاحبها ؛ وهو لا يفى لحظة عن مزاولة نشاطه فى أعماق الضمير الإنسانى . . ومحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائم على دعوة الله هناك . وعلى المعركة الدائبة فى ميادينها المتفرقة . فى شظف من العيش والدنيا مقبلة عليه . وفى جهد وكد والمؤمنون يستروحون من حوله ظلال الأمن والراحة . وفى نصب دائم لا ينقطع . . وفى صبر جميل على هذا كله . وفى قيام الليل . وفى عبادة لربه ، وترتيل لقرآنه وتبتل إليه ، كما أمره أن يفعل وهو يناديه : « يا أيها المزمل . قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا . إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا . إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا . إن لك فى النهار سبحا طويلا . واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ، رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا . واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا » .

وهكذا قام محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهكذا عاش فى المعركة الدائبة المستمرة أكثر من عشرين عاما . لا يلهيه شأن عن شأن فى خلال هذا الأمد . منذ أن سمع النداء العلوى الجليل وتلقى منه التكليف الرهيب . . جزاه الله عنا وعن البشرية كلها خير الجزاء . .

* * *

وشطر السورة الأول يمضى على إيقاع موسيقى واحد . ويكاد يكون على روى واحد . هو اللام المطلقة الممدودة . وهو إيقاع رخى وقور جليل ؛ يتمشى مع جلال التكليف ، وجدية الأمر ، ومع الأهوال المتتابعة التى يعرضها السياق . . هول القول الثقيل الذى أسلفنا ، وهول التهديد المروّع : « وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا ، إن لدينا أنكالا وجحيما ، وطعاما ذا غصة وعذابا أليما » . . وهول الموقف الذى يتجلى فى مشاهد الكون وفى أغوار النفوس : « يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا » . . « فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا ، السماء منفطر به ، كان وعده مفعولا »

فأما الآية الأخيرة الطويلة التى تمثل شطر السورة الثانى ؛ فقد نزلت بعد عام من قيام الليل حتى ورمت أقدام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وطائفة من الذين معه . والله يمدّه ويمدّهم

Marfat.com

بهذا القيام لما يعدهم له ! فنزل التخفيف ، ومعه التطمين بأنه اختيار الله لهم وفق علمه وحكمته بأعبائهم وتكاليفهم التى قدرها فى علمه عليهم . . أما هذه الآية فذات نسق خاص . فهى طويلة وموسيقاها متموجة عريضة ، وفيها هدوء واستقرار ، وقافية تناسب هذا الاستقرار: وهى الميم وقبلها مد الياء : « غفور رحيم » .

* * *

والسورة بشطريها تعرض صفحة من تاريخ هذه الدعوة . تبدأ بالنداء العلوى الكريم بالتكليف العظيم . وتصور الإعداد له والتهيئة بقيام الليل ، والصلاة ، وترتيل القرآن، والذكر الخاشع المتبتل . والاتكال على الله وحده ، والصبر على الأذى ، والهجر الجميل للمكذبين ، والتخلية بينهم وبين الجبار القهار صاحب الدعوة وصاحب المعركة ! . .

وتنتهى بلمسة الرفق والرحمة والتخفيف والتيسير . والتوجيه للطاعات والقربات ، والتلويح برحمة الله ومغفرته : « إن الله غفور رحيم » ..

وهى تمثل بشطريها صفحة من صفحات ذلك الجهد الكريم النبيل الذى بذله ذلك الرهط المختار من البشرية ـ البشرية الضالة ، ليردها إلى ربها ، ويصبر على أذاها ، ويجاهد فى ضمائرها ؛ وهو متجرد من كل ما فى الحياة من عرض يغرى ، ولذاذة تُلهى ، وراحة ينعم بها الخليون . ونوم يلتذه الفارغون !

والآن نستعرض السورة فى نصها القرآنى الجميل .

* * *

« يا أيها المزمل . قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا . إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا . إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا . إن لك فى النهار سبحا طويلا ، واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا . رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا » . .

يا أيها المزمل .. قم .. » . . إنها دعوة السماء ، وصوت الكبير المتعال .. قم .. قم للأمر العظيم الذى ينتظرك ، والعبء الثقيل المهيأ لك . قم للجهد والنصب والكد والتعب . قم فقد مضى وقت النوم والراحة .. قم فتهيأ لهذا الأمر واستعد . .

وإنها لكلمة عظيمة رهيبة تنزعه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مهد الفراش ، فى البيت

Marfat.com

الهادىء والحضن الدافئ . لتدفع به فى الخضم ، بين الزعازع والأنواء ، و بين الشد والجذب فى ضمائر الناس وفى واقع الحياة سواء .

إن الذى يعيش لنفسه قد يعيش مستريحا ، ولكنه يعيش صغيرا ويموت صغيرا. فأما الكبير الذى يحمل هذا العبء الكبير .. فماله والنوم ؟ وماله والراحة؟ وماله والفراش الدافىء ، والعيش الهادىء ؟ والمتاع المريح ؟ ! ولقد عرف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حقيقة الأمر وقدره، فقال لخديجة ـ رضى الله عنها ـ وهى تدعوه أن يطمئن وينام : « مضى عهد النوم ياخديجة » ! أجل مضى عهد النوم وماعاد منذ اليوم إلا السهر والتعب والجهاد الطويل الشاق !

« ياأيها المزمل . قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا » . .

إنه الإعداد للمهمة الكبرى بوسائل الإعداد الإلهية المضمونة . .قيام الليل . أكثره أكثر من نصف الليل ودون ثلثيه . وأقله ثلث الليل .. قيامه للصلاة وترتيل القرآن . وهو مد الصوت به وتجويده . بلا تغن ولاتطر ولاتخلع فى التنغيم .

وقد صح عن وتر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالليل أنه لم يتجاوز إحدى عشرة ركعة . ولكنه كان يقضى فى هذه الركعات ثلثى الليل إلاقليلا، يرتل فيه القرآن ترتيلا .

روى الإمام أحمد فى مسنده قال : حدثنا يحيى ابن سعيد ـ هو ابن أبى عروبة ـ عن قتادة ، عن زرارة ابن أوفى ، عن سعيد ابن هشام..أنه أتى ابن عباس فسأله عن الوتر فقال : ألاأنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ قال . نعم . قال : ائت عائشة فسلها ، ثم ارجع إلى فأخبرنى بردها عليك . . . ثم يقول سعيد ابن هشام : قلت : ياأم المؤمنين أنبئينى عن خلق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالت : ألست تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى . قالت : فإن خلق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان القرآن . فهممت أن أقوم ، ثم بدا لى قيام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قلت : ياأم المؤمنين ، أنبئينى عن قيام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالت : ألست تقرأ هذه السورة : « ياأيها المزمل » ؟ قلت : بلى. قالت : فإن الله افترض قيام الليل فى أول هذه السورة ؛ فقام رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ وأصحابه حولا حتى انتفخت أقدامهم . وأمسك الله خاتمها فى السماء اثنى عشر شهرا. ثم أنزل التخفيف فى آخر هذه السورة ، فصار قيام الليل تطوعا من بعد فريضة .. فهممت

Marfat.com

أن أقوم . ثم بدالى وتر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلت : ياأم المؤمنين أنبئيني عن وتر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالت : كنا نعد له سواكه وطهوره ، فيبعثه الله كما شاء أن يبعثه من الليل ، فيتسوك ، ثم يتوضأ ، ثم يصلى ثمان ركعات لايجلس فيهن ،إلاعند الثامنة، فيجلس ويذكر ربه تعالى ويدعو ، ثم ينهض ومايسلم ، ثم يقوم ليصلى التاسعة ، ثم يقعد فيذكر الله وحده ، ثم يدعوه ، ثم يسلم تسليما يسمعنا . ثم يصلى ركعتين وهو جالس بعدما يسلم ، فتلك إحدى عشرة ركعة يابنى ، فلما أسن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخذ اللحم أوتر بسبع ثم صلى ركعتين وهو جالس بعد مايسلم ، فتلك تسع يابنى . وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها . وكان إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أومرض صلى من نهار ثنتى عشرة ركعة . ولاأعلم نبي الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرأ القرآن كله فى ليلة حتى أصبح ، ولاصام شهرا كاملا غير رمضان ... » (١)

وكان هذا الإعداد للقول الثقيل الذى سينزله الله عليه ..

« إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا » ...

هو هذا القرآن وماوراءه من التكليف .. والقرآن فى مبناه ليس ثقيلا فهو ميسر للذكر. ولكنه ثقيل فى ميزان الحق ، ثقيل فى أثره فى القلب : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله » فأنزله الله على قلب أثبت من الجبل يتلقاه . .

وإن تلقى هذا الفيض من النور والمعرفة واستيعابه ، لثقيل ، يحتاج إلى استعداد طويل .

وإن التعامل مع الحقائق الكونية الكبرى المجردة ، لثقيل ، يحتاج إلى استعداد طويل .

وإن الاتصال بالملأ الأعلى وبروح الوجود وأرواح الخلائق الحية والجامدة على النحو الذى تهيأ لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لثقيل ، يحتاج إلى استعداد طويل .

وإن الاستقامة على هذا الأمر بلا تردد ولا ارتياب ، ولا تلفت هنا أوهناك وراء الهواتف والجواذب والمعوقات ، لثقيل ، يحتاج إلى استعداد طويل .

وإن قيام الليل والناس نيام ، والانقطاع عن غبش الحياة اليومية وسفسافها ؛ والاتصال

---

(١) وأخرجه مسلم من حديث قتادة .. وهناك أحاديث كثيرة وأقوال متعددة فى صلاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالليل ووتره ، صحت فيها كيفيات متعددة لهذه الصلاة (يراجع زاد المعاد لابن القيم فى هديه صلى الله عليه وسلم فى قيام الليل)

Marfat.com

بالله ، وتلق فيضه ونوره ، والأنس بالوحدة معه والخلوة إليه ، وترتيل القرآن والسكون ساكن ، وكأنما هو يتنزل من الملأ الأعلى وتتجاوب به أرجاء الوجود فى لحظة الترتيل بلا لفظ بشرى ولا عبارة ؛ واستقبال إشعاعاته وإيحاءاته وإيقاعاته فى الليل الساجى . . إن هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقيل، والعبء الباهظ والجهد المرير الذى ينتظر الرسول وينتظر من يدعو بهذه الدعوة فى كل جيل ا وينير للقلب فى الطريق الشاق الطويل ، ويعصمه من وسوسة الشيطان، ومن التيه فى الظلمات الحافة بهذا الطريق المنير .

« إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا » . .

« ناشئة الليل» هى ماينشأ منه بعد العشاء ؛ والآية تقول : إن ناشئة الليل هى أشد وطأ: أى أجهد للبدن ، وأقوم قيلا : أى أثبت فى الخير (كما قال مجاهد) فإن مغالبة هتاف النوم وجاذبية الفراش ، بعد كد النهار ، أشد وطأ وأجهد للبدن ؛ ولكنها إعلان لسيطرة الروح ، واستجابة لدعوة الله ، وإيثار للأنس به ؛ ومن ثم فإنها أقوم قيلا ، لأن للذكر فيها حلاوته ، وللصلاة فيها خشوعها ، وللمناجاة فيها شفافيتها . وإنها لتسكب فى القلب أنسا وراحة وشفافية ونورا ، قد لايجدها فى صلاة النهار وذكره . . والله الذى خلق هذا القلب يعلم مداخله وأوتاره ،ويعلم مايقرب إليه ومايوقع عليه ،وأى الأوقات يكون فيها أكثر تفتحا واستعدادا وتهيؤا ، وأى الأسباب أعلق به وأشد تأثيرا فيه .

والله ـ سبحانه ـ وهو يعد عبده ورسوله محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليتلقى القول الثقيل، وينهض بالعبء الجسيم ، اختار له قيام الليل ، لأن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا . ولأن له فى النهار مشاغله ونشاطه الذى يستغرق كثيرا من الطاقة والالتفات :

« إن لك فى النهار سبحا طويلا » . .

فلينقض النهار فى هذا السبح والنشاط ، وليخلص لربه فى الليل ، يقوم له بالصلاة والذكر :

« واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا » . .

وذكر اسم الله ، ليس هو مجرد ترديد هذا الاسم الكريم باللسان ، على عدة المسبحة المثوية أو الألفية ؛إنما هو ذكر القلب الحاضر مع اللسان الذاكر؛ أو هو الصلاة ذاتها وقراءة القرآن فيها . والتبتل هو الانقطاع الكلى عما عدا الله، والاتجاه الكلى إليه بالعبادة والذكر، والخلوص من كل شاغل ومن كل خاطر ، والحضور مع الله بكامل الحس والمشاعر .

Marfat.com

ولما ذكر التبتل وهو الانقطاع عما عدا الله ، ذكر بعده مايفيد أنه ليس هناك إلا الله ، يتجه إليه من يريد الاتجاه :

« رب المشرق والمغرب ، لا إله إلا هو ، فاتخذه وكيلا » . .

فهو رب كل متجه . . رب للشرق وللغرب . . وهو الواحد الأحد الذى لا إله إلا هو . فالانقطاع إليه هو الانقطاع للحقيقة الوحيدة فى هذا الوجود ؛ والتوكل عليه هو التوكل على القوة الوحيدة فى هذا الوجود . والاتكال على الله وحده هو الثمرة المباشرة للاعتقاد بوحدانيته، وهيمنته على المشرق والمغرب ، أى على الكون كله . . والرسول الذى ينادى : قم . . لينهض بعبئه الثقيل ، فى حاجة ابتداء للتبتل لله والاعتماد عليه دون سواه . فمن هنا يستمد القوة والزاد للعبء الثقيل فى الطريق الطويل .

* * *

ثم وجه الله الرسول إلى الصبر الجميل على مايلقاه من قومه من الاتهام والإعراض والصد والتعطيل . وأن يخلى بينه وبين المكذبين ! ويمهلهم قليلا . فإن لدى الله لهم عذابا وتنكيلا :

« واصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا . وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا . إن لدينا أنكالا وجحيما . وطعاما ذا غصة وعذابا أليما . يوم ترجف الأرض والجبال، وكانت الجبال كثيبا مهيلا .. إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا ، فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا . فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا ، السماء منفطر به كان وعده مفعولا » . .

وإذا صحت الرواية الأولى عن نزول مطلع هذه السورة فى بدء البعثة ، فإن هذا الشوط الثانى منها يكون قد نزل متأخرا بعد الجهر بالدعوة ، وظهور المكذبين والمتطاولين ، وشدتهم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى المؤمنين . فأما إذا صحت الرواية الثانية فإن شطر السورة الأول كله يكون قد نزل بمناسبة مانال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أذى المشركين وصدهم عن الدعوة .

وعلى أية حال فإننا نجد التوجيه إلى الصبر ، بعد التوجيه إلى القيام والذكر ، وهما كثيرا مايقترنان فى صدد تزويد القلب بزاد هذه الدعوة فى طريقها الشاق الطويل، سواء طريقها فى مسارب الضمير أوطريقها فى جهاد المناوئين ، وكلاهما شاق عسير .. نجد التوجيه إلى الصبر.

Marfat.com

« فاصبر على مايقولون » . . مما يغيظ ويحنق ، « واهجرهم هجرا جميلا » . . لاعتاب معه ولاغضب ، ولاهجر فيه ولامشادة . وكانت هذه هي خطة الدعوة في مكة ـ وبخاصة في أوائلها . . كانت مجرد خطاب للقلوب والضمائر ، ومجرد بلاغ هادىء ومجرد بيان منير .

والهجر الجميل مع المطاول والتكذيب ، يحتاج إلى الصبر بعد الذكر . والصبر هو الوصية من الله لكل رسول من رسله ، مرة ومرة ومرة ؛ ولعباده المؤمنين برسله . ومايمكن أن يقوم على هذه الدعوة أحد إلا والصبر زاده وعتاده ، والصبر جنته وسلاحه ، والصبر ملجؤه وملاذه. فهي جهاد . . جهاد مع النفس وشهواتها وانحرافاتها وضعفها وشرودها وعجلتها وقنوطها . . وجهاد مع أعداء الدعوة ووسائلهم وتدبيرهم وكيدهم وأذاهم . ومع النفوس عامة وهي تتفصى من تكاليف هذه الدعوة ، وتتفلت ، وتتخفى في أزياء كثيرة وهي تخالف عنها ولاتستقيم عليها. والداعية لازاد له إلا الصبر أمام هذا كله ، والذكر وهو قرين الصبر في كل موضع تقريبا !

اصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا . . وخل بيني وبين المكذبين ، فأنا بهم كفيل : « وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا » . . كلمة يقولها الجبار القهار القوي المتين . . « وذرني والمكذبين » . . والمكذبون بشر من البشر ، والذي يتهددهم هو الذي أنشأهم ابتداء وخلق هذا الكون العريض « بكن » ولاتزيد !

ذرني والمكذبين . . فهي دعوتي. وماعليك إلا البلاغ . ودعهم يكذبون واهجرهم هجرا جميلا . وسأتولى أنا حربهم ، فاسترح أنت من التفكير في شأن المكذبين !

إنها القاصمة المزلزلة المذهلة حين يخلو الجبار ، إلى هذه الخلائق الهينة المضعوفة . . « أولي النعمة » مهما يكن من جبروتهم في الأرض على أمثالهم من المخاليق !

« ومهلهم قليلا » ولومهلهم الحياة الدنيا كلها ما كانت إلاقليلا . وإن هي إلا يوم أو بعض يوم في حساب الله . وفي حسابهم هم أنفسهم حين تطوى ، بل إنهم ليحسونها في يوم القيامة ساعة من نهار ! فهي قليل أيا كان الأمد ، ولومضوا من هذه الحياة ناجين من أخذ الجبار المنتقم الذي يمهل قليلا ويأخذ تنكيلا :

« إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما » . .

والأنكال ـ هي القيود ـ والجحيم والطعام ذو الغصة الذي يمزق الحلوق والعذاب الأليم . . كلها جزاء مناسب « لأولي النعمة » ! الذين لم يرعوا النعمة ، ولم يشكروا المنعم ، فاصبر يامحمد

Marfat.com

عليهم صبرا جميلا وخل بيني وبينهم . ودعهم فإن عندنا قيودا تنكل بهم وتؤذيهم ، وجحيما تجحمهم وتصليهم ، وطعاما تلازمه الغصة في الحلق ، وعذابا أليما في يوم مخيف . . .

ثم يرسم مشهد هذا اليوم المخيف :

« يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا » . .

فها هي ذي صورة للهول تتجاوز الناس إلى الأرض في أكبر مجالها . فترجف وتخاف وتتفتت وتنهار . فكيف بالناس المهازيل الضعاف !

ويلتفت السياق أمام مشهد الهول المفزع ، إلى المكذبين أولي النعمة ، يذكرهم فرعون الجبار ، وكيف أخذه الله أخذ عزيز قهار :

« إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا ، فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا »

هكذا في اختصار يهز قلوبهم ويخلعها خلعا ، بعد مشهد الأرض والجبال وهي ترجف وتنهار .

فذلك أخذ الآخرة وهذا أخذ الدنيا ؛ فكيف تنجون بأنفسكم وتقوها هذا الهول الرعيب ؟

« فكيف تتقون ـ إن كفرتم ـ يوما يجعل الولدان شيبا السماء منفطر به ؟ » . .

وإن صورة الهول هنا لتنشق لها السماء ، ومن قبل رجفت لها الأرض والجبال . وإنها لتشيب الولدان . وإنه لهول ترتسم صوره في الطبيعة الصامتة ،وفي الإنسانية الحية ..في مشاهد ينقلها السياق القرآني إلى حس المخاطبين كأنها واقعة . . ثم يؤكدها تأكيدا . « كان وعده مفعولا » . . واقعا لاخلف فيه . وهو ماشاء فعل وما أراد كان !

وأمام هذا الهول الذي يتمثل في الكون كما يتمثل في النفس يلمس قلوبهم لتتذكر وتختار طريق السلامة . . طريق الله . .

«إن هذه تذكرة ، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا» ..

وإن السبيل إلى الله لآمن وأيسر ، من السبيل المريب ، إلى هذا الهول العصيب !

وبينما تزلزل هذه الآيات قوائم المكذبين ، تنزل على قلب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقلة المؤمنة المستضعفة إذ ذاك بالروح والثقة واليقين .إذ يحسون أن ربهم معهم ،يقتل أعداءهم

Marfat.com

وينكل بهم . وإن هى إلا مهلة قصيرة ، إلى أجل معلوم . ثم يقضى الأمر ، حينما يجىء الأجل ويأخذ الله أعداءه وأعداءهم بالنكال والجحيم والعذاب الأليم .

إن الله لايدع أولياءه لأعدائه . ولو أمهل أعداءه إلى حين . . .

* * *

والآن يجىء شطر السورة الثانى فى آية واحدة طويلة ، نزلت بعد مطلع السورة بعام على أرجح الأقوال :

« إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه ، وطائفة من الذين معك ، والله يقدر الليل والنهار . علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ، فاقرأوا ما تيسر من القرآن . علم أن سيكون منكم مرضى . وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله . فاقرأوا ماتيسر منه ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأقرضوا الله قرضا حسنا ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا ، واستغفروا الله ، إن الله غفور رحيم » . .

إنها لمسة التخفيف الندية ، تمسح على التعب والنصب والمشقة . ودعوة التيسير الإلهى على النبى والمؤمنين . وقد علم الله منه ومنهم خلوصهم له . وقد انتفخت أقدامهم من القيام الطويل للصلاة بقدر من القرآن كبير . وما كان الله يريد لنبيه أن يشقى بهذا القرآن وبالقيام . إنما كان يريد أن يعده للأمر العظيم الذى سيواجهه طوال مابقى له من الحياة . هو والمجموعة القليلة من المؤمنين الذين قاموا معه .

وفى الحديث مودة وتطمين : « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك » . . إنه رآك ! إن قيامك وصلاتك أنت وطائفة من الذين معك قبلت فى ميزان الله . . إن ربك يعلم أنك وهم تجافت جنوبكم عن المضاجع ؛ وتركت دفء الفراش فى الليلة القارسة ، ولم تسمع نداء المضاجع المغرى وسمعت نداء الله . . إن ربك يعطف عليك ويريد أن يخفف عنك وعن أصحابك . . « والله يقدر الليل والنهار » . . فيطيل من هذا ويقصر من ذاك . فيطول الليل ويقصر . وأنت ومن معك ماضون تقومون أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه . وهو يعلم ضعفكم عن الموالاة . وهو لايريد أن يعنتكم ولاأن يشق

Marfat.com

عليكم. إنما يريد لكم الزاد وقد تزودتم فخففوا على أنفسكم ، وخذوا الأمر هينا : « فاقرأوا ماتيسر من القرآن » . . فى قيام الليل بلامشقة ولاعنت . . وهناك ـ فى علم الله ـ أمور تنتظركم تستنفد الجهد والطاقة ، ويشق معها القيام الطويل : « علم أن سيكون منكم مرضى» يصعب عليهم هذا القيام « وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله » .. فى طلب الرزق والكد فيه ، وهو ضرورة من ضرورات الحياة . والله لايريد أن تدعوا أمور حياتكم وتنقطعوا لعبادة الشعائر انقطاع الرهبان ! « وآخرون يقاتلون فى سبيل الله » . . فقد علم الله أن سيأذن لكم فى الانتصار من ظلمكم بالقتال ، ولإقامة راية للإسلام فى الأرض يخشاها البغاة ! خففوا إذن على أنفسكم « فاقرأوا ماتيسر منه» بلا عسر ولامشقة ولاإجهاد .. واستقيموا على فرائض الدين : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » .. وتصدقوا بعد ذلك قرضا لله يبقى لكم خيره .. «وأقرضوا الله قرضا حسنا ، وماتقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا » .. واتجهوا إلى الله مستغفرين عن تقصيركم . فالإنسان يقصر ويخطىء مهما جد وتحرى الصواب : «واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » ..

إنها لمسة الرحمة والود والتيسير والطمأنينة تجىء بعد عام من الدعوة إلى القيام ! ولقد خفف الله عن المسلمين ، فجعل قيام الليل لهم تطوعا لافريضة . أما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد مضى على نهجه مع ربه ، لا يقل قيامه عن ثلث الليل ، يناجى ربه ، فى خلوة من الليل وهدأة ، ويستمد من هذه الحضرة زاد الحياة وزاد الجهاد . على أن قلبه ما كان ينام وإن نامت عيناه . فقد كان قلبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ دائما مشغولا بذكر الله ، متبتلا لمولاه . وقد فرغ قلبه من كل شىء إلا من ربه . على ثقل مايحمل على عاتقه ، وعلى مشقة مايعانى من الأعباء الثقال ..

Marfat.com

سُورَةُ المدّثِّر مكيّة
وآياتها ٥٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« يَا أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ * وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ .

« فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ، فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى ٱلْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ .

« ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا ! إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً * سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ؟ * فَقُتِلَ ! كَيْفَ قَدَّرَ ؟ * ثُمَّ قُتِلَ ! كَيْفَ قَدَّرَ ؟ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ * فَقَالَ : إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ؟ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ .

« وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ، وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ، لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ ، وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً ، وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ، وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَافِرُونَ : مَاذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ؟ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَاءُ ، وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ، وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ، وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ .

Marfat.com

« كَلَّا وَٱلْقَمَرِ * وَٱللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَٱلصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ * إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ * نَذِيراً لِلْبَشَرِ .

« لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ * كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلاَّ أَصْحَابَ ٱلْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ؟ * قَالُوا : لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * حَتَّىٰ أَتَانَا ٱلْيَقِينُ * فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ ٱلشَّافِعِينَ .

« فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ؟ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ؟ * بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفاً مُنَشَّرَةً * كَلَّا ! بَلْ لَا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ * كَلَّا ! إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ ٱللَّهُ ، هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ » ﴿٥٦﴾

ينطبق على هـذه السورة من ناحية سبب نزولها ، ووقت نزولها ماسبق ذكره عن سورة « المزمل » . فهناك روايات بأنها هى أول مانزل بعد سورة العلق ، ورواية أخرى بأنها نزلت بعد الجهر بالدعوة وإيذاء المشركين للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

قال البخارى ، حدثنا يحيى ، حدثنا وكيع ، عن على ابن المبارك ، عن يحيى ابن أبى كثير قال : سألت أباسلمة ابن عبد الرحمن عن أول مانزل من القرآن ؟ فقال : « ياأيها المدثر » .. قلت : يقولون « اقرأ باسم ربك الذى خلق » فقال أبو سلمة : سألت جابر ابن عبد الله عن ذلك ، وقلت له مثل ماقلت لى ، فقال جابر : لا أحدثك إلا ماحدثنا به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « جاورت بحراء فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت ، فنظرت عن يمينى فلم أر شيئا ، ونظرت عن شمالى فلم أر شيئا ، ونظرت أمامى فلم أر شيئا ، ونظرت خلفى فلم أر شيئا ، فرفعت رأسى فرأيت شيئا . فأتيت خديجة فقلت : « دثرونى وصبوا علىّ ماء باردا »

Marfat.com

قال : فدثرونى وصبوا علىّ ماء باردا . قال : فنزلت : « ياأيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر » . .

وقد رواه مسلم من طريق عقيل ، عن ابن شهاب ، عن أبى سلمة . قال : أخبرنى جابر ابن عبد الله ، أنه سمع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحدث عن فترة الوحى ، فقال فى حديثه : فبينا أنا أمشى إذ سمعت صوتا من السماء ، فرفعت بصرى قبل السماء ، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء ، قاعد على كرسى بين السماء والأرض ، فجئيت منه حتى هويت إلى الأرض فجئت إلى أهلى فقلت : زملونى ، فدثرونى ، فأنزل الله تعالى : « ياأيها المدثر . قم فأنذر . . . ـ إلى ـ والرجز فاهجر » قال أبو سلمة : والرجز الأوثان . ثم حمى الوحى وتتابع » . . ورواه البخارى من هـذا الوجه أيضا . . وهـذا لفظ البخارى . .

وعلق ابن كثير فى التفسير على هذا الحديث بقوله : « وهذا السياق هو المحفوظ ، وهو يقتضى أنه قد نزل الوحى قبل هذا لقوله: « فإذا الملك الذى جاءنى بحراء »وهو جبريل ،حين أتاه بقوله ... « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » . . ثم إنه حصل بعد هـذا فترة ، ثم نزل الملك بعد هـذا . ووجه الجمع أن أول شىء نزل بعد فترة الوحى هذه السورة » . .

فهـذه رواية . وهناك رواية أخرى . . قال الطبرانى : حـدثنا محمد ابن على ابن شعيب السمسار ، حدثنا الحسن ابن بشر البجلى ، حدثنا المعافى ابن عمران ، عن إبراهيم ابن يزيد ، سمعت ابن أبى مليكة يقول : سمعت ابن عباس يقول : إن الوليد ابن المغيرة صنع لقريش طعاما ، فلما أكلوا منه قال: ماتقولون فى هذا الرجل ؟فقال بعضهم: ساحر .وقال بعضهم: ليس بساحر . وقال بعضهم : كاهن . وقال بعضهم : ليس بكاهن . وقال بعضهم: شاعر . وقال بعضهم : ليس بشاعر . وقال بعضهم : بل سحر يؤثر . فأجمع رأيهم على أنه سحر يؤثر . فبلغ ذلك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحزن ، وقنع رأسه ، وتدثر .فأنزل الله تعالى : «ياأيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر » . .

وتكاد تكون هذه الرواية هى ذاتها التى رويت عن سورة « « المزمل » . . مما يجعلنا لانستطيع الجزم بشىء عن أيتهما هى التى نزلت أولا . والتى نزلت بهذه المناسبة أو تلك .

غير أن النظر فى النص القرآنى ذاته يوحى بأن مطلع هـذه السورة إلى قوله تعالى :

Marfat.com

« ولربك فاصبر » ربما يكون قد نزل مبكرا فى أوائل أيام الدعوة . شأنه شأن مطلع سورة المزمل إلى قوله تعالى : « واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ، رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا » . . وهذا وذلك لإعداد نفس الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للنهوض بالتبعة الكبرى ،ومواجهة قريش بعد ذلك بالدعوة جهارا وكافة ،مما سيترتب عليه مشاق كثيرة متنوعة ، تحتاج مواجهتها إلى إعداد نفسى سابق . . ويكون ما تلا ذلك فى سورة المدثر ، وما تلا هذا فى سورة المزمل ،قد نزلا بعد فترة بمناسبة تكذيب القوم وعنادهم ، وإيذائهم للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالاتهام الكاذب والكيد اللئيم .

إلاأن هذا الاحتمال لاينفى الاحتمال الآخر ،وهو أن يكون كل من المطلعين قد نزل متصلا بما تلاه فى هذه السورة وفى تلك ، بمناسبة واحدة ، هى التكذيب ، واغتمام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ للكيد الذى كادته قريش ودبرته .. ويكون الشأن فى السورتين هو الشأن فى سورة القلم على النحو الذى بيناه هناك .

* * *

وأيا ما كان السبب والمناسبة فقد تضمنت هذه السورة فى مطلعها ذلك النداء العلوى بانتداب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهذا الأمر الجلل ؛ وانتزاعه من النوم والتدثر والدفء إلى الجهاد والكفاح والمشقة : « ياأيها المدثر . قم فأنذر » . . مع توجيهه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى التهيؤ لهذا الأمر العظيم ، والاستعانة عليه بهذا الذى وجهه الله إليه : « وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر .ولا تمنن تستكثر .ولربك فاصبر » .. وكان ختام التوجيه هنا بالصبر كما كان هناك فى سورة المزمل !

وتضمنت السورة بعد هذا تهديدا ووعيدا للمكذبين بالآخرة ، وبحرب الله المباشرة ، كما تضمنت سورة المزمل سواء : « فإذا نقر فى الناقور ، فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير . ذرنى ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد . كلا ! إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا » ..

وتعين سورة المدثر أحد المكذبين بصفته ، وترسم مشهدا من مشاهد كيده ـ على نحو مما ورد فى سورة القلم ، وربما كان الشخص المعنى هنا وهناك واحدا ، قيل : إنه الوليد ابن المغيرة ـ (كما سيأتى تفصيل الروايات عند مواجهة النص) وتذكر سبب حرب الله سبحانه وتعالى له:

Marfat.com

« إنه فكر وقدر . فقتل ! كيف قدر ؟ ثم قتل : كيف قدر ؟ ثم نظر ، ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر » . . ثم تذكر مصيره : « سأصليه سقر . وماأدراك ماسقر ، لاتبقى ولاتذر . لواحة للبشر . عليها تسعة عشر » . .

وبمناسبة مشهد سقر . والقائمين عليها التسعة عشر . وماأثاره هذا العدد من بلبلة وفتنة وتساؤل وشك واستهزاء فى أوساط المشركين وضعاف الإيمان ، تتحدث السورة عن حكمة الله فى ذكر هذا العدد ، ثم تفتح كوة على حقيقة غيب الله ، واختصاصه بهذا الغيب . وهى كوة تلقى ضوءا على جانب من التصور الإيمانى لحقيقة غيب الله المكنون : « وماجعلنا أصحاب النار إلاملائكة . وما جعلنا عدتهم إلافتنة للذين كفروا ، ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ، ويزداد الذين آمنوا إيمانا ، ولايرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون،وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون : ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ، ومايعلم جنود ربك إلا هو ، وماهى إلا ذكرى للبشر » . .

ثم يصل أمر الآخرة وسقر ومن عليها بمشاهد كونية حاضرة ، ليجمع على القلوب إيحاء هذه وتلك فى معرض الإيقاظ والتحذير : « كلا والقمر . والليل إذ أدبر . والصبح إذا أسفر . إنها لإحدى الكبر . نذيرا للبشر . لمن شاء منكم أن يتقدم أويتأخر » . .

كما يعرض مقام المجرمين ومقام أصحاب اليمين ، حيث يعترف المكذبون اعترافا طويلا بأسباب استحقاقهم للارتهان والقيد فى يوم الجزاء والحساب ، يعقب عليه بكلمة الفصل فى أمرهم الذى لاتنفعهم فيه شفاعة شافع : « كل نفس بما كسبت رهينة . إلا أصحاب اليمين . فى جنات يتساءلون عن المجرمين : ماسلككم فى سقر ؟ قالوا : لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين . وكنا نخوض مع الخائضين . وكنا نكذب بيوم الدين . حتى أتانا اليقين . فماتنفعهم شفاعة الشافعين » . .

وفى ظل هذا المشهد المخزى ، والاعتراف المهين ، يتساءل مستنكرا موقف المكذبين من الدعوة إلى التذكرة والنجاة من هذا المصير ، ويرسم لهم مشهدا ساخرا يثير الضحك والزراية من نفارهم الحيوانى الشموس : « فمالهم عن التذكرة معرضين ؟ كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة ! » .

Marfat.com

ويكشف عن حقيقة الغرور الذى يساورهم فيمنعهم من الاستجابة لصوت المذكر الناصح . « بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفا منشرة » ..فهو الحسد للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والرغبة فى أن يؤتى كل منهم الرسالة ! والسبب الدفين الآخر هو قلة التقوى : « كلا ! بل لا يخافون الآخرة » ..

وفى الختام يجىء التقرير الجازم الذى لا مجاملة فيه : « كلا ! إنها تذكرة . فمن شاء ذكره » ورد الأمر كله إلى مشيئة الله وقدره : « وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة » . .

* * *

وهكذا تمثل السورة حلقة من حلقات الكفاح النفسى الذى كافحه القرآن للجاهلية وتصوراتها فى قلوب قريش ؛ كما كافح العناد والكيد والإعراض الناشىء عن الصد والقصد بشتى الأساليب . . والمشابهات كثيرة بين اتجاهات هذه السورة واتجاهات سورة المزمل ، وسورة القلم ، مما يدل على أنها جميعا نزلت متقاربة ، لمواجهة حالات متشابهة . . وذلك باستثناء الشطر الثانى من سورة المزمل ، وقد نزل لشأن خاص بالرياضة الروحية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وطائفة من الذين معه كما تقدم .

* * *

وهذه السورة قصيرة الآيات . سريعة الجريان . منوعة الفواصل والقوافى . يتئد إيقاعها أحيانا ، ويجرى لاهثا أحيانا ! وبخاصة عند تصوير مشهد هذا المكذب وهو يفكر ويقدر ويعبس ويبسر .. وتصوير مشهد سقر . لا تبقى ولا تذر . لواحة للبشر .. ومشهد فرارهم كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة !

وهذا التنوع فى الإيقاع والقافية بتنوع المشاهد والظلال يجعل للسورة مذاقا خاصا ؛ ولا سيما عند رد بعض القوافى ورجعها بعد انتهائها كقافية الراء الساكنة: المدثر. أنذر. فكبر .. وعودتها بعد فترة : قدر . بسر . استكبر . سقر ... وكذلك الانتقال من قافية إلى قافية فى الفقرة الواحدة مفاجأة ولكن لهدف خاص . عند قوله : « فما لهم عن التذكرة معرضين ؟ كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة ! » . . ففى الآية الأولى كان يسأل ويستنكر . وفى الثانية والثالثة كان يصور ويسخر ! وهكذا . . .

Marfat.com

والآن نأخذ فى الاستعراض التفصيلى للسورة :

* * *

« ياأيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر » . .

إنه النداء العلوى الجليل، للأمر العظيم الثقيل . نذارة هذه البشرية وإيقاظها ، وتخليصها من الشر فى الدنيا ، ومن النار فى الآخرة ؛وتوجيهها إلى طريق الخلاص قبل فوات الأوان .. وهو واجب ثقيل شاق ، حين يناط بفرد من البشر ـ مهما يكن نبيا رسولا ـ فالبشرية من الضلال والعصيان والتمرد والعتو والعناد والإصرار والالتواء والتفصى من هذا الأمر ، بحيث تجعل من الدعوة أصعب وأثقل مايكلفه إنسان من المهام فى هذا الوجود !

« ياأيها المدثر . قم فأنذر » .. والإنذار هو أظهر مافى الرسالة ،فهو تنبيه للخطر القريب الذى يترصد للغافلين السادرين فى الضلال وهم لايشعرون . وفيه تتجلى رحمة الله بالعباد ، وهم لاينقصون فى ملكه شيئا حين يضلون ، ولا يزيدون فى ملكه شيئا حين يهتدون . غير أن رحمته اقتضت أن يمنحهم كل هذه العناية ليخلصوا من العذاب الأليم فى الآخرة ، ومن الشر المريق فى الدنيا . وأن يدعوهم رسله ليغفر لهم ويدخلهم جنته من فضله !

ثم يوجه الله رسوله فى خاصة نفسه بعد إذ كلفه نذارة غيره :

يوجهه إلى تكبير ربه : « وربك فكبر » . . ربك وحده .. فهو وحده الكبير ، الذى يستحق التكبير . وهو توجيه يقرر جانبا من التصور الإيمانى لمعنى الألوهية ، ومعنى التوحيد .

إن كل أحد ، وكل شىء ، وكل قيمة، وكل حقيقة . . صغير .. والله وحده هو الكبير .. وتتوارى الأجرام والأحجام ، والقوى والقيم ، والأحداث والأحوال ، والمعانى والأشكال ؛ وتتمحى فى ظلال الجلال والكمال ، لله الواحد الكبير المتعال .

وهو توجيه للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليواجه نذارة البشرية ، ومتاعبها وأهوالها وأثقالها ، بهذا التصور ، وبهذا الشعور ، فيستصغر كل كيد ، وكل قوة ، وكل عقبة ، وهو يستشعر أن ربه الذى دعاه ليقوم بهذه النذارة ، هو الكبير . . ومشاق الدعوة وأهوالها فى حاجة دائمة إلى استحضار هذا التصور وهذا الشعور .

Marfat.com

ويوجهه إلى التطهر : « وثيابك فطهر » . . وطهارة الثياب كناية فى الاستعمال العربى عن طهارة القلب والخلق والعمل . . طهارة الذات التى تحتويها الثياب ، وكل مايلم بها أو يمسها . . والطهارة هى الحالة المناسبة للتلقى من الملإ الأعلى : كما أنها ألصق شىء بطبيعة هـذه الرسالة . وهى بعد هـذا وذلك ضرورية لملابسة الإنذار والتبليغ ، ومزاولة الدعوة فى وسط التيارات والأهواء والمداخل والدروب ؛ وما يصاحب هذا ويلابسه من أدران ومقاذر وأخلاط وشوائب ، تحتاج من الداعية إلى الطهارة الـكاملة كى يملك استنقاذ الملوثين دون أن يتلوث ، وملابسة المدنسين من غير أن يتدنس . . وهى لفتة دقيقة عميقة إلى ملابسات الرسالة والدعوة والقيام على هـذا الأمر بين شتى الأوساط ، وشتى البيئات ، وشتى الظـروف ، وشتى القلوب !

ويوجهه إلى هجران الشرك وموجبات العذاب : « والرجز فاهجر » .. والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان هاجرا للشرك ولموجبات العذاب حتى قبل النبوة. فقد عافت فطرته السليمة ذلك الانحراف ، وهذا الركام من المعتقدات الشائهة ، وذلك الرجس من الأخلاق والعادات ، فلم يعرف عنه أنه شارك فى شىء من خوض الجاهلية . ولـكن هذا التوجيه يعنى المفاصلة وإعلان التميز الذى لاصلح فيه ولا هوادة . فهما طريقان مفترقان لايلتقيان . كما يعنى التحرز من دنس هذا الرجز ـ والرجز فى الأصل هو العذاب ، ثم أصبح يطلق على موجبات العذاب ـ تحرز التطهر من مس هذا الدنس !

ويوجهه إلى إنـكار ذاته وعدم المن بما يقدمه من الجهد ، أو استـكثاره واستعظامه : « ولاتمنن تستـكثر » .. وهو سيقدم الـكثير ، وسيبذل الـكثير ، وسيلقى الـكثير من الجهد والتضحية والعناء . ولـكن ربه يريد منه ألا يظل يستعظم مايقدمه ويستـكثره ويمتن به . . وهذه الدعوة لاتستقيم فى نفس تحس بما تبذل فيهـا . فالبذل فيها من الضخامة بحيث لاتحتمله النفس إلا حين تنساه . بل حين لاتستشعره من الأصل لأنها مستغرقة فى الشعور بالله ؛ شاعرة بأن كل ماتقدمه هو من فضله ومن عطاياه . فهو فضل يمنحها إياه ، وعطاء يختارها له، ويوفقها لنيله . وهو اختيار واصطفاء وتـكريم يستحق الشكر لله . لاالمن والاستـكثار .

ويوجهه أخيرا إلى الصبر . الصبر لربه : « ولربك فاصبر » . . وهى الوصية التى تـكرر عند كل تـكليف بهذه الدعوة أو تثبيت . والصبر هو هـذا الزاد الأصيل فى هـذه المعركة

Marfat.com

الشاقة . معركة الدعوة إلى الله . المعركة المزدوجة مع شهوات النفوس وأهواء القلوب ؛ ومع أعداء الدعوة الذين تقودهم شياطين الشهوات وتدفعهم شياطين الأهواء ! وهى معركة طويلة عنيفة لازاد لها إلاالصبر الذى يقصد فيه وجه الله ، ويتجه به إليه احتسابا عنده وحده .

* * *

فإذا انتهى هـذا التوجيه الإلهى للنبى الـكريم ، اتجه السياق إلى بيان ماينذر به الآخرين، فى لمسة توقظ الحس لليوم العسير ، الذى ينذر بمقدمه النذير :

« فإذا نقر فى الناقور . فذلك يومئذ يوم عسير . على الـكافرين غير يسير » . .

والنقر فى الناقور ، هو مايعبر عنه فى مواضع أخرى بالنفخ فى الصور .ولـكن التعبير هنا أشد إيحاء بشدة الصوت ورنينه ؛ كأنه نقر يصوّت ويدوّى . والصوت الذى ينقر الآذان أشد وقعا من الصوت الذى تسمعه الآذان .. ومن ثم يصف اليوم بأنهعسيرعلى الـكافرين ، ويؤكد هـذا العسر بنفى كل ظل لليسر فيه : « على الـكافرين غير يسير » . . فهو عسر كله . عسر لايتخلله يسر . ولايفصل أمر هـذا العسر ، بل يدعه مجملا مجهلا يوحى بالاختناق والـكرب والضيق .. فما أجدر الـكافرين أن يستعموا للنذير ، قبل أن ينقر فى الناقور ، فيواجههم هذا اليوم العسير العسير !

* * *

وينتقل من هـذا التهديد العام إلى مواجهة فرد بذاته من المـكذبين ؛ يبدو أنه كان له دور رئيسى خاص فى التـكذيب والتبييت للدعوة ؛ فيوجه إليه تهديدا ساحقا ماحقا ، ويرسم له صورة منـكرة تثير الهزء والسخرية من حاله وملامح وجهه ونفسه التى تبرز من خلال الـكلمات كأنها حية شاخصة متحركة الملامح والسمات :

« ذرنى ومنخلقت وحيدا ،وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ،ومهدت له تمهيدا ؛ ثم يطمع أن أزيد ! كلا ! إنه كان لآياتنا عنيدا.سأرهقه صعودا . إنه فـكر وقدر . فقتل ! كيف قدر ؟ ثم قتل ! كيف قدر ؟ ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هـذا إلاقول البشر . سأصليه سقر . وماأدراك ماسقر ؟ لاتبقى ولاتذر، لواحة للبشر ، عليها تسعة عشر .. » ..

وقد وردت روايات متعددة بأن المعنىّ هنا هو الوليد ابن المغيرة المخزومى .قال ابن جرير:

Marfat.com

حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا محمد ابن ثورة ، عن معمر ، عن عبادة ابن منصور ، عن عكرمة ، أن الوليد ابن المغيرة جاء إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل ابن هشام ، فأتاه فقال له : أى عم ! إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا : قال : لم ؟ قال : يعطونكه ، فإنك أتيت محمدا تتعرض لما قبله ! (يريد بخبث أن يثير كبرياءه من الناحية التى يعرف أن الوليد أشد بها اعتزازا) قال : قد علمت قريش أنى أكثرها مالا ! قال : فقل فيه قولا يعلم قومك أنك منكر لما قال ، وأنك كاره له ! قال : فماذا أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار منى ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ! والله ما يشبه الذى يقوله شيئا من هذا . والله إن لقوله الذى يقوله لحلاوة ، وإنه ليحطم ما تحته ، وإنه ليعلو وما يعلى . . قال : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه . . قال : فدعنى حتى أفكر فيه . . فلما فكر قال : إن هذا إلا سحر يؤثره عن غيره . فنزلت : « ذرنى ومن خلقت وحيدا ـ حتى بلغ ـ عليها تسعة عشر » .

وفى رواية أخرى أن قريشا قالت : لئن صبأ الوليد ، لتصبون قريش كلها ! فقال أبو جهل أنا أكفيكموه ! ثم دخل عليه !.. وأنه قال بعد التفكير الطويل : إنه سحر يؤثر . أما ترون أنه يفرق بين المرء وأهله وولده ومواليه ؟

هذه هى الواقعة كما جاءت بها الروايات . فأما القرآن فيسوقها هذه السياقة الحية المثيرة .. يبدأ بذلك التهديد القاصم الرهيب .

« ذرنى ومن خلقت وحيدا » ..

والخطاب للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعناه خل بينى وبين هذا الذى خلقته وحيدا مجردا من كل شىء آخر مما يعتز به من مال كثير ممدود وبنين حاضرين شهود ونعم يتبطر بها ويختال ويطلب المزيد . خل بينى وبينه ولا تشغل بالك بمكره وكيده . فأنا سأتولى حربه . . وهنا يرتعش الحس ارتعاشة الفزع المزلزل ؛ وهو يتصور انطلاق القوة التى لا حد لها . . قوة الجبار القهار . . لتسحق هذا المخلوق المضعوف المسكين المهزيل الضئيل ! وهى الرعشة التى يطلقها النص القرآنى فى قلب القارئ والسامع الآمنين منها . فما بال الذى تتجه إليه وتواجهه !

ويطيل النص فى وصف حال هذا المخلوق ، وما آتاه الله من نعمه وآلائه ، قبل أن يذكر إعراضه وعناده . فهو قد خلقه وحيدا مجردا من كل شىء حتى من ثيابه ! ثم جعل له مالا كثيرا

Marfat.com

ممدودا . ورزقه بنين من حوله حاضرين شهودا ، فهو منهم فى أنس وعزوة . ومهد له الحياة تمهيدا ويسرها له تيسيرا .. « ثم يطمع أن أزيد » .. فهو لايقنع بما أوتى، ولايشكر ويكتفى .. أم لعله يطمع فى أن ينزل عليه الوحى وأن يعطى كتابا كما سيجىء فى آخر السورة: « بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفا منشرة » . . فقد كان ممن يحسدون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على إعطائه النبوة .

وهنا يردعه ردعا عنيفا عن هـذا الطمع الذى لم يقدم حسنة ولاطاعة ولاشكرا لله يرجو بسببه المزيد :

« كلا ! » ، وهى كلمة ردع وتبكيت ـ « إنه كان لآياتنا عنيدا » . . فعاند دلائل الحق وموحيات الإيمان . ووقف فى وجه الدعوة ، وحارب رسولها ، وصد عنها نفسه وغيره ، وأطلق حواليها الأضاليل .

ويعقب على الردع بالوعيد الذى يبدل اليسر عسرا ، والتمهيد مشقة !

« سأرهقه صعودا » ..

وهو تعبير مصور لحركة المشقة . فالتصعيد فى الطريق هو أشق السير وأشده إرهاقا . فإذا كان دفعا من غير إرادة من المصعد كان أكثر مشقة وأعظم إرهاقا . وهو فى الوقت ذاته تعبير عن حقيقة . فالذى ينحرف عن طريق الإيمان السهل اليسر الودود ، يندب فى طريق وعر شاق مبتوت ؛ ويقطع الحياة فى قلق وشدة وكربة وضيق ، كأنما يصعد فى السماء، أو يصعد فى وعر صلد لارى فيه ولا زاد ، ولاراحة ولاأمل فى نهاية الطريق !

ثم يرسم تلك الصورة المبدعة المثيرة للسخرية والرجل يكد ذهنه ! ويعصر أعصابه! ويقبض جبينه ! وتكلح ملامحه وقسماته . . كل ذلك ليجد عيبا يعيب به هذا القرآن ، وليجد قولا يقوله فيه :

« إنه فكر وقدر . فقتل ! كيف قدر ؟ ثم قتل ! كيف قدر ؟ ثم نظر . ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر . فقال : إن هـذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر » ..

لمحة لمحة . وخطرة خطرة . وحركة حركة . يرسمها التعبير ، كما لو كانت ريشة تصور ، لا كلمات تعبر ، بل كما لو كانت فيلماً متحركا يلتقط المشهد لمحة لمحة !!!

لقطة وهو يفكر ويدبر ومعها دعوة هى قضاء « فقتل ! » واستنكار كله استهزاء « كيف قدر ! » ثم تكرار الدعوة والاستنكار لزيادة الإيحاء بالتكرار .

Marfat.com

ولقطة وهو ينظر هكذا وهكذا فى جد مصطنع متكلف يوحى بالسخرية منه والاستهزاء.

ولقطة وهو يقطب حاجبيه عابسا ، ويقبض ملامح وجهه باسرا ، ليستجمع فكره فى هيئة مضحكة !

وبعد هذا المخاض كله ؟ وهذا الحزق كله ؟ لايفتح عليه بشىء . . إنما يدبر عن النور ويستكبر عن الحق . . فيقول : « إن هذا إلاسحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر » !

إنها لمحات حية يثبتها التعبير القرآنى فى المخيلة أقوى مما تثبتها الريشة فى اللوحة ؛ وأجمل مما يعرضها الفيلم المتحرك على الأنظار! وإنها لتدع صاحبها سخرية الساخرين أبد الدهر ، وتثبت صورته الزرية فى صلب الوجود ، تتملاها الأجيال بعد الأجيال !

فإذا انتهى عرض هذه اللمحات الحية الشاخصة لهذا المخلوق المضحك ، عقب عليها بالوعيد المفزع :

« سأصليه سقر » .. وزاد هذا الوعيد تهويلا بتجهيل سقر : « وما أدراك ماسقر ؟ » .. إنها شىء أعظم وأهول من الإدراك ! ثم عقب على التجهيل بشىء من صفتها أشد هولا : « لاتبقى ولا تذر » . . فهى تكنس كنسا ، وتبلع بلعا ، وتمحو محوا ، فلا يقف لها شىء ، ولا يبقى وراءها شىء . ولا يفضل منها شىء !

ثم هى تتعرض للبشر وتلوح : « لواحة للبشر » . . كما قال فى سورة المعارج : « تدعو من أدبر وتولى » . . فهى تدل على نفسها ، وكأنما تقصد إثارة الفزع فى النفوس ، بمنظرها المخيف !

ويقوم عليها حراس عدتهم : « تسعة عشر » . . لاندرى أهم أفراد من الملائكة الغلاظ الشداد ، أم صفوف أم أنواع من الملائكة وصنوف . إنما هو خبر من الله سندرى شأنه فيما يجىء . .

* * *

فأما المؤمنون فقد تلقوا كلمات الله بالتسليم اللائق بمن وثق بربه ، وتأدب معه أدب العبد مع الرب فلم يمد يمارى فى خبره وقوله . وأما المشركون فتلقفوا هذا العدد بقلوب خاوية من الإيمان ، عارية من التوقير لله ، خالية من الجد فى تلقى هذا الأمر العظيم . وراحوا يتهكمون عليه ويسخرون منه ، ويتخذونه موضعا للتندر والمزاح . . قال قائل منهم : أليس يتكفل

Marfat.com

كل عشرة منكم بواحد من هؤلاء التسعة عشر ؟ ! وقال قائل : لا بل اكفونى أنتم أمر اثنين منهم وعلىّ الباقى أنا أكفيكوهم ! وبمثل هذه الروح المطموسة المغلقة الفاضية تلقوا هذا القول العظيم الكريم .

عندئذ نزلت الآيات التالية تكشف عن حكمة الله فى الكشف عن هذا الجانب من الغيب، وذكر هذا العدد ، وترد علم الغيب إلى الله ، وتقرر ماوراء ذكر سقر وحراسها من غاية ينتهى الموقف إليها :

« وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة . وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ، ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ، ويزداد الذين آمنوا إيمانا ، ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ، ولِيقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون : ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ كذلك يضل الله من يشاء ، ويهدى من يشاء ، وما يعلم جنود ربك إلا هو ، وما هى إلا ذكرى للبشر » ..

تبدأ الآية بتقرير حقيقة أولئك التسعة عشر الذين تمارى فيهم المشركون :

« وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة » . .

فهم من ذلك الخلق المغيب الذى لا يعلم طبيعته وقوته إلا الله؛ وقد قال لنا عنهم : إنهم «لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون » فقرر أنهم يطيعون مايأمرهم به الله ، وأن بهم القدرة على فعل ما يأمرهم . فهم إذن مزودون بالقوة التى يقدرون بها على كل ما يكلفهم الله إياه . فإذا كان قد كلفهم القيام على سقر ، فهم مزودون من قبله سبحانه بالقوة المطلوبة لهذه المهمة ، كما يعلمها الله ، فلا مجال لقهرهم أو مغالبتهم من هؤلاء البشر المضعوفين ! وما كان قولهم عن مغالبتهم إلا وليد الجهل الغليظ بحقيقة خلق الله وتدبيره للأمور .

« وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا » . .

فهم الذين يثير ذكر العدد فى قلوبهم رغبة الجدل ؛ ولا يعرفون مواضع التسليم ومواضع الجدل . فهذا الأمر الغيبى كله من شأن الله ، وليس لدى البشر عنه من علم كثير ولا قليل ، فإذا أخبر الله عنه خبرا فهو المصدر الوحيد لهذا الطرف من الحقيقة ، وشأن البشر هو تلقى هذا الخبر بالتسليم ، والاطمئنان إلى أن الخير فى ذكر هذا الطرف وحده ، بالقدر الذى ذكره ، وأن لا مجال للجدل فيه ، فالإنسان إنما يجادل فيما لديه عنه علم سابق يناقض الخبر الجديد أو يغايره . أما لماذا كانوا تسعة عشر (أيا كان مدلول هذا العدد) فهو أمر يعلمه الله الذى

Marfat.com

ينسق الوجود كله ، ويخلق كل شيء بقدر . وهـذا العدد كغيره من الأعداد . والذى يبغى الجدل يمكنه أن يجادل وأن يعترض على أى عدد آخر وعلى أى أمر آخر بنفس الاعتراض . . لماذا كانت السماوات سبعا ؟ لماذا كان خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار ؟ لماذا كان حمل الجنين تسعة أشهر ؟ لماذا تعيش السلاحف آلاف السنين ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ والجواب : لأن صاحب الخلق والأمر يريد ويفعل مايريد ! هذا هو فصل الخطاب فى مثل هذه الأمور . .

« ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ، ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون » . .

فهؤلاء وهؤلاء سيجدون فى عدة عراس سقر ما يدعو بعضهم إلى اليقين ويدعو البعض إلى ازدياد الإيمان . فأما الذين أوتوا الكتاب فلا بد أن لديهم شيئا عن هذه الحقيقة ، فإذا سمعوها من القرآن استيقنوا أنه مصدق لما بين يديهم عنها . وأما الذين آمنوا فكل قول من ربهم يزيدهم إيمانا . لأن قلوبهم مفتوحة موصولة تتلقى الحقائق تلقيا مباشرا ؛ وكل حقيقة ترد إليها من عند الله تزيدها أنسا بالله .. وستشعر قلوبهم بحكمة الله فى هذا العدد ، وتقديره الدقيق فى الخلق ، فتزيد قلوبهم إيمانا . وتثبت هذه الحقيقة فى قلوب هؤلاء وهؤلاء فلا يرتابون بعدها فيما يأتيهم من عند الله .

« وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون : ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ » . .

وهكذا تترك الحقيقة الواحدة أثرين مختلفين فى القلوب المختلفة .. فبينما الذين أوتوا الكتاب يستيقنون ، والذين آمنوا يزيدون إيمانا ، إذا بالذين كفروا وضعاف القلوب المنافقون فى حيرة يتساءلون : « ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ » . . فهم لايدركون حكمة هذا الأمر الغريب . ولا يسلمون بحكمة الله المطلقة فى تقدير كل خلق . ولا يطمئنون إلى صدق الخبر والخبر الكامن فى إخراجه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة . .

« كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء » . .

كذلك . بذكر الحقائق وعرض الآيات. فتتلقاها القلوب المختلفة تلقيا مختلفا . ويهتدى بها فريق وفق مشيئة الله ؛ ويضل بها فريق بحسب مشيئة الله . فكل أمر مرجعه فى النهاية إلى إرادة الله المطلقة التى ينتهى إليها كل شيء . وهؤلاء البشر خرجوا من يد القدرة باستعداد

Marfat.com

مزدوج للهدى وللضلال ؛ فمن اهتدى ومن ضل كلاهما يتصرف داخل حدود المشيئةالتى خلقتهم بهذا الاستعداد المزدوج ، ويسرت لهم التصرف فى هـذا أو ذاك ، فى حدود المشيئة الطليقة ، ووفق حكمة الله المكنونة .

وتصور طلاقة المشيئة ,انتهاء كل مايقع فى هذا الوجود إليها تصورا كاملا واسع المدلول ، يعفى العقول من الجدل الضيق حول مايسمونه الجبر والإرداة . وهو الجدل الذى لا ينتهى إلى تصور صحيح ، بسبب أنه يتناول المسألة من زاوية ضيقة ، ويضعها فى أشكال محددة نابعة من منطق الإنسان وتجاربه وتصوراته المحدودة ! بينما هو يعالج قضية من قضايا الألوهيـة غير المحدودة !

لقد كشف الله لنا عن طريق الهدى وطريق الضلال . وحدد لنا نهجا نسلكه فنهتدى ونسعد ونفوز . وبين لنا نهوجا ننحرف إليها فنضل ونشقى ونخسر . ولم يكلفنا أن نعلم وراء ذلك شيئا ، ولم يهبنا القدرة على علم شىء وراء هذا . وقال لنا : إن إرادتى مطلقة وإن مشيئتى نافذة . . فعلينا أن نعالج ـ بقدر طاقتنا ـ تصور حقيقة الإرادة المطلقة والمشيئة النافذة . وأن نلتزم النهج الهادى ونتجنب النهوج المضللة . ولاننشغل فى جدل عقيم حول مالم نوهب القدرة على إدراك كنهه من الغيب المكنون . ومن ثم ننظر فنرى كل ماأنفقه المتكلمون فى مسألة القدر على النحو الذى تكلموا به جهدا ضائعا لاطائل وراءه لأنه فى غير ميدانه . .

إننا لانعلم مشيئة الله الغيبة بنا ، ولكننا نعلم ماذا يطلب الله منا لنستحق فضله الذى كتبه على نفسه . وعلينا إذن أن ننفق طاقتنا فى أداء ما كلفنا ، وأن ندع له هو غيب مشيئته فينا . والذى سيكون هو مشيئته ، وعندما يكون سنعرف أن هـذه مشيئته لاقبل كونه ! والذى سيكون وراءه حكمة يعرفها العليم بالكل المطلق . . وهو الله وحده . . وهـذا هو طريق المؤمن فى التصور ومنهجه فى التفكر . . .

« ومايعلم جنود ربك إلا هو » . .

فهى غيب . حقيقتها . ووظيفتها . وقدرتها . . وهو يكشف عما يريد الكشف عنه من أمرها ، وقوله هو الفصل فى شأنها . وليس لقائل بعده أن يجادل أو يماحك أو يحاول معرفة مالم يكشف الله عنه ، فليس إلى معرفة هذا من سبيل . .

Marfat.com

« وماهى إلا ذكرى للبشر » . .

« وهى » إما أن تكون هى جنود ربك ، وإما أن تكون هى سقر ومن عليها . وهى من جنود ربك . وذكرها جاء لينبه ويحذر ؛ لاتكون موضوعا للجدل والمماحكة ! والقلوب المؤمنة هى التى تتعظ بالذكرى ،فأما القلوب الضالة فتتخذها مماحكة وجدلا !

* * *

ويعقب على هـذه الوقفة التقريرية لهذه الحقيقة من حقائق الغيب ، ولمناهج التصور المادية والمضللة . . يعقب على هذا بربط حقيقة الآخرة ، وحقيقة سقر ، وحقيقة جنود ربك، بظواهر الوجود المشهودة فى هذا العالم ، والتى يمر عليها البشر غافلين ، وهى تشى بتقدير الإرادة الخالقة وتدبيرها ، وتوحى بأن وراء هـذا التقدير والتدبير قصدا وغاية ، وحسابا وجزاء :

« كلا والقمر . والليل إذ أدبر . والصبح إذا أسفر . إنهـا لإحدى الكبر . نذيرا للبشر » . .

ومشاهد القمر ، والليل حين يدبر ، والصبح حين يسفر .. مشاهد موحية بذاتها . تقول للقلب البشرى أشياء كثيرة ؛ وتهمس فى أعماقه بأسرار كثيرة ؛ وتستجيش فى أغواره مشاعر كثيرة . والقرآن يلمس بهذه الإشارة السريعة مكامن هذه المشاعر والأسرار فى القلوب التى يخاطبها ، على خبرة بمداخلها ودروبها !

وقل أن يستيقظ قلب لمشهد القمر حين يطلع وحين يسرى وحين يغيب . . ثم لايعى عن القمر شيئا يهمس له به من أسرار هـذا الوجود ! وإن وقفة فى نور القمر أحيانا لتغسل القلب كما لو كان يستحم بالنور !

وقل أن يستيقظ قلب لمشهد الليل عند إدباره،فى تلك الهدأة التى تسبق الشروق، وعندما يبدأ هـذا الوجود كله يفتح عينيه ويفيق . . ثم لاينطبع فيه أثر من هـذا المشهد وتدب فى أعماقه خطرات رفافة شفافة .

وقل أن يستيقظ قلب لمشهد الصبح عند إسفاره وظهوره ، ثم لاتنبض فيه نابضة من إشراق وتفتح وانتقال شعورى من حال إلى حال ، يجعله أشد ما يكون صلاحية لاستقبال النور الذى يشرق فى الضمائر مع النور الذى يشرق فى النواظر .

والله الذى خلق القلب البشرى يعلم أن هـذه المشاهد بذاتها تصنع فيه الأعاجيب فى بعض الأحايين ، وكأنها تخلقه من جديد .

Marfat.com

ووراء هذه الانبعاثات والإشراقات والاستقبالات مافى القمر، ومافى الليل ، ومافى الصبح من حقيقة عجيبة هائلة يوجه القرآن إليها المدارك ، وينبه إليها العقول . ومن دلالة على القدرة المبدعة والحكمة المدبرة، والتنسيق الإلهى لهذا الكون ، بتلك الدقة التى يحير تصورها العقول.

ويقسم الله سبحانه بهذه الحقائق الكونية الكبيرة لتنبيه الغافلين لأقدارها العظيمة ، ودلالاتها المثيرة . يقسم على أن « سقر » أو الجنود التى عليها ، أوالآخرة ومافيها ، هى إحدى الأمور الكبيرة العجيبة المنذرة للبشر بما وراءهم من خطر :

« إنها لإحدى الكبر ، نذيرا للبشر » ...

والقسم ذاته ، ومحتوياته ، والمقسم عليه بهذه الصورة . . كلها مطارق تطرق قلوب البشر بعنف وشدة ،وتتسق مع النقر فى الناقور ،وما يتركه من صدى فى الشعور .ومع مطلع السورة بالنداء الموقظ : « ياأيها المدثر » والأمر بالنذارة : « قم فأنذر » . . فالجو كله نقر وطرق وخطر !!

* * *

وفى ظل هذه الإيقاعات المثيرة الخطيرة يعلن تبعة كل نفس لذاتها وعلى ذاتها ؛ ويدع للنفوس أن تختار طريقها ومصيرها ؛ ويعلن لها أنها مأخوذة بما تكسبه باختيارها ، مرهونة بأعمالها وأوزارها :

« لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر . كل نفس بما كسبت رهينة » . .

فكل فرد يحمل هم نفسه وتبعتها ، ويضع نفسه حيث شاء أن يضعها ،يتقدم بها أو يتأخر، ويكرمها أويهينها . فهى رهينة بما تكسب ، مقيدة بما تفعل . وقد بين الله للنفوس طريقه لتسلك إليه على بصيرة ، وهو إعلان فى مواجهة المشاهد الكونية الموحية ، ومشاهد سقر التى لاتبقى ولا تذر . . له وقعه وله قيمته !

وعلى مشهد النفوس الرهينة بما كسبت ، المقيدة بما فعلت ، يعلن إطلاق أصحاب اليمين من العقال ، وإرسالهم من القيد ، وتخويلهم حق سؤال المجرمين عما انتهى بهم إلى هذا المصير :

« إلا أصحاب اليمين ، فى جنات يتساءلون عن المجرمين : ما سلككم فى سقر ؟ قالوا : لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين » . . .

Marfat.com

وانطلاق أصحاب اليمين وانفلاتهم من الرهن والقيد موكول إلى فضل الله الذى يبارك حسناتهم ويضاعفها . وإعلان ذلك فى هـذا الموقف وعرضه يلمس القلوب لمسة مؤثرة . يلمس قلوب المجرمين المكذبين ، وهم يرون أنفسهم فى هذا الموقف المهين ، الذى يعترفون فيه فيطيلون الاعتراف ، بينما المؤمنون الذين كانوا لا يحفلونهم فى الدنيا ، ولا يبالونهم ،فى موقف الكرامة والاستعلاء ، يسألونهم سؤال صاحب الشأن المفوض فى الموقف : « ماسلككم فى سقر؟ » . . ويلمس قلوب المؤمنين الذين كانوا يلاقون من المجرمين مايلاقون فى الأرض ، وهم يجدون أنفسهم اليوم فى هـذا المقام الكريم وأعداءهم المستكبرين فى ذلك المقام المهين . . وقوة المشهد تلقى فى نفوس الفريقين أنه قائم اللحظة وأنهم فيه قائمون . . وتطوى صفحة الحياة الدنيا بما فيها كأنه ماض انتهى وولى !

والاعتراف الطويل المفصل يتناول الجرائر الكثيرة التى انتهت بالمجرمين إلى سقر ، يعترفون بها هم بألسنتهم فى ذلة المستكين أمام المؤمنين :

« قالوا : لم نك من المصلين » . . وهى كناية عن الإيمان كله ، تشير إلى أهمية الصلاة فى كيان هذه العقيدة ، وتجعلها رمز الإيمان ودليله ، يدل إنكارها على الكفر ، ويعزل صاحبها عن صف المؤمنين .

« ولم نك نطعم المسكين » . . وهذه تلى عدم الإيمان ، بوصفها عبادة الله فى خلقه ، بعد عبادته ـ سبحانه ـ فى ذاته . ويدل ذكرها بهذه القوة فى مواضع شتى على الحالة الاجتماعية التى كان القرآن يواجهها ، وانقطاع الإحسان للفقير فى هـذه البيئة القاسية ، على الرغم من الفخر بالكرم فى مواضع المفاخرة والاختيال، مع تركه فى مواضع الحاجة والعطف الخالص البرىء .

« وكنا نخوض مع الخائضين » . . وهى تصف حالة الاستهتار بأمر العقيدة ، وحقيقة الإيمان ، وأخذها مأخذ الهزل واللعب والخوض بلامبالاة ولا احتفال .وهى أعظم الجد وأخطر الأمر فى حياة الإنسان ؛ وهى الشأن الذى ينبغى أن يفصل فيه ضميره وشعوره قبل أن يتناول أى شأن آخر من شؤون هـذه الحياة . فعلى أساسها يقوم تصوره وشعوره وقيمه وموازينه . وعلى ضوئها يمضى فى طريق الحياة . فكيف لايقطع فيها برأى ولايأخذها مأخذ الجد ؟ ويخوض فيها مع الخائضين ، ويلعب فيها مع اللاعبين ؟

« وكنا نكذب بيوم الدين » وهـذه أس البلايا . فالذى يكذب بيوم الدين تختل فى يده

Marfat.com

جميع الموازين ، وتضطرب فى تقديره جميع القيم ، ويضيق فى حسه مجال الحياة ، حين يقتصر على هـذا العمر القصير المحدود فى هذه الأرض ؛ ويقيس عواقب الأمور بما يتم منهـا فى هذا المجـال الصغير القصير ، فلايطمئن إلى هذه العواقب ، ولايحسب حساب التقدير الأخير الخطير .. ومن ثم تفسد مقاييسه كلها ويفسد فى يده كل أمر من أمور هذه الدنيا ، قبل أن يفسد عليه تقديره للآخرة ومصيره فيها . . وينتهى من ثم إلى شر مصير .

والمجرمون يقولون : إننا ظللنا على هذه الأحوال . لانصلى ، ولانطعم المسكين ، ونخوض مع الخائضين ، ونـكذب بيوم الدين . .

« حتى أتانا اليقين » . . الموت الذى يقطع كل شك وينهى كل ريب ، ويفصل فى الأمر بلا مرد . . ولا يترك مجالا لندم ولاتوبة ولاعمل صالح . . بعد اليقين . .

ويعقب السياق على الموقف السيء المهين ، بقطع كل أمل فى تعديل هذا المصير :

« فما تنفعهم شفاعة الشافعين » ..

فقد قضى الأمر ، وحق القول ، وتقرر المصير ، الذى يليق بالمجرمين المترفين ! وليس هنالك من يشفع للمجرمين أصلا . وحتى على فرض مالاوجود له فما تنفعهم شفاعة الشافعين !

* * *

وأمام هـذا الموقف المهين البئوس منه فى الآخرة ، يردهم إلى موقفهم فى الفرصة المتاحة لهم فى الأرض قبل مواجهة ذلك الموقف ؛ وهم يصدون عنها ويعرضون ، بل يفرون من الهدى والخير ووسائل النجاة المعروضة عليهم فيها ، ويرسم لهم صورة مضحكة تثير السخرية والعجب من أمرهم الغريب :

« فمالهم عن التذكرة معرضين ؟ كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة ؟ » . .

ومشهد حمر الوحش وهى مستنفرة تفر فى كل اتجاه ، حين تسمع زئير الأسد وتخشاه . . مشهد يعرفه العرب . وهو مشهد عنيف الحركة . مضحك أشد الضحك حين يشبه به الآدميون ! حين يخافون ! فـكيف إذا كانوا إنمـا ينفرون هذا النفار الذى يتحولون به من آدميين إلى حمر ، لالأنهم خائفون مهددون بل لأن مذكرا يذكرهم بربهم وبمصيرهم ، ويمهد لهم الفرصة ليتقوا ذلك الموقف الزرى المهين ، وذلك المصير العصيب الأليم ؟ !

إنها الريشة المبدعة ترسم هذا المشهد وتسجله فى صلب الـكون ، تتملاه النفوس ، فتخجل

Marfat.com

وتستنكف أن تكون فيه ، ويروح النافرون المعرضون أنفسهم يتوارون من الخجل ، ويطامنون من الإعراض والنفار ، مخافة هذا التصوير الحى العنيف !

* * *

تلك هيئتهم الخارجية . « حمر مستنفرة ، فرت من قسورة » ثم لا يدعهم حتى يرسم نفوسهم من الداخل ، ومايعتلج فيها من المشاعر :

« بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفا منشرة » . .

فهو الحسد للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يختاره الله ويوحى إليه؛ والرغبة الملحة أن ينال كل منهم هذه المنزلة ، وأن يؤتى صحفا تنشر على الناس وتعلن . . ولا بد أن الإشارة هنا كانت بصدد الكبراء الذين شق عليهم أن يتخطاهم الوحى إلى محمد ابن عبد الله ، فقالوا : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ؟ » . . ولقد علم الله أين يضع رسالته واختار لها ذلك الإنسان الكريم الكبير العظيم . فكان الحنق الذى يغلى فى الصدور ، والذى يكشف عنه القرآن ، وهو يعلل ذلك الشماس والنفار !

ثم يستمر فى رسم صورة النفوس من داخلها، فيضرب عما ذكره من ذلك الطمع والحسد، ويذكر سببا آخر للإعراض والجحود . وهو يردع فى نفوسهم ذلك الطمع الذى لا يستند إلى سبب من صلاح ولا من استعداد لتلقى وحى الله وفضله :

« كلا ! بل لا يخافون الآخرة » . .

وعدم خوفهم من الآخرة هو الذى ينأى بهم عن التذكرة ، وينفرهم من الدعوة هذه النفرة . ولو استشعرت قلوبهم حقيقة الآخرة لكان لهم شأن غير هذا الشأن المريب !

ثم يردعهم مرة أخرى ، وهو يلقى إليهم بالكلمة الأخيرة ، ويدعهم لما يختارون لأنفسهم من طريق ومصير :

« كلا ! إنه تذكرة . فمن شاء ذكره » . .

إنه . هذا القرآن الذى يعرضون عن سماعه ، وينفرون كالحمر ، وهم يضمرون فى أنفسهم الحسد لمحمد ، والاستهتار بالآخرة . . إنه تذكرة تنبه وتذكر . فمن شاء فليذكر . ومن لم يشأ فهو وشأنه ، وهو ومصيره ، وهو وما يختار من جنة وكرامة ، أو من سقر ومهانة . .

* * *

Marfat.com

وبعـد أن يثبت مشيئتهم فى اختيار الطريق يعقب بطلاقة المشيئة الإلهية ، وعودة الأمور إليها فى النهاية . وهى الحقيقة التى يحرص القرآن على تقريرها فى كل مناسبة لتصحيح التصور الإيمانى من ناحية طلاقة المشيئة الإلهيـة وشمولها الـكامل الأخـير . وراء جميع الأحداث والأمور :

« وما يذكرون إلا أن يشاء الله ، هو أهل التقوى وأهل المغفرة » . .

فـكل مايقع فى هذا الوجود ، مشدود إلى المشيئة الـكبرى ، يمضى فى اتجاهها وفى داخل مجالها . فلا يقع أن يشاء أحدمن خلقه مايتعارض معمشيئته ،ومشيئته تسيطر علىأقدار الوجود كله ، وهى التى أنشأته وأنشأت نواميسه وسننه ، فهو يمضى بـكل مافيه وكل من فيه فى إطار من تلك المشيئة المطلقة من كل إطار ومن كل حد ومن كل قيد .

والذكر توفيق من الله ييسره لمن يعلم من حقيقة نفسه أنه يستحق التوفيق . والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمان يقلبها كيف يشاء . فإذا علم من العبـد صدق النيـة وجهه إلى الطاعات .

والعبد لا يعرف ماذا يشاء الله به . فهذا من الغيب المحجوب عنه. ولـكنه يعرف ماذا يريد الله منه ، فهذا مما بينه له . فإذا صدقت نيته فى النهوض بما كلف أعانه الله ووجهه وفق مشيئته الطليقة .

والذى يريد القرآن أن يطبعه فى حس المسلم هو طلاقة هذه المشيئة ، وإحاطتها بكلمشيئة ، حتى يـكونالتوجه إليها منالعبدخالصا، والاستسلاملهامحضا .. فهذههى حقيقة الإسلام القلبية التى لايستقر فى قلب بدونها . وإذا استقرت فيه كيفته تـكييفا خاصا من داخله ، وأنشأت فيه تصورا خاصا يحتـكم إليه فى كل أحداث الحياة . . وهـذا هو المقصود ابتـداء من تقرير طلاقة المشيئة الإلهيـة وشمولها عقب الحديث عن كل وعد بجنة أو نار ، وبهـدى أو ضلال .

فأما أخذ هذا الإطلاق ،والانحراف بهإلى جدل حول الجبر والاختيار ،فهو اقتطاع لجانب من تصور كلى وحقيقة مطلقة ،والتحيز بها فى درب ضيق مغلق لا ينتهى إلى قول مريح . لأنها لم تجىء فى السياق القرآنى لمثل هذا التحيز فى الدرب الضيق المغلق !

«وما يذكرونإلا أن يشاءالله » .. فهم لايصادمون بمشيئتهم مشيئة الله ، ولا يتحركون فى اتجاه ، إلا بإرادة من الله ، تقدرهم على الحركة والاتجاه .

Marfat.com

والله « هو أهل التقوى » . . يستحقها من عباده . فهم مطالبون بها . .
« وأهل المغفرة » . . يتفضل بها على عباده وفق مشيئته .
والتقوى تستأهل المغفرة ، والله ـ سبحانه ـ أهل لها جميعا.

* * *

بهذه التسبيحة الخاشعة تختم السورة ، وفى النفس منها تطلع إلى وجه الله الكريم ، أن يشاء بالتوفيق إلى الذكر ، والتوجيه إلى التقوى ، والتفضل بالمغفرة .

« هو أهل التقوى وأهل المغفرة » . .

Marfat.com

سورة القيامة مكية
وآياتها ٤٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ۝١ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ * أَيَحْسَبُ ٱلْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ * بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ * يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَامَةِ * فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ * وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ * وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ * يَقُولُ ٱلْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ * كَلَّا ! لَا وَزَرَ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ * يُنَبَّأُ ٱلْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ * بَلِ ٱلْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ .

« لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَٱتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ .

« كَلَّا ! بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ .

« كَلَّا ! إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ * وَقِيلَ : مَنْ رَاقٍ ؟ * وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ * وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ * فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ * وَلَٰكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ .

« أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ * ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ * أَيَحْسَبُ ٱلْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ؟ * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ ؟ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ؟ * فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ: ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنْثَىٰ ؟ * أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ ٱلْمَوْتَىٰ ؟ » ۝٤٠

Marfat.com

هذه السورة الصغيرة تحشد على القلب البشرى من الحقائق والمؤثرات والصور والمشاهد ، والإيقاعات واللمسات، ما لاقبل له بمواجهته ولاالتفلت منه .. تحشدها بقوة، فى أسلوب خاص، يجعل لها طابعا قرآنيا مميزا ، سواء فى أسلوب الأداء التعبيرى ، أوأسلوب الأداء الموسيقى، حيث يجتمع هذا وذاك على إيقاع تأثير شعورى قوى ، تصعب مواجهته ويصعب التفلت منه أيضا !

إنها تبدأ فى الآيتين الأوليين منها بإيقاع عن القيامة ، وإيقاع عن النفس : « لاأقسم بيوم القيامة ولاأقسم بالنفس اللوامة » . . ثم يستطرد الحديث فيها متعلقا بالنفس ومتعلقا بالقيامة ، من المطلع إلى الختام ، تزاوج بين النفس وبين القيامة حتى تنتهى . وكأن هـذا المطلع إشارة إلى موضوع السورة . أوكأنه اللازمة الإيقاعية التى ترتد إليها كل إيقاعات السورة . بطريقة دقيقة جميلة . .

من تلك الحقائق الكبيرة التى تحشدها هذه السورة فى مواجهة القلب البشرى ،وتضرب بها عليـه حصارا لامهرب منه . . حقيقة الموت القاسية الرهيبة التى تواجه كل حى ، فلا يملك لها ردا ، ولايملك لها أحد ممن حوله دفعا . وهى تتكرر فى كل لحظة ، ويواجهها الكبار والصغار ،والأغنياء والفقراء،والأقوياء والضعاف ؛ويقف الجميع منها موقفا واحدا .. لاحيلة . ولاوسيلة . ولاقوة . ولاشفاعة . ولادفع . ولاتأجيل . . مما يوحى بأنها قادمة من جهة عليا لايملك البشر معها شيئا : ولامفر من الاستسلام لها ، والاستسلام لإرادة تلك الجهة العليا . وهـذا هو الإيقاع الذى تمس به السورة القلوب وهى تقول : « كلا إذابلغت التراقى ، وقيل: من راق ؟ وظن أنه الفراق . والتفت الساق بالساق . . إلى ربك يومئذ المساق » . .

ومن تلك الحقائق الكبيرة التى تعرضهاالسورة ، حقيقة النشأة الأولى ، ودلالتها على صدق الخبر بالنشأة الأخرى ، وعلى أن هناك تدبيرا فى خلق هذا الإنسان وتقديرا . . وهى حقيقة يكشف الله للناس عن دقة أدوارها وتتابعها فى صنعة مبدعة ، لايقدر عليها إلا الله ، ولايدعيها أحد ممن يكذبون بالآخرة ويتمارون فيها .فهى قاطعة فى أن هناك إلها واحدايدبر هـذا الأمر ويقدره ؛ كما أنها بينة لاترد على يسر النشأة الآخرة ، وإيحاء قوى بضرورة النشأة الآخرة . تمشيا مع التقدير والتدبير الذى لايترك هـذا الإنسان سدى ، ولايدع حياته وعمله بلا وزن ولاحساب . . وهـذا هو الإيقاع الذى تمس السورة به القلوب وهى تقول فى أولها : « أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ؟ » ثم تقول فى آخرها : « أيحسب الإنسان أن يترك

Marfat.com

سدى ؟ ألم يك نطفة من منى يمنى ؟ ثم كان علقة فخلق فسوى ؟ فجعل منه الزوجين : الذكر والأنثى ؟ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟ » . .

ومن المشاهد المؤثرة التي تحشدها السورة ، وتواجه بها القلب البشرى مواجهة قوية . . مشهد يوم القيامة ومايجرى فيه من انقلابات كونية . ومن اضطرابات نفسية ، ومن حيرة في مواجهة الأحداث الغالبة حيث يتجلى الهول في صميم الكون ، وفي أغوار النفس وهي تروغ من هنا ومن هناك كالفأر في المصيدة ! وذلك ردا على تساؤل الإنسان عن يوم القيامة في شك واستبعاد ليومها المغيب ، واستهانة بها ولجاج في الفجور . فيجيء الرد في إيقاعات سريعة ، ومشاهد سريعة ، وومضات سريعة : « بل يريد الإنسان ليفجر أمامه . يسأل : أيان يوم القيامة ؟ فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر ، يقول الإنسان يومئذ : أين المفر ؟ كلا ! لاوزر ، إلى ربك يومئذ المستقر ، ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر . بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولوألقى معاذيره ! » . .

ومن هذه المشاهد مشهد المؤمنين المطمئنين إلى ربهم ، المتطلعين إلى وجهه الكريم في ذلك الهول . ومشهد الآخرين المقطوعي الصلة بالله ، وبالرجاء فيه ، المتوقعين عاقبة ماأسلفوا من كفر ومعصية وتكذيب . وهومشهد يعرض في قوة وحيوية كأنه حاضر لحظة قراءة القرآن. وهو يعرض ردا على حب الناس للعاجلة ، وإهمالهم للآخرة . وفي الآخرة يكون هذا الذي يكون : « كلا ! بل تحبون العاجلة ، وتذرون الآخرة . وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة . ووجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة ! » . .

وفي ثنايا السورة وحقائقها تلك ومشاهدها تعترض أربع آيات تحتوى توجيها خاصا للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتعليما له في شأن تلقي هذا القرآن . ويبدو أن هذا التعليم جاء بمناسبة حاضرة في السورة ذاتها . إذ كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخاف أن ينسى شيئا مما يوحى إليه ، فكان حرصه على التحرز من النسيان يدفعه إلى استذكار الوحي فقرة فقرة في أثناء تلقيه ؛ وتحريك لسانه به ليستوثق من حفظه . فجاءه هذا التعليم : « لاتحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه ، فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه » . . جاءه هذا التعليم ليطمئنه إلى أن أمر هذا الوحي ، وحفظ هذا القرآن ، وجمعه ، وبيان مقاصده . . كل أولئك موكول إلى صاحبه . ودوره هو ، هو التلقي والبلاغ . فليطمئن

Marfat.com

بالا ، وليتلق الوحى كاملا ، فيجده فى صدره منقوشا ثابتا . . وهكذا كان . . فأما هذا التعليم فقد ثبت فى موضعه حيث نزل . . أليس من قول الله ؟ وقول الله ثابت فى أى غرض كان؟ ولأى أمر أراد ؟ وهذه كلمة من كلماته تثبت فى صلب الكتاب شأنها شأن بقية الكتاب . . ودلالة إثبات هذه الآيات فى موضعها هذا من السورة دلالة عميقة موحية على حقيقة لطيفة فى شأن كل كلمات الله فى أى اتجاه . . وفى شأن هذا القرآن وتضمنه لكل كلمات الله التى أوحى بها إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يُخرم منها حرف ، ولم تند منها عبارة . فهو الحق والصدق والتحرج والوقار !

* * *

وهكذا يشعر القلب ـ وهو يواجه هذه السورة ـ أنه محاصر لايهرب . مأخوذ بعمله لايفلت . لاملجأ له من الله ولا عاصم . مقدرة نشأته وخطواته بعلم الله وتدبيره . فى النشأة الأولى وفى النشأة الآخرة سواء . بينما هو يلهو ويلعب ويغتر ويتبطر : « فلا صدق ولا صلى . ولكن كذب وتولى . ثم ذهب إلى أهله يتمطى » . .

وفى مواجهة تلك الحشود من الحقائق والمؤثرات واللمسات والإيحاءات يسمع التهديد اللفوف: « أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى » فيكون له وقعه ومعناه!

وهكذا تعالج السورة عناد هذا القلب وإعراضه وإصراره ولهوه . وتشعره بالجد الصارم الحازم فى هذا الشأن . شأن القيامة . وشأن النفس . وشأن الحياة المقدرة بحساب دقيق . ثم شأن هذا القرآن الذى لا يخرم منه حرف ، لأنه من كلام العظيم الجليل ، الذى تتجاوب جنبات الوجود بكلماته ، وتثبت فى سجل الكون الثابت ، وفى صلب هذا الكتاب الكريم .

* * *

وقد عرضنا نحن لحقائق السورة ومشاهدها فرادى لمجرد البيان . وهى فى نسق السورة شىء آخر . إذ أن تتابعها فى السياق ، والمزاوجة بينها هنا وهناك ، ولمسة القلب بجانب من الحقيقة مرة ، ثم العودة إليه بالجانب الآخر بعد فترة . . كل ذلك من خصائص الأسلوب القرآنى فى مخاطبة القلب البشرى ؛ مما لايبلغ إليه أسلوب آخر ، ولا طريقة أخرى . .

فلنأخذ فى مواجهة السورة كما هى فى سياقها القرآنى الخاص :

* * *

Marfat.com

« لاأقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة ، أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ؟ بلى قادرين على أن نسوى بنانه ، بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ،يسأل :أيان يوم القيامة ؟ فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر .. يقول الإنسان يومئذ :أين المفر ؟ كلا لاوزر . إلى ربك يومئذ المستقر ،ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ، بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره » . .

هذا التلويح بالقسم مع العدول عنه أوقع فى الحس من القسم المباشر ؛وهذا الوقع هو المقصود من العبارة ، وهو يتم أحسن تمام بهذا الأسلوب الخاص ، الذى يتكرر فى مواضع مختلفة من القرآن . . ثم تبرز من ورائه حقيقة القيامة وحقيقة النفس اللوامة .

وحقيقة القيامة سيرد عنها الكثير فى مواضعه فى السورة. فأما النفس اللوامة فى التفسيرات المأثورة أقوال متنوعة عنها . . فمن الحسن البصرى : إن المؤمن والله ماتراه إلا يلوم نفسه : ماأردت بكلمتى ؟ ما أردت بأكلتى ؟ ماأردت بحديث نفسى ؟ وإن الفاجر يمضى قدما ما يعاتب نفسه . . وعن الحسن : ليس أحد من أهل السماوات والأرضين إلا يلوم نفسه يوم القيامة . . وعن عكرمة :تلوم على الخير والشر : لو فعلت كذا وكذا ! كذلك عن سعيد ابن جبير . . وعن ابن عباس: هى النفس اللؤوم. وعنه أيضا :اللوامة المذمومة .وعن مجاهد: تندم على مافات وتلوم عليه .. وعن قتادة : الفاجرة .. وقال جرير :وكل هذه الأقوال متقاربة المعنى ، والأشبه بظاهر التنزيل أنها التى تلوم صاحبها على الخير والشر ، وتندم على مافات .

ونحن نختار فى معنى « النفس اللوامة » قول الحسن البصرى : « إن المؤمن والله ماتراه إلا يلوم نفسه : ماأردت بكلمتى ؟ ماأردت بأكلتى؟ ماأردت بحديث نفسى؟وإن الفاجر يمضى قدما مايعاتب نفسه » . .

فهذه النفس اللوامة المتيقظة التقية الخائفة المتوجسة التى تحاسب نفسها ، وتتلفت حولها ، وتتبين حقيقة هواها ، وتحذر خداع ذاتها هى النفس الكريمة على الله ، حتى ليذكرها مع القيامة . ثم هى الصورة المقابلة للنفس الفاجرة . نفس الإنسان الذى يريد أن يفجر ويمضى قدما فى الفجور ، والذى يكذب ويتولى ويذهب إلى أهله يتمطى دون حساب لنفسه ودون تلوم ولاتحرج ولامبالاة !

« لاأقسم بيوم القيامة ، ولاأقسم بالنفس اللوامة » . . على وقوع هذه القيامة ، ولكنه

Marfat.com

لما عدل عن القسم ، عدل عن ذكر المقسم به ، وجاء به فى صورة أخرى كأنها ابتداء لحديث بعد التنبيه إليه بهذا المطلع الموقظ :

« أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ؟ بلى قادرين على أن نسوى بنانه » . .

وقد كانت المشكلة الشعورية عند المشركين هى صعوبة تصورهم لجمع العظام البالية ، الذاهبة فى التراب ، المتفرقة فى الثرى ، لإعادة بعث الإنسان حيا ! ولعلها لاتزال كذلك فى بعض النفوس إلى يومنا هـذا ! والقرآن يرد على هـذا الحسبان بعدم جمع العظام مؤكدا وقوعه : « بلى ! قادرين على أن نسوى بنانه » . . والبنان أطراف الأصابع ؛ والنص يؤكد عملية جمع العظام ، بما هو أرقى من مجرد جمعها ، وهو تسوية البنان ، وتركيبه فى موضعه كما كان اوهى كناية عن إعادة التكوين الإنسانى بأدق مافيه ، وإكماله بحيث لاتضيع منه بنان، ولاتختل عن مكانها ، بل تسوى تسوية ، لاينقص معها عضو ولاشكل هـذا العضو ، مهما صغر ودق !

ويكتفى هنا بهذا التقرير المؤكد ، وسيجىء فى نهاية السورة دليل آخر من واقع النشأة الأولى . إنما يخلص هنا إلى الكشف عن العلة النفسية فى هذا الحسبان ، وتوقع عدم جمع العظام . . إن هـذا الإنسان يريد أن يفجر ، ويمضى قدما فى الفجور ، ولايريد أن يصده شىء عن فجوره ، ولاأن يكون هناك حساب عليه وعقاب . ومن ثم فهو يستبعد وقوع البعث، ويستبعد مجىء يوم القيامة :

« بل يريد الإنسان ليفجر أمامه . يسأل أيان يوم القيامة ؟ » . .

والسؤال بأيان ـ هذا اللفظ المديد الجرس ـ يوحى باستبعاده لهذا اليوم . وذلك تمشيا مع رغبته فى أن يفجر ويمضى فى فجوره ، لايصده شبح البعث وشبح الآخرة . . والآخرة لجام للنفس الراغبة فى الشر ، ومصد للقلب المحب للفجور . فهو يحاول إزالة هـذا المصد ، وإزاحة هـذا اللجام ، لينطلق فى الشر والفجور بلا حساب ليوم الحساب .

ومن ثم كان الجواب على التهكم بيوم القيامة واستبعاد موعدها ، سريعا خاطفا حاسما ، ليس فيه ريث ولاإبطاء حتى فى إيقاع النظم ، وجرس الألفاظ . وكان مشهدا من مشاهد القيامة تشترك فيه الحواس والمشاعر الإنسانية ، والمشاهد الكونية :

« فإذا برق البصر . وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر . يقول الإنسان يومئذ أين المفر ؟ » .

Marfat.com

فالبصر يخطف ويتقلب سريعا سريعا تقلب البرق وخطفه . والقمر يخسف ويطمس نوره . والشمس تقترن بالقمر بعد افتراق . ويختل نظامهما الفلكى المعهود ، حيث ينفرط ذلك النظام الكونى الدقيق . . وفى وسط هذا الذعر والانقلاب ، يتساءل الإنسان المرعوب : « أين المفر ؟ » ويبدو فى سؤاله الارتياع والفزع ، وكأنما ينظر فى كل اتجاه ، فإذا هو مسدود دونه ، مأخوذ عليه !

ولا ملجأ ولا وقاية ، ولا مفر من قهر الله وأخذه ، والرجعة إليه ، والمستقر عنده ؛ ولا مستقر غيره :

« كلا ! لا وزر . إلى ربك يومئذ المستقر » . .

وما كان يرغب فيه الإنسان من المضى فى الفجور بلا حساب ولا جزاء ، أن يكون يومئذ ، بل سيكون كل ما كسبه محسوبا ، وسيذكر به إن كان نسيه ، ويؤخذ به بعد أن يذكره ويراه حاضرا :

« ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر » . .

بما قدمه من عمل قبل وفاته ، وبما أخره وراءه من آثار هذا العمل خيرا كان أم شرا . فمن الأعمال ما يخلف وراءه آثارا تضاف لصاحبها فى ختام الحساب !

ومهما اعتذر الإنسان بشتى المعاذير عما وقع منه ، فلن يقبل منها عذر ، لأن نفسه موكولة إليه ، وهو موكل بها ، وعليه أن يهديها إلى الخير ويقودها . فإذا انتهى بها إلى الشر فهو مكلف بها وحجة عليها :

« بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره » . .

ومما يلاحظ أن كل شىء سريع قصير : الفقر . والفواصل . والإيقاع الموسيقى . والمشاهد الخاطفة . وكذلك عملية الحساب : « ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر » هكذا فى سرعة وإجمال . . ذلك أنه رد على استطالة الأمد ، والاستخفاف بيوم الحساب !

* * *

ثم تجىء الآيات الأربعة الخاصة بتوجيه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى شأن الوحى وتلقى هذا القرآن :

« لا تحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه » . .

Marfat.com

وبالإضافة إلى ماقلناه فى مقدمة السورة عن هذه الآيات، فإن الإيحاء الذى تتركه فى النفس هو تكفل الله المطلق بشأن هذا القرآن : وحيا وحفظا وجمعا وبيانا ؛ وإسناده إليه سبحانه وتعالى بكليته . ليس للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أمره إلا حمله وتبليغه . ثم لهفة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وشدة حرصه على استيعاب مايوحى إليه ؛ وأخذه مأخذ الجد الخالص،وخشيته أن ينسى منه عبارة أو كلمة ، مما كان يدعوه إلى متابعة جبريل عليه السلام فى التلاوة آية آية وكلمة كلمة يستوثق منها أن شيئا لم يفته ، ويتثبت من حفظه له فيما بعد !

وتسجيل هذا الحادث فى القرآن المتلو له قيمته فى تعميق هذه الإيحاءات التى ذكرناها هنا وفى مقدمة السورة بهذا الخصوص .

* * *

ثم يمضى سياق السورة فى عرض مشاهد القيامة وما يكون فيها من شأن النفس اللوامة ، فيذكرهم بحقيقة نفوسهم وما يعتلج فيها من حب للدنيا وانشغال ، ومن إهمال للآخرة وقلة احتفال ؛ ويواجههم بموقفهم فى الآخرة بعد هذا وما ينتهى إليه حالهم فيها . ويعرض لهم هذا الموقف فى مشهد حى قوى الإيحاء عميق الإيقاع :

« كلا . بل تحبون العاجلة ، وتذرون الآخرة . وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة ؛ ووجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة » . .

وأول مايلحظ من ناحية التناسق فى السياق هو تسمية الدنيا بالعاجلة فى هذا الموضع . فضلا عن إيحاء اللفظ بقصر هذه الحياة وسرعة انقضائها ـ وهو الإيحاء المقصود ـ فإن هناك تناسقا بين ظل اللفظ وظل الموقف السابق المعترض فى السياق ، وقول الله تعالى لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لاتحرك به لسانك لتعجل به » . . فهذا التحريك وهذه العجلة هى أحد ظلال السمة البشرية فى الحياة الدنيا . . وهو تناسق فى الحس لطيف دقيق يلحظه التعبير القرآنى فى الطريق !

ثم نخلص إلى الموقف الذى يرسمه هذا النص القرآنى الفريد :

« وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة » . .

إن هذا النص ليشير إشارة سريعة إلى حالة تعجز الكلمات عن تصويرها؛ كما يعجز الإدراك عن تصورها بكل حقيقتها . ذلك حين يمد للوعودين السعداء بحالة من السعادة لاتشبهها حالة، حتى لتتضاءل إلى جوارها الجنة بكل ما فيها من ألوان النعيم !

Marfat.com

هذه الوجوه الناضرة . . نضرها أنها إلى ربها ناظرة . .

إلى ربها . . ؟ ! فأى مستوى من الرفعة هذا ؟ أى مستوى من السعادة ؟

إن روح الإنسان لتستمتع أحيانا بلمحة من جمال الإبداع الإلهى فى الكون أو النفس ، تراها فى الليلة القمراء .أو الليل الساجى . أوالفجر الوليد .أو الظل المديد أوالبحر العباب . أو الصحراء المنسابة . أو الروض البهيج . أو الطلعة البهية . أو القلب النبيل . أو الإيمان الواثق . أو الصبر الجميل . . إلى آخر مطالع الجمال فى هذا الوجود . . فتغمرها النشوة ، وتفيض بالسعادة ، وترف بأجنحة من نور فى عوالم مجنحة طليقة . وتتوارى عنها أشواك الحياة، ما فيها من ألم وقبح ، وثقلة طين وعرامة لحم ودم ، وصراع شهوات وأهواء . .

فكيف ؟ كيف بها وهى تنظر ـ لا إلى جمال صنع الله ـ ولكن إلى جمال ذات الله ؟

ألا إنه مقام يحتاج أولا إلى مد من الله . ويحتاج ثانيا إلى تثبيت من الله . ليملك الإنسان نفسه ، فيثبت ، ويستمتع بالسعادة ، التى لايحيط بها وصف ، ولايتصور حقيقتها إدراك !

« وجوه يومئذ ناضرة .. إلى ربها ناظرة » . .

ومالها لاتنتضر ؛ وهى إلى جمال ربها تنظر ؟

إن الإنسان لينظر إلى شىء من صنع الله فى الأرض . من طلعه بهية ، أوزهرة ندية ، أوجناح رفاف ، أوروح نبيل ، أوفعل جميل . فإذا السعادة تفيض من قلبه على ملامحه ، فيبدو فيها الوضاءة والنضارة . فكيف بها حين تنظر إلى جمال الكمال . مطلقا من كل مافى الوجود من شواغل عن السعادة بالجمال ؟ فما تبلغ الكينونة الإنسانية ذلك المقام ، إلا وقد خلصت من كل شائبة تصدها عن بلوغ ذلك المرتقى الذى يعز على الخيال ! كل شائبة لا فيما حولها فقط ، ولكن فيها هى ذاتها من دواعى النقص والحاجة إلى شىء ماسوى النظر إلى الله . .

فأما كيف تنظر ؟ وبأى جارحة تنظر ؟ وبأى وسيلة تنظر ؟ . . فذلك حديث لايخطر على قلب يمسه طائف من الفرح الذى يطلقه النص القرآنى ، فى القلب المؤمن ، والسعادة التى يفيضها على الروح ، والتشوف والتطلع والانطلاق !

فمابال أناس يحرمون أرواحهم أن تعانق هذا النور الفائض بالفرح والسعادة؟ ويشغلونها بالجدل حول مطلق ، لاتدركه العقول المقيدة بمألوفات العقل ومقرراته ؟ !

Marfat.com

إن ارتقاء الكينونة الإنسانية وانطلاقها من قيود هـذه الكينونة الأرضية المحدودة،هو فقط محط الرجاء فى التقائها بالحقيقة الطليقة يومذاك . وقبل هـذا الانطلاق سيعز عليها أن تتصور ـ مجرد تصور ـ كيف يكون ذلك اللقاء .

وإذن فقد كان جدلا ضائعا ذلك الجدل الطويل المديد الذى شغل به المعتزلة أنفسهم ومعارضيهم من أهل السنة والمتكلمين حول حقيقة النظر والرؤية فى مثل ذلك المقام .

لقد كانوا يقيسون بمقاييس الأرض ؛ ويتحدثون عن الإنسان المثقل بمقررات العقل فى الأرض ؛ ويتصورون الأمر بالمدارك المحدودة المجال .

إن مدلول الكلمات ذاته مقيد بما تدركه عقولنا وتصوراتنا المحدودة . فإذا انطلقت وتحررت من هـذه التصورات فقد تتغير طبيعة الكلمات . فالكلمات ليست سوى رموز يختلف ماترمز إليه بحسب التصورات الكامنة فى مدارك الإنسان . فإذا تغيرت طاقته تغير معها رصيده من التصورات ، وتغيرت معها طبيعة مدلول الكلمات . ونحن نتعامل فى هذه الأرض بتلك الرموز على قدر حالنا ! فمالنا نخوض فى أمر لايثبت لنا منه حتى مدلول الكلمات ؟ !

فلنتطلع إلى فيض السعادة الغامر الهادىء ، وفيض الفرح المقدس الطهور ، الذى ينطلق من مجرد تصورنا لحقيقة الموقف على قدر ماتملك . ولنشغل أرواحنا بالتطلع إلى هـذا الفيض؛ فهذا التطلع ذاته نعمة . لاتفوقها إلا نعمة النظر إلى وجهه الكريم . .

« ووجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة » . .

وهى الوجوه الكالحة المتقبضة التعيسة ، المحجوبة عن النظر والتطلع ، بخطاياها وارتكاسها وكثافتها وانطماسها . وهى التى يشغلها ويحزنها ويخلع عليها البسر والكلوحة توقعها أن تحل بها الكارثة القاصمة للظهر ، المحطمة للفقار . . الفاقرة . وهى من التوقع والتوجس فى كرب وكلوحة وتقبض وتنغيص . .

فهذه هى الآخرة التى يذرونها ويهملونها ؛ ويتجهون إلى العاجلة يحبونها ويخلفونها . وراءهم هـذا اليوم الذى تختلف فيه المصائر والجدود ، هـذا الاختلاف الشاسع البعيد ! ! ! ن وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة إلى وجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة ! ! !

* * *

Marfat.com

وإذا كانت مشاهد القيامة . . إذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر ، وقال الإنسان يومئذ أين المفر . ولا مفر. وإذا اختلفت المصائر والجدود، ذلك الاختلاف الشاسع البعيد ، فكانت وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ، ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة . .

إذا كانت تلك المشاهد تستمد قوتها وإيقاعها فى النفس ، من قوة الحقيقة الكامنة فيها ، وقوة الأداء القرآنى الذى يشخصها ويحييها ، فإن السورة بعد عرض تلك المشاهد تقرب وتقرب حتى تلمس حس المخاطبين بمشهد آخر حاضر واقع مكرور ، لا تمر لحظة حتى يواجههم فى هذه الأرض بقوته ووضوحه ووزنه الثقيل !

إنه مشهد الموت . الموت الذى ينتهى إليه كل حى ، والذى لا يدفعه عن نفسه ولا عن غيره حى. الموت الذى يفرق الأحبة، ويمضى فى طريقه لا يتوقف ،ولا يتلفت ، ولا يستجيب لصرخة ملهوف ،ولا لحسرة مفارق ، ولا لرغبة راغب ولا لخوف خائف ! الموت الذى يصرع الجبابرة بنفس السهولة التى يصرع بها الأقزام ، ويقهر بها المتسلطين كما يقهر المستضعفين سواء ! الموت الذى لا حيلة للبشر فيه وهم مع هذا لا يتدبرون القوة القاهرة التى تجريه :

« كلا ! إذا بلغت التراقى ، وقيل : من راقٍ ؟ وظن أنه الفراق ، والتفت الساق بالساق . إلى ربك يومئذ المساق » . .

إنه مشهد الاحتضار، يواجههم به النص القرآنى كأنه حاضر ، وكأنه يخرج من ثنايا الألفاظ ويتحرك كما تخرج ملامح الصورة من خلال لمسات الريشة !

« كلا إذا بلغت التراقى » . . وحين تبلغ الروح التراقى يكون النزع الأخير ، وتكون السكرات المذهلة ، ويكون الكرب الذى تزوغ منه الأبصار . . ويتلفت الحاضرون حول المحتضر يتلمسون حيلة أو وسيلة لاستنقاذ الروح المكروب : «وقيل : من راقٍ ؟ » لعل رُقية تفيد ! . . وتلوّى المكروب من السكرات والنزع .. « والتفت الساق بالساق » .. وبطلت كل حيلة ، وعجزت كل وسيلة ، وتبين الطريق الواحد الذى يساق إليه كل حى فى نهاية المطاف : « إلى ربك يومئذ المساق » . .

إن المشهد ليكاد يتحرك وينطق . وكل آية ترسم حركة . وكل فقرة تخرج لمحة . وحالة الاحتضار ترتسم ويرتسم معها الجزع والحيرة واللهفة ومواجهة الحقيقة القاسية المريرة ، التى

Marfat.com

لا دافع لها ولا راد . . ثم تظهر النهاية التى لا مفر منها . . « إلى ربك يومئذ المساق » . .

ويسدل الستار على المشهد الفاجع ، وفى العين منه صورة ، وفى الحس منه أثر ، وعلى الجو كله وجوم صامت مرهوب .

* * *

وفى مواجهة المشهد المكروب الملهوف الجادالواقع يعرض مشهد اللاهين المكذبين، الذين لايستعدون بعمل ولا طاعة ، بل يقدمون المعصية والتولى ، فى عيث ولهو ، وفى اختيال بالمعصية والتولى :

« فلا صدق ولا صلى ، ولكن كذب وتولى ، ثم ذهب إلى أهله يتمطى » ! . .

وقد ورد أنهذهالآيات تعنى شخصا معينا بالذات ،قيل هوأبو جهل« عمروابن هشام» . . وكان يجىء أحيانا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسمع منه القرآن . ثم يذهب عنه ، فلا يؤمنولا يطيع، ولا يتأدب ولا يخشى ؛ويؤذى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالقول، ويصد عن سبيل الله . . ثم يذهب مختالا بما يفعل ، فخورا بما ارتكب من الشر ، كأنما فعل شيئا يذكر . .

والتعبير القرآنى يتهكم به، ويسخر منه ،ويثير السخرية كذلك ،وهو يصور حركةاختياله بأنه « يتمطى! » يمط فى ظهره ويتعاجب تعاجبا ثقيلا كريها !

وكم من أبى جهل فى تاريخ الدعوة إلى الله . يسمع ويعرض ، ويتفنن فى الصد عن سبيل الله ، والأذى للدعاة ، ويمكر مكر السيء ، ويتولى وهو فخور بما أوقع من الشر والسوء ، وبما أفسد فى الأرض ، وبما صد عن سبيل الله ، وبما مكر لدينهوعقيدته وكاد !

والقرآن يواجه هذه الخيلاء الشريرة بالتهديد والوعيد :

« أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى » . .

وهو تعبير اصطلاحى يتضمن التهديد والوعيد ، وقد أمسك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بخناق أبى جهل مرة ، وهزه ، وهو ويقول له : « أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى » . . فقال عدو الله : أتوعدنى يامحمد ؟ والله لاتستطيع أنت ولاربك شيئا . وإنى لأعز من مشى بين جبليها » ! ! فأخذه الله يوم بدر بيد المؤمنين بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبرب محمد القوي القهار المتكبر . ومن قبله قال فرعون لقومه : « ماعلمت لكم

Marfat.com

من إله غيرى » . . وقال : « أليس لى ملك مصر وهـذه الأنهار تجرى من تحتى ؟ » . . ثم أخذه الله كذلك .

وكم من أبى جهل فى تاريخ الدعوات يعتز بعشيرته وبقوته وبسلطانه ؛ ويحسبها شيئا ، وينسى الله وأخذه . حتى يأخذه أهون من بعوضة ، وأحقر من ذبابة . . إنما هو الأجل الموعود لا يستقدم لحظة ولا يستأخر .

* * *

وفى النهاية يمس القلوب بحقيقة أخرى واقعية فى حياتهم . لها دلالتها على تدبير الله وتقديره لحياة الإنسان . ولها دلالتها كذلك على النشأة الآخرة التى ينكرونها أشد الانكار ولا مفر من مواجهتها ، ولا حيلة فى دفع دلالتها :

« أيحسب الإنسان أن يترك سدى ؟ ألم يك نطفة من منى يمنى ؟ ثم كان علقة فخلق فسوى؟ فجعل منه الزوجين : الذكر والأنثى ؟ أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟ » . .

وهـذا المقطع الأخير العميق الإيقاع ، يشتمل على لفتات عميقة إلى حقائق كبيرة . ما كان المخاطبون بهذا القرآن يخطرونها على بالهم فى ذلك الزمان . وأولى هـذه اللفتات تلك اللفتة إلى التقدير والتدبير فى حياة الإنسان :

« أيحسب الإنسان أن يترك سدى » . .

فلقد كانت الحياة فى نظر القوم حركة لاعلة لها ولاهدف ولاغاية . . أرحام تدفع وقبور تبلع . . وبين هاتين لهو ولعب ، وزينة وتفاخر ، ومتاع قريب من متاع الحيوان . . فأما أن يكون هناك ناموس ، وراءه هدف ، ووراء الهدف حكمة ؛ وأن يكون قدوم الإنسان إلى هذه الحياة وفق قدر يجرى إلى غاية مقدرة ، وأن ينتهى إلى حساب وجزاء ، وأن تكون رحلته على هـذه الأرض ابتلاء ينتهى إلى الحساب والجزاء . . أما هـذا التصور الدقيق المتناسق . والشعور بما وراءه من ألوهية قادرة مدبرة حكيمة ، تفعل كل شىء بقدر ، وتنهى كل شىء إلى نهاية . . أما هـذا فكان أبعد شىء عن تصور الناس ومداركهم . فى ذلك الزمان .

والذى يميز الإنسان عن الحيوان، هو شعوره باتصال الزمان والأحداث والغايات . وبوجود الهدف والغاية من وجوده الإنسانى ، ومن الوجود كله من حوله . وارتقاؤه فى سلم الإنسانية يتبع نمو شعوره هـذا وسعته ، ودقة تصوره لوجود الناموس ، وارتباط الأحداث والأشياء

Marfat.com

بهذا الناموس . فلا يعيش عمره لحظة لحظة ، ولا حادثة حادثة، بل يرتبط في تصوره الزمان والمكان والماضي والحاضر والمستقبل . ثم يرتبط هذا كله بالوجود الكبير ونواميسه . ثم يرتبط هذا كله بإرادة عليا خالقة مدبرة لا تخلق الناس عبثا ولا تتركهم سدى .

وهذا هو التصور الكبير الذى نقل القرآن الناس إليه منذ ذلك العهد البعيد ، نقلة هائلة بالقياس إلى التصورات السائدة إذ ذاك ، وما تزال هائلة بالقياس إلى سائر التصورات الكونية التى عرفتها الفلسفة قديما وحديثا (١) .

وهذه اللمسة : « أيحسب الإنسان أن يترك سدى » .. هى إحدى لمسات القرآن التوجيهية للقلب البشرى، كى يتلفت ويستحضر الروابط والصلات ، والأهداف والغايات، والعلل والأسباب : التى تربط وجوده بالوجود كله ، وبالإرادة المدبرة للوجود كله .

وفى غير تعقيد ولا غموض يأتى بالدلائل الواقعة البسيطة التى تشهد بأن الإنسان لن يترك سدى . . إنها دلائل نشأته الأولى :

« ألم يك نطفة من منى يمنى ؟ ثم كان علقة فخلق فسوى ؟ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ؟ » .

فما هذا الإنسان ؟ مم خلق ؟ وكيف كان ؟ وكيف صار ؟ وكيف قطع رحلته الكبيرة حتى جاء إلى هذا الكوكب ؟

ألم يك نطفة صغيرة من الماء، من منى يمنى ويراق ؟ ألم تتحول هذه النطفة من خلية واحدة صغيرة إلى علقة ذات وضع خاص فى الرحم، تعلق بجدرانه لتعيش وتستمد الغذاء ؟ فمن ذا الذى ألهمها هذه الحركة ؟ ومن ذا الذى أودعها هذه القدرة ؟ ومن ذا الذى وجهها هذا الاتجاه ؟

ثم من ذا الذى خلقها بعد ذلك جنينا معتدلا منسق الأعضاء ؟ مؤلفا جسمه من ملايين الملايين من الخلايا الحية ، وهو فى الأصل خلية واحدة مع بويضة؟ والرحلة المديدة التى قطعها من الخلية الواحدة إلى الجنين السوى ـ وهى أطول بمراحل من رحلته من مولده إلى مماته ـ والتغيرات التى تحدث فى كيانه فى الرحلة الجنينية أكثر وأوسع مدى من كل ما يصادفه من الأحداث فى رحلته من مولده إلى مماته ! فمن ذا الذى قاد هذه الرحلة المديدة ، وهو خليقة صغيرة ضعيفة ، لا عقل لها ولا مدارك ولا تجارب ؟ !

(١) كتاب : فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان (بحث أرجو التوفيق لإخراجه)

Marfat.com

ثم فى النهاية . من ذا الذى جعل من الخلية الواحدة .. الذكر والأنثى ؟ . . أى إرادة كانت لهذه الخلية فى أن تكون ذكرا ؟ وأى إرادة لتلك فى أن تكون أنثى ؟ أم من ذا الذى يزعم أنه تدخل فقاد خطواتهما فى ظلمات الرحم إلى هذا الاختيار ؟ !

إنه لامفر من الإحساس باليد اللطيفة المدبرة التى قادت النطفة المراقة فى طريقها الطويل ، حتى انتهت بها إلى ذلك المصير . . « فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » . .

وأمام هذه الحقيقة التى تفرض نفسها فرضا على الحس البشرى ، يجىء الإيقاع الشامل لجملة من الحقائق التى تعالجها السورة :

« أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟ » . .

بلى ! سبحانه ! فإنه لقادر على أن يحيي الموتى !

بلى ! سبحانه ! فإنه لقادر على النشأة الأخرى!

بلى ! سبحانه ! وما يملك الإنسان إلا أن يخشع أمام هذه الحقيقة التى تفرض نفسها فرضا .

وهكذا تنتهى السورة بهذا الإيقاع الحاسم الجازم ، القوى العميق ، الذى يملأ الحس ويفيض ، بحقيقة الوجود الإنسانى وما وراءها من تدبير وتقدير . .

Marfat.com

سورة الإنسان مكية
وآياتها ٣١

بسم الله الرحمن الرحيم

«هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ؟ ① إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا .

« إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا * إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا .

« فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا * مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا * وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا * قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ، إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا * عَالِيَهُمْ ثِيَابُ

Marfat.com

سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ،وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً * إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً .

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلًا .

« إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلًا * نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا .

« إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا * وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً * يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ، وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً » ﴿٣١﴾

فى بعض الروايات أن هـذه السورة مدنيـة . ولـكنها مكية ؛ ومكيتها ظاهرة جدا ، فى موضوعها وفى سياقها ، وفى سماتها كلها . لهـذا رجحنا الروايات الأخرى القائلة بمكيتها . بل نحن نلمح من سياقها أنها من بواكير ما نزل من القرآن المكى . . تشى بهذا صور النعيم الحسية المفصلة الطويلة ، وصور العذاب الغليظ ، كما يشىء به توجيه الرسول ـ صلى الله عليـه وسلم ـ إلى الصبر لحكم ربه ، وعدم إطاعة آثم منهم أو كفور ؛ مما كان يتنزل عند اشتداد الأذى على الدعوة وأصحابها فى مكة ، مع إمهال المشركين وتثبيت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الحق الذى نزل عليه ، وعدم الميل إلى مايدهنون به . . كما جاء فى سورة القلم ، وفى سورة المزمل ، وفى سورة المدثر ، مما هو قريب من التوجيه فى هـذه السورة . . واحتمال أن هـذه السورة مدنية ـ فى نظرنا ـ هو احتمال ضعيف جدا ، يمكن عدم اعتباره !

* * *

والسورة فى مجموعها هتاف رخى ندى إلى الطاعة ، والالتجاء إلى الله ، وابتغاء رضاه ،

Marfat.com

وتذكر نعمته ، والإحساس بفضله ، واتقاء عذابه ، واليقظة لابتلائه ، وإدراك حكمته فى الخلق والإنعام والابتلاء والإملاء . .

وهى تبدأ بلمسة رفيقة للقلب البشرى : أين كان قبل أن يكون ؟ من الذى أوجده ؟ومن الذى جعله شيئا مذكورا فى هـذا الوجود ؟ بعد أن لم يكن له ذكر ولاوجود : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ؟ » . .

تلوها لمسة أخرى عن حقيقة أصله ونشأته، وحكمة الله فى خلقه ، وتزويده بطاقاته ومداركه: « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا » . .

ولمسة ثالثة عن هدايته إلى الطريق ، وعونه على الهدى، وتركه بعد ذلك لمصيره الذى يختاره: « إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا » ..

وبعد هـذه اللمسات الثلاثة الموحية ، وما تثيره فى القلب من تفكير عميق ، ونظرة إلى الوراء ، ثم نظرة إلى الأمام ، ثم التحرج والتدبر عند اختيار الطريق . . بعد هـذه اللمسات الثلاثة تأخذ السورة فى الهتاف للإنسان وهو على مفرق الطريق لتحذيره من طريق النار . وترغيبه فى طريق الجنة ،بكل صور الترغيب ، وبكل هواتف الراحة والمتاع والنعيم والتكريم: « إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا . إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا . عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا » . .

وقبل أن تمضى فى عرض صور المتاع ترسم سمات هؤلاء الأبرار فى عبارات كلها انعطاف ورقة وجمال وخشوع يناسب ذلك النعيم الهانىء الرغيد : « يوفون بالنذر ، ويخافون يوما كان شره مستطيرا ، ويطعمون الطعام ـ على حبه ـ مسكينا ويتيما وأسيرا . إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولاشكورا . إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا » ..

ثم تعرض جزاء هؤلاء القائمين بالعزائم والتكاليف ، الخائفين من اليوم العبوس القمطرير ، الخيرين المطعمين على حاجتهم إلى الطعام ، يبتغون وجه الله وحده ، لايريدن شكورا من أحد ، إنما يتقون اليوم العبوس القمطرير ! .

تعرض جزاء هؤلاء الخائفين الوجلين المطعمين المؤثرين . فإذا هو الأمن والرخاء والنعيم اللين الرغيد : « فوقاهم الله شر ذلك اليوم ، ولقاهم نضرة وسرورا ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا . متكئين فيها على الأرائك لايرون فيها شمسا ولازمهريرا . ودانية عليهم ظلالها وذللت

Marfat.com

قطوفها تذليلا . ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا ، قواريرا من فضة قدروها تقديرا . ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا ، عينا فيها تسمى سلسبيلا . ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا . وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا . عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق ، وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا . إن هـذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا » .

فإذا انتهى معرض النعيم اللين الرغيد المطمئن الهانىء الودود ، اتجه الخطاب إلى رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ لتثبيته على الدعوة ـ فى وجه الإعراض والكفر والتكذيب ـ وتوجيهه إلى الصبر وانتظار حكم الله فى الأمر ؛ والاتصال بربه والاستمداد منه كلما طال الطريق: « إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا . فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا . واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ، ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا » ..

ثم تذكيرهم باليوم الثقيل الذى لا يحسبون حسابه ؛ والذى يخافه الأبرار ويتقونه ، والتلويح لهم بهوان أمرهم على الله ، الذى خلقهم ومنحهم ما هم فيه من القوة ، وهو قادر على الذهاب بهم ، والإتيان بقوم آخرين ؛ لولا تفضله عليهم بالبقاء ، لتمضى مشيئة الابتلاء . ويلوح لهم فى الختام بعاقبة هـذا الابتلاء : « إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا . نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا . إن هـذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا . وما تشاءون إلا أن يشاء الله ، إن الله كان عليما حكيما . يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما » . .

* * *

تبدأ السورة بالتذكير بنشأة الإنسان وتقدير الله فى هـذه النشأة ، على أساس الابتلاء ، وتختم ببيان عاقبة الابتلاء ، كما اقتضت المشيئة منذ الابتداء . فتوحى بذلك البدء وهذا الختام بما وراء الحياة كلها من تدبير وتقدير ، لا ينبغى معه أن يمضى الإنسان فى استهتاره . غير واع ولا مدرك ، وهو مخلوق ليبتلى ، وموهوب نعمة الإدراك لينجح فى الابتلاء .

وبين المطلع والختام ترد أطول صورة قرآنية لمشاهد النعيم . أو من أطولها إذا اعتبرنا ما جاء فى سورة الواقعة من صور النعيم ، وهو نعيم حسى فى جملته ، ومعه القبول والتكريم ، وهو بتفصيله هـذا وحسيته يوحى بمكيته ، حيث كان القوم قريبى عهد بالجاهلية ، شديدى التعلق

Marfat.com

بمتاع الحواس ، يبهرهم هذا اللون ويعجبهم ، ويثير تطلعهم ورغبتهم . وما يزال هذا اللون من المتاع يثير تطلع صنوف من الناس ، ويصلح جزاء لهم يرضى أعمق رغباتهم . والله أعلم بخلقه مايصلح لهم وما يصلح قلوبهم ، وما يليق بهم كذلك وفق تكوينهم وشعورهم . وهناك ماهو أعلى منه وأرق كالذى جاء فى سورة القيامة : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » .. والله أعلم بما يصلح للعباد فى كل حال .

* * *

« هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ؟ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا . إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا » . .

هذا الاستفهام فى مطلع السورة إنما هو للتقرير ؛ ولكن وروده فى هذه الصيغة كأنما ليسأل الإنسان نفسه : ألا يعرف أنه أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ؟ ثم ألا يتدبر هذه الحقيقة ويتملاها ؟ ثم ألا يفعل تدبرها فى نفسه شيئا من الشعور باليد التى دفعته إلى مسرح الحياة ، وسلطت عليه النور ، وجعلته شيئا مذكورا بعد أن لم يكن شيئا مذكوراً ؟

إنها إيحاءات كثيرة تنبعث من وراء صيغة الاستفهام فى هذا المقام . وهى إيحاءات رفيقة وعميقة تثير فى النفس تأملات شتى :

واحدة منها تتجه بالنفس إلى ماقبل خلق الإنسان ووجوده ابتداء . يعيش فيها مع هذا الكون وقد خلا من الإنسان . . كيف تراه كان ؟ . . والإنسان مخلوق مغرور فى نفسه وفى قيمته ، حتى لينسى أن هذا الكون كان وعاش قبل أن يوجد هو بأدهار وأزمان طوال . ولعل الكون لم يكن يتوقع خلق شىء يسمى « الإنسان » . . حتى انبثق هذا الخلق من إرادة الله فكان !

وواحدة منها تتجه إلى اللحظة التى انبثق فيها هذا الوجود الإنسانى . وتضرب فى تصورات شتى لهذه اللحظة التى لم يكن يعلمها إلا الله ؛ والتى أضافت إلى الكون هذه الخليقة الجديدة ، القدر أمرها فى حساب الله قبل أن تكون ! المحسوب دورها فى خط هذا الكون الطويل !

وواحدة منها تتجه إلى تأمل يد القدرة وهى تدفع بهذا الكائن الجديد على مسرح الوجود ؛ وتمهد لدوره ، وتعد له دوره ، وتربط خيوط حياته بمحور الوجود كله ؛ وتهيىء له

Marfat.com

الظروف التى تجعل بقاءه وأداء دوره ممكنا وميسورا ؛ وتتابعه بعد ذلك فى كل خطوة ، ومعها الخيط الذى يشده به إليها مع سائر خيوط هذا الكون الكبير !

وإيحاءات كثيرة وتأملات شتى ، يطلقها هذا النص فى الضمير . . ينتهى منها القلب إلى الشعور بالقصد والغاية والتقدير ، فى المنشأ وفى الرحلة وفى المصير .

فأما امتداد هذا الإنسان بعد ذلك وبقاؤه فكانت له قصة أخرى :

« إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا » . .

والأمشاج : الأخلاط . وربما كانت هذه إشارة إلى تكون النطفة من خلية الذكر وبويضة الأنثى بعد التلقيح . وربما كانت هذه الأخلاط تعنى الوراثات الكامنة فى النطفة ، والتى يمثلها مايسمونه علميا « الجينات » وهى وحدات الوراثة الحاملة للصفات المميزة لجنس الإنسان أولا ولصفات الجنين العائلية أخيرا . وإليها يعزى سير النطفة الإنسانية فى رحلتها لتكوين جنين إنسان ، لاجنين أى حيوان آخر . كما تعزى إليها وراثة الصفات الخاصة فى الأسرة . . ولعلها هي بهذه الأمشاج المختلطة من وراثات شتى . .

خلقته يد القدرة هكذا من نطفة أمشاج ، لاعبثا ولا جزافا ولا تسلية ، ولكنه خلق ليبتلى ويمتحن ويختبر . والله سبحانه يعلم ماهو ؟ وما اختباره ؟ وما ثمرة اختباره ؟ ولكن المراد أن يظهر ذلك على مسرح الوجود ، وأن تترتب عليه آثاره المقدرة فى كيان الوجود ، وأن تتبعه آثاره المقدرة . ويجزى وفق مايظهر من نتائج ابتلائه .

ومن ثم جعله سميعا بصيرا . أى زوده بوسائل الإدراك ليستطيع التلقى والاستجابة . وليدرك الأشياء والقيم ويحكم عليها ويختار . ويجتاز الابتلاء وفق مايختار . .

وإذن فإن إرادة الله فى امتداد هذا الجنس وتكرر أفراده بالوسيلة التى قدرها ، وهى خلقته من نطفة أمشاج . . كانت وراءها حكمة . وكان وراءها قصد . ولم تكن فلتة . . كان وراءها ابتلاء هذا الكائن واختباره . ومن ثم وهب الاستعداد للتلقى والاستجابة ، والمعرفة والاختيار . . وكان كل شىء فى خلقه وتزويده بالمدارك وابتلائه فى الحياة . . بمقدار !

ثم زوده إلى جانب المعرفة ، بالقدرة على اختيار الطريق ، وبين له الطريق الواصل . ثم تركه ليختاره ، أوليضل ويشرد فيما وراءه من طرق لاتؤدى إلى الله :

« إنا هديناه السبيل : إما شاكرا وإما كفورا » . .

Marfat.com

وعبر عن الهدى بالشكر . لأن الشكر أقرب خاطر يرد على قلب المهتدى ، بعد إذ يعلم أنه لم يكن شيئا مذكورا ، فأراد ربه له أن يكون شيئا مذكورا . ووهب له السمع والبصر . وزوده بالقدرة على المعرفة . ثم هداه السبيل . وتركه يختار .. الشكر هو الخاطر الأول الذى يرد على القلب المؤمن فى هـذه المناسبة . فإذا لم يشكر فهو الـكفور . بهذه الصيغة الموغلة فى الدلالة على الـكفران .

ويشعر الإنسان بجدية الأمر ودقته بعد هـذه اللمسات الثلاث . ويدرك أنه مخلوق لغاية . وأنه مشدود إلى محور . وأنه مزود بالمعرفة فمحاسب عليها . وأنه هنا ليبتلى ويجتاز الابتلاء . فهو فى فترة امتحان يقضيها على الأرض ، لا فى فترة لعب ولهو وإهمال ! ويخرج من هـذه الآيات الثلاث القصار بذلك الرصيد من التأملات الرفيقة العميقة ، كما يخرج منها مثقل الظهر بالتبعة والجد والوقار فى تصور هـذه الحياة ، وفى الشعور بما وراءها من نتائج الابتلاء ! وتغير هـذه الآيات الثلاث القصار من نظرته إلى غاية وجوده ، ومن شعوره بحقيقة وجوده ، ومن أخذه للحياة وقيمها بوجه عام .

* * *

ومن ثم يأخذ فى عرض ماينتظر الإنسان بعد الابتلاء ، واختياره طريق الشكر أوطريق الـكفران .

فأما ماينتظر الـكافرين ،فيجمله إجمالا ، لأن ظل السورة هو ظل الرخاء الظاهر فى الصورة والإيقاع . وظل الهتاف المغرى بالنعيم المريح . فأما العذاب فيشير إليه فى إجمال :

« إنا أعتدنا للـكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا » . .

سلاسل للأقدام ، وأغلالا للأيدى ، ونارا تتسعر يلقى فيها بالمسلسلين المغلولين !

ثم يسارع السياق إلى رخاء النعيم :

« إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا ، عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا » . .

وهذه العبارة تفيد أن شراب الأبرار فى الجنة ممزوج بالـكافور ، يشربونه فى كأس تغترف من عين تفجر لهم تفجيرا ، فى كثرة ووفرة . . وقد كان العـرب يمزجون كؤوس الخمر بالـكافور حينا وبالزنجبيل حينا زيادة فى التلذذ بها ، فهاهم أولاء يعلمون أن فى الجنـة شرابا

Marfat.com

طهورا ممزوجا بالكافور ، على وفر وسعة . فأما مستوى هـذا الشراب فمفهوم أنه أحلى من شراب الدنيا ، وأن لذة الشعور به تتضاعف وترق ، ونحن لانملك فى هذه الأرض أن نحدد مستوى ولا نوعا للذة المتاع هناك . فهى أوصاف للتقريب . يعلم الله أن الناس لايملكون سواها لتصور هذا الغيب المحجوب .

والتعبير يسميهم فى الآية الأولى « الأبرار » ويسميهم فى الآية الثانيـة « عباد الله » . . إيناسا وتكريما وإعلانا للفضل تارة ، وللقرب من الله تارة ، فى معرض النعيم والتكريم .

ثم يعرف بهؤلاء الأبرار عباد الله الذين قسم لهم هذا المتاع :

«يوفون بالنذر، ويخافون يوما كان شره مستطيرا ،ويطعمون الطعام ـ على حبه ـ مسكينا ويتيما وأسيرا . إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكورا . إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا » . .

وهى صورة وضيئة شفافة لقلوب مخلصة جادة عازمة على الوفاء لله بتكاليف العقيدة ، مع رحمة ندية بعباده الضعاف ، وإيثار على النفس ، وتحرج وخشية لله ، ورغبة فى رضاه ، وإشفاق من عذابه تبعثه التقوى والجد فى تصور الواجب الثقيل .

«يوفون بالنذر » فيفعلون مااعتزموا من الطاعات ،وما التزموا من الواجبات .فهم يأخذون الأمر جدا خالصا لايحاولون التفلت من تبعاته ، ولا التفصى من أعبائه ، ولا التخلى عنه بعد اعتزامه . وهـذا معنى أنهم يوفون بالنـذر . فهو أعم من المعنى العرفى المتبادر من كلمة « النذر » .

« ويخافون يوما كان شره مستطيرا » . . فهم يدركون صفة هـذا اليوم ، الذى يتفشى شره ويصيب الكثيرين من المقصرين والمسيئين . فيخافون أن ينالهم شىء من شره .وهذه سمة الأتقياء ، الشاعرين بثقل الواجب وضخامة التكاليف ، الخائفين من التقصير والقصور ، مهما قدموا من القرب والطاعات .

« ويطعمون الطعام ـ على حبه ـ مسكينا ويتيما وأسيرا » . .

وهى تصور شعور البر والعطف والخير ممثلا فى إطعام الطعام ، مع حبـه بسبب الحاجة إليـه . فمثل هـذه القلوب لايقال عنها : إنها تحب الطعام الذى تطعمه للضعاف المحاويج على اختلاف أنواعهم ، إلا أن تكون فى حاجة هى إلى هـذا الطعام ، ولكنها تؤثر به المحاويج .

Marfat.com

وهذه اللفتة تأتى بقسوة البيئة فى مكة بين المشركين ؛ وأنها كانت لاتفضى بشىء للمحاويج الضعاف ؛ وإن كانت تبذل فى مجالات المفاخرة الشىء الكثير . فأما الأبرار عباد الله فكانوا راحة ظليلة فى هذه الهاجرة الشحيحة . وكانوا يطعمون الطعام بأريحية نفس ، ورحمة قلب ، وخلوص نية . واتجاه إلى الله بالعمل ، يحكيه السياق من حالهم ، ومن منطوق قلوبهم.

« إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكورا . إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا » .

فهى الرحمة الفائضة من القلوب الرقيقة الرفيقة ، تتجه إلى الله تطلب رضاه .ولا تبتغى بها جزاء من الخلق ولا شكرا ، ولا تقصد بها استعلاء على المحتاجين ولا خيلاء . كما تتقى بها يوما عبوسا شديد العبوس ، تتوقعه وتخشاه ، وتتقيه بهذا الوقاء . وقد دلهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليه وهو يقول : « اتق النار ولو بشق تمرة » . .

وقد كان إطعام الطعام هكذا مباشرة هو وسيلة التعبير عن هذه العاطفة النبيلة الكريمة ، ووسيلة الإشباع لحاجات المحاويج . ولكن صور الإحسان ووسائله قد تتغير بحسب البيئات والظروف ، فلا تظل فى هذه الصورة البدائية المباشرة : إلا أن الذى يجب الاحتفاظ به هو حساسية القلوب ، وحيوية العاطفة ، والرغبة فى الخير ابتغاء وجه الله ، والتجرد عن البواعث الأرضية من جزاء أو شكر أو نفع من منافع الحياة !

ولقد تنظم الضرائب ،وتفرض التكاليف ،وتخصص للضمان الاجتماعى ،ولإسعاف المحاويج، ولكن هذا إنما يفى بشطر واحد من مزايا الاتجاه الإسلامى الذى ترمز إليه تلك الآيات ، والذى توخاه بفريضة الزكاة . . هذا الشطر هو كفاية حاجة المحتاجين . . هذا شطر . . والشطر الآخر هو تهذيب أرواح الباذلين ، ورفعها إلى ذلك المستوى الكريم . وهو شطر لايجوز إغفاله ولا التهوين من شأنه فضلا على أن تنقلب المعايير فيوصم ويقبح ويشوه ،ويقال : إنه إذلال للآخذين وإفساد للواهبين .

إن الإسلام عقيدة قلوب ، ومنهج تربية لهذه القلوب . والعاطفة الكريمة تهذب صاحبها وتنفع من يوجهها إليه من إخوانه . فتفى بشطرى التربية التى يقصد إليها هذا الدين .

ومن ثم كان ذلك التصوير الكريم لذلك الشعور الكريم .

« فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا » . .

Marfat.com

يعجل السياق بذكر وقايتهم من شر ذلك اليوم الذى كانوا يخافونه ، ليطمئنهم فى الدنيا وهم يتلقون هذا القرآن ويصدقونه ! ويذكر أنهم تلقوا من الله نضرة وسرورا ، لا يوما عبوسا قمطريرا . جزاء وفاقا على خشيتهم وخوفهم ، وعلى نداوة قلوبهم ونضرة مشاعرهم .

ثم يمضى بعد ذلك فى وصف مناعم الجنة التى وجدوها :

« وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا » . . جنة يسكنونها وحريرا يلبسونه

« متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا » . . فهم فى جلسة مريحة مطمئنة والجو حولهم رخاء ناعم دافىء فى غير حر ، ندى فى غير برد . فلا شمس تلهب النسائم ، ولا زمهرير وهو البرد القارس ! ولنا أن نقول : إنه عالم آخر ليست فيه شمسنا هذه ولا شموس أخرى من نظائرها . . وكفى !

« ودانية عليهم ظلالها . وذللت قطوفها تذليلا » .. وإذا دنت الظلال ودنت القطوف فهى الراحة والاسترواح على أمتع ما يمتد إليه الخيال !

فهذه هى الهيئة العامة لهذه الجنة التى جزى الله بها عباده الأبرار الذين رسم لهم تلك الصورة المرهفة اللطيفة الوضيئة فى الدنيا . . ثم تأتى تفصيلات المناعم والخدمات . .

« ويطاف عليهم بآنية من فضة ، وأكواب كانت قواريرا . قوارير من فضة قدروها تقديرا . ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا . عينا فيها تسمى سلسبيلا » . .

فهم فى متاعهم . متكئين على الأرائك بين الظلال الوارفة والقطوف الدانية والجوانق .. يطاف عليهم بأشربة فى آنية من فضة ، وفى أكواب من فضة كذلك ، ولكنها شفة كالقوارير ، مما لم تعهده الأرض فى آنية الفضة . وهى بأحجام مقدرة تقديرا يحقق المتاع والجمال . ثم هى تمزج بالزنجبيل كما مزجت مرة بالكافور . وهى كذلك تملأ من عين جارية تسمى سلسبيلا ، لشدة عذوبتها واستساغتها لدى الشاربين !

وزيادة فى المتاع فإن الذين يطوفون بهذه الأوانى والأكواب بالشراب هم غلمان صباح الوجوه ، لا يفعل فيهم الزمن ، ولا تدركهم السن ؛ فهم مخلدون فى سن الصباحة والصبا والوضاءة . وهم هنا وهناك كاللؤلؤ المنثور :

« ويطوف عليهم ولدان مخلدون ، إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا » ..

Marfat.com

ثم يجمل السياق خطوط المنظر ، ويلقى عليه نظرة كاملة تلخص وقعه فى القلب والنظر :

« وإذا رأيت ـ ثمّ ـ رأيت نعيما وملكا كبيرا » . .

نعيما وملكا كبيرا . هو الذى يعيش فيه الأبرار المقربون عباد الله هؤلاء . على وجه الإجمال والعموم !

ثم يخصص مظهرا من مظاهر النعيم والملك الكبير ؛ كأنه تعليل لهذا الوصف وتفسير :

« عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق ، وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا » . .

والسندس الحرير الرقيق ، والإستبرق الحرير السميك المبطن . . وهم فى هذه الزينة وبهذا المتاع ، يتلقونه كله « من ربهم » فهو عطاء كريم من معط كريم . وهذه تضاف إلى قيمة ذلك النعيم !

ثم يتلقون عليه الود والتكريم :

« إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا » . .

يتلقون هذا النطق من الملإ الأعلى . وهو يعدل هذه المناعم كلها ، ويمنحها قيمة أخرى فوق قيمتها . .

وهكذا ينتهى ذلك العرض المفصل والهتاف الموحى للقلوب ، الهتاف إلى ذلك النعيم الطيب والفرار من السلاسل والأغلال والسعير . . وهما طريقان . طريق مؤد إلى الجنة هذه وطريق مؤد إلى السعير !

* * *

وبعد انتهاء هذا الهتاف إلى الجنة ونعيمها الهنىء الرغيد ، يعالج حالة المشركين المصرين على العناد والتكذيب ، الذين لا يدركون حقيقة الدعوة ، فيساومون عليها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعله يكف عنها ، أو عما يؤذيهم منها . وبين المساومة للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفتنة المؤمنين به وإيذائهم ، والصد عن سبيل الله ، والإعراض عن الخير والجنة والنعيم . . بين هذا كله يجىء المقطع الأخير فى السورة يعالج هذا الموقف بطريقة القرآن الكريم :

« إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا . فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا . واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا . ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا » . .

Marfat.com

وفى هذه الآيات الأربعة تكمن حقيقة كبيرة من حقائق الدعوة الإيمانية . حقيقة ينبغى أن يعيش فيها الدعاة إلى الله طويلا ، وأن يتعمقوها تعمقا كاملا ، وأن ينظروا بتدبر فى مدلولاتها الواقعية والنفسية والإيمانية الكبيرة .

لقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يواجه المشركين بالدعوة إلى الله وحده . وهو لم يكن يواجه فى نفوسهم مجرد عقيدة . ولو كان الأمر كذلك لكان أيسر كثيرا . فإن عقيدة الشرك المهلهلة التى كانوا عليها لم تكن من القوة والثبات بحيث يصمدون بها هكذا لعقيدة الإسلام القوية الواضحة البسيطة . إنما كانت الملابسات التى تحيط بالعقيدة وبالموقف هى التى تقود إلى تلك المعارضة العنيدة ، التى شهدت بها الروايات التاريخيه ، وحكاها القرآن فى مواضع منه شتى .. كانت المكانة الاجتماعية ، والاعتزاز بالقيم السائدة فى البيئة ، وما يتلبس بها كذلك من مصالح مادية .. هى العنصر الأول الذى يقود إلى التشبث بالعقيدة الواهية الظاهرة البطلان . فى وجه العقيدة القوية الظاهرة الاستقامة . . ثم كانت صور الحياة الجاهلية ومتاعها ولذائذها وشهواتها إلى جانب ذلك تزيد المقاومة والعناد والتأبى على العقيدة الجديدة ، وما فيها من اتجاهات أخلاقية وقيم رفيعة ، لا تسمح بانطلاق الغرائز والشهوات ؛ ولا بالحياة العابثة الماجنة المطلقة من كوابح الأخلاق .

وهذه الأسباب ـ سواء ما يتعلق منها بالمكانة والقيم الاجتماعية والسلطان والمال والمصالح . وما يتعلق منها بالإلف والعادة وصور الحياة التقليدية ، وما يتعلق منها بالانطلاق من القيم والقيود الأخلاقية ـ كانت قائمة فى وجه الدعوة الأولى ، وهى هى قائمة فى وجه الدعوة فى كل أرض وفى كل جيل . وهى تمثل العناصر الثابتة فى معركة العقيدة ، التى تجعلها معركة عنيدة لا تنتهى من قريب ؛ وتجعل مشاقها وتكاليفها والبليات عليها من أعسر التكاليف .

ومن ثم ينبغى للدعاة إلى دين الله فى أى أرض وفى أى زمان أن يعيشوا طويلا فى الحقيقة الكبيرة الكامنة فى تلك الآيات ، وملابسات نزولها على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهى ملابسات معركة واحدة يخوضها كل صاحب دعوة إلى الله ، فى أى أرض وفى أى زمان !

لقد تلقى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ التكليف من ربه لينذر ، وقيل له : « يا أيها المدثر . قم فأنذر » .. فلما أن نهض بالتكليف واجهته تلك العوامل والأسباب التى تصد القوم عن الدعوة الجديدة ؛ وتثير فى نفوسهم التشبث بما هم عليه ـ على شعورهم بوهنه وهلهلته ـ

Marfat.com

وتقودهم إلى العناد الشديد ،ثم إلى الدفاع العنيد عن معتقداتهم وأوضاعهم ومكانتهم ومصالحهم ومألوف حياتهم ، ولذائذهم وشهواتهم . . إلى آخر ماتهدده الدعوة الجديدة أشد التهديد .

وأخذ هـذا الدفاع العنيد صورا شتى ، فى أولهـا إيذاء القلة المؤمنة التى استجابت للدعوة الجديدة ، ومحاولة فتنتها عن عقيدتها بالتعذيب والتهديد . ثم تشويه هذه العقيدة وإثارة الغبار حولها وحول نبيها ـ صلى الله عليـه وسلم ـ بشتى التهم والأساليب . كى لاينضم إليهـا مؤمنون جدد . فمنع الناس عن الانضمام إلى راية العقيدة قد يـكون أيسر من فتنة الذين عرفوا حقيقتها وذاقوها !

وفى الوقت ذاته راحوا يحاولون مع صاحب الدعوة ـ صلى الله عليـه وسلم ـ طرقا شتى من الإغراء ـ إلى جانب التهديد والإيذاء ـ ليلتقى بهم فى منتصف الطريق ؛ ويكف عن الحملة الساحقة على معتقداتهم وأوضاعهم وتقاليدهم ؛ ويصالحهم ويصالحونه على شىء يرتضيه ويرتضونه ! كما تعود الناس أن يلتقوا فى منتصف الطريق عند الاختلاف على المصالح والمغانم وشؤون هـذه الأرض المعهودة (١) .

وهذه الوسائل ذاتها أومايشبهها هى التى يواجهها صاحب الدعوة إلى الله فى كل أرض وفى كل جيل !

والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولوأنه رسول ، حفظه الله من الفتنة ،وعصمه من الناس .. إلاأنه بشر يواجه الواقع الثقيل فى قلة من المؤمنين وضعف . والله يعلم منه هـذا ، فلايدعه وحده ، ولايدعه لمواجهة الواقع الثقيل بلاعون ومدد وتوجيه إلى معالم الطريق .

وهذه الآيات تتضمن حقيقة هذا العون والمدد والتوجيه :

« إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا » .

وهى اللفتة الأولى إلى مصدر التـكليف بهذه الدعوة ، وينبوع حقيقتها . . إنها من الله . هو مصدرها الوحيد . وهو الذى نزل بها القرآن . فليس لها مصدر آخر ، ولايمكن أن تختلط حقيقتها بشىء آخر لايفيض من هذا الينبوع . وكل ماعدا هذا المصدر لا يُتلقى عنه، ولا يُستمد منه ، ولا يُستعار لهـذه العقيدة منه شىء ، ولايختلط بهـا منه شىء . . ثم إن الله الذى نزل هـذا القرآن وكلف بهذه الدعوة لن يتركها . ولن يترك الداعى إليها ، وهو كلفه ، وهو نزل القرآن عليـه .

(١) يراجع فى هذا الجزء تفسير سورة القلم : « ودوا لو تدهن فيدهنون » ..

Marfat.com

ولكن الباطل يتبجح ، والشر ينتفش،والأذى يصيب المؤمنين، والفتنةترصد لهم ؛ والصد عن سبيل الله يملكه أعداء الدعوة ويقومون به ويصرون عليه ، فوق إصرارهم على عقيدتهم وأوضاعهم وتقاليدهم وفسادهم وشرهم الذى يلجون فيه ! ثم هم يعرضون المصالحة ، وقسمة البلد بلدين ، والالتقاء فى منتصف الطريق . . وهو عرض يصعب رده ورفضه فى مثل تلك الظروف العصيبة !

هنا تجىء اللفتة الثانية :

« فاصبر لحكم ربك ، ولاتطع منهم آثما أو كفورا » . .

إن الأمور مرهونة بقدر الله . وهو يمهل الباطل ، ويملى للشر ، ويطيل أمد المحنة على المؤمنين والابتلاء والتمحيص . . كل أولئك لحكمة يعلمها ، يجرى بها قدره وينفذ بها حكمه . . « فاصبر لحكم ربك » . . حتى يجىء موعده المرسوم . اصبر على الأذى والفتنة . واصبر على الباطل يغلب، والشر يتفج . ثم اصبر أكثر على ماأوتيته من الحق الذى نزل به القرآن عليك. اصبر ولاتستمع لما يعرضونه من المصالحة والالتقاء فى منتصف الطريق على حساب العقيدة : « ولا تطع منهم آثما أوكفورا » . . فهم لايدعونك إلى طاعة ولاإلى بر ولا إلى خير . فهم آثمون كفار . يدعونك إلى شىء من الإثم والكفر إذن حين يدعونك إلى الالتقاء بهم فى منتصف الطريق ! وحين يعرضون عليك مايظنونه يرضيك ويغريك ! وقد كانوا يدعونه باسم شهوة السلطان ، وباسم شهوة المال ، وباسم شهوة الجسد . فيعرضون عليه مناصب الرياسة فيهم والثراء ، حتى يكون أغنى من أغنائهم ، كما يعرضون عليه الحسان الفاتنات ، حيث كان عتبة ابن ربيعة يقول له : « ارجع عن هذا الأمر حتى أزوجك ابنتى ، فإنى من أجمل قريش بنات ! » . . كل الشهوات التى يعرضها أصحاب الباطل لشراء الدعاة فى كل أرض وفى كل جيل !

« فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا » .. فإنه لالقاء بينك وبينهم ؛ولا يمكن أن تقام قنطرة للعبور عليها فوق الهوة الواسعة التى تفصل منهجك عن منهجهم ، وتصورك للوجود كله عن تصورهم ، وحقك عن باطلهم ، وإيمانك عن كفرهم ، ونورك عن ظلماتهم ، ومعرفتك بالحق عن جاهليتهم !

اصبر ولو طال الأمد ، واشتدت الفتنة وقوى الإغراء ، وامتد الطريق . .

Marfat.com

ولكن الصبر شاق ، ولا بد من الزاد والمدد المعين :

« واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ، ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا » . .

هذا هو الزاد . اذكر اسم ربك فى الصباح والمساء ، واسجد له بالليل وسبحه طويلا . . إنه الاتصال بالمصدر الذى نزّل عليك القرآن ، وكلفك الدعوة، هو ينبوع القوة ومصدر الزاد والمدد .. الاتصال به ذكرا وعبادة ودعاء وتسبيحا .. ليلا طويلا .. فالطريق طويل ، والعبء ثقيل . ولا بد من الزاد الكثير والمدد الكبير . وهو هناك ، حيث يلتقى العبد بربه فى خلوة وفى نجاء، وفى تطلع وفى أنس ،تفيض منه الراحة على التعب والضنى ، وتفيض منه القوة على الضعف والقلة . وحيث تنفض الروح عنها صغائر المشاعر والشواغل ،وترى عظمة التكاليف ،وضخامة الأمانة . فتستصغر ما لاقت وما تلاقى من أشواك الطريق !

إن الله رحيم ، كلف عبده الدعوة ، ونزل عليه القرآن ، وعرف متاعب العبء وأشواك الطريق . فلم يدع نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلا عون أو مدد . وهذا هو المدد الذى يعلم ـ سبحانه ـ أنه هو الزاد الحقيقى الصالح لهذه الرحلة المضنية فى ذلك الطريق الشائك . . وهو هو زاد أصحاب الدعوة إلى الله فى كل أرض وفى كل جيل . فهى دعوة واحدة . ملابساتها واحدة . وموقف الباطل منها واحد ، وأسباب هذا الموقف واحدة . ووسائل الباطل هى ذاتها وسائله . فلتكن وسائل الحق هى الوسائل التى علم الله أنها وسائل هذا الطريق .

والحقيقة التى ينبغى أن يعيش فيها أصحاب الدعوة إلى الله هى هذه الحقيقة التى لقنها الله لصاحب الدعوة الأولى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هى أن التكليف بهذه الدعوة تنزّل من عند الله . فهو صاحبها . وأن الحق الذى تنزلت به لا يمكن مزجه بالباطل الذى يدعو إليه الآثمون الكفار . فلا سبيل إلى التعاون بين حقها وباطلهم ، أو الالتقاء فى منتصف الطريق بين القائم على الحق والقائمين على الباطل . فهما نهجان مختلفان ، وطريقان لا يلتقيان .فأما حين يغلب الباطل بقوته وجمعه على قلة المؤمنين وضعفهم ، لحكمة يراها الله . . فالصبر حتى يأتى الله بحكمه . والاستمداد من الله والاستعانة بالدعاء والتسبيح ـ ليلا طويلا ـ هى الزاد المضمون لهذا الطريق . .

. . إنها حقيقة كبيرة لابد أن يدركها ويعيش فيها رواد هذا الطريق . .

* * *

Marfat.com

ثم يمضى السياق فى توكيد الافتراق بين منهج الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومنهج الجاهلية . بما يقرره من غفلتهم عن رؤية الخير لأنفسهم ، ومن تفاهة اهتماماتهم ، وصغر تصوراتهم . . يقول :

« إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا » . .

إن هؤلاء ، القريبى المطامح والاهتمامات ، الصغار المطالب والتصورات . . هؤلاء الصغار الزهيدين الذين يستغرقون فى العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا . ثقيلا بتبعاته . ثقيلا بنتائجه . ثقيلا بوزنه فى ميزان الحقيقة . . إن هؤلاء لايطاعون فى شىء ولا يتبعون فى طريق ؛ ولا يلتقون مع المؤمنين فى هدف ولا غاية ، ولا يؤبه لما هم فيه من هذه العاجلة ، من ثراء وسلطان ومتاع ، فإنما هى العاجلة ، وإنما هو المتاع القليل ، وإنما هم الصغار الزهيدون !

ثم توحى الآية بغفلتهم عن رؤية الخير لأنفسهم . فهم يختارون العاجلة ، ويذرون اليوم الثقيل الذى ينتظرهم هناك بالسلاسل والأغلال والسعير ، بعد الحساب العسير !

فهذه الآية استطراد فى تثبيت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين معه ، فى مواجهة هؤلاء الذين أوتوا من هذه العاجلة مايحبون . إلى جانب أنها تهديد ملفوف لأصحاب العاجلة باليوم الثقيل .

* * *

يتلو ذلك التهوين من أمرهم عند الله الذى أعطاهم ماهم فيه من قوة وبأس ، وهو قادر على الذهاب بهم وتبديل غيرهم منهم . ولكنه يتركهم لحكمة يجرى بها قدره القديم :

« نحن خلقناهم وشددنا أسرهم ، وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا » . .

وهذه اللفتة تذكر هؤلاء الذين يعتزون بقوتهم ، بمصدر هذه القوة ، بل مصدر وجودهم ابتداء . ثم تطمئن الذين آمنوا ـ وهم فى حالة الضعف والقلة ـ إلى أن واهب القوة هو الذى ينتسبون إليه وينهضون بدعوته . كما تقرر فى نفوسهم حقيقة قدر الله وما وراءه من حكمة مقصودة ، هى التى تجرى وفقها الأحداث حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .

« وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا » . . فهم لايعجزون الله بقوتهم ، وهو خلقهم وأعطاهم إياها . وهو قادر على أن يخلق أمثالهم فى مكانهم .. فإذا أمهلهم ولم يبدل أمثالهم فهو فضله ومنته وهو قضاؤه وحكمته

Marfat.com

ومن هنا تكون الآية استطرادا فى تثبيت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه ؛ وتقريرا لحقيقة موقفهم وموقف الآخرين .. كما أنها لمسة لقلوب هؤلاء المستغرقين فى العاجلة، المغترين بقوة أسرهم ، ليذكروا نعمة الله ، التى يتبطرون بها فلا يشكرونها ؛ وليشعروا بالابتلاء الكامن وراء هذه النعمة . وهو الابتلاء الذى قرره لهم فى مطلع السورة .

* * *

ثم يوقظهم إلى الفرصة المتاحة لهم ، والقرآن يعرض عليهم ، وهذه السورة منه تذكرهم :

« إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا » . .

ويعقب على هذه اللفتة بإطلاق المشيئة ، ورد كل شىء إليها ، ليكون الاتجاه الأخير إليها ، والاستسلام الأخير لحكمها ؛ وليرأ الإنسان من قوته إلى قوتها ، ومن حوله إلى حولها وهو الإسلام فى صميمه وحقيقته :

« وماتشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما » . .

ذلك كى تعلم قلوب البشر أن الله هو الفاعل المختار ، المتصرف القهار ، فتتعلم كيف تتجه إليه وتستسلم لقدره . . وهذا هو مجال هذه الحقيقة الذى تجرى فيه فى مثل هذه النصوص . مع تقرير ماشاءه الله لهم من منحهم القدرة على إدراك الحق والباطل ؛ والاتجاه إلى هذا أوذاك وفق مشيئة الله ، العليم بحقيقة القلوب ، وما أعان به العباد من هبة الإدراك والمعرفة ، وبيان الطريق ، وإرسال الرسل ، وتنزيل القرآن ... إلا أن هذا كله ينتهى إلى قدر الله، الذى يلجأ إليه الملتجىء ، فيوفقه إلى الذكر والطاعة ، فإذا لم يعرف فى قلبه حقيقة القدرة المسيطرة ، ولم يلجأ إليها لتعينه وتيسره ، فلا هدى ولاذكر ، ولاتوفيق إلى خير . .

ومن ثم فهو :

« يدخل من يشاء فى رحمته ، والظالمين أعد لهم عذابا أليما » ..

فهى المشيئة المطلقة تتصرف بما تريد . ومن إرادتها أن يدخل فى رحمته من يشاء ، ممن يلتجئون إليه ، يطلبون عونه على الطاعة، وتوفيقه إلى الهدى .. « والظالمين أعد لهم عذابا أليما » . وقد أملى لهم وأمهلهم ليتهوا إلى هذا العذاب الأليم !

وهذا الختام يلتئم مع المطلع ، ويصور نهاية الابتلاء ، الذى خلق الله له الإنسان من نطفة أمشاج ، ووهبه السمع والأبصار ، وهداه السبيل إما إلى جنة وإما إلى نار . .

Marfat.com

سورة المرسلات مكية
وآياتها ٥٠

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا * إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ .

« فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ * وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ * لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ؟ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ؟ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ !

« أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ؟ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ !

« أَلَمْ نَخْلُقكُّمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ؟ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ؟ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ ؟ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ؟ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ !

« أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ؟ * وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ؟ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ !

« انْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ! * انْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ * لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ! * إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ !

Marfat.com

« هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ !

« هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ * فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ !

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ !

« كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ !

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ !

« فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ؟ » ﴿٥٠﴾

هذه السورة حادة الملامح ، عنيفة المشاهد ، شديدة الإيقاع ، كأنها سياط لاذعة من نار. وهى تقف القلب وقفة المحاكمة الرهيبة ، حيث يواجه بسيل من الاستفهامات والاستنكارات والتهديدات ، تنفذ إليه كالسهام المسنونة !

وتعرض السورة من مشاهد الدنيا والآخرة ، وحقائق الكون والنفس ، ومناظر الهول والعذاب ماتعرض . وعقب كل معرض ومشهد تلفح القلب المذنب لفحة كأنها من نار : « ويل يومئذ للمكذبين » !

ويتكرر هذا التعقيب عشر مرات فى السورة . وهو لازمة الإيقاع فيها . وهو أنسب تعقيب لملامحها الحادة ، ومشاهدها العنيفة ، وإيقاعها الشديد .

وهذه اللازمة تذكرنا باللازمة المكررة فى سورة « الرحمان » عقب عرض كل نعمة من نعم الله على العباد : « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » .. كما تذكرنا باللازمة المكررة فى سورة « القمر » عقب كل حلقة من حلقات العذاب: « فكيف كان عذابى ونذر ؟ » . وتكرارها هنا على هذا النحو يعطى السورة سمة خاصة ، وطعما مميزا .. حادا ..

وتتوالى مقاطع السورة وفواصلها قصيرة سريعة عنيفة ، متعددة القوافى . كل مقطع بقافية.

Marfat.com

ويعود السياق أحيانا إلى بعض القوافى مرة بعد مرة . ويتلقى الحس هـذه المقاطع والفواصل والقوافى بلذعها الخاص ، وعنفها الخاص . واحدة إثر واحدة . ومايكاد يفيق من إيقاع حتى يفاجله إيقاع آخر ، بنفس العنف وبنفس الشدة .

ومنذ بداية السورةوالجو عاصف ثائر بمشهد الرياح أوالملائكة : المرسلات عرفا . العاصفات عصفا .. الناشرات نشرا فالفارقات فرقا . الملقيات ذكرا ، عذرا أونذرا . . وهو افتتاح يلتئم مع جو السورة وظلهاتمام الالتئام .

وللقرآن فى هذا الباب طريقة خاصة فى اختيار إطار للمشاهد فى بعض السورمن لونهذه المشاهد وقوتها .. وهذا نموذج منها، كما اختار إطارا من الضحىوالليل إذا سجى لمشاهد الرعاية والحنان والإيواء فى « سورة الضحى » وإطارا من العاديات الضابحة الصاخبة المثيرة للغبار لمشاهد بعثرة القبور وتحصيل مافى الصدور فى سورة « والعاديات » . . وغيرها كثير (١) .

وكل مقطع من مقاطع السورة العشرة بعد هذا المطلع ، يمثل جولة أورحلة فى عالم،تتحول السورة معهإلى مساحات عريضة من التأملات والمشاعر والخواطر والتأثرات والاستجابات . . أعرض بكثير جدا من مساحة العبارات والكلمات ، وكأنما هذه سهام تشير إلى عوالم شتى !

والجولة الأولى تقع فى مشاهد يومالفصل . وهى تصور الانقلابات الكونيةالهائلة فىالسماء والأرض ، وهى الموعد الذى تنتهى إليه الرسل بحسابها مع البشر : « فإذا النجوم طمست . وإذا السماء فرجت . وإذا الجبال نسفت . وإذا الرسل أقتت . لأى يوم أجلت ؟ ليوم الفصل . وماأدراك مايوم الفصل ؟ ويل يومئذ للمكذبين ! » .

والجولة الثانية مع مصارع الغابرين ، وماتشير إليه من سنن الله فى المكذبين : « ألم نهلك لأولين ؟ ثم نتبعهم الآخرين ؟ كذلك نفعل بالمجرمين . ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

والجولة الثالثة مع النشأة الأولى وماتوحى به من تقدير وتدبير : « ألم نخلقكم من ماء مهين ؟ فجعلناه فى قرار مكين ؟ إلى قدر معلوم ؟ فقدرنا فنعم القادرون . ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

والجولة الرابعة فى الأرض التى تضم أبناءها إليها أحياءوأمواتا ، وقدجهزتلهم بالاستقرار والماء المحيي : « ألم نجعل الأرض كفاتاأحياء وأمواتا ،وجعلنا فيها رواسى شامخاتوأسقيناكم ماء فراتا ؟ ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

---

(١) يراجع فصل التناسق الفنى فى كتاب : التصوير الفنى . .

Marfat.com

والجولة الخامسة مع المكذبين ومايلقونه يوم الفصل من عذاب وتأنيب : « انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون . انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب ! لا ظليل ولا يغنى من اللهب. إنها ترمى بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر. ويل يومئذ للمكذبين ! » .

والجولة السادسة والسابعة استطراد مع موقف المكذبين ، ومزيد من التأنيب والترذيل : « هذا يوم لاينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون . ويل يومئذ للمكذبين ! هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين . فإن كان لكم كيد فكيدون . ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

والجولة الثامنة مع المتقين ، وماأعد لهم من نعيم : « إن المتقين فى ظلال وعيون ، وفواكه مما يشتهون . كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون . إنا كذلك نجزى المحسنين . ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

والجولة التاسعة خطفة سريعة مع المكذبين فى موقف التأنيب : « كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون . ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

والجولة العاشرة خطفة سريعة مع المكذبين فى موقف التكذيب : « وإذا قيل لهم : اركعوا لايركعون . ويل يومئذ للمكذبين ! » .

والخاتمة بعد هذه الجولات والاستعراضات والوخزات والإيقاعات : « فبأى حديث بعده يؤمنون ؟ » . .

* * *

وهكذا يمضى القلب مع سياق السورة السريع ، وكأنه يلهث مع إيقاعها وصورها ومشاهدها. فأما الحقائق الموضوعية فى السورة فقد تكرر ورودها فى سور القرآن ـ والمكية منها بوجه خاص ـ ولكن الحقائق القرآنية تعرض من جوانب متعددة ، وفى أضواء متعددة ، وبطعوم ومذاقات متعددة ، وفق الحالات النفسية التى تواجهها ، ووفق مداخل القلوب وأحوال النفوس التى يعلمها منزل هذا القرآن على رسوله ، فتبدو فى كل حالة جديدة ، لأنها تستجيش فى النفس استجابات جديدة .

وفى هذه السورة جدة فى مشاهد جهنم . وجدة فى مواجهة المكذبين بهذه المشاهد . كما أن هناك جدة فى أسلوب العرض والخطاب كله . ومن ثم تبرز شخصية خاصة للسورة . حادة اللامح . لاذعة المذاق . لاهثة الإيقاع !

Marfat.com

والآن نستعرض السورة فى سياقها القرآنى بالتفصيل :

* * *

« والمرسلات عرفا . فالعاصفات عصفا . والناشرات نشرا . فالفارقات فرقا . فالملقيات ذكرا : عذرا أو نذرا . . إن ماتوعدون لواقع » . .

القضية قضية القيامة التى كان يعسر على المشركين تصور وقوعها ؛ والتى أكدها لهم القرآن الكريم بشتى المؤكدات فى مواضع منه شتى . وكانت عنايته بتقرير هـذه القضية فى عقولهم . وإقرار حقيقتها فى قلوبهم مسألة ضرورة لابد منها لبناء العقيدة فى نفوسهم على أصولها ، ثم لتصحيح موازين القيم فى حياتهم جميعا . فالاعتقاد باليوم الآخر هو حجر الأساس فى العقيدة السماوية ، كما أنه حجر الأساس فى تصور الحياة الإنسانية . وإليه مرد كل شىء فى هذه الحياة ، وتصحيح الموازين والقيم فى كل شأن من شؤونها جميعا .. ومن ثم اقتضت هذا الجهد الطويل الثابت لتقريرها فى القلوب والعقول .

والله سبحانه يقسم فى مطلع هذه السورة على أن هذا الوعد بالآخرة واقع . وصيغة القسم توحى ابتداء بأن مايقسم الله به هو من مجاهيل الغيب ، وقواه المكنونة ، المؤثرة فى هـذا الكون وفى حياة البشر . وقد اختلف السلف فى حقيقة مدلولها . فقال بعضهم : هى الرياح إطلاقا . وقال بعضهم هى الملائكة إطلاقا . وقال بعضهم : إن بعضها يعنى الرياح وبعضها يعنى الملائكة . . مما يدل على غموض هـذه الألفاظ ومدلولاتها . وهـذا الغموض هو أنسب شىء للقسم بها على الأمر الغيبى المكنون فى علم الله . وأنه واقع كما أن هذه المدلولات المغيبة واقعة ومؤثرة فى حياة البشر .

« والمرسلات عرفا » . . عن أبى هريرة أنها الملائكة . وروى مثل هـذا عن مسروق وأبى الضحى ومجاهد فى إحدى الروايات ، والسدى والربيع ابن أنس ، وأبى صالح فى رواية (والمعنى حينئذ هو القسم بالملائكة المرسلة أرسالا متوالية ، كأنها عرف الفرس فى إرسالها وتتابعها) .

وهكذا قال أبو صالح فى العاصفات والناشرات والفارقات والملقيات . . إنها الملائكة .

وروى عن ابن مسعود . . المرسلات عرفا . قال : الريح . (والمعنى على هـذا أنها المرسلة متوالية كعرف الفرس فى امتدادها وتتابعها) وكذا قال فى العاصفات عصفا والناشرات نشرا. وكذلك قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وأبو صالح فى رواية .

Marfat.com

وتوقف ابن جرير فى المرسلات عرفا هل هى الملائكة أو الرياح . وقطع بأن العاصفات هى الرياح . وكذلك الناشرات التى تنشر السحاب فى آفاق السماء .

وعن ابن مسعود : « فالفارقات فرقا فالملقيات ذكرا ، عذرا أو نذرا » يعنى الملائكة . وكذا قال: ابن عباس ومسروق ومجاهد وقتادة والربيع ابن أنس والسدى والثورى بلا خلاف. فإنها تنزل بأمر الله على الرسل ، تفرق بين الحق والباطل . وتلقى إلى الرسل وحيا فيه إعذار إلى الخلق وإنذار .

ونحن نلمح أن التهويل بالتجهيل ملحوظ فى هذه الأمور المقسم بها كالشأن فى الذاريات ذروا . وفى النازعات غرقا . . وأن هذا الخلاف فى شأنها دليل على إبهامها . وأن هذا الإبهام عنصر أصيل فيها فى موضعها هذا . وأن الإيحاء المجمل فى التلويح بها هو أظهر شىء فى هذا المقام . وأنها هى بذاتها تحدث هزة شعورية بإيحاء جرسها وتتابع إيقاعها ، والظلال المباشرة التى تلقيها . وهذه الانتفاضة والهزة اللتان تحدثهما فى النفس هما أليق شىء بموضوع السورة واتجاهها .. وكل مقطع من مقاطع السورة بعد ذلك هو هزة ، كالذى يمسك بخناق أحد فيهزه هزا ، وهو يستجوبه عن ذنب، أو عن آية ظاهرة ينكرها ، ثم يطلقه على الوعيد والتهديد : « ويل يومئذ للمكذبين » . .

* * *

بعد ذلك تجىء الهزة العنيفة بمشاهد الكون المقلبة فى يوم الفصل الذى هو الموعد المضروب للرسل لعرض حصيلة الرسالة فى البشرية جميعا :

« فإذا النجوم طمست ، وإذا السماء فرجت ، وإذا الجبال نسفت ،وإذا الرسل أقتت . لأى يوم أجلت ؟ ليوم الفصل . وما أدراك مايوم الفصل ؟ ويل يومئذ للمكذبين » . .

يوم تطمس النجوم فيذهب نورها ، وتفرج السماء أى تشق ، وتنسف الجبال فهى هباء .. وقد وردت مشاهد هذا الانقلاب الكونى فى سور شتى من القرآن . وكلها توحى بانفراط عقد هذا الكون المنظور ، انفراطا مصحوبا بقرقعة ودوى وانفجارات هائلة ، لاعهد للناس بها فيما يرونه من الأحداث الصغيرة التى يستهولونها ويروعون بها من أمثال الزلازل والبراكين والصواعق .. وما إليها .. فهذه أشبه شىء ـ حين تقاس بأهوال يوم الفصل ـ بلعب الأطفال التى يفرقعونها فى الأعياد ، حين تقاس إلى القنابل الذرية والهيدروجينية ! وليس هذا سوى مثل للتقريب . وإلا فالهول الذى ينشأ من تفجر هذا الكون وتناثره على هذا النحو أكبر من التصور البشرى على الإطلاق !

Marfat.com

وإلى جانب هـذا الهول فى مشاهد الـكون ، تعرض السورة أمرا عظيما آخر مؤجلا إلى هذا اليوم . . فهو موعد الرسل لعرض حصيلة الدعوة . دعوة الله فى الأرض طوال الأجيال. فالرسل قد أقتت لهذا اليوم وضرب لها الموعد هناك ، لتقديم الحساب الختامى عن ذلك الأمر العظيم الذى يرجح السماوات والأرض والجبال . للفصل فى جميع القضايا المعلقة فى الحياة الأرضية ، والقضاء بحكم الله فيها ، وإعلان الـكلمة الأخيرة التى تنتهى إليها الأجيال والقرون . .

وفى التعبير تهويل لهذا الأمر العظيم ، يوحى بضخامة حقيقته حتى لتتجاوز مدى الإدراك :

« وإذا الرسل أقتت . لأى يوم أجلت ؟ ليوم الفصل . وما أدراك مايوم الفصل ؟ » . .

وظاهر من أسلوب التعبير أنه يتحدث عن أمر هائل جليل . فإذا وصل هذا الإيقاع إلى الحس بروعته وهوله ، الذى يرجح هول النجوم المطموسة والسماء المشقوقة والجبال المنسوفة. ألقى بالإيقاع الرعيب ، والإنذار المخيف :

« فويل يومئذ للمكذبين ! » . .

وهذا الإنذار من العزيز الجبار ، فى مواجهة الهول السائد فى الـكون ، والجلال الماثل فى مجلس الفصل بمحضر الرسل ، وهم يقدمون الحساب الأخير فى الموعد المضروب لهم .. هذا الإنذار فى هذا الأوان له طعمه وله وزنه وله وقعه المزلزل الرهيب . .

* * *

ويعود بهم من هذه الجولة فى أهوال يوم الفصل ، إلى جولة فى مصارع الغابرين: الأولين والآخرين . .

« ألم نهلك الأولين ؟ ثم نتبعهم الآخرين ؟ كذلك نفعل بالمجرمين . ويل يومئذ للمكذبين ! » . .

هـكذا فى ضربة واحـدة تتكشف مصارع الأولين وهم حشود . وفى ضربة واحـدة تتكشف مصارع الآخرين وهم حشود . وعلى مد البصر تتبـدى المصارع والأشلاء . وأمامها ينطلق الوعيد ناطقا بسنة الله فى الوجود : « كذلك نفعل بالمجرمين » ! فهى السنة الماضية التى لاتحيد . . وبينما المجرمون يتوقعون مصرعا كمصارع الأولين والآخرين ، يجىء الدعاء بالهلاك. ويجىء الوعيد بالثبور : « ويل يومئذ للمكذبين » . .

* * *

Marfat.com

ومن الجولة فى المصارع والأشلاء ، إلى جولة فى الإنشاء والإحياء ، مع التقدير والتدبير ، للصغير والكبير :

« ألم نخلقكم من ماء مهين؟فجعلناه فى قرار مكين؟إلى قدر معلوم ؟ فقدرنافنعم القادرون. ويل يومئذ للمكذبين » . .

وهى رحلة مع النشأة الجنينية طويلة عجيبة ، يجملها هنا فى لمسات معدودة . ماء مهين يودع فى قرار الرحم المكين . إلى قدر معلوم وأجل مرسوم . وأمام التقدير الواضح فى تلك النشأة ومراحلها الدقيقة يجىء التعقيب الموحى بالحكمة العليا التى تتولى كل شىء بقدره فى إحكام مبارك جميل : « فقدرنا فنعم القادرون » وأمام التقدير الذى لايفلت منه شىء يجىء الوعيد المعهود : « ويل يومئذ للمكذبين » ..

* * *

ثم جولة فى هـذه الأرض ، وتقدير الله فيهـا لحياة البشر ، وإيداعها الخصائص الميسرة لهذه الحياة :

« ألم نجعل الأرض كفاتا ؟ أحياء وأمواتا ؟ وجعلنا فيهـا رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتا ؟ ويل يومئذ للمكذبين » .

ألم نجعل الأرض كفاتا تحتضن بينها أحياء وأمواتا . « وجعلنا فيها رواسى شامخات » ثابتات سامقات ، تتجمع على قممها السحب ، وتنحدر عنها مساقط المـاء العذب . أفيـكون هـذا إلاعن قدرة وتقدير ، وحكمة وتدبير ؟ أفبعد هـذا يكذب المكذبون ؟ : « ويل يومئذ للمكذبين ! » . .

* * *

وعندئذ ـ بعد عرض تلك المشاهد ، وامتلاء الحس بالتأثرات التى تسكبها فى المشاعر ـ ينتقل السياق فجأة إلى موقف الحساب والجزاء . فنسمع الأمر الرهيب للمجرمين المكذبين ، ليأخذوا طريقهم إلى العذاب الذى كانوا به يكذبون ، فى تأنيب مرير وإيلام عسير :

« انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون . انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب . لاظليل ولايغنى من اللهب . إنها ترمى بشرر كالقصر . كأنه جمالة صفر . ويل يومئذ للمكذبين ! » . .

ذهبوا طلقاء بعد الارتهان والاحتباس فى يوم الفصل الطويل . ولكن إلى أين ؟ إنه

Marfat.com

انطلاق خير منه الارتهان . . « انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون » . . فهاهو ذا أمامكم حاضر مشهود . « انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب » . . إنه ظل لدخان جهنم تمتد ألسنته فى ثلاث شعب . ولكنه ظل خير منه الوهج : « لاظليل ولايغنى من اللهب » . . إنه ظل خانق حار لافح . وتسميته بالظل ليست إلاامتدادا للتهكم ، وتمنية بالظل تتكشف عن حر جهنم !

انطلقوا . وإنكم لتعرفون إلى أين ! وتعرفونها هذه التى تنطلقون إليها فلاحاجة إلى ذكر اسمها .. « إنها ترمى بشرر كالقصر . كأنه جمالة صفر » .. فالشرر يتتابع فى حجم البيت من الحجر . (وقد كان العرب يطلقون كلمة القصر على كل بيت من حجر وليس من الضرورى أن يكون فى ضخامة مانعهد الآن من قصور) فإذا تتابع بدا كأنه جمال صفر ترتع هنا وهناك ! هذا هو الشرر فكيف بالنار التى ينطلق منها الشرر ؟ !

وفى اللحظة التى يستغرق فيها الحس بهذا الهول ، يجىء التعقيب المعهود : « ويل يومئذ للمكذبين ! » .

* * *

ثم يأخذ فى استكمال المشهد بعد عرض الهول المادى فى صورة جهنم ، بعرض الهول النفسى الذى يفرض الصمت والكظم ..

« هذا يوم لاينطقون . ولايؤذن لهم فيعتذرون » . .

فالهول هنا يكمن فى الصمت الرهيب ، والكبت الرعيب ، والخشوع المهيب ، الذى لايتخلله كلام ولايقطعه اعتذار . فقد انقضى وقت الجدل ومضى وقت الاعتذار : « ويل يومئذ للمكذبين » ! . . وفى مشاهد أخرى يذكر حسرتهم وندامتهم وحلفهم ومعاذيرهم . . واليوم طويل يكون فيه هذا ويكون فيه ذاك ـ على ماقال ابن عباس رضى الله عنهما ـ ولكنه هنا يثبت هذه اللقطة الصامتة الرهيبة ، لمناسبة فى الموقف وظل فى السياق .

* * *

« هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين . فإن كان لكم كيد فكيدون . ويل يومئذ للمكذبين ! »

هذا يوم الفصل لايوم الاعتذار . وقد جمعناكم والأولين أجمعين . فإن كان لكم تدبير فدبروه ، وإن كان لكم قدرة على شىء فافعلوه ! ولاتدبير ولاقدرة . إنما هو الصمت الكظيم ، على التأنيب الأليم . . ويل يومئذ للمكذبين ! »

* * *

Marfat.com

فإذا انتهى مشهد التأنيب للمجرمين ، اتجه الخطاب بالتكريم للمتقين :

« إن المتقين فى ظلال وعيون ، وفواكه مما يشتهون . كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون . إنا كذلك نجزى المحسنين . ويل يومئذ للمكذبين ! » ...

إن المتقين فى ظلال .. ظلال حقيقية فى هذه المرة ! لا ظل ذى ثلاث شعب لاظليل ولايغنى من اللهب ! وفى عيون من ماء لا فى دخان خانق يبعث الظمأ الحرور . « وفواكه مما يشتهون » . . وهم يتلقون فوق هذا النعيم الحسى التكريم العلوى على مرأى ومسمع من الجموع : « كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون . إنا كذلك نجزى المحسنين » وبالطف هذا التكريم من العلى العظيم « ويل يومئذ للمكذبين ! » . . يقابل هذا النعيم والتكريم !

* * *

وهنا تعرض فى خطفة سريعة رقعة الحياة الدنيا التى طويت فى السياق . فإذا نحن فى الأرض مرة أخرى . وإذا التبكيت والترذيل يوجهان للمجرمين !

« كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون . ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

وهكذا تختلط الدنيا بالآخرة فى فقرتين متواليتين، وفى مشهدين معروضين كأنهما حاضران فى أوان ، وإن كانت تفرق بينهما أزمان وأزمان . فبينما كان الخطاب موجها للمتقين فى الآخرة ، إذا هو موجه للمجرمين فى الدنيا . وكأنما ليقال لهم : اشهدوا الفارق بين الموقفين . . وكلوا وتمتعوا قليلا فى هذه الدار ، لتحرموا وتعذبوا طويلا فى تلك الدار . . « ويل يومئذ للمكذبين ! » .

* * *

ثم يتحدث معجبا من أمر القوم وهم يدعون إلى الهدى فلايستجيبون :

« وإذا قيل لهم اركعوا لايركعون . ويل يومئذ للمكذبين ! » . .

مع أنهم يبصرون هذا التبصير ، وينذرون هذا النذير ..

« فبأى حديث بعده يؤمنون ؟ » . .

والذى لايؤمن بهذا الحديث الذى يهز الرواسى ، وبهذه المعجزات التى تزلزل الجبال ،

Marfat.com

لايؤمن بحديث بعده أبدا . إنما هو الشقاء والتعاسة والمصير البائس ، والويل المدخر لهذا الشقى المتعوس !

* * *

إن السورة بذاتها ، ببنائها التعبيرى ، وإيقاعها الموسيقى ، ومشاهدها المنيفة ، ولذعها الحاد . . إنها بذاتها حملة لايثبت لها قلب ، ولايتماسك لها كيان .

فسبحان الذى نزل القرآن ، وأودعه هذا السلطان !

تم الجزء التاسع والعشرون، ويليه الجزء الثلاثون
مبدوءا بقوله تعالى : « عم يتساءلون »

Marfat.com

فی ظلال القرآن

الجزء الثلاثون

بقلم

سید قطب

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

من سورة النبأ إلى آخر الجزء الثلاثين

Marfat.com

سُورَةُ النَّبَإِ مكيّة
وآياتها ٤٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ؟ ① عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ . كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ .

« أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ؟ * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا .

« إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا * يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا * وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا * وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا .

« إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وِفَاقًا * إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا * فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا .

« إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا * وَكَأْسًا دِهَاقًا * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا * جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا .

Marfat.com

« رَبِّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَانِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا * يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَانُ وَقَالَ صَوَابًا * ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا .

« إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ، وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا » ﴿٤٠﴾

هـذا الجزء كله ـ ومنه هـذه السورة ـ ذو طابع غالب . . سوره مكية فيما عدا سورتى « البينة » و « النصر » وكلها من قصار السور على تفاوت فى القصر . والأهم من هذا هو طابعها الخاص الذى يجعلها وحدة ـ على وجه التقريب ـ فى موضوعها واتجاهها ، وإيقاعها ، وصورها وظلالها ، وأسلوبها العام .

إنها طرقات متوالية على الحس . طرقات عنيفة قوية عالية . وصيحات . صيحات بنوم غارقين فى النوم ! نومهم ثقيل ! أو بسكارى مخمورين ثقل حسهم الخمار ! أو بلاهين فى سامر راقصين فى ضجة وتصدية ومكاء ! تتوالى على حسهم تلك الطرقات والصيحات المنبثقة من سور هـذا الجزء كله بإيقاع واحـد ونذير واحد : اصحوا . استيقظوا . انظـروا . تلفتوا . تفـكروا . تدبروا . . إن هنالك إلها . وإن هنالك تدبيرا . وإن هنالك تقديرا . وإن هنالك ابتلاء . وإن هنالك تبعة . وإن هنالك حسابا . وإن هنالك جزاء . وإن هنالك عذابا شديدا . ونعيما كبيرا . . اصحوا . استيقظوا . انظروا . تلفتوا . تفـكروا . تدبروا ... وهكذا مرة أخرى . وثالثة ورابعة . وخامسة ... وعاشرة .. ومع الطرقات والصيحات يد قوية تهز النائمين المخمورين السادرين هزا عنيفا . . وهم كأنما يفتحون أعينهم وينظرون فى خمار مرة ، ثم يعودون لما كانوا فيه ! فتعود اليد القوية تهزهم هزا عنيفا ؛ ويعود الصوت العالى يصيح بهم من جديد ؛ وتعود الطرقات العنيفة على الأسماع والقلوب .. وأحيانا يتيقظ النوام ليقولوا : فى إصرار وعناد : لا .. ثم يحسبون الصائح المنذر المنبـه بالأحجار والبذاء . . ثم يعودون لما كانوا فيـه . فيعود إلى حزهم من جديد .

Marfat.com

هكذا خيل إلى وأنا أقرأ هذا الجزء . وأحس تركيزه على حقائق معينة قليلة العدد ، عظيمة القدر ، ثقيلة الوزن . وعلى إيقاعات معينة يلمس بها أوتار القلوب . وعلى مشاهد معينة في الكون والنفس . وعلى أحداث معينة في يوم الفصل . وأرى تكرارها مع تنوعها . هذا التكرار الموحي بأمر وقصد !

وهكذا يحس القارىء وهو يقرأ : « فلينظر الإنسان إلى طعامه . . . » . . « فلينظر الإنسان مم خلق ؟ . . . » . . «أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ؟ وإلى السماء كيف رفعت ؟ وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت » . .

وهو يقرأ : « أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها ؟ رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم » . . « ألم نجعل الأرض مهادا ؟ والجبال أوتادا ؟وخلقناكم أزواجا؟ وجعلنا نومكم سباتا ؟ وجعلنا الليل لباسا ؟ وجعلنا النهار معاشا ؟ وبنينا فوقكم سبعا شدادا ؟ وجعلنا سراجا وهاجا ؟ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ؟ لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا ؟ » . . . . «فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولأنعامكم » . .

وهو يقرأ « ياأيها الإنسان . ماغرك بربك الكريم ، الذى خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة ماشاء ركبك ؟ » . .

« سبح اسم ربك الأعلى ،الذى خلق فسوى ،والذى قدر فهدى . والذى أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى » . . « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون . فما يكذبك بعد بالدين ؟ أليس الله بأحكم الحاكمين ؟ »

وهو يقرأ : « إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سيرت ، وإذا العشار عطلت ، وإذا الوحوش حشرت ، وإذا البحار سجرت ، وإذا النفوس زوجت ، وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت ؟ وإذا الصحف نشرت ، وإذا السماء كشطت ، وإذا الجحيم سعرت ، وإذا الجنة أزلفت . علمت نفس ما أحضرت » . . « إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ،وإذا البحار فجرت ،وإذا القبور بعثرت. علمت نفس ماقدمت وأخرت » . .

Marfat.com

« إذا السماء انشقت . وأذنت لربها وحقت . وإذا الأرض مدت ، وألقت مافيها وتخلت، وأذنت لربها وحقت . . . » .. « إذا زلزلت الأرض زلزالها ،وأخرجت الأرض أثقالها ،وقال الإنسان مالها . . يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها » . .

وهو يقرأ اللمحات والسبحات الكونية فى مفاتح عدد من السور وفى ثناياها : « فلاأقسم بالخنس . الجوار الكنس . والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس » .. « فلاأقسم بالشفق ، والليل وماوسق .والقمر إذا اتسق » . . « والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر . والليل إذا يسر » .. « والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها . والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها والسماء ومابناها . والأرض وماطحاها . ونفس وماسواها . فألهمها فجورها وتقواها » . . « والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى . وماخلق الذكر والأنثى » .. « والضحى . والليل إذا سجى » . .

الخ . . الخ . .

وفى الجزء كله تركيز على النشأة الأولى للإنسان والأحياء الأخرى فى هـذه الأرض من نبات وحيوان . وعلى مشاهد هـذا الكون وآياته فى كتابه المفتوح . وعلى مشاهد القيامة العنيفة الطامة الصاخة القارعة الغاشية . ومشاهد الحساب والجزاء من نعيم وعذاب فى صور تفزع وتذهل وتزلزل كمشاهد القيامة الكونية فى ضخامتها وهولها .. واتخاذها جميعا دلائل على الخلق والتدبير والنشأة الأخرى وموازينها الحاسمة . مع التقريع بها والتخويف والتحذير .. وأحيانا تصاحبها صور من مصارع الغابرين من المكذبين . والأمثلة على هذا هى الجزء كله . ولكنا نشير إلى بعض النماذج فى هذا التقديم :

هذه السورة ـ سورة النبأ ـ كلها نموذج كامل لهذا التركيز على هذه الحقائق والمشاهد . ومثلها سورة « النازعات » . وسورة « عبس » تحتوى مقدمتها إشارة إلى حادث معين من حوادث الدعوة . . وبقيتها كلها حديث عن نشأة الحياة الإنسانية والحياة النباتية ثم عن الصاخة : « يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه ، وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه . وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة » . وسورة « التكوير » وهى تصور مشاهد الانقلاب الكونى الهائلة فى ذلك اليوم، مع عرض مشاهد كونية موحية فى صدد القسم على حقيقة الوحى وصدق الرسول . . وسورة

Marfat.com

«الانفطار» كذلك فى عرض مشاهد الانقلاب مع مشاهد النعيم والعذاب ، وهز الضمير البشرى أمام هذه وتلك : « ياأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم . . . الخ » وسورة « الانشقاق » وهى تعرض مشاهد الانقلاب الكونى ومشاهد النعيم والعذاب . . وسورة « البروج » وهى تلقى إيقاعات سريعة حول مشاهد الكون ومشاهد اليوم بصدد إشارة إلى تعذيب الكفار لجماعة من المؤمنين فى الدنيا بالنار . وعذاب الله لأولئك الكفار فى الآخرة بالنار . وهو أشد وأنكى . .

وسورة « الطارق » . . وهى تعرض مشاهد كونية مع نشأة الإنسان ونشأة النبات للقسم بالجميع : « إنه لقول فصل ، وما هو بالهزل » . . وسورة « الأعلى » وتتحدث عن الخلق والتسوية والتقدير والهداية ، وإخراج المرعى وأطواره تمهيداً للحديث عن الذكر والآخرة والحساب والجزاء .. وسورة « الغاشية » . . وهى تصوير لمشاهد النعيم والعذاب . ثم توجيه إلى خلق الإبل والسماء والأرض والجبال . . وهكذا . . وهكذا . . إلى نهاية الجزء باستثناء سور قليلة تتحدث عن حقائق العقيدة ومنهج الإيمان . كسورة الإخلاص . وسورة الكافرون . وسورة الماعون . وسورة العصر . وسورة القدر . وسورة النصر . أو تسرى عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتواسيه وتوجهه إلى الاستعاذة بربه من كل شر ، كسورة الضحى . والانشراح . والكوثر . والفلق . والناس . . وهى سور قليلة على كل حال .

* * *

وهناك ظاهرة أخرى فى الأداء التعبيرى لهذا الجزء . هناك أناقة واضحة فى التعبير ، مع اللمسات المقصودة لمواطن الجمال فى الوجود والنفوس ، وافتنان مبدع فى الصور والظلال والإيقاع الموسيقى والقوافى والفواصل ، تتناسق كلها مع طبيعته فى خطاب الغافلين النائمين السادرين ، لإيقاظهم واجتذاب حسهم وحواسهم بشتى الألوان وشتى الإيقاعات وشتى المؤثرات . . يتجلى هـذا كله بصورة واضحة فى مثل تعبيره اللطيف عن النجوم التى تخنس وتتوارى كالظباء فى كناسها وتبرز ، وعن الليل وكأنه حى يسى فى الظلام ، والصبح وكأنه حى يتنفس بالنور : « فلا أقسم بالخنس ، الجوارى الكنس ؛ والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس » وفى عرضه لمشاهد الغروب والليل والقمر : « فلا أقسم بالشفق . والليل وماوسق ، والقمر إذا اتسق » . أو لمشاهد الفجر والليل وهو يتمشى ويسرى : « والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر . والليل

Marfat.com

إذا يسر » . « والضحى . والليل إذا سجى » . وفى خطابه للوحى للقلب البشرى : « ياأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم ؟ الذى خلقك فسواك فعدلك . . » وفى وصف الجنة: « وجوه يومئذ ناعمة، لسعيها راضية، فى جنة عالية ، لاتسمع فيها لاغية ... » ووصف النار : « وأما من خفت موازينه فأمه هاوية .وما أدراك ماهيه ؟ نار حامية ! » . . والأناقه فى التعبير واضحة وضوح القصد فى اللمسات الجمالية لمشاهد الكون وخوالج النفس .

والعدول أحيانا عن اللفظ المباشر إلى الكناية ، وعن اللفظ القريب إلى الاشتقاق البعيد ، لتحقيق التنغيم المقصود ، مما يؤكد هذه اللفتة خلال الجزء كله على وجه التقريب . .

وهذه السورة نموذج لاتجاه هـذا الجزء بموضوعاته وحقائقه وإيقاعاته ومشاهده وصوره وظلاله وموسيقاه ولمساته فى الكون والنفس ، والدنيا والآخرة ؛ واختيار الألفاظ والعبارات لتوقع أشد إيقاعاتها أثرا فى الحس والضمير .

وهى تفتتح بسؤال موح مثير للاستهوال والاستعظام وتضخيم الحقيقة التى يختلفون عليها ، وهى أمر عظيم لا خفاء فيه ، ولا شبهة ؛ ويعقب على هذا بتهديدهم يوم يعلمون حقيقته : « عم يتساءلون ؟ عن النبأ العظيم ، الذى هم فيه مختلفون . كلا سيعلمون . ثم كلا سيعلمون ! » . .

ومن ثم يعدل السياق عن المعنى فى الحديث عن هذا النبأ ويدعه لحينه ، ويلفتهم إلى ماهو واقع بين أيديهم وحولهم ، فى ذوات أنفسهم وفى الكون حولهم من أمر عظيم ، يدل على ماوراءه ويوحى بما سيتلوه : « ألم نجعل الأرض مهادا ، والجبال أوتادا ؟ وخلقناكم أزواجا ؟ وجعلنا نومكم سباتا ؟ وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا ؟ وبنينا فوقكم سبعا شدادا ؟ وجعلنا سراجا وهاجا ؟ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ؟ لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا ؟» .

ومن هذا الحشد من الحقائق والمشاهد والصور والإيقاعات يعود بهم إلى ذلك النبأ العظيم الذى هم فيه مختلفون ،والذى هددهم به يوم يعلمون ! ليقول لهم ماهو ؟ وكيف يكون : « إن يوم الفصل كان ميقاتا . يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا . وفتحت السماء فكانت أبوابا . وسيرت الجبال فكانت سرابا » . .

ثم مشهد العذاب بكل قوته وعنفه : « إن جهنم كانت مرصادا ، للطاغين مآبا ، لابثين فيها أحقابا ، لايذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا . جزاء وفاقا . إنهم كانوا لايرجون حسابا ، وكذبوا بآياتنا كذابا ، وكل شىء أحصيناه كتابا . فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا » . .

Marfat.com

ومشهد النعيم كذلك وهو يتدفق تدفقا : « إن للمتقين مفازا : حدائق وأعنابا ، وكواعب أترابا ، وكأسا دهاقا ، لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا . جزاء من ربك عطاء حسابا » .

وتختم السورة بإيقاع جليل فى حقيقته وفى المشهد الذى يعرض فيه . وبإنذار وتذكير قبل أن يجىء اليوم الذى يكون فيه هذا المشهد الجليل : « رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمان لا يملكون منه خطابا . يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمان وقال صوابا . ذلك اليوم الحق . فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا . إنا أنذرناكم عذابا قريبا . يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ، ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا » . .

ذلك هو النبأ العظيم . الذى يتساءلون عنه . وذلك ماسيكون يوم يعلمون ذلك النبأ العظيم !

* * *

« عم يتساءلون ؟ عن النبأ العظيم . الذى هم فيه مختلفون . كلا ! سيعلمون . ثم كلا ! سيعلمون » . . مطلع فيه استنكار لتساؤل المتسائلين ، وفيه عجب أن يكون هذا الأمر موضع تساؤل . وقد كانوا يتساءلون عن يوم البعث ونبأ القيامة . وكان هو الأمر الذى يجادلون فيه أشد الجدل ، ولا يكادون يتصورون وقوعه ، وهو أولى شىء بأن يكون !

« عم يتساءلون ؟ » .. وعن أى شىء يتحدثون ؟ ثم يجيب . فلم يكن السؤال بقصد معرفة الجواب منهم . إنما كان للتعجيب من حالهم وتوجيه النظر إلى غرابة تساؤلهم ، بكشف الأمر الذى يتساءلون عنه وبيان حقيقته وطبيعته :

« عن النبإ العظيم ، الذى هم فيه مختلفون » . . ولم يحدد ما يتساءلون عنه بلفظه ، إنما ذكره بوصفه . . النبأ العظيم . . استطرادا فى أسلوب التعجيب والتضخيم .. وكان الخلاف على اليوم بين الذين آمنوا به والذين كفروا بوقوعه . أما التساؤل فكان من هؤلاء وحدهم .

ثم لا يجيب عن التساؤل ، ولا يدلى بحقيقة النبأ المسؤول عنه . فيتركه بوصفه .. العظيم .. . وينتقل إلى التلويح بالتهديد الملفوف ، وهو أوقع من الجواب المباشر ، وأعمق فى التخويف :

« كلا ! سيعلمون . ثم كلا ! سيعلمون » .. ولفظ كلا ، يقال فى الردع والزجر فهو أنسب هنا للظل الذى يراد إلقاؤه . وتكراره وتكرار الجملة كلها فيه من التهديد مافيه .

* * *

Marfat.com

ثم يبعد فى ظاهر الأمر عن موضوع ذلك النبأ العظيم الذى هم فيه مختلفون . ليلتقى به بعد قليل . يبعد فى جولة قريبة فى هـذا الـكون المنظور مع حشد من الـكائنات والظواهر والحقائق والمشاهد ، تهز الـكيان حين يتدبرها الجنان :

« ألم نجعل الأرض مهادا ؟ والجبال أوتادا ؟ وخلقناكم أزواجا ؟ وجعلنا نومكم سباتا ؟ وجعلنا الليل لباسا ؟ وجعلنا النهار معاشا ؟ وبنينا فوقـكم سبعا شدادا ؟ وجعلنا سراجا وهاجا ؟ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ؟ لنخرج به حبا ونباتا ، وجنات ألفافا ؟ » ..

وهـذه الجولة التى تتنقل فى أرجاء هذا الـكون الواسع العريض ، مع هذا الحشد الهائل من الصور والمشاهد ، تذكر فى حيز ضيق مكتنز من الألفاظ والعبارات ، مما يجعل إيقاعها فى الحس حادا ثقيلا نفاذا ، كأنه المطارق المتوالية ، بلافتور ولاانقطاع ! وصيغة الاستفهام الموجهة إلى المخاطبين ـ وهى فى اللغة تفيد التقرير ـ صيغة مقصودة هنا . وكأنما هى يد قوية تهز الغافلين ، وهى توجه أنظارهم وقلوبهم إلى هذا الحشد من الخلائق والظواهر التى تشى بما وراءها من التدبير والتقدير ، والقدرة على الإنشاء والإعادة ، والحـكمة التى لاتدع أمر الخلائق سدى بلا حساب ولاجزاء . . ومن هنا تلتقى بالنبإ العظيم الذى هم فيه مختلفون !

واللمسة الأولى فى هذه الجولة عن الأرض والجبال :

« ألم نجعل الأرض مهادا ، والجبال أوتادا ؟ » . .

والمهاد : الممهد للسير.. والمهاد اللين كالمهد . . وكلاهما متقارب . وهى حقيقة محسوسة للإنسان فى أى طور من أطوار حضارته ومعرفته . فلاتحتاج إلى علم غزير لإدراكها فى صورتها الواقعية . وكون الجبال أوتادا ظاهرة تراها العين كذلك حتى من الانسان البدائى ؛ وهـذه وتلك ذات وقع فى الحس حين توجه إليها النفس .

غير أن هذه الحقيقة أكبر وأوسع مدى مما يحسها الإنسان البدائى لأول وهلة بالحس المجرد. وكلما ارتقت معارف الإنسان وازدادت معرفته بطبيعة هذا الـكون وأطواره ، كبرت هذه الحقيقة فى نفسه ؛ وأدرك من ورائها التقدير الإلهى العظيم والتدبير الدقيق الحـكيم، والتنسيق بين أفراد هـذا الوجود وحاجاتهم ؛ وإعداد هذه الأرض لتلقى الحياة الإنسانية وحضانتها ؛ وإعداد هذا الإنسان للملاءمة مع البيئة والتفاهم معها .

وجعل الأرض مهادا للحياة ـ وللحياة الإنسانية بوجه خاص ـ شاهد لايمارى فى شهادته

Marfat.com

بوجود العقل المدبر من وراء هذا الوجود الظاهر . فاختلال نسبة واحدة من النسب الملحوظة في خلق الأرض هكذا بجميع ظروفها . أو اختلال نسبة واحدة من النسب الملحوظة في خلق الحياة لتعيش في الأرض . . الاختلال هنا أو هناك لايجعل الأرض مهادا ؛ ولا يبقى هذه الحقيقة التي يشير إليها القرآن هذه الإشارة المجملة ، ليدركها كل إنسان وفق درجة معرفته ومداركه . .

وجعل الجبال أوتادا . . يدركه الإنسان من الناحية الشكلية بنظره المجرد ، فهي أشبه شيء بأوتاد الخيمة التي تشد إليها . أما حقيقتها فتتلقاها من القرآن ، وندرك منه أنها تثبت الأرض وتحفظ توازنها . . وقد يكون هذا لأنها تعادل بين نسب الأغوار في البحار ونسب المرتفعات في الجبال . . وقد يكون لأنها تعادل بين التقلصات الجوفية للأرض والتقلصات السطحية، وقد يكون لأنها تثقل الأرض في نقط معينة فلا تميد بفعل الزلازل والبراكين والاهتزازات الجوفية . . وقد يكون لسبب آخر لم يكشف عنه بعد . . وكم من قوانين وحقائق مجهولة أشار إليها القرآن الكريم . ثم عرف البشر طرفا منها بعد مئات السنين !

واللمسة الثانية في ذوات النفوس ، في نواحي وحقائق شتى :

« وخلقناكم أزواجا » . .

وهي ظاهرة كذلك ملحوظة يدركها كل إنسان بيسر وبساطة . . فقد خلق الله الإنسان ذكرا وأنثى، وجعل حياة هذا الجنس وامتداده قائمة على اختلاف الزوجين والتقائهما . وكل إنسان يدرك هذه الظاهرة ، ويحس ما وراءها من راحة ولذة ومتاع وتجدد بدون حاجة إلى علم غزير . ومن ثم يخاطب بها القرآن الإنسان في أية بيئة فيدركها ويتأثر بها حين يتوجه تأمله إليها ، ويحس مافيها من قصد ومن تنسيق وتدبير .

ووراء هذا الشعور المبهم بقيمة هذه الحقيقة وعمقها ، تأملات أخرى حين يرتقي الإنسان في المعرفة وفي الشعور أيضا . . هنالك التأمل في القدرة المدبرة التي تجعل من نطفة ذكرا ، وتجعل من نطفة أنثى ، بدون مميز ظاهر في هذه النطفة أو تلك ، يجعل هذه تسلك طريقها لتكون ذكرا ، وهذه تسلك طريقها لتكون أنثى . . اللهم إلا إرادة القدرة الخالقة وتدبيرها الخفي ، وتوجيهها اللطيف ، وإيداعها الخصائص التي تريدها هي لهذه النطفة وتلك ، لتخلق منهما زوجين تنمو بهما الحياة وترقى !

Marfat.com

« وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا » ..

وكان من تدبير الله للبشر أن جعل النوم سباتا يدركهم فيقطعهم عن الإدراك والنشاط ؛ ويجعلهم فى حالة لاهى موت ولا هى حياة ، تتكفل بإراحة أجسادهم وأعصابهم وتعويضها عن الجهد الذى بذلته فى حالة الصحو والإجهاد والانشغال بأمور الحياة . . وكل هذا يتم بطريقة عجيبة لايدرك الإنسان كنهها ، ولا نصيب لإرادته فيها ؛ ولا يمكن أن يعرف كيف تتم فى كيانه. فهو فى حالة الصحو لايعرف كيف يكون وهو فى حالة النوم . وهو فى حالة النوم لايدرك هذه الحالة ولا يقدر على ملاحظتها ! وهى سر من أسرار تكوين الحى لايعلمه إلا من خلق هذا الحى وأودعه ذلك السر ؛ وجعل حياته متوقفة عليه . فما من حى يطيق أن يظل من غير نوم إلا فترة محدودة . فإذا أجبر إجبارا بوسائل خارجة عن ذاته كى يظل مستيقظا فإنه يهلك قطعا.

وفى النوم أسرار غير تلبية حاجة الجسد والأعصاب . . إنه هدنة الروح من صراع الحياة العنيف ، هدنة تلم بالفرد فيلقى سلاحه وجنته ـ طائعا أو غيرطائع ـ ويستسلم لفترة من السلام الآمن، السلام الذى يحتاجه الفرد حاجته إلى الطعام والشراب . ويقع مايشبه المعجزات فى بعض الحالات حيث يلم النعاس بالأجفان ، والروح مثقل ، والأعصاب مكدودة ، والنفس مزعجة ، والقلب مروع . وكأنما هذا النعاس ـ وأحيانا لايزيد على لحظات ـ انقلاب تام فى كيان هذا الفرد . وتجديد كامل لاقواه بل له هو ذاته ، وكأنما هو كائن حين يصحو جديد .. ولقد وقعت هذه المعجزة بشكل واضح للمسلمين المجهودين فى غزوة بدر وفى غزوة أحد ، وامتن الله عليهم بها . وهو يقول : « إذ يغشيكم النعاس أمنة منه » .. « ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم » .. كما وقعت للكثيرين فى حالات مشابهة !

فهذا السبات : أى الانقطاع عن الإدراك والنشاط بالنوم ضرورة من ضرورات تكوين الحى ؛ وسر من أسرار القدرة الخالقة ؛ ونعمة من نعم الله لايملك إعطاءها إلا إياه . وتوجيه النظر إليها على هذا النحو القرآنى ينبه القلب إلى خصائص ذاته ، وإلى اليد التى أودعتها كيانه ، ويلمسه لمسة تثير التأمل والتدبر والتأثر .

وكان من تدبير الله كذلك أن جعل حركة الكون موافقة لحركة الأحياء . وكما أودع الإنسان سر النوم والسبات ، بعد العمل والنشاط ، فكذلك أودع الكون ظاهرة الليل ليكون لباسا ساترا يتم فيه السبات والانزواء . وظاهرة النهار ليكون معاشا تتم فيه الحركة

Marfat.com

والنشاط .. بهذا توافق خلق الله وتناسق . وكان هذا العالم بيئة مناسبة للأحياء . تلبى ماركب فيهم من خصائص . وكان الأحياء مزودين بالتركيب المتفق فى حركته وحاجاته مع ماهو مودع فى الكون من خصائص وموافقات . وخرج هذا وهذا من يد القدرة المبدعة المدبرة متسقا أدق اتساق !

واللمسة الثالثة فى خلق السماء متناسقة مع الأرض والأحياء :

« وبنينا فوقكم سبعا شدادا . وجعلنا سراجا وهاجا . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا . لنخرج به حبا ونباتا ، وجنات ألفافا » . .

والسبع الشداد التى بناها الله فوق أهل الأرض هى السماوات السبع ، وهى الطرائق السبع فى موضع آخر .. والمقصود بها على وجه التحديد يعلمه الله .. فقد تكون سبع مجموعات من المجرات ـ وهى مجموعات من النجوم قد تبلغ الواحدة منها مائة مليون نجم ـ وتكون السبع المجرات هذه هى التى لها علاقة بأرضنا أو بمجموعتنا الشمسية . . وقد تكون غير هذه وتلك مما يعلمه الله من تركيب هذا الكون ، الذى لايعلم الإنسان عنه إلا القليل .

إنما تشير هذه الآية إلى أن هذه السبع الشداد متينة التكوين ، قوية البناء ، مشدودة بقوة تمنعها من التفكك والانثناء . وهو ماتراه ونعلمه من طبيعة الأفلاك والأجرام فيما نطلق عليه لفظ السماء فيدركه كل إنسان . . كما تشير إلى أن بناء هذه السبع الشداد متناسق مع عالم الأرض والإنسان . ومن ثم يذكر فى معرض تدبير الله وتقديره لحياة الأرض والإنسان . يدل على هذا مابعده : « وجعلنا سراجا وهاجا » .. وهو الشمس المضيئة الباعثة للحرارة التى تعيش عليها الأرض ومافيها من الأحياء . والتى تؤثر كذلك فى تكوين السحائب بتبخير المياه من المحيط الواسع فى الأرض ورفعها إلى طبقات الجو العليا وهى المعصرات : « وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا » .. حين تعصر فتخر وتساقط مافيها من الماء . ومن يعصرها ؟ قد تكون هى الرياح . وقد يكون هو التفريغ الكهربائى فى طبقات الجو . ومن وراء هذه وتلك يد القدرة التى توزع الكون هذه المؤثرات ! وفى السراج وقد وحرارة وضوء .. وهو مايتوافر فى الشمس . فاختيار كلمة « سراج » دقيق كل الدقة ومختار ..

ومن السراج الوهاج وما يسكبه من أشعة فيها ضوء وحرارة ، ومن المعصرات ومايعتصر منها من ماء ثجاج ، ينصب دفعة بعد دفعة كلما وقع التفريغ الكهربائى مرة بعد مرة ، وهو

Marfat.com

الثجاج ، من هـذا الماء مع هذا الإشعاع يخرج الحب والنبات الذى يؤكل هو ذاته ، والجنات الالفاف الـكثيفة الـكثيرة الأشجار الملتفة الأغصان .

وهذا التناسق فى تصميم الـكون ، لايكون إلا ووزاءيد تنسقه ، وحكمة تقدره ، وإرادة تدبره . يدرك هـذا بقلبه وحسه كل إنسان حين توحه مشاعره هذا التوجيه ، فإذا ارتقى فى العلم والمعرفة تكشفت له من هذا التناسق آفاق ودرجات تذهل العقول وتحير الألباب . وتجعل القول بأن هذا كله مجرد مصادفة قولا تافها لا يستحق المناقشة . كما تجعل التهرب من مواجهة حقيقة القصد والتدبير فى هذا الـكون ، مجرد تعنت لا يستحق الاحترام !

إن لهذا الـكون خالقا ، وإن وراء هذا الـكون تدبيرا وتقديرا وتنسيقا . وتوالى هذه الحقائق والمشاهد فى هذا النص القرآنى على هذا النحو: من جعل الأرض مهادا والجبال أوتادا . وخلق الناس أزواجا . وجعل نومهم سباتا (بعد الحركة والوعى والنشاط) مع جعل الليل لباسا للستر والانزواء ، وجعل النهار معاشا للوعى والنشاط . ثم بناء السبع الشداد . وجعل السراج الوهاج . وإنزال المـاء الثجاج من المعصرات . لإنبات الحب والنبات والجنات. .توالى هذه الحقائق والمشاهد على هذا النحو يوحى بالتناسق الدقيق ، ويشى بالتدبير والتقدير ، ويشعر بالخالق الحـكيم القدير . ويلمس القلب لمسات موقظة موحية بمـا وراء هـذه الحياة من قصد وغاية . . ومن هنا يلتقى السياق بالنبأ العظيم الذى هم فيه مختلفون !

* * *

ولقد كان ذلك كله للعمل والمتاع . ووراء هـذا كله حساب وجزاء . ويوم الفصل هو الموعد الموقوت للفصل :

« إن يوم الفصل كان ميقاتا . يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا . وفتحت السماء فكانت أبوابا . وسيرت الجبال فكانت سرابا » . .

إن الناس لم يخلقوا عبثا ، ولن يتركوا سدى . والذى قدر حياتهم ذلك التقدير الذى يشى به المقطع الماضى فى السياق ، ونسق حياتهم مع الـكون الذى يعيشون فيـه ذلك التنسيق ، لا يمكن أن يدعهم يعيشون سدى ويموتون هملا ! ويصلحون فى الأرض أو يفسدون ثم يذهبون فى التراب ضياعا ! ويهتدون فى الحياة أو يضلون ثم يلقون مصيرا واحدا . ويعدلون فى الأرض أو يظلمون ثم يذهب العدل والظلم جميعا !

Marfat.com

إن هنالك يوما للحكم والفرقان والفصل فى كل ما كان . وهو اليـوم المرسوم الموعود الموقوت بأجل عند الله معلوم محدود :

« إن يوم الفصل كان ميقاتا » ..

وهو يوم ينقلب فيه نظام هذا الكون وينفرط فيه عقد هذا النظام .

« يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا . وفتحت السماء فكانت أبوابا ، وسيرت الجبال فكانت سرابا » ..

والصور : البوق . ونحن لاندرى عنه إلا اسمه . ولا نعلم إلا أنه سينفخ فيه . وليس لنا أن نشغل أنفسنا بكيفية ذلك . فهى لا تزيدنا إيمانا ولا تأثرا بالحادث . وقد صان الله طاقتنا عن أن تتبدد فى البحث وراء هذا الغيب المكنون ، وأعطانا منه القدر الذى ينفعنا فلا نزيد ! إنما نحن نتصور النفخة الباعثة المجمعة التى يأتى بها الناس أفواجا . . نتصور هـذا المشهد والخلائق التى توارت شخوصها جيلا بعـد جيل ، وأخلت وجه الأرض لمن يأتى بعدها كى لا يضيق بهم وجه الأرض المحدود . . نتصور مشهد هذه الخلائق جميعا . . أفواجا .. مبعوثين قائمين آتين من كل فج إلى حيث يحشرون . ونتصور الأجداث المبعثرة وهذه الخلائق منها قائمة . ونتصور الجموع الحاشدة لا يعرف أولها آخرها . ونتصور هـذا الهول الذى تثيره تلك الحشود التى لم تتجمع قط فى وقت واحد وفى ساعة واحدة إلا فى هذا اليوم .. أين ؟ لاندرى .. ففى هـذا الكون الذى نعرفه أحداث وأهوال جسام :

« وفتحت السماء فكانت أبوابا . وسيرت الجبال فكانت سرابا » . .

السماء المبنية المتينة .. فتحت فكانت أبوابا .. فهى منشقة . منفرجة . كما جاء فى مواضع وسور أخرى . على هيئة لاعهد لنا بها . والجبال الرواسى الأوتاد سيرت فكانت سرابا . فهى مدكوكة مبسوسة مثارة فى الهواء هباء ، يحركه الهواء ـ كما جاء فى مواضع وسور أخرى . ومن ثم فلا وجود لها كالسراب الذى ليس له حقيقة . أو إنها تنعكس إليها الأشعة وهى هباء فتبدو كالسراب !

إنه الهول البادى فى انقلاب الكون المنظور ، كالهول البادى فى الحشر بعـد النفخ فى الصور . وهذا هو يوم الفصل المقدر بحكمة وتدبير ..

* * *

Marfat.com

ثم يمضى السياق خطوة وراء النفخ والحشر ، فيصور مصير الطغاة ومصير التقاة . بادئا بالأولين المكذبين المتساءلين عن النبأ العظيم :

« إن جهنم كانت مرصادا ، للطاغين مآبا ، لابثين فيها أحقابا . لايذوقون فيها بردا ولا شرابا ، إلا حميما وغساقا . جزاء وفاقا . إنهم كانوا لايرجون حسابا ، وكذبوا بآياتنا كذابا . وكل شىء أحصيناه كتابا . فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا » ..

إن جهنم خلقت ووجدت وكانت مرصادا للطاغين تنتظرهم وترقبهم وينتهون إليها فإذا هى معدة لهم ، مهيأة لاستقبالهم. وكأنما كانوا فى رحلة فى الأرض ثم آبوا إلى مأواهم الأصيل اوهم يردون هذا المآب للإقامة الطويلة المتجددة أحقابا بعد أحقاب :

« لايذوقون فيها بردا ولاشرابا » .. ثم يستثنى .. فإذا الاستثناء أمرّ وأدهى : « إلا حميما وغساقا » .. إلا الماء الساخن يشوى الحلوق والبطون . فهذا هو البرد ! وإلا الغساق الذى يغسق من أجساد المحروقين ويسيل . فهذا هو الشراب !

« جزاء وفاقا » .. يوافق ماأسلفوا وما قدموا .. « إنهم كانوا لايرجون حسابا » .. ولا يتوقعون مآبا .. « وكذبوا بآياتنا كذابا » . . وجرس اللفظ فيه شدة توحى بشدة التكذيب وشدة الإصرار عليه .

بينما كان الله يحصى عليهم كل شىء إحصاء دقيقا لايفلت منه حرف : « وكل شىء أحصيناه كتابا » . .

هنا يجىء التأنيب اليئس من كل رجاء فى تغيير أو تخفيف : « فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا » . .

* * *

ثم يعرض المشهد المقابل : مشهد التقاة فى النعيم . بعد مشهد الطغاة فى الجحيم :

« إن للمتقين مفازا . حدائق وأعنابا . وكواعب أترابا . وكأسا دهاقا . لايسمعون فيها لغوا ولا كذابا . . جزاء من ربك عطاء حسابا » . .

فإذا كانت جهنم هناك مرصدا ومآبا للطاغين ، لايفلتون منها ولا يتجاوزونها ، فإن المتقين ينتهون إلى مفازة ومنجاة ، تتمثل « حدائق وأعنابا » ويخص الأعناب بالذكر والتعيين لأنها مما يعرفه المخاطبون . . « وكواعب » وهن الفتيات الناهدات اللواتى استدارت ثديهن « أترابا » متوافيات السن والجمال . « وكأسا دهاقا » مترعة بالشراب .

Marfat.com

وهى مناعم ظاهرها حسى ، لتقريبها للتصور البشرى . أماحقيقة مذاقها والمتاع بها فلا يدركها أهل الأرض وهم مقيدون بمدارك الأرض وتصوراتها . . وإلى جوارها حالة يتذوقها الضمير ويدركها الشعور : « لايسمعون فيها لغوا ولا كذابا » .. فهى حياة مصونة من اللغو ومن التكذيب الذى يصاحبه الجدل ؛ فالحقيقة مكشوفة لامجال فيها لجدل ولاتذيب ؛ كما أنه لامجال للغو الذى لاخير فيه .. وهى حالة من الرفعة والمتعة تليق بدار الخلود . .

« جزاء من ربك عطاء حسابا » . . ونلمح هنا ظاهرة الأناقة فى التعبير والموسيقى فى التقسيم بين « جزاء » و « عطاء » . . كما نلمحها فى الإيقاع المشدود فى الفواصل كلها على وجه التقريب .. وهى الظاهرة الواضحة فى الجزء كله إجمالا .

* * *

وتكملة لمشاهد اليوم الذى يتم فيه ذلك كله ،والذى يتساءل عنه المتسائلون ، ويختلف فيه المختلفون . يجىء المشهد الختامى فى السورة ، حيث يقف جبريل « عليه السلام » والملائكة صفا بين يدى الرحمان خاشعين . لا يتكلمون ـ إلا من أذن له الرحمان ـ فى الموقف المهيب الجليل :

« رب السماوات والأرض ومابينهما الرحمان لايملكون منه خطابا . يوم يقوم الروح والملائكة صفا لايتكلمون إلامن أذن له الرحمان وقال صوابا » . .

ذلك الجزاء الذى فصله فى المقطع السابق : جزاء الطغاة وجزاء التقاة . هذا الجزاء « من ربك » .. « رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمان » .. فهى المناسبة المهيأة لهذه اللمسة ولهذه الحقيقة الكبيرة . حقيقة الربوبية الواحدة التى تشمل الإنسان كما تشمل السماوات والأرض ، وتشمل الدنيا والآخرة ، وتجازى على الطغيان والتقوى ، وتنتهى إليها الآخرة والأولى . . ثم هو « الرحمان » . . ومن رحمته ذلك الجزاء لهؤلاء وهؤلاء . حتى عذاب الطغاة ينبثق من رحمة الرحمان . ومن الرحمة أن يجد الشر جزاءه وألايتساوى مع الخير فى مصيره !

ومع الرحمة الجلال : « لايملكون منه خطابا » .. فى ذلك اليوم المهيب الرهيب : يوم يقف جبريل ـ عليه السلام ـ والملائكة الآخرون « صفا لايتكلمون » .. إلابإذن من الرحمان حيث يكون القول صوابا . فما يأذن الرحمان به إلا وقد علم أنه صواب .

* * *

Marfat.com

و موقف هؤلاء المقربين إلى الله ، الأبرياء من الذنب والمعصية . موقفهم هكذا صامتين لايتكلمون إلا بإذن وبحساب .. يغمر الجو بالروعة والرهبة والجلال والوقار . وفى ظل هـذا المشهد تنطلق صيحة من صيحات الإنذار ، وهزة للنائمين السادرين فى الخمار :

« ذلك اليوم الحق . فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا . إنا أنذرناكم عذابا قريبا : يوم ينظر المرء ماقدمت يداه . ويقول الكافر : ياليتنى كنت ترابا » ..

إنها الهزة العنيفة لأولئك الذين يتساءلون فى ارتياب : « ذلك اليوم الحق » .. فلا مجال للتساؤل والاختلاف .. والفرصة ماتزال سانحة ! « فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا » .. قبل أن تكون جهنم مرصادا ومآبا !

وهو الإنذار الذى يوقظ من الخمار : « إنا أنذرناكم عذابا قريبا » . . ليس بالبعيد ، فجهنم تنتظركم وترصد لكم . على النحو الذى رأيتم . والدنيا كلها رحلة قصيرة ، وعمر قريب !

وهو عـذاب من الهول بحيث يدع الكافر يؤثر العدم على الوجود : « يوم ينظر المرء ماقدمت يداه . ويقول الكافر : ياليتنى كنت ترابا » .. وما يقولها إلا وهو ضائق مكروب !

وهو تعبير يلقى ظلال الرهبة والندم ، حتى ليتمنى الكائن الإنسانى أن ينعدم . ويصير إلى عنصر مهمل زهيد . ويرى هذا أهون من مواجهة الموقف الرعيب الشديد .. وهو الموقف الذى يقابل تساءل المتسائلين وشك المتشككين . فى ذلك النبأ العظيم ! ! !

Marfat.com

سُورَةُ النازِعاتِ مكيّة
وآياتها ٤٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ : أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ؟ * أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ؟ * قَالُوا : تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ .

« هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ؟ * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُلْ : هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ ؟ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ؟ * فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ * فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ * فَحَشَرَ فَنَادَىٰ * فَقَالَ : أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ .

« أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ؟ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ .

« فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَىٰ * فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ .

Marfat.com

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ : أَيَّانَ مُرْسَاهَا ؟ * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ؟ * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا » ﴿٤٦﴾.

هـذه السورة نموذج من نماذج هذا الجزء لإشعار القلب البشرى حقيقة الآخرة ، بهولها وضخامتها ، وجديتها ، وأصالتها فى التقدير الإلهى لنشأة هـذا العالم الإنسانى ، والتدبير العلوى لمراحل هـذه النشأة وخطواتها على ظهر الأرض وفى جوفها ؛ ثم فى الدار الآخرة ، التى تمثل نهاية هذه النشأة وعقباها .

وفى الطريق إلى إشعار القلب البشرى حقيقة الآخرة الهائلة الضخمة العظيمة الـكبيرة يوقع السياق إيقاعات منوعة على أوتار القلب ، ويلمسه لمسات شتى حول تلك الحقيقة الـكبرى. وهى إيقاعات ولمسات تمت إليها بصلة . فتلك الحقيقة تمهـد لها فى الحس وتهيئه لاستقبالها فى يقظة وفى حساسية ..

يمهد لها بمطلع غامض الـكنه يثير بغموضه شيئا من الحدس والرهبة والتوجس . يسوقه فى إيقاع موسيقى راجف لاهث ، كأنما تنقطع به الأنفاس من الذعر والارتجاف والمفاجأة والانبهار : « والنازعات غرقا . والناشطات نشطا . والسابحات سبحا . فالسابقات سبقا . فالمدبرات أمرا » . .

وعقب هذا المطلع الغامض الراجف الواجف يجىء المشهد الأول من مشاهد ذلك اليوم . ظله من ظل ذلك المطلع وطابعه من طابعه ؛ كأنما للمطلع إطار له وغلاف يدل عليـه : « يوم ترجف الراجفـة تتبعها الرادفة . قلوب يومئذ واجفـة . أبصارها خاشعة . يقولون : أئنا لمردودون فى الحافرة ؟ أئذا كنا عظاما نخرة ؟ قالوا : تلك إذن كرة خاسرة ! فإنما هى زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة » . .

ومن هنالك .. من هذا الجو الراجف الواجف المبهور المذعور . . يأخذ فى عرض مصرع من مصارع المـكذبين العتاة فى حلقة من قصـة موسى مع فرعون . فيهـدأ الإيقاع الموسيقى ويسترخى شيئا ما ، ليناسب جو الحـكاية والعرض : « هل أتاك حديث موسى . إذ ناداه ربه

Marfat.com

بالواد المقدس طوى : اذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل : هل لك إلى أن تزكى ؟ وأهديك إلى ربك فتخشى؟ فأراه الآية الكبرى ، فكذب وعصى ، ثم أدبر يسعى ، فحشر فنادى، فقال : أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى » . . وبهذا يلتقى ويمهد لتلك الحقيقة الكبرى .

ثم ينتقل من ساحة التاريخ إلى كتاب الكون المفتوح . ومشاهد الكون الهائلة ، الشاهدة بالقوة والتدبير والتقدير للألوهية المنشئة للكون ، المهيمنة على مصائره ، فى الدنيا والآخرة . فيعرضها فى تعبيرات قوية الأسر ، قوية الإيقاع ، تتسق مع مطلع السورة وإيقاعها العام : « أأنتم أشد خلقا أم السماء ؟ بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ؛ والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها ، متاعا لكم ولأنعامكم » . .

وهنا ـ بعد هذه التمهيدات القريبة وهذه اللمسات الموحية ـ يجىء مشهد الطامة الكبرى ، وما يصاحبها من جزاء على ما كان فى الحياة الدنيا . جزاء يتحقق هو الآخر فى مشاهد تتناسق صورها وظلالها مع الطامة الكبرى : « فإذا جاءت الطامة الكبرى ، يوم يتذكر الإنسان ماسعى ، وبرزت الجحيم لمن يرى ! فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا ، فإن الجحيم هى المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » . .

وفى اللحظة التى يغمر الوجدان فيها ذلك الشعور المنبعث من مشاهد الطامة الكبرى ، والجحيم المبرزة لمن يرى ، وعاقبة من طغى وآثر الحياة الدنيا، ومن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى .. فى هذه اللحظة يرتد السياق إلى المكذبين بهذه الساعة ، الذين يسألون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن موعدها . يرتد إليهم بإيقاع يزيد من روعة الساعة وهولها فى الحس وضخامتها : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟ فيم أنت من ذكراها ؟ إلى ربك منتهاها . إنما أنت منذر من يخشاها . كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » .. والهاء الممدودة ذات الإيقاع الضخم الطويل ، تشارك فى تشخيص الضخامة وتجسيم التهويل !

* * *

« والنازعات غرقا . والناشطات نشطا . والسابحات سبحا . فالسابقات سبقا . فالمدبرات أمرا » . قيل فى تفسير هذه الكلمات : إنها الملائكة نازعات للأرواح نزعا شديدا ناشطات

Marfat.com

مطلقات فى حركاتها . سابحات فى العوالم العليا سابقات الإيمان أو للطاعة لأمر ربها مدبرات مايوكل من الأمور إليها ..

وقيل : إنها النجوم تنزع فى مداراتها وتتحرك وتنشط منتقلة من منزل إلى منزل. وتسبح سبحاً فى فضاء الله وهى معلقة به . وتسبق سبقا فى جرياتها ودورانها . وتدبر من النتائج والظواهر ماوكله الله إليها مما يؤثر فى حياة الأرض ومن عليها .

وقيل: النازعات والناشطات والسابحات والسابقات هى النجوم . والمدبرات هى الملائكة.

وقيل : النازعات والناشطات والسابحات هى النجوم . والسابقات والمدبرات هى الملائكة..

وأيا ما كانت مدلولاتها فنحن نحس من الحياة فى الجو القرآنى أن إيرادها على هذا النحو، ينشىء أولا وقبل كل شىء هزة فى الحس ، وتوجسا فى الشعور ، وتوفزاً وتوقعا لشىء يهول ويروع . ومن ثم فهى تشارك فى المطلع مشاركة قوية فى إعداد الحس لتلقى مايروع ويهول من أمر الراجفة والرادفة والطامة الكبرى فى النهاية !

وتمشيا مع هذا الإحساس نؤثر أن ندعها هكذا بدون زيادة فى تفصيل مدلولاتها ومناقشتها ؛ لنعيش فى ظلال القرآن بموحياته وإيحاءاته على طبيعتها . فهزة القلب وإيقاظه هدف فى ذاته ، يجراه الخطاب القرآنى بوسائل شتى .. ثم إن لنا فى عمر ابن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أسوة . وقد قرأ سورة : « عبس وتولى » حتى جاء إلى قوله تعالى : « وفاكهة وأبا » . . فقال : « قد عرفنا الفاكهة . فما الأب ؟ ثم استدرك قائلا : لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف ! وماعليك ألا تعرف لفظا فى كتاب الله تعالى ؟ ! » ... وفى رواية أنه قال : كل هذا قد عرفنا فما الأب ؟ ثم رفض عصا كانت بيده ـ أى كسرها غضبا على نفسه ـ وقال : « هذا لعمر الله التكلف ! وماعليك يا ابن أم عمر أن لاتدرى ماالأب » . ثم قال : « اتبعوا ماتبين لكم من هذا الكتاب ، وما لا ، فدعوه » . . فهذه كلمات تنبعث عن الأدب أمام كلمات الله العظيمة . أدب العبد أمام كلمات الرب . التى قد يكون بقاؤها مغلقة هدفا فى ذاته ، يؤدى غرضا بذاته .

* * *

هذا المطلع جاء فى صيغة القسم ، على أمر تصوره الآيات التالية فى السورة :

« يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة . قلوب يومئذ واجفة . أبصارها خاشعة. يقولون:

Marfat.com

أئنا لمردودون فى الحافرة ؟ أئذا كنا عظاما نخرة ؟ قالوا : تلك إذن كرة خاسرة ! . . فإنما هى زجرة واحدة. فإذاهم بالساهرة » . .

والراجفة ورد أنها الأرض استنادا إلى قوله تعالى فى سورة أخرى : « يوم ترجف الأرض والجبال » .. والرادفة : ورد أنها السماء . أى أنها تردف الأرض وتتبعها فى الانقلاب حيث تنشق وتتناثر كواكبها ..

كذلك ورد أن الراجفة هى الصيحة الأولى ، التى ترجف لها الأرض والجبال والأحياء جميعا، ويصعق لها من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله . والرادفة هى النفخة الثانية التى يصحون عليها ويحشرون (كما جاء فى سورة الزمر آية ٦٨) . .

وسواء كانت هذه أم تلك . فقد أحس القلب البشرى بالزلزلة والرجفة والهول والاضطراب؛ واهتز هزة الخوف والوجل والرعب والارتعاش . وتهيأ لإدراك مايصيب القلوب يومئذ من الفزع الذى لاثبات معه ولاقرار . وأدرك وأحس حقيقة قوله :

« قلوب يومئذ واجفة . أبصارها خاشعة » . .

فهى شديدة الاضطراب ، بادية الذل ، يجتمع عليها الخوف والانكسار ، والرجفة ، والانهيار . وهذا هو الذى يقع يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة ؛ وهذا هو الذى يتناوله القسم بالنازعات نزعا والناشطات نشطا ، والسابحات سبحا ، والسابقات سبقا ، فالمدبرات أمرا . وهو مشهد يتفق فى ظله وإيقاعه مع ذلك المطلع .

ثم يمضى السياق يتحدث عن وهلتهم وانبهارهم حين يقومون من قبورهم فى ذهول :

« يقولون : أئنا لمردودون فى الحافرة ؟ أئذا كنا عظاما نخرة ؟ » . .

فهم يتساءلون : أنحن مردودون إلى الحياة عائدون فى طريقنا الأولى . . يقال : رجع فى حافرته : أى فى طريقه التى جاء منها فهم فى وهلتهم وذهولهم يسألون : إن كانوا راجعين فى طريقهم إلى حياتهم ؟ ويدهشون : كيف يكون هذا بعد إذ كانوا عظاما نخرة . منخوبة يصوت فيها الهواء ؟ !

ولعلهم يفيقون ، أو يُبصرُون ، فيعلمون أنها كرة إلى الحياة ، ولكنها الحياة الأخرى ، فيشعرون بالخسارة والوبال فى هذه الرجعة ، فتند منهم تلك الكلمة :

« قالوا : تلك إذن كرة خاسرة » !

Marfat.com

كرة لم يحسبوا حسابها، ولم يقدموا لها زادها، وليس لهم فيها إلا الخسران الخالص !

هنا ـ فى مواجهة هذا المشهد ـ يعقب السياق القرآنى بحقيقة ماهو كائن :

« فإنما هى زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة » . .

والزجرة : هى الصيحة . ولكنها تقال هنا بهذا اللفظ العنيف تنسيقا لجو المشهد مع مشاهد السورة جميعا . والساهرة هى الأرض البيضاء اللامعة . وهى أرض المحشر ، التى لاندرى نحن أين تكون . والخبر عنها لانعرفه إلا من الخبر الصادق نتلقاه ، فلا نزيد عليه شيئا غير موثوق به ولا مضمون !

وهذه الزجرة الواحدة يغلب ـ بالاستناد إلى النصوص الأخرى ـ أنها النفخة الثانية . نفخة البعث والحشر . والتعبير عنها فيه سرعة . وهى ذاتها توحى بالسرعة . وإيقاع السورة كلها فيه هذا اللون من الإسراع والإيجاف . والقلوب الواجفة تأخذ صفتها هذه من سرعة النبض، فالتناسق ملحوظ فى كل حركة وفى كل لمحة ، وفى كل ظل فى السياق !

* * *

ثم يهدأ الإيقاع شيئا ما ، فى الجولة القادمة ، ليناسب جو القصص، وهو يعرض ما كان بين موسى وفرعون ، وما انتهى إليه هذا الطاغية عندما طغى :

« هل أتاك حديث موسى . إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى . اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل : هل لك إلى أن تزكى ؟ وأهديك إلى ربك فتخشى ؟ فأراه الآية الكبرى . فكذب وعصى ، ثم أدبر يسعى . فحشر فنادى . فقال : أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . . إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى » . .

وقصة موسى هى أكثر القصص ورودا وأكثرها تفصيلا فى القرآن .. وقد وردت من قبل فى سور كثيرة . وردت منها حلقات منوعة . ووردت فى أساليب شتى . كل منها تناسب سياق السورة التى وردت فيها ؛ وتشارك فى أداء الغرض البارز فى السياق . على طريقة القرآن فى إيراد القصص وسرده [1] .

وهنا ترد هذه القصة مختصرة سريعة المشاهد منذ أن نودى موسى بالوادى المقدس ، إلى أخذ فرعون . . أخذه فى الدنيا ثم فى الآخرة . . فتلتقى بموضوع السورة الأصيل . وهو

---

(١) يراجع فصل القصة فى القرآن . فى كتاب : التصوير الفنى فى القرآن .

Marfat.com

حقيقة الآخرة . وهذا المدى الطويل من القصة يرد هنا فى آيات ممدودات قصار سريعة ، ليناسب طبيعة السورة وإيقاعها .

وتتضمن هذه الآيات القصار السريعة عدة حلقات ومشاهد من القصة . .

وهى تبدأ بتوجيه الخطاب إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « هل أتاك حديث موسى ؟ » . . وهو استفهام للتمهيد وإعداد النفس والأذن لتلقى القصة وتملها .

ثم تأخذ فى عرض الحديث كما تسمى القصة . وهو إيحاء بواقعيتها فهى حديث جرى . فتبدأ بمشهد المناداة والمناجاة : « إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى » . . وطوى اسم الوادى على الأرجح . وهو بجانب الطور الأيمن بالنسبة للقادم من مدين فى شمال الحجاز .

ولحظة النداء لحظة رهيبة جليلة . وهى لحظة كذلك عجيبة . ونداء الله بذاته ـ سبحانه ـ لعبد من عباده أمر هائل . أهول مما تملك الألفاظ البشرية أن تعبر . وهى سر من أسرار الألوهية العظيمة ، كما هى سر من أسرار التكوين الإنسانى التى أودعها الله هذا الكائن ، وهيأه بها لتلقى ذلك النداء . وهذا أقصى ما نملك أن نقوله فى هذا المقام ، الذى لا يملك الادراك البشرى أن يحيط منه بشىء ؛ فيقف على إطاره ، حتى يكشف الله له عنه فيتذوقه بشعوره .

وفى مواضع أخرى تفصيل للمناجاة بين موسى وربه فى هذا الموقف . فأما هنا فالمجال مجال اختصار وإيقاعات سريعة . ومن ثم يبادر السياق بحكاية أمر التكليف الإلهى لموسى ، عقب ذكر النداء بالوادى المقدس طوى : « اذهب إلى فرعون . إنه طغى . فقل : هل لك إلى أن تزكى ! وأهديك إلى ربك فتخشى ؟ » . .

« اذهب إلى فرعون . إنه طغى » . . والطغيان أمر لا ينبغى أن يكون ولا أن يبقى . إنه أمر كريه ، مفسد للأرض ، مخالف لما يحبه الله ، مؤد إلى ما يكره . . فمن أجل منعه ينتدب الله عبدا من عباده المختارين . ينتدبه بنفسه سبحانه . ليحاول وقف هذا الشر ، ومنع هذا الفساد ، ووقف هذا الطغيان . . إنه أمر كريه شديد الكراهية حتى ليخاطب الله بذاته عبدا من عباده ليذهب إلى الطاغية ، فيحاول رده عما هو فيه ، والإعذار إليه قبل أن يأخذه الله تعالى نكال الآخرة والأولى !

« اذهب إلى فرعون . إنه طغى » . . ثم يعلمه الله كيف يخاطب الطاغية بأحب أسلوب

Marfat.com

وأشده جاذبية للقلوب، لعله يتنهى، ويتقى غضب الله وأخذه : «فقل : هل لك إلى أن تزكى؟».. هل لك إلى أن تتطهر من رجس الطغيان ودنس العصيان ؟ هل لك إلى طريق الصلاة والبركة ؟ « وأهديك إلى ربك فتخشى » . . هل لك أن أعرفك طريق ربك . فإذا عرفته وقعت فى قلبك خشيته . فما يطغى الإنسان ويعصى إلا حين يذهب عن ربه بعيدا ، وإلا حين يضل طريقه إليه فيقسو قلبه ويفسد ، فيكون منه الطغيان والتمرد !

كان هذا فى مشهد النداء والتكليف وكان بعده فى مشهد المواجهة والتبليغ . والسياق لا يكرره فى مشهد التبليغ . اكتفاء بعرضه هناك وذكره . فيطوى ما كان بعد مشهد النداء ، ويختصر عبارة التبليغ فى مشهد التبليغ . ويسدل الستار هنا ليرفعه على ختام مشهد المواجهة :

« فأراه الآية الكبرى . فكذب وعصى » . .

لقد بلغ موسى ما كلف تبليغه . بالأسلوب الذى لقنه ربه وعرفه . ولم يفلح هذا الأسلوب الحبيب فى إلانة القلب الطاغى الخاوى من معرفة ربه . فأراه موسى الآية الكبرى . آية العصا واليد البيضاء كما جاء فى المواضع الأخرى : « فكذب وعصى » ..وانتهى مشهد اللقاء والتبليغ عند التكذيب والمعصية فى اختصار وإجمال !

ثم يعرض مشهد آخر . مشهد فرعون يتولى عن موسى ، ويسعى فى جمع السحرة للمباراة بين السحر والحق . حين عز عليه أن يستسلم للحق والهدى :

« ثم أدبر يسعى . فحشر فنادى . فقال : أنا ربكم الأعلى » ..

ويسارع السياق هنا إلى عرض قولة الطاغية الكافرة ، مجملا مشاهد سعيه وحشره للسحرة وتفصيلاتها . فقد أدبر يسعى فى الكيد والمحاولة ، فحشر السحرة والجماهير ؛ ثم انطلقت منه الكلمة الوقحة المتطاولة ، المليئة بالغرور والجهالة : « أنا ربكم الأعلى » . .

قالها الطاغية مخدوعا بغفلة جماهيره وإذعانها وانقيادها . فما يخدع الطغاة شىء ما تخدعهم غفلة الجماهير وذلتها وطاعتها وانقيادها . وما الطاغية إلا فرد لا يملك فى الحقيقة قوة ولا سلطانا. إنما هى الجماهير الغافلة الذلول ، تمطى له ظهرها فيركب ! وتمد له أعناقها فيجر ! وتحنى له رؤوسها فيستعلى ! وتتنازل له عن حقها فى العزة والكرامة فيطغى!

والجماهير تفعل هذا مخدوعة من جهة وخائفة من جهة أخرى. وهذا الخوف لا ينبعث إلا من الوهم . فالطاغية ـ وهو فرد ـ لا يمكن أن يكون أقوى من الألوف والملايين ، لو أنها شعرت

Marfat.com

بإنسانيتها وكرامتها وعزتها وحريتها . وكل فرد فيها هو كفء للطاغية من ناحية القوة ولكن الطاغية يخدعها فيوهمها أنه يملك لها شيئا ! وما يمكن أن يطغى فرد فى أمة كريمة أبدا . وما يمكن أن يطغى فرد فى أمة رشيدة أبدا . وما يمكن أن يطغى فرد فى أمة تعرف ربها وتؤمن به وتأبى أن تتعبد لواحد من خلقه لايملك لها ضرا ولا رشدا !

فأما فرعون فوجد فى قومه من الغفلة ومن الذلة ومن خواء القلب من الإيمان ، ماحرؤ به على قول هذه الكلمة الكافرة الفاجرة : « أنا ربكم الأعلى » . . وما كان ليقولها أبدا لو وجد أمة واعية كريمة مؤمنة ، تعرف أنه عبد ضعيف لايقدر على شىء . وإن يسلبه الذباب شيئا لا يستنقذ من الذباب شيئا !

وأمام هذا التطاول الوقح ، بعد الطغيان البشع ، تحركت القوة الكبرى :

« فأخذه الله نكال الآخرة والأولى » . .

ويقدم هنا نكال الآخرة على نكال الأولى .. لأنه أشد وأبقى . فهو النكال الحقيقى الذى يأخذ الطغاة والعصاة بشدته وبخلوده . . ولأنه الأنسب فى هذا السياق الذى يتحدث عن الآخرة ويجعلها موضوعه الرئيسى . . ولأنه يتسق لفظيا مع الإيقاع الموسيقى فى القافية بعد اتساقه معنويا مع الموضوع الرئيسى ، ومع الحقيقة الأصيلة .

ونكال الأولى كان عنيفا قاسيا . فكيف بنكال الآخرة وهو أشد وأنكى ؟ وفرعون كان ذا قوة وسلطان ومجد موروث عريق ؛ فكيف بغيره من المكذبين ؟ وكيف بهؤلاء الذين يواجهون الدعوة من المشركين ؟

« إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى » .

فالذى يعرف ربه ويخشاه هو الذى يدرك مافى حادث فرعون من العبرة لسواه . أما الذى لايعرف قلبه التقوى فبينه وبين العبرة حاجز ، وبينه وبين العظة حجاب . حتى يصطدم بالعاقبة اصطداما . وحتى يأخذه الله نكال الآخرة والأولى . وكل ميسر لنهج ، وكل ميسر لعاقبة . والعبرة لمن يخشى ..

ومن هذه الجولة فى مصارع الطغاة المعتدين بقوتهم ، يعود إلى المشركين المعتزين بقوتهم كذلك . فيردهم إلى شىء من مظاهر القوة الكبرى ، فى هذا الكون الذى لاتبلغ قوتهم بالقياس إليه شيئا :

Marfat.com

« أأنتم أشد خلقا أم السماء ؟ بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها . متاعا لكم ولأنعامكم » . .

وهو استفهام لايحتمل إلا إجابة واحدة بالتسليم الذى لايقبل الجدل : « أأنتم أشد خلقا أم السماء ؟ » . . السماء ! بلا جدال ولا كلام ! فما الذى يغركم من قوتكم والسماء أشد خلقا منكم ، والذى خلقها أشد منها ؟ هذا جانب من إيحاء السؤال . وهناك جانب آخر . فما الذى تستصعبونه من أمر بعثكم ؟ وهو خلق السماء وهى أشد من خلقكم ؟ وبعثكم هو إعادة لخلقكم ، والذى بنى السماء وهى أشد قادر على إعادتكم وهى أيسر !

هذه السماء الأشد خلقا بلا مراء . . « بناها » . . والبناء يوحى بالقوة والتماسك ، والسماء كذلك . متماسكة . لاتختل ولا تتناثر نجومها وكواكبها . ولا تخرج من أفلاكها ومداراتها ، ولا تتهاوى ولا تنهار . فهى بناء ثابت وطيد متماسك الأجزاء .

« رفع سمكها فسواها » . . وسمك كل شىء قامته وارتفاعه . والسماء مرفوعة فى تناسق وتماسك . وهذه هى التسوية : « فسواها » . . والنظرة المجردة والملاحظة العادية تشهد بهذا التناسق المطلق . والمعرفة بحقيقة القوانين التى تمسك بهذه الخلائق الهائلة وتنسق بين حركاتها وآثارها وتأثراتها ، توسع من معنى هذا التعبير ، وتزيد فى مساحة هذه الحقيقة الهائلة ، التى لم يدرك الناس بعلومهم إلا أطرافا منها ، وقفوا تجاهها مبهورين ، تغمرهم الدهشة ، وتأخذهم الروعة ، ويعجزون عن تعليلها بغير افتراض قوة كبرى مدبرة مقدرة ، ولو لم يكونوا من المؤمنين بدين من الأديان إطلاقا !

« وأغطش ليلها وأخرج ضحاها » . . وفى التعبير شدة فى الجرس والمعنى ، يناسب الحديث عن الشدة والقوة . وأغطش ليلها أى أظلمه . وأخرج ضحاها . أى : أضاءها . ولكن اختيار الألفاظ يتمشى فى تناسق مع السياق . . وتوالى حالتى الظلام والضياء ، فى الليل والضحى الذى هو أول النهار ، حقيقة يراها كل أحد ؛ ويتأثر بها كل قلب . وقد ينساها بطول الألفة والتكرار ، فيعيد القرآن جدتها بتوجيه المشاعر إليها . وهى جديدة أبدا . تتجدد كل يوم ، ويتجدد الشعور بها والانفعال بوقعها . فأما النواميس التى وراءها فهى كذلك من الدقة والعظمة بحيث تروع وتدهش من يعرفها . فتظل هذه الحقيقة تروع القلوب وتدهشها كلما اتسع علمها وكبرت معرفتها !

Marfat.com

« والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها » . .

ودحو الأرض تمهيدها وبسط قشرتها ، بحيث تصبح صالحة للسير عليها ، وتكوين تربة تصلح للإنبات ، وإرساء الجبال وهو نتيجة لاستقرار سطح الأرض ووصول درجة حرارته إلى هذا الاعتدال الذى يسمح بالحياة . والله أخرج من الأرض ماءها سواء مايتفجر من الينابيع ، أومايتزل من السماء فهو أصلا من مائها الذى تبخر ثم نزل فى صورة مطر . وأخرج من الأرض مرعاها وهو النبات الذى يأكله الناس والأنعام وتعيش عليه الأحياء مباشرة و بالواسطة . .

وكل أولئك قد كان بعد بناء السماء ، وبعد إغطاش الليل وإخراج الضحى . والنظريات الفلكية الحديثة تقرب من مدلول هذا النص القرآنى حين تفرض أنه قد مضى على الأرض مئات الملايين من السنين ، وهى تدور دورانها ويتعاقب الليل والنهار عليها قبل دحوها وقبل قابليتها للزرع . وقبل استقرار قشرتها على ماهى عليه من مرتفعات ومستويات .

والقرآن يعلن أن هذا كله كان : « متاعا لكم ولأنعامكم » . فيذكر الناس بعظيم تدبير الله لهم من ناحية . كما يشير إلى عظمة تقدير الله فى ملكه . فإن بناء السماء على هذا النحو . ودحو الأرض على هذا النحو أيضا لم يكونا فلتة ولا مصادفة إنما كان محسوبا فيهما حساب هذا الخلق الذى سيستخلف فى الأرض . والذى يقتضى وجوده ونموه ورقيه موافقات كثيرة جدا فى تصميم الكون . وفى تصميم المجموعة الشمسية بصفة خاصة . وفى تصميم الأرض بصفة أخص .

والقرآن ـ على طريقته فى الإشارة المجملة الموحية المتضمنة لأصل الحقيقة ـ يذكر هنا من هذه الموافقات بناء السماوات ، وإغطاش الليل ، وإخراج الضحى ، ودحو الأرض وإخراج مائها ومرعاها ، وإرساء جبالها . متاعا للإنسان وأنعامه . وهى إشارة توحى بحقيقة التدبير والتقدير فى بعض مظاهرها المكشوفة للجميع ، الصالحة لأن يخاطب بها كل إنسان ، فى كل بيئة وفى كل زمان ، فلاتحتاج إلى درجة من العلم والمعرفة، تزيد على نصيب الإنسان حيث كان. حتى يعم الخطاب بالقرآن لجميع بنى الإنسان فى جميع أطوار الإنسان ، فى جميع الأزمان .

ووراء هذا المستوى آماد وآفاق أخرى من هذه الحقيقة الكبرى . حقيقة التقدير والتدبير فى تصميم هذا الكون الكبير . واستبعاد المصادفة والجزاف استبعادا تنطق به طبيعة

Marfat.com

هذا الـكون ، وطبيعة المصادفة التى يستحيل معها تجمع كل تلك الموافقات العجيبة .

هذه الموافقات التى تبدأ من كون المجموعة الشمسية التى تنتمى إليها أرضنا هى تنظيم نادر بين مئات الملايين من المجموعات النجمية. وأن الأرض نمط فريد غير مكرر بين الـكواكب بموقعها هذا فى المنظومة الشمسية . الذى يجعلها صالحة للحياة الإنسانية . ولا يعرف البشر ـ حتى اليوم ـ كوكبا آخر تجتمع له هـذه الموافقات الضرورية . وهى تعد بالآلاف !

« ذلك أن أسباب الحياة تتوافر فى الـكوكب على حجم ملائم ، وبعد معتدل ، وتركيب تتلاقى فيه عناصر المادة على النسبة التى تنشط فيهـا حركة الحياة .

« لابد من الحجم الملائم ، لأن بقاء الجو الهوائى حول الـكوكب يتوقف على مافيه من قوة الجاذبية .

« ولابد من البعد المعتدل لأن الجرم القريب من الشمس حار لاتتماسك فيه الأجسام ، والجرم البعيد من الشمس بارد لا تتخلخل فيه تلك الأجسام .

« ولابد من التركيب الذى تتوافق فيه العناصر على النسبة التى تنشط بها حركة الحياة، لأن هـذه النسبة لازمة لنشأة النبات ونشأة الحياة التى تعتمد عليه فى تمثيل الغذاء .

« وموقع الأرض حيث هى أصلح المواقع لتوفير هـذه الشروط التى لاغنى عنها للحياة ، فى الصورة التى نعرفها ، ولانعرف لها صورة غيرها حتى الآن [1] » .

وتقرير حقيقة التدبير والتقدير فى تصميم هـذا الـكون الـكبير ،وحساب مكان للإنسان فيه ملحوظ فى خلقه وتطويره أمر يعد القلب والعقل لتلقى حقيقة الآخرة ومافيها من حساب وجزاء باطمئنان وتسليم . فما يمـكن أن يكون هذا هو واقع النشأة الـكونية والنشأة الإنسانية ثم لاتتم تمامها ، ولاتلقى جزاءها . ولايكون معقولا أن ينتهى أمرها بنهاية الحياة القصيرة فى هذه العاجلة الفانية . وأن يمضى الشر والطغيان والباطل ناجيا بما كان منه فى هذه الأرض . وأن يمضى الخير والعدل والحق بما أصابه كذلك فى هذه الأرض . . فهذا الفرض مخالف فى طبيعته لطبيعة التقدير والتدبير الواضحة فى تصميم الـكون الـكبير . . ومن ثم تلتقى هذه الحقيقة التى لمسها

---

(١) عقائد المفـكرين فى القرن العشرين للأستاذ العقاد ص ٣٦

Marfat.com

السياق فى هذا المقطع بحقيقة الآخرة التى هى الموضوع الرئيسى فى السورة . وتصنع تمهيدا لها فى القلوب والعقول ، يجىء بعده ذكر الطامة الكبرى فى موضعه وفى حينه !

* * *

« فإذا جاءت الطامة الكبرى ، يوم يتذكر الإنسان ماسعى ، وبرزت الجحيم لمن يرى . فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا ، فإن الجحيم هى المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هى المأوى » . .

إن الحياة الدنيا متاع . متاع مقدر بدقة وإحكام . وفق تدبير يرتبط بالكون كله ونشأة الحياة والإنسان . ولكنه متاع . متاع ينتهى إلى أجله . . فإذا جاءت الطامة الكبرى غطت على كل شىء ، وطمت على كل شىء . على المتاع الموقوت . وعلى الكون المتين المقدر المنظم . على السماء المبنية والأرض المدحوة والجبال المرساة والأحياء والحياة وعلى كل ما كان من مصارع ومواقع . فهى أكبر من هذا كله ، وهى تطم وتعم على هذا كله !

عندئذ يتذكر الإنسان ماسعى . يتذكر سعيه ويستحضره ، إن كانت أحداث الحياة ، وشواغل المتاع أغفلته عنه وأنسته إياه . يتذكره ويستحضره ولكن حيث لايفيده التذكر والاستحضار إلا الحسرة والأسى وتصور ماوراءه من العذاب والبلوى !

« وبرزت الجحيم لمن يرى » . . فهى بارزة مكشوفة لكل ذى نظر . ويشدد التعبير فى اللفظ « برزت » تشديدا للمعنى والجرس ، ودفعا بالمشهد إلى كل عين !

عندئذ تختلف المصائر والعواقب ؛ وتتجلى غاية التدبير والتقدير فى النشأة الأولى :

« فأما من طغى ، وآثر الحياة الدنيا ، فإن الجحيم هى المأوى » . .

والطغيان هنا أشمل من معناه القريب . فهو وصف لكل من يتجاوز الحق والهدى . ومداه أوسع من الطغاة ذوى السلطان والجبروت ، حيث يشمل كل متجاوز للهدى ، وكل من آثر الحياة الدنيا ، واختارها على الآخرة . فعمل لها وجدها ، غير حاسب للآخرة حسابا . واعتبار الآخرة هو الذى يقيم الموازين فى يد الإنسان وضميره . فإذا أهمل حساب الآخرة أو آثر عليها الدنيا اختلت كل الموازين فى يده ، واختلت كل القيم فى تقديره ، واختلت كل قواعد الشعور والسلوك فى حياته ، وعد طاغيا وباغيا ومتجاوزا للهدى .

Marfat.com

فأما هذا . . « فإن الجحيم هى المأوى » .. الجحيم المكشوفة المبرزة القريبة الحاضرة . يوم الطامة الكبرى !

«وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأوى » . .

والذى يخاف مقام ربه لايقدم على معصية ، فإذا أقدم عليها بحكم ضعفه البشرى قاده خوف هذا المقام الجليل إلى الندم والاستغفار والتوبة . فظل فى دائرة الطاعة .

ونهى النفس عن الهوى هو نقطة الارتكاز فى دائرة الطاعة . فالهوى هو الدافع القوى لكل طغيان ، وكل تجاوز ، وكل معصية . وهو أساس البلوى ، وينبوع الشر ، وقل أن يؤتى الإنسان إلا من قبل الهوى . فالجهل سهل علاجه. ولكن الهوى بعد العلم هو آفة النفس التى تحتاج إلى جهاد شاق طويل الأمد لعلاجها .

والخوف من الله هو الحاجز الصلب أمام دفعات الهوى العنيفة . وقل أن يثبت غير هذا الحاجز أمام دفعات الهوى .ومن ثم يجمع بينهما السياق القرآنى فى آية واحدة .فالذى يتحدث هنا هو خالق هذه النفس العليم بدائها ، الخبير بدوائها وهو وحده الذى يعلم دروبها ومنحنياتها ، ويعلم أين تكمن أهواؤها وأدواؤها ، وكيف تطارد فى مكامنها ومخابئها !

ولم يكلف الله الإنسان ألايشتجر فى نفسه الهوى . فهو ـ سبحانه ـ يعلم أن هذا خارج عن طاقته . ولكنه كلفه أن ينهاها ويكبحها ويمسك بزمامها . وأن يستعين فى هذا بالخوف . الخوف من مقام ربه الجليل العظيم المهيب . وكتب له بهذا الجهاد الشاق ، الجنة مثابة ومأوى: « فإن الجنة هى المأوى » . . ذلك أن الله يعلم ضخامة هذا الجهاد ؛ وقيمته كذلك فى تهذيب النفس البشرية وتقويمها ورفعها إلى المقام الأسنى.

إن الإنسان إنسان بهذا النهى ، وبهذا الجهاد ، وبهذا الارتفاع . وليس إنسانا بترك نفسه لهواها ، وإطاعة جواذبه إلى دركها ، بحجة أن هذا مركب فى طبيعته . فالذى أودع نفسه الاستعداد لجيشان الهوى ، هو الذى أودعها الاستعداد للإمساك بزمامه ، ونهى النفس عنه، ورفعها عن جاذبيته ؛ وجعل له الجنة جزاء ومأوى حين ينتصر ويرتفع ويرقى .

وهنالك حرية إنسانية تليق بتكريم الله للإنسان. تلك هى حرية الانتصار على هوى النفس والانطلاق من أسر الشهوة ، والتصرف بها فى توازن تثبت معه حرية الاختيار والتقدير الإنسانى . وهنالك حرية حيوانية ، هى هزيمة الإنسان أمام هواه ، وعبوديته لشهوته ، وانفلات الزمام

Marfat.com

من إرادته . وهى حرية لايهتف بها إلا مخلوق مهزوم الإنسانية مستعبد يلبس عبوديته رداء رائعا من الحرية !

إن الأول هو الذى ارتفع وارتقى وتهيأ للحياة الرفيعة الطليقة فى جنة المأوى . أما الآخر فهو الذى ارتكس وانتكس وتهيأ للحياة فى درك الجحيم حيث تهدر إنسانيته ، ويرتد شيئا توقد به النار التى وقودها الناس ـ من هـذا الصنف ـ والحجارة !

وهذه وتلك هى المصير الطبيعى للارتكاس والارتقاء فى ميزان هـذا الدين الذى يزن حقيقة الأشياء . .

* * *

وأخيرا يجىء الإيقاع الأخير فى السورة هائلا عميقا مديدا :

« يسألونك عن الساعة : أيان مرساها ؟ فيم أنت من ذكراها ؟ إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها . كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » . .

وكان المتعنتون من المشركين يسألون الرسول ـ صلى الله عليـه وسلم ـ كلما سمعوا وصف أهوال الساعة وأحداثها وماتنتهى إليه من حساب وجزاء . . متى أو أيان موعدها . . أو كما يحكى عنهم هنا : « أيان مرساها ؟ » . .

والجواب : « فيم أنت من ذكراها ؟ » . . وهو جواب يوحى بعظمتها وضخامتها، بحيث يبدو هـذا السؤال تافها باهتا ، وتطفلا كذلك وتجاوزا . فها هو ذا يقال للرسول العظيم : « فيم أنت من ذكراها ؟ » .. إنها لأعظم من أن تسأل أو تسأل عن موعدها . فأمرها إلى ربك وهى من خاصة شأنه وليست من شأنك .

« إلى ربك منتهاها » . . فهو الذى ينتهى إليه أمرها ، وهو الذى يعلم موعدها ، وهو الذى يتولى كل شىء فيها .

« إنمـا أنت منذر من يخشاها » . . هذه وظيفتك ، وهذه حدودك . . أن تنذر بها من ينفعه الإنذار ، وهوالذى يشعر قلبه بحقيقتها فيخشاهاويعمل لها ، ويتوقعها فى موعدها الموكول إلى صاحبها سبحانه وتعالى

ثم يصور هولها وضخامتها فى صنيعها بالمشاعر والتصورات ؛ وقياس الحياة الدنيا إليها فى إحساس الناس وتقديرهم :

Marfat.com

« كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » . .

فهى من ضخامة الوقع فى النفس بحيث تتضاءل إلى جوارها الحياة الدنيا ، وأعمارها ، وأحداثها ، ومتاعها ، وأشياؤها ، فتبدو فى حس أصحابها كأنها بعض يوم . . عشية أو ضحاها !

وتنطوى هذه الحياة الدنيا التى يتقاتل عليها أهلها ويتطاحنون . والتى يؤثرونها ويدعون فى سبيلها نصيبهم فى الآخرة . والتى يرتكبون من أجلها مايرتكبون من الجريمة والمعصية والطغيان . والتى يجرفهم الهوى فيعيشون لهفيها .. تنطوى هذه الحياة فى نفوس أصحابها أنفسهم، فإذا هى عندهم عشية أو ضحاها .

هذه هى : قصيرة عاجلة ، هزيلة ذاهبة ، زهيدة تافهة . . أفمن أجل عشية أو ضحاها يضحون بالآخرة ؟ ومن أجل شهوة زائلة يدعون الجنة مثابة ومأوى !

ألا إنها الحماقة الكبرى . الحماقة التى لايرتكبها إنسان . يسمع ويرى !

Marfat.com

سورة عبس مكية
وآياتها ٤٢

بسم الله الرحمن الرحيم

« عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ؟ * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ؟ * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ؟ * وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ؟ * كَلَّا ! إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ .

« قُتِلَ الْإِنسَانُ ! مَا أَكْفَرَهُ ! * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ؟ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ * كَلَّا ! لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ .

فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ .

« فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ .

« وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ » ۝٤٢

Marfat.com

هـذه السورة قوية المقاطع ، ضخمة الحقائق ، عميقـة اللمسات ، فريدة الصور والظلال والإيحاءات ، موحية الإيقاعات الشعورية والموسيقية على السـواء .

يتولى المقطع الأول منها علاج حادث معين من حوادث السيرة : كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مشغولا بأمر جماعة من كبراء قريش يدعوهم إلى الإسلام حينما جاءه ابن أم مكتوم الرجل الأعمى الفقير ـ وهو لايعلم أنه مشغول بأمر القوم ـ يطلب منه أن يعلمه مما علمه الله ، فـكره رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ هـذا وعبس وجهه وأعرض عنه ، فنزل القرآن بصدر هـذه السورة يعاتب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عتابا شديدا ؛ ويقرر حقيقة القيم فى حياة الجماعة المسلمة فى أسلوب قوى حاسم ، كما يقرر حقيقة هذه الدعوة وطبيعتها : « عبس وتولى أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى فأنت له تصدى ! وما عليك ألا يزكى ؟ وأما من جاءك يسعى وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى ؟! كلا ! إنها تذكرة ، فمن شاء ذكره ، فى صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة ، بأيدى سفرة ، كرام بررة » . .

ويعالج المقطع الثانى جحود الإنسان وكفره الفاحش لربه ، وهو يذكره بمصدر وجوده ، وأصل نشأته ، وتيسير حياته ، وتولى ربه له فى موته ونشره ؛ ثم تقصيره بعد ذلك فى أمره :

« قتل الإنسان ما أكفره ! من أى شىء خلقه ؟ من نطفة خلقه فقـدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره ، كلا ! لما يقض ماأمره » . .

والمقطع الثالث يعالج توجيه القلب البشرى إلى أمسّ الأشياء به وهو طعامه وطعام حيوانه. وما وراء ذلك الطعام من تدبير الله وتقديره له ، كتدبيره وتقديره فى نشأته :

« فلينظر الإنسان إلى طعامه ،أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا، وعنبا وقضبا ، وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا ، متاعا لـكم ولأنعامكم » . .

فأما المقطع الأخـير فيتولى عرض « الصاخة » يوم تجىء بهولها ، الذى يتجلى فى لفظها ، كما تتجلى آثارها فى القلب البشرى الذى يذهل عما عداها ؛ وفى الوجوه التى تحـدث عما دهاها :

« فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيـه ، وأمه وأبيـه ، وصاحبته وبنيه ، لـكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ، وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة ، أولئك هم الـكفرة الفجرة » . .

Marfat.com

إن استعراض مقاطع السورة وآياتها ـ على هذا النحو السريع ـ يسكب فى الحس إيقاعات شديدة التأثير . فهى من القوة والعمق بحيث تفعل فعلها فى القلب بمجرد لمسها له بذاتها .

وسنحاول أن نكشف عن جوانب من الآماد البعيدة التى تشير إليها بعض مقاطعها مما قد لاتدركه النظرة الأولى . .

* * *

« عبس وتولى . أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى ؟ أو يذكر فتنفعه الذكرى ؟ أما من استغنى فأنت له تصدى ؟ وما عليك ألا يزكى ؟وأما من جاءك يسعى وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى ؟ ! كلا ! إنها تذكرة . فمن شاء ذكره ، فى صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة، بأيدى سفرة ، كرام بررة » .

إن هذا التوجيه الذى نزل بشأن هذا الحادث هو أمر عظيم جدا . أعظم بكثير مما يبدو لأول وهلة . إنه معجزة ، هو والحقيقة التى أراد إقرارها فى الأرض ، والآثار التى ترتبت على إقرارها بالفعل فى حياة البشرية . ولعلها هى معجزة الإسلام الأولى ، ومعجزته الكبرى كذلك . ولكن هذا التوجيه يرد هكذا ـ تعقيبا على حادث فردى ـ على طريقة القرآن الإلهية فى اتخاذ الحادث المفرد والمناسبه المحدودة فرصة لتقرير الحقيقة المطلقة والمنهج المطرد .

وإلا فإن الحقيقة التى استهدف هذا التوجيه تقريرها هنا والآثار الواقعية التى ترتبت بالفعل على تقريرها فى حياة الأمة المسلمة ، هى الإسلام فى صميمه . وهى الحقيقة التى أراد الإسلام ـ وكل رسالة سماوية قبله ـ غرسها فى الأرض .

هذه الحقيقة ليست هى مجرد : كيف يعامل فرد من الناس ؟ أو كيف يعامل صنف من الناس ؟ كما هو المعنى القريب للحادث وللتعقيب . إنما هى أبعد من هذا جدا ، وأعظم من هذا جدا . إنها : كيف يزن الناس كل أمور الحياة ؟ ومن أين يستمدون القيم التى يزنون بها ويقدرون ؟

والحقيقة التى استهدف هذا التوجيه إقرارها هى : أن يستمد الناس فى الأرض قيمهم وموازينهم من اعتبارات سماوية إلهية بحتة ، آتية لهم من السماء ، غير مقيدة بملابسات أرضهم، ولا بمواضعات حياتهم ، ولا نابعة من تصوراتهم المقيدة بهذه المواضعات وتلك الملابسات .

وهو أمر عظيم جدا ، كما أنه أمر عسير جدا . عسير أن يعيش الناس فى الأرض بقيم

Marfat.com

وموازين آتية من السماء . مطلقة من اعتبارات الأرض . متحررة من ضغط هـذه الاعتبارات .

ندرك عظمة هـذا الأمر وعسره حين ندرك ضخامة الواقع البشرى ، وثقله على الشاعر ، وضغطه على النفوس ، وصعوبة التخلى عن الملابسات والضغوط الناشئة من الحياة الواقعية للناس ، المنبثقة من أحوال معاشهم ، وارتباطات حياتهم ، وموروثات بيئتهم ، ورواسب تاريخهم ، وسائر الظروف الأخرى التى تشدهم إلى الأرض شدا ، وتزيد من ضغط موازينها وقيمها وتصوراتها على النفوس .

كذلك ندرك عظمة هذا الأمر وعسره حين ندرك أن نفس محمـد ابن عبد الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ قد احتاجت ـ كى تبلغه ـ إلى هـذا التوجيه من ربه ؛ بل إلى هـذا العتاب الشديد ، الذى يبلغ حد التعجيب من تصرفه !

وإنه ليـكفى لتصوير عظمة أى أمر فى هذا الوجود أن يقال فيه : إن نفس محمد ابن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد احتاجت ـ كى تبلغه ـ إلى تنبيه وتوجيه !

نعم يـكفى هـذا . فإن عظمة هذه النفس وسموها ورفعتها ، تجعل الأمر الذى يحتاج منها ـ كى تبلغه ـ إلى تنبيه وتوجيه أمرا أكبر من العظمة ، وأرفع من الرفعة ! وهذه هى حقيقة هـذا الأمر ، الذى استهدف التوجيه الإلهى إقراره فى الأرض ، بمناسبة هذا الحادث للفرد . . أن يستمد الناس قيمهم وموازينهم من السماء ، طلقاء من قيم الأرض وموازينهـا المنبثقة من واقعهم كله . . وهذا هو الأمر العظيم . .

إن الميزان الذى أنزله الله للناس مع الرسل ، ليقوّموا به القيم كلها ، هو : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . . هـذه هى القيمة الوحيدة التى يرجح بها وزن الناس أو يشيل ! وهى قيمة سماوية بحتة ، لا علاقة لها بمواضعات الأرض وملابساتها إطلاقا . .

ولـكن الناس يعيشون فى الأرض ، ويرتبطون فيما بينهم بارتباطات شتى ؛ كلها ذات وزن وذات ثقل وذات جاذبية فى حياتهم . وهم يتعاملون بقيم أخرى . . فيها النسب ، وفيها القوة ، وفيهـا المـال . وفيها ماينشأ عن توزيع هـذه القيم من ارتباطات عملية . . اقتصادية وغير اقتصادية . . تتفاوت فيهـا أوضاع الناس بعضهم بالنسبة لبعض . فيصبح بعضهم أرجح من بعض فى موازين الأرض . .

Marfat.com

ثم يجىء الإسلام ليقول : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . . فيضرب صفحا عن كل تلك القيم الثقيلة الوزن فى حياةالناس ، العنيفة الضغط على مشاعرهم ، الشديدة الجاذبية إلى الأرض. ويبدل من هـذا كله تلك القيمة الجديدة المستمدة مباشرة من السماء ، المعترف بها وحدها فى ميزان السماء !

ثم يجىء هـذا الحادث لتقرير هذه القيمة فى مناسبة واقعية محددة وليقرر معها المبدأ الأساسى : وهو أن الميزان ميزان السماء ، والقيمة قيمة السماء . وأن على الأمة المسلمة أن تدع كل ماتعارف عليـه الناس ، وكل ماينبثق من علاقات الأرض من قيم وتصورات وموازين واعتبارات ، لتستمد القيم من السماء وحدها وتزنها بميزان السماء وحده !

ويجىء الرجل الأعمى الفقير . . ابن أم مكتوم . . إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو مشغول بأمر النفر منسادة قريش . عتبة وشيبة ابنى ربيعة ، وأبىجهل عمرو ابن هشام، وأمية ابن خلف ، والوليد ابن المغيرة ، ومعهم العباس ابن عبد المطلب .. والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعوهم إلى الإسلام ؛ ويرجو بإسلامهم خيرا للإسلام فى عسرته وشدته التى كان فيهـا بمكة ؛ وهؤلاء النفر يقفون فى طريقه بمالهم وجاههم وقوتهم ؛ ويصدون الناس عنه ، ويكيدون له كيدا شديدا حتى ليجمدونه فى مكة تجميدا ظاهرا . بينما يقف الآخرون خارج مكة، لايقبلون على الدعوة التى يقفـلها أقرب الناس إلى صاحبهـا ، وأشدهم عصبية له، فى بيئة جاهلية قبلية ، تجعل لموقف القبيلة كل قيمة وكل اعتبار .

يجىء هـذا الرجل الأعمى الفقير إلى رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ وهو مشغول بأمر هؤلاء النفر . لالنفسه ولالمصلحته ، ولـكن للإسلام ولمصلحة الإسلام . فلو أسلم هؤلاء لانزاحت العقبات العنيفة والأشواك الحادةمن طريق الدعوة فى مكة ؛ ولانساح بعد ذلك الإسلام فيما حولها ، بعد إسلام هؤلاء الصناديد الـكبار . .

يجىء هـذا الرجل ، فيقول لرسول الله ـصلى الله عليه وسلم ـ : يارسول الله أقرئنىوعلمنى مما علمك الله . . ويكرر هـذا وهو يعلم تشاغل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمـا هو فيه من الأمر . فيكره الرسول قطعه لـكلامه واهتمامه . وتظهر الـكراهية فى وجهه ـ الذى لايراه الرجل ـ فيعبس ويعرض . يعرض عن الرجل المفرد الفقير الذى يعطله عن الأمر الخطير . الأمر الذى يرجو من ورائه لدعوته ولدينه الشىء الـكثير ؛ والذى تدفعه إليه رغبته فى نصرة دينه ، وإخلاصه لأمر دعوته ، وحبه لمصلحة الإسلام ، وحرصه على انتشاره !

Marfat.com

وهنا تتدخل السماء . تتدخل لتقول كلمة الفصل فى هذا الأمر ؛ ولتضع معالم الطريق كله ، ولتقرر الميزان الذى توزن به القيم ـ بغض النظر عن جميع الملابسات والاعتبارات . بما فى ذلك اعتبار مصلحة الدعوة كما يراها البشر . بل كما يراها سيد البشر ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وهنا يجىء العتاب من الله العلى الأعلى لنبيه الكريم ، صاحب الخلق العظيم ، فى أسلوب عنيف شديد . وللمرة الوحيدة فى القرآن كله يقال للرسول الحبيب القريب : « كلا ! » وهى كلمة ردع وزجر فى الخطاب ! ذلك أنه الأمر العظيم الذى يقوم عليه هذا الدين !

والأسلوب الذى تولى به القرآن هـذا العتاب الإلهى أسلوب فريد ، لا تمكن ترجمته فى لغة الكتابة البشرية . فلغة الكتابة لها قيود وأوضاع وتقاليد ، تغض من حرارة هذه الموحيات فى صورتها الحية المباشرة . وينفرد الأسلوب القرآنى بالقدرة على عرضها فى هـذه الصورة فى لمسات سريعة . وفى عبارات متقطعة . وفى تعبيرات كأنها انفعالات ، ونبرات وسمات ولمحات حية !

« عبس وتولى . أن جاءه الأعمى » .. بصيغة الحكاية عن أحد آخر غائب غير المخاطب ! وفى هـذا الأسلوب إيحاء بأن الأمر موضوع الحديث من الكراهة عند الله بحيث لا يحب ـ سبحانه ـ أن يواجه به نبيه وحبيبه . عطفا عليه ، ورحمة به ، وإكراما له عن المواجهة بهذا الأمر الكريه !

ثم يستدير التعبير ـ بعد مواراة الفعل الذى نشأ عنه العتاب ـ يستدير إلى العتاب فى صيغة الخطاب . فيبدأ هادئا شيئا ما : « ومايدريك لعله يزكى ؟ أو يذكر فتنفعه الذكرى ؟ » . . مايدريك أن يتحقق هذا الخير الكبير . أن يتطهر هذا الرجل الأعمى الفقير ـ الذى جاءك راغبا فيما عندك من الخير ـ وأن يتيقظ قلبه فيتذكر فتنفعه الذكرى . مايدريك أن يشرق هذا القلب بقبس من نور الله ، فيستحيل منارة فى الأرض تستقبل نور السماء ؟ الأمر الذى يتحقق كلما تفتح قلب للهدى وتمت حقيقة الإيمان فيه . وهو الأمر العظيم الثقيل فى ميزان الله . .

ثم تعلو نبرة العتاب وتشتد لهجته ؛ وينتقل إلى التعجيب من ذلك الفعل محل العتاب : « وأما من استغنى ، فأنت له تصدى ؟ ! وماعليك ألا يزكى ؟ ! وأما من جاءك يسعى وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى ؟ ! » .. أما من أظهر الاستغناء عنك وعن دينك وعما عندك من الهدى والخير والنور والطهارة . . أما هذا فأنت تتصدى له وتحفل أمره ، وتجهد لهدايته ، وتتعرض له وهو

Marfat.com

عنك معرض ! « وما عليك ألا يزكى ؟ » . . ومايضيرك أن يظل فى رجسه ودنسه ؟ وأنت لا تسأل عن ذنبه . وأنت لا تُنصر به . وأنت لاتقوم بأمره . . « وأمامن جاءك يسعى » طائعا مختارا ، « وهو يخشى » ويتوقى « فأنت عنه تلهى ! » . .ويسمى الانشغال عن الرجل المؤمن الراغب فى الخير التقى تلهيا .. وهو وصف شديد . .

ثم ترتفع نبرة العتاب حتى لتبلغ حد الردع والزجر : « كلا ! » .. لايكن ذلك أبدا ..وهو خطاب يسترعى النظر فى هذا المقام .

ثم يبين حقيقة هذه الدعوة وكرامتها وعظمتها ورفعتهـا ، واستغناءها عن كل أحد . وعن كل سند . وعنايتها فقط بمن يريدها لذاتها ، كائنا ما كان وضعه ووزنه فى موازين الدنيا: «إنها تذكرة . فمن شاء ذكره . فى صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة . بأيدى سفرة. كرام بررة» .. فهى كريمة فى كل اعتبار . كريمة فى صحفها ، المرفوعة المطهرة الموكل بها السفراء من الملإ الأعلى ينقلونها إلى المختارين فى الأرض ليبلغوها . وهم كذلك كرام بررة .. فهى كريمة طاهرة فى كل مايتعلق بهـا ، ومايمسها من قريب أو من بعيد . وهى عزيزة لا يُتصدى بها للمعرضين الذين يظهرون الاستغناء عنها ؛ فهى فقط لمن يعرف كرامتها ويطلب التطهر بهـا . .

هذا هو الميزان . ميزان الله . الميزان الذى توزن به القيم والاعتبارات ، ويقدر به الناس والأوضاع . . وهذه هى الـكلمة . كلمة الله . الـكلمة التى ينتهى إليها كل قول ،وكل حكم ، وكل فصل .

وأين هـذا ؟ومتى ؟ فى مكة ، والدعوة مطاردة ، والمسلمون قلة . والتصدى للـكبراء لا ينبعث من مصلحة ذاتية ؛ والانشغال عن الأعمى الفقير لا ينبعث من اعتبار شخصى . إنما هى الدعوة أولا وأخيرا . ولـكن الدعوة إنمـا هى هذا الميزان ، وإنما هى هذه القيم ، وقد جاءت لتقرر هذا الميزان وهذه القيم فى حياة البشر . فهى لاتعز ولاتقوى ولاتنصر إلا بإقرار هذا الميزان وهذه القيم . .

ثم إن الأمر ـ كما تقدم ـ أعظم وأشمل من هذا الحادث المفرد ، ومن موضوعه المباشر . إنما هو أن يتلقى الناس الموازين والقيم من السماء لامن الأرض ، ومن الاعتبارات السماوية لامن الاعتبارات الأرضية . . « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .. والأكرم عند الله هو الذى يستحق الرعاية والاهتمام والاحتفال ، ولو تجرد من كل المقومات والاعتبارات الأخرى ، التى

Marfat.com

يتعارف عليها الناس تحت ضغط واقعهم الأرضى ومواضعاتهم الأرضية. النسب والقوة والمال . . وسائر القيم الأخرى ، لاوزن لها حين تتعرى عن الإيمان والتقوى . والحالة الوحيدة التي يصح لها فيها وزن واعتبار هى حالة ماإذا أنفقت لحساب الإيمان والتقوى .

هذه هى الحقيقة الكبيرة التى استهدف التوجيه الإلهى إقرارها فى هذه المناسبة، على طريقة القرآن فى اتخاذ الحادث المفرد والمناسبة المحدودة ، وسيلة لإقرار الحقيقة المطلقة والنهج المطرد .

* * *

ولقد انفعلت نفس الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهذا التوجيه ، ولذلك العتاب. انفعلت بقوة وحرارة ، واندفعت إلى إقرار هـذه الحقيقة فى حياته كلها ، وفى حياة الجماعة المسلمة بوصفها هى حقيقة الإسلام الأولى .

وكانت الحركة الأولى له ـ صلى الله عليه وسلم ـ هى إعلان مانزل له من التوجيه والعتاب فى الحادث . وهذا الإعلان أمر عظيم رائع حقا . أمر لايقوى عليه إلا رسول، من أى جانب نظرنا إليه فى حينه .

نعم لايقوى إلا رسول على أن يعلن للناس أنه عوتب هذا العتاب الشديد ، بهذه الصورة الفريدة فى خطإ أتاه ! وكان يكفى لأى عظيم ـ غير الرسول ـ أن يعرف هـذا الخطأ وأن يتلافاه فى المستقبل . ولكنها النبوة . أمر آخر . وآفاق أخرى !

لايقوى إلا رسول على أن يقذف بهـذا الأمر هـكذا فى وجوه كبراء قريش فى مثل تلك الظروف التى كانت فيها الدعوة ، مع أمثال هؤلاء المستمزين بنسبهم وجاههم ومالهم وقوتهم ، فى بيئة لامكان فيها لغير هـذه الاعتبارات ، إلى حد أن يقال فيها عن محمد ابن عبد الله ابن عبد المطلب ابن هاشم : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ! » . . وهـذا نسبه فيهم ، لمجرد أنه هو شخصيا لم تكن له رياسة فيهم قبل الرسالة !

ثم إنه لايكون مثل هذا الأمر فى مثل هـذه البيئة إلا من وحى السماء . فما يمكن أن ينبثق هذا من الأرض . . ومن هذه الأرض بذاتها فى ذلك الزمان ! !

وهى قوة السماء التى دفعت مثل هذا الأمر فى طريقه ؛ فإذا هو ينفذ من خلال نفس النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى البيئة من حوله ؛ فيتقرر فيها بعمق وقوة واندفاع ، يطرد به أزمانا طويلة فى حياة الأمة المسلمة .

Marfat.com

لقد كان ميلادا جديدا للبشرية كميلاد الإنسان فى طبيعته . وأعظم منه خطرا فى قيمته .. أن ينطلق الإنسان حقيقة ـ شعورا وواقعا ـ من كل القيم المتعارف عليها فى الأرض ، إلى قيم أخرى تنزل له من السماء منفصلة منعزلة عن كل ما فى الأرض من قيم وموازين وتصورات واعتبارات وملابسات عملية ، وارتباطات واقعية ذات ضغط وثقل ، ووشائج متلبسة باللحم والدم والأعصاب والمشاعر . ثم أن تصبح القيم الجديدة مفهومة من الجميع ، مسلما بها من الجميع . وأن يستحيل الأمر العظيم الذى احتاجت نفس محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كى تبلغه إلى التنبيه والتوجيه ، أن يستحيل هذا الأمر العظيم بديهية الضمير المسلم ، وشريعة المجتمع المسلم ، وحقيقة الحياة الأولى فى المجتمع الإسلامى لآماد طويلة فى حياة المسلمين .

إننا لانكاد ندرك حقيقة ذلك الميلاد الجديد . لأننا لانتمثل فى ضمائرنا حقيقة هذا الانطلاق من كل ماتنشئه أوضاع الأرض وارتباطاتها من قيم وموازين واعتبارات ساحقة الثقل إلى الحد الذى يخيل لبعض أصحاب المذاهب « التقدمية ! » أن جانبا واحدا منها ـ هو الأوضاع الاقتصادية ـ هو الذى يقرر مصائر الناس وعقائدهم وفنونهم وآدابهم وقوانينهم وعرفهم وتصورهم للحياة ؛ كما يقول أصحاب مذهب التفسير المادى للتاريخ فى ضيق أفق ، وفى جهالة طاغية بحقائق النفس وحقائق الحياة !

إنها المعجزة . معجزة الميلاد الجديد للإنسان على يد الإسلام فى ذلك الزمان . .

* * *

ومنذ ذلك الميلاد سادت القيم التى صاحبت ذلك الحادث الكونى العظيم . . ولكن المسألة لم تكن هينة ولا يسيرة فى البيئة العربية ، ولا فى نفوس المسلمين أنفسهم .. غير أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد استطاع ـ بإرادة الله ، وبتصرفاته هو وتوجيهاته المنبعثة من حرارة انفعاله بالتوجيه القرآنى الثابت ـ أن يزرع هذه الحقيقة فى الضمائر وفى الحياة ؛ وأن يحرسها ويرعاها ، حتى تتأصل جذورها ، وتمتد فروعها ، وتظلل حياة الجماعة المسلمة قرونا طويلة . . على الرغم من جميع عوامل الانتكاس الأخرى . .

كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد هذا الحادث يهش لابن أم مكتوم ويرعاه ؛ ويقول له كلما لقيه : « أهلا بمن عاتبنى فيه ربى » وقد استخلفه مرتين بعد الهجرة على المدينة . .

Marfat.com

ولكى يحطم موازين البيئة وقيمها المنبثقة من اعتبار الأرض ومواضعاتها ، زوج بنت خالته زينب بنت جحش الأسدية ، لمولاه زيد ابن حارثة . ومسألة الزواج والمصاهرة مسألة حساسة شديدة الحساسية . وفى البيئة العربية بصفة خاصة .

وقبل ذلك حينما آخى بين المسلمين فى أول الهجرة ، جعل عمه حمزة ومولاه زيدا أخوين . وجعل خالد ابن رويحة الخثعمى وبلال بن رباح أخوين !

وبعث زيدا أميرا فى غزوة مؤتة ، وجعله الأمير الأول ، يليه جعفر ابن أبى طالب ، ثم عبد الله ابن رواحة الأنصارى، على ثلاثة آلاف من المهاجرين والأنصار، فيهم خالد ابن الوليد .

وخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنفسه يشيعهم . . وهى الغزوة التى استشهد فيها الثلاثة رضى الله عنهم .

وكان آخر عمل من أعماله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن أمر أسامة ابن زيد على جيش لغزو الروم ، يضم كثرة من المهاجرين والأنصار ، فيهم أبو بكر وعمر وزيراه ، وصاحباه ، والخليفتان بعده بإجماع المسلمين . وفيهم سعد ابن أبى وقاص قريبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن أسبق قريش إلى الإسلام .

وقد علمل بعض الناس من إمارة أسامة وهو حدث وفى ذلك قال ابن عمر رضى الله عنهما ـ: بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعثا أمر عليهم أسامة ابن زيد ـ رضى الله عنهما ـ فطعن بعض الناس فى إمارته ، فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن تطعنوا فى إمارته فقد كنتم تطعنون فى إمارة أبيه من قبل . وأيم الله إن كان لخليقا للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلىّ. وإن هذا لمن أحب الناس إلى [1] . .

ولما لغطت ألسنة بشأن سلمان الفارسى ، وتحدثوا عن الفارسية والعربية ، بحكم إيحاءات القومية الضيقة ، ضرب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ضربته الحاسمة فى هذا الأمر فقال : «سلمان منا أهل البيت [2] » فتجاوز به ـ بقيم السماء وميزانها ـ كل آفاق النسب الذى يستعزون به ، وكل حدود القومية الضيقة التى يتحمسون لها . . وجعله من أهل البيت رأسا !

ولما وقع بين أبى ذر الغفارى وبلال ابن رباح ـ رضى الله عنهما ـ ما أفلت معه لسان

(١) أخرجه الشيخان والترمذى .
(٢) أخرجه الطبرانى والحاكم .

Marfat.com

أبي ذر بكلمة « ياابن السوداء » .. غضب لها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ غضبا شديدا ؛ وألقاها فى وجه أبى ذر عنيفة مخيفة : « ياأبا ذر طف الصاع ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل[1] » . ففرق فى الأمر إلى جذوره البعيدة . . إما إسلام فهى قيم السماء وموازين السماء . وإما جاهلية فهى قيم الأرض وموازين الأرض !

ووصلت الكلمة النبوية بحرارتها إلى قلب أبى ذر الحساس ؛ فانفعل لها أشد الانفعال ، ووضع جبهته على الأرض يقسم ألا يرفعها حتى يطأها بلال . تكفيرا عن قولته الكبيرة !

وكان الميزان الذى ارتفع به بلال هو ميزان السماء . . عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يابلال حدثنى بأرجى عمل عملته فى الإسلام منفعة عندك . فإنى سمعت الليلة خشف نعليك بين يدى فى الجنة » . فقال : ماعملت فى الإسلام عملا أرجى عندى منفعة من أنى لا أتطهر طهورا تاما فى ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لى أن أصلى[2].

وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول عن عمار ابن ياسر وقد استأذن عليه : « ائذنوا له مرحبا بالطيب المطيب »[3] . . وقال عنه : « ملئ عمارٌ ـ رضى الله عنه ـ إيمانا إلى مشاشه[4] » .. وعن حذيفة ـ رضى الله عنه قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : « إنى لا أدرى مابقائى فيكم فاقتدوا باللذين من بعدى ـ وأشار إلى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ـ واهتدوا بهدى عمار . وما حدثكم ابن مسعود فصدقوه »[5].

وكان ابن مسعود يحسبه الغريب عن المدينة من أهل بيت رسول الله . . عن أبى موسى ـ رضى الله عنه ـ قال : قدمت أنا وأخى من اليمن ، فمكثنا حينا وما نرى ابن مسعود وأمه إلا من أهل بيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من كثرة دخولهم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولزومهم له »[6] .

---

(١) أخرجه ابن المبارك فى البر والصلة مع اختلاف
(٢) أخرجه الشيخان
(٣) أخرجه الترمذى
(٤) أخرجه النسائى
(٥) أخرجه الترمذى
(٦) أخرجه الشيخان والترمذى.

Marfat.com

وجليبيب ـ وهو رجل من الموالى ـ كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخطب له نفسه ليزوجه امرأة من الأنصار . فلما تأبى أبواها قالت هى : أتريدون أن تردوا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمره ؟ إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه. فرضيا وزوجاها (١) .

وقد افتقده رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الوقعة التى استشهد فيها بعد فترة قصيرة من زواجه . . عن أبى برزة الأسلمى ـ رضى الله عنه ـ قال : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مغزى له ، فأفاء الله عليه . فقال لأصحابه : « هل تفقدون من أحد ؟ » قالوا : نعم فلانا وفلانا وفلانا . ثم قال : « هل تفقدون من أحد ؟ » قالوا : نعم . فلانا وفلانا وفلانا ثم قال : « هل تفقدون من أحد ؟ » فقالوا : لا . قال : « لكنى أفقد جليبيبا » فطلبوه ، فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه . فأتى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوقف عليه ، ثم قال : قتل سبعة ثم قتلوه . هذا منى وأنا منه . هذا منى وأنا منه. ثم وضعه على ساعديه ،ليس له سرير إلا ساعدا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : فحفر له ، ووضع فى قبره ولم يذكر غسلا (٢) .

* * *

بذلك التوجيه الإلهى وبهذا الهدى النبوى كان الميلاد للبشرية على هذا النحو الفريد . ونشأ المجتمع الربانى الذى يتلقى قيمه وموازينه من السماء ، طليقا من قيود الأرض ، بينما هو يعيش على الأرض . . وكانت هذه هى المعجزة الكبرى للإسلام . المعجزة التى لا تتحقق إلا بإرادة إله ، وبعمل رسول . والتى تدل بذاتها على أن هذا الدين من عند الله ، وأن الذى جاء به للناس رسول !

وكان من تدبير الله لهذا الأمر أن يليه بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صاحبه الأول أبوبكر ، وصاحبه الثانى عمر . . أقرب اثنين لإدراك طبيعة هذا الأمر ، وأشد اثنين انطباعا بهدى رسول الله ، وأعمق اثنين حبا لرسول الله ، وحرصا على تتبع مواضع حبه ومواقع خطاه .

أبوبكر ـ رضى الله عنه ـ عن صاحبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما أراده فى أمر أسامة.

---

(١) من حديث فى مسند الإمام أحمد عن أنس.
(٢) أخرجه مسلم .

Marfat.com

فكان أول عمل له بعد توليه الخلافة هو إنفاذه بعث أسامة ، على رأس الجيش الذى أعده رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسار يودعه بنفسه إلى ظاهر المدينة . أسامة راكب وأبو بكر الخليفة راجل . فيستحيي أسامة الفتى الحدث أن يركب والخليفة الشيخ يمشى . فيقول: «ياخليفة رسول الله لتركبن أولأنزلن » . . فيقسم الخليفة : « والله لاتنزل . ووالله لاأركب . وماعلى أن أغبر قدمى فى سبيل الله ساعة ؟ » . .

ثم يرى أبوبكر أنه فى حاجة إلى عمر . وقد حمل عبء الخلافة الثقيل . ولكن عمر إنما هو جندى فى جيش أسامة . وأسامة هو الأمير . فلابد من استئذانه فيه . فإذا الخليفة يقول : « إن رأيت أن تعيننى بعمر فافعل » . . يالله ! إن رأيت أن تعيننى فافعل . . إنها آفاق عوال، لايرقى إليها الناس إلا بإرادة الله ، على يدى رسول من عند الله !

ثم تمضى عجلة الزمن فنرى عمر ابن الخطاب خليفة يولى عمار ابن ياسر على الكوفة .

ويقف بباب عمر سهيل ابن عمرو ابن الحارث ابن هشام ، وأبو سفيان ابن حرب ، وجماعة من كبراء قريش من الطلقاء ! فيأذن قبلهم لصهيب وبلال . لأنهما كانا من السابقين إلى الإسلام ومن أهل بدر . فتورم أنف أبى سفيان ، ويقول بانفعال الجاهلية : « لم أر كاليوم قط . يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه ! » . . فيقول له صاحبه - وقد استقرت فى حسه حقيقة الإسلام - : « أيها القوم . إنى والله أرى الذى فى وجوهكم . إن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم . دعى القوم إلى الإسلام ودعيتم . فأسرعوا وأبطأتم . فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم ؟ (١) .

ويفرض عمر لأسامة ابن زيد أكبر مما يفرض لعبد الله ابن عمر . حتى إذا سأله عبد الله عن سر ذلك قال له : « يابنى . كان زيد - رضى الله عنه - أحب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أبيك ! وكان أسامة - رضى الله عنه - أحب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منك ! فآثرت حب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على حبى » (٢) . . يقولها عمر وهو يعلم أن حب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إنما كان مقوما بميزان السماء !

---

(١) عن كتاب : العدالة الاجتماعية فى الإسلام .
(٢) أخرجه الترمذى

Marfat.com

ورسل عمر عمارا ليحاسب خالد ابن الوليد ـ القائد الظفر صاحب النسب العريق ـ فيلبيه بردائه . . ويروى أنه أوثقه بشال عمامته حتى ينتهى من حسابه فتظهر براءته فيفك وثاقه ويعممه بيده . . وخالد لا يرى فى هذا كله بأسا . فإنما هو عمار صاحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ السابق إلى الإسلام الذى قال عنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما قال !

وعمر هو الذى يقول عن أبى بكر ـ رضى الله عنهما ـ هو سيدنا وأعتق سيدنا . يعنى بلالا . الذى كان مملوكا لأمية ابن خلف . وكان يعذبه عذابا شديدا . حتى اشتراه منه أبو بكر وأعتقه . . وعنه يقول عمر ابن الخطاب . . عن بلال . . سيدنا !

وعمر هو الذى قال : « ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا لاستخلفته » يقول هذا . وهو لم يستخلف عثمان ولا عليا ، ولا طلحة ولا الزبير . . إنما جعل الشورى فى الستة بعده ولم يستخلف أحدا بذاته !

وعلى ابن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ يرسل عمارا والحسن ابن على ـ رضى الله عنهما ـ إلى أهل الكوفة يستنفرهم فى الأمر الذى كان بينه وبين عائشة ـ رضى الله عنها ـ فيقول : « إنى لأعلم أنها زوجة نبيكم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الدنيا والآخرة ، ولكن الله ابتلاكم لتتبعوه أو تتبعوها » (١) . . فيسمع له الناس فى شأن عائشة أم المؤمنين ، وبنت الصديق أبى بكر ـ رضى الله عنهم جميعا

وبلال ابن رباح يرجوه أخوه فى الإسلام أبو رويحة الخثعمى أن يتوسط له فى الزواج من قوم من أهل اليمن . فيقول لهم : « أنا بلال ابن رباح ، وهذا أخى أبو رويحة ، وهو امرؤ سوء فى الخلق والدين . فإن شئتم أن تزوجوه فزوجوه ، وإن شئتم أن تدعوا فدعوا » . . فلا يدلس عليهم ، ولا يخفى من أمر أخيه شيئا ، ولا يذكر أنه وسيط وينسى أنه مسؤول أمام الله فيما يقول . . فيطمئن القوم إلى هذا الصدق .. ويزوجون أخاه ، وحسبهم ـ وهو العربى ذو النسب ـ أن يكون بلال المولى الحبشى وسيطه !

* * *

واستقرت تلك الحقيقة الكبيرة فى المجتمع الإسلامى ، وظلت مستقرة بعد ذلك آمادا طويلة

---

(١) أخرجه البخارى .

Marfat.com

على الرغم من عوامل الانتكاس الكثيرة . « وقد كان عبد الله ابن عباس يذكر ويذكر معه مولاه عكرمة . وكان عبد الله ابن عمر يذكر ويذكر معه مولاه نافع . وأنس ابن مالك ومعه مولاه ابن سيرين . وابو هريرة ومعه مولاه عبد الرحمان ابن هرمز . وفى البصرة كان الحسن البصرى . وفى مكة كان مجاهد ابن جبر ، وعطاء ابن رباح ، وطاووس ابن كيسان هم الفقاء . وفى مصر تولى الفتيا يزيد ابن أبى حبيب فى أيام عمر ابن عبد العزيز وهو مولى أسود من دنقلة » (١) . .

وظل ميزان السماء يرجح بأهل التقوى ولو تجردوا من قيم الأرض كلها .. فى اعتبار أنفسهم وفى اعتبار الناس من حولهم . ولم يرفع هذا الميزان من الأرض إلا قريبا جدا بعد أن طغت الجاهلية طغيانا شاملا فى أنحاء الأرض جميعا . وأصبح الرجل يقوم برصيده من الدولارات فى أمريكا زعيمة الدول الغربية . وأصبح الإنسان كله لايساوى الآلة فى المذهب المادى المسيطر فى روسيا زعيمة الدول الشرقية . أما أرض المسلمين فقد سادت فيها الجاهلية الأولى . التى جاء الإسلام ليرفعها من وهدتها ؛ وانطلقت فيها نعرات كان الإسلام قد قضى عليها . وحطمت ذلك الميزان الإلهى وارتدت إلى قيم جاهلية زهيدة لاتمت بصلة إلى الإيمان والتقوى . .

ولم يعد هنالك إلا أمل يناط بالدعوة الإسلامية أن تنقذ البشرية كلها مرة أخرى من الجاهلية ؛ وأن يتحقق على يديها ميلاد جديد للإنسان كالميلاد الذى شهدته أول مرة ، والذى جاء ذلك الحادث الذى حكاه مطلع هذه السورة ليعلنه فى تلك الآيات القليلة الحاسمة العظيمة . .

* * *

وبعد تقرير تلك الحقيقة الكبيرة فى ثنايا التعقيب على ذلك الحادث ، فى المقطع الأول من السورة ، يعجب السياق فى المقطع الثانى من أمر هذا الإنسان ، الذى يعرض عن الهدى ، ويستغنى عن الإيمان ، ويستعلى على الدعوة إلى ربه .. يعجب من أمره وكفره ، وهو لايذكر مصدر وجوده ، وأصل نشأته ، ولايرى عناية الله به وهيمنته كذلك على كل مرحلة من مراحل نشأته فى الأولى والآخرة ؛ ولايؤدى ما عليه لخالقه وكافله ومحاسبه :

« قتل الإنسان ما أكفره ! من أى شىء خلقه ؟ من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره . ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره . كلا ! لما يقض ما أمره » . .

---

(١) مستق من كتاب أبو حنيفة للأستاذ عبد الحليم الجندى .

Marfat.com

« قتل الإنسان ! » . . فإنه ليستحق القتل على عجيب تصرفه .. فهى صيغة تفظيع وتقبيح وتشنيع لأمره . وإفادة أنه يرتكب مايستوجب القتل لشناعته وبشاعته . .

« ما أكفره ! » .. ماأشد كفره وجحوده ونكرانه لمقتضيات نشأته وخلقته . ولو رعى هذه المقتضيات لشكر خالقه ، ولتواضع فى دنياه ، ولذكر آخرته . .

وإلا فعلام يتكبر ويستغنى ويعرض ؟ وماهو أصله وماهو مبدؤه ؟

« من أى شىء خلقه ؟ » ..

إنه أصل متواضع زهيد ، يستمد كل قيمه من فضل الله ونعمته ، ومن تقديره وتدبيره :

« من نطفة خلقه فقدره » ..

من هذا الشىء الذى لاقيمة له ؟ ومن هـذا الأصل الذى لاقوام له .. ولكن خالقه هو الذى قدره . قدره . من تقدير الصنع وإحكامه . وقدره : من منحه قدرا وقيمة فجعله خلقا سويا ، وجعله خلقا كريما . وارتفع به من ذلك الأصل المتواضع ، إلى المقام الرفيع الذى تسخر له فيه الأرض وما عليها .

« ثم السبيل يسره » . .

فمهد له سبيل الحياة . أو مهد له سبيل الهداية . ويسره لسلوكه بما أودعه من خصائص واستعدادات . سواء لرحلة الحياة ، أو للاهتداء فيها .

حتى إذا انتهت الرحلة ، صار إلى النهاية التى يصير إليها كل حى . بلا اختيار ولافرار :

« ثم أماته فأقبره » . .

فأمره فى نهايته كأمره فى بدايته ، فى يد الذى أخرجه إلى الحياة حين شاء ، وأنهى حياته حين شاء ، وجعل مثواه جوف الأرض ، كرامة له ورعاية ، ولم يجعل السنة أن يترك على ظهرها للجوارح والكواسر . وأودع فطرته الحرص على مواراة ميته وقبره . فكان هذا طرفا من تدبيره له وتقديره .

حتى إذا جاء الموعد الذى اقتضته مشيئته ، أعاده إلى الحياة لما يراد به من الأمر :

« ثم إذا شاء أنشره » . .

فليس متروكا سدى ؛ ولا ذاهبا بلاحساب ولا جزاء . . فهل تراه تهيأ لهذا الأمر واستعد ؟

Marfat.com

« كلا ! لما يقض ماأمره » . .

الإنسان عامة ، بأفراده جملة ، وبأجياله كافة . . لما يقض ماأمره . . إلى آخر لحظة فى حياته . وهو الإيحاء الذى يلقيه التعبير بلما . كلا إنه لمقصر ، لم يؤد واجبه . لم يذكر أصله ونشأته حق الذكرى . ولم يشكر خالقه وهاديه وكافله حق الشكر . ولم يقض هـذه الرحلة على الأرض فى الاستعداد ليوم الحساب والجزاء . . هو هكذا فى مجموعه . فوق أن الكثرة تعرض وتتولى ، وتستغنى وتستكبر على الهدى !

***

وينتقل السياق إلى لمسة أخرى فى مقطع جديد . . فتلك هى نشأة هذا الإنسان . . فهلا نظر إلى طعامه وطعام أنعامه فى هذه الرحلة ؟ وهى شىء واحد من أشياء يسرها له خالقه ؟

« فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا، وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولأنعامكم » . .

هذه هى قصة طعامه . مفصلة مرحلة مرحلة . هذه هى فلينظر إليها ؛ فهل له من يد فيها ؟ هل له من تدبير لأمرها ؟ إن اليد التى أخرجته إلى الحياة وأبدعت قصته ، هى ذاتها اليد التى أخرجت طعامه وأبدعت قصته . .

« فلينظر الإنسان إلى طعامه » . . ألصق شىء به ، وأقرب شىء إليه ، وألزم شىء له . . لينظر إلى هذا الأمر الميسر الضرورى الحاضر المكرر . لينظر إلى قصته العجيبة اليسيرة ، فإن يسرها ينسيه مافيها من العجب . وهى معجزة كمعجزة خلقه ونشأته . وكل خطوة من خطواتها يد القدرة التى أبدعته :

« أنا صببنا الماء صبا » . . وصب الماء فى صورة المطر حقيقة يعرفها كل إنسان فى كل بيئة ، فى أية درجة كان من درجات المعرفة والتجربة . فهى حقيقة يخاطب بها كل إنسان . فأما حين تقدم الإنسان فى المعرفة فقد عرف من مدلول هذا النص ماهو أبعد مدى وأقدم عهدا من هذا المطر الذى يتكرر اليوم ويراه كل أحد . وأقرب الفروض الآن لتفسير وجود المحيطات الكبيرة التى يتبخر ماؤها ثم ينزل فى صورة مطر ، أقرب الفروض أن هذه المحيطات تكونت أولا فى السماء فوقنا ثم صبت على الأرض صبا !

وفى هـذا يقول أحد علماء العصر الحاضر : « إذا كان صحيحا أن درجة حرارة الكرة

Marfat.com

الأرضية وقت انفصالها عن الشمس كانت حوالى ١٢٫٠٠٠ درجة .أو كانت تلك درجة حرارة سطح الأرض . فعندئذ كانت كل العناصر حرة . ولذا لم يكن فى الإمكان وجود أى تركيب كيميائى ذى شأن . ولما أخذت الكرة الأرضية ، أو الأجزاء المكونة لها فى أن تبرد تدريجيا ، حدثت تركيبات ، وتكونت خلية العالم كما نعرفه . وما كان للأكسيجين والهيدروجين أن يتحدا إلا بعد أن هبطت درجة الحرارة إلى ٤٠٠٠ درجة فارنهايت . وعند هذه النقطة اندفعت مما تلك العناصر ، وكونت الماء الذى نعرفه الآن أنه هواء الكرة الأرضية . ولا بد أنه كان هائلا فى ذلك الحين . وجميع المحيطات كانت فى السماء . وجميع تلك العناصر التى لم تكن قد اتحدت كانت غازات فى الهواء . وبعد أن تكون الماء فى الجو الخارجى سقط نحو الأرض . ولكنه لم يستطع الوصول إليها . إذ كانت درجة الحرارة على مقربة من الأرض أعلى مما كانت على مسافة آلاف الأميال . وبالطبع جاء الوقت الذى صار الطوفان يصل فيه إلى الأرض ليطير منها ثانيا فى شكل بخار . ولما كانت المحيطات فى الهواء فإن الفيضانات التى كانت تحدث مع تقدم التبريد كانت فوق الحسبان .وتمشى الجيشان مع التفتت . . . . الخ »[1]

وهذا الفرض ــ ولوأننا لانعلق به النص القرآنى ــ يوسع من حدود تصورنا نحن للنص والتاريخ الذى يشير إليه . تاريخ صب الماء صبا . وقد يصح هذا الفرض ، وقد تجد فروض أخرى عن أصل الماء فى الأرض . ويبقى النص القرآنى صالحا لأن يخاطب به كل الناس فى كل بيئة وفى كل جيل .

ذلك كان أول قصة الطعام : « أنا صببنا الماء صبا » .. ولايزعم أحد أنه أنشأ هذا الماء فى أى صورة من صوره ، وفى أى تاريخ لحدوثه ؛ ولا أنه صبه على الأرض صبا ، لتسير قصة الطعام فى هذا الطريق !

« ثم شققنا الأرض شقا » .. وهذه هى المرحلة التالية لصب الماء . وهى صالحة لأن يخاطب بها الإنسان البدائى الذى يرى الماء ينصب من السماء بقدرة غير قدرته ، وتدبير غير تدبيره . ثم يراه يشق الأرض ويتخلل تربتها . أو يرى النبت يشق تربة الأرض شقا بقدرة الخالق وينمو على وجهها ، ويمتد فى الهواء فوقها . . وهو نحيل نحيل ، والأرض فوقه ثقيلة ثقيلة

---

(١) عن كتاب : الإنسان لايقوم وحده تأليف « ا. ه كريسى موريسون » وترجمة محمود صالح الفلكى بعنوان : العلم يدعو إلى الإيمان .

Marfat.com

ولكن اليد المدبرة تشق له الأرض شقا ، وتعينه على النفاذ فيها وهو ناحل لين لطيف . وهى معجزة يراها كل من يتأمل انبثاق النبتة من التربة ؛ ويحس من ورائه انطلاق القوة الخفية الكامنة فى النبتة الرخية .

فأما حين تتقدم معارف الإنسان فقد يعن له مدى آخر من التصور فى هذا النص . وقد يكون شق الأرض لتصبح صالحة للنبات أقدم بكثير مما نتصور . إنه قد يكون ذلك التفتت فى صخور القشرة الأرضية بسبب الفيضانات الهائلة التى يشير إليها الفرض العلمى السابق . وبسبب العوامل الجوية الكثيرة التى يفترض علماء اليوم أنها تعاونت لتفتيت الصخور الصلبة التى كانت تكسو وجه الأرض وتكون قشرتها ؛حتى وجدت طبقة الطمى الصالحة للزرع . وكان هذا أثرا من آثار الماء تاليا فى تاريخه لصب الماء صبا . مما يتسق أكثر مع هذا التتابع الذى تشير إليه النصوص . .

وسواء كان هذا أم ذاك أم سواهما هو الذى حدث ، وهو الذى تشير إليه الآيتان السابقتان فقد كانت المرحلة الثالثة فى القصة هى النبات بكل صنوفه وأنواعه . التى يذكر منها هنا أقربها للمخاطبين ، وأعمها فى طعام الناس والحيوان :

« فأنبتنا فيها حبا » ..وهو يشمل جميع الحبوب . ماياً كله الناس فى أية صورة من صوره . وما يتغذى به الحيوان فى كل حالة من حالاته .

« وعنبا وقضبا » .. والعنب معروف. والقضب هو كل ما يؤكل رطبا غضا من الخضر التى تقطع مرة بعد أخرى . .

« وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا » . . والزيتون والنخل معروفان لكل عربى ، والحدائق جمع حديقة ، وهى البساتين ذات الأشجار المثمرة المسورة بحوائط تحميها . و « غلبا » جمع غلباء . أى ضخمة عظيمة ملتفة الأشجار. والفاكهة من ثمار الحدائق و «الأب» أغلب الظن أنه الذى ترعاه الأنعام . وهو الذى سأل عنه عمر ابن الخطاب ثم راجع نفسه فيه متلوّما ! كما سبق فى الحديث عن سورة النازعات ! فلا نزيد نحن شيئا !

هذه هى قصة الطعام . كلها من إبداع اليد التى أبدعت الإنسان . وليس فيها للإنسان يد يدعيها ، فى أية مرحلة من مراحلها . . حتى الحبوب والبذور التى قد يلقيها هو فى الأرض .. إنه لم يبدعها ، ولم يبتدعها . والمعجزة فى إنشائها ابتداء من وراء تصور الإنسان وإدراكه .

Marfat.com

والتربة واحدة بين يديه ، ولكن البذور والحبوب منوعة ، وكل منها يؤتى أكله فى القطع المتجاورات من الأرض . وكلها تسقى بماء واحد ، ولكن اليد المبدعة تنوع النبات وتنوع الثمار ؛ وتحفظ فى البذرة الصغيرة خصائص أمها التى ولدتها فتنقلها إلى بنتها التى تلدها . . كل أولئك فى خفية عن الإنسان ! لا يعلم سرها ولا يقضى أمرها ، ولا يستشار فى شأن من شؤونها . .

هذه هى القصة التى أخرجتها يد القدرة :

« متاعا لكم ولأنعامكم » . . إلى حين . ينتهى فيه هذا المتاع ؛ الذى قدره الله حين قدر الحياة . ثم يكون بعد ذلك أمر آخر يعقب المتاع . أمر يجدر بالإنسان أن يتدبره قبل أن يجىء :

* * *

« فإذا جاءت الصاخة ، يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه . لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه . . وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة ، أولئك هم الكفرة الفجرة » . .

فهذه هى خاتمة المتاع . وهذه هى التى تتفق مع التقدير الطويل ، والتدبير الشامل ، لكل خطوة وكل مرحلة فى نشأة الإنسان . وفى هذا المشهد ختام يتناسق مع المطلع . مع الذى جاء يسعى وهو يخشى . والذى استغنى وأعرض عن الهدى . ثم هذان هما فى ميزان الله .

« والصاخة لفظ ذو جرس عنيف نافذ ، يكاد يخرق صماخ الأذن ، وهو يشق الهواء شقا ، حتى يصل إلى الأذن صاخا ملحا !

« وهو يمهد بهذا الجرس العنيف للمشهد الذى يليه : مشهد المرء يفر وينسلخ من ألصق الناس به : «يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه » . . أولئك الذين تربطهم به وشائج وروابط لا تنفصم ؛ ولكن هذه الصاخة تمزق هذه الروابط تمزيقا ، وتقطع تلك الوشائج تقطيعا .

« والهول فى هذا المشهد هول نفسى بحت ، يفزع النفس ويفصلها عن محيطها . ويستبد بها استبدادا . فلكل نفسه وشأنه ، ولديه الكفاية من الهم الخاص به ، الذى لا يدع له فضلة من وعى أو جهد : « لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » . .

Marfat.com

« والظلال الكامنة وراء هذه العبارة وفى طياتها ظلال عميقة سحيقة . فما يوجد أخصر ولا أشمل من هـذا التعبير ، لتصوير الهم الذى يشغل الحس والضمير : « لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه »[1] !

ذلك حال الخلق جميعا فى هول ذلك اليوم .. إذا جاءت الصاخة . . ثم يأخـذ فى تصوير حال المؤمنين وحال الكافرين ، بعد تقويمهم ووزنهم بميزان الله هناك :

« وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة » . .

فهذه وجوه مستنيرة منيرة متهللة ضاحكة مستبشرة ، راجية فى ربها ، مطمئنة بما تستشعره من رضاه عنها . فهى تنجو من هول الصاخة المذهل لتتهلل وتستنير وتضحك وتستبشر . أو هى قد عرفت مصيرها ، وتبين لها مكانها ، فتهللت واستبشرت بعد الهول المذهل . .

« ووجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقها قترة . أولئك هم الكفرة الفجرة » . .

فأما هـذه فتعلوها غبرة الحزن والحسرة ، ويغشاها سواد الذل والانقباض . وقد عرفت ماقدمت ، فاستيقنت ماينتظرها من جزاء .. «أولئك هم الكفرة الفجرة » .. الذين لايؤمنون بالله وبرسالاته ، والذين خرجوا عن حدوده وانتهكوا حرماته . .

وفى هذه الوجوه وتلك قد ارتسم مصير هؤلاء وهؤلاء . ارتسم ملامح وسمات من خلال الألفاظ والعبارات . وكأنما الوجوه شاخصة ، لقوة التعبير القرآنى ودقة لمساته .

بذلك يتناسق المطلع والختام . . المطلع يقرر حقيقة الميزان . والختام يقرر نتيجة الميزان . وتستقل هذه السورة القصيرة بهذا الحشد من الحقائق الضخام ،والمشاهد والمناظر، والإيقاعات والموحيات . وتفى بها كلها هذا الوفاء الجميل الدقيق . .

---

(١) عن كتاب مشاهد القيامة فى القرآن .

Marfat.com

سورة التكوير مكية
وآياتها ٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ① وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ: * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ؟ * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ .

« فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ؟ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » ㉙

هـذه السورة ذات مقطعين اثنين تعالج فى كل مقطع منهما تقرير حقيقة ضخمة من حقائق العقيدة :

الأولى حقيقة القيامة ،وما يصاحبها من انقلاب كونى هائل كامل ، يشمل الشمس والنجوم والجبال والبحار ، والأرض والسماء ، والأنعام والوحوش ، كما يشمل بنى الإنسان .

Marfat.com

والثانية حقيقة الوحى ، وما يتعلق بها من صفة الملك الذى يحمله، وصفة النبى الذى يتلقاه، ثم شأن القوم المخاطبين بهـذا الوحى معه ، ومع المشيئة الكبرى التى فطرتهم ونزلت لهم الوحى .

والإيقاع العام للسورة أشبه بحركة جائحة . تنطلق من عقالها ، فتقلب كل شىء ، وتنثر كل شىء ؛ وتهيج الساكن وتروع الآمن ؛ وتذهب بكل مألوف وتبدل كل معهود ؛ وتهز النفس البشرية هزا عنيفا طويلا ، يخلعها من كل ماعتادت أن تسكن إليه ، وتتشبث به ، فإذا هى فى عاصفة الهول المدمر الجارف ريشة لاوزن لها ولا قرار . ولا ملاذ لها ولا ملجأ إلا فى حمى الواحد القهار ، الذى له وحده البقاء والدوام ، وعنده وحده القرار والاطمئنان . .

ومن ثم فالسورة بإيقاعها العام وحده تخلع النفس من كل ماتطمئن إليه وتركن ، لتلوذ بكنف الله ، وتأوى إلى حماه ، وتطلب عنده الأمن والطمأنينة والقرار . .

وفى السورة ـ مع هذا ـ ثروة ضخمة من المشاهد الرائعة ، سواء فى هذا الكون الرائع الذى نراه ، أو فى ذلك اليوم الآخر الذى ينقلب فيه الكون بكل مانعهده فيه من أوضاع . وثروة كذلك من التعبيرات الأنيقة ! المنتقاة لتلوين المشاهد والإيقاعات . وتلتقى هذه وتلك فى حيز السورة الضيق ، فتضغط على الحس وتنفذ إليه فى قوة وإيحاء .

ولولا أن فى التعبير ألفاظا وعبارات لم تعد مألوفة ولا واضحة للقارىء فى هـذا الزمان . لآثرت ترك السورة تؤدى بإيقاعها وصورها وظلالها وحقائقها ومشاهدها ، مالا تؤديه أية ترجمة لها فى لغة البشر ؛ وتصل بذاتها إلى أوتار القلوب فتهزها من الأعماق .

ولكن لابد مما ليس منه بد . وقد بعدنا فى زماننا هذا عن مألوف لغة القرآن !

* * *

« إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سيرت ، وإذا العشار عطلت ، وإذا الوحوش حشرت ، وإذا البحار سجرت ، وإذا النفوس زوجت ، وإذا الموءودة سئلت : بأى ذنب قتلت ؟ وإذا الصحف نشرت ، وإذا السماء كشطت ، وإذا الجحيم سعرت ، وإذا الجنة أزلفت . . علمت نفس ما أحضرت » . .

هـذا هو مشهد الانقلاب التام لكل معهود ، والثورة الشاملة لكل موجود . الانقلاب الذى يشمل الأجرام السماوية والأرضية ، والوحوش النافرة والأنعام الأليفة ، ونفوس البشر ،

Marfat.com

وأوضاع الأمور . حيث ينكشف كل مستور، ويعلم كل مجهول ؛وتقف النفس أمام ماأحضرت من الرصيد والزاد فى موقف الفصل والحساب . وكل شىء من حولها عاصف ؛ وكل شىء من حولها مقلوب !

وهذه الأحداث الكونية الضخام تشير بجملتها إلى أن هذا الكون الذى نعهده . الكون المنسق الجميل ، الموزون الحركة ، المضبوط النسبة ، المتين الصنعة ، المبنى بأيد وإحكام. أن هذا الكون سينفرط عقد نظامه ، وتتناثرأجزاؤه ، وتذهب عنه صفاته هذه التى يقوم بها ؛ وينتهى إلى أجله المقدر . حيث تنتهى الخلائق إلى صورة أخرى من الكون ومن الحياة ومن الحقائق غير ماعهدت نهائيا فى هذا الكون المعهود .

وهذا ما تستهدف السورة إقراره فى المشاعر والقلوب كى تنفصل من هذه المظاهر الزائلة ـ مهما بدت لها ثابتة ـ وتتصل بالحقيقة الباقية . . حقيقة الله الذى لايحول ولايزول ، حين يحول كل شىء من الحوادث ويزول . ولكى تنطلق من إسار المعهود المألوف فى هذا الكون المشهود . إلى الحقيقة المطلقة التى لاتتقيد بزمان ولامكان ولارؤية ولا حس ، ولامظهر من المظاهر التى تقيدها فى ظرف أو إطار محدود !

وهذا هو الشعور العام الذى يتسرب إلى النفس وهى تطالع مشاهد هذا الانقلاب الرهوب.

فأما حقيقة مايجرى لكل هذه الكائنات . فعلمها عند الله ؛ وهى حقيقة أكبر من أن ندركها الآن بمشاعرنا وتصوراتنا المقيدة بمألوف حسنا وتفكيرنا..وأكبر مانعهده من الانقلابات هو أن ترجف بنا الأرض فى زلزال مدمر ، أو يتفجر من باطنها بركان جائح ، أو أن ينقض على الأرض شهاب صغير ، أوصاعقة .. وأشدماعرفته البشرية من طغيان الماء كان هو الطوفان .. كما أن أشد مارصدته من الأحداث الكونية كان هو انفجارات جزئية فى الشمس على بعدمئات الملايين من الأميال . .

وهذه كلها بالقياس إلى ذلك الانقلاب الشامل الهائل فى يوم القيامة . . تسليات أطفال!!!

فإذا لم يكن بد أن نعرف شيئا عن حقيقة مايجرى للكائنات ، فليس أمامنا إلا تقريبها فى عبارات مما نألف فى هذه الحياة !

* * *

إن تكوير الشمس قد يعنى برودتها ،وانطفاءشعلتها ، وانكماش ألسنتهاالملتهبةالتى تمتدمن

Marfat.com

جوانبها كلها الآن إلى ألوف الأميال حولها فى الفضاء . كما يتبدى هـذا من المراصد فى وقت الكسوف . واستحالتها من الغازية المنطلقة بتأثير الحرارة الشديدة التى تبلغ ١٢٠٠٠ درجة ، والتى تحول جميع المواد التى تتكون منها الشمس إلى غازات منطلقة ملتهبة . . . استحالتها من هذه الحالة إلى حالة تجمد كقشرة الأرض ، وتكور لاألسنة له ولاامتداد !

قد يكون هذا ، وقد يكون غيره . . أما كيف يقع والعوامل التى تسبب وقوعه فعلم ذلك عند الله .

* * *

وانكدار النجوم قد يكون معناه انتثارها من هذا النظام الذى يربطها ، وانطفاء شعلتها وإظلام ضوئها . . والله أعلم ماهى النجوم التى يصيبها هذا الحادث. وهل هى طائفة من النجوم القريبة منا . . مجموعتنا الشمسية مثلا . أومجرتنا هذه التى تبلغ مئات الملايين من النجوم . . أم هى النجوم جميعها والتى لايعلم عددها ومواضعها إلا الله. فوراء مانرى منها بمراصدنا مجرات وفضاءات لها لانعرف لها عددا ولانهاية. فهناك نجوم سيصيبها الانكدار كما يقرر هذا الخبر الصادق الذى لا يعلم حقيقته إلا الله . .

* * *

وتسيير الجبال قد يكون معناه نسفها وبسها وتذريتها فى الهواء ، كما جاء فى سورة أخرى: «ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا » .. «وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا » .. « وسيرت الجبال فكانت سرابا » .. فكلها تشير إلى حدث كهذا يصيب الجبال ، فيذهب بثباتها ورسوخها وتماسكها واستقرارها وقد يكون مبدأ ذلك الزلزال الذى يصيب الأرض ، والذى يقول عنه القرآن : « إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها . . » وكلها أحداث تقع فى ذلك اليوم الطويل . .

* * *

أما قوله : « وإذا العشار عطلت » .. فالعشار هى النوق الحبالى فى شهرها العاشر . وهى أجود وأثمن ماعلكه العربى . وهى فى حالتها هذه تكون أغلى ماتكون عنده، لأنها مرجوة الولد واللبن ، قريبة النفع . ففى هذا اليوم الذى تقع فيه هـذه الأهوال تهمل هـذه العشار

Marfat.com

وتعطل فلا تصبح لها قيمة ، ولايهتم بشأنها أحد .. والعربى المخاطب ابتداء بهذه الآية لايهمل هـذه العشار ولاينفض يده منها إلا فى حالة يراها أشد مايلم به !

* * *

« وإذا الوحوش حشرت » .. فهذه الوحوش النافرة قد هالها الرعب والهول فحشرت وانزوت تتجمع من الهول وهى الشاردة فى الشعاب ؛ ونسيت مخاوفها بعضها من بعض ، كما نسيت فرائسها ومضت هائمة على وجوهها ، لاتأوى إلى جحورها أوبيوتها كما هى عادتهـا ، ولاتنطلق وراء فرائسها كما هو شأنها . فالهول والرعب لايدعان لهذه الوحوش بقية من طباعها وخصائصها ! فكيف بالناس فى ذلك الهول العصيب ؟ !

* * *

وأما تسجير البحار فقد يكون معناه ملؤها بالمياه . وإما أن تجيئها هذه المياه من فيضانات كالتى يقال إنها صاحبت مولد الأرض وبرودتها (التى تحدثنا عنها فى سورة النازعات) وإما بالزلازل والبراكين التى تزيل الحواجز بين البحار فيتدفق بعضها فى بعض . . وإما أن يكون معناه التهابها وانفجارها كما قال فى موضع آخر : « وإذا البحار فجرت » .. فتفجير عناصرها وانفصال الأيدروجين عن الأكسوجين فيها . أو تفجير ذراتها على نحو مايقع فى تفجير الذرة ، وهو أشد هولا . أوعلى اى نحو آخر . وحين يقع هذا فإن نيرانا هائلة لايتصور مداها تنطلق من البحار . فإن تفجير قدر محدود من الذرات فى القنبلة الذرية أو الأيدروجينية يحدث هذا الهول الذى عرفته الدنيا ؛ فإذا انفجرت ذرات البحار على هـذا النحو أونحو آخر ، فإن الإدراك البشرى يعجز عن تصور هـذا الهول ؛ وتصور جهنم الهائلة التى تنطلق من هـذه البحار الواسعة ؛

* * *

وتزويج النفوس يحتمل أن يكون هو جمع الأرواح بأجسادها بعد إعادة إنشائها .ويحتمل أن يكون ضم كل جماعة من الأرواح المتجانسة فى مجموعة ، كما قال فى موضع آخر : « وكنتم أزواجا ثلاثة » أى صنوفا ثلاثة هم المقربون وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة . أوفى غير ذلك من التشكيلات المتجانسة !

* * *

Marfat.com

« وإذا الموءودة سئلت : بأى ذنب قتلت ؟ » وقد كان من هوان النفس الإنسانية فى الجاهلية أن انتشرت عادة وأد البنات خوف العار أوخوف الفقر . وحكى القرآن عن هـذه العادة مايسجل هذه الشناعة على الجاهلية ، التى جاء الإسلام ليرفع العرب من وهدتها ، ويرفع البشرية كلها . فقال فى موضع : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء مابشر به . أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ؟ ألا ساء مايحكمون ! » .. وقال فى موضع : « وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمان مثلا (أى البنات) ظل وجهه مسودا وهو كظيم . أومن ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين ؟ » . . وقال فى موضع ثالث : « ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » . .

وكان الوأد يتم فى صورة قاسية . إذ كانت البنت تدفن حية ! وكانوا يفتنون فى هـذا بشتى الطرق . فمنهم من كان إذا ولدت له بنت تركها حتى تكون فى السادسة من عمرها ، ثم يقول لأمها : طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها ! وقد حفر لها بئرا فى الصحراء ، فيبلغ بها البئر ، فيقول لها : انظرى فيهـا . ثم يدفعها دفعا ويهيل التراب عليها ! وعند بعضهم كانت الوالدة إذا جاءها المخاض، جلست فوق حفرة محفورة . فإذا كان المولود بنتا رمت بها فيها وردمتها . وإن كان ابنا قامت به معها ! وبعضهم كان إذا نوى ألا يئد الوليدة أمسكها مهينة إلى أن تقدر على الرعى ، فيلبسها جبة من صوف أوشعر ويرسلها فى البادية ترعى له إبله !

فأما الذين لايئدون البنات ولايرسلونهن للرعى ، فكانت لهم وسائل أخرى لإذاقتها الخسف والبخس . كانت إذا تزوجت ومات زوجها جاء وليه فألقى عليها ثوبه . ومعنى هذا أن يمنعها من الناس فلا يتزوجها أحد فإن أعجبته تزوجها ، لاعبرة برغبتها هى ولا إرادتها ! وإن لم تعجبه حبسها حتى تموت فيرثها . أوأن تفتدى نفسها منه بمال فى هـذه الحالة أوتلك . . وكان بعضهم يطلق المرأة ويشترط عليها ألا تنكح إلامن أراد . إلا أن تفتدى نفسها منه بمـا كان أعطاها .. وكان بعضهم إذا مات الرجل حبسوا زوجته على الصبى فيهم حتى يكبر فيأخذها . . وكان الرجل تكون اليتيمة فى حجره يلى أمرها ، فيحبسها عن الزواج ، رجاء أن تموت امرأته فيتزوجها! أويزوجها من ابنه الصغير طمعا فى مالها أوجمالها ..

فهذه كانت نظرة الجاهلية إلى المرأة على كل حال . حتى جاء الإسلام . يشنع بهذه العادات ويقبحها . وينهى عن الوأد ويغلظ فعلته . ويجعلها موضوعا من موضوعات الحساب يوم القيامة .

Marfat.com

يذكره فى سياق هذا الهول الهائج المائج ، كأنه حدث كونى من هذه الأحداث العظام. ويقول : إن الموءودة ستسأل عن وأدها .. فكيف بوائدها ؟ !

وما كان يمكن أن تنبت كرامة المرأة من البيئة الجاهلية أبدا ؛ لولا أن تنزل بها شريعة الله ونهجه فى كرامة البشرية كلها ، وفى تكريم الإنسان : الذكر والأنثى ؛ وفى رفعه إلى المكان اللائق بكائن يحمل نفخة من روح الله العلى الأعلى . فمن هذا المصدر انبثقت كرامة المرأة التى جاء بها الإسلام ، لا من أى عامل من عوامل البيئة .

وحين تحقق ميلاد الإنسان الجديد باستمداد القيم التى يتعامل بها من السماء لا من الأرض ، تحققت للمرأة الكرامة ، فلم يعد لضعفها وتكاليف حياتها المادية على أهلها وزن فى تقويمها وتقديرها . لأن هذه ليست من قيم السماء ولا وزن لها فى ميزانها . إنما الوزن للروح الإنسانى الكريم المتصل بالله . وفى هذا يتساوى الذكر والأنثى .

وحين تعد الدلائل على أن هذا الدين من عند الله ، وأن الذى جاء به رسول أوحى إليه . . تعد هذه النقلة فى مكانة المرأة إحدى هذه الدلائل التى لا تخطىء . حيث لم تكن توجد فى البيئة أمارة واحدة ينتظر أن تنتهى بالمرأة إلى هذه الكرامة ؛ ولا دافع واحد من دوافع البيئة وأحوالها الاقتصادية بصفة خاصة لولا أن نزل النهج الإلهى ليصنع هذا ابتداء بدافع غير دوافع الأرض كلها ، وغير دوافع البيئة الجاهلية بصفة خاصة . فأنشأ وضع المرأة الجديد إنشاء ، يتعلق بقيمة سماوية محضة وبميزان سماوى محض كذلك !

* * *

« وإذا الصحف نشرت » صحف الأعمال . ونشرها يفيد كشفها ومعرفتها ، فلا تعود خافية ولا غامضة . وهذه العلنية أشد على النفوس وأنكى . فكم من سوأة مستورة يخجل صاحبها ذاته من ذكراها ، ويرجف ويذوب من كشفها ! ثم إذا هى جميعها فى ذلك اليوم منشورة مشهودة !

إن هذا النشر والكشف لون من ألوان الهول فى ذلك اليوم ؛ كما أنه سمة من سمات الانقلاب حيث يكشف المخبوء ، ويظهر المستور ، ويفتضح المكنون فى الصدور .

* * *

وهذا التكشف فى خفايا الصدور يقابله فى الكون مشهد مثله : « وإذا السماء كشطت » ..

Marfat.com

وأول مايتبادر إلى الذهن من كلمة السماء هو هـذا الغطاء المرفوع فوق الرؤوس . وكشطها إزالتها . . فأما كيف يقع هذا وكيف يكون فلا سبيل إلى الجزم بشيء . ولـكنا نتصور أن بنظر الإنسان فلا يرى هـذه القبة فوقه نتيجة لأى سبب يغير هـذه الأوضاع الـكونية ، التى توجد بها هذه الظاهرة . وهذا يكفى . .

* * *

ثم تجيء الخطوة الأخيرة فى مشاهد ذلك اليوم الهائل المرهوب :

« وإذا الجحيم سعرت . وإذا الجنة أزلفت » . .

حيث تتوقد الجحيم وتتسعر ، ويزداد لهيبها ووهجها وحرارتها . . أما أين هى ؟ وكيف تتسعر وتتوقد ؟ وبأى شيء تتوقد ؟ فليس لدينا من ذلك إلا قوله تعالى : « وقودها الناس والحجارة » . وذلك بعد إلقاء أهلها فيها . أما قبل ذلك فالله أعلم بها وبوقودها !

وحيث تقرب الجنة وتظهر لروادها الموعودين بها ، وتبـدو لهم سهولة مدخلها ، ويسر ولوجها . فهى مزلفة مقربة مهيأة . واللفظ كأنما يزحلقها أو يزحلق الأقدام بيسر إليها ! !

* * *

عندما تقع هذه الأحداث الهائلة كلها ، فى كيان الـكون ، وفى أحوال الأحياء والأشياء . عندئذ لايبقى لدى النفوس شك فى حقيقة ماعملت ، وما تزودت به لهذا اليوم ، وما حملت معها للعرض ، وما أحضرت للحساب :

« علمت نفس ماأحضرت » . .

كل نفس تعلم ، فى هذا اليوم الهائل مامعها وما لها وما عليها . . تعلم وهـذا الهول يحيط بها ويغمرها . . تعلم وهى لاتملك أن تغير شيئا مما أحضرت ، ولا أن تزيد عليه ولا أن تنقص منه . . تعلم وقد انفصلت عن كل ماهو مألوف لها ، معهود فى حياتها أو تصورها . وقد انقطعت عن عالمها وانقطع عنها عالمها . وقد تغير كل شيء وتبدل كل شيء ، ولم يبق إلا وجه الله الـكريم ، الذى لايتحول ولا يتبدل . . فما أولى أن تتجه النفوس إلى وجه الله الـكريم ، فتجده ـ سبحانه ـ عندما يتحول الـكون كله ويتبدل !

Marfat.com

وبهـذا الإيقاع ينتهى المقطع الأول وقد امتلأ الحس وفاض بمشاهد اليوم الذى يتم فيـه هذا الانقلاب .

* * *

ثم يجىء المقطع الثانى فى السورة يبـدأ بالتلويح بالقسم بمشاهد كونية جميلة ، تختار لها تعبيرات أنيقة . . القسم على طبيعة الوحى ، وصفة الرسول الذى يحمله ، والرسول الذى يتلقاه، وموقف الناس حياله وفق مشيئة الله :

« فلا أقسم بالخنس ، الجوارى الكنس ، والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس . إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثم أمين . وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين ، وما هو على الغيب بضنين . وما هو بقول شيطان رجيم . فأين تذهبون ؟ إن هو إلا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم . وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين » . .

والخنس الجوارى الكنس . . هى الكواكب التى تخنس أى ترجع فى دورتها الفلكية وتجرى وتختفى . والتعبير يخلع عليها حياة رشيقة كحياة الظباء . وهى تجرى وتختبىء فى كناسها وترجع من ناحية أخـرى . فهناك حياة تنبض من خلال التعبير الرشيق الأنيق عن هـذه الكواكب ، وهناك إيحاء شعورى بالجمال فى حركتها . فى اختفائها وفى ظهورها . فى تواريها وفى سفورها . فى جريها وفى عودتها . يقابله إيحاء بالجمال فى شكل اللفظ وجرسه .

« والليل إذا عسعس » . . أى إذا أظلم . ولكن اللفظ فيـه تلك الإيحاءات كذلك . فلفظ عسعس مؤلف من مقطعين : عس . عس . وهو يوحى بجرسه بحياة فى هـذا الليل ، وهو يعس فى الظلام بيده أو برجله لايرى ! وهو إيحاء عجيب واختيار للتعبير رائع .

ومثله : « والصبح إذا تنفس » . . بل هو أظهر حيوية ، وأشـد إيحاء . والصبح حى يتنفس . أنفاسه النور والحياة والحركة التى تدب فى كل حى . وأكاد أجزم أن اللغة العربية بكل مأثوراتها التعبيرية لاتحتوى نظيرا لهـذا التعبير عن الصبح . ورؤية الفجر تكاد تشعر القلب المتفتح أنه بالفعل يتنفس ! ثم يجىء هـذا التعبير فيصور هـذه الحقيقة التى يشعر بها القلب المتفتح . .

Marfat.com

وكل متذوق لجمال التعبير والتصوير يدرك أن قوله تعالى : « فلا أقسم بالخنس الجـوارى الـكنس ، والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس» . . ثروة شعورية وتعبيرية . فوق مايشير إليه من حقائق كونية . ثروة جميلة بديعة رشيقة ؛تضاف إلى رصيد البشرية من المشاعر، وهى تستقبل هذه الظواهر الـكونية بالحس الشاعر .

* * *

يلوح بهـذه المشاهد الـكونية التى يخلع عليها الحياة ؛ ويصل روح الإنسان بأرواحها من خلال التعبير الحى الجميـل عنها ؛ لتسكب فى روح الإنسان أسرارها ، وتشى لها بالقـدرة التى وراءها ، وتحدثها بصدق الحقيقة الإيمانية التى تدعى إليها . . ثم يذكر هذه الحقيقة فى أنسب الحالات لذكرها واستقبالها :

« إنه لقول رسول كريم . ذى قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثم أمين » . .

إن هذا القرآن ، وهذا الوصف لليوم الآخر .. لقول رسول كريم .. وهو جبريل الذى حمل هذا القول وأبلغه . . فصار قوله باعتبار تبليغه .

ويذكر صفة هذا الرسول ، الذى اختير لحمل هذا القول وإبلاغه . . « كريم » عند ربه. فربه هو الذى يقول . . « ذى قوة » . . مما يوحى بأن هـذا القول يحتاج فى حمـله إلى قوة . « عند ذى العرش مكين » . . فى مقامه ومكانته . . وعند من ؟ عنـد ذى العرش العلى الأعلى . « مطاع ثم » هناك فى الملأ الأعلى . « أمين » . . على مايحمل وما يبلغ . .

وهذه الصفات فى مجموعها توحى بكرامة هذا القول وضخامته وسموه كذلك وارتفاعه . كما توحى بعناية الله سبحانه بالإنسان ، حتى ليختار هـذا الرسول صاحب هـذه الصفة ليحمل الرسالة إليـه ، ويبلغ الوحى إلى النبى المختار منه . . وهى عناية تخجل هـذا الـكائن ، الذى لايساوى فى ملك الله شيئا ، لولا أن الله ـ سبحانه ـ يتفضل عليـه فيـكرمه هـذه الـكرامة !

* * *

فهذه صفة الرسول الذى حمل القول وأداه ، فأما الرسول الذى حمله إليـكم فهو «صاحبكم» .. عرفتموه حق المعرفة عمرا طويلا. فمالـكم حين جاءكم بالحق تقولون فيه ماتقولون . وتذهبون فى أمره المذاهب ، وهو« صاحبـكم » الذى لاتجهلون . وهو الأمين على الغيب الذى يحدثـكم عنه عن يقين :

Marfat.com

« وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين . وما هو على الغيب بضنين . وما هو بقول شيطان رجيم . فأين تذهبون ؟ إن هو إلا ذكر للعالمين » . .

ولقد قالوا عن النبي الكريم الذى يعرفونه حق المعرفة ، ويعرفون رجاحة عقله ، وصدقه وأمانته وتثبته ، قالوا عنه : إنه مجنون . وإن شيطانا يتنزل عليه بما يقول . قال بعضهم هذا كيدا له ولدعوته كما وردت بذلك الأخبار . وقاله بعضهم عجبا ودهشة من هذا القول الذى لايقوله البشر فيما يألفون ويعهدون . وتمشيا مع ظنهم أن لكل شاعر شيطانا يأتيه بالقول الفريد . وأن لكل كاهن شيطانا يأتيه بالغيب البعيد . وأن الشيطان يمس بعض الناس فينطق على لسانهم بالقول الغريب ! وتركوا التعليل الوحيد الصادق ، وهو أنه وحى وتنزيل من رب العالمين .

فجاء القرآن يحدثهم فى هذا المقطع من السورة عن جمال الكون البديع ، وحيوية مشاهده الجميلة . ليوحى إلى قلوبهم بأن القرآن صادر عن تلك القدرة المبدعة ، التى أنشأت ذلك الجمال . على غير مثال . وليحدثهم بصفة الرسول الذى حمله ، والرسول الذى بلغه . وهو صاحبهم الذى عرفوه . غير مجنون . والذى رأى الرسول الكريم ـ جبريل ـ حق الرؤية ، بالأفق المبين الواضح الذى تتم فيه الرؤية عن يقين . وأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمؤتمن على الغيب ، لاتظن به الظنون فى خبره الذى يرويه عنه ، فما عرفوا عنه إلا الصدق واليقين . « وما هو بقول شيطان رجيم » فالشياطين لاتوحى بهذا النهج القويم . ويسألهم مستنكرا : « فأين تذهبون ؟ » . . أين تذهبون فى حكمكم وقولكم ؟ أو أين تذهبون منصرفين عن الحق وهو يواجهكم أينما ذهبتم !

« إن هو إلا ذكر للعالمين » ذكر يذكرهم بحقيقة وجودهم ، وحقيقة نشأتهم ، وحقيقة الكون من حولهم . . « للعالمين » . . فهو دعوة عالمية من أول مرحلة . والدعوة فى مكة محاصرة مطاردة . كما تشهد مثل هذه النصوص المكية . .

* * *

وأمام هذا البيان للوحى الدقيق يذكرهم أن طريق الهداية ميسر لمن يريد . وأنهم إذن مسؤولون عن أنفسهم ، وقد منحهم الله هذا التيسير :

« لمن شاء منكم أن يستقيم » . .

Marfat.com

أن يستقيم على هدى الله ، فى الطريق إليه ، بعد هذا البيان ، الذى يكشف كل شبهة ، وينفى كل ريبة ، ويسقط كل عذر . ويوحى إلى القلب السليم بالطريق المستقيم . فمن لم يستقم فهو مسؤول عن انحرافه . فقد كان أمامه أن يستقيم .

والواقع أن دلائل الهدى وموحيات الإيمان فى الأنفس والآفاق من القوة والعمق والثقل بحيث يصعب على القلب التفلت من ضغطها إلا بجهد متعمد . وبخاصة حين يسمع التوجيه إليها بأسلوب القرآن الموحى الموقظ . وما ينحرف عن طريق الله ـ بعد ذلك ـ إلا من يريد أن ينحرف . فى غير عذر ولا مبرر !

* * *

فإذا سجل عليهم إمكان الهدى ، ويسر الاستقامة ، عاد لتقرير الحقيقة الكبرى وراء مشيئتهم حقيقة أن المشيئة الفاعلة من وراء كل شىء هى مشيئة الله سبحانه :

« وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين » . .

وذلك كى لا يفهموا أن مشيئتهم منفصلة عن المشيئة الكبرى ، التى يرجع إليها كل أمر . فإعطاؤهم حرية الاختيار ، ويسر الاهتداء ، إنما يرجع إلى تلك المشيئة . المحيطة بكل شىء كان أو يكون !

وهذه النصوص التى يعقب بها القرآن الكريم عند ذكر مشيئة الخلائق ، يراد بها تصحيح التصور الإيمانى وشموله للحقيقة الكبيرة: حقيقة أن كل شىء فى هذا الوجود مرده إلى مشيئة الله . وأن ما يأذن به للناس من قدرة على الاختيار هو طرف من مشيئته ككل تقدير آخر وتدبير . شأنه شأن ما يأذن به للملائكة من الطاعة المطلقة لما يؤمرون ، والقدرة الكاملة على أداء ما يؤمرون . فهو طرف من مشيئته كإعطاء الناس القدرة على اختيار أحد الطريقين بعد التعليم والبيان . .

ولا بد من إقرار هذه الحقيقة فى تصور المؤمنين ، ليدركوا ما هو الحق لذاته . وليلتجئوا إلى المشيئة الكبرى يطلبون عندها العون والتوفيق ، ويرتبطون بها فى كل ما يأخذون وما يدعون فى الطريق !

Marfat.com

سورة الانفطار مكية
وآياتها ١٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« إِذَا ٱلسَّمَاءُ ٱنفَطَرَتْ ① وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ * وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ .

« يَاأَيُّهَا ٱلْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ * ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِى أَىِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ .

« كَلَّا ! بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ .

« إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ .

« وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً ، وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ » ⑲

تتحدث هذه السورة القصيرة عن الانقلاب الكونى الذى تتحدث عنه سورة التكوير . ولكنها تتخذ لها شخصية أخرى ، وسمتا خاصا بها ، وتتجه إلى مجالات خاصة بها تطوّف بالقلب البشرى فيها ؛ وإلى لمسات وإيقاعات من لون جديد. هادىء عميق . لمسات كأنها عتاب . وإن كان فى طياته وعيد !

Marfat.com

ومن ثم فإنها تختصر فى مشاهد الانقلاب ، فلا تكون هى طابع السورة الغالب ـ كما هو الشأن فى سورة التكوير ـ لأن جو العتاب أهدأ ، وإيقاع العتاب أبطأ . . وكذلك إيقاع السورة الموسيقى . فهو يحمل هذا الطابع . فيتم التناسق فى شخصية السورة والتوافق !

إنها تتحدث فى المقطع الأول منها عن انفطار السماء وانتثار الكواكب ، وتفجير البحار وبعثرة القبور كحالات مصاحبة لعلم كل نفس بما قدمت وأخرت ، فى ذلك اليوم الخطير . .

وفى المقطع الثانى تبدأ لمسة العتاب المبطنة بالوعيد ، لهذا الإنسان الذى يتلقى من ربه فيوض النعمة فى ذاته وخلقته ، ولكنه لايعرف للنعمة حقها ، ولا يعرف لربه قدره ، ولا يشكر على الفضل والنعمة والكرامة : « ياأيها الإنسان . ماغرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك ؟ فى أى صورة ماشاء ركبك » . .

وفى المقطع الثالث يقرر علة هذا الجحود والإنكار . فهى التكذيب بالدين ـ أى بالحساب ـ وعن هذا التكذيب ينشأ كل سوء وكل جحود . ومن ثم يؤكد هذا الحساب توكيدا ،ويؤكد عاقبته وجزاءه المحتوم : « كلا . بل تكذبون بالدين .وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين . يعلمون ماتفعلون . إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم . يصلونها يوم الدين . وما هم عنها بغائبين » . .

فأما المقطع الأخير ، فيصور ضخامة يوم الحساب وهوله ، وتجرد النفوس من كل حول فيه ، وتفرد الله سبحانه بأمره الجليل :« وما أدراك مايوم الدين ؟ ثم ما أدراك ما يوم الدين ؟ يوم لاتملك نفس لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله » . .

فالسورة فى مجموعها حلقة فى سلسلة الإيقاعات والطرقات التى يتولاها هذا الجزء كله بشتى الطرق والأساليب .

* * *

« إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجرت ، وإذا القبور بعثرت . علمت نفس ماقدمت وأخرت » . .

وقد تحدثنا فى السورة الماضية عن الإيحاء الذى يتسرب فى الحس من رؤية هذا الكون تتناوله يد القدرة بالتغيير ، وتهزه هزة الانقلاب المثير ، فلا يبقى شىء على حاله فى هذا الكون الكبير . وقلنا : إن هذا الإيحاء يتجه إلى خلع النفس من كل ماتركن إليه فى هذا الوجود ،

Marfat.com

إلا الله سبحانه خالق هـذا الوجود ، البـاقى بعد أن يفنى كل موجود . والاتجاه بالقلب إلى الحقيقة الوحيـدة الثابتة الدائمة التى لاتحول ولا تزول ، ليجد عنـدها الأمان والاستقرار ، فى مواجهة الانقلاب والاضطراب والزلزلة والانهيار ، فى كل ما كان يعهده ثابتا مستقرا منتظما انتظاما يوحى بالخلود ! ولا خلود إلا للخالق المعبود !

ويذكر هنا من مظاهر الانقلاب انفطار السماء .. أى انشقاقها . وقد ذكر انشقاق السماء فى مواضع أخرى : قال فى سورة الرحمان : « فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » .. وقال فى سورة الحاقة : « وانشقت السماء فهى يومئذ واهية » . . وقال فى سورة الانشقاق : « إذا السماء انشقت . . . » . . فانشقاق السماء حقيقة من حقائق ذلك اليوم العصيب . أما المقصود بانشقاق السماء على وجه التحديد فيصعب القول به ، كما يصعب القـول عن هيئة الانشقاق التى تـكون . . وكل ما يستقر فى الحس هو مشهد التغير العنيف فى هيئة الـكون المنظور ، وانتهاء نظامه هـذا المعهود ، وانفراط عقـده ، الذى يمسك به فى هـذا النظام الدقيق . .

ويشارك فى تـكوين هذا المشهد مايذكر عن انتثار الـكواكب . بعد تماسكها هذا الذى تجرى معه فى أفلاكها بسرعات هائلة مرعبـة ، وهى ممسكة فى داخل مداراتها لاتتعداها ، ولا تهيم على وجهها فى هذا الفضاء الذى لايعلم أحد له نهاية . ولو انتثرت ـ كما سيقع لها يوم ينتهى أجلها ـ وأفلتت من ذلك الرباط الوثيق ـ غير المنظور ـ الذى يشدها ويحفظها ، لذهبت فى الفضاء بددا ، كما تذهب الذرة التى تنفلت من عقالها !

وتفجير البحار يحتمل أن يكون هو امتلاؤها وغمرها لليابسة وطغيانها على الأنهار . كما يحتمل أن يكون هو تفجير مائها إلى عنصريه : الأكسوجين والهيدروجين ؛ فتتحول مياهها إلى هذين الغازين كما كانت قبل أن يأذن الله بتجمعهما وتـكوين البحار منهما . كذلك يحتمل أن يكون هو تفجير ذرات هذين الغازين ـ كما يقع فى تفجير القنابل الذرية والهيدروجينية اليوم . . فيـكون هذا التفجير من الضخامة والهول بحيث تعتبرهذه القنابل الحاضرة المروعة لعب أطفال ساذجة ! . . أو أن يكون بهيئة أخرى غير مايعرف البشر على كل حال . . إنمـا هو الهول الذى لم تعهده أعصاب البشر فى حال من الأحوال !

وبعثرة القبور . . إما أن تـكون بسبب من هـذه الأحداث السابقة . وإما أن تـكون

Marfat.com

حادثا بذاته يقع فى ذلك اليوم الطويل ، الكثير المشاهد والأحداث . فتخرج منها الأجساد التى أعاد الله إنشاءها ـ كما أنشأها أول مرة ـ لتلاقى حسابها وجزاءها .

يؤيد هذا ويتناسق معه قوله بعد عرض هذه المشاهد والأحداث : « علمت نفس ماقدمت وأخرت » .. أى مافعلته أولا وما فعلته أخيرا . أومافعلته فى الدنيا . ومات كته وراءها من آثار فعلها . أوماستمتعت به فى الدنيا وحدها ، وماادخرته للآخرة بعدها

على أية حال سيكون علم كل نفس بهذا مصاحبا لتلك الأهوال العظام . وواحدا منها مروعا لها كترويع هذه المشاهد والأحداث كلها !

والتعبير القرآنى الفريد يقول : « علمت نفس » .. وهو يفيد من جهة المعنى : كل نفس . ولكنه أرشق وأوقع . . كما أن الأمر لايقف عند حدود علمها بما قدمت وأخرت . فلهذا العلم وقعه العنيف الذى يشبه عنف تلك المشاهد الكونية المنقلبة . والتعبير يلقى هذا الظل دون أن يذكره نصا . فإذا هو أرشق كذلك وأوقع !

* * *

وبعد هذا المطلع الموقظ المنبه للحواس والمشاعر والعقول والضمائر ، يلتفت إلى واقع الإنسان الحاضر ، فإذا هو غافل لاه سادر . . هنا يلمس قلبه لمسة فيها عتاب رضىّ ، وفيها وعيد خفى ، وفيها تذكير بنعمة الله الأولى عليه : نعمة خلقه فى هذه الصورة السوية على حين يملك ربه أن يركبه فى أى صورة تتجه إليها مشيئته . ولكنه اختار له هذه الصورة السوية المعتدلة الجميلة . . وهو لايشكر ولايقدر :

« ياأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم ، الذى خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة ماشاء ركبك » . .

إن هذا الخطاب : « ياأيها الإنسان » ينادى فى الإنسان أكرم مافى كيانه ، وهو « إنسانيته » التى بها تميز عن سائر الأحياء ؛ وارتفع إلى أكرم مكان ؛ وتجلى فيها إكرام الله له ، وكرمه الفائض عليه .

ثم يعقبه ذلك العتاب الجميل الجليل : « ماغرك بربك الكريم ؟ » ياأيها الإنسان الذى تكرم عليك ربك ، راعيك ومربيك ، بإنسانيتك الكريمة الواعية الرفيعة . .ياأيها الإنسان ماالذى غرك بربك ، فجعلك تقصر فى حقه ، وتتهاون فى أمره ، ويسوء أدبك فى جانبه ؟وهو

Marfat.com

ربك الكريم ، الذى أغدق عليك من كرمه وفضله وبره ؟ ومن هذا الإغداق إنسانيتك التى تميزك عن سائر خلقه ، والتى تميز بها وتعقل وتدرك ماينبغى ومالاينبغى فى جانبه ؟

ثم يفصل شيئا من هـذا الكرم الإلهى ، الذى أجمله فى النداء الموحى العميق الدلالة ، المشتمل على الكثير من الإشارات المضمرة فى التعبير . يفصل شيئا من هذا الكرم الإلهى المغدق على الإنسان المتمثل فى إنسانيته التى ناداه بها فى صدر الآية . فيشير فى هذا التفصيل إلى خلقه وتسويته وتعديله ؛ وهو القادر على أن يركبه فى أى صورة وفق مشيئته . فاختياره هذه الصورة له منبثق من كرمه وحده ، ومن فضله وحده ، ومن فيضه المغدق على هذا الإنسان الذى لايشكر ولايقدر . بل يغتر ويسدر !

« ياأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك ؟ » . .

إنه خطاب يهز كل ذرة فى كيان الإنسان حين تستيقظ إنسانيته ، ويبلغ من القلب شغافه وأعماقه، وربه الكريم يعاتبه هـذا العتاب الجليل ، ويذكره هذا الجميل ، بينما هو سادر فى التقصير ، سيىء الأدب فى حق مولاه الذى خلقه فسواه فعدله . .

إن خلق الإنسان على هذه الصورة الجميلة السوية المعتدلة ، الكاملة الشكل والوظيفة ، أمر يستحق التدبر الطويل ، والشكر العميق ، والأدب الجم ، والحب لربه الكريم ، الذى أكرمه بهذه الخلقة ، تفضلا منه ورعاية ومنة . فقد كان قادرا أن يركبه فى أية صورة أخرى يشاؤها . فاختار له هذه الصورة السوية المعتدلة الجميلة . .

وإن الإنسان لمخلوق جميل التكوين ،سوى الخلقة ، معتدل التصميم، وإن عجائب الإبداع فى خلقه لأضخم من إدراكه هو ، وأعجب من كل مايراه حوله .

وإن الجمال والسواء والاعتدال لتبدو فى تكوينه الجسدى ، وفى تكوينه العقلى ، وفى تكوينه الروحى سواء ، وهى تتناسق فى كيانه فى جمال واستواء !

وهناك مؤلفات كاملة فى وصف كمال التكوين الإنسانى العضوى ودقته وإحكامه وليس هنا مجال التوسع الكامل فى عرض عجائب هـذا التكوين . ولكنا نكتفى بالإشارة إلى بعضها .

هـذه الأجهزة العامة لتكوين الإنسان الجسدى . . الجهاز العظمى . والجهاز العضلى . والجهاز الجلدى . والجهاز الهضمى . والجهاز الدموى . والجهاز التنفسى . والجهاز التناسلى .

Marfat.com

والجهاز اللمفاوى . والجهاز العصبي . والجهاز البولى . وأجهزة الذوق والشم والسمع والبصر . . كل منها عجيبة لاتقاس إليها كل العجائب الصناعيـة التى يقف الإنسان مدهوشا أمامها . وينسى عجائب ذاته وهى أضخم وأعمق وأدق بما لايقاس !

« تقول مجلة العلوم الإنجليزية : إن يد الإنسان فى مقدمة العجائب الطبيعية الفـذة ؛ وإنه من الصعب جدا ـ بل من المستحيل ـ أن تبتـكر آلة تضارع اليد البشرية من حيث البساطة والقدرة وسرعة التـكيف . فحينما تريد قراءة كتاب تتناوله بيدك ، ثم تثبته فى الوضع الملائم للقراءة . وهذه اليد هى التى تصحح وضعه تلقائيا . وحينما تقلب إحدى صفحاته تضع أصابعك تحت الورقة ،وتضغط عليها بالدرجة التى تقلبها بها ،ثم يزول الضغط بقلب الورقة .واليد تمسك القلم وتـكتب به . وتستعمل كافة الآلات التى تلزم الإنسان من ملعقة ، إلى سكين ، إلى آلة الـكتابة . وتفتح النوافذ وتغلقها ، وتحمل كل ما يريده الإنسان . . واليـدان تشتملان على سبع وعشرين عظمة وتسع عشرة مجموعة من العضلات لـكل منهما (١) »

و « إن جزءاً من أذن الإنسان (الأذن الوسطى) هو سلسلة من نحو أربعة آلاف حنية (قوس) دقيقة معقدة ، متدرجة بنظام بالغ ، فى الحجم والشكل ، ويمـكن القول بأن هـذه الحنيات تشبه آلة موسيقية . ويبدو أنها معدة بحيث تلتقط وتنقل إلى المخ ، بشكل ما ، كل وقع صوت أو ضجة ، من قصف الرعد إلى حفيف الشجر .فضلا عن المزيج الرائع من أنغام كل أداة موسيقية فى الأركسترا ووحدتها المنسجمة (٢) » .

« ومركز حاسة الإبصار فى العين التى تحتوى على مائة وثلاثين مليونا من مستقبلات الضوء ، وهى أطراف الأعصاب ، ويقوم بحمايتها الجفن ذو الأهـداب الذى يقيها ليلا ونهارا ، والذى تعتبر حركته لاإرادية ، الذى يمنع عنها الأتربة والذرات والأجسام الغريبة، كما يـكسر من حدة الشمس بما تلقى الأهـداب على العين من ظلال . وحركة الجفن علاوة على هـذه الوقاية تمنع جفاف العين ، أما السائل المحيط بالعين والذى يعرف باسم الدموع ، فهـو أقوى مطهر . . . (٣) »

---

(١) عن كتاب : الله والعلم الحديث للأستاذ عبد الرزاق نوفل

(٢) عن كتاب : العلم يدعو إلى الإيمان .

(٢) عن كتاب : الله والعلم الحديث .

Marfat.com

« وجهاز الذوق فى الإنسان هو اللسان ، ويرجع عمله إلى مجموعات من الخلايا الذوقية القائمة فى حلمات غشائه المخاطى . ولتلك الحلمات أشكال مختلفة، فمنها الخيطية والفطرية والعدسية ويغذى الحلمات فروع من العصب اللسانى البلعومى ، والعصب الذوقى . وتتأثر عند الأكل الأعصاب الذوقية ، فينتقل الأثر إلى المخ .وهذا الجهاز موجود فى أول الفم،حتى يمكن للإنسان أن يلفظ مايحس أنه ضار به ، وبه يحس المرء المرارة والحلاوة،والبرودة والسخونة ،والحامض والملح ، واللاذع ونحوه . ويحتوى اللسان على تسعة آلاف من نتوءات الذوق الدقيقة ، يتصل كل نتوء منها بالمخ بأكثر من عصب . فكم عدد الأعصاب؟وماحجمها ؟ وكيف تعمل منفردة، وتتجمع بالإحساس عند المخ » ؟ (١) .

« ويتكون الجهاز العصبى الذى يسيطر على الجسم سيطرة تامة من شعيرات دقيقة تمر فى كافة أنحاء الجسم . وتتصل بغيرها أكبر منها . وهذه بالجهاز المركزى العصبى . فإذا ماتأثر جزء من أجزاء الجسم ، ولو كان ذلك لتغير بسيط فى درجة الحرارة بالجو المحيط ، نقلت الشعيرات العصبية هذا الإحساس إلى المراكز المنتشرة فى الجسم . وهذه توصل الإحساس إلى المخ حيث يمكنه أن يتصرف . وتبلغ سرعة سريان الإشارات والتنبيهات فى الأعصاب مئة متر فى الثانية » (٢) .

« ونحن إذا انظرنا إلى الهضم على أنه عملية فى معمل كيماوى ، وإلى الطعام الذى نأكله على أنه مواد غفل ، فإننا ندرك توا أنه عملية عجيبة . إذ تهضم تقريبا كل شىء يؤكل ماعدا المعدة نفسها !

« فأولا نضع فى هذا المعمل أنواعا من الطعام كمادة غفل دون أى مراعاة للمعمل نفسه ، أو تفكير فى كيفية معالجة كيمياء الهضم له ! فنحن نأكل شرائح اللحم والكرنب والحنطة والسمك المقلى ، وندفعها بأى قدر من الماء ..

« ومن بين هذا الخليط تختار المعدة تلك الأشياء التى هى ذات فائدة ، وذلك بتحطيم كل صنف من الطعام إلى أجزائه الكيماوية دون مراعاة للفضلات ، وتعيد تكوين الباقى إلى بروتينات جديدة ، تصبح غذاء لمختلف الخلايا . وتختار أداة الهضم الجير والكبريت واليود والحديد وكل المواد الأخرى الضرورية ، وتعنى بعدم ضياع الأجزاء الجوهرية ، وبإمكان إنتاج

---

(١) و (٢) عن كتاب : الله والعلم الحديث .

Marfat.com

الهرمونات ، وبأن تكون جميع الحاجات الحيوية للحياة حاضرة فى مقادير منتظمة ، ومستعدة لمواجهة كل ضرورة . وهى تخزن الدهن والمواد الاحتياطية الأخرى ، للقاء كل حالة طارئة ، مثل الجوع ، وتفعل ذلك كله بالرغم من تفكير الإنسان أو تعليله . إننا نصب هـذه الأنواع التى لاتحصى من المواد فى هذا المعمل الكيماوى ، بصرف النظر كلية تقريبا عما نتناوله ، معتمدين على مانحسبه عملية ذاتية (أوتوماتيكية) لإبقائنا على الحياة . وحين تتحلل هذه الأطعمة وتجهز من جديد ، تقدم باستمرار إلى كل خلية من بلايين الخلايا ، التى تبلغ من العدد أكثر من عدد الجنس البشرى كله على وجه الأرض . ويجب أن يكون التوريد إلى كل خلية فردية مستمرا ، وألا يورد سوى تلك المواد التى تحتاج إليها تلك الخلية المعينة لتحويلها إلى عظام وأظافر ولحم وشعر وعينين وأسنان ، كما تتلقاها الخلية المختصة !

« فها هنا إذن معمل كيماوى ينتج من المواد أكثر مما ينتجه أى معمل ابتكره ذكاء الإنسان ! وهاهنا نظام للتوريد أعظم من أى نظام للنقل أو التوزيع عرفه العالم ! ويتم كل شىء فيه بمنتهى النظام ! » (١) .

وكل جهاز من أجهزة الإنسان الأخرى يقال فيه الشىء الكثير . ولكن هـذه الأجهزة ـ على إعجازها الواضح ـ قد يشاركه فيها الحيوان فى صورة من الصور . إنما تبقى له هو خصائصه العقلية والروحية الفريدة التى هى موضع الامتنان فى هـذه السورة . بصفة خاصة : « الذى خلقك فسواك فعدلك » . بعد ندائه : « ياأيها الإنسان » ..

هذا الإدراك العقلى الخاص ، الذى لاندرى كنهه . إذ أن العقل هو أداتنا لإدراك ماندرك . والعقل لايدرك ذاته ولا يدرك كيف يدرك ! !

هـذه المدركات . . نفرض أنها كلها تصل إلى المخ عن طريق الجهاز العصبى الدقيق . ولكن أين يخزنها ! إنه لو كان هذا المخ شريطا مسجلا لاحتاج الإنسان فى خلال الستين عاما التى هى متوسط عمـره إلى آلاف الملايين من الأمتار ليسجل عليها هـذا الحشد من الصور والكلمات والمعانى والمشاعر والتأثرات ، لكى يذكرها بعد ذلك ، كما يذكرها فعلا بعد عشرات السنين !

ثم كيف يؤلف بين الكلمات المفردة والمعانى المفردة ، والحوادث المفردة ، والصور

---

(١) من كتاب : العلم يدعو إلى الإيمان .

Marfat.com

المفردة، ليجعل منها ثقافة مجمعة. ثم ليرتقى من المعلومات إلى العلم ؟ ومن المدركات إلى الإدراك؟ ومن التجارب إلى المعرفة ؟

هـذه هى إحدى خصائص الإنسان المميزة . . وهى مع هـذا ليست أكبر خصائصه ، وليست أعلى مميزاته . فهنالك ذلك القبس العجيب من روح الله . . هنالك الروح الإنسانى الخاص ، الذى يصل هـذا الـكائن بجمال الوجود ، وجمال خالق الوجـود ؛ ويمنحه تلك اللحظات المجنحة الوضيئة من الاتصال بالمطلق الذى ليس له حدود . بعـد الاتصال بومضات الجمال فى هذا الوجود .

هـذا الروح الذى لايعرف الإنسان كنهه ـ وهل هو يعلم ماهو أدنى وهو إدراكه للمدركات الحسية ؟ ! ـ والذى يمتعه بومضات من الفرح والسعادة العلوية حتى وهو على هـذه الأرض . ويصله بالملأ الأعلى ، ويهيئه للحياة المرسومة بحياة الجنان والخلود . وللنظر إلى الجمال الإلهى فى ذلك العالم السعيد !

هـذا الروح هو هبة الله الـكبرى لهذا الإنسان . وهو الذى به صار إنسانا . وهو الذى يخاطبه باسمه : « ياأيها الإنسان » .. ويعاتبه ذلك العتاب المخجل ! «ماغرك بربك الـكريم ؟ » هذا العتاب المباشر من الله للإنسان . حيث يناديه ـ سبحانه ـ فيقف أمامه مقصرا مذنبا مغترا غير مقدر لجلال الله ،ولا متأدب فى جنابه .. ثم يواجهه بالتذكير بالنعمة الـكبرى .ثم بالتقصير وسوء الأدب والغرور !

إنه عتاب مذيب . . حين يتصور « الإنسان » حقيقة مصدره ، وحقيقة مخبره ، وحقيقة الموقف الذى يقفه بين يدى ربه ، وهو يناديه ذلك النداء ، ثم يعاتبه هذا العتاب :

« ياأيها الإنسان ماغرك بربك الـكريم . الذى خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة ماشاء ركبك » . .

* * *

ثم يـكشف عن علة الغرور والتقصير ـ وهى التـكذيب بيوم الحساب ـ ويقرر حقيقة الحساب ، واختلاف الجزاء ، فى توكيد وتشديد :

« كلا ! بل تـكذبون بالدين . وإن عليـكم لحافظين ، كراما كاتبين ، يعلمون ماتفعلون . إن الأبرار لفى نعيم . وإن الفجار لفى جحيم ، يصلونها يوم الدين ، وما هم عنها بغائبين » . .

Marfat.com

وكلا كلمة ردع وزجر عما هم فيه . وبل كلمة إضراب عما مضى من الحديث . ودخول فى لون من القول جديد . لون البيان والتقرير والتوكيد . وهو غير العتاب والتذكير والتصوير . .

« كلا . بل تكذبون بالدين » . . تكذبون بالحساب والمؤاخذة والجزاء . وهذه هى علة الغرور ، وعلة التقصير . فما يكذب القلب بالحساب والجزاء ثم يستقيم على هدى ولا خير ولا طاعة . وقد ترتفع القلوب وتشف ، فتطيع ربها وتعبده حبا فيه ، لاخوفا من عقابه ، ولا طمعا فى ثوابه . ولكنها تؤمن بيوم الدين وتخشاه ، وتتطلع إليه ، لتلقى ربها الذى تحبه وتشتاق لقاءه وتتطلع إليه . فأما حين يكذب الإنسان تكذيبا بهذا اليوم ، فلن يشتمل على أدب ولا طاعة ولا نور . ولن يحيا فيه قلب ، ولن يستيقظ فيه ضمير .

تكذبون بيوم الدين . . وأنتم صائرون إليه ، وكل ماعملتم محسوب عليكم فيه . لايضيع منه شىء ، ولا ينسى منه شىء : « وإن عليكم لحافظين ، كراما كاتبين ، يعلمون ما تفعلون » . .

وهؤلاء الحافظون هم الأرواح الموكلة بالإنسان ـ من الملائكة ـ التى ترافقه ، وتراقبه ، وتحصى عليه كل ما يصدر عنه . . ونحن لاندرى كيف يقع هذا كله ، ولسنا بمكلفين أن نعرف كيفيته . فالله يعلم أننا لم نوهب الاستعداد لإدراكها . وأنه لاخير لنا فى إدراكها . لأنها غير داخلة فى وظيفتنا وفى غاية وجودنا . فلا ضرورة للخوض فيما وراء المدى الذى كشفه الله لنا من هذا الغيب . ويكفى أن يشعر القلب البشرى أنه غير متروك سدى . وأن عليه حفظة كراما كاتبين يعلمون ما يفعله ، ليرتعش ويستيقظ ، ويتأدب ! وهذا هو المقصود !

ولما كان جو السورة جو كرم وكرامة ، فإنه يذكر من صفة الحافظين كونهم . . « كراما » . . ليستجيش فى القلوب إحساس الخجل والتجمل بحضرة هؤلاء الكرام . فإن الإنسان ليحتشم ويستحي وهو بمحضر الكرام من الناس أن يسف أو يتبذل فى لفظ أو حركة أو تصرف . . فكيف به حين يشعر ويتصور أنه فى كل لحظاته وفى كل حالاته فى حضرة حفظة من الملائكة « كرام » لايليق أن يطلعوا منه إلا على كل كريم من الخصال والفعال ؟!

إن القرآن ليستجيش فى القلب البشرى أرفع المشاعر بإقرار هذه الحقيقة فيه بهذا التصور الواقعى الحى القريب إلى الإدراك المألوف . .

Marfat.com

ثم يقرر مصير الأبرار ومصير الفجار بعد الحساب ، القائم على مايكتبه الكرام الكاتبون :

« إن الأبرار لفى نعيم . وإن الفجار لفى جحيم . يصلونها يوم الدين . وماهم عنها بغائبين » . .

فهو مصير مؤكد ، وعاقبة مقررة . أن ينتهى الأبرار إلى النعيم . وأن ينتهى الفجار إلى الجحيم . والبرّ هو الذى يأتى أعمال البرّ حتى تصبح له عادة وصفة ملازمة . وأعمال البر هى كل خير على الإطلاق . والصفة تتناسق فى ظلها مع الكرم والإنسانية . كما أن الصفة التى تقابلها : « الفجار » فيها سوء الأدب والتوقح فى مقارفة الإثم والمعصية . والجحيم هى كفء للفجور ! ثم يزيد حالهم فيها ظهورا . . « يصلونها يوم الدين » .. ويزيدها توكيدا وتقريرا : « وماهم عنها بغائبين » لافرارا ابتداء . ولاخلاصا بعد الوقوع فيها ولو إلى حين! فيتم التقابل بين الأبرار والفجار . وبين النعيم والجحيم . مع زيادة الإيضاح والتقرير لحالة رواد الجحيم !

* * *

ولما كان يوم الدين هو موضع التكذيب ، فإنه يعود إليه بعد تقرير مايقع فيه . يعود إليه ليقرر حقيقته الذاتية فى تضخيم وتهويل بالتجهيل وبما يصيب النفوس فيه من عجز كامل وتجرد من كل شبهة فى عون أو تعاون . وليقرر تفرد الله بالأمر فى ذلك اليوم العصيب :

« وماأدراك مايوم الدين ؟ ثم ماأدراك مايوم الدين ؟ يوم لاتملك نفس لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله » . .

والسؤال للتجهيل مألوف فى التعبير القرآنى . وهو يوقع فى الحس أن الأمر أعظم جدا وأهول جدا من أن يحيط به إدراك البشر المحدود . فهو فوق كل تصور وفوق كل توقع وفوق كل مألوف .

وتكرار السؤال يزيد فى الاستهوال . .

ثم يجىء البيان بما يتناسق مع هذا التصوير : « يوم لاتملك نفس لنفس شيئا » . . فهو العجز الشامل . وهو الشلل الكامل . وهو الانحسار والانكماش والانفصال بين النفوس المشغولة بهمها وحملها عن كل من تعرف من النفوس ! « والأمر يومئذ لله » .. يتفرد بسبحانه . وهو المتفرد بالأمر فى الدنيا والآخرة . ولكن فى هذا اليوم ـ يوم الدين ـ تتجلى هذه

Marfat.com

الحقيقة التي قد يغفل عنها في الدنيا الغافلون المغرورون . فلا يعود بها خفاء ، ولا تغيب عن مخدوع ولامفتون !

* * *

ويتلاقى هذا الهول الصامت الواجم الجليل في نهاية السورة ، مع ذلك الهول المتحرك الهائج المائج في مطلعها . وينحصر الحس بين الهولين .. وكلاهما مذهل مهيب رعيب ! وبينهما ذلك العتاب الجليل المخجل المذيب !

Marfat.com

سورة المطففين مكية
وآياتها ٣٦

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ! ① الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ؟ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ؟

« كَلَّا ! إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ؟ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ! * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ : أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * كَلَّا ! بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا ! إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ: هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ .

« كَلَّا ! إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ * إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ ، وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ * وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ .

« إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا : إِنَّ هَٰؤُلَاءِ

Marfat.com

لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ؟ » ﴿٣٦﴾

هذه السورة تصور قطاعا من الواقع العملى الذى كانت الدعوة تواجهه فى مكة ـ إلى جانب ما كانت تستهدفه من إيقاظ القلوب ، وهز المشاعر ، وتوجيهها إلى هذا الحدث الجديد فى حياة العرب وفى حياة الإنسانية ، وهو الرسالة السماوية للأرض ، وما تتضمنه من تصور جديد شامل محيط .

هـذا القطاع من الواقع العملى تصوره السورة فى أولها ، وهى تتهدد المطففين بالويل فى اليوم العظيم ، « يوم يقوم الناس لرب العالمين » . . كما تصوره فى ختامها وهى تصف سوء أدب الذين أجرموا مع الذين آمنوا ، وتغامزهم عليهم ، وضحكهم منهم ، وقولهم عنهم : « إن هؤلاء لضالون ! »

وهذا إلى جانب ماتعرضه من حال الفجار وحال الأبرار ؛ ومصير هؤلاء وهؤلاء فى ذلك اليوم العظيم .

وهى تتألف من أربعة مقاطع . . يبدأ المقطع الأول منها بإعلان الحرب على المطففين : « ويل للمطففين . الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ؛ وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ؟ يوم يقوم الناس لرب العالمين ؟ » . .

ويتحدث المقطع الثانى عن الفجار فى شدة وردع وزجر ، وتهديد بالويل والهلاك ، ودمغ بالإثم والاعتداء ، وبيان لسبب هذا العمى وعلة هذا الانطماس ، وتصوير لجزائهم يوم القيامة ، وعذابهم بالحجاب عن ربهم ، كما حجبت الآثام فى الأرض قلوبهم ، ثم بالجحيم مع الترذيل والتأنيب : « كلا . إن كتاب الفجار لفى سجين . وما أدراك ماسجين ؟ كتاب مرقوم . ويل يومئذ للمكذبين ! الذين يكذبون بيوم الدين . وما يكذب به إلا كل معتد أثيم ، إذا تتلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين . كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون . ثم إنهم لصالو الجحيم . ثم يقال : هـذا الذى كنتم به تكذبون » . .

Marfat.com

والمقطع الثالث يعرض الصفحة المقابلة . صفحة الأبرار . ورفعة مقامهم . والنعيم المقرر لهم. ونضرته التي تفيض على وجوههم . والرحيق الذي يشربون وهم على الأرائك ينظرون .. وهي صفحة ناعمة وضيئة : « كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين . وما أدراك ما عليون ؟ كتاب مرقوم ، يشهده المقربون . إن الأبرار لفي نعيم ، على الأرائك ينظرون ، تعرف في وجوههم نضرة النعيم ، يسقون من رحيق مختوم ، ختامه مسك ـ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون . ومزاجه من تسنيم . عينا يشرب بها المقربون » . .

والمقطع الأخير يصف ما كان الأبرار يلاقونه في عالم الغرور الباطل من الفجار من إيذاء وسخرية وسوء أدب . ليضع في مقابله ما آل إليه أمر الأبرار وأمر الفجار في عالم الحقيقة الدائم الطويل :

« إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، وإذا مروا بهم يتغامزون ، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا : إن هؤلاء لضالون . وما أرسلوا عليهم حافظين . فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ، على الأرائك ينظرون . هل ثوّب الكفار ما كانوا يفعلون ؟ » .

والسورة في عمومها تمثل جانبا من بيئة الدعوة ، كما تمثل جانبا من أسلوب الدعوة في مواجهة واقع البيئة ، وواقع النفس البشرية . . وهذا ما سنحاول الكشف عنه في عرضنا للسورة بالتفصيل . .

* * *

« ويل للمطففين : الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم : يوم يقوم الناس لرب العالمين ؟ » . .

تبدأ السورة بالحرب يعلنها الله على المطففين : « ويل للمطففين » . . والويل : الهلاك . وسواء كان المراد هو تقرير أن هذا أمر مقضي ، أو أن هذا دعاء . فهو في الحالين واحد فالدعاء من الله قرار . .

وتفسر الآيتان التاليتان معنى المطففين . فهم : « الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » . . فهم الذين يتقاضون بضاعتهم وافية إذا كانوا شراة . ويعطونها للناس ناقصة إذا كانوا بائعين . .

ثم تعجب الآيات الثلاثة التالية من أمر المطففين ، الذين يتصرفون كأنه ليس هناك حساب

Marfat.com

على مايكسبون فى الحياة الدنيا ؛ وكأن ليس هناك موقف جامع بين يدى الله فى يوم عظيم يتم فيه الحساب والجزاء أمام العالمين : « ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ؟ يوم يقوم الناس لرب العالمين ؟ » . .

والتصدى لشأن المطففين بهذا الأسلوب فى سورة مكية أمر يلفت النظر . فالسورة المكية عادة توجه اهتمامها إلى أصول العقيدة الكلية : كتقرير وحدانية الله . وانطلاق مشيئته ، وهيمنته على الكون والناس .. وكحقيقة الوحى والنبوة .. وكحقيقة الآخرة والحساب والجزاء . مع العناية بتكوين الحاسة الأخلاقية فى عمومها ، وربطها بأصول العقيدة . أما التصدى لمسألة بذاتها من مسائل الأخلاق ـ كمسألة التطفيف فى الكيل والميزان ـ والمعاملات بصفة عامة . فأمر جاء متأخرا فى السورة المدنية عند التصدى لتنظيم حياة المجتمع فى ظل الدولة الإسلامية ، وفق المنهج الإسلامى ، الشامل للحياة .

ومن ثم فإن التصدى لهذا الأمر بذاته فى هذه السورة المكية أمر يستحق الانتباه . وهو يشى بعدة دلالات متنوعة ، تكمن وراء هذه الآيات القصار ..

إنه يدل أولا على أن الإسلام كان يواجه فى البيئة المكية حالة صارخة من هذا التطفيف يزاولها الكبراء ، الذين كانوا فى الوقت ذاته هم أصحاب التجارات الواسعة ، التى تكاد تكون احتكارا . فقد كانت هنالك أموال ضخمة فى أيدى هؤلاء الكبراء يتجرون بها عن طريق القوافل فى رحلتى الشتاء والصيف إلى اليمن وإلى الشام . كما افتتحوا أسواقا موسمية كسوق عكاظ فى موسم الحج ، يقومون فيها بالصفقات ويتناشدون فيها الأشعار !

والنصوص القرآنية هنا تشى بأن المطففين الذين يتهددهم الله بالويل ، ويعلن عليهم هذه الحرب ، كانوا من طبقة الكبراء ذوى النفوذ ، الذى يملكون إكراه الناس على مايريدون . فهم يكتالون « على الناس » . . لامن الناس . . فكأن لهم سلطانا على الناس بسبب من الأسباب ، يجعلهم يستوفون المكيال والميزان منهم استيفاء وقسرا . وليس المقصود هو أنهم يستوفون حقا . وإلا فليس فى هذا مايستحق إعلان الحرب عليهم . إنما المفهوم أنهم يحصلون بالقسر على أكثر من حقهم ، ويستوفون مايريدون إجبارا . فإذا كالوا للناس أو وزنوا كان لهم من السلطان مايجعلهم ينقصون حق الناس، دون أن يستطيع هؤلاء منهم نصفة ولا استيفاء حق ... ويستوى أن يكون هذا بسلطان الرياسة والجاه القبلى . أو بسلطان المال وحاجة

Marfat.com

الناس لما فى أيديهم منه ؛ واحتكارهم للتجارة حتى يضطر الناس إلى قبول هـذا الجور منهم ؛ كما يقع حتى الآن فى الأسواق . . فقد كانت هناك حالة من التطفيف صارخة استحقت هـذه اللفتة المبكرة .

كما أن هذه اللفتة المبكرة فى البيئة المكية تشى بطبيعة هـذا الدين ؛ وشمول منهجه للحياة الواقعية وشؤونها العملية ؛ وإقامتها على الأساس الأخلاقى العميق الأصيل فى طبيعة هـذا المنهج الإلهى القويم . فقد كره هذه الحالة الصارخة من الظلم والانحراف الأخلاقى فى التعامل . وهو لم يتسلم بعد زمام الحياة الاجتماعية، لينظمها وفق شريعته بقوة القانون وسلطان الدولة. وأرسل هـذه الصيحة المدوية بالحرب والويل على المطففين . وهم يومئذ سادة مكة ، أصحاب السلطان المهين ـ لا على أرواح الناس ومشاعرهم عن طريق العقيدة الوثنية فحسب ، بل كذلك على اقتصادياتهم وشؤون معاشهم . ورفع صوته عاليا فى وجه الغبن والبخس الواقع على الناس وهم جمهرة الشعب المستغلين لكبرائه المتجرين بأرزاقه ، المرابين المحتكرين ، المسيطرين فى الوقت ذاته على الجماهير بأوهام الدين! فكان الإسلام بهذه الصيحة المنبعثة من ذاته ومن منهجه السماوى موقظا للجماهير المستغلة. ولم يكن قط مخدرا لها حتى وهو محاصر فى مكة ، بسطوة المتجبرين ، المسيطرين على المجتمع بالمال والجاه والدين !

ومن ثم ندرك طرفا من الأسباب الحقيقية التى جعلت كبراء قريش يقفون فى وجه الدعوة الإسلامية هذه الوقفة العنيدة . فهم كانوا يدركون ـ ولا ريب ـ أن هـذا الأمر الجديد الذى جاءهم به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليس مجرد عقيدة تكمن فى الضمير ؛ولا تتطلب منهم إلا شهادة منطوقة ، بأن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . وصلاة يقيمونها لله بلا أصنام ولا أوثان . . كلا . لقد كانوا يدركون أن هذه العقيدة تعنى منهجا يحطم كل أساس الجاهلية التى تقوم عليها أوضاعهم ومصالحهم ومراكزهم . وأن طبيعة هـذا المنهج لا تقبل مثنوية ولا تلتئم مع عنصر أرضى غير منبثق من عنصرها السماوى ؛ وأنها تهدد كل المقومات الأرضية الهابطة التى تقوم عليها الجاهلية . . ومن ثم شنوا عليها تلك الحرب التى لم تضع أوزارها لا قبل الهجرة ولا بعدها .الحرب التى تمثل الدفاع عن أوضاعهم كلها فى وجه الأوضاع الإسلامية .لا عن مجرد الاعتقاد والتصور المجردين . .

والذين يحاربون سيطرة المنهج الإسلامى على حياة البشر فى كل جيل وفى كل أرض

Marfat.com

يدركون هـذه الحقيقة . يدركونها جيـدا . ويعلمون أن أوضاعهم الباطلة ، ومصالحهم المغتصبة ، وكيانهم الزائف . . وسلوكهم المنحرف . . هـذه كلها هى التى يهـددها المنهج الإسلامى القويم الـكريم !

والطغاة البغاة الظلمة المطففون ـ فى أية صورة من صور التطفيف فى المال أو فى سائر الحقوق والواجبات ـ هم الذين يشفقون، أكثر من غيرهم من سيطرة ذلك المنهج العادل النظيف ! الذى لايقبل المساومة ، ولا المداهنة ، ولا أنصاف الحلول !

ولقد أدرك ذلك الذين بايعوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من نقباء الأوس والخزرج بيعة العقبة الثانية قبل الهجرة : قال ابن اسحاق : وحدثنى عاصم ابن عمر ابن قتادة أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ قال العباس ابن عبادة ابن نضلة الأنصارى أخو بنى سالم ابن عوف : يامعشر الخزرج . هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم . قال : إنـكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس . فإن كنتم ترون أنـكم إذا نهكت أموالـكم مصيبة وأشرافـكم قتل أسلمتموه فمن الآن ! فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة . وإن كنتم ترون أنـكم وافون له بما دعوتموه إليه ، على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة ، قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف . فمالنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا ؟ قال : « الجنة » . . قالوا : ابسط يدك . فبسط يده فبايعوه .

فقد أدرك هؤلاء ـ كما أدرك كبراء قريش من قبل ـ طبيعة هذا الدين . وأنه قائم كحد السيف للعدل والنصفة وإقامة حياة الناس على ذلك ، لايقبل من طاغية طغيانا ، ولامن باغ بغيا، ولامن متكبر كبرا . ولايقبل للناس الغبن والخسف والاستغلال . ومن ثم يحاربه كل طاغ باغ متكبر مستغل؛ ويقف لدعوته ولدعاته بالمرصاد . .

« ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ؟ يوم يقوم الناس لرب العالمين ؟ » . .

وإن أمرهم لعجيب . فإن مجرد الظن بالبعث لذلك اليوم العظيم . يوم يقوم الناس متجردين لرب العالمين ، ليس لهم مولى يومئذ سواه ، وليس بهم إلا التطلع لما يجريه عليهم من قضاء ، وقد علموا أن ليس لهم من دونه ولى ولانصير : . إن مجرد الظن بأنهم مبعوثون لذلك اليوم كان يكفى ليصدهم عن التطفيف ، وأكل أموال الناس بالباطل ، واستخدام السلطان فى ظلم

Marfat.com

الناس وبخسهم حقهم فى التعامل . . ولكنهم ماضون فى التطفيف كأنهم لايظنون أنهم مبعوثون! وهو أمر عجيب ، وشأن غريب !

* * *

وقد سماهم المطففين فى المقطع الأول . فأما فى المقطع الثانى فيسميهم الفجار . إذ يدخلهم فى زمرة الفجار ، ويتحدث عن هؤلاء . يتحدث عن اعتبارهم عند الله ، وعن حالهم فى الحياة . وعما ينتظرهم يوم يبعثون ليوم عظيم :

« كلا ! إن كتاب الفجار لفى سجين . وماأدراك ماسجين ؟ كتاب مرقوم . ويل يومئذ للمكذبين : الذين يكذبون بيوم الدين ؛ وما يكذب به إلا كل معتد أثيم ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين . كلا ! بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون . ثم إنهم لصالو الجحيم . ثم يقال : هذا الذى كنتم به تكذبون » . .

إنهم لايظنون أنهم مبعوثون ليوم عظيم . . فالقرآن يردعهم عن هذا ويزجرهم ، ويؤكد أن لهم كتابا تحصى فيه أعمالهم .. ويحدد موضعه زيادة فى التوكيد . ويوعدهم بالويل فى ذلك اليوم الذى يعرض فيه كتابهم المرقوم :

« كلا . إن كتاب الفجار لفى سجين . وماأدراك ماسجين ؟ كتاب مرقوم . ويل يومئذ للمكذبين » ! .

والفجار هم المتجاوزون للحد فى المعصية والإثم . واللفظ يوحى بذاته بهذا المعنى . وكتابهم هو سجل أعمالهم . ولاندرى نحن ماهيته ولم نكلف هذا . وهو غيب لانعرف عنه إلا بمقدار مايخبرنا عنه صاحبه ولازيادة ـ فهناك سجل لأعمال الفجار يقول القرآن : إنه فى سجين . ثم يسأل سؤال الاستهوال المعهود فى التعبير القرآنى : «وماأدراك ماسجين؟ » فيلقى ظلال التفخيم ويشعر المخاطب أن الأمر أكبر من إدراكه ، وأضخم من أن يحيط به علمه . ولكنه بقوله : « إن كتاب الفجار لفى سجين » يكون قد حدد له موضعا معينا ، وإن يكن مجهولا للإنسان . وهذا التحديد يزيد من يقين المخاطب عن طريق الإيحاء بوجود هذا الكتاب . وهذا هو الإيحاء المقصود من وراء ذكر هذه الحقيقة بهذا القدر ، دون زيادة .

ثم يعود إلى وصف كتاب الفجار ذاك فيقول : إنه « كتاب مرقوم » . . أى مفروغ منه ، لايزاد فيه ولا ينقص منه ، حتى يعرض فى ذلك اليوم العظيم .

Marfat.com

فإذا كان ذلك : كان « ويل يومئذ للمكذبين » !

ويحدد موضوع التكذيب . وحقيقة المكذبين :

« الذين يكذبون بيوم الدين . ومايكذب به إلا كل معتد أثيم . إذا تتلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين » . . فالاعتداء والإثم يقودان صاحبهما إلى التكذيب بذلك اليوم ؛ وإلى سوء الأدب مع هذا القرآن فيقول عن آياته حين تتلى عليه : « أساطير الأولين » . . لما يحويه من قصص الأولين المسوقة فيه للعبرة والعظة ، وبيان سنة الله التى لاتتخلف ، والتى تأخذ الناس فى ناموس مطرد لايحيد

ويعقب على هذا التطاول والتكذيب بالزجر والردع : « كلا ! » ليس كما يقولون . .

ثم يكشف عن علة هذا التطاول وهذا التكذيب ؛ وهذه الغفلة عن الحق الواضح وهذا الانطماس فى قلوب المكذبين :

« بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » . .

أى غطى على قلوبهم ما كانوا يكسبونه من الإثم والمعصية والقلب الذى يمرد على المعصية ينطمس ويظلم ؛ ويرين عليه غطاء كثيف يحجب النور عنه ويحجبه عن النور ، ويفقده الحساسية شيئا فشيئا حتى يتبلد ويموت . .

روى ابن جرير والترمذى والنسائى وابن ماجه من طرق ، عن محمد ابن عجلان ، عن القعقاع ابن حكيم ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن العبد إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء فى قلبه . فإن تاب منها صقل قلبه وإن زاد زادت » . . وقال الترمذى حسن صحيح . ولفظ النسائى : « إن العبد إذا اخطأ خطيئة نكت فى قلبه نكتة سوداء . فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه ، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه ، فهو الران الذى قال الله تعالى : « كلا ! بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » . .

وقال الحسن البصرى : هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب فيموت .

ذلك حال الفجار المكذبين . وهذه هى علة الفجور والتكذيب . . ثم يذكر شيئا عن مصيرهم فى ذلك اليوم العظيم . يناسب علة الفجور والتكذيب :

« كلا ! إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون . ثم إنهم لصالو الجحيم . ثم يقال : هذا الذي كنتم به تكذبون » . .

Marfat.com

لقد حجبت قلوبهم المعاصى والآثام . حجبتها عن الإحساس بربها فى الدنيا . وطمستها حتى أظلمت وعميت فى الحياة . . فالنهاية الطبيعية والجزاء الوفاق فى الآخرة أن يحرموا النظر إلى وجه الله الكريم ، وأن يحال بينهم وبين هذه السعادة الكبرى ، التى لاتتاح إلا لمن شفت روحه. ورقت وصفت واستحقت أن تكشف الحجب بينها وبين ربها . ممن قال فيهم فى سورة القيامة: « وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة » . .

وهذا الحجاب عن ربهم ، عذاب فوق كل عذاب ، وحرمان فوق كل حرمان . ونهاية بائسة لإنسان يستمد إنسانيته من مصدر واحد هو اتصاله بروح ربه الكريم . فإذا حجب عن هذا المصدر فقد خصائصه كإنسان كريم ؛ وارتكس إلى درجة يستحق معها الجحيم : « ثم إنهم لصالو الجحيم » . . ومع الجحيم التأنيب وهو أمرّ من الجحيم : « ثم يقال : هذا الذى كنتم به تكذبون» !!

* * *

ثم يعرض الصفحة الأخرى.صفحة الأبرار . على العهد بطريقة القرآن فى عرض الصفحتين متقابلتين فى الغالب ، لتتم المقابلة بين حقيقتين وحالين ونهايتين :

« كلا ! إن كتاب الأبرار لفى عليين. وماأدراكماعليون ؟ كتاب مرقوم، يشهده المقربون . إن الأبرار لفى نعيم ، على الأرائك ينظرون ، تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ، يسقون من رحيق مختوم، ختامه مسك . وفى ذلك فليتنافس المتنافسون . ومزاجه من تسنيم . عينا يشرب بها المقربون » . .

وكلمة « كلا » تجىء فى صدر هذا المقطع زجرا عما ذكر قبله من التكذيب فى قوله : « ثم يقال : هذا الذى كنتم به تكذبون » .. ويعقب عليه بقوله :« كلا » ثم يبدأ الحديث عن الأبرار فى حزم وفى توكيد .

فإذا كان كتاب الفجار فى « سجين » فإن كتاب الأبرار فى« عليين » . . . والأبرار هم الطائعون الفاعلون كل خير . وهم يقابلون الفجار العصاة المتجاوزين لكل حد . .

ولفظ « عليين »يوحى بالعلو والارتفاع. مما قد يؤخذ منه أن « سجين » يفيد الانحطاط والسفول . ثم يعقب عليه بسؤال التجهيل والتهويل المعهود : « وماأدراك ماعليون ؟ » . . فهو أمر فوق العلم والإدراك !

Marfat.com

ويعود من هـذا الظل الوحى إلى تقرير حقيقة كتاب الأبرار . . فهو « كتاب مرقوم يشهده المقربون » وقد سبق ذكر معنى مرقوم . ويضاف إليـه هنا أن الملائـكة المقربين يشهدون هـذا الـكتاب ويرونه . وتقرير هـذه الحقيقة هنا يلقى ظلا كريما طاهرا رفيعا على كتاب الأبرار . فهو موضع مشاهدة المقربين من الملائـكة ، ومتعتهم بما فيه من كرائم الأفعال والصفات . وهذا ظل كريم شفيف ، يذكر بقصد التـكريم .

ثم يذكر حال الأبرار أنفسهم ، أصحاب هذا الـكتاب الـكريم . ويصف ماهم فيـه من نعيم فى ذلك اليوم العظيم :

« إن الأبرار لفى نعيم » . . يقابل الجحيم الذى ينتهى إليـه الفجار . . « على الأرائك ينظرون » أى إنهم فى موضع التـكريم ، ينظرون حيث يشاءون ، لا يغضون من مهانة ، ولا يشغلون عن النظر من مشقة .. وهم على الأرائك وهى الأسرة فى الحجال . وأقرب مايمثلها عندنا مانسميه « الناموسية » أو الـكلة ! وصورتها الدنيوية كانت أرقى وأرق مظاهر النعيم عند العربى ذى العيشة الخشنة ! أما صورتها الأخروية فعلمها عند الله . وهى على أية حال أعلى من كل مايعهده الإنسان مما يستمده من تجاربه فى الأرض وتصوراته !

وهم فى هـذا النعيم ناعمو النفوس والأجسام ، تفيض النضرة على وجوههم وملامحهم حتى ليراها كل راء : « تعرف فى وجوههم نضرة النعيم » . .

« يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك » . .

والرحيق الشراب الخالص المصفى ، الذى لاغش فيه ولا كدرة . ووصفه بأنه مختوم ختامه مسك ، قد يفيد أنه معد فى أوانيه ، وأن هـذه الأوانى مقفلة مختومة ، تفض عند الشراب ، وهذا يلقى ظل الصيانة والعناية. كما أن جعل الختم من المسك فيه أناقة ورفاهية! وهذه الصورة لا يدركها البشر إلا فى حـدود مايعهدون فى الأرض . فإذا كانوا هنالك كانت لهم أذواق ومفاهيم تناسب تصورهم الطليق من جو الأرض المحدود !

وقبل أن يتم وصف الشراب الذى يجىء فى الآيتين التاليتين : « ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون » . . أى أن هـذا الرحيق المختوم يفض ختامه ثم يمزج بشىء من هـذه العين المسماة : « تسنيم» التى«يشرب بها المقربون » .. قبل أن يتم الوصف يلقى بهذا الإيقاع ، وبهذا التوجيه : « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » . . وهو إيقاع عميق يدل على كثير . . .

Marfat.com

إن أولئك المطففين ، الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ، ولا يحسبون حساب اليوم الآخر ، ويكذبون بيوم الحساب والجزاء ، ويرين على قلوبهم الإثم والمعصية . . إن هؤلاء إنما يتنافسون فى مال أو متاع من متاع الأرض الزهيد . يريد كل منهم أن يسبق إليه ، وأن يحصل على أكبر نصيب منه . ومن ثم يظلم ويفجر ويأثم ويرتكب مايرتكب فى سبيل متاع من متاع الأرض زائل . .

ومافى هذا العرض القريب الزهيد ينبغى التنافس . إنما يكون التنافس فى ذلك النعيم وفى ذلك التكريم : « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » .. فهو مطلب يستحق المنافسة ، وهو أفق يستحق السباق ، وهو غاية تستحق الغلاب .

والذين يتنافسون على شىء من أشياء الأرض مهما كبر وجل وارتفع وعظم، إنما يتنافسون فى حقير قليل فانٍ قريب .والدنيا لاتزن عند الله جناح بعوضة. ولكن الآخرة ثقيلة فى ميزانه. وهى إذن حقيقة تستحق المنافسة فيها والمسابقة . .

ومن عجب أن التنافس فى أمر الآخرة يرتفع بأرواح المتنافسين جميعا . بينما التنافس فى أمر الدنيا ينحط بها جميعا . والسعى لنعيم الآخرة يصلح الأرض ويعمرها ويطهرها للجميع . والسعى لعرض الدنيا يدع الأرض مستنقعا وبيئا تأكل فيه الديدان بعضها البعض . أو تنهش فيه الهوام والحشرات جلود الأبرار الطيبين !

والتنافس فى نعيم الآخرة لايدع الأرض خرابا بلقعا كما قد يتصور بعض المنحرفين . إنما يجعل الإسلام الدنيا مزرعة الآخرة ، ويجعل القيام بخلافة الأرض بالعمار مع الصلاح والتقوى وظيفة المؤمن الحق . على أن يتوجه بهذه الخلافة إلى الله ، ويجعل منها عبادة له تحقق غاية وجوده كما قررها الله ـ سبحانه ـ وهو يقول : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون.[1] »

وإن قولة « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » . . لهو توجيه يمد بأبصار أهل الأرض وقلوبهم وراء رقعة الأرض الصغيرة الزهيدة ، بينما هم يعمرون الأرض ويقومون بالخلافة فيها . ويرفعها إلى آفاق أرفع وأطهر من المستنقع الآسن بينما هم يطهرون المستنقع وينظفونه !

إن عمر المرء فى هذه العاجلة محدود ، وعمره فى الآجلة لايعلم نهايته إلا الله . وإن متاع هذه الأرض فى ذاته محدود . ومتاع الجنة لاتحده تصورات البشر . وإن مستوى النعيم فى هذه الدنيا

---

(١) يراجع تفسير هذا القول فى سورة الذاريات الجزء السابع والعشرون . صفحة ٢٧ ـ ٢٩

Marfat.com

معروف ومستوى النعيم هناك يليق بالخلود ! فأين مجال من مجال ؟ وأين غاية من غاية ؟ حتى بحساب الربح والخسارة فيما يعهد البشر من الحساب ؟ !

ألا إن السباق إلى هناك .. « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » ..

☆ ☆ ☆

وكأنما أطال السياق فى عرض صور النعيم الذى ينتظر الأبرار ، تمهيدا للحديث عما كانوا يلقون فى الأرض من الفجار . من أذى واستهزاء وتطاول وادعاء . . وقد أطال فى عرضه كذلك . ليختمه بالسخرية من الكفار ، وهم يشهدون نعيم الأبرار :

« إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . وإذا مروا بهم يتغامزون . وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا : إن هؤلاء لضالون . . وما أرسلوا عليهم حافظين . .

« فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون . على الأرائك ينظرون .

« هل ثوّب الكفار ما كانوا يفعلون ؟ » . .

والمشاهد التى يرسمها القرآن لسخرية الذين أجرموا من الذين آمنوا . وسوء أدبهم معهم ، وتطاولهم عليهم ، ووصفهم بأنهم ضالون . . مشاهد منتزعة من واقع البيئة فى مكة . ولكنها متكررة فى أجيال وفى مواطن شتى . وكثير من المعاصرين شهدوها كأنما هذه الآيات قد نزلت فى وصفها وتصويرها . مما يدل على أن طبيعة الفجار المجرمين واحدة متشابهة فى موقفها من الأبرار فى جميع البيئات والعصور ! !

« إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون » .. كانوا .. فقد طوى السياق الدنيا العاجلة الزائلة . فإذا المخاطبون به فى الآخرة . يرون نعيم الأبرار الذين آمنوا . وهو يذكر لهم ما كان من أمر الدنيا !

إنهم كانوا يضحكون من الذين آمنوا استهزاء بهم ، وسخرية منهم . إما لفقرهم ورثاثة حالهم . وإما لضعفهم عن رد الأذى . وإما لترفعهم عن سفاهة السفهاء . . فكل هذا مما يثير ضحك الذين أجرموا . وهم يتخذون المؤمنين مادة لسخريتهم أوفكاهتهم المرذولة . وهم يسلطون عليهم الأذى ، ثم يضحكون الضحك اللئيم الوضيع ، مما يصيب الذين آمنوا ، وهم صابرون مترفعون متحملون بأدب المؤمنين !

Marfat.com

« وإذا مروا بهم يتغامزون » . . يغمز بعضهم لبعض بعينه ، أويشير بيده ، أويأتى بحركة متعارفة بينهم للسخرية من المؤمنين . وهى حركة وضيعة واطية تكشف عن سوء الأدب ، والتجرد من التهذيب . بقصد إيقاع الانكسار فى قلوب المؤمنين ، وإصابتهم بالخجل والربكة ، وهؤلاء الأوغاد يتغامزون عليهم ساخرين !

« وإذا انقلبوا إلى أهلهم » بعد ماأشبعوا نفوسهم الصغيرة الرديئة من السخرية بالمؤمنين وإيذائهم . . « انقلبوا فكهين » . . راضين عن أنفسهم ، مبتهجين بما فعلوا ، مستمتعين بهذا الشر الصغير الحقير . فلم يتلوموا ولم يندموا ، ولم يشعروا بحقارة ماصنعوا وقذارة مافعلوا. وهذا منتهى ماتصل إليه النفس من إسفاف وموت للضمير !

« وإذا رأوهم قالوا : إن هؤلاء لضالون » !

وهذا أعجب . . فليس أعجب من أن يتحدث هؤلاء الفجار المجرمون عن الهدى والضلال. وأن يزعموا حين يرون المؤمنين ، أن المؤمنين ضالون . ويشيروا إليهم مؤكدين لهذا الوصف فى تشهير وتحقير : « إن هؤلاء لضالون ! » . .

والفجور لايقف عند حد، ولايستحي من قول ، ولايتلوم من فعل .واتهام المؤمنين بأنهم ضالون حين يوجهه الفجار المجرمون ، إنما يمثل الفجور فى طبيعته التى هى تجاوز لجميع الحدود!

والقرآن لايقف ليجادل عن الذين آمنوا ، ولاليناقش طبيعة الفرية . فهى كلمة فاجرة لاتستحق المناقشة . ولكنه يسخر سخرية عالية من القوم الذين يدسون أنوفهم فيما ليس من شأنهم ، ويتطفلون بلا دعوة من أحد فى هذا الأمر : « وماأرسلوا عليهم حافظين » . . وماوكلوا بشأن هؤلاء المؤمنين ، وماأقيموا عليهم رقباء ، ولا كلفوا وزنهم وتقدير حالهم ! فما لهم هم وهذا الوصف وهذا التقرير !

وينهى بهذه السخرية العالية حكاية ما كان من الذين أجرموا فى الدنيا . . ما كان . . ويطوى هذا المشهد الذى انتهى . ليعرض المشهد الحاضر والذين آمنوا فى ذلك النعيم :

« فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون . على الأرائك ينظرون » . .

اليوم والكفار محجوبون عن ربهم ، يقاسون ألم هذا الحجاب الذى تهدر معه إنسانيتهم ، فيصلون الجحيم ، مع الترذيل والتأنيب حيث يقال : « هذا الذى كنتم به تكذبون » . .

Marfat.com

اليوم والذين آمنوا على الأرائك ينظرون . فى ذلك النعيم المقيم ، وهم يتناولون الرحيق المختوم بالمسك الممزوج بالتسنيم . .

فاليوم . . الذين آمنوا من الكفار يضحكون . .

والقرآن يتوجه بالسخرية العالية مرة أخرى وهو يسأل :

« هل ثوّب الكفار ما كانوا يفعلون ؟ » .

أجل ! هل ثوبوا ؟ هل وجدوا ثواب مافعلوا ؟ وهم لم يجدوا « الثواب » المعروف من الكلمة . نحن نشهدهم اللحظة فى الجحيم ! ولكنهم من غير شك لاقوا جزاء مافعلوا . فهو ثوابهم إذن . وياللسخرية الكامنة فى كلمة الثواب فى هذا المقام !

* * *

ونقف لحظة أمام هذا المشهد الذى يطيل القرآن عرض مناظره وحركاته ـ مشهد سخرية الذين أجرموا من الذين آمنوا فى الدنيا ـ كما أطال من قبل فى عرض مشهد نعيم الأبرار وعرض مناظره ومناعمه . فنجد أن هذه الإطالة من الناحية التأثيرية فن عال فى الأداء التعبيرى، كما أنه فن عال فى العلاج الشعورى . فقد كانت القلة المسلمة فى مكة تلاقى من عنت المشركين وأذاهم مايفعل فى النفس البشرية بعنف وعمق . وكان ربهم لايتركهم بلا عون ، من تثبيته وتسريته وتأسيته .

وهذا التصوير المفصل لمواجعهم من أذى المشركين ، فيه بلسم لقلوبهم . فربهم هو الذى يصف هذه المواجع . فهو يراها ، وهو لايهملها ـ وإن أمهل الكافرين حينا ـ وهذا وحده يكفى قلب المؤمن ويمسح على آلامه وجراحه . إن الله يرى كيف يسخر منهم الساخرون . وكيف يؤذيهم المجرمون . وكيف يتفكه بآلامهم ومواجعهم المتفكهون . وكيف لايتلوم هؤلاء السفلة ولا يندمون ! إن ربهم يرى هذا كله . ويصفه فى تنزيله . فهو إذن شىء فى ميزانه . . وهذا يكفى ! نعم هذا يكفى حين تستشعره القلوب المؤمنة مهما كانت مجروحة موجوعة .

ثم إن ربهم يسخر من المجرمين سخرية رفيعة عالية فيها تلميح موجع . قد لاتحسه قلوب المجرمين المطموسة المغطاة بالرين المطبق عليها من الذنوب . ولكن قلوب المؤمنين الحساسة المرهفة ، تحسه وتقدره، وتستريح إليه وتستنيم !

Marfat.com

ثم إن هـذه القلوب المؤمنة تشهد حالها عند ربها . ونعيمها فى جناته ، وكرامتها فى الملأ الأعلى . على حين تشهد حال أعدائها ومهانتهم فى الملأ الأعلى وعـذابهم فى الجحيم ، مع الإهانة والترذيل . . تشهد هـذا وذلك فى تفصيل وفى تطويل . وهى تستشعر حالها وتتذوقه تذوق الواقع اليقين . وما من شك أن هـذا التذوق يمسح على مرارة ماهى فيـه من أذى وسخرية وقلة وضعف .وقد يبلغ فى بعض القلوب أن تتبدل هذه المرارة فيها بالفعل حلاوة، وهى تشهد هذه المشاهد فى ذلك القول الكريم .

ومما يلاحظ أن هذا كان هو وحده التسلية الإلهية للمؤمنين المعذبين المألومين من وسائل المجرمين الخسيسة . وأذاهم البالغ ، وسخريتهم اللئيمة . . الجنة للمؤمنين . والجحيم للكافرين . وتبديل الحالين بين الدنيا والآخرة تمام التبديل . . وهـذا كان وحده الذى وعد به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ المبايعين له . وهم يبذلون الأموال والنفوس !

فأما النصر فى الدنيا ، والغلب فى الأرض ، فلم يكن أبدا فى مكة يذكر فى القرآن المكى فى معرض التسرية والتثبيت .

لقد كان القرآن ينشىء قلوبا يعدها لحمل الأمانة . وهذه القلوب كان يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد بحيث لاتتطلع ـ وهى تبذل كل شىء وتحتمل كل شىء ـ إلى شىء فى هذه الأرض . ولاتنتظر إلا الآخرة . ولاترجو إلا رضوان الله . قلوبا مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها فى نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية واحتمال ، بلا جزاء فى هـذه الأرض قريب . ولوكان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة وغلبة الإسلام وظهور المسلمين !

حتى إذا وجدت هذه القلوب التى تعلم أن ليس أمامها فى رحلة الأرض شىء إلا أن تعطى بلا مقابل . وأن تنتظر الآخرة وحدها موعدا للجزاء . وموعدا كذلك للفصل بين الحق والباطل . . حتى إذا وجدت هـذه القلوب ، وعلم الله منها صدق نيتها على ماباينت وعاهدت ، آتاها النصر فى الأرض ، وائتمنها عليه . لالنفسها . ولكن لتقوم بأمانة المنهج الإلهى وهى أهل لأداء الأمانة ، مذ كانت لم توعد بشىء من المغنم فى الدنيا تتقاضاه ؛ ولم تتطلع إلى شىء من المغنم فى الأرض ، تعطاه . وقد تجردت لله حقا يوم كانت لاتعلم لها جزاء إلا رضاه !

وكل الآيات التى ورد فيها ذكر النصر فى الدنيا جاءت فى المدينة . بعد ذلك . وبعد أن أصبح هذا الأمر خارج برنامج المؤمن وانتظاره وتطلعه . وجاء النصر ذاته لأن مشيئة الله اقتضت

Marfat.com

أن تكون لهذا المنهج واقعية فى الحياة الإنسانية تقرره فى صورة عملية محددة ، تراها الأجيال. فلم يكن جزاء على التعب والنصب والتضحية والآلام . إنما كان قدرا من قدر الله تكمن وراءه حكمة نحاول رؤيتها الآن !

Marfat.com

سورة الانشقاق مكيّة
وآياتها ٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِذَا ٱلسَّمَاءُ ٱنْشَقَّتْ ① وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ...

« يَا أَيُّهَا ٱلْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً * وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُوراً * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً * وَيَصْلَىٰ سَعِيراً * إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً * إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ * بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً ..

« فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَٱللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ .

« فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ؟ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ؟ * بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ * وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ * فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » ㉕

تبدأ السورة ببعض مشاهد الانقلاب الكونية التى عرضت بتوسع فى سورة التكوير ، ثم فى سورة الانفطار . ومن قبل فى سورة النبأ . ولكنها هنا ذات طابع خاص . طابع

Marfat.com

الاستسلام لله . استسلام السماء واستسلام الأرض ، فى طواعية وخشوع ويسر : « إذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحقت . وإذا الأرض مدت ، وألقت مافيها وتخلت ، وأذنت لربها وحقت » . .

ذلك المطلع الخاشع الجليل تمهيد لخطاب « الإنسان » . وإلقاء الخشوع فى قلبه لربه . وتذكيره بأمره ؛ وبمصيره الذى هو صائر إليه عنده حين ينطبع فى حسه ظل الطاعة والخشوع والاستسلام الذى تلقيه فى حسه السماء والأرض فى المشهد الهائل الجليل : « ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه . فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا ، وينقلب إلى أهله مسرورا ، وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ، ويصلى سعيرا . إنه كان فى أهله مسرورا . إنه ظن أن لن يحور . بلى إن ربه كان به بصيرا » . .

والمقطع الثالث عرض لمشاهد كونية حاضرة ، مما يقع تحت حس « الإنسان » لها إيحاؤها ولها دلالتها على التدبير والتقدير ، مع التلويح بالقسم بها على أن الناس متقلبون فى أحوال مقدرة مدبرة ، لا مفر لهم من ركوبها ومعاناتها : « فلا أقسم بالشفق ، والليل وماوسق ، والقمر إذا اتسق : لتركبن طبقا عن طبق » . .

ثم يجىء المقطع الأخير فى السورة تعجيبا من حال الناس الذين لايؤمنون ؛ وهذه هى حقيقة أمرهم ، كما عرضت فى المقطعين السابقين . وتلك هى نهايتهم ونهاية عالمهم كما جاء فى مطلع السورة : « فمالهم لايؤمنون ؟ وإذا قرىء عليهم القرآن لايسجدون ؟ » . . ثم بيان لعلم الله بما يضمون عليه جوانحهم وتهديد لهم بمصيرهم المحتوم : « بل الذين كفروا يكذبون . والله أعلم بما يوعون . فبشرهم بعذاب أليم . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . لهم أجر غير ممنون » . .

* * *

إنها سورة هادئة الإيقاع ، جليلة الإيحاء ، يغلب عليها هذا الطابع حتى فى مشاهد الانقلاب الكونية التى عرضتها سورة التكوير فى جو عاصف . سورة فيها لهجة التبصير المشفق الرحيم ، خطوة خطوة . فى راحة ويسر ، وفى إيحاء هادىء عميق . والخطاب فيها : « ياأيها الإنسان » فيه تذكير واستجاشة للضمير .

وهى بترتيب مقاطعها على هذا النحو تطوف بالقلب البشرى فى مجالات كونية وإنسانية

Marfat.com

شتى ، متعاقبة تعاقبا مقصودا .. فمن مشهد الاستسلام الكونى . إلى لمسة لقلب « الإنسان » . إلى مشهد الحساب والجزاء . إلى مشهد الكون الحاضر وظواهره الموحية . إلى لمسة للقلب البشرى أخرى . إلى التعجيب من حال الذين لايؤمنون بعد ذلك كله . إلى التهديد بالعذاب الأليم واستثناء المؤمنين بأجر غير ممنون . .

كل هذه الجولات والمشاهد والإيحاءات واللمسات فى سورة قصيرة لاتتجاوز عدة أسطر . . وهو مالايمهد إلا فى هذا الكتاب العجيب ! فإن هذه الأغراض يتعذر الوفاء بها فى الحيز الكبير ولا تؤدى بهذه القوة وبهذا التأثير . . ولكنه القرآن ميسر للذكر ؛ يخاطب القلوب مباشرة من منافذها القريبة . صبغة العليم الخبير !

* * *

« إذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحقت . وإذا الأرض مدت ، وألقت مافيها وتخلت ، وأذنت لربها وحقت » . .

وانشقاق السماء سبق الحديث عنه فى سور سابقة . أما الجديد هنا فهو استسلام السماء لربها ؛ ووقوع الحق عليها ، وخضوعها لوقع هذا الحق وطاعتها :

« وأذنت لربها وحقت » . .

فإذن السماء لربها : استسلامها وطاعتها لأمره فى الانشقاق ، « وحقت » . . أى وقع عليها الحق . واعترفت بأنها مخلوقة لربها . وهو مظهر من مظاهر الخضوع ، لأن هذا حق عليها مسلم به منها .

والجديد هنا كذلك هو مد الأرض : « وإذا الأرض مدت » . . وقد يعنى هذا مط رقعتها وشكلها ، مما ينشأ عن انقلاب النواميس التى كانت تحكمها ، وتحفظها فى هذا الشكل الذى انتهت إليه ـ والمقول إنه كرى أو يضاوى ـ والتعبير يجعل وقوع هذا الأمر لها آتيا من فعل خارج عنها ، مما يفيده بناء الفعل للمجهول : « مدت » .

« وألقت مافيها وتخلت » . . وهو تعبير يصور الأرض كائنة حية تلقى مافيها وتتخلى عنه . وما فيها كثير . منه تلك الخلائق التى لا تحصى ، والتى طوتها الأرض فى أجيالها التى لايعلم إلا الله مداها . ومنه سائر مايخبىء فى جوف الأرض من معادن ومياه وأسرار لايعلمها إلا بارئها .

Marfat.com

وقد حملت حملها هـذا أجيالا بعد أجيال ، وقرونا بعد قرون . حتى إذا كان ذلك اليوم: ألقت ما فيها وتخلت . .

« وأذنت لربها وحقت » .. هى الأخرى كما أذنت السماء لربها وحقت . واستجابت لأمره مستسلمة مذعنة ، معترفة أن هذا حق عليها ، وأنها طائعة لربها بحقه هذا عليها . .

وتبدو السماء والأرض ـ بهذه الآيات المصورة ـ ذواتى روح . وخليقتين من الأحياء . تستمعان للأمر ، وتلبيان للفور ، وتطيعان طاعة المعترف بالحق ، المستسلم لمقتضاه ، استسلاما لا التواء فيه ولا إكراه .

ومع أن المشهد من مشاهد الانقلاب الكونى فى ذلك اليوم. فإن صورته هنا يظللها الخشوع والجلال والوقار والهدوء العميق الظلال . والذى يتبقى فى الحس منه هو ظل الاستسلام الطائع الخاشع فى غير ماجلبة ولامعارضة ولا كلام !

* * *

وفى هذا الجو الخاشع الطائع يجىء النداء العلوى للإنسان ، وأمامه الكون بسمائه وأرضه مستسلما لربه هذا الاستسلام :

« ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه » . .

« ياأيها الإنسان » .. الذى خلقه ربه بإحسان ؛ والذى ميزه بهذه « الإنسانية » التى تفرده فى هذا الكون بخصائص كان من شأنها أن يكون أعرف بربه ، وأطوع لأمره من الأرض والسماء . وقد نفخ فيه من روحه ، وأودعه القدرة على الاتصال به ، وتلقى قبس من نوره ، والفرح باستقبال فيوضاته ، والتطهر بها أو الارتفاع إلى غير حد ، حتى يبلغ الكمال المقدر لجنسه ، وآفاق هذا الكمال عالية بعيدة !

« ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه » . . ياأيها الإنسان إنك تقطع رحلة حياتك على الأرض كادحا ، تحمل عبئك ، وتجهد جهدك ، وتشق طريقك . . لتصل فى النهاية إلى ربك . فإليه المرجع وإليه المآب . بعد الكد والكدح والجهاد . .

ياأيها الإنسان .. إنك كادح حتى فى متاعك .. فأنت لاتبلغه فى هذه الأرض إلا بجهد وكد . إن لم يكن جهد بدن وكد عمل ، فهو جهد تفكير وكد مشاعر . الواجد والمحروم سواء . إنما

Marfat.com

يختلف نوع الكدح ولون العناء، وحقيقة الكدح هى المستقرة فى حياة الإنسان..ثم النهاية فى آخر المطاف إلى الله سواء .

ياأيها الإنسان . . إنك لاتجد الراحة فى الأرض أبدا . إنما الراحة هناك . لمن يقدم لها بالطاعة والاستسلام .. التعب واحد فى الأرض والكدح واحد ـ وإن اختلف لونه وطعمه ـ أما العاقبة فمختلفة عندما تصل إلى رباك . . فواحد إلى عناء دونه عناء الأرض . وواحد إلى نعيم يمسح على آلام الأرض كأنه لم يكن كدح ولا كد . .

ياأيها الإنسان . . الذى امتاز بخصائص « الإنسان » . . ألا فاختر نفسك ما يليق بهذا الامتياز الذى خصك به الله ، اختر لنفسك الراحة من الكدح عند ما تلقاه .

ولأن هذه اللمسة الكامنة فى هذا النداء ، فإنه يصل بها مصائر الكادحين عند ما يصلون إلى نهاية الطريق ، ويلقون ربهم بعد الكدح والعناء :

« وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ، ويصلى سعيرا . إنه كان فى أهله مسرورا . إنه ظن أن لن يحور . بلى إن ربه كان به بصيرا » ..

والذى يؤتى كتابه بيمينه هو المرضى السعيد ، الذى آمن وأحسن ، فرضى الله عنه وكتب له النجاة . وهو يحاسب حسابا يسيرا . فلا يناقش ولا يدقق معه فى الحساب . والذى يصور ذلك هو الآثار الواردة عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفيها غناء .

عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من نوقش الحساب عذب » قالت : قلت : أفليس قال الله تعالى : «فسوف يحاسب حسابا يسيرا » . قال : « ليس ذلك بالحساب ، ولكن ذلك العرض . من نوقش الحساب يوم القيامة عذب [1] » . .

وعنها كذلك قالت : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول فى بعض صلاته : « اللهم حاسبنى حسابا يسيرا » . . فلما انصرف قلت : يارسول الله ، ماالحساب اليسير ؟ قال : أن ينظر فى كتابه فيتجاوز له عنه . من نوقش الحساب ياعائشة يومئذ هلك [2] » . .

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى

(٢) رواه الإمام أحمد ـ بإسناده ـ عن عبد الله ابن الزبير عن عائشة . وهو صحيح على شرط مسلم . ولم يخرجه .

Marfat.com

فهـذا هو الحساب اليسير الذى يلقاه من يؤتى كتابه بيمينه . . ثم ينجو « وينقلب إلى أهله مسرورا » .. من الناجين الذين سبقوه إلى الجنة . . وهو تعبير يفيد تجمع المتوافقين على الإيمان والصلاح من أهل الجنـة . كل ومن أحب من أهله وصحبه . ويصور رجعة الناجى من الحساب إلى مجموعته المتآلفة بعد الموقف العصيب . رجعته متهللا فرحا مسرورا بالنجاة واللقاء فى الجنان !

وهو وضع يقابل وضع المعـذب الهالك المأخوذ بعمله السيء ، الذى يؤتى كتابه وهو كاره :

« وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا . ويصلى سعيرا » . .

والذى ألفناه فى تعبيرات القرآن من قبل هو كتاب اليمين وكتاب الشمال . فهـذه صورة جديدة : صورة إعطاء الكتاب من وراء الظهر . وليس يمتنع أن يكون الذى يعطى كتابه بشماله يعطاه كذلك من وراء ظهره . فهى هيئة الكاره المكره الخزيان من المواجهة !

ونحن لاندرى حقيقة الكتاب ولا كيفية إيتائه باليمين أوبالشمال أو من وراء الظهر . إنما تخلص لنا حقيقة النجاة من وراء التعبير الأول ؛ وحقيقة الهلاك من وراء التعبير الثانى . وهما الحقيقتان المقصود أن نستيقنهما . وما وراء ذلك من الأشكال إنما يحيي المشهد ويعمق أثره فى الحس ، والله أعلم بحقيقة ما يكون كيف تكون !

فهذا التعيس الذى قضى حياته فى الأرض كدحا ، وقطع طريقه إلى ربه كدحا ـ ولكن فى المعصية والإثم والضلال ـ يعرف نهايته ، ويواجه مصيره ، ويدرك أنه العناء الطويل بلا توقف فى هذه المرة ولا انتهاء . فيدعو ثبورا ، وينادى الهلاك لينقذه مما هو مقدم عليـه من الشقاء . وحين يدعو الإنسان بالهلاك لينجو به ، يكون فى الموقف الذى ليس بعده مايتقيه. حتى ليصبح الهلاك أقصى أمانيه . وهذا هو المعنى الذى أراده المتنبي وهو يقول :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا

فإنما هى التعاسة التى ليس بعدها تعاسة . والشقاء الذى ليس بعده شقاء ! . . « ويصلى سعيرا » . . وهذا هو الذى يدعو الهلاك لينقذه منه . . وهيهات هيهات !

وأمام هـذا المشهد التعيس يكر السياق راجعا إلى ماضى هـذا الشقى الذى انتهى به إلى هذا الشقاء . .

Marfat.com

« نه كان فى أهله مسرورا . إنه ظن أن لن يحور » . .

وذلك كان فى الدنيا . . نعم كان . . فنحن الآن ـ مع هذا القرآن ـ فى يوم الحساب والجزاء وقد خلفنا الأرض وراءنا بعيدا فى الزمان والمكان !

« إنه كان فى أهله مسرورا » . . غافلا عما وراء اللحظة الحاضرة ؛ لاهيا عما ينتظره فى الدار الآخرة ، لايحسب لها حسابا ولا يقدم لها زادا . . « إنه ظن أن لن يحور » إلى ربه ، ولن يرجع إلى بارئه ، ولو ظن الرجعة فى نهاية للطاف لاحتقب بعض الزاد ولادخر شيئا للحساب !

« بلى إن ربه كان به بصيرا » . .

إنه ظن أن لن يحور . ولكن الحقيقة أن ربه كان مطلعا على أمره ، محيطا بحقيقته ، عالما بحركاته وخطواته ، عارفا أنه صائر إليه ، وأنه مجازيه بما كان منه . . وكذلك كان ، حين انتهى به للطاف إلى هذا المقدور فى علم الله . والذى لم يكن بد أن يكون !

وصورة هذا التعيس وهو مسرور بين أهله فى حياة الأرض القصيرة المشوبة بالكدح ـ فى صورة من صور الكدح ـ تقابلها صورة ذلك السعيد ، وهو ينقلب إلى أهله مسرورا فى حياة الآخرة المديدة ، الطليقة ، الجميلة ، السعيدة ، الهنيئة ، الخالية من كل شائبة من كدح أو عناء . .

* * *

ومن هذه الجولة الكبيرة العميقة الأثر بمشاهدها ولمساتها الكثيرة ، يعود السياق بهم إلى لمحات من هذا الكون الذى يعيشون فيه حياتهم ، وهم غافلون عما تنبئ به هذه اللمحات من التدبير والتقدير ، الذى يشملهم كذلك ، ويقدر بإحكام مايتوارد عليهم من أحوال :

« فلا أقسم بالشفق ، والليل وما وسق والقمر إذا اتسق . . لتركبن طبقا عن طبق » . .

وهذه اللمحات الكونية التى يلوح بالقسم بها ، لتوجيه القلب البشرى إليها ، وتلقى إيحاءاتها وإيقاعاتها . . لمحات ذات طابع خاص . طابع يجمع بين الخشوع الساكن ، والجلال المرهوب . وهى تتفق فى ظلالها مع ظلال مطلع السورة ومشاهدها بصفة عامة .

فالشفق هو الوقت الخاشع المرهوب بعد الغروب . . وبعد الغروب تأخذ النفس روعة

Marfat.com

ساكنه عميقة . ويحس القلب بمعنى الوداع وما فيه من أسى صامت وشجى عميق . كما يحس برهبة الليل القادم ، ووحشة الظلام الزاحف . ويلفه فى النهاية خشوع وخوف خفى وسكون !

« والليل وما وسق » . . هو الليل وما جمع وما حمل . . بهذ التعميم ، وبهذا التجهيل ، وبهذا التهويل . والليل يجمع ويضم ويحمل الكثير . . ويذهب التأمل بعيدا ، وهو يتقصى مايجمعه الليل ويضمه ويحمله من أشياء وأحياء وأحداث ومشاعر ، وعوالم خافية ومضمرة ، سارية فى الأرض وغائرة فى الضمير . . ثم يؤوب من هذه الرحلة المديدة ، ولم يبلغ من الصور مايحتويه النص القرآنى القصير : « والليل وما وسق » . . إنما يغمره من النص العميق العجيب ، رهبة ووجل ، وخشوع وسكون تتسق مع الشفق وما يضفيه من خشوع وخوف وسكون !

« والقمر إذا اتسق » . . مشهد كذلك هادىء رائع ساحر . . وهو القمر فى ليالى اكتماله . . وهو يفيض على الأرض بنوره الحالم الخاشع الموحى بالصمت الجليل ، والسياحة المديدة ، فى العوالم الظاهرة والمكنونة فى الشعور . . وهو جو له صلة خفية بجو الشفق ، والليل وما وسق . يلتقى معهما فى الجلال والخشوع والسكون . .

هذه اللمحات الكونية الجميلة الجليلة الرائعة المرهوبة الموحية يلتقطها القرآن لفطات سريعة ، ويخاطب بها القلب البشرى ، الذى يغفل عن خطابها الكونى. ويلوح بالقسم بهاليبرزها للمشاعر والضمائر ، فى حيويتها وجمالها وإيحائها وإيقاعها ، ودلالتها على اليد التى تمسك بأقدار هذا الكون ، وترسم خطواته ، وتبدل أحواله . . وأحوال الناس أيضا وهم غافلون :

« لتركبن طبقا عن طبق » . . أى لتعانون حالا بعد حال ، وفق ماهو مرسوم لكم من تقديرات وأحوال . ويعبر عن معاناة الأحوال المتعاقبة بركوبها . والتعبير بركوب الأمور والأخطار والأهوال والأحوال مألوف فى التعبير العربى ، كقولهم : « إن المضطر يركب الصعب من الأمور وهو عالم بركوبه » . . وكأن هذه الأحوال مطايا يركبها الناس واحدة بعد واحدة. وكل منها تمضى بهم وفق مشيئة القدر الذى يقودها ويقودهم فى الطريق ، فتنتهى بهم عند غاية تؤدى إلى رأس مرحلة جديدة ، مقدرة كذلك مرسومة ، كتقدير هذه الأحوال المتعاقبة على الكون من الشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق . حتى تنتهى بهم إلى لقاء ربهم .

Marfat.com

الذى تحدثت عنه الفقرة السالفة . . وهذا التتابع المتناسق فى فقرات السورة ، والانتقال اللطيف من معنى إلى معنى ، ومن جولة إلى جولة ، هو سمة من سمات هذا القرآن البديع . .

* * *

وفى ظل هذه اللمحات الأخيرة ، والمشاهد والجولات السابقة لها فى السورة ، يجىء التعجيب من أمر الذين لايؤمنون . وأمامهم هذا الحشد من موحيات الإيمان ودلائله فى أنفسهم وفى الوجود :

« فما لهم لايؤمنون ؟ وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون ؟ »

أجل ! فما لهم لايؤمنون ؟

إن موحيات الإيمان فى لمحات الوجود ، وفى أحوال النفوس ، تواجه القلب البشرى حيثما توجه ؛ وتتكاثر عليه أينما كان . وهى من الكثرة والعمق والقوة والثقل فى ميزان الحقيقة بحيث تحاصر هذا القلب لو أراد التفلت منها . بينما هى تناجيه وتناغيه وتناديه حيثما ألقى بسمعه وقلبه إليها !

« فما لهم لايؤمنون ؟ وإذا قرىء عليهم القرآن لايسجدون ؟» وهو يخاطبهم بلغة الفطرة، ويفتح قلوبهم على موحيات الإيمان ودلائله فى الأنفس والآفاق . ويستجيش فى هذه القلوب مشاعر التقوى والخشوع والطاعة والخضوع لبارىء الوجود.. وهو « السجود »

إن هذا الكون جميل . وموح . وفيه من اللمحات والومضات واللحظات والسبحات مايستجيش فى القلب البشرى أسمى مشاعر الاستجابة والخشوع .

وإن هذا القرآن جميل . وموح . وفيه من اللمسات والموحيات مايصل القلب البشرى بالوجود الجميل ، ويبارىء الوجود الجليل . ويسكب فيه حقيقة الكون الكبيرة الموحية بحقيقة خالقه العظيم . . « فما لهم لايؤمنون ؟ وإذا قرىء عليهم القرآن لايسجدون ؟ » . .

إنه لأمر عجيب حقا . يضرب عنه السياق ليأخذ فى بيان حقيقة حال الكفار ،وما ينتظرهم من مآل :

« بل الذين كفروا يكذبون . والله أعلم بما يوعون . فبشرهم بعذاب أليم » . .

بل الذين كفروا يكذبون . يكذبون إطلاقا . فالتكذيب طابعهم ومنيسمهم وطبعهم لأصيل .والله أعلم بما يكنون فى صدورهم ، ويضمون عليه جوانحهم ، من شر وسوء ودوافع لهذا التكذيب . .

Marfat.com

ويترك الحديث عنهم ، ويتجه بالخطاب إلى الرسول الكريم : « فبشرهم بعذاب أليم » .. ويالها من بشرى لاتسر ولا يودها متطلع إلى بشرى من بشير !

وفى الوقت ذاته يعرض ماينتظر المؤمنين الذين لايكذبون . فيستعدون بالعمل الصالح لما يستقبلون . ويجىء هذا العرض فى السياق كأنه استثناء من مصير الكفار المكذبين :

« إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . لهم أجر غير ممنون » . .

وهو الذى يقال عنه فى اللغة إنه استثناء منقطع . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لم يكونوا داخلين ابتداء فى تلك البشارة السوداء ثم استثنوا منها ! ولكن التعبير على هذا النحو إثارة للانتباه إلى الأمر المستثنى !

والأجر غير الممنون . . هو الأجر الدائم غير المقطوع . . فى دار البقاء والخلود

وبهذا الإيقاع الحاسم القصير ، تنتهى السورة القصيرة العبارة ، البعيدة الآماد فى مجالات الكون والضمير .

Marfat.com

سُورَةُ البُرُوجِ مكيّة
وآياتها ٢٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ .

« إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ـ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ـ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ .

« إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ * وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ؟

« بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ * وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ .

« بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ » ﴿٢٢﴾

Marfat.com

هـذه السورة القصيرة تعرض ، حقائق العقيدة ، وقواعد التصور الإيمانى . . أمورا عظيمة وتشع حولها أضواء قوية بعيدة المدى ، وراء المعانى والحقائق المباشرة التى تعبر عنها نصوصها حتى لتكاد كل آية ـ وأحيانا كل كلمة فى الآية ـ أن تفتح كوة على عالم مترامى الأطراف من الحقيقة . .

والموضوع المباشر الذى تتحدث عنه السورة هو حادث أصحاب الأخدود . . والموضوع هو أن فئة من المؤمنين السابقين على الإسلام ـ قيل إنهم من النصارى الموحدين ـ ابتلوا بأعداء لهم طغاة قساة شريرين ، أرادوهم على ترك عقيدتهم والارتداد عن دينهم ، فأبوا وتمنعوا بعقيدتهم . فشق الطغاة لهم شقا فى الأرض ، وأوقدوا فيه النار ، وكبوا فيه جماعة المؤمنين فماتوا حرقا ، على مرأى من الجموع التى حشدها المتسلطون لتشهد مصرع الفئة المؤمنة بهذه الطريقة البشعة ، ولكى يتلهى الطغاة بمشهد الحريق . حريق الآدميين المؤمنين : « وماتقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » . .

تبدأ السورة بقسم : « والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود ، قتل أصحاب الأخدود . . » فتربط بين السماء وما فيها من بروج هائلة ، واليوم الموعود وأحداثه الضخام ، والحشود التى تشهده والأحداث المشهودة فيه . . تربط بين هـذا كله وبين الحادث ونقمة السماء على أصحابه البغاة .

ثم تعرض المشهد المفجع فى لمحات خاطفة ، تودع الشاعر بشاعة الحادث بدون تفصيل ولا تطويل . . مع التلميح إلى عظمة العقيدة التى تعالت على فتنة الناس مع شدتها ، وانتصرت على النار وعلى الحياة ذاتها ، وارتفعت إلى الأوج الذى يشرف الإنسان فى أجياله جميعا . والتلميح إلى بشاعة الفعلة ، وما يكمن فيها من بغى وشر وتسفل ، إلى جانب ذلك الارتفاع والبراءة والتطهر من جانب المؤمنين : « النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود » .

بعد ذلك تجىء التعقيبات المتوالية القصيرة متضمنة تلك الأمور العظيمة فى شأن الدعوة والعقيدة والتصور الإيمانى الأصيل :

Marfat.com

إشارة إلى ملك الله فى السماوات والأرض وشهادته وحضوره تعالى لكل مايقع فى السماوات والأرض : الله « الذى له ملك السماوات والأرض . والله على كل شىء شهيد » . .

وإشارة إلى عذاب جهنم وعذاب الحريق الذى ينتظر الطغاة الفجرة السفلة ؛ وإلى نعيم الجنة . . ذلك الفوز الكبير . . الذى ينتظر المؤمنين الذين اختاروا عقيدتهم على الحياة ، وارتفعوا على فتنة النار والحريق : « إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ـ ثم لم يتوبوا ـ فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار . ذلك الفوز الكبير » . .

وتلوح ببطش الله الشديد ، الذى يبدىء ويعيد : « إن بطش ربك لشديد . إنه هو يبدىء ويعيد » . . وهى حقيقة تتصل اتصالا مباشرا بالحياة التى أزهقت فى الحادث ، وتلقى وراء الحادث إشعاعات بعيدة . .

وبعد ذلك بعض صفات الله تعالى . وكل صفة منها تعنى أمرا . .

« وهو الغفور الودود » الغفور للتائبين من الإثم مهما عظم وبشع . الودود لعباده الذين يختارونه على كل شىء . والود هنا هو البلسم المريح لمثل تلك القروح !

« ذو العرش المجيد . فعال لما يريد » . . وهى صفات تصور الهيمنة المطلقة ، والقدرة المطلقة ، والإرادة المطلقة . . وكلها ذات اتصال بالحادث . . كما أنها تطلق وراءه إشعاعات بعيدة الآماد .

ثم إشارة سريعة إلى سوابق من أخذه للطغاة ، وهم مدججون بالسلاح .. « هل أتاك حديث الجنود . فرعون وثمود ؟ » وهما مصرعان متنوعان فى طبيعتهما وآثارهما . ووراءهما ـ مع حادث الأخدود ـ إشعاعات كثيرة .

• فى الختام يقرر شأن الذين كفروا وإحاطة الله بهم وهم لايشعرون : « بل الذين كفروا فى تكذيب . والله من ورائهم محيط » . .

ويقرر حقيقة القرآن ، وثبات أصله وحياطته : « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » .

Marfat.com

مما يوحى بأن مايقرره هو القول الفصل والمرجع الأخير ، فى كل الأمور ..

هـذه لمحات مجملة عن إشعاعات السورة ومجالها الواسع البعيد . تمهد لاستعراض هـذه الإشعاعات بالتفصيل :

* * *

« والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود » ..

تبدأ السورة ـ قبل الإشارة إلى حادث الأخدود ـ بهذا القسم : بالسماء ذات البروج ، وهى إما أن تكون أجرام النجوم الهائلة وكأنها بروج السماء الضخمة أى قصورها المبنية ، كما قال: « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون » . . وكما قال « أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها » . . وإما أن تكون هى المنازل التى تنتقل فيها تلك الأجرام فى أثناء دورانها ، وهى مجالاتها التى لا تتعداها فى جريانها فى السماء . والإشارة إليها يوحى بالضخامة . وهو الظل المراد إلقاؤه فى هـذا الجو .

« واليوم الموعود » .. وهو يوم الفصل فى أحداث الدنيا، وتصفية حساب الأرض وما كان فيها . وهو الموعود الذى وعد الله بمجيئه ، ووعد بالحساب والجزاء فيه ؛ وأمهل المتخاصمين والمتقاضين إليه . وهو اليوم العظيم الذى تتطلع إليه الخلائق ، وتترقبه لترى كيف تصير الأمور .

« وشاهد ومشهود » . . فى ذلك اليوم الذى تعرض فيه الأعمال ، وتعرض فيه الخلائق ، فتصبح كلها مشهودة ، ويصبح الجميع شاهدين ويعلم كل شىء ويظهر مكشوفا لا يستره ساتر عن القلوب والعيون . .

وتلتقى السماء ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود . تلتقى جميعا فى إلقاء ظلال الاهتمام والاحتفال والاحتشاد والضخامة على الجو الذى يعرض فيه بعد ذلك حادث الأخدود . كما توحى بالمجال الواسع الشامل الذى يوضع فيه هـذا الحادث . وتوزن فيه حقيقته ويصفى فيه حسابه . . وهو أكبر من مجال الأرض ، وأبعد من مدى الحياة الدنيا وأجلها المحدود . .

* * *

وبعد رسم هذا الجو ، وفتح هـذا المجال، تجىء الإشارة إلى الحادث فى لمسات ة

Marfat.com

« قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود . وماتقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذى له ملك السماوات والأرض ، والله على كل شىء شهيد » ..

وتبدأ الإشارة إلى الحادث بإعلان النقمة على أصحاب الأخدود: « قتل أصحاب الأخدود » .. وهى كلمة تدل على الغضب . غضب الله على الفعلة وفاعليها . كما تدل على شناعة الذنب الذى يثير غضب الحليم ، ونقمته ، ووعيده بالقتل لفاعليه .

ثم يجىء تفسير الأخدود : « النار ذات الوقود » والأخدود : الشق فى الأرض . وكان أصحابه قد شقوه وأوقدوا فيه النار حتى ملأوه نارا ، فصارت النار بدلا فى التعبير من الأخدود للإيحاء بتلهب النار فيه كله وتوقدها .

قتل أصحاب الأخدود ، واستحقوا هذه النقمة وهذا الغضب ، فى الحالة التى كانوا عليها وهم يرتكبون ذلك الإثم، ويزاولون تلك الجريمة : « إذ هم عليها قعود. وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود » . . وهو تعبير يصور موقفهم ومشهدهم ، وهم يوقدون النار ، ويلقون بالمؤمنين والمؤمنات فيها وهم قعود على النار ، قريبون من عملية التعذيب البشعة ، يشاهدون أطوار التعذيب ، وفعل النار فى الأجسام فى لذة وسمار ، كأنما يثبتون فى حسهم هذا المشهد البشع الشنيع !

وما كان للمؤمنين من ذنب عندهم ولاثأر : « وماتقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذى له ملك السماوات والأرض . والله على كل شىء شهيد » ..فهذه جريمتهم أنهم آمنوا بالله ، العزيز : القادر على مايريد ، الحميد : المستحق للحمد فى كل حال ، والمعبود بذاته ولو لم يحمده الجهال ! وهو الحقيق بالإيمان وبالعبودية له.وهو وحده الذى له ملك السماوات والأرض وهو يشهد كل شىء وتتعلق به إرادته تعلق الحضور. ثم هو الشهيد على ما كان من أمر المؤمنين وأصحاب الأخدود . . وهذه لمسة تطمئن قلوب المؤمنين ، وتهدد الغاة المتجبرين . فالله كان شهيدا . وكفى بالله شهيدا .

وتنتهى رواية الحادث فى هذه الآيات القصار ، التى تملأ القلب بشحنة من الكراهية لبشاعة الفعلة وفاعليها ، كما تستجيش فيه التأمل فيما وراء الحادث ووزنه عند الله وماستحقه من نقمته وغضبه . فهو أمر لم ينته بعد عند هذا الحد ، ووراءه فى حساب الله ماوراءه .

Marfat.com

كذلك تنتهى رواية الحادث وقد ملأت القلب بالروعة .روعة الإيمان المستعلى على الفتنة ، والعقيدة المنتصرة على الحياة ، والانطلاق المتجرد من أوهاق الجسم وجاذبية الأرض . فقد كان فى مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم فى مقابل الهزيمة لإيمانهم . ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم فى الدنيا قبل الآخرة ؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر ؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير : معنى زهادة الحياة بلا عقيدة . وبشاعتها بلا حرية ، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد ! إنه معنى كريم جدا ومعنى كبير جدا هذا الذى ربحوه وهم بعد فى الأرض . ربحوه وهم يجدون مس النار فتحترق أجسادهم ، وينتصر هذا المعنى الكريم الذى تزكيه النار ! وبعد ذلك لهم عند ربهم حساب ، ولأعدائهم الطاغين حساب . . يعقب به السياق .

* * *

« إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ـ ثم لم يتوبوا ـ فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار . ذلك الفوز الكبير » . .

إن الذى حدث فى الأرض وفى الحياة الدنيا ليس خاتمة الحادث وليس نهاية المطاف . فالبقية آتية هنالك . والجزاء الذى يضع الأمر فى نصابه، ويفصل فيما كان بين المؤمنين والطاغين آت . وهو مقرر مؤكد ، وواقع كما يقول عنه الله :

« إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات » . . ومضوا فى ضلالتهم سادرين ، لم يندموا على مافعلوا « ثم لم يتوبوا » . . « فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق » . . وينص على « الحريق » . . وهو مفهوم من عذاب جهنم . ولكنه ينطق به وينص عليه ليكون مقابلا للحريق فى الأخدود . وينس اللفظ الذى يدل على الحدث . ولكن أين حريق من حريق ؟ فى شدته أو فى مدته ! وحريق الدنيا بنار يوقدها الخلق. وحريق الآخرة بنار يوقدها الخالق ! وحريق الدنيا لحظات وتنتهى ، وحريق الآخرة آباد لايعلمها إلا الله ! ومع حريق الدنيا رضى الله عن المؤمنين وانتصار لذلك المعنى الإنسانى الكريم . ومع حريق الآخرة غضب الله ، والارتكاس الهابط الذميم !

Marfat.com

ويتمثل رضى الله وإنعامه على الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى الجنة : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » . . وهذه هى النجاة الحقيقية : « ذلك الفوز الكبير » . . والفوز : النجاة والنجاح . والنجاة من عذاب الآخرة فوز . فكيف بالجنات تجرى من تحتها الأنهار ؟

بهذه الخاتمة يستقر الأمر فى نصابه . وهى الخاتمة الحقيقية للموقف . فلم يكن ماوقع منه فى الأرض إلا طرفا من أطرافه ، لايتم به تمامه . . وهذه هى الحقيقة التى يهدف إليها هذا التعقيب الأول على الحادث لتستقر فى قلوب القلة المؤمنة فى مكة ، وفى قلوب كل فئة مؤمنة تتعرض للفتنة على مدار القرون .

* * *

ثم تتوالى التعقيبات . .

« إن بطش ربك لشديد » . . وإظهار حقيقة البطش وشدته فى هذا الموضع هو الذى يناسب مامر فى الحادث من مظهر البطش الصغير الهزيل الذى يحسبه أصحابه ويحسبه الناس فى الأرض كبيرا شديدا . فالبطش الشديد هو بطش الجبار . الذى له ملك السماوات والأرض . لابطش الضعاف المهازيل الذين يتسلطون على رقعة من الأرض محدودة ، فى رقعة من الزمان محدودة . .

ويظهر التعبير العلاقة بين المخاطب ـ وهو الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقائل وهو الله عز وجل . وهو يقول له : « إن بطش ربك .. » ربك الذى تنتسب إلى ربوبيته، وسندك الذى تركن إلى معونته . . ولهذه النسبة قيمتها فى هذا المجال الذى يبطش فيه الفجار بالمؤمنين !

« إنه هو يبدىء ويعيد » . . والبدء والإعادة وإن اتجه معناها الكلى إلى النشأة الأولى والنشأة الآخرة . . إلا أنهما حدثان دائبان فى كل لحظة من ليل أو نهار . ففى كل لحظة بدء وإنشاء . وفى كل لحظة إعادة لما بلى ومات . والكون كله فى تجدد مستمر . . وفى بلى مستمر . . وفى ظل هذه الحركة الدائبة الشاملة من البدء والإعادة يبدو حادث الأخدود وتتائجه الظاهرة مسألة عابرة فى واقع الأمر وحقيقة التقدير . فهو بدء لإعادة . أو إعادة لبدء . فى هذه الحركة الدائبة الدائرة . .

Marfat.com

« وهو الغفور الودود » . . والمغفرة تتصل بقوله من قبل : « ثم لم يتوبوا » . . فهى من الرحمة والفضل الفائض بلا حدود ولا قيود . وهى الباب المفتوح الذى لايغلق فى وجه عائد تائب . ولو عظم الذنب وكبرت المعصية . . أما الود . . فيتصل بموقف المؤمنين ، الذين اختاروا ربهم على كل شىء . وهو الإيناس اللطيف الحلو الكريم . حين يرفع الله عباده الذين يؤثرونه ويحبونه إلى مرتبة ، يتحرج القلم من وصفها لولا أن فضل الله يجود بها . . مرتبة الصداقة . . الصداقة بين الرب والعبد . . ودرجة الود من الله لأودائه وأحبائه المقربين . . فماذا تكون الحياة التى ضحوا بها وهى ذاهبة ؟ وماذا يكون العذاب الذى احتملوه وهو موقوت ؟ ماذا يكون هذا إلى جانب قطرة من هذا الود الحلو ؟ وإلى جانب لمحة من هذا الإيناس الحبيب ؟

إن عبيدا من رقيق هذه الأرض . عبيد الواحد من البشر ، ليلقون بأنفسهم إلى التهلكة لكلمة تشجيع تصدر من فمه ، أولمحة رضاء تبدو فى وجهه . . وهو عبد وهم عبيد . . فكيف بعباد الله . الذين يؤنسهم الله بوده الكريم الجليل ، الله « ذو العرش المجيد » العالى المهيمن الماجد الكريم ؟ ألا هانت الحياة . وهان الألم . وهان العذاب . وهان كل غالعزيز ، فى سبيل لمحة رضى يجود بها المولى الودود ذو العرش المجيد . .

« فعال لما يريد » . . هذه صفته الكثيرة التحقق ، الدائبة العمل . . فعال لما يريد . . فهو مطلق الإرادة ، يختار مايشاء ؛ ويفعل مايريده ويختاره ، دائما أبدا، فتلك صفته سبحانه .

يريد مرة أن ينتصر المؤمنون به فى هذه الأرض لحكمة يريدها . ويريد مرة أن ينتصر الإيمان على الفتنة وتذهب الأجسام الفانية لحكمة يريدها . . يريد مرة أن يأخذ الجبارين فى الأرض . ويريد مرة أن يمهلهم لليوم الموعود . . لحكمة تتحقق هنا وتتحقق هناك ، فى قدره المرسوم . .

فهذا طرف من فعله لما يريد . يناسب الحادث ويناسب ماسيأتى من حديث فرعون وثمود. وتبقى حقيقة الإرادة الطليقة والقدرة المطلقة وراء الأحداث ووراء الحياة والكون تفعل فعلها فى الوجود .

فعال لما يريد .. وهاك نموذجا من فعله لما يريد :

« هل أتاك حديث الجنود : فرعون وثمود ؟ » . . وهى إشارة إلى قصتين طويلتين ،

Marfat.com

ارتكانا إلى المعلوم من أمرهما للمخاطبين، بعد ماورد ذكرهما كثيرا فى القرآن الكريم . ويسميهم الجنود . إشارة إلى قوتهم واستعدادهم . . هل أتاك حديثهم ؟ وكيف فعل ربك بهم مايريد ؟

وهما حديثان مختلفان فى طبيعتهما وفى نتائجهما . . فأما حديث فرعون ، فقد أهلكه الله وجنده ونجى بنى إسرائيل ، ومكن لهم فى الأرض فترة ، ليحقق بهم قدرا من قدره ، وإرادة من إرادته - وأما حديث ثمود فقد أهلكهم الله عن بكرة أبيهم وأنجى صالحا والقلة معه حيث لم يكن لهم بعد ذلك ملك ولا تمكين . إنما هى مجرد النجاة من القوم الفاسقين . .

وهما نموذجان لفعل الإرادة ، وتوجه المشيئة . وصورتان من صور الدعوة إلى الله واحتمالاتها المتوقعة ، إلى جانب الاحتمال الثالث الذى وقع فى حادث الأخدود .. وكلها يعرضها القرآن للقلة المؤمنة فى مكة ، ولكل جيل من أجيال المؤمنين ..

* * *

وفى الختام يجىء إيقاعان قويان جازمان . فى كل منهما تقرير ، وكلمة فصل وحكم أخير:

« بل الذين كفروا فى تكذيب ، والله من ورائهم محيط » . .

فشأن الكفار وحقيقة حالهم أنهم فى تكذيب يمعنون به ويصبحون . « والله من ورائهم محيط » . . وهم غافلون عما يحيط بهم من قهر الله وعلمه . فهم أضعف من الفيران المحصورة فى الطوفان العميم !

« بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » ..

والمجيد الرفيع الكريم العريق . . وهل أمجد وأرفع وأعرق من قول الله العظيم ؟ وهو فى لوح محفوظ . لاندرك نحن طبيعته ، لأنه من أمر الغيب الذى تفرد الله بعلمه . إنما ننتفع نحن بالظل الذى يلقيه التعبير ، والإيحاء الذى يتركه فى القلوب . وهو أن هذا القرآن مصون ثابت ، قوله هو المرجع الأخير ، فى كل مايتناوله من الأمور . يذهب كل قول ، وقوله هو المرعى المحفوظ .

ولقد قال القرآن قوله فى حادث الأخدود ، وفى الحقيقة التى وراءه . . وهو القول الأخير . .

Marfat.com

سورة الطارق مكيّة
وآياتها ١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ * إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ .

« فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ .

« إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ .

« وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ * إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ .

« إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ ، أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا » ⑰

جاء فى مقدمة هذا الجزء أن سوره تمثل طرقات متوالية على الحس . طرقات عنيفة قوية عالية ، وصيحات بنوّم غارقين فى النوم .. . تتوالى على حسهم تلك الطرقات والصيحات بإيقاع واحد ، ونذير واحد : « اصحوا . تيقظوا . انظروا . تلفتوا . تفكروا . تدبروا . إن هنالك إلها . وإن هنالك تدبيرا وإن هنالك تقديرا . وإن هنالك ابتلاء . وإن هنالك تبعة . وإن هنالك حسابا وجزاء . وإن هنالك عذابا شديدا ونعيما كبيرا . . »

Marfat.com

وهذه السورة نموذج واضح لهذه الخصائص . ففى إيقاعاتها حدة يشارك فيها نوع المشاهد، ونوع الإيقاع للموسيقى ، وجرس الألفاظ ، وإيحاء المعانى .

ومن مشاهدها : الطارق . والثاقب . والدافق . والرجع . والصدع .

ومن معانيها : الرقابة على كل نفس : « إن كل نفس لما عليها حافظ » . . ونفى القوة والناصر : « يوم تبلى السرائر فماله من قوة ولا ناصر » . . والجد الصارم : « إنه لقول فصل وما هو بالهزل » . .

والوعيد فيها يحمل الطابع ذاته : « إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا . فمهل الكافرين أمهلهم رويدا » !

وتكاد تتضمن تلك الموضوعات التى أشير إليها فى مقدمة الجزء : « إن هنالك إلها . وإن هنالك تدبيرا . وإن هنالك تقديرا . وإن هنالك ابتلاء . وإن هنالك تبعة . وإن هنالك حسابا وجزاء . . . الخ » .

وبين المشاهد الكونية والحقائق الموضوعيةفى السورة تناسق مطلق دقيق ملحوظ. يتضح من استعراض السورة فى سياقها القرآنى الجميل . .

* * *

« والسماء والطارق . وما أدراك ما الطارق ؟ النجم الثاقب . إن كل نفس لما عليها حافظ » . .

هذا القسم يتضمن مشهدا كونيا وحقيقة إيمانية . وهو يبدأ بذكر السماء والطارق ويثنى بالاستفهام المعهود فى التعبير القرآنى : « وما أدراك ما الطارق ؟ » .. وكأنه أمر وراء الإدراك والعلم . ثم يحدده ويبينه بشكله وصورته : « النجم الثاقب » الذى يثقب الظلام بشعاعه النافذ. وهذا الوصف ينطبق على جنس النجم . ولا سبيل إلى تحديد نجم بذاته من هذا النص ، ولا ضرورة لهذا التحديد. بل إن الإطلاق أولى . ليكون المعنى : والسماء ونجومها الثاقبة الظلام ، النافذة من هذا الحجاب الذى يستر الأشياء . ويكون لهذه الإشارة إيحاؤها حول حقائق السورة وحول مشاهدها الأخرى . . كما سيأتى . .

يقسم بالسماء ونجمها الثاقب :أن كل نفس عليها من أمرالله رقيب : «إن كل نفس لما عليها حافظ » . . . وفى التعبير بصيغته هذه معنى التوكيد الشديد . . مامن نفس إلا عليها حافظ .

Marfat.com

يراقبها ، ويحصى عليها ، ويحفظ عنها ، وهو موكل بها بأمر الله . ويمين النفس لأنها مستودع الأسرار والأفكار . وهى التى يناط بها العمل والجزاء .

ليست هنالك فوضى إذن ولاهيصة ! والناس ليسوا مطلقين فى الأرض هكذا بلا حارس . ولامهملين فى شعابها بلاحافظ ،ولامتروكين يفعلون كيف شاءوا بلارقيب . إنما هو الإحصاء الدقيق المباشر ، والحساب المبنى على هذا الإحصاء الدقيق المباشر .

ويلقى النص إيحاءه الرهيب حيث تحس النفس أنها ليست أبدا فى خلوة ـ وإن خلت ـ فهناك الحافظ الرقيب عليها حين تنفرد من كل رقيب ، وتتخفى عن كل عين ، وتأمن من كل طارق . هنالك الحافظ الذى يشق كل غطاء وينفذ إلى كل مستور . كما يطرق النجم الثاقب حجاب الليل الساتر .. وصنعة الله واحدة متناسقة فى الأنفس وفى الآفاق .

* * *

ويخلص من هذه اللمسة التى تصل النفس بالكون ، إلى لمسة أخرى تؤكد حقيقة التقدير والتدبير ، التى أقسم عليها بالسماء والطارق . فهذه نشأة الإنسان الأولى تدل على هذه الحقيقة ؛ وتوحى بأن الإنسان ليس متروكا سدى ، ولامهملا ضياعا :

« فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب » . .

فلينظر الإنسان من أى شىء خلق وإلى أى شىء صار . . إنه خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ، خلق من هـذا الماء الذى يجتمع من صلب الرجل وهو عظام ظهره الفقارية ومن ترائب المرأة وهى عظام صدرها العلوية . . ولقد كان هـذا سرا مكنونا فى علم الله لايعلمه البشر . حتى كان نصف القرن الأخير حيث اطلع العلم الحديث على هـذه الحقيقة بطريقته ؛ وعرف أنه فى عظام الظهر الفقارية يتكون ماء الرجل ، وفى عظام الصدر العلوية يتكون ماء المرأة . حيث يلتقيان فى قرار مكين فينشأ منهما الإنسان !

والمسافة الهائلة بين المنشأ والمصير . . بين الماء الدافق الذى يخرج من بين الصلب والترائب وبين الإنسان المدرك العاقل المعقد التركيب العضوى والعصبى والعقلى والنفسى . . هـذه المسافة الهائلة التى يعبرها الماء الدافق إلى الإنسان الناطق توحى بأن هنالك يدا خارج ذات الإنسان هى التى تدفع بهذا الشىء المائع الذى لاقوام له ولاإرادة ولاقدرة ، فى طريق الرحلة الطويلة العجيبة الهائلة ، حتى تنتهى به إلى هـذه النهاية الماثلة . وتشى بأن هنالك حافظا من أمر الله

Marfat.com

يرعى هذه النطفة المجردة من الشكل والعقل ، ومن الإرادة والقدرة ، فى رحلتها الطويلة العجيبة . وهى تحوى من العجائب أضعاف مايعرض للإنسان من العجائب من مولده إلى مماته

هذه الخلية الواحدة الملقحة لاتكاد ترى بالمجهر ، إذ أن هنالك ملايين منها فى الدقيقة الواحدة .. هذه الخليقة التى لاقوام لها ولاعقل ولاقدرة ولاإرادة ، تبدأ فى الحال بمجرد استقرارها فى الرحم فى عملية بحث عن الغذاء . حيث تزودها اليد الحافظة بخاصية أكالة تحول بها جدار الرحم حولها إلى بركة من الدم السائل المعد للغذاء الطازج ! وبمجرد اطمئنانها على غذائها تبدأ فى عملية جديدة . عملية انقسام مستمرة تنشأ عنها خلايا .. وتعرف هذه الخليقة الساذجة التى لاقوام لها ولاعقل ولاقدرة ولاإرادة . . تعرف ماذا هى فاعلة وماذا هى تريد . . حيث تزودها اليد الحافظة بالهدى والمعرفة والقدرة والإرادة التى تعرف بها الطريق ! إنها مكلفة أن تخصص كل مجموعة من هذه الخلايا الجديدة لبناء ركن من أركان هذه العمارة الهائلة . . عمارة الجسم الإنسانى : . فهذه المجموعة تنطلق لتنشىء الهيكل العظمى . وهذه المجموعة تنطلق لتنشىء الجهاز العضلى . وهذه المجموعة تنطلق لتنشىء الجهاز العصبى . وهذه المجموعة تنطلق لتنشىء الجهاز المفاوى . . . إلى آخر هذه الأركان الأساسية فى العمارة الإنسانية ! . . ولكن العمل ليس بمثل هذه البساطة . . إن هنالك تخصصا أدق . فكل عظم من العظام . وكل عضلة من العضلات . وكل عصب من الأعصاب ... لا يشبه الآخر . لأن العمارة دقيقة الصنع ، عجيبة التكوين ، متنوعة الوظائف . . ومن ثم تتعلم كل مجموعة من الخلايا المنطلقة لبناء ركن من العمارة ، أن تتفرق طوائف متخصصة ، تقوم كل طائفة منها بنوع معين من العمل فى الركن المخصص لها من العمارة الكبيرة ! . . إن كل خلية صغيرة تنطلق وهى تعرف طريقها . تعرف إلى أين هى ذاهبة ، وماذا هو مطلوب منها اولا تخطىء واحدة منها طريقها فى هذه المتاهة الهائلة . فالخلايا المكلفة أن تصنع العين تعرف أن العين ينبغى أن تكون فى الوجه ، ولا يجوز أبدا أن تكون فى البطن أو القدم أو الذراع . مع أن كل موضع من هذه المواضع يمكن أن تنمو فيه عين . ولو أخذت الخلية الأولى المكلفة بصنع العين وزرعت فى أى من هذه المواضع لصنعت عينا هنالك ! ولكنها هى بذاتها حين تنطلق لاتذهب إلا للمكان المخصص للعين فى هذا الجهاز الإنسانى المعقد . . ثم ترى قال لها : إن هذا الجهاز يحتاج إلى عين فى هذا المكان دون سواه ؟ إنه

Marfat.com

الله . إنه الحافظ الأعلى الذى يرعاها ويوجهها ويهديها إلى طريقها فى المتاهة التى لا هادى فيها إلا الله !

وكل تلك الخلايا فرادى ومجتمعة تعمل فى نطاق رسمه لها مجموعة معينة من الوحدات كامنة فيها . هى وحدات الوراثة ، الحافظة لسجل النوع وخصائص الأجداد . فخلية العين وهى تنقسم وتتكاثر لكى تكوّن العين ، تحاول أن تحافظ فى أثناء العمل على شكل معين للعين وخصائص محددة تجعلها عين إنسان لاعين أى حيوان آخر . وإنسان لأجداده شكل معين للعين وخصائص معينة . . وأقل انحراف فى تصميم هذه العين من ناحية الشكل أو ناحية الخصائص يحيد بها عن الخط المرسوم . فمن ذا الذى أودعها هذه القدرة ؟ وعلمها ذلك التعليم ؟ وهى الخلية الساذجة التى لاعقل لها ولا إدراك ، ولا إرادة لها ولا قوة ؟ إنه الله . علمها مايعجز الإنسان كله عن تصميمه لو وكل إليه تصميم عين أو جزء من عين . بينما خلية واحدة منه أو عدة خلايا ساذجة ، تقوم بهذا العمل العظيم !

ووراء هذه اللمحة الخاطفة عن صور الرحلة الطويلة العجيبة بين الماء الدافق والإنسان الناطق ، حشود لاتحصى من العجائب والغرائب ، فى خصائص الأجهزة والأعضاء ، لاغلك تقصيها فى هذه الظلال . . تشهد كلها بالتقدير والتدبير . وتشى باليد الحافظة الهادية المعينة . وتؤكد الحقيقة الأولى التى أقسم عليها بالسماء والطارق . كما تمهد للحقيقة التالية . حقيقة النشأة الآخرة التى لايصدقها المشركون ، المخاطبون أول مرة بهذه السورة .

* * *

« إنه على رجعه لقادر . يوم تبلى السرائر . فماله من قوة ولا ناصر » . .

إنه ـ الله الذى أنشأه ورعاه ـ إنه لقادر على رجعه إلى الحياة بعد الموت ، وإلى التجدد بعد البلى ، تشهد النشأة الأولى بقدرته ، كما تشهد بتقديره وتدبيره . فهذه النشأة البالغة الدقة والحكمة تذهب كلها عبثا إذا لم تكن هناك رجعة لتختبر السرائر وتجزى جزاءها العادل : « يوم تبلى السرائر » . . السرائر المكنونة ، المطوية على الأسرار المحجوبة . . يوم تبلى وتختبر ، وتتكشف وتظهر كما ينفذ الطارق من خلال الظلام الساتر ؛ وكما ينفذ الحافظ إلى النفس الملفعة بالسواتر ! كذلك تبلى السرائر يوم يتجرد الإنسان من كل قوة ومن كل ناصر : « فماله من قوة ولا ناصر » . . ماله من قوة فى ذاته ، وماله من ناصر خارج ذاته . .

Marfat.com

والتكشف من كل ستر ، مع التجرد من كل قوة ، يضاعف شدة الموقف ؛ ويلمس الحس لمسة عميقة التأثير . وهو ينتقل من الكون والنفس ، إلى نشأة الإنسان ورحلته العجيبة ، إلى نهاية المطاف هناك ، حيث يتكشف ستره ويكشف سره ، ويتجرد من القوة والنصير . . .

* * *

ولعل طائفا من شك ، أو بقية من ريب ، تكون باقية فى النفس ، فى أن هذا لابد كائن . . فمن ثم يجزم جزما بأن هذا القول هو القول الفصل ، ويربط بين هذا القول وبين مشاهد الكون ، كما صنع فى مطلع السورة :

« والسماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع ، إنه لقول فصل ، وما هو بالهزل » . .

والرجع المطر ترجع به السماء مرة بعد مرة ، والصدع النبت يشق الأرض وينبثق .. وهما يمثلان مشهدا للحياة فى صورة من صورها .حياة النبات ونشأته الأولى : ماء يتدفق من السماء، ونبت ينبثق من الأرض . . أشبه شىء بالماء الدافق من الصلب والترائب ؛ والجنين المنبثق من ظلمات الرحم . الحياة هى الحياة . والمشهد هو المشهد . والحركة هى الحركة . . نظام ثابت ، وصنعة مُعلمة ، تدل على الصانع . الذى لايشبهه أحد لافى حقيقة الصنعة ولا فى شكلها الظاهر !

وهو مشهد قريب الشبه بالطارق . النجم الثاقب . وهو يشق الحجب والستائر . كما أنه قريب الشبه بابتلاء السرائر وكشف السواتر . . صنعة واحدة تشير إلى الصانع !

يقسم الله بهذين الكائنين وهذين الحدثين : السماء ذات الرجع . والأرض ذات الصدع.. حيث يوقع مشهدهما وإيحاؤهما ، كما يوحى جرس التعبير ذاته ، بالشدة والنفاذ والجزم . . يقسم بأن هذا القول الذى يقرر الرجعة والابتلاء ـ أوبأن هذا القرآن عامة ـ هو القول الفصل الذى لايتلبس به الهزل . القول الفصل الذى ينهى كل قول وكل جدل وكل شك وكل ريب .القول الذى ليس بعده قول . تشهد بهذا السماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع!

* * *

وفى ظل هذا القول الفصل بالرجعة والابتلاء يتجه الخطاب إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو ومن معه من القلة المؤمنة فى مكة يعانون من كيد المشركين ومؤامراتهم على الدعوة

Marfat.com

والمؤمنين بها ـ وقد كانوا فى هم مقعد مقيم للكيد لها والتدبير ضدها وأخذ الطرق عليها وابتكار الوسائل فى حربها ـ يتجه الخطاب إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالتثبيت والتطمين ، وبالتهوين من أمر الكيد والكائدين . وأنه إلى حين . وأن المعركة بيده هو ـ سبحانه ـ وقيادته . فليصبر الرسول وليطمئن هو والمؤمنون :

« إنهم يكيدون كيدا ، وأكيد كيدا ، فمهل الكافرين ، أمهلهم رويدا » . .

إنهم ـ هؤلاء الذين خلقوا من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ـ بلا حول ولا قوة ولا قدرة ولا إرادة ، ولا معرفة ولا هداية . والذين تولتهم يد القدرة فى رحلتهم الطويلة . والذين هم صائرون إلى رجعة تبلى فيها السرائر ، حيث لا قوة لهم ولا ناصر . . إنهم هؤلاء يكيدون كيدا . .

وأنا ـ أنا المنشىء . الهادى . الحافظ . الموجه . المعيد . المبتلى . القادر . القاهر . خالق السماء والطارق . وخالق الماء الدافق ، والإنسان الناطق ، وخالق السماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع . . أنا الله . . أكيد كيدا . .

فهذا كيد . وهذا كيد . وهـذه هى المعركة . . . ذات طرف واحد فى الحقيقة . . وإن صورت ذات طرفين لمجرد السخرية والهزء !

« فمهل الكافرين » .. « أمهلهم رويدا » .. لا تعجل . ولا تستبطىء نهاية المعركة . وقد رأيت طبيعتها وحقيقتها . . فإنما هى الحكمة وراء الإمهال . الإمهال قليلا . . وهو قليل حتى لو استغرق عمر الحياة الدنيا . فما هو عمر الحياة الدنيا إلى جانب تلك الآباد المجهولة المدى ؟

ونلحظ فى التعبير الإيناس الإلهى للرسول : « فمهل الكافرين أمهلهم رويدا » . . كأنه هو ـ صلى الله عليه وسلم ـ صاحب الأمر ، وصاحب الإذن ، وكأنه هو الذى يأذن بإمهالهم . أو يوافق على إمهالهم . وليس من هذا كله شىء للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما هو الإيناس والود فى هذا الموضع الذى تنسم نسائم الرحمة على قلبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ الإيناس الذى يخلط بين رغبة نفسه وإرادة ربه . ويشركه فى الأمر كأن له فيه شيئا . ويرفع الفوارق والحواجز بينه وبين الساحة الإلهية التى يقضى فيها الأمر ويبرم . . وكأنما يقول له ربه : إنك مأذون فيهم . ولكن أمهلهم . أمهلهم رويدا . . فهو الود المطوف والإيناس اللطيف . يمسح على الكرب والشدة والعناء والكيد ، فتنمحى كلها وتذوب . . ويبقى العطف الودود . .

Marfat.com

سورة الأعلى مكية
وآياتها ١٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَىٰ * ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ * وَٱلَّذِى أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ * فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ .

« سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ * إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ، إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ * وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ * فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ * سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ * وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى * ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ * قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ .

« بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ .

« إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ » ⑲

فى رواية للإمام أحمد عن الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يحب هذه السورة : « سبح اسم ربك الأعلى » .. وفى صحيح مسلم أنه كان يقرأ فى العيدين ويوم الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى ، و « هل أتاك حديث الغاشية » . وربما اجتمعا فى يوم واحد فقرأهما . .

وحق لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يحب هذه السورة وهى تحيل له الكون كله معبدا تتجاوب أرجاؤه بتسبيح ربه الأعلى وتمجيده، ومرضا يحفل بموحيات التسبيح والتحميد:

Marfat.com

« سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى . والذى أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى » .. وإيقاع السورة الرخى المديد يلقى ظلال التسبيح ذى الصدى البعيد ..

وحق له ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يحبها، وهى تحمل له من البشريات أمرا عظيما . وربه يقول له ، وهو يكلفه التبليغ والتذكير : « سنقرئك فلا تنسى ـ إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى ـ ونيسرك لليسرى . فذكر إن نفعت الذكرى » . . وفيها يتكفل له ربه بحفظ قلبه لهذا القرآن ، ورفع هذه الكلفة عن عاتقه . ويعده أن ييسره لليسرى فى كل أموره وأمور هذه الدعوة . وهو أمر عظيم جدا .

وحق له ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يحبها، وهى تتضمن الثابت من قواعد التصور الإيمانى: من توحيد الرب الخالق وإثبات الوحى الإلهى ، وتقرير الجزاء فى الآخرة . وهى مقومات العقيدة الأولى . ثم تصل هذه العقيدة بأصولها البعيدة ، وجذورها الضاربة فى شعاب الزمان: « إن هذا لفى الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى » . . فوق ما تصوره من طبيعة هذه العقيدة ، وطبيعة الرسول الذى يبلغها والأمة التى تحملها .. طبيعة اليسر والسماحة . .

وكل واحدة من هذه تحتها موحيات شتى ؛ ووراءها مجالات بعيدة المدى . .

* * *

« سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى . والذى أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى » . .

إن هذا الافتتاح ، بهذا المطلع الرخى المديد ، ليطلق فى الجو ابتداء أصداء التسبيح ، إلى جانب معنى التسبيح . وإن هذه الصفات التى تلى الأمر بالتسبيح : « الأعلى الذى خلق فسوى. والذى قدر فهدى . والذى أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى » . . لتحيل الوجود كله معبدا يتجاوب جنباته بتلك الأصداء ؛ ومعرضا تتجلى فيه آثار الصانع المبدع : « الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى » . . .

والتسبيح هو التمجيد والتنزيه واستحضار معانى الصفات الحسنى لله ، والحياة بين إشعاعاتها وفيوضاتها وإشراقاتها ومذاقاتها الوجدانية بالقلب والشعور . وليست هى مجرد ترديد لفظ : سبحان الله ! . . و « سبح اسم ربك الأعلى » . . تطلق فى الوجدان معنى وحالة يصعب تحديدها باللفظ ، ولكنها تتذوق بالوجدان . وتوحى بالحياة مع الإشراقات المنبثقة من استحضار معانى الصفات .

Marfat.com

والصفة الأولى القريبة فى هذا النص هى صفة الرب . وصفة الأعلى . . والرب : المربى والراعى ، وظلال هذه الصفة الحانية مما يتناسق مع جو السورة وبشرياتها وإيقاعاتها الرخية . . وصفة الأعلى تطلق التطلع إلى الآفاق التى لاتتناهى ؛ وتطلق الروح لتسبح وتسبح إلى غير مدى . . وتتناسق مع التمجيد والتنزيه ، وهو فى صميمه الشعور بصفة الأعلى ..

والخطاب هنا لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابتداء . وهذا الأمر صادر إليه من ربه . بهذه الصيغة : « سبح اسم ربك الأعلى » . . وفيه من التلطف والإيناس مايجل عن التعبير . وقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ هذا الأمر ، ثم يعقب عليه بالاستجابة المباشرة ، قبل أن يمضى فى آيات السورة ، يقول : « سبحان ربى الأعلى » . . فهو خطاب ورده . وأمر وطاعته . وإيناس ومجاوبته . . إنه فى حضرة ربه ، يتلقى مباشرة ويستجيب . فى أنس وفى اتصال قريب . . وحينما نزلت هذه الآية قال : « اجعلوها فى سجودكم » . وحينما نزلت قبلها : « فسبح باسم ربك العظيم » . . قال : « اجعلوها فى ركوعكم » . . فهذا التسبيح فى الركوع والسجود كلمة حية ألحقت بالصلاة وهى دافئة بالحياة . لتكون استجابة مباشرة لأمر مباشر . أو بتعبير أدق . . لإذن مباشر . . فإذن الله لعباده بأن يحمدوه ويسبحوه إحدى نعمه عليهم وأفضاله . إنه إذن بالاتصال به ـ سبحانه ـ فى صورة مقربة إلى مدارك البشر المحدودة . صورة تفضل الله عليهم بها ليعرفهم ذاته . فى صفاته . فى الحدود التى يمكنون أن يتطلعوا إليها . وكل إذن للعباد بالاتصال بالله فى أية صورة من صور الاتصال ،هو مكرمة له وفضل على العباد .

« سبح اسم ربك الأعلى » . . « الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى . . »

الذى خلق كل شىء فسواه ، فأكمل صنعته ، وبلغ به غاية الكمال الذى يناسبه .. والذى قدر لكل مخلوق وظيفته وطريقه وغايته فهداه إلى ماخلقه لأجله ، وألهمه غاية وجوده ؛ وقدر له مايصلحه مدة بقائه ، وهداه إليه أيضا . .

وهذه الحقيقة الكبرى ماثلة فى كل شىء فى هذا الوجود ؛ يشهد بها كل شىء فى رحاب الوجود . من الكبير إلى الصغير . ومن الجليل إلى الحقير . . كل شىء مسوى فى صنعته ، كامل فى خلقته . معد لأداء وظيفته . مقدر له غاية وجوده ، وهو ميسر لتحقيق هذه الغاية من أيسر طريق .. وجميع الأشياء مجتمعة كاملة التناسق، ميسرة لكى تؤدى فى مجموعها دورها الجماعى ؛ مثلما هى ميسرة فرادى لكى تؤدى دورها الفردى .

Marfat.com

الذرة بمفردها كاملة التناسق بين كهاربها وبروتوناتها وإلكتروناتها ، شأنها شأن المجموعة الشمسية فى تناسق شمسها وكواكبها وتوابعها . . وهى تعرف طريقها وتؤدى مثلها وظيفتها . .

والخلية الحية المفردة كاملة الخلقة والاستعداد لأداء وظائفها كلها ، شأنها شأن أرقى الخلائق الحية المركبة المعقدة .

وبين الذرة المفردة والمجموعة الشمسية ؛ كما بين الخلية الواحدة وأرقى الكائنات الحية ، درجات من التنظيمات والتركيبات كلها فى مثل هذا الكمال الخلق ، وفى مثل هذا التناسق الجماعى ، وفى مثل هذا التدبير والتقدير الذى يحكمها ويصرفها . . والكون كله هو الشاهد الحاضر على هذه الحقيقة العميقة . .

هذه الحقيقة يدركها القلب البشرى جملة حين يتلقى إيقاعات هذا الوجود ؛ وحين يتدبر الأشياء فى رحابه بحس مفتوح . وهذا الإدراك الإلهامى لايستعصى على أى إنسان فى أية بيئة ، وعلى أية درجة من درجات العلم الكسبى ، متى تفتحت منافذ القلب ، وتيقظت أوتاره لتلقى إيقاعات الوجود .

والملاحظة بعد ذلك والعلم الكسبى يوضحان بالأمثلة الفردية مايدركه الإلهام بالنظرة الأولى . . وهناك من رصيد الملاحظة والدراسة مايشير إلى طرف من تلك الحقيقة الشاملة لكل مافى الوجود . .

يقول العالم (ا . كريسى موريسون) رئيس أكاديمية العلوم بنيورك فى كتابه : « الإنسان لايقوم وحده [1] »

« إن الطيور لها غريزة العودة إلى الموطن . فعصفور المزاز الذى عشش ببابك يهاجر جنوبا فى الخريف . ولكنه يعود إلى عشه فى الربيع التالى. وفى شهر سبتمبر تطير أسراب من معظم طيورنا [2] إلى الجنوب . وقد تقطع فى الغالب نحو ألف ميل فوق أرض البحار . ولكنها لاتضل طريقها . وحمام الزاجل إذا تحير من جراء أصوات جديدة عليه فى رحلة طويلة داخل قفص ، يحوم برهة ثم يقصد قدما إلى موطنه دون أن يضل . . والنحلة تجد

(١) ترجمة الأستاذ محمود صالح الفلكى بعنوان : العلم يدعو إلى الإيمان .
(٢) أى طيور أمريكا .

Marfat.com

خليتها مهما طمست الريح ،فى هبوبها على الأعشاب والأشجار ، كل دليل يرى . وحاسة العودة إلى الوطن هـذه هى ضعيفة فى الإنسان ، ولـكنه يـكمل عتاده القليل منها بأدوات الملاحة . ونحن فى حاجة إلى هذه الغريزة ، وعقولنا تسد هـذه الحاجة . ولا بد أن للحشرات الدقيقة عيونا ميـكروسكوبية (مـكبرة) لا ندرى مبلغها من الإحكام ؛ وأن للصقور بصرا تلسكوبيا (مـكبرا مقربا) . وهنا أيضا يتفوق الإنسان بأدواته الميـكانيـكية فهو بتلسكوبه يبصر سديما بلغ من الضعف أنه يحتاج إلى مضاعفة قوة إبصاره مليونى مرة ليراه . وهو بمـكروسكوبه الـكهربائى يستطيع أن يرى بـكتريا كانت غير مرئية (بل كذلك الحشرات الصغيرة التى تعضها !) .

« وأنت إذا تركت حصانك العجوز وحده ، فإنه يلزم الطريق مهما اشتدت ظلمة الليل . وهو يقـدر أن يرى ولو فى غير وضوح . ولـكنه يلحظ اختلاف درجة الحرارة فى الطريق وجانبيه ، بعينين تأثرتا قليلا بالأشعة تحت الحمـراء التى للطريق . والبومة تستطيع أن تبصر الفأر الدافىء اللطيف وهو يجرى على العشب البارد مهما تـكن ظلمة الليل . ونحن نقلب الليل نهارا بإحداث إشعاع فى تلك المجموعة التى نسميها الضوء » . .

. . . « إن العاملات من النحل تصنع حجرات مختلفات الأحجام فى المشط الذى يستخدم فى التربية . وتعد الحجرات الصغيرات للعمال ، والأكبر منها لليعاسيب (ذكور النحل) وتعد غرفة خاصة للملـكات الحـوامل . والنحلة الملـكية تضع بيضا غير مخصب فى الخلايا المخصصة للذكور ، وبيضا مخصبا فى الحجرات الصحيحة المعدة للعاملات الإناث والملـكات المنتظرات . والعاملات اللائى هن إناث معدلات بعد أن انتظرن طويلا مجىء الجيل الجـديد ، تهيأن أيضا لإعداد الغذاء للنحل الصغير بمضغ العسل واللقح ومقدمات هضمه . ثم ينقطعن عن عملية المضغ ومقدمات الهضم عند مرحلة معينة من تطور الذكور والإناث ، ولا يغذين سوى العسل واللقح . والإناث اللاتى يعالجن على هذا الشكل يصبحن عاملات » .

«أما الإناث اللاتى فى حجرات الملـكة ،فإن التغذية بالمضغ ومقدمات الهضم تستمر بالنسبة لهن . وهؤلاء اللاتى يعاملن هذه المعاملة الخاصة يتطورن إلى ملـكات نحل ، وهن وحدهن اللائى ينتجن بيضا مخصبا .وعملية تـكرار الإنتاج هذه تتضمن حجرات خاصة ، وبيضا خاصا ، كما تتضمن الأثر العجيب الذى لتغيير الغذاء ، وهذا يتطلب الانتظار والتمييز وتطبيق اكتشاف

Marfat.com

أثر الغذاء ! وهذه التغيرات تنطبق بوجه خاص على حياة الجماعة ، وتبدو ضرورية لوجودها . ولا بد أن المعرفة والمهارة اللازمتين لذلك قد تم اكتسابهما بعد ابتداء هذه الحياة الجماعية ، وليستا بالضرورة ملازمتين لتكوين النحل ولا لبقائه على الحياة . وعلى ذلك فيبدو أن النحل قد فاق الإنسان فى معرفة تأثير الغذاء تحت ظروف معينة !

« والكلب بما أوتى من أنف فضولى يستطيع أن يحس الحيوان الذى مر . وليس ثمة من أداة من اختراع الإنسان لتقوى حاسة الشم الضعيفة لديه . ومع هذا فإن حاسة الشم الخاصة بنا ـ على ضعفها ـ قد بلغت من الدقة أنها يمكنها أن تتبين الذرات المكروسكوبية البالغة الدقة . .

« وكل الحيوانات تسمع الأصوات التى يكون كثير منها خارج دائرة الاهتزازات الخاصة بنا، وذلك بدقة تفوق كثيرا حاسة السمع المحدودة عندنا . وقد أصبح الإنسان يستطيع بفضل وسائله أن يسمع صوت ذبابة تطير على بعد أميال ، كما لو كانت فوق طبلة أذنه .ويستطيع بمثل تلك الأدوات أن يسجل وقع شعاع شمسى !

« إن إحدى المناكب المائية تصنع لنفسها عشا على شكل منطاد (بالون) من خيوط العنكبوت .وتعلقه بشىء ماتحت الماء . ثم تمسك ببراعة فقاعة هواء فى شعر جسمها ،وتحملها إلى الماء ، ثم تطلقها تحت العش . ثم تكرر هذه العملية حتى ينتفخ العش . وعندئذ تلد صغارها وتربيها ، آمنة عليها من هبوب الهواء . فهاهنا نجد طريقة النسج ، بما يشمله من هندسة وتركيب وملاحة جوية !

وسمك « السلمون » الصغير يمضى سنوات فى البحر ، ثم يعود إلى نهره الخاص به . والأكثر من ذلك أنه يصعد إلى جانب النهر الذى يصب عنده النهر الذى ولد فيه . . فما الذى يجعل السمك يرجع إلى مكان مولده بهذا التحديد ؟ إن سمكة السلمون التى تصعد فى النهر صعدا إذا نقلت إلى نهر آخر أدركت توا أنه ليس جدولها . فهى لذلك تشق طريقها خلال النهر ، ثم تحيد ضد التيار ، قاصدة إلى مصيرها !

« وهناك لغز أصعب من ذلك يتطلب الحل ، وهو الخاص بثعابين الماء التى تسلك عكس هذا المسلك ، فإن تلك المخلوقات العجيبة متى اكتمل نموها ، هاجرت من مختلف البرك والأنهار . وإذا كانت فى أوربا قطعت آلاف الأميال فى المحيط قاصدة كلها إلى الأعماق

Marfat.com

السحيقة جنوبى برمودا . وهناك تبيض وتموت . أما صغارها تلك التى لاتملك وسيلة لتعرف بها أى شىء سوى أنها فى مياه قفرة ـ فإنها تعود أدراجها وتجد طريقها إلى الشاطىء الذى جاءت منه أمهاتها . ومن ثم إلى كل نهر أو بحيرة أو بركة صغيرة . ولذا يظل كل جسم من الماء آهلا بثعابين البحار . لقد قاومت التيارات القوية ، وثبتت للأمداد والعواصف ، وغالبت الأمواج المتلاطمة على كل شاطىء . وهى الآن يتاح لها النمو . حتى إذا اكتمل نموها دفعها قانون خفى إلى الرجوع حيث كانت بعد أن تتم الرحلة كلها . فمن أين ينشأ الحافز الذى يوجهها لذلك ؟ لم يحدث قط أن صيد ثعبان ماء أمريكى فى المياه الأوربية ، أو صيد ثعبان ماء أوربى فى المياه الأمريكية . والطبيعة تبطىء فى إنماء ثعبان الماء الأوربى مدة سنة أو أكثر لتعوض من زيادة مسافة الرحلة التى يقطعها (إذ أن مسافته أطول من مسافة زميله الأمريكى) ترى هل الذرات والهباءات إذا توحدت معاً فى ثعبان ماء يكون لها حاسة التوجيه وقوة الإرادة اللازمة للتنفيذ ؟ !

. . . « وإذا حمل الريح فراشة أنثى من خلال نافذة إلى علية بيتك ، فإنها لاتلبث حتى ترسل إشارة خفية . وقد يكون الذكر على مسافة بعيدة . ولكنه يتلقى هذه الإشارة ويجاوبها ،مهما أحدثت أنت من رائحة بعملك لتضليلهما . ترى هل لتلك المخلوقة الضئيلة محطة إذاعة ؟ وهل لذكر الفراشة جهاز راديو عقلى ، فضلا عن السلك اللاقط للصوت (إيريال) ؟ أتراها تهز الأثير فهو يتلقى الاهتزاز ؟ !

. . . « إن التليفون والراديو هما من العجائب الآلية . وهما يتيحان لنا الاتصال السريع . ولكنا مرتبطون فى شأنهما بسلك ومكان . وعلى ذلك لاتزال الفراشة متفوقة علينا من هذه الوجهة » . .

« والنبات يتحايل على استخدام وكلاء لمواصلة وجوده دون رغبة من جانبهم ! كالحشرات التى تحمل اللقح من زهرة إلى أخرى ، والرياح ، وكل شىء يطير أو يمشى ، ليوزع بذوره . وأخيرا أوقع النبات الإنسان ذا السيادة فى الفخ ! فقد حسن الطبيعة وجازته بسخاء . غير أنه شديد التكاثر ؛ حتى أصبح فقيدا بالمحراث ، وعليه أن يبذر ويحصد ويخزن ، وعليه أن يربى ويهجن ، وأن يشذب ويطعم . وإذا هو أغفل هذه الأعمال كانت المجاعة نصيبه ، وتدهورت المدنية ، وعادت الأرض إلى حالتها الفطرية ! » .

Marfat.com

« وكثير من الحيوانات هى مثل « سرطان البحر » الذى إذا فقد مخلبا عرف أن جزءا من جسمه قد ضاع ، وسارع إلى تعويضه بإعادة تنشيط الخلايا وعوامل الوراثة ؛ ومتى تم ذلك كفت الخلايا عن العمل ، لأنها تعرف بطريقة ما أن وقت الراحة قد حان !

« وكثير الأرجل المائى إذا انقسم إلى قسمين استطاع أن يصلح نفسه عن طريق أحد هذين النصفين . وأنت إذا قطعت رأس دودة الطعم تسارع إلى صنع رأس بدلا منه . ونحن نستطيع أن ننشط التئام الجروح ، ولكن متى يتاح للجراحين أن يعرفوا كيف يحركون الخلايا لتنتج ذراعا جديدة ، أو لحما أو عظاما أو أظافر أو أعصابا ؟ ـ إذا كان ذلك فى حيز الإمكان ؟ !

« وهناك حقيقة مدهشة تلقى بعض الضوء على لغز هذا الخلق من جديد : فإن الخلايا فى المراحل الأولى من تطورها ، إذا تفرقت ، صار لكل منها القدرة على خلق حيوان كامل . ومن ثم فإنه إذا انقسمت الخلية الأولى إلى قسمين ، وتفرق هذان ، تطور منهما فردان . وقد يكون فى ذلك تفسير لتشابه التوأمين . ولكنه يدل على أكثر من ذلك . وهو أن كل خلية فى البداية يمكن أن تكون فردا كاملا بالتفصيل . فليس هناك شك إذن ، فى أنك أنت ، فى كل خلية ونسيج ! »

ويقول فى فصل آخر :

« إن جوزة البلوط تسقط على الأرض ، فتحفظها قشرتها السمراء الجامدة ، وتتدحرج فى حفرة ما من الأرض ، وفى الربيع تستيقظ الجرثومة ، فتنفجر القشرة ، وتزدرد الطعام من اللب الشبيه بالبيضة الذى اختفت فيه « الجينات » (وحدات الوراثة) وهى تمد الجذور فى الأرض ، وإذا بك ترى فرخا أو شتلة (شجيرة) وبعد سنوات شجرة ! وإن الجرثومة بما فيها من جينات قد تضاعفت ملايين الملايين ، فصنعت الجذع والقشرة وكل ورقة وكل ثمرة ، مماثلة لتلك التى لشجرة البلوط التى تولدت عنها . وفى خلال مئات السنين قد بقى من ثمار البلوط التى لا تحصى نفس ترتيب الذرات تماما الذى أنتج أول شجرة بلوط منذ ملايين السنين [1] »

وفى فصل ثالث يقول :

« وكل خلية تنتج فى أى مخلوق حى يجب أن تكيف نفسها لتكون جزءا من اللحم .

(١) يراجع ماجاء عن رحلة النطفة الجنينية فى سورة « والسماء والطارق » . .

Marfat.com

أو أن تضحى بنفسها كجزء من الجلد الذى لايلبث حتى يبلى . وعليها أن تضع ميناء الأسنان ، وأن تنتج السائل الشفاف فى العين ، أو أن تدخل فى تكوين الأنف أو الأذن . ثم على كل خلية أن تكيف نفسها من حيث الشكل وكل خاصية أخرى لازمة لتأدية مهمتها . ومن العسير أن نتصور أن خلية ما هى ذات يد يمنى أو يسرى ولكن إحدى الخلايا تصبح جزءا من الأذن اليمنى ، بينما الأخرى تصبح جزءا من الأذن اليسرى .

. . . « وإن مئات الآلاف من الخلايا تبدو كأنها مدفوعة لأن تفعل الشىء الصواب فى الوقت الصواب . وفى المكان الصواب » !

وفى فصل رابع . .

. . . « فى خليط الخلق قد أتيح لكثير من المخلوقات أن تبدى درجة عالية من أشكال معينة من الغريزة أو الذكاء أو ما لا ندرى . فالدبور مثلا يصيد الجندب النطاط ، ويحفر حفرة فى الأرض . ويخز الجندب فى المكان المناسب تماما حتى يفقد وعيه ، ولكنه يعيش كنوع من اللحم المحفوظ . . وأنثى الدبور تضع بيضا فى المكان المناسب بالضبط ، ولعلها لاتدرى أن صغارها حين تفقس يمكنها أن تتغذى ، دون أن تقتل الحشرة التى هى غذاؤها ، فيكون ذلك خطرا على وجودها . ولابد أن الدبور قد فعل ذلك من البداية وكرره دائما ، وإلا مابقيت زنابير على وجه الأرض . . والعلم لايجد تفسيرا لهذه الظاهرة الخفية ، ولكنها مع ذلك لايمكن أن تنسب إلى المصادفة !

« وإن أنثى الدبور تغطى حفرة فى الأرض ، وترحل فرحا ، ثم تموت . فلا هى ولا أسلافها قد فكرت فى هذه العملية ، وهى لاتعلم ماذا يحدث لصغارها ، أو أن هناك شيئا يسمى صغارا . . بل إنها لاتدرى أنها عاشت وعملت لحفظ نوعها !

. . . « وفى بعض أنواع النمل يأتى العملة منه بحبوب صغيرة لإطعام غيرها من النمل فى خلال فصل الشتاء . وينشىء النمل ماهو معروف « بمخزن الطحن » وفيه يقوم النمل الذى أوتى أفكاكا كبيرة معدة للطحن ، بإعداد الطعام المستمرة . وهذا هو شاغلها الوحيد . وحين يأتى الخريف ، وتكون الحبوب كلها قد طحنت ، فإن « أعظم خير لأكبر عدد » يتطلب حفظ تلك المؤونة من الطعام . ومادام الجيل الجديد سينتظم كثيرا من النمل الطحان ، فإن جنود النمل تقتل النمل الطاحن الموجود . ولعلها ترضى ضميرها الحشرى بأن ذلك النمل قد نال جزاءه الكافى ، إذ كانت له الفرصة الأولى فى الإفادة من الغذاء أثناء طحنه !

Marfat.com

« وهناك أنواع من النمل تدفعها الغريزة أو التفكير (واختر منهما ما يحلو لك) إلى زرع أعشاش للطعام فيما يمكن تسميته « بحدائق الأعشاش » . وتصيد أنواعا معينة من الدود والأرق أو اليرق (وهى حشرات صغيرة تسبب آفة الندوة العسلية) فهذه المخلوقات هى بقر النمل وعنزاتها ! ومنها يأخذ النمل إفرازات معينة تشبه العسل ليكون طعاما له .

« والنمل يأسر طوائف منه ويسترقها . وبعض النمل حين يصنع أعشاشه ، يقطع الأوراق مطابقة للحجم المطلوب . وبينما يضع بعض عملة النمل الأطراف فى مكانها ، تستخدم صغارها التى وهى فى الدور اليرقى تقدر أن تغزل الحرير ـ لحياكتها معاً ! وربما حرم طفل النمل عمله شرنقة لنفسه ، ولكنه قد خدم الجماعة !

« فكيف يتاح لذرات المادة التى تتكون منها النملة ، أن تقوم بهذه العمليات المعقدة ؟

« لاشك أن هناك خالقا أرشدها إلى كل ذلك » . . انتهى . .

أجل . لاشك أن هناك خالقا أرشدها ، وأرشد غيرها من الخلائق . كبيرها وصغيرها إلى كل ذلك . . إنه « الأعلى الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى » . .

وهذه النماذج التى اقتطفناها من كلام ذلك العالم ليست سوى طرف صغير من الملاحظات التى سجلها البشر فى عوالم النبات والحشرات والطيور والحيوان . ووراءها حشود من مثلها كثيرة . . وهذه الحشود لاتزيد على أن تشير إلى جانب صغير من مدلول قوله تعالى : « الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى » . . فى هذا الوجود المشهود الذى لانعرف عنه إلا أقل من القليل . ووراءه عالم الغيب الذى ترد لنا عنه لمحات فيما يحدثنا الله عنه ؛ بالقدر الذى تتكوينا البشرى الضعيف !

* * *

وبعد عرض هذا المدى المتطاول ، من صفحة الوجود الكبيرة [illegible] جنباته ، تتجاوب به أرجاؤه البعيدة ، يكمل التسبيحة الكبرى بلسان [illegible] إيحاؤها ولها مغزاها :

« والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى » . .

والمرعى كل نبات . وما من نبات إلا وهو صالح لخلق من خلق الله . فهو هنا أشمل مما نعهده من مرعى أنعامنا . فالله خلق هذه الأرض وقدر فيها أقواتها لكل حى يدب فوق ظهرها أو يختبىء فى جوفها ، أو يطير فى جوها .

Marfat.com

والمرعى يخرج فى أول أمره خضرا ، ثم يذوى فإذا هو غثاء ، أميل إلى السواد فهو أحوى . وقد يصلح أن يكون طعاما وهو أخضر ، ويصلح أن يكون طعاما وهو غثاء أحوى . وما بينهما فهو فى كل حالة صالح لأمر من أمور هذه الحياة ، بتقدير الذى خلق فسوى وقدر فهدى . .

والإشارة إلى حياة النبات هنا توحى من طرف خفى ، بأن كل نبت إلى حصاد وأن كل حى إلى نهاية . وهى اللمسة التى تتفق مع الحديث عن الحياة الدنيا والحياة الأخرى ... « بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى » . . والحياة الدنيا كهذا المرعى ، الذى ينتهى فيكون غثاء أحوى . . والآخرة هى التى تبقى .

* * *

وبهذا المطلع الذى يكشف عن هذا المدى المتطاول من صفحة الوجود الكبيرة . . تتصل حقائق السورة الآتية فى سياقها ، بهذا الوجود ؛ ويتصل الوجود بها ، فى هذا الإطار العريض الجميل . والملحوظ أن معظم السور فى هذا الجزء تتضمن مثل هذا الإطار . الإطار الذى يتناسق مع جوها وظلها وإيقاعها تناسقا كاملا (١) .

* * *

بعدئذ يجىء بتلك البشرى العظيمة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمته من ورائه : « سنقرئك فلا تنسى ـ إلا ماشاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى ـ ونيسرك لليسرى . فذكر إن نفعت الذكرى » . .

وتبدأ البشرى برفع عناء الحفظ لهذا القرآن والكد فى إمساكه عن عاتق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « سنقرئك فلا تنسى » .. فعليه القراءة يتلقاها عن ربه ، وربه هو المتكفل بعد ذلك بقلبه ، فلا ينسى مايقرئه ربه .

وهى بشرى للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تريحه وتطمئنه على هذا القرآن العظيم الجليل الحبيب إلى قلبه . الذى كان يندفع بعاطفة الحب له ، وبشعور الحرص عليه ، وبإحساس التبعة العظمى فيه . . إلى ترديده آية آية وجبريل يحمله إليه ، وتحريك لسانه به خيفة أن ينسى حرفا منه . حتى جاءته هذه البشائر المطمئنة بأن ربه سيتكفل بهذا الأمر عنه .

---

(١) يراجع فصل التناسق الفنى فى كتاب : التصوير الفنى فى القرآن .

Marfat.com

وهى بشرى لأمته من ورائه ، تطمئن بها إلى أصل هـذه العقيدة . فهى من الله . والله كافلها وحافظها فى قلب نبيها . وهذا من رعايته سبحانه ، ومن كرامة هذا الدين عنده ، وعظمة هذا الأمر فى ميزانه .

وفى هذا الوضع كما فى كل موضع يرد فيه وعد جازم ، أو ناموس دائم ، يرد مايقيد طلاقة المشيئة الإلهيـة من وراء ذلك ، وعدم تقيدها بقيـد ما ولو كان هـذا القيد ناشئا من وعدها وناموسها . فهى طليقة وراء الوعد والناموس . ويحرص القرآن على تقرير هـذه الحقيقة فى كل موضع ـ كما سبق أن مثلنا لهذا فى الظلال ـ ومن ذلك ماجاء هنا :

« إلا ماشاء الله » . . فهو الاحتراس الذى يقرر طلاقة المشيئة الإلهية ، بعد الوعد الصادق بأنه لاينسى . ليظل الأمر فى إطار المشيئة الـكبرى ؛ ويظل التطلع دائما إلى هـذه المشيئة حتى فيما سلف فيه وعد منها . ويظل القلب معلقا بمشيئة الله حيا بهذا التعلق أبدا . .

« إنه يعلم الجهر وما يخفى » . . وكأن هـذا تعليل لما مر فى هـذا المقطع من الإقـرار والحفظ والاستثناء . . فـكلها ترجع إلى حـكمة يعلمها من يعلم الجهر وما يخفى ؛ ويطلع على الأمر من جوانبـه جميعا ، فيقرر فيـه ماتقتضيه حـكمته المستندة إلى علمـه بأطراف الأمر جميعا .

* * *

والبشرى الثانية الشاملة :

« ونيسرك لليسرى » . .

بشرى لشخص الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبشرى لأمته من ورائه . وتقرير لطبيعة هذا الدين ، وحقيقة هـذه الدعوة ، ودورها فى حياة البشر ، وموضعها فى نظام الوجود . . وإن هاتين الـكلمتين : « ونيسرك لليسرى » ، لتشتملان على حقيقة من أضخم حقائق هـذه العقيدة ، وحقائق هـذا الوجود أيضا . فهى تصل طبيعة هـذا الرسول بطبيعة هـذه العقيدة بطبيعة هذا الوجود . الوجود الخارج من يد القدرة فى يسر . السائر فى طريقه بيسر . المتجه إلى غايته بيسر . فهى انطلاقة من نور ؛ تشير إلى أبعاد وآماد وآفاق من الحقيقة ليس لها حدود . . .

إن الذى ييسره الله لليسرى ليمضى فى حياته كلها ميسرا ، يمضى مع هـذا الوجود المتناسق

Marfat.com

التركيب والحركة والاتجاه . . إلى الله . . فلا يصطدم إلا مع المنحرفين عن خط هـذا الوجود الـكبير ـ وهم لاوزن لهم ولا حساب حين يقاسون إلى هذا الوجود الـكبير ـ يمضى فى حركة يسيرة لطيفة هينة لينة مع الوجود كله ومع الأحداث والأشياء والأشخاص ، ومع القدر الذى يصرف الأحداث والأشياء والأشخاص. اليسر فى يده . واليسر فى لسانه . واليسر فى خطوه . واليسر فى عمله واليسر فى تصوره . واليسر فى تفـكيره . واليسر فى أخذه للأمور. واليسر فى علاجه للأمور . اليسر مع نفسه واليسر مع غيره .

وهـكذا كان رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ فى كل أمره . . ماخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما كما روت عنه عائشة ـ رضى الله عنها [1] ـ وكما قالت عنه : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خلا فى بيته ألين الناس ، بساما ضحاكا » وفى صحيح البخارى : « كانت الأمة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت » !

وفى هديه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى اللباس والطعام والفراش وغيرها مايعبر عن اختيار اليسر وقلة التـكلف البتة .

جاء فى زاد المعاد لشمس الدين أبى عبد الله محمد ابن قيم الجوزية ، عن هـديه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى « ملابسه » : « كانت له عمامة تسمى السحاب كساها علياً ، وكان يلبسها ويلبس تحتها القلنسوة . وكان يلبس القلنسوة بغير عمامة ، ويلبس العمامة بغير قلنسوة . وكان إذا اعتم أرخى عمامته بين كتفيه ـ كما رواه مسلم فى صحيحه . عن عمر ابن حريث قال : رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على المنبر وعليـه عمامة سوداء قد أرخى طرفها بين كتفيه . وفى مسلم أيضا عن جابر ذؤابة ، فدل على أن الذؤابة لم يـكن يرخيها دائما بين كتفيه . وقد يقال : إنه دخل مكة وعليه أهبة القتال والمغفر على رأسه فلبس فى كل موطن ماينا سبه » .

وفى فصل آخر قال : « والصواب أن أفضل الطرق طريق رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ التى سنها وأمر بها ورغب فيها وداوم عليها . وهى أن هديه فى اللباس أن يلبس ماتيسر من اللباس . من الصوف تارة ، والقطن تارة ، والـكتان تارة . ولبس البرود اليمانية والبرد الأخضر . ولبس الجبة والقباء والقميص والسراويل والإزار والرداء والخف والنعل ، وأرخى الذؤابة من خلفه تارة وتركها تارة . . الخ » .

---

(١) أخرجه الشيخان من عائشة .

Marfat.com

وقال فى هديه فى الطعام : « وكذلك كان هديه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسيرته فى الطعام لايرد موجودا ولا يتكلف مفقودا . فما قرب إليه شىء من الطيبات إلا أكله ـ إلا أن تعافه نفسه فيتركه من غير تحريم ـ وماعاب طعاما قط . إن اشتهاه أكله ،وإلا تركه ، كما ترك أكل الضب لما لم يعتده ، ولم يحرمه على الأمة ، بل أكل على مائدته وهو ينظر . وأكل الحلوى والعسل ـ وكان يحبهما ـ وأكل الرطب والتمر ، وشرب اللبن خالصا ومشوبا والسويق والعسل بالماء ، وشرب نقيع التمر ، وأكل الخزيرة ـ وهى حساء يتخذ من اللبن والدقيق ـ وأكل القثاء بالرطب ، وأكل الأقط ، وأكل التمر بالخبز ، وأكل الخبز بالخل ، وأكل القديد ، وأكل الدباء المطبوخة ـ وكان يحبها ـ وأكل المملوقة ، وأكل الثريد بالسمن ، وأكل الجبن ، وأكل الخبز بالزيت ، وأكل البطيخ بالرطب . وأكل التمر بالزبد ـ وكان يحبه ـ ولم يكن يرد طيبا ولا يتكلفه ، بل كان هديه أكل ماتيسر ، فإن أعوزه صبر . . . الخ » .

وقال عن هديه فى نومه وانتباهه : « كان ينام على فراشه تارة وعلى النطع تارة ، وعلى الحصير تارة ، وعلى الأرض تارة ، وعلى السرير تارة بين رماله ، وتارة على كساء أسود » . .

وأحاديثه التى تحض على اليسر والسماحة والرفق فى تناول الأمور ـ وفى أولها أمر العقيدة وتكاليفها ـ كثيرة جدا يصعب تقصيها . من هذا قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن هذا الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه » (أخرجه البخارى) . . « لاتشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد عليهم . . . » (أخرجه أبو داود) . . إن المنبت لاأرضا قطع ولا ظهرا أبقى » (أخرجه البخارى) . . « يسروا ولا تعسروا » (أخرجه الشيخان) .

وفى التعامل : «رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى» (أخرجه البخارى) « المؤمن هين لين» (أخرجه البيهقى) « المؤمن يألف ويؤلف » (أخرجه الدار قطنى .) « إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم » (أخرجه الشيخان) .

ومن اللمحات العميقة الدلالة كراهيته ـ صلى الله عليه وسلم ـ للعسر والصعوبة حتى فى الأسماء وسمات الوجوه، مما يوحى بحقيقةفطرته وصنع ربه بها وتيسيره لليسرى انطباعاوتكوينا..

Marfat.com

عن سعيد ابن المسيب عن أبيه ـ رضى الله عنه ـ أنه جاء للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : ما اسمك ؟ قال : حَزْن (أى صعب وعر) قال : بل أنت سهل . قال : لاأغير اسما سمانيه أبى ! قال ابن المسيب رحمه الله: «فما زالت فينا حزونة بعد » ! (أخرجه البخارى) .. « وعن ابن عمر رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ غير اسم عاصية وسماها جميلة » (أخرجه مسلم) . ومن قوله : « إن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق » (أخرجه الترمذى) . .

فهو الحس المرهف الذى يلمح الوعورة والشدة حتى فى الأسماء والملامح فينفر منها ، ويميل بها إلى اليسر والهوادة !

وسيرة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كلها صفحات من السماحة واليسر والهوادة واللين والتوفيق إلى اليسر فى تناول الأمور جميعا .

وهذا مثل من علاجه للنفوس ، يكشف عن طريقته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وطبيعته :

« جاءه أعرابى يوما يطلب منه شيئا فأعطاه . قال له : أحسنت إليك ؟ قال الأعرابى : لا . ولا أجملت ! فغضب المسلمون ، وقاموا إليه ؛ فأشار إليهم أن كفوا . ثم دخل منزله ، وأرسل إلى الأعرابى ، وزاده شيئا . ثم قال : أحسنت إليك ؟ قال : نعم . فجزاك الله من أهل ومن عشيرة خيرا . فقال له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إنك قلت ماقلت وفى نفس أصحابى شىء من ذلك ، فإذا أحببت فقل بين أيديهم ماقلت بين يدى ، حتى يذهب من صدورهم مافيها عليك . قال : نعم . فلما كان الغداة جاء ، فقال النبي ـ صلى الله عليـه وسلم ـ : إن هـذا الأعرابى قال ماقال ، فزدناه ، فزعم أنه رضى . أكذلك ؟ فقال الأعرابى : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن مثلى ومثل هذا الأعرابى كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليـه ، فتبعها الناس ، فلم يزيدوها إلا نفورا ، فناداهم صاحب الناقة : خلوا بينى وبين ناقتى ، فإنى أرفق بها وأعلم . فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها ، فأخـذ لها من قمام الأرض ، فردها هونا هونا ، حتى جاءت واستناخت ، وشد عليها رحلها ، واستوى عليها . وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ماقال فقتلتموه دخل النار » . .

فهكذا كان أخذه ـ صلى الله عليه وسلم ـ للنفوس الشاردة . بهـذه البساطة ، وبهـذا اليسر ، وبهذا الرفق وبهذا التوفيق .. والنماذج شتى فى سيرته كلها . وهى من التيسير لليسرى كما بشره ربه ووفقه فى حياته وفى دعوته وفى أموره جميعا . . .

Marfat.com

هذه الشخصية السكرعة الحبية الميسرة لليسرى كانت كذلك لكى تحمل إلى البشرية هذه الدعوة . فتكون طبيعتها من طبيعتها ، وحقيقتها من حقيقتها، وتكون كفاء للأمانة الضخمة التى حملتها ـ بتيسير الله وتوفيقه ـ على ضخامتها ... حيث تتحول الرسالة بهذا التيسير من عبء مثقل ، إلى عمل محبب ، ورياضة جميلة ، وفرح وانشراح . .

وفى صفة محمد صلى الله عليه وسلم ، وصفة وظيفته التى جاء ليؤديها ورد فى القرآن الكريم : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين (١) » . . « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم (٢) » فقد جاء ـ صلى الله عليه وسلم ـ رحمة للبشرية . جاء ميسرا يضع عن كواهل الناس الأثقال والأغلال التى كتبت عليهم ، حينما شددوا فشدد عليهم .

وفى صفة الرسالة التى حملها ورد : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (٣) » . . « وما جعل عليكم فى الدين من حرج (٤) » . . « لايكلف الله نفسا إلا وسعها (٥) » . . « مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم (٦) » فقد جاءت هذه الرسالة ميسرة فى حدود الطاقة لا تكلف الناس حرجا ولا مشقة . وسرى هذا اليسر فى روحها كما سرى فى تكاليفها « فطرة الله التى فطر الناس عليها (٧) » .

وحيثما سار الإنسان مع هذه العقيدة وجد اليسر ومراعاة الطاقة البشرية ، والحالات المختلفة للإنسان ، والظروف التى يصادفها فى جميع البيئات والأحوال . . العقيدة ذاتها سهلة التصور . إله واحد ليس كمثله شىء . أبدع كل شىء ، وهداه إلى غاية وجوده . وأرسل رسلا تذكر الناس بغاية وجودهم ، وتردهم إلى الله الذى خلقهم . والتكاليف بعد ذلك كلها تنبثق من هذه العقيدة فى تناسق مطلق لاعوج فيه ولا انحراف . وعلى الناس أن يأتوا منها بما فى طوقهم بلا حرج ولا مشقة : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه مااستطعتم ، وما نهيتكم عنه فانتهوا »

---

(١) سورة الأنبياء : ١٠٧
(٢) الأعراف : ١٥٧
(٣) القمر : ٢٢
(٤) الحج : ٧٨
(٥) البقرة : ٢٨٦
(٦) الأحزاب : المائدة ٦
(٧) الروم : ٣٠

Marfat.com

فاجتنبوه[1] » .. والمنهى عنه لاحرج فيه فى حالة الضرورة : « إلا ما اضطررتم إليه[2] » .. وبين هذه الحدود الواسعة تنحصر جميع التكاليف . .

ومن ثم التقت طبيعة الرسول بطبيعة الرسالة ، والتقت حقيقة الداعى بحقيقة الدعوة . فى هذه السمة الأصيلة البارزة . وكذلك كانت الأمة التى جاءها الرسول الميسر بالرسالة الميسرة . فهى الأمة الوسط ، وهى الأمة المرحومة الحاملة للرحمة. الميسرة الحاملة للسماحة .. تتفق فطرتها هذه مع فطرة هذا الوجود الكبير . . .

وهذا الوجود بتناسقه وانسياب حركته يمثل صنعة الله من اليسر والانسياب الذى لاتصادم فيه ولااحتكاك . . ملايين الملايين من الأجرام تسبح فى فضاء الله وتنساب فى مداراتها متناسقة متجاذبة ،لا تصطدم ولاتضطرب ولاتميد .. وملايين الملايين من الخلائق الحية تجرى بها الحياة إلى غاياتها القريبة والبعيدة فى انتظام وفى إحكام . وكل منها ميسر لما خلق له ؛ سائر فى طريقه إلى غاية . وملايين الملايين من الحركات والأحداث والأحوال تتجمع وتتفرق وهى ماضية فى طريقها كنغمات الفرقة العازفة بشتى الآلات ، لتجتمع كلها فى لحن واحد طويل مديد !

إنه التوافق المطلق بين طبيعة الوجود ، وطبيعة الرسالة ، وطبيعة الرسول ، وطبيعة الأمة المسلمة .. صنعة الله الواحد ، وفطرة المبدع الحكيم .

« فذكر إن نفعت الذكرى » ..

لقد أقرأه فلاينسى (إلا ماشاء الله) ويسره لليسرى . لينهض بالأمانة الكبرى . . ليذكر . فلهذا أعدّ ، ولهذا بُشر . . فذكر حيثما وجدت فرصة للتذكير ، ومنفذا للقلوب ، ووسيلة للبلاغ . ذكر « إن نفعت الذكرى » . . والذكرى تنفع دائما ،ولن تعدم من ينتفع بها كثيرا كان أو قليلا . ولن يخلو جيل ولن تخلو أرض ممن يستمع وينتفع ، مهما فسد الناس وقست القلوب وران عليها الحجاب ..

وحين نتأمل هذا الترتيب فى الآيات ، ندرك عظمة الرسالة ، وضخامة الأمانة ، التى اقتضت للنهوض بها هذا التيسير لليسرى ، وذلك الإقراء والحفظ وتكفل الله بهما ؛ كى ينهض الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعبء التذكير ، وهو مزود بهذا الزاد الكبير .

فإذا نهض ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذا العبء فقد أدى ماعليه ،والناس بعد ذلك وشأنهم ؛

---

(١) أخرجه الشيخان

(٢) سورة الأنعام : ١١٩

Marfat.com

تختلف مسالكهم ، وتختلف مصائرهم ، ويفعل الله بهم مايشاء وفق مايستجيبون لهذه الذكرى :

« سيذكر من يخشى ، ويتجنبها الأشقى ، الذى يصلى النار الكبرى ، ثم لايموت فيها ولايحيا . قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى » . .

فذكر . . وسينتفع بالذكرى « من يخشى » . . ذلك الذى يستشعر قلبه التقوى ، فيخشى غضب الله وعذابه . والقلب الحى يتوجس ويخشى ، مذ يعلم أن للوجود إلها خلق فسوى ، وقدر فهدى ، فلن يترك الناس سدى ، ولن يدعهم هملا ؛ وهو لابد محاسبهم على الخير والشر ، ومجازيهم بالقسط والعدل . ومن ثم فهو يخشى . فإذا ذُكر ذكر ، وإذا بُصر أبصر ، وإذا وعظ اعتبر .

« ويتجنبها الأشقى » . يتجنب الذكرى ، فلايسمع لها ولايفيد منها . وهو إذن « الأشقى » الأشقى إطلاقا وإجمالا . الأشقى الذى تتمثل فيه غاية الشقوة ومنتهاها . الأشقى فى الدنيا بروحه الخاوية الميتة الكثيفة الصفيقة ، التى لاتحس حقائق الوجود ، ولا تسمع شهادتها الصادقة ، ولا تتأثر بموحياتها العميقة . والذى يعيش قلقا متكالبا على مافى الأرض كادحا لهذا الشأن الصغير ! والأشقى فى الآخرة بعذابها الذى لا يعرف له مدى :

« الذى يصلى النار الكبرى . ثم لايموت فيها ولايحيا » . .

والنار الكبرى هى نار جهنم . الكبرى بشدتها ، والكبرى بمدتها ، والكبرى بضخامتها . . حيث يمتد بقاؤه فيها ويطول . فلا هو يموت فيجد طعم الراحة ؛ ولاهو يحيا فى أمن وراحة . إنما هو العذاب الخالد ، الذى يتطلع صاحبه إلى الموت كما يتطلع إلى الأمنية الكبرى !

وفى الصفحة المقابلة نجد النجاة والفلاح مع التطهر والتذكر :

« قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى » . .

والتزكى : التطهر من كل رجس ودنس ، والله ـ سبحانه ـ يقرر أن هذا الذى تطهر وذكر اسم ربه ، فاستحضر فى قلبه جلاله : « فصلى » . . إما بمعنى خشع وقنت . وإما بمعنى الصلاة الاصطلاحى ، فكلاهما يمكن أن ينشأ من التذكر واستحضار جلال الله فى القلب ، والشعور بمهابته فى الضمير . . هذا الذى تطهر وذكر وصلى « قد أفلح » يقينا . أفلح فى دنياه ، فعاش موصولا ، حى القلب ، شاعرا بحلاوة الذكر وإيناسه . وأفلح فى أخراه ، فنجا من النار الكبرى ، وفاز بالنعيم والرضى . .

Marfat.com

فأين عاقبة من عاقبة ؟ وأين مصير من مصير ؟

* * *

وفى ظل هذا المشهد . مشهد النار الكبرى للأشقى . والنجاة والفلاح لمن تزكى ، يعود بالمخاطبين إلى علة شقائهم . مشاعر عقلهم ، ومايصرفهم عن التذكر والتطهر والنجاة والفلاح، ويذهب بهم إلى النار الكبرى والشقوة العظمى :

« بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى » . .

إن إيثار الحياة الدنيا هو أساس كل بلوى . فمن هذا الإيثار ينشأ الإعراض عن الذكرى ؛ لأنها تقتضيهم أن يحسبوا حساب الآخرة ويؤثروها . وهم يريدون الدنيا ، ويؤثرونها . .

وتسميتها « الدنيا » لاتجىء مصادفة . فهى الواطية الهابطة ـ إلى جانب أنها الدانية : العاجلة : « والآخرة خير وأبقى » . . خير فى نوعها ، وأبقى فى أمدها .

وفى ظل هذه الحقيقة يبدو إيثار الدنيا على الآخرة حماقة وسوء تقدير . لايقدم عليهما عاقل بصير . .

* * *

وفى الختام تجىء الإشارة إلى قدم هذه الدعوة ، وعراقة منبتها ، وامتداد جذورها فى شعاب الزمن ، وتوحد أصولها من وراء الزمان والمكان :

« إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى » . .

هذا الذى ورد فى هذه السورة وهو يتضمن أصول العقيدة الكبرى . هذا الحق الأصيل العريق . هو الذى فى الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى .

ووحدة الحق ، ووحدة العقيدة ، هى الأمر الذى تقتضيه وحدة الجهة التى صدر عنها ، ووحدة المشيئة التى اقتضت بعثة الرسل إلى البشر . . إنه حق واحد ، يرجع إلى أصل واحد . تختلف جزئياته وتفصيلاته باختلاف الحاجات المتجددة ، والأطوار المتعاقبة . ولكنها تلتقى عند ذلك الأصل الواحد . الصادر من مصدر واحد . . من ربك الأعلى الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى . .

Marfat.com

سورة الغاشية مكية
وآياتها ٢٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ؟ ① وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَىٰ نَاراً حَامِيَةً * تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ * لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ .

« وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ *فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ *لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ .

« أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ؟

« فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَنْ تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ » ㉖

هذه السورة واحدة من الإيقاعات العميقة الهادئة، الباعثة إلى التأمل والتدبر ، وإلى الرجاء والتطلع ، وإلى المخافة والتوجس ، وإلى عمل الحساب ليوم الحساب !

Marfat.com

وهى تطوّف بالقلب البشرى فى مجالين هائلين : مجال الآخرة وعالمها الواسع ، ومشاهدها المؤثرة . ومجـال الوجود العريض المـكشوف للنظر ، وآيات الله المبثوثة فى خلائقه المعروضة للجميع . ثم تذكرهم بعد هاتين الجولتين الهائلتين بحساب الآخـرة ، وسيطرة الله ، وحتمية الرجوع إليه فى نهاية المطاف .. كل ذلك فى أسلوب عميق الإيقاع، هادىء، ولـكنه نافذ . رصين ولـكنه رهيب !

* * *

« هل أتاك حديث الغاشية ؟ » ..

بهذا المطلع تبدأ السورة التى تريد لترد القلوب إلى الله ، ولتذكرهم بآياته فى الوجود ، وحسابه فى الآخرة وجزائه الأكيد . وبهذا الاستفهام الموحى بالعظمة الدال على التقرير ؛ الذى يشير فى الوقت ذاته إلى أن أمر الآخرة مما سبق به التقرير والتذكير . وتسمى القيامة هذا الاسم الجديد : « الغاشية » .. أى الداهية التى تغشى الناس وتغمرهم بأهوالها. وهو من الأسماء الجديدة الموحية التى وردت فى هذا الجزء . . الطامة . الصاخة . الغاشية . القارعة . . مما يناسب طبيعة هذا الجزء المعهودة .

وهذا الخطاب : « هل أتاك . . ؟ » كان رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ يحس وقع توجيهه إلى شخصه ، حيثما سمع هذه السورة ، وكأنما يتلقاه أول مرة مباشرة من ربه ، لشدة حساسية قلبه بخطاب الله ـ سبحانه ـ واستحضاره لحقيقة الخطاب ، وشعوره بأنه صادر إليه بلا وسيط حيثما سمعته أذناه .. قال ابن أبى حاتم : حدثنا على ابن محمد الطنافسى ، حدثنا أبو بكر ابن عياش ، عن ابى إسحاق ، عن عمر ابن ميمون ، قال : مر النبى ـ صلى الله عليه وسلم على امرأة تقرأ : « هل أتاك حديث الغاشية ؟ » فقام يستمع ويقول : « نعم قد جاءنى » . .

والخطاب ـ مع ذلك ـ عام لـكل من يسمع هذا القرآن . فحديث الغاشية هو حديث هذا القرآن المتكرر . يذكر به وينذر ويبشر ؛ ويستجيش به فى الضمائر الحساسية والخشية والتقوى والتوجس ؛ كما يثير به الرجاء والارتقاب والتطلع . ومن ثم يستحيى هـذه الضمائر فلا تموت ولا تغفل .

* * *

« هل أتاك حديث الغاشية ؟ » .. ثم يعرض شيئا من حديث الغاشية :

Marfat.com

« وجوه يومئذ خاشعة . عاملة ناصبة . تصلى نارا حامية . تسقى من عين آنية . ليس لهم طعام إلا من ضريع . لايسمن ولايغنى من جوع » . .

إنه يعجل بمشهد العذاب قبل مشهد النعيم ؛ فهو أقرب إلى جو «الغاشية »وظلها . . فهناك: يومئذ وجوه خاشعة ذليلة متعبة مرهقة ؛ عملت ونصبت فلم تحمد العمل ولم ترض العاقبة ، ولم تجد إلا الوبال والخسارة ،فزادت مضضا وإرهاقا وتعبا ، فهى :« عاملة ناصبة » . . عملت لغير الله ، ونصبت فى غير سبيله . عملت لنفسها ولأولادها . وتعبت لدنياها ولأطماعها . ثم وجدت عاقبة العمل والكد . وجدته فى الدنيا شقوة لغير زاد . ووجدته فى الآخرة سواداً يؤدى إلى العذاب. وهى تواجه النهاية مواجهة الذليل المرهق المتعوس الخائب الرجاء !

ومع هذا الذل والرهق العذاب والألم : « تصلى نارا حامية » وتذوقها وتعانيها .

« تسقى من عين آنية » . .حارة بالغة الحرارة .. « ليس لهم طعام إلامن ضريع لايسمن ولايغنى من جوع » .. والضريع قيل : شجر من نار فى جهنم . استنادا إلى ماورد عن شجرة الزقوم التى تنبت فى أصل الجحيم . وقيل : نوع من الشوك اللاطىء بالأرض ، ترعاه الإبل وهو أخضر، ويسمى « الشبرق » فإذا جنى صار اسمه « الضريع» ولم تستطع الإبل مذاقه فهو عندئذ سام ! فهذا أو ذلك هو لون من ألوان الطعام يومئذ مع الغسلين والغساق وباقى هـذه الألوان التى لاتسمن ولاتغنى من جوع !

وواضح أننا لانملك فى الدنيا أن ندرك طبيعة هذا العذاب فى الآخرة . إنما تجىء هـذه الأوصاف لتلمس فى حسنا البشرى أقصىمايملك تصوره من الألم ،الذى يتجمع من الذل والوهن والخيبةومن لسع النارالحامية، ومن التبرد والارتواء بالماء الشديد الحرارة! والتغذى بالطعام الذى لاتقوى الإبل على تذوقه ، وهو شوك لانفع فيه ولا غناء .. من مجموعة هذه التصورات يتجمع فى حسنا إدراك لأقصىدرجات الألم . وعذاب الآخرة بعد ذلك أشد . وطبيعته لايتذوقها إلا من يذوقها والعياذ بالله !

وعلى الجانب الآخر : « وجوه يومئذ ناعمة . لسعيها راضية : فى جنة عالية . [illegible]مع فيها لاغية . فيها عين جارية . فيها سرر مرفوعة . وأكواب موضوعة .ونمارق مصفوفة . وزرابى مبثوثة » . .

Marfat.com

فهنا وجوه يبدو فيها النعيم . ويفيض منها الرضى . وجوه تنعم بما تجد ، وبحمد ماعملت فوجدت عقباه خيرا ، وتستمتع بهذا الشعور الروحى الرفيع . شعور الرضى عن عملها حين ترى رضى الله عنها . وليس أروح للقلب من أن يطمئن إلى الخير ويرضى عاقبته ،ثم يراها ممثلة فى رضى الله الكريم . وفى النعيم. ومن ثم يقدم القرآن هذا اللون من السعادة على مافى الجنة من رخاء ومتاع ، ثم يصف الجنة ومناعمها المتاحة لهؤلاء السعداء :

« فى جنة عالية » . . عالية فى ذاتها رفيعة مجيدة . ثم هى عالية الدرجات . وعالية المقامات . وللعلو فى الحس إيقاع خاص .

« لاتسمع فيها لاغية » . . ويطلق هذا التعبير جوا من السكون والهدوء والسلام والاطمئنان والود والرضى والنجاء والسمر بين الأحباء والأوداء ، والتنزه والارتفاع عن كل كلمة لاغية ، لاخير فيها ولا عافية .. وهذه وحدها نعيم . وهذه وحدهاسعادة. سعادة تتبين حين يستحضر الحس هذه الحياة الدنيا ، وما فيها من لغو وجدل وصراع وزحام ولجاج وخصام وقرقعة وفرقعة . وضجة وصخب ، وهرج ومرج . ثم يستسلم بعد ذلك لتصور الهدوء الآمن والسلام الساكن والود الرضى والظل الندى فى العبارة الموحية : « لاتسمع فيها لاغية » وألفاظها ذاتها تنسم الروح والندى وتنزلق فى نعومة ويسر ، وفى إيقاع موسيقى ندى رخى ! وتوحى هذه اللمسة بأن حياة المؤمنين فى الأرض وهم ينأون عن الجدل واللغو، هى طرف من حياة الجنة ، يتهيأون بها لذلك النعيم الكريم .

وهكذا يقدم الله من صفة الجنة هذا المعنى الرفيع الكريم الوضىء . ثم تجىء للناعم التى تشبع الحس والحواس . تجىء فى الصورة التى يملك البشر تصورها . وهى فى الجنة مكيفة وفق ماترتقى إليه نفوس أهل الجنة . مما لايعرفه إلا من يذوقه !

« فيها عين جارية » . . والعين الجارية : الينبوع المتدفق . وهو يجمع إلى الرى الجمال . جمال الحركة والتدفق والجريان . والماء الجارى يجاوب الحس بالحيوية وبالروح التى تنتفض وتنبض ! وهو متعة للنظر والنفس من هذا الجانب الحق ، الذى يتسرب إلى أعماق الحس .

« فيها سرر مرفوعة » . . والارتفاع يوحى بالنظافة كما يوحى بالطهارة .. « وأكواب موضوعة » . . مصفوفة مهيأة للشراب لاتحتاج إلى طلب ولا إعداد ! « ونمارق مصفوفة » .. والنمارق الوسائد والحشايا للاتكاء فى ارتياح ! « وزرابى مبثوثة » . . والزرابى البسط ذات الخمل « السجاجيد » مبثوثة هنا وهناك للزينة وللراحة سواء !

Marfat.com

وكلها مناعم مما يشهد الناس له أشباها فى الأرض. وتذكر هذه الأشباه لتقريبها إلى مدارك أهل الأرض . أما طبيعتها وطبيعة المتاع بها فهى موكولة إلى المذاق هناك . للسعداء الذين يقسم الله لهم هذا المذاق !

ومن اللغو الدخول فى موازنات أو تحقيقات حول طبيعة النعيم ـ أو طبيعة العذاب ـ فى الآخرة . فإدراك طبيعة شىء مامتوقف على نوع هذا الإدراك . وأهل الأرض يدركون بحس مقيد بظروف هـذه الأرض وطبيعة الحيـاة فيها . فإذا كانوا هناك رفعت الحجب وأزيلت الحواجز وانطلقت الأرواح والمدارك ، وتغيرت مدلولات الألفاظ ذاتها بحكم تغير مذاقها ، وكان ماسيـكون ، مما لانملك أن ندرك الآن كيف يـكون !

إنما نفيد من هذه الأوصاف أن يستحضر تصورنا أقصى مايطيقه من صور اللذاذة والحلاوة والمتاع . وهو مانملك تذوقه مادمنا هنا . حتى نعرف حقيقته هناك . حين يـكرمنا الله بفضله ورضاه .

* * *

وتنتهى هـذه الجولة فى العالم الآخر ، فيؤوب منها إلى هـذا الوجود الظاهر . الحاضر . الموحى بقدرة القادر وتدبير المدبر ، وتميز الصنعة ، وتفرد الطابع . الدال على أن وراء التدبير والتقدير أمرا بعد هذه الحياة ، وشأنا غير شأن الأرض . وخاتمة غير خاتمة الموت :

« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت ؟ » . .

وتجمع هذه الآيات الأربعة القصار ، أطراف بيئة العربى المخاطب بهذا القرآن أول مرة . كما تضم أطراف الخلائق البارزة فى الـكون كله . حين تتضمن السماء والأرض والجبال والجمال (ممثلة لسائر الحيوان) على مزية خاصة بالإبل فى خلقها بصفة عامة وفى قيمتها للعربى بصفة خاصة .

إن هذه المشاهد معروضة لنظر الإنسان حيثما كان . . السماء والأرض والجبال والحيوان . . وأيا كان حظ الإنسان من العلم والحضارة فهذه المشاهد داخلة فى عالمه وإدراكه . موحية له بما وراءها حين يوجه نظره وقلبه إلى دلالتها .

Marfat.com

والمعجزة كامنة فى كل منها . وصنعة الخالق فيها معلمة لانظير لها . وهى وحدها كافية لأن وحى بحقيقة العقيدة الأولى . ومن ثم يوجه القرآن الناس كافة إليها :

« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ؟ » .. والإبل حيوان العربى الأول . عليها يسافر ويحمل . ومنها يشرب ويأكل . ومن أوبارها وجلودها يلبس وينزل . فهى مورده الأول للحياة . ثم إن لها خصائص تفردها من بين الحيوان . فهى على قوتها وضخامتها وضلاعة تكوينها ذلول قودها الصغير فتنقاد ، وهى على عظم نفعها وخدمتها قليلة التكاليف . مرعاها ميسر ، وكلفتها ضئيلة ، وهى أصبر الحيوان المستأنس على الجوع والعطش والكدح وسوء الأحوال . . ثم إن لهيئتها مزية فى تناسق المشهد الطبيعى المعروض كما سيجىء . .

لهذا كله يوجه القرآن أنظار المخاطبين إلى تدبر خلق الإبل ؛ وهى بين أيديهم ، لاتحتاج منهم إلى نقلة ولاعلم جديد .. « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ؟ » . . أفلاينظرون إلى خلقها وتكوينها ؟ ثم يتدبرون : كيف خلقت على هذا النحو المناسب لوظيفتها ، المحقق لغاية خلقها ، المتناسق مع بيئتها ووظيفتها جميعا ؟ إنهم لم يخلقوها . وهى لم تخلق نفسها ، فلايبقى إلا أن تكون من إبداع المبدع المتفرد بصنعته ، التى تدل عليه ، وتقطع بوجوده ؛ كما تثنى بتدبيره وتقديره .

« وإلى السماء كيف رفعت ؟ » . . وتوجيه القلب إلى السماء يتكرر فى القرآن . وأولى الناس بأن يتوجهوا إلى السماء هم سكان الصحراء . حيث للسماء طعم ومذاق ، وإيقاع وإيحاء ، كأنما ليست السماء إلا هناك فى الصحراء !

السماء بنهارها الواضح الباهر الجاهر . والسماء بأصيلها الفاتن الرائق الساحر . والسماء بغروبها البديع الفريد الموحى . والسماء بليلها المترامى ونجومها المتلألئة وحديثها الفاتر . والسماء بشروقها الجميل الحى السافر .

هذه السماء . فى الصحراء . . أفلا ينظرون إليها ؟ أفلا ينظرون إليها كيف رفعت ؟ من ذا رفعها بلا عمد ؟ ونثرفيها النجوم بلاعدد ؟ وجعل فيها هذه البهجة وهذا الجمال وهذا الإيحاء ؟ إنهم لم يرفعوها وهى لم ترفع نفسها . فلابد لها من رافع ولابد لها من مبدع . لايحتاج الأمر إلى علم ولاإلى كد ذهن . فالنظرة الواعية وحدها تكفى . . .

« وإلى الجبال كيف نصبت ؟ » . . والجبال عند العربى ـ بصفة خاصة ـ ملجأ وملاذ ، وأنيس وصاحب ، ومشهدها يوحى إلى النفس الإنسانية ـ بصفة عامة ـ جلالا واستهوالا . حيث يتضاءل الإنسان إلى جوارها ويستكين . ويخشع للجلال السامق الرزين . والنفس فى أحضان

Marfat.com

الجبل تتجه بطبيعتها إلى الله ؛ وتشعر أنها إليه أقرب ، وتبعد عن واغش الأرض وضجيجه وحقاراتها الصغيرة . ولم يكن عبثا ولامصادفة أن يتحنث محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى غار حراء فى جبل ثور . وأن يتجه إلى الجبل من يريدون النجوة بأرواحهم فترات من الزمان !

والجبال هنا « كيف نصبت » لأن هـذه اللمحة تتفق من الناحية التصويرية مع طبيعة المشهد كما سيجىء .

« وإلى الأرض كيف سطحت ؟ » .. والأرض مسطوحة أمام النظر ، ممهدة للحياة والسير والعمل ، والناس لم يسطحوها كذلك . فقد سطحت قبل أن يكونوا هم . . أفلا ينظرون إليها ويتدبرون ماوراءها ، ويسألون : من سطحها ومهدها هكذا للحياة تمهيدا ؟

إن هـذه المشاهد لتوحى إلى القلب شيئا . بمجرد النظر الواعى والتأمل الصاحى . وهذا القدر يكفى لاستجاشة الوجدان واستحياء القلب ، وتحرك الروح نحو الخالق المبدع لهذه الخلائق .

ونقف وقفة قصيرة أمام جمال التناسق التصويرى لمجموعة المشهد الكونى لنرى كيف يخاطب القرآن الوجدان الدينى بلغة الجمال الفنى ، وكيف يعتنقان فى حس المؤمن الشاعر بجمال الوجود . .

إن المشهد الكلى يضم مشهد السماء المرفوعة والأرض المبسوطة . وفى هذا المدى المتطاول تبرز الجبال « منصوبة » السنان لاراسية ولاملقاة ، وتبرز الجمال منصوبة السنام .. خطان أفقيان وخطان رأسيان فى المشهد الهائل فى المساحة الشاسعة . ولكنها لوحة متناسقة الأبعاد والاتجاهات : على طريقة القرآن فى عرض المشاهد ، وفى التعبير بالتصوير على وجه الإجمال (١) . .

* * *

والآن بعد الجولة الأولى فى عالم الآخرة ، والجولة الثانية فى مشاهد الكون المعروضة ، يلتفت إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوجهه إلى حدود واجبه وطبيعة وظيفته ، ويلمس قلوبهم اللمسة الأخيرة الموقظة .

« فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر . إلا من تولى وكفر . فيعذبه الله العذاب الأكبر . إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم » . .

فذكر بهذا وذاك . ذكرهم بالآخرة وما فيها . وذكرهم بالكون وما فيه . إنما أنت مذكر . هذه وظيفتك على وجه التحديد . وهذا دورك فى هذه الدعوة ، ليس لك ولا عليك شىء وراءه . عليك أن تذكر . فإنك ميسر لهذا ومكلف إياه .

---

(١) فصل التناسق الفنى فى كتاب : التصوير الفنى فى القرآن .

Marfat.com

« لست عليهم بمصيطر » . . فأنت لاتملك من أمر قلوبهم شيئا . حتى تقهرها وتقسرها على الإيمان . فالقلوب بين أصابع الرحمان ، لايقدر عليها إنسان .

فأما الجهاد الذى كتب بعد ذلك فلم يكن لحمل الناس على الإيمان . إنما كان لإزالة العقبات من وجه الدعوة لتبلغ إلى الناس . فلا يمنعوا من سماعها . ولا يفتنوا عن دينهم إذا سمعوها . كان لإزالة العقبات من طريق التذكير . الدور الوحيد الذى يملكه الرسول .

وهذا الإيحاء بأن ليس للرسول من أمر هـذه الدعوة شىء إلا التذكير والبلاغ يتكرر فى القرآن لأسباب شتى . فى أولها إعفاء أعصاب الرسول من حمل هم الدعوة بعد البلاغ ، وتركها لقدر الله يفعل بها مايشاء . فإلحاح الرغبة البشرية بانتصار دعوة الخير وتناول الناس لهذا الخير ، إلحاح عنيف جدا يحتاج إلى هذا الإيحاء المتكرر بإخراج الداعية لنفسه ولرغائبه هـذه من مجال الدعوة ، كى ينطلق إلى أدائها كائنة ما كانت الاستجابة ، وكائنة ما كانت العاقبة . فلا يعنى نفسه بهمّ من آمن وهمّ من كفر . ولا يشغل باله بهذا الهم الثقيل حين تسوء الأحوال من حول الدعوة ، وتقل الاستجابة ، ويكثر المرضون والمخاصمون .

ومما يدل على إلحاح الرغبة البشرية فى انتصار دعوة الله وتذوق الناس لما فيها من خير ورحمة ، هذه التوجيهات المتكررة للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو من هو تأدبا بأدب الله ومعرفة لحدوده ولقدر الله . . ومن ثم اقتضى إلحاح هذه الرغبة هذا العلاج الطويل المتكرر فى شتى الأحيان . .

ولكن إذا كان هـذا هو حد الرسول ، فإن الأمر لاينتهى عند هـذا الحد . ولا يذهب المكذبون ناجين ، ولا يتولون سالمين . إن هنالك الله وإليه تصير الأمور :

« إلا من تولى وكفر . فيعذبه الله العذاب الأكبر » . .

وهم راجعون إلى الله وحده قطعا ، وهو مجازيهم وحده حتما . وهذا هو الإيقاع الختامى فى السورة فى صيغة الجزم والتوكيد .

« إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم » . .

بهذا يتحدد دور الرسول فى هذه الدعوة . ودور كل داعية إليها بعده . . إنما أنت مذكر وحسابهم بعد ذلك على الله . ولا مفرّ لهم من العودة إليه ، ولا محيد لهم عن حسابه وجزائه . غير أنه ينبغى أن يفهم أن من التذكير إزالة العقبات من وجه الدعوة لتبلغ إلى الناس وليتم التذكير . فهـذه وظيفة الجهاد كما تفهم من القرآن ومن سيرة الرسول سواء ، بلا تقصير فيها ولا اعتداء . .

Marfat.com

سورة الفجر مكية
وآياتها ٣٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« وَٱلْفَجْرِ ① وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ * وَٱللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ؟

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ * ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَادِ * وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ * ٱلَّذِينَ طَغَوْا فِي ٱلْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا ٱلْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ؟ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ .

« فَأَمَّا ٱلْإِنْسَانُ إِذَا مَا ٱبْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ : رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ٱبْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ : رَبِّي أَهَانَنِ .

« كَلَّا ! بَلْ لَا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا * وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا .

« كَلَّا ! إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنْسَانُ ، وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ! * يَقُولُ : يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي * فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ .

Marfat.com

« يَا أَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ٱرْجِعِى إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۞ فَٱدْخُلِى فِى عِبَادِى وَٱدْخُلِى جَنَّتِى » ۝٣٠

هذه السورة فى عمومها حلقة من حلقات هذا الجزء فى الهتاف بالقلب البشرى إلى الإيمان والتقوى واليقظة والتدبر . . ولكنها تتضمن ألوانا شتى من الجولات والإيقاعات والظلال ألوانا متنوعة تؤلف من تفرقها وتناسقها لحنا واحدا متعدد النغمات موحد الإيقاع !

فى بعض مشاهدها جمال هادئ رفيق ندى السمات والإيقاعات، كهذا المطلع الندى بمشاهده الكونية الرقيقة ، ويظل العبادة والصلاة فى ثنايا تلك المشاهد .. « والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر . والليل إذا يسر . . » .

وفى بعض مشاهدها شد وقصف . سواء مناظرها أو وسيقاها كهذا المشهد العنيف المخيف: « كلا . إذا دكت الأرض دكا دكا . وجاء ربك والملك صفا صفا . وجيء يومئذ بجهنم . يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى . يقول : ياليتنى قدمت لحياتى . فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد » . .

وفى بعض مشاهدها نداوة ورقة ورضى يفيض وطمأنينة . تتناسق فيها المناظر والأنغام ، كهذا الختام : « يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعى إلى ربك راضية مرضية . فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » . . .

وفيها إشارات سريعة لمصارع الغابرين المتجبرين ، وإيقاعها بين بين . بين إيقاع القصص الرخى وإيقاع المصرع القوى : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . التى لم يخلق مثلها فى البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذى الأوتاد الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد . فصب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد» .

وفيها بيان لتصورات الإنسان غير الإيمانية وقيمه غير الإيمانية . وهى ذات لون خاص فى السورة تعبيرا وإيقاعا : « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول: ربى أكرمن، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول : ربى أهانن . . » .

ثم الرد على هذه التصورات ببيان حقيقة حالهم التى تنبع منها هذه التصورات . وهى تشمل

Marfat.com

لونين من ألوان العبارة والتنغيم : « كلا . بل لاتكرمون اليتيم . ولاتحاضون على طعام المسكين . وتأكلون التراث أكلا لما ، وتحبون المال حبا جما » ..

ويلاحظ أن هذا اللون الأخير هو قنطرة بين تقرير حالهم ومايتظرهم فى مآلهم . فقد جاء بعده : « كلا إذا دكت الأرض دكا دكا ... الخ » .. فهو وسط فى شدة التنغيم بين التقرير الأول والتهديد الأخير !

ومن هـذا الاستعراض السريع تبدو الألوان المتعددة فى مشاهد السورة . وإيقاعاتها فى تعبيرها وفى تنغيمها . . كما يبدو تعدد نظام الفواصل وتغير حروف القوافى . بحسب تنوع المعانى والمشاهد . فالسورة من هـذا الجانب نموذج واف لهذا الأفق من التناسق الجمالى فى التعبير القرآنى [1] . فوق مافيها عموما من جمال ملحوظ مأنوس !

فأما أغراض السورة الموضوعية التى يحملها هـذا التعبير المتناسق الجميل . فنعرضها فيما يلى بالتفصيل :

* * *

« والفجر وليال عشر . والشفع والوتر . والليل إذا يسر . هل فى ذلك قسم لذى حجر ؟ » . .

هذا القسم فى مطلع السورة يضم هذه المشاهد والخلائق . ذات الأرواح اللطيفة المأنوسة الشفيفة : « والفجر » .. ساعة تنفس الحياة فى يسر ،وفرح ، وابتسام ، وإيناس ودود ندى ، والوجود الغافى يستيقظ رويدا رويدا ، وكأن أنفاسه مناجاة ، وكأن تفتحه ابتهال !

« وليال عشر » أطلقها النص القرآنى ووردت فيها روايات شتى . . قيل هى العشر من ذى الحجة، وقيل هى العشر من المحرم . وقيل هى العشر من رمضان .. وإطلاقها هكذا أوقع وأندى . فهى ليال عشر يعلمها الله. ولها عنده شأن . تلقى فى السياق ظل الليلات ذات الشخصية الخاصة . وكأنها خلائق حية معينة ذرات أرواح ، تعاطفنا ونعاطفها من خلال التعبير القرآنى الرفاف !

« والشفع والوتر » . . يطلقان روح الصلاة والعبادة فى ذلك الجو المأنوس الحبيب . جو الفجر والليالى العشر .. « ومن الصلاة الشفع والوتر » (كما جاء فى حديث أخرجه الترمذى)

---

(١) فصل : التناسق الفنى . فى كتاب : التصوير الفنى فى القرآن .

Marfat.com

وهـذا المعنى هو أنسب المعانى فى هـذا الجو . حيث تلتقى روح العبادة الخاشعة ، بروح الوجود الساجيـة ! وحيث تتجاوب الأرواح العابدة مع أرواح الليالى المختارة ، وروح الفجر الوضيئة .

« والليل إذا يسر » . . والليل هنا مخلوق حى ، يسرى فى الـكون ، وكأنه ساهر يجول فى الظلام ! أو مسافر يختار السرى لرحلته البعيدة ! يا لأناقة التعبير ! ويا لأنس المشهد ! ويا لجمال النغم ! ويا للتناسق مع الفجر ، والليالى العشر . والشفع والوتر !

إنها ليست ألفاظا وعبارات . إنما هى أنسام من أنسام الفجر ، وأنداء مشعشعة بالعطر : أم إنه النجاء الأليف للقلب ؟ والهمس اللطيف للروح ؟ واللمس الموحى للضمير ؟

إنه الجمـال . . الجمال الحبيب الهامس اللطيف . الجمال الذى لايدانيه جمـال التصورات الشاعرية الطليقة . لأنه الجمال الإبداعى ، المعبر فى الوقت ذاته عن حقيقة .

ومن ثم يعقب عليه فى النهاية : ـ « هل فى ذلك قسم لذى حجر » ؟ وهو سؤال للتقرير. إن فى ذلك قسما لذى لب وعقل . إن فى ذلك مقنعا لمن له إدراك وفـكر . ولـكن صيغة الاستفهام ـ مع إفادتها التقرير ـ أرق حاشية . فهى تتناسق مع ذلك الجو الهامس الرقيق !

* * *

أما المقسم عليه بذلك القسم ، فقد طواه السياق ، ليفسره مابعده ، فهو موضوع الطغيان والفساد ، وأخـذ ربك لأهل الطغيان والفساد ، فهو حق واقع يقسم عليـه بذلك القسم فى تلميح يناسب لمسات السورة الخفيفة على وجه الإجمال :

« ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد ؟ وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ؟ وفرعون ذى الأوتاد ؟ .. الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد، فصب عليهم ربك سوط عذاب ؟ إن ربك لبالمرصاد » . .

وصيغة الاستفهام فى مثل هذا السياق أشد إثارة لليقظة والالتفات . والخطاب للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابتداء . ثم هو لـكل من تتأتى منه الرؤية أو التبصر فى مصارع أولئك الأقوام، وكلها مما كان المخاطبون بالقرآن أول مرة يعرفونه ؛ ومما تشهد به الآثار والقصص الباقية فى الأجيال المتعاقبة ، وإضافة الفعل إلى « ربك » فيها للمؤمن طمأنينة وأنس وراحة : وبخاصة أولئك الذين كانوا فى مكة يعانون طغيان الطغاة ، وعسف الجبارين من المشركين ، الواقفين للدعوة وأهلها بالمرصاد .

Marfat.com

وقد جمع الله فى هذه الآيات القصار مصارع أقوى الجبارين الذين عرفهم التاريخ القديم .. مصرع : « عاد إرم » وهى عاد الأولى . وقيل : إنها من العرب العاربة أو البادية . وكان مسكنهم بالأحقاف وهى كثبان الرمال . فى جنوبى الجزيرة بين حضرموت واليمن . وكانوا بدواً ذوى خيام تقوم على عماد . وقد وصفوا فى القرآن بالقوة والبطش ، فقد كانت قبيلة عاد هى أقوى قبيلة فى وقتها وأميزها : « التى لم يخلق مثلها فى البلاد » فى ذلك الأوان . .

« وثمود الذين جابوا الصخر بالواد » . . وكانت ثمود تسكن بالحجر فى شمال الجزيرة العربية بين المدينة والشام . وقد قطعت الصخر وشيدته قصورا ؛ كما نحتت فى الجبال ملاجىء ومغارات . .

« وفرعون ذى الأوتاد » .. وهى على الأرجح الأهرامات التى تشبه الأوتاد الثابتة فى الأرض المتينة البنيان . وفرعون المشار إليه هنا هو فرعون موسى الطاغية الجبار .

هؤلاء هم « الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد » . . وليس وراء الطغيان إلا الفساد . فالطغيان يفسد الطاغية ، ويفسد الذين يقع عليهم الطغيان سواء . كما يفسد العلاقات والارتباطات فى كل جوانب الحياة . ويحول الحياة عن خطها السليم النظيف ، المعمر البانى ، إلى خط آخر لاتستقيم معه خلافة الإنسان فى الأرض بحال ..

إنه يجعل الطاغية أسير هواه ، لأنه لايفىء إلى ميزان ثابت ، ولايقف عند حد ظاهر فيفسد هو أول من يفسد ؛ ويتخذ له مكانا فى الأرض غير مكان العبد المستخلف ؛ وكذلك قال فرعون .. « أنا ربكم الأعلى » عندما أفسده طغيانه ، فتجاوز به مكان العبد المخلوق ، وتطاول به إلى هذا الادعاء القبيح ، وهو فساد أى فساد .

ثم هو يجعل الجماهير أرقاء أذلاء ، مع السخط الدفين والحقد الكظيم ، فتتعطل فيهم مشاعر الكرامة الإنسانية ، وملكات الابتكار المتحررة التى لاتنمو فى غير جو الحرية . والنفس التى تستذل تأسن وتتعفن ، وتصبح مرتعا لديدان الشهوات الهابطة والغرائز المريضة . وميدانا للانحرافات مع انطماس البصيرة والإدراك . وفقدان الأريحية والهمة والتطلع والارتفاع ، وهو فساد أى فساد ..

ثم هو يحطم الموازين والقيم والتصورات المستقيمة ، لأنها خطر على الطغاة والطغيان . فلابد من تزييف للقيم ، وتزوير فى الموازين ، وتحريف للتصورات كى تقبل صورة البغى البشعة ، وتراها مقبولة مستساغة .. وهو فساد أى فساد .

Marfat.com

فلما أكثروا فى الأرض الفساد ، كان العلاج هو تطهير وجه الأرض من الفساد :

« فصب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد » ..

فربك راصد لهم ومسجل لأعمالهم . فلما أن كثر الفساد وزاد صب عليهم سوط عذاب ، وهو تعبير يوحى بلذع العذاب حين يذكر السوط ، وبفيضه وغمره حين يذكر الصب . حيث يجتمع الألم اللاذع والغمرة الطاغية ، على الطغاة الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد .

ومن وراء المصارع كلها تفيض الطمأنينة على القلب المؤمن وهو يواجه الطغيان فى أى زمان وأى مكان . ومن قوله تعالى : « إن ربك لبالمرصاد » تفيض طمأنينة خاصة . فربك هناك . راصد لايفوته شىء . مراقب لا يند عنه شىء . فليطمئن بال المؤمن، وليم ملء جفونه . فإن ربه هناك ! .. بالمرصاد .. للطغيان والشر والفساد !

وهكذا نرى هنا نماذج من قدر الله فى أمر الدعوة ، غير النموذج الذى تعرضه سورة البروج لأصحاب الأخدود . وقد كان القرآن ـ ولا يزال ـ يربى المؤمنين بهذا النموذج وذاك . وفق الحالات والملابسات . ويعد نفوس المؤمنين لهذا وذاك على السواء . لتطمئن على الحالين . وتتوقع الأمرين ، وتكل كل شىء لقدر الله يجريه كما يشاء .

* * *

« إن ربك لبالمرصاد » .. يرى ويحسب ويحاسب ويجازى ، وفق ميزان دقيق لا يخطئ ولايظلم ولايأخذ بظواهر الأمور لكن بحقائق الأشياء .. فأما الإنسان فتخطىء موازينه وتضل تقديراته ، ولايرى إلا الظواهر ، مالم يتصل بميزان الله :

« فأما الإنسان إذا ماابتلاه ربه فأكرمه ونعمه، فيقول : ربى أكرمن . وأما إذا ماابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول : ربى أهانن » ..

فهذا هو تصور الإنسان لما يبتليه الله به من أحوال ، ومن بسط وقبض ، ومن توسعة وتقدير .. يبتليه بالنعمة والإكرام . بالمال أوالمقام . فلايدرك أنه الابتلاء ، تمهيدا للجزاء . إنما يحسب هذاالرزق وهذه المكانة دليلا على استحقاقه عند الله للإكرام ، وعلامة على اصطفاء الله له واختياره . فيعتبر البلاء جزاء والامتحان نتيجة ! ويقيس الكرامه عند الله بعرض هذه الحياة ! ويبتليه بالتضييق عليه فى الرزق ، فيحسب الابتلاء جزاء كذلك ، ويحسب الاختبار عقوبة ، ويرى فى ضيق الرزق مهانة عند الله ، فلولم يرد مهانته ماضيق عليه رزقه ..

Marfat.com

وهو فى هذا الحالتين مخطئ فى التصور ومخطئ فى التقدير . فبسط الرزق أوقبضه ابتلاء من الله لعبده . ليظهر منه الشكر على النعمة أوالبطر . ويظهر منه الصبر على المحنة أو الضجر . والجزاء على مايظهر منه بعد . وليس ماأعطى من عرض الدنيا أومنع هو الجزاء . . وقيمة العبد عند الله لاتتعلق بما عنده من عرض الدنيا . ورضى الله أوسخطه لايستدل عليه بالمنح والمنع فى هذه الأرض . فهو يعطى الصالح والطالح ، ويمنع الصالح والطالح . ولكن ماوراء هذا وذلك هو الذى عليه المعول . إنه يعطى ليبتلى ويمنع ليبتلى . والمعول عليه هو نتيجة الابتلاء !

غير أن الإنسان ـ حين يخلو قلبه من الإيمان ـ لايدرك حكمة المنع والعطاء . ولاحقيقة القيم فى ميزان الله .. فإذا عمر قلبه بالإيمان اتصل وعرف ماهنالك . وخفت فى ميزانه الأعراض الزهيدة ، وتيقظ لما وراء الابتلاء من الجزاء ، فعمل له فى البسط والقبض سواء . واطمأن إلى قدر الله به فى الحالين ؛ وعرف قدره فى ميزان الله بغير هذه القيم الظاهرة الجوفاء !

* * *

وقد كان القرآن يخاطب فى مكة أناسا ـ يوجد أمثالهم فى كل جاهلية تفقد اتصالها بعالم أرفع من الأرض وأوسع ـ أناسا ذلك ظنهم بربهم فى البسط والقبض . وذلك تقديرهم لقيم الناس فى الأرض . ذلك أن المال والجاه عندهم كل شىء . وليس وراءهما مقياس ! ومن ثم كان تكالبهم على المال عظيما ، وحبهم له حبا طاغيا ، مما يورثهم شراهة وطمعا . كما يورثهم حرصا وشحا . . ومن ثم يكشف لهم عن ذوات صدورهم فى هذا المجال ، ويقرر أن هذا الشره والشح هما علة خطئهم فى إدراك معنى الابتلاء من وراء البسط والقبض فى الأرزاق .

« كلا . بل لاتكرمون اليتيم ، ولا تحاضون على طعام المسكين . وتأكلون التراث أكلا لما ، وتحبون المال حبا جما » . .

كلا ليس الأمر كما يقول الإنسان الخاوى من الإيمان . ليس بسط الرزق دليلا على الكرامة عند الله . وليس تضييق الرزق دليلا على المهانة والإهمال . إنما الأمر أنكم لاتنهضون بحق العطاء ، ولا توفون بحق المال . فأنتم لاتكرمون اليتيم الصغير الذى فقد حاميه وكافله حين فقد أباه ، ولا تتحاضون فيما بينكم على إطعام المسكين . الساكن الذى لايتعرض للسؤال وهو محتاج ! وقد اعتبر عدم التحاض والتواصى على إطعام المسكين قبيحا مستنكرا . كما يوحى بضرورة التكافل فى الجماعة فى التوجيه إلى الواجب وإلى الخير العام . وهذه سمة الإسلام .

Marfat.com

. . إنكم لاتدركون معنى الابتلاء . فلا تحاولون النجاح فيه ، بإكرام اليتيم والتواصى على إطعام المسكين، بل أنتم ـ على العكس ـ تأكلون الميراث أكلا شرها جشعا ؛وتحبون المال حبا كثيرا طاغيا ، لايستبقى فى نفوسكم أريحية ولا مكرمة مع المحتاجين إلى الإكرام والطعام .

وقد كان الإسلام يواجه فى مكة ـ كما ذكرنا من قبل ـ حالة من التكالب على جمع المال بكافة الطرق ،تورث القلوب كزازة وقساوة. وكان ضعف اليتامى مغريا بانتهاب أموالهم وبخاصة الإناث منهم فى صور شتى ؛ وبخاصة مايتعلق بالميراث (كما سبق بيانه فى مواضع متعددة فى الظلال) كما كان حب المال وجمعه بالربا وغيره ظاهرة بارزة فى المجتمع المكى قبل الإسلام . وهى سمة الجاهليات فى كل زمان ومكان ! حتى الآن !

وفى هذه الآيات فوق الكشف عن واقع نفوسهم ، تنديد بهذا الواقع ، وردع عنه ، يتمثل فى تكرار كلمة « كلا » كما يتمثل فى بناء التعبير وإيقاعه ، وهو يرسم بجرسه شدة التكالب وعنفه :

« وتأكلون التراث أكلا لما . وتحبون المال حبا جما ! » . .

* * *

وعند هذا الحد من فضح حقيقة حالهم المنكرة ،بعد تصوير خطأ تصورهم فى الابتلاء بالمنع والعطاء ، يجىء التهديد الرعيب بيوم الجزاء وحقيقته ، بعد الابتلاء ونتيجته ، فى إيقاع قوى شديد :

« كلا . إذا دكت الأرض دكا دكا .وجاء ربك والملك صفا صفا .وجىء يومئذ بجهنم .يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى !يقول : ياليتنى قدمت لحياتى. فيومئذ لايعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد » . .

ودك الأرض ، تحطيم معالمها وتسويتها ؛ وهو أحد الانقلابات الكونية التى تقع فى يوم القيامة.فأما مجىء ربك والملائكة صفا صفا،فهو أمرغيبى لاندرك طبيعته ونحن فى هذه الأرض. ولكنا نحس وراء التعبير بالجلال والهول . كذلك المجىء بجهنم . نأخذ منه قربها منهم وقرب للمذبين منها وكفى . فأما حقيقة مايقع وكيفيته فهى من غيب الله المكنون ليومه المعلوم .

إنما يرتسم من وراء هذه الآيات ، ومن خلال موسيقاها الحادة التقسيم ، الشديدة الأسر،

Marfat.com

مشهد ترجف له القلوب ، وتخشع له الأبصار . والأرض تدك دكا دكا ! والجبار المتكبر يتجلى ويتولى الحكم والفصل ، ويقف الملائكة صفا صفا . ثم يجاء بجهنم فتقف متأهبة هى الأخرى !

« يومئذ يتذكر الإنسان » .. الإنسان الذى غفل عن حكمة الابتلاء بالمنع والعطاء . والذى أكل التراث أكلا لما ، وأحب المال حبا جما . والذى لم يكرم اليتيم ولم يحض على طعام المسكين . والذى طغى وأفسد وتولى . . يومئذ يتذكر . يتذكر الحق ويتعظ بما يرى . . ولكن لقد فات الأوان « فأنى له الذكرى ؟ » . . ولقد مضى عهد الذكرى ، فما عادت تجدى هنا فى دار الجزاء أحدا ! وإن هى إلا الحسرة على فوات الفرصة فى دار العمل فى الحياة الدنيا !

وحين تتجلى له هذه الحقيقة : « يقول : ياليتنى قدمت لحياتى » . . ياليتنى قدمت شيئا لحياتى هنا . فهى الحياة الحقيقية التى تستحق اسم الحياة . وهى التى تستأهل الاستعداد والتقدمة والادخار لها . ياليتنى . . أمنية فيها الحسرة الظاهرة ، وهى أقصى مايملكه الإنسان فى الآخرة !

ثم يصور مصيره بعد الحسرة الفاجعة والتمنيات الضائعة : « فيومئذ لايعذب عذابه أحد ، ولايوثق وثاقه أحد » . . إنه الله القهار الجبار . الذى يعذب يومئذ عذابه الفذ الذى لا يملك مثله أحد . والذى يوثق وثاقه الفذ الذى لايوثق مثله أحد . وعذاب الله ووثاقه يفصلهما القرآن فى مواضع أخرى فى مشاهد القيامة الكثيرة المنوعة فى ثنايا القرآن كله . ويجملهما هنا حيث يصفها بالتفرد بلاشبيه من عذاب البشر ووثاقهم . أومن عذاب الخلق جميعا ووثاقهم . وذلك مقابل ماأسلف فى السورة من طغيان الطغاة ممثلين فى عاد وثمود وفرعون ، وإكثارهم من الفساد فى الأرض ، مما يتضمن تعذيب الناس وربطهم بالقيود والأغلال . فها هو ذا ربك ـ أيها النبى وأيها المؤمن ـ يعذب ويوثق من كانوا يعذبون الناس ويوثقونهم . ولكن شتان بين عذاب وعذاب ، ووثاق ووثاق .. وهان مايملكه الخلق من هذا الأمر ، وجل مايفعله صاحب الخلق والأمر . فليكن عذاب الطغاة للناس ووثاقهم مايكون . فسيعذبون هم ويوثقون عذابا ووثاقا وراء التصورات والظنون !

* * *

وفى وسط هذا الهول المروع ، وهذا العذاب والوثاق ، الذى يتجاوز كل تصور تنادى « النفس » المؤمنة من الملأ الأعلى :

Marfat.com

« ياأيتها النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربك راضية مرضية . فادخلى فى عبادى . وادخلى جنتى » . .

هكذا فى عطف وقرب : « ياأيتها » وفى روحانية وتكريم : « ياأيتها النفس » . . وفى ثناء وتطمين .. « ياأيتها النفس المطمئنة » .. وفى وسط الشد والوثاق ، الانطلاق والرخاء : « ارجعى إلى ربك » ارجعى إلى مصدرك بعد غربة الأرض وفرقة المهد . ارجعى إلى ربك بما بينك وبينه من صلة ومعرفة ونسبة . . « راضية مرضية » بهذه النداوة التى تفيض على الجو كله بالتعاطف وبالرضى . . « فادخلى فى عبادى » . . للقربين المختارين لينالوا هذه القربى . . « وادخلى جنتى » .. فى كنفى ورحمتى ..

إنها عطفة تنسم فيها أرواح الجنة . منذ النداء الأول : « ياأيتها النفس المطمئنة » . . المطمئنة إلى ربها . المطمئنة إلى طريقها . المطمئنة إلى قدر الله بها . المطمئنة فى السراء والضراء، وفى البسط والقبض ، وفى المنع والعطاء . المطمئنة فلاترتاب . والمطمئنة فلاتنحرف . والمطمئنة فلاتتلجلج فى الطريق . والمطمئنة فلاترتاع فى يوم الهول الرعيب . .

ثم تمضى الآيات تباعا تغمر الجو كله بالأمن والرضى والطمأنينة ، والموسيقى الرخية الندية حول المشهد ترف بالود والقربى والسكينة .

ألا إنها الجنة بأنفاسها الرضية الندية ، تطل من خلال هـذه الآيات . وتتجلى عليها طلعة الرحمان الجليلة البهية . . .

Marfat.com

سورة البلد مكية
وآياتها ٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ * وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ * أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ : أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا * أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ؟

« أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ؟ * فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ؟ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ » ﴿٢٠﴾

تضم هذه السورة الصغيرة جناحيها على حشد من الحقائق الأساسية فى حياة الكائن الإنسانى ذات الإيحاءات الدافعة واللمسات الموحية . حشد يصعب أن يجتمع فى هذا الحيز الصغير فى غير القرآن الكريم ، وأسلوبه الفريد فى التوقيع على أوتار القلب البشرى بمثل هذه اللمسات السريعة العميقة . .

* * *

Marfat.com

تبدأ السورة بالتلويح بقسم عظيم ، على حقيقة فى حياة الإنسان ثابتة :

« لا أقسم بهذا البلد . وأنت حل بهذا البلد . ووالد وما ولد . لقد خلقنا الإنسان فى كبد » . .

والبلد هو مكة . بيت الله الحرام . أول بيت وضع للناس فى الأرض . ليكون مثابة لهم وأمنا يضعون عنده سلاحهم وخصوماتهم وعداواتهم ، ويلتقون فيه مسالمين ، حراما بعضهم على بعض . كما أن البيت وشجره وطيره وكل حى فيه حرام . ثم هو بيت إبراهيم والد إسماعيل أبى العرب والمسلمين أجمعين .

ويكرم الله نبيه محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيذكره ويذكر حله بهذا البلد وإقامته ، وصفها ملابسة تزيد هذا البلد حرمة ، وتزيده شرفا ، وتزيده عظمة . وهى إيماءة ذات دلالة عميقة فى هذا المقام . والمشركون يستحلون حرمة البيت ، فيؤذون النبى والمسلمين فيه ، والبيت كريم ، يزيده كرما أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حل فيه مقيم . وحين يقسم الله ـ سبحانه ـ بالبلد والمقيم به ، فإنه يخلع عليه عظمة وحرمة فوق حرمته ، فيبدو موقف المشركين الذين يدعون أنهم سدنة البيت وأبناء إسماعيل وعلى ملة إبراهيم ، موقفا منكرا قبيحا من جميع الوجوه .

ولعل هذا المعنى يرشح لاعتبار : « ووالد وما ولد » . . إشارة خاصة إلى إبراهيم ، أو إلى إسماعيل ـ عليهما السلام ـ وإضافة هذا إلى القسم بالبلد والنبى المقيم به ، وبانيه الأول وما ولد . . وإن كان هذا الاعتبار لاينفى أن يكون المقصود هو : والد وما ولد إطلاقا . وأن تكون هذه إشارة إلى طبيعة النشأة الإنسانية ، واعتمادها على التوالد . تمهيدا للحديث عن حقيقة الإنسان التى هى مادة السورة الأساسية .

وللأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى هذا الموضع من تفسيره للسورة فى « جزء عم » لفتة لطيفة تتسق فى روحها مع روح هذه «الظلال» فنستعيرها منه هنا . . قال رحمه الله :

« ثم أقسم بوالد وما ولد ، ليلفت نظرنا إلى رفعة قدر هذا الطور من أطوار الوجود ـ وهو طور التوالد ـ وإلى مافيه من بالغ الحكمة وإتقان الصنع ، وإلى مايعانيه الوالد والمولود فى إبداء النشء وتكميل الناشىء ، وإبلاغه حده من النمو المقدر له .

« فإذا تصورت فى النبات كم تعانى البذرة فى أطوار النمو : من مقاومة فواعل الجو ، ومحاولة امتصاص الغذاء مما حولها من العناصر ، إلى أن تستقيم شجرة ذات فروع وأغصان ،

Marfat.com

وتستعد إلى أن تلد بذرة أو بذورا أخرى تعمل عملها ، وتزين الوجود بجمال منظرها ـ إذا أحضرت ذلك فى ذهنك ، والتفت إلى مافوق النبات من الحيوان والإنسان ، حضر لك من أمر الوالد والمولود فيهما ماهو أعظم ، ووجدت من المكابدة والعناء الذى يلاقيه كل منهما فى سبيل حفظ الأنواع ، واستبقاء جمال الكون بصورها ماهو أشد وأجسم » ..انتهى..

يقسم هذا القسم على حقيقة ثابتة فى حياة الكائن الإنسانى :

« لقد خلقنا الإنسان فى كبد » . .

فى مكابدة ومشقة ، وجهد وكد ، وكفاح وكدح .. كما قال فى السورة الأخرى : « ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه » . .

الخلية الأولى لاتستقر فى الرحم حتى تبدأ فى الكبد والكدح والنصب لتوفر لنفسها الظروف الملائمة للحياة والغذاء ـ بإذن ربها ـ وما تزال كذلك حتى تنتهى إلى المخرج ،فتذوق من المخاض ـ إلى جانب ماتذوقه الوالدة ـ ماتذوق . وما يكاد الجنين يرى النور حتى يكون قد ضغط ودفع حتى كاد يختنق فى مخرجه من الرحم !

ومنذ هذه اللحظة يبدأ الجهد الأشق والكبد الأمر . يبدأ الجنين ليتنفس هذا الهواء الذى لاعهد له به ، ويفتح فمه ورئتيه لأول مرة ليشهق ويزفر فى صراخ يشى بمشقة البداية ! وتبدأ دورته الهضمية ودورته الدموية فى العمل على غير عادة ! ويعانى فى إخراج الفضلات حتى يروض أمعاءه على هذا العمل الجديد ! وكل خطوة بعد ذلك كبد ، وكل حركة بعد ذلك كبد . والذى يلاحظ الوليد عندما يهم بالحبو وعندما يهم بالمشى يدرك كم يبذل من الجهد العنيف للقيام بهذه الحركة الساذجة .

وعند بروز الأسنان كبد . وعند انتصاب القامة كبد . وعند الخطو الثابت كبد . وعند التعلم كبد . وعند التفكر كبد . وفى كل تجربة جديدة كبد كتجربة الحبو والمشى سواء !

ثم تفترق الطرق ، وتتنوع المشاق ؛ هذا يكدح بعضلاته . وهذا يكدح بفكره . وهذا يكدح بروحه . وهذا يكدح للقمة العيش وخرقة الكساء . وهذا يكدح ليجعل الألف ألفين وعشرة آلاف . . .وهذا يكدح لملك أوجاه ، وهذا يكدح فى سبيل الله . وهذا يكدح لشهوة ونزوة. وهذا يكدح لعقيدة ودعوة . وهذا يكدح إلى النار . وهذا يكدح إلى الجنة . . والكل يحمل حمله ويصعد الطريق كادحا إلى ربه فيلقاه ! وهناك يكون الكبد الأكبر للأشقياء . وتكون الراحة الكبرى للسعداء .

Marfat.com

إنه الكبد طبيعة الحياة الدنيا . تختلف أشكاله وأسبابه . ولكنه هو الكبد فى النهاية . فأحسن الخاسرين هو من يعانى كبد الحياة الدنيا لينتهى إلى الكبد الأشق الأمرّ فى الأخرى . وأفلح الفالحين من يكدح فى الطريق إلى ربه ليلقاه بمؤهلات تنهى عنه كبد الحياة ، وتنتهى به إلى الراحة الكبرى فى ظلال الله .

على أن فى الأرض ذاتها بعض الجزاء على ألوان الكدح والعناء . إن الذى يكدح للأمر الجليل ليس كالذى يكدح للأمر الحقير . ليس مثله طمأنينة بال وارتياحا للبذل ، واستراحا بالتضحية ، فالذى يكدح وهو طليق من أثقال الطين ، أوللانطلاق من هذه الأثقال ، ليس كالذى يكدح ليغوص فى الوحل ويلصق بالأرض كالحشرات والديدان ! والذى يموت فى سبيل دعوة ليس كالذى يموت فى سبيل نزوة . . ليس مثله فى خاصة شعوره بالجهد والكبد الذى يلقاه .

* * *

وبعد تقرير هذه الحقيقة عن طبيعة الحياة الإنسانية يناقش بعض دعاوى « الإنسان » وتصوراته التى تشى بها تصرفاته :

« أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ؟ يقول : أهلكت مالا لبدا . أيحسب أن لم يره أحد ؟ » .

إن هذا « الإنسان » المخلوق فى كبد ، الذى لايخلص من عناء الكدح والكد ، لينسى حقيقة حاله وينخدع بما يعطيه خالقه من أطراف القوة والقدرة والوجدان والمتاع ، فيتصرف تصرف الذى لايحسب أنه مأخوذبعمله، ولايتوقع أن يقدر عليه قادر فيحاسبه.. فيطغى ويبطش ويسلب وينهب ، ويجمع ويكثر ، ويفسق ويفجر ، دون أن يخشى ودون أن يتحرج . . وهذه هى صفة الإنسان الذى يعرى قلبه من الإيمان .

ثم إنه إذا دعى للخير والبذل (فى مثل المواضع التى ورد ذكرها فى السورة) « يقول : أهلكت مالا لبدا » . . وأنفقت شيئا كثيرا فحسبى ما أنفقت ومابذلت ! « أيحسب أن لم يره أحد » ؟ وينسى أن عين الله عليه ، وأن علمه محيط به ، فهو يرى ماأنفق ، ولماذا أنفق ؟ ولكن هذا « الإنسان » كأنما ينسى هذه الحقيقة ، ويحسب أنه فى خفاء عن عين الله !

* * *

وأمام هذا الغرور الذى يخيل للإنسان أنه ذو منعة وقوة ، وأمام ضنه بالمال وادعائه

Marfat.com

أنه بذل الكثير، يجابهه القرآن بفيض الآلاء عليه فى خاصة نفسه ، وفى صميم تكوينه ، وفى خصائص طبيعته واستعداداته، تلك الآلاء التى لم يشكرها ولم يقم بحقها عنده :

« ألم نجعل له عينين ؟ ولسانا وشفتين ؟ وهديناه النجدين ؟ » . .

إن الإنسان يغتر بقوته ، والله هو المنعم عليه بهذا القدر من القوة . ويضن بالمال . والله هو المنعم عليه بهذا المال . ولا يهتدى ولا يشكر ، وقد جعل له من الحواس ما يهديه فى عالم المحسوسات: جعل له عينين على هذا القدر من الدقة فى تركيبهما وفى قدرتهما على الإبصار . وميزه بالنطق. وأعطاه أداته المحكمة : « ولسانا وشفتين » . . ثم أودع نفسه خصائص القدرة على إدراك الخير والشر ، والهدى والضلال ، والحق والباطل : « وهديناه النجدين » . . ليختار أيهما شاء ، ففى طبيعته هذا الاستعداد المزدوج لسلوك أى النجدين . والنجد الطريق المرتفع . وقد اقتضت مشيئة الله أن تمنحه القدرة على سلوك أيهما شاء، وأن تخلقه بهذا الازدواج طبقا لحكمة الله فى الخلق ، وإعطاء كل شىء خلقه، وتيسيره لوظيفته فى هذا الوجود .

وهذه الآية تكشف عن حقيقة الطبيعة الإنسانية ؛ كما أنها تمثل قاعدة « النظرية النفسية الإسلامية » هى والآيات الأخرى فى سورة الشمس : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » (وسنرجئ عرضها بشىء من التفصيل إلى الموضع الآخر فى سورة الشمس لأنه أوسع مجالا) .

* * *

هذه الآلاء التى أفاضها الله على جنس الإنسان فى خاصة نفسه ، وفى صميم تكوينه ، والتى من شأنها أن تعينه على الهدى : عيناه بما تريان فى صفحات هذا الكون من دلائل القدرة وموحيات الإيمان ؛ وهى معروضة فى صفحات الكون مبثوثة فى حناياه . ولسانه وشفتاه وهما أداة البيان والتعبير ؛ وعنهما يملك الإنسان أن يفعل الشىء الكثير . والكلمة أحيانا تقوم مقام السيف والقذيفة وأكثر ؛ وأحيانا تهوى بصاحبها فى النار كما ترفعه أو تخفضه . فى هذه النار .. « عن معاذ ابن جبل رضى الله عنه قال : كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر ، فأصبحت يوما قريبا منه ، ونحن نسير، فقلت : يارسول الله أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة، ويباعدنى عن النار . قال : سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت . ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ قلت : بلى يارسول الله . قال : الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما

Marfat.com

يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل فى جوف الليل شعار الصالحين ، ثم تلا قوله تعالى : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع . . . . . » ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ قلت : بلى يارسول الله . قال : رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد . ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت : بلى يارسول الله . قال : كف عليك هذا ، وأشار إلى لسانه . قلت : يانبى الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ قال : ثكلتك أمك ! وهل يكب الناس فى النار على وجوههم ـ أو قال : على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم ؟ » رواه أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه .

وهدايته إلى إدراك الخير والشر ، ومعرفة الطريق إلى الجنة والطريق إلى النار ، وإعانته على الخير بهذه الهداية . .

هذه الآلاء كلها لم تدفع هذا « الإنسان » إلى اقتحام العقبة التى تحول بينه وبين الجنة . هذه العقبة التى يبينها الله له فى هذه الآيات :

« فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة ؟ فك رقبة . أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيما ذا مقربة ، أو مسكينا ذا متربة . ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة . أولئك أصحاب الميمنة » . .

هذه هى العقبة التى يقتحمها الإنسان ـ إلا من استعان بالإيمان ـ هذه هى العقبة التى تقف بينه وبين الجنة . لو تخطاها لوصل! وتصويرها كذلك حافز قوى، واستجاشة للقلب البشرى ، وتحريك له ليقتحم العقبة وقد وضحت ووضح معها أنها الحائل بينه وبين هذا المكسب الضخم . . « فلا اقتحم العقبة » ! ففيه تحضيض ودفع وترغيب !

ثم تفخيم لهذا الشأن وتعظيم : « وما أدراك ما العقبة ! » . . إنه ليس تضخيم العقبة ، ولكنه تعظيم شأنها عند الله ، ليحفز به « الإنسان » إلى اقتحامها وتخطيها ؛ مهما تتطلب من جهد ومن كبد . فالكبد واقع واقع . وحين يبذل لاقتحام العقبة يؤتى ثمره ويعوض المقتحم عما يكابده ، ولا يذهب ضياعا وهو واقع واقع على كل حال !

ويبدأ كشف العقبة وبيان طبيعتها بالأمر الذى كانت البيئة الخاصة التى تواجهها الدعوة فى أمس الحاجة إليه : فك الرقاب العانية ؛ وإطعام الطعام والحاجة إليه ماسة للضعاف الذين تقسو عليهم البيئة الجاحدة المتكالبة ، وينتهى بالأمر الذى لايتعلق ببيئة خاصة ولا بزمان خاص، والذى

Marfat.com

تواجهه النفوس جميعا ، وهى تتخطى العقبة إلى النجاة : « ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة » . . .

وقد ورد أن فك الرقبة هو المشاركة فى عتقها ، وأن العتق هو الاستقلال بهـذا . . وأيا ما كان المقصود فالنتيجة الحاصلة واحدة .

وقد نزل هـذا النص والإسلام فى مكة محاصر ؛ وليست له دولة تقوم على شريعته . وكان الرق عاما فى الجزيرة العربية وفى العالم من حولهـا . وكان الرقيق يعاملون معاملة قاسية على الإطلاق . فلما أن أسلم بعضهم كعمار ابن ياسر وأسرته ، وبلال ابن رباح ، وصهيب . . وغيرهم ـ رضى الله عنهم جميعا ـ اشتد عليهم البلاء من سادتهم العتاة . وأسلموهم إلى تعذيب لايطاق . وبدا أن طريق الخلاص لهم هو تحريرهم بشرائهم من سادتهم القساة ، فكان أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ هو السابق كعادته دائما إلى التلبية والاستجابة فى ثبات وطمأنينة واستقامة . .

قال ابن إسحاق : « وكان بلال مولى أبى بكر ـ رضى الله عنهما ـ لبعض بنى جمح مولدا من مولديهم وكان صادق الإسلام ، طاهر القلب ، وكان أمية ابن خلف ابن وهب ابن حذافة ابن جمح يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة؛ ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له لاتزال هكذا حتى تموت أوتكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى . فيقول وهو فى ذلك البلاء : أحد أحد . . .

« حتى مر به أبوبكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ يوما وهم يصنعون ذلك به ـ وكانت دار أبى بكر فى بنى جمح . فقال لأمية ابن خلف ، ألاتتق الله فى هـذا المسكين ؟ حتى متى ؟ قال : أنت الذى أفسدته فأنقذه مما ترى . فقال أبو بكر : أفعل . عندى غلام أسود أجلد منه وأقوى، على دينك » أعطيكه به . قال : قد قبلت. قال : هو لك . فأعطاه أبوبكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ غلامه ذلك وأخذه وأعتقه .

« ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب . بلال سابعهم : عامرابن فهيرة(شهد بدرا وقتل يوم بئر معونة شهيدا) وأم عبيس ، وزنيرة . (وأصيب بصرها حين أعتقها ، فقالت قريش: ماأذهب بصرها إلا اللات والعزى ! فقالت : كذبوا وبيت الله ماتضر اللات والعزى وماتنفعان . فرد الله بصرها) وأعتق النهدية وابنتها ، وكانتا لامرأة من بنى عبد الدار فمر بهما وقدبعثتهما سيدتهما بطحين لها وهى تقول : والله لاأعتقكما أبدا . فقال

Marfat.com

أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ حلّ يا أم فلان (أى تحللى من يمينك) فقالت : حل ! أنت أفسدتها فأعتقهما . قال فبكم هما ؟ قالت : بكذا وكذا . قال : قد أخذتهما وهما حرتان . ارجعا إليها طحينها . قالتا : أو نفرغ منه يا أبا بكر ثم نرده إليها ؟ قال : ذلك إن شئتما .

« ومر بجارية بنى مؤمل ـ هى من بنى عدى ـ وكانت مسلمة ، وكان عمر ابن الخطاب يعذبها لترك الإسلام ـ وهو يومئذ مشرك ـ وهو يضربها ، حتى إذا مل قال : إنى أعتذر إليك ، إنى لم أتركك إلا ملالة ! فتقول : كذلك فعل الله بك ! فابتاعها أبو بكر فأعتقها » .

قال ابن إسحاق : وحدثنى محمد ابن عبد الله ابن أبى عتيق ، عن عامر ابن عبد الله ابن الزبير عن بعض أهله ، قال : قال أبو قحافة لأبى بكر : يابنى إنى أراك تعتق رقابا ضعافا . فلو أنك إذا فعلت مافعلت أعتقت رجالا جُلدا يمنعونك ويقومون دونك ! قال : فقال أبو بكر رضى الله عنه : ياأبت إنى إنما أريد ما أريد لله . . . » . .

لقد كان ـ رضى الله عنه ـ يقتحم العقبة وهو يعتق هذه الرقاب العانية . . لله . وكانت الملابسات الحاضرة فى البيئة تجعل هذا العمل يذكر فى مقدمة الخطوات والوثبات لاقتحام العقبة فى سبيل الله .

« أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة » . .

والمسغبة : المجاعة ، ويوم المجاعة الذى يعز فيه الطعام هو محك لحقيقة الإيمان . وقد كان اليتيم يجد فى البيئة الجاهلية الجاحدة المتكالبة الخسف والغبن . ولو كان ذا قربى . وقد حفل القرآن بالوصية باليتيم . مما يدل على قسوة البيئة من حول اليتامى . وظلت هذه الوصايا تتوالى حتى فى السور المدنية بمناسبة تشريعات الميراث والوصاية والزواج . وقد مر منها الكثير فى سورة النساء خاصة . . وفى سورة البقرة وغيرهما . وكذلك إطعام المسكين ذى المتربة ـ أى اللاصق بالتراب من بؤسه وشدة حاله ـ فى يوم المسغبة يقدمه السياق القرآنى خطوة فى سبيل اقتحام العقبة ، لأنه محك للمشاعر الإيمانية من رحمة وعطف وتكافل وإيثار ، ومراقبة لله فى عباده ، فى يوم الشدة والمجاعة والحاجة وهاتان الخطوتان : فك الرقاب وإطعام الطعام كانتا من إيحاءات البيئة الملحة ، وإن كانت لهما صفة العموم ، ومن ثم قدمهما فى الذكر . ثم عقب بالوثبة الكبرى الشاملة :

« ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر ، وتواصوا بالمرحمة » .

Marfat.com

« وثم » هنا ليست للتراخى الزمنى . إنما هى للتراخى المعنوى باعتبار هذه الخطوة هى الأشمل والأوسع نطاقا والأعلى أفقا وإلا فما ينفع فك رقاب ولا إطعام طعام بلا إيمان . فالإيمان مفروض وقوعه قبل فك الرقاب وإطعام الطعام . وهو الذى يجعل للعمل الصالح وزنا فى ميزان الله . لأنه يصله بمنهج ثابت مطرد . فلا يكون الخير فلتة عارضة توحية لمزاج متقلب أو ابتغاء محمدة من البيئة أو مصلحة .

وكأنما قال : فك رقبة . أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة ، أو مسكينا ذا متربة وفوق ذلك كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة . فثم هنا لإفادة معنى الفضل والعلو .

والصبر هو العنصر الضرورى للإيمان بصفة عامة، ولاقتحام العقبة بصفة خاصة والتواصى به يقرر درجة وراء درجة الصبر ذاته درجة تماسك الجماعة المؤمنة ، وتواصيها على معنى الصبر . وتعاونها على تكاليف الإيمان . فهى أعضاء متجاوبة الحس تشعر جميعا شعورا واحدا بمشقة الجهاد لتحقيق الإيمان فى الأرض وحمل تكاليفه، فيوصى بعضها بعضا بالصبر على العبء المشترك؛ ويثبت بعضها بعضا فلا تتخاذل ؛ ويقوى بعضها بعضا فلا تنهزم . وهذا أمر غير الصبر الفردى . وإن يكن قائما على الصبر الفردى . وهو إيحاء بواجب المؤمن فى الجماعة المؤمنة . وهو ألا يكون عنصر تخذيل بل عنصر تثبيت ، ولا يكون داعية هزيمة بل داعية اقتحام ؛ ولا يكون مثار جزع بل مهبط طمأنينة .

وكذلك التواصى بالمرحمة . فهو أمر زائد على المرحمة . إنه إشاعة الشعور بواجب التراحم فى صفوف الجماعة عن طريق التواصى به ، والتحاض عليه ، واتخاذه واجبا جماعيا فرديا فى الوقت ذاته ، يتعارف عليه الجميع ، ويتعاون عليه الجميع .

فمعنى الجماعة قائم فى هذا التوجيه . وهو المعنى الذى يبرزه القرآن كما تبرزه أحاديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأهميته فى تحقيق حقيقة هذا الدين . فهو دين جماعة ، ومنهج أمة ، مع وضوح التبعة الفردية والحساب الفردى فيه وضوحا كاملا . .

وأولئك الذين يقتحمون العقبة ـ كما وصفها القرآن وحددها ـ « أولئك أصحاب الميمنة » . . وهم أصحاب اليمين كما جاء فى مواضع أخرى . أو أنهم أصحاب اليمين والحظ والسعادة . . وكلا المعنيين متصل فى المفهوم الإيمانى .

* * *

Marfat.com

« والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة . عليهم نار مؤصدة » . .

ولم يحتج هنا إلى ذكر أوصاف أخرى لفريق المشأمة غير أن يقول : « والذين كفروا بآياتنا » . . لأن صفة الكفر تنهى الموقف . فلا حسنة مع الكفر . ولا سيئة إلا والكفر يتضمنها أو يغطى عليها . فلا ضرورة للقول بأنهم الذين لا يفكون الرقاب ولا يطعمون الطعام ، ثم هم الذين كفروا بآياتنا . . فإذا كفروا فما هو بنافعهم شيء من ذلك حتى لو فعلوه !

وهم أصحاب المشأمة . أى أصحاب الشمال أو هم أصحاب الشؤم والنحس . . وكلاهما كذلك قريب فى المفهوم الإيمانى . وهؤلاء هم الذين بقوا وراء العقبة لم يقتحموها !

« عليهم نار مؤصدة » . . أى مغلقة . . إما على المعنى القريب . أى أبوابها مغلقة عليهم وهم فى العذاب محبوسون . وإما على لازم هذا المعنى القريب ؛ وهو أنهم لا يخرجون منها . فبحكم إغلاقها عليهم لا يمكن أن يزايلوها . . وهذان المعنيان متلازمان . .

* * *

هذه هى الحقائق الأساسية فى حياة الكائن الإنسانى ، وفى التصور الإيمانى . تعرض فى هذا الحيز الصغير . بهذه القوة وبهذا الوضوح . . وهذه هى خاصية التعبير القرآنى الفريد . . .

Marfat.com

سورة الشمس مكية
وآياتها ١٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« وَٱلشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا * وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَٱللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَٱلسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ ٱنْبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ : نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا » ⑮

هذه السورة القصيرة ذات القافية الواحدة ، والإيقاع الموسيقى الموحد ، تتضمن عدة لمسات وجدانية تنبثق من مشاهد الكون وظواهره التى تبدأ بها السورة والتى تظهر كأنها إطار للحقيقة الكبيرة التى تتضمنها السورة . حقيقة النفس الإنسانية ، واستعداداتها الفطرية ، ودور الإنسان فى شأن نفسه ، وتبعته فى مصيرها . . هذه الحقيقة التى يربطها سياق السورة بحقائق الكون ومشاهده الثابتة .

كذلك تتضمن قصة ثمود ، وتكذيبها بإنذار رسولها ، وعقرها الناقة ، ومصرعها بعد ذلك وزوالها . وهى نموذج من الخيبة التى تصيب من لا يزكى نفسه ، فيدعها للفجور ، ولا يلزم

Marfat.com

تقواها : كما جاء فى الفقرة الأولى فى السورة : « قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » . .

* * *

« والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها . والسماء ومابناها . والأرض وماطحاها . ونفس وماسواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » ..

يقسم الله سبحانه بهذه الخلائق والمشاهد الكونية ، كما يقسم بالنفس وتسويتها وإلهامها . ومن شأن هذا القسم أن يخلع على هـذه الخلائق قيمة كبرى؛ وأن يوجه إليها القلوب تتملاها ، وتتدبر ماذا لها من قيمة وماذا بها من دلالة ، حتى استحقت أن يقسم بها الجليل العظيم .

ومشاهد الكون وظواهره إطلاقا بينها وبين القلب الإنسانى لغة سرية ! متعارف عليها فى صميم الفطرة وأغوار المشاعر. وبينها وبين الروح الإنسانى تجاوب ومناجاة بغير نبرة ولاصوت، وهى تنطق للقلب ، وتوحى للروح ، وتنبض بالحياة المأنوسة للكيان الإنسانى الحى . حينما التقى بها وهو مقبل عليها ، متطلع عندها إلى الأنس والمناجاة والتجاوب والإيحاء .

ومن ثم يكثر القرآن من توجيه القلب إلى مشاهد الكون بشتى الأساليب، فى شتى المواضع تارة بالتوجيهات المباشرة ، وتارة باللمسات الجانبية كهذا القسم بتلك الخلائق والمشاهد ، ووضعها إطارا لما يليها من الحقائق . وفى هـذا الجزء بالذات لاحظنا كثرة هـذه التوجيهات واللمسات كثرة ظاهرة . فلاتكاد سورة واحدة تخلو من إيقاظ القلب لينطلق إلى هذا الكون، يطلب عنده التجاوب والإيحاء . ويتلقى عنه ـ بلغة السر المتبادل ـ ماينطق به من دلائل ومايبثه من مناجاة !

وهنا نجد القسم الموحى بالشمس وضحاها . . بالشمس عامة وحين تضحى وترتفع عن الأفق بصفة خاصة . وهى أروق ما تكون فى هذه الفترة وأحلى. فى الشتاء يكون وقت الدفء المستحب الناعش . وفى الصيف يكون وقت الإشراق الرائق قبل وقدة الظهيرة وقيظها . بالشمس فى الضحى فى أروق أوقاتها وأصفاها . وقد ورد أن المقصود بالضحى هو النهار كله ، ولكنا لانرى ضرورة للعدول عن المعنى القريب للضحى . وهو ذو دلالة خاصة كما رأينا .

وبالقمر إذا تلاها .. إذا تلا الشمس بنوره اللطيف الشفيف الرائق الصافى .. وبين القمر

Marfat.com

والقلب البشرى ود قديم موغل فى السرائر والأعماق ، غائر فى شعاب الضمير ، يترقرق ويستيقظ كلما التقى به القلب فى أية حال. وللقمر همسات وإيحاءات للقلب ، وسبحات وتسبيحات للخالق ، يكاد يسمعها القلب الشاعر فى نور القمر المنساب . . وإن القلب ليشعر أحيانا أنه يسبح فى فيض النور الغامر فى الليلة القمراء ، ويغسل أدرانه ، ويرتوى ، ويعانق هذا النور الحبيب ويستروح فيه روح الله .

ويقسم بالنهار إذا جلاها . . مما يوحى بأن المقصود بالضحى هو الفترة الخاصة لا كل النهار . والضمير فى « جلاها » . . الظاهر أن يعود إلى الشمس المذكوره فى السياق . . ولكن الايحاء القرآنى يشى بأنه ضمير هذه البسيطة . وللأسلوب القرآنى إيحاءات جانبية كهذه مضمرة فى السياق لأنها معهودة فى الحس البشرى ، يستدعيها التعبير استدعاء خفيا . فالنهار يجلى البسيطة ويكشفها . وللنهار فى حياة الإنسان آثاره التى يعلمها . وقد ينسى الإنسان بطول التكرار جمال النهار وأثره . فهذه اللمسة السريعة فى مثل هذا السياق توقظه وتبعثه للتأمل فى هذه الظاهرة الكبرى .

ومثله : « والليل إذا يغشاها » . . والتغشية هى مقابل التجلية . والليل غشاء يضم كل شىء ويخفيه . وهو مشهد له فى النفس وقع . وله فى حياة الإنسان أثر كالنهار سواء .

ثم يقسم بالسماء وبنائها : « والسماء وما بناها » . . « وما » هنا مصدرية . ولفظ السماء حين يذكر يسبق إلى الذهن هذا الذى نراه فوقنا كالقبة حيثما اتجهنا ، تتناثر فيه النجوم والكواكب السابحة فى أفلاكها ومداراتها . فأما حقيقة السماء فلا ندريها . وهذا الذى نراه فوقنا متماسكا لايختل ولا يضطرب تتحقق فيه صفة البناء بثباته وتماسكه . أما كيف هو مبنى ، وما الذى يمسك أجزاءه فلا تتناثر وهو سابح فى الفضاء الذى لانعرف له أولا ولا آخرا . . فذلك مالا ندريه . وكل ماقيل عنه مجرد نظريات قابلة للنقض والتعديل . ولا قرار لها ولا ثبات . . إنما نوقن من وراء كل شىء أن يد الله هى تمسك هذا البناء : « إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا . ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده » . . وهذا هو العلم المستيقن الوحيد !

كذلك يقسم بالأرض وطحوها : « والأرض وما طحاها » . . والطحو كالدحو : البسط والتمهيد للحياة . وهى حقيقة قائمة تتوقف على وجودها حياة الجنس البشرى وسائر الأجناس

Marfat.com

الحية . وهذه الخصائص والموافقات التى جعلتها يد الله فى هـذه الأرض هى التى سمحت بالحياة فيها وفق تقديره وتدبيره . وحسب الظاهر لنا أنه لو اختلت إحداها ماأمكن أن تنشأ الحياة ولا أن تسير فى هـذا الطريق الذى سارت فيه . . وطحو الأرض أو دحوها كما قال فى الآية الأخرى: «والأرض بعدذلك دحاها أخرج منهاماءهاومرعاها[1]».وهو أكبر هذه الخصائص والموافقات ويد الله وحدها هى التى تولت هذا الأمر . فحين يذكر هنا بطحو الأرض ، فإنما يذكر بهذه اليد التى وراءه . ويلمس القلب البشرى هذه اللمسة للتدبر والذكرى

* * *

ثم تجىء الحقيقة الكبرى عن النفس البشرية فى سياق هـذا القسم ، مرتبطة بالكون ومشاهده وظواهره. وهى إحدى الآيات الكبرى فى هذا الوجود المترابط المتناسق :

« ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » . .

وهذه الآيات الأربع ، بالإضافة إلى آية سورة البلد السابقة : « وهديناه النجدين » . . وآية سورة الإنسان : « إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا » . تمثل قاعدة النظرية النفسية للإسلام . . وهى مرتبطة ومكملة للآيات التى تشير إلى ازدواج طبيعة الإنسان، كقوله تعالى فى سورة « ص » : « إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » .. كما أنها مرتبطة ومكملة للآيات التى تقرر التبعة الفردية : كقوله تعالى فى سورة المدثر: « كل نفس بما كسبت رهينة » . . والآيات التى تقرر أن الله يرتب تصرفه بالإنسان على واقع هذا الإنسان ، كقوله تعالى فى سورة الرعد : « إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» .

ومن خلال هـذه الآيات وأمثالها تبرز لنا نظرة الإسلام إلى الإنسان بكل معالمها . .

إن هذا الكائن مخلوق مزدوج الطبيعة،مزدوج الاستعداد ، مزدوج الاتجاه ونعنى بكلمة مزدوج على وجه التحديد أنه بطبيعة تكوينه (من طين الأرض ومن نفخة الله فيه من روحه) مزود باستعدادات متساوية للخير والشر ، والهدى والضلال . فهو قادر على التمييز بين ماهو خير وماهو شر . كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى الخير وإلى الشر سواء . وأن هـذه القدرة

(١) سورة النازعات فى هذا الجزء ص ٢١، ٣١ .

Marfat.com

كامنة فى كيانه ، يعبر عنها القرآن بالإلهام تارة : « ونفس وماسواها ، فألهمها فجورها وتقواها » . ويعبر عنها بالهداية تارة : « فهديناه النجدين » . . فهى كامنة فى صميمه فى صورة استعداد . . والرسالات والتوجيهات والعوامل الخارجية إنما توقظ هـذه الاستعدادات وتشحذها وتوجهها هنا أوهناك . ولكنها لاتخلقها خلقا . لأنها مخلوقة فطرة ، وكائنة طبعا ، وكامنة إلهاما .

وهناك إلى جانب هذه الاستعدادات الفطرية الكامنة قوة واعية مدركة موجهة فى ذات الإنسان . هى التى تناط بها التبعة . فمن استخدم هذه القوة فى تزكية نفسه وتطهيرها وتنمية استعداد الخير فيها ، وتغليبه على استعداد الشر . . فقد أفلح . ومن أظلم هـذه القوة وخباها وأضعفها فقد خاب : « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » . .

وهنالك إذن تبعة مترتبة على منح الإنسان هـذه القوة الواعية القادرة على الاختيار والتوجيه . توجيه الاستعدادات الفطرية القابلة للنمو فى حقل الخير وفى حقل الشر سواء . فهى حرية تقابلها تبعة ، وقدرة يقابلها تكليف ، ومنحة يقابلها واجب . .

ورحمة من الله بالإنسان لم يدعه لاستعداد فطرته الإلهامى ، ولا للقوة الواعية المالكة للتصرف ، فأعانه بالرسالات التى تضع له الموازين الثابتة الدقيقة ، وتكشف له عن موحيات الإيمان ، ودلائل الهدى فى نفسه وفى الآفاق من حوله ، وتجلو عنه غواشى الهوى فيبصر الحق فى صورته الصحيحة . . وبذلك يتضح له الطريق وضوحا كاشفا لاغبش فيه ولاشبهة فتتصرف القوة الواعية حينئذ عن بصيرة وإدراك لحقيقة الاتجاه الذى تختاره وتسير فيه .

وهذه فى جملتها هى مشيئة الله بالإنسان . وكل مايتم فى دائرتها فهو محقق لمشيئة الله وقدره العام .

* * *

هذه النظرة المجملة إلى أقصى حد[1] تنبثق منها جملة حقائق ذات قيمة فى التوجيه التربوى : فهى أولا ترتفع بقيمة هذا الكائن الإنسانى ، حين تجعله أهلا لاحتمال تبعة اتجاهه ، وتمنحه حرية الاختيار (فى إطار المشيئة الإلهية التى شاءت له هـذه الحرية فيما يختار) فالحرية والتبعة يضعان هذا الكائن فى مكان كريم ، ويقرران له فى هـذا الوجود منزلة عالية تليق بالخليقة التى نفخ الله فيها من روحه وسواها بيده ، وفضلها على كثير من العالمين .

(١) يراجع بتوسع فى نظرية الإسلام النفسية كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » لمحمد قطب .

Marfat.com

وهى ثانيا تلقى على هـذا الـكائن تبعة مصيره ، وتجعل أمره بين يديه (فى إطار المشيئة الـكبرى كما أسلفنا) فتثير فى حسه كل مشاعر اليقظة والتحرج والتقوى . وهو يعلم أن قدر الله فيه يتحقق من خلال تصرفه هو بنفسه : « إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ماباأنفسهم » .. وهى تبعة ثقيلة لايغفل صاحبها ولا يغفو !

وهى ثالثا تشعر هذا الإنسان بالحاجة الداعة للرجوع إلى الموازين الإلهيـة الثابتة ، ليظل على يقين أن هواه لم يخدعه ، ولم يضلله ، كى لايقوده الهوى إلى المهلـكة ، ولا يحق عليـه قدر الله فيمن يجعل إلهه هواه . وبذلك يظل قريبا من الله ، يهتدى بهديه ، ويستضىء بالنور الذى أمده به فى متاهات الطريق !

ومن ثم فلا نهاية لما يملك هذا الإنسان أن يصل إليه من تزكية النفس وتطهيرها ، وهو يغتسل فى نور الله الفائض ، ويتطهر فى هـذا العباب الذى يتـدفق حوله من ينابيع الوجود . .

* * *

بعـد ذلك يعرض نموذجا من نماذج الخيبة التى ينتهى إليها من يدسى نفسه ، فيحجبها عن الهدى ويدنسها . ممثلا هذا النموذج فيما أصاب ثمود من غضب ونـكال وهلاك :

« كذبت ثمود بطغواها . إذ انبعث أشقاها . فقال لهم رسول الله : ناقة الله وسقياها . فـكذبوه فعقروها . فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها . ولا يخاف عقباها » . .

وقد وردت قصة ثمود ونبيها صالح ـ عليـه السلام ـ فى مواضع شتى من القرآن . وسبق الحديث عنها فى كل موضع . وأقربها ماجاء فى هـذا الجزء فى سورة « الفجر » فيرجع إلى تفصيلات القصة هناك .

فأما فى هذا الموضع فهو يذكر أن ثمود بسبب من طغيانها كذبت نبيها ، فـكان الطغيان وحده هو سبب التـكذيب . وتمثل هذا الطغيان فى انبعاث أشقاها . وهو الذى عقر الناقة. وهو أشدها شقاء وأكثرها نعاسة بما ارتـكب من الإثم . وقد حذرهم رسول الله قبل الإقدام على الفعلة فقال لهم . احذروا أن تمسوا ناقة الله أو أن تمسوا المـاء الذى جعل لها يوما ولهم

Marfat.com

يوما كما اشترط عليهم عند ما طلبوا منه آية فجعل الله هـذه الناقة آية ـ ولا بد أنه كان لها شأن خاص لا نخوض فى تفصيلاته ، لأن الله لم يقل لنا عنـه شيئا ـ فـكذبوا النـذير فعقروا الناقة . والذى عقرها هو هـذا الأشقى . ولـكنهم جميعا حملوا التبعة وعُـدوا أنهم عقروها ، لأنهم لم يضربوا على يده ، بل استحسنوا فعلته . وهذا مبدأ من مبادىء الإسلام الرئيسية فى التـكافل فى التبعة الاجتماعيـة فى الحياة الدنيا . لايتعارض مع التبعة الفردية فى الجزاء الأخروى حيث لاتزر وازرة وزرأخرى . على أنه من الوزر إهمال التناصح والتـكافل والحض على البر والأخذ على يد البغى والشر .

عندئذ تتحرك يد القـدرة لتبطش البطشة الـكبرى : « فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسوّاها » . .

والدمدمة الغضب وما يتبعه من تنـكيل . واللفظ ذاته . . « دمدم » يوحى بما وراءه ، ويصور معناه بجرسه ، ويكاد يرسم مشهدا مروعا مخيفا ! وقد سوى الله أرضهم عاليها بسافلها ، وهو المشهد الذى يرتسم بعد الدمار العنيف الشديد . .

« ولا يخاف عقباها » .. سبحانه وتعالى . . ومن ذا يخاف ؟ وماذا يخاف ؟ وأنى يخاف ؟ إنما يراد من هـذا التعبير لازمه المفهوم منه . فالذى لايخاف عاقبـة مايفعل ، يبلغ غاية البطش حين يبطش . وكذلك بطش الله كان : إن بطش ربك لشديد . فهو إيقاع يراد إيحاؤه وظله فى النفوس . .

* * *

وهكذا ترتبط حقيقة النفس البشرية بحقائق هذا الوجود الـكبيرة ، ومشاهده الثابتة ، كما ترتبط بهذه وتلك سنة الله فى أخذ المـكذبين والطغاة ، فى حدود التقدير الحـكيم الذى يجعل لـكل شىء أجلا ، ولـكل حادث موعدا ، ولـكل أمر غاية ، ولـكل قدر حـكمة ، وهو رب النفس والـكون والقدر جميعا . .

Marfat.com

سورة الليل مكية
وآياتها ٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ .

« إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ * وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ * فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ » ﴿٢١﴾

فى إطار من مشاهد الكون وطبيعة الإنسان تقرر السورة حقيقة العمل والجزاء . ولما كانت هذه الحقيقة منوعة المظاهر : « إن سعيكم لشتى . فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » .. وكانت العاقبة كذلك فى الآخرة مختلفة وفق العمل والوجهة : « فأنذرتكم نارا تلظى . لا يصلاها إلا الأشقى . الذى كذب وتولى . وسيجنبها الأتقى ، الذى يؤتى ماله يتزكى .. » .

لما كانت مظاهر هذه الحقيقة ذات لونين ، وذات اتجاهين . . كذلك كان الإطار المختار

Marfat.com

لها فى مطلع السورة ذا لونين فى السكون وفى النفس سواء : « والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى » .. « وماخلق الذكر والأنثى » . . وهذا من بدائع التناسق فى التعبير القرآنى [1]

* * *

« والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى . . وماخلق الذكر والأنثى » ...

يقسم الله ـ سبحانه ـ بهاتين الآيتين : الليل والنهار . مع صفة كل منهما الصورة للمشهد . « الليل إذا يغشى » .. « والنهار إذا تجلى » . . الليل حين يغشى البسيطة ، ويغمرها ويخفيها . والنهار حين يتجلى ويظهر ، فيظهر فى تجليه كل شىء ويسفر . وهما آنان متقابلان فى دورة الفلك ، ومتقابلان فى الصورة ، ومتقابلان فى الخصائص ، ومتقابلان فى الآثار . . كذلك يقسم بخلقه الأنواع جنسين متقابلين : « وما خلق الذكر والأنثى » . . تكملة لظواهر التقابل فى جو السورة وحقائقها جميعا .

والليل والنهار ظاهرتان شاملتان لهما دلالة توحيان بها إيحاء للقلب البشرى ؛ ولهما دلالة كذلك أخرى عند التدبر والتفكر فيهما وفيما وراءهما . والنفس تتأثر تأثرا تلقائيا بتقلب الليل والنهار . الليل إذا يغشى ويعم ، والنهار إذا تجلى وأسفر . ولهذا التقلب حديث وإيحاء .حديث عن هذا الكون المجهول الأسرار ، وعن هذه الظواهر التى لايملك البشر من أمرها شيئا . وإيحاء بما وراء هذا التقلب من قدرة تدير الآونة فى الكون كما تدار العجلة اليسيرة ! وبما هنالك من تغير وتحول لا يثبت أبدا على حال .

ودلالتهما عند التدبر والتفكر قاطعة فى أن هنالك يدا أخرى تدير هذا الفلك ، وتبدل الليل والنهار . بهذا الانتظام وهذا الاطراد وهـذه الدقة . وأن الذى يدير الفلك هكذا يدير حياة البشر أيضا . ولايتركهم سدى ، كما أنه لايخلقهم عبثا .

ومهما حاول المنكرون والمضلون أن يلغوا فى هذه الحقيقة ، وأن يحولوا الأنظار عنها ، فإن القلب البشرى سيظل موصولا بهذا الكون ، يتلقى إيقاعاته ، وينظر تقلباته ، ويدرك تلقائيا كما يدرك بعد التدبر والتفكر ، أن هنالك مدبرا لا محيد من الشعور به ، والاعتراف بوجوده من وراء اللغو والهذر ، ومن وراء الجحود والنكران !

وكذلك خلقة الذكر والأنثى . . إنها فى الإنسان والثدييات الحيوانية نطفة تستقر فى رحم . .

---

(١) يراجع بتوسع فصل : التناسق الفنى فى كتاب : التصوير الفنى فى القرآن .

Marfat.com

وخلية تتحد ببويضة . ففيم هذا الاختلاف فى نهاية المطاف؟ ماالذى يقول لهذه : كونى ذكرا ، ويقول لهذه : كونى أنثى ؟ . . إن كشف العوامل التى تجعل هذه النطفة تصبح ذكرا ، وهذه تصبح أنثى لايغير من واقع الأمر شيئا . . فإنه لماذا تتوفر هذه العوامل هنا وهذه العوامل هناك ؟ وكيف يتفق أن تكون صيرورة هذه ذكرا ، وصيرورة هذه أنثى هو الحدث الذى يتناسق مع خط سير الحياة كلها ، ويكفل امتدادها بالتناسل مرة أخرى ؟

مصادفة ؟ ! إن للمصادفة كذلك قانونا يستحيل معه أن تتوافر هذه الموافقات كلها من قبيل المصادفة . . فلايبقى إلا أن هنالك مدبرا يخلق الذكر والأنثى لحكمة مرسومة وغاية معلومة. فلا مجال للمصادفة ، ولامكان للتلقائية فى نظام هذا الوجود أصلا .

والذكر والأنثى شاملان بعد ذلك للأنواع كلها غير الثدييات. فهى مطردة فى سائر الأحياء ومنها النبات . . قاعدة واحدة فى الخلق لا تتخلف . لايتفرد ولايتوحد إلا الخالق سبحانه الذى ليس كمثله شىء . .

هذه بعض إيحاءات تلك المشاهد الكونية، وهذه الحقيقة الإنسانية التى يقسم الله ـ سبحانه ـ بها ، لعظيم دلالتها وعميق إيقاعها . والتى يجعلها السياق القرآنى إطارا لحقيقة العمل والجزاء فى الحياة الدنيا وفى الحياة الأخرى . .

* * *

يقسم الله بهذه الظواهر والحقائق المتقابلة فى الكون وفى الناس على أن سعى الناس مختلف وطرقهم مختلفة ، ومن ثم فجزاؤهم مختلف كذلك ؛ فليس الخير كالشر ، وليس الهدى كالضلال، وليس الصلاح كالفساد ، وليس من أعطى واتقى كمن بخل واستغنى ، وليس من صدق وآمن كمن كذب وتولى . وأن لكل طريقا ، ولكل مصيرا ، ولكل جزاء وفاقا :

« إن سعيكم لشتى . فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ، ومايغنى عنه ماله إذا تردى » . .

إن سعيكم لشتى . . مختلف فى حقيقته . مختلف فى بواعثه . مختلف فى اتجاهه . مختلف فى نتائجه . . والناس فى هذه الأرض تختلف طبائعهم ، وتختلف مشاربهم ، وتختلف تصوراتهم ، وتختلف اهتماماتهم ، حتى لكأن كل واحد منهم عالم خاص يعيش فى كوكب خاص .

هذه حقيقة . . ولكن هناك حقيقة أخرى . حقيقة إجمالية تضم أشتات البشر جميعا . وتضم

Marfat.com

هذه العوالم المتباينة كلها . تضمها فى حزمتين اثنتين . وفى صفين متقابلين. تحت رايتين عامتين: « من أعطى واتقى وصدق بالحسنى » . . و« من بخل واستغنى وكذب بالحسنى » . .

من أعطى نفسه وماله . واتقى غضب الله وعذابه . وصدق بهذه العقيدة التى إذا قيل « الحسنى » كانت اسما لها وعلما عليها .

ومن بخل بنفسه وماله . واستغنى عن الله وهداه . وكذب بهذه الحسنى . .

هذان هما الصفان اللذان يلتقى فيهما شتات النفوس ، وشتات السعى ، وشتات المناهج، وشتات الغايات . ولكل منهما فى هذه الحياة طريق . . ولكل منهما فى طريقه توفيق !

« فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى . . فسنيسره لليسرى » . .

والذى يعطى ويتقى ويصدق بالحسنى يكون قد بذل أقصى مافى وسعه ليزكى نفسه ويهديها . عندئذ يستحق عون الله وتوفيقه الذى أوجبه ـ سبحانه ـ على نفسه بإرادته ومشيئته . والذى بدونه لايكون شىء ، ولا يقدر الإنسان على شىء .

ومن يسره الله لليسرى فقد وصل . . وصل فى يسر وفى رفق وفى هوادة . . وصل وهو بعد فى هذه الأرض . وعاش فى يسر . يفيض اليسر من نفسه على كل ماحوله وعلى كل من حوله . اليسر فى خطوه . واليسر فى طريقه . واليسر فى تناوله للأمور كلها . والتوفيق الهادىء المطمئن فى كلياتها وجزئياتها . وهى درجة تتضمن كل شىء فى طياتها . حيث تسلك صاحبها مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى وعد ربه له : « ونيسرك لليسرى [1] » . .

« وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . . فسنيسره للعسرى . وما يغنى عنه ماله إذا تردى . » . .

والذى يبخل بنفسه وماله ، ويستغنى عن ربه وهداه ، ويكذب بدعوته ودينه . . يبلغ أقصى مايبلغه إنسان بنفسه من تعريضها للفساد . ويستحق أن يعسر الله عليه كل شىء ،فييسره للعسرى ! ويوفقه إلى كل وعورة ! ويحرمه كل تيسير ! ويجعل فى كل خطوة من خطاه مشقة وحرجا ، ينحرف به عن طريق الرشاد . ويصعد به فى طريق الشقاوة . وإن حسب أنه سائر فى طريق الفلاح . وإنما هو يعثر فيتقى العثار بعثرة أخرى تبعده عن طريق الله ، وتنأى به عن

(١) يراجع تفسير قوله تعالى : « ونيسرك لليسرى » فى سورة الأعلى ص ١٢٤

Marfat.com

رضاه . . فإذا تردى وسقط فى نهاية المثرات والانحرافات لم يغن عنه ماله الذى بخل به، والذى استغنى به كذلك عن الله وهداه . . « وما يغنى عنه ماله إذا تردى » . . والتيسير للشر والمعصية من التيسير للعسرى ، وإن أفلح صاحبها فى هذه الأرض ونجا . . وهل أعسر من جهنم ؟ وإنها لهى العسرى ! .

هكذا ينتهى المقطع الأول فى السورة . وقد تبين طريقان ونهجان للجموع البشرية فى كل زمان ومكان . وقد تبين أنهما حزبان ورايتان مهما تنوعت وتعددت الأشكال والألوان . وأن كل إنسان يفعل بنفسه ما يختار لها ! فييسر الله له طريقه : إما إلى اليسرى وإما إلى العسرى .

فأما المقطع الثانى فيتحدث عن مصير كل فريق . ويكشف عن نهاية المطاف لمن يسره لليسرى ، ومن يسره للعسرى . وقبل كل شىء يقرر أن مايلاقيه كل فريق من عاقبة ومن جزاء هو عدل وحق ، كما أنه واقع وحتم . فقد بين الله للناس الهدى ، وأنذرهم نارا تلظى :

« إن علينا للهدى وإن لنا للآخرة والأولى . فأنذرتكم نارا تلظى ، لايصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى . وسيجنبها الأتقى ، الذى يؤتى ماله يتزكى ، ومالأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى » ..

لقد كتب الله على نفسه ـ فضلا منه بعباده ورحمة ـ أن يبين الهدى لفطرة الناس ووعيهم . وأن يبينه لهم كذلك بالرسل والرسالات والآيات ، فلا تكون هناك حجة لأحد ، ولايكون هناك ظلم لأحد : « إن علينا للهدى » ..

واللمسة الثانية هى التقرير الجازم لحقيقة السيطرة التى تحيط بالناس ، فلايجدون من دونها موئلا : « وإن لنا للآخرة والأولى » . . فأين يذهب من يريد أن يذهب عن الله بعيدا ؟ !

وتقريرا على أن الله كتب على نفسه بيان الهدى للعباد ، وأن له الآخرة والأولى دارى الجزاء والعمل . تقريرا على هذا يذكرهم أنه أنذرهم وحذرهم وبين لهم : « فأنذرتكم نارا تلظى » . . وتتسعر . . هذه النار المتسعرة « لايصلاها إلا الأشقى » . . أشقى العباد جميعا . وهل بعد الصلى فى النار شقوة ؟ ثم يبين من هو الأشقى . إنه : « الذى كذب وتولى » . . كذب بالدعوة وتولى عنها . تولى عن الهدى وعن دعوة ربه له ليهديه كما وعد كل من يأتى إليه راغبا .

Marfat.com

« وسيجنبها الأتقى » . . وهو الأسعد فى مقابل الأشقى . . ثم يبين من هو الأتقى : « الذى يؤتى ماله يتزكى » . . الذى ينفق ماله ليتطهر بإنفاقه ، لاليرائى به ويستعلى . ينفقه تطوعا لاردا لجميل أحد ، ولاطلبا لشكران أحد ، وإنما ابتغاء وجه ربه خالصا .. ربه الأعلى ..

« ومالأحد عنده من نعمة تجزى . إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى » ..

ثم ماذا ؟ ماذا ينتظر هذا الأتقى ، الذى يؤتى ماله تطهرا ، وابتغاء وجه ربه الأعلى ؟ إن الجزاء الذى يطالع القرآن به الأرواح المؤمنة هنا عجيب . ومفاجئ . وعلى غير المألوف .

« ولسوف يرضى » .

إنه الرضى ينسكب فى قلب هـذا الأتقى . إنه الرضى يغمر روحه . إنه الرضى يفيض على جوارحه . إنه الرضى يشيع فى كيانه . إنه الرضى يندى حياته ..

وياله من جزاء ! ويالها من نعمة كبرى !

« ولسوف يرضى » . . يرضى بدينه . ويرضى بربه . ويرضى بقدره . ويرضى بنصيبه . ويرضى بمـا يجد من سراء وضراء . ومن غنى وفقر . ومن يسر وعسر . ومن رخاء وشدة . يرضى فلا يقلق ولايضيق ولا يستعجل ولايستثقل العبء ، ولايستبعد الغاية .. إن هـذا الرضى جزاء ـ جزاء أكبر من كل جزاء ـ جزاء يستحقه من يبذل له نفسه وماله ـ من يعطى ليتزكى . ومن يبذل ابتغاء وجه ربه الأعلى .

إنه جزاء لايمنحه إلا الله . وهو يسكبه فى القلوب التى تخلص له ، فلاترى سواه أحدا .

« ولسوف يرضى » ..

يرضى وقد بذل الثمن . وقد أعطى ماأعطى ..

إنها مفاجأة فى موضعها هـذا . ولكنها المفاجأة المرتقبة لمن يبلغ مابلغه الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى ، ومالأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ..

« ولسوف يرضى » ...

Marfat.com

سورة الضحى مكية
وآياتها ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ
مِنَ الْأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالًّا
فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا
بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » ۝١١

هـذه السورة بموضوعها ، وتعبيرها ، ومشاهدها ، وظلالها وإيقاعها ، لمسة من حنان . ونسمة من رحمة . وطائف من ود . ويد حانيـة تمسح على الآلام والمواجع ، وتنسم بالروح والرضى والأمل . وتسكب البرد والطمأنينة واليقين .

إنها كلها خالصة للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كلها نجاء له من ربه، وتسرية وتسلية وترويح وتطمين . كلها أنسام من الرحمة وأنداء من الود ، وألطاف من القـربى ، وهدهدة للروح المتعب ، والخاطر القلق ، والقلب الموجوع .

ورد في روايات كثيرة أن الوحي فتر عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبطأ عليه جبريل ـ عليـه السلام ـ فقال المشركون : ودع محمـدا ربه ! فأنزل الله تعالى هـذه السورة . .

والوحي ولقاء جبريل والاتصال بالله ، كانت هي زاد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في مشقة الطريق . وسقياه في هجير الجحود. وروحه في لأواء التكذيب. وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ

Marfat.com

يحيا بهـا فى هـذه الهاجرة المحرقة التى يعانيها فى النفوس النـافرة الشاردة العصية العنيدة . ويعانيها فى المـكر والـكيد والأذى المصبوب على الدعوة ، وعلى الإيمان ، وعلى الهدى من طغاة المشركين .

فلما فتر الوحى انقطع عنه الزاد ، وانحبس عنه الينبوع ، واستوحش قلبه من الحبيب . وبقى للهاجرة وحده . بلا زاد . وبلا رى . وبغير ما اعتاد من رائحة الحبيب الودود . . وهو أمر أشد من الاحتمال من جميع الوجوه . .

عندئذ نزلت هذه السورة . نزل هذا الفيض من الود والحب والرحمة والإيناس والقربى والأمل والرضى والطمأنينة واليقين . .

« ماودعك ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى » . .

وما تركك ربك من قبل أبدا ، وما قلاك من قبل قط ، وما أخلاك من رحمته ورعايتـه وإيوائه . .

« ألم يجدك يتيما فآوى ؟ ووجدك ضالا فهدى ؟ ووجدك عائلا فأغنى ؟ » . .

ألا تجد مصداق هذا فى حياتك ؟ ألا تحس مس هذا فى قلبك ؟ ألا ترى أثر هذا فى واقعك ؟ لا . لا . . «ماودعك ربك وماقلى» . . وما انقطع عنك بره وما ينقطع أبدا . . «وللآخرة خير لك من الأولى » . . وهناك ماهو أكثر وأوفى : « ولـوف يعطيك ربك فترضى » !

ومع هـذه الأنـام اللطيفة من حقيقة الأمر وروحه . . الأنسام اللطيفة فى العبـارة والإيقاع . . وفى الإطار الـكونى الذى وضعت فيه هذه الحقيقة :

« والضحى والليل إذا سجى » . .

« لقد أطلق التعبير جوا من الحنان اللطيف ، والرحمـة الوديعة ، والرضى الشامل ، والشجى الشفيف :

« ما ودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى . ولـوف يعطيك ربك فترضى » . . « ألم يجـدك يتيما فآوى ؟ ووجدك ضالا فهـدى ؟ ووجدك عائلا فأغنى ؟ » . . ذلك الحنان . وتلك الرحمـة . وذاك الرضى . وهـذا الشجى : تنسرب كلها من خلال النظم اللطيف العبارة ، الرقيق اللفظ ، ومن هـذه الموسيقى السارية فى التعبير . الموسيقى الرتيبـة

Marfat.com

الحركات ، الوئيدة الخطوات ، الرقيقة الأصداء ، الشجية الإيقاع . . فلما أراد إطارا لهذا الحنان اللطيف ، ولهذه الرحمة الوديعة ، ولهذا الرضى الشامل ، ولهذا الشجى الشفيف، جعل الإطار من الضحى الرائق ، ومن الليل الساجى . أصفى آنين من آونة الليل والنهار .وأشف آنين تسرى فيهما التأملات . وتتصل الروح بالوجود وخالق الوجود . وتحس بعبادة الكون كله لمبدعه ، وتوجهه لبارئه بالتسبيح والفرح والصفاء . وصوّرها فى اللفظ المناسب . فالليل هو « الليل إذا سجى» ، لا الليل على إطلاقه بوحشته وظلامه . الليل الساجى الذى يرق ويسكن ويصفو ، وتغشاه سحابة رقيقة من الشجى الشفيف ، والتأمل الوديع . كجو اليتم والعيلة . ثم ينكشف ويجلى مع الضحى الرائق الصافى . . فتلتئم ألوان الصورة مع ألوان الإطار . ويتم التناسق والاتساق »(١) .

إن هذا الإبداع فى كمال الجمال ليدل على الصنعة . صنعة الله التى لاتماثلها صنعة ، ولا يتلبس بها تقليد !

* * *

« والضحىٰ . والليل إذا سجى . ماودعك ربك . وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى » . .

يقسم الله سبحانه ـ بهذين الآنين الرائقين الموحيين . فيربط بين ظواهر الكون ومشاعر النفس . ويوحى إلى القلب البشرى بالحياة الشاعرة المتجاوبة مع هذا الوجود الجميل الحى ، المتعاطف مع كل حى . فيعيش ذلك القلب فى أنس من هذا الوجود ، غير موحش ولا غريب فيه فريد . . وفى هذه السورة بالذات يكون لهذا الأنس وقعه . فظل الأنس هو المراد مده . وكأنما يوحى الله لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منذ مطلع السورة ،أن ربه أفاض من حوله الأنس فى هذا الوجود، وأنه من ثم غير مجفوّ فيه ولا فريد !

وبعد هذا الإيحاء الكونى يجىء التوكيد المباشر : « ماودعك ربك وما قلى » .. ماتركك ربك ولا جفاك ـ كما زعم من يريدون إيذاء روحك وإيجاع قلبك وإقلاق خاطرك . . وهو « ربك » وأنت عبده المنسوب إليه ، المضاف إلى ربوبيته ، وهو راعيك وكافلك . .

---

(١) من كتاب التصوير الفنى فى القرآن ص ١٠٥ من الطبعة الرابعة .

Marfat.com

وما غاض معين فضله وفيض عطائه . فإن لك عنده فى الآخرة من الحسنى خيرا مما يعطيك منها فى الدنيا : « وللآخرة خير لك من الأولى » .. فهو الخير أولا وأخيرا ..

وإنه ليدخر لك مايرضيك من التوفيق فى دعوتك ، وإزاحة العقبات من طريقك ، وغلبة منهجك ، وظهور حقك . . وهى الأمور التى كانت تشغل باله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يواجه العناد والتكذيب والأذى والكيد . . والشماتة . . « ولسوف يعطيك ربك فترضى » . .

* * *

ويمضى سياق السورة يذكر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما كان من شأن ربه معه منذ أول الطريق . ليستحضر فى خاطره جميل صنع ربه به ، ومودته له ، وفيضه عليه ، ويستمتع باستعادة مواقع الرحمة والود والإيناس الإلهى . وهو متاع فائق تحييه الذكرى على هذا النحو البديع :

« ألم يجدك يتيما فآوى ؟ ووجدك ضالا فهدى ؟ ووجدك عائلا فأغنى ؟ » . .

انظر فى واقع حالك ، وماضى حياتك . . هل ودعك ربك وهل قلاك ـ حتى قبل أن يعهد إليك بهذا الأمر ؟ ـ ألم تحط بتمك رعايته ؟ ألم تدرك حيرتك هدايته ؟ ألم يغمر فقرك عطاؤه ؟

لقد ولدت يتيما فآواك إليه ، وعطف عليك القلوب حتى قلب عمك أبى طالب وهو على غير دينك !

ولقد كنت فقيرا فأغنى الله نفسك بالقناعة ، كما أغناك بكسبك ومال أهل بيتك (خديجة رضى الله عنها) عن أن تحس الفقر ، أو تتطلع إلى ماحولك من ثراء !

ثم لقد نشأت فى جاهلية مضطربة التصورات والعقائد ، منحرفة السلوك والأوضاع ، فلم تطمئن روحك إليها . ولكنك لم تكن تجد لك طريقا واضحا مطمئنا . لا فيما عند الجاهلية ولا فيما عند أتباع موسى وعيسى الذين حرفوا وبدلوا وانحرفوا وتاهوا . . ثم هداك الله بالأمر الذى أوحى به إليك،وبالمنهج الذى يصلك به .

والهداية من حيرة العقيدة وضلال الشعاب فيها هى المنة الكبرى ، التى لاتعدلها منة ؛ وهى الراحة والطمأنينة من القلق الذى لايعدله قلق ؛ ومن التعب الذى لايعدله تعب ، ولعلها

Marfat.com

كانت بسبب مما كان رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ يعانيه فى هـذه الفترة ، من انقطاع الوحى وشماتة المشركين ووحشة الحبيب من الحبيب . فجاءت هـذه تذكره وتطمئنه على أن ربه لن يتركه بلا وحى فى التيه وهو لم يتركه من قبل فى الحيرة والتيه !

* * *

وبمناسبة ماذكره ربه بإيوائه من اليتم ، وهدايته من الحيرة وإغنائه من العيلة . . يوجهه ويوجه المسلمين من ورائه إلى رعاية كل يتيم . وإلى كفاية كل سائل ، وإلى التحدث بنعمة الله الكبرى عليه ، وفى أولها : الهداية إلى هذا الدين :

« فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدث » . .

وهذه التوجيهات إلى إكرام اليتيم والنهى عن قهره وكسر خاطره وإذلاله ، وإلى إغناء السائل مع الرفق به والكرامة ، كانت ـ كما ذكرنا مرارا ـ من أهم إيحاءات الواقع فى البيئة الجاحدة المتكالبة ، التى لاترعى حق ضعيف ، غير قادر على حماية حقه بسيفه ! حيث رفع الإسلام هذه البيئة بشرعة الله إلى الحق والعدل ، والتحرج والتقوى ، والوقوف عند حدود الله ، الذى يحرس حدوده ويغار عليها ويغضب للاعتداء على حقوق عباده الضعاف الذين لايملكون قوة ولا سيفا يذودون به عن هذه الحقوق .

وأما التحدث بنعمة الله ـ وبخاصة نعمة الهدى والإيمان ـ فهو صورة من صور الشكر للمنعم . يكملها البر بعباده ، وهو المظهر العملى للشكر ، والحديث الصامت النافع الكريم . .

Marfat.com

سورة الشرح مكية
وآياتها ٨

بسم الله الرحمن الرحيم

« أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ؟ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ؟ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ؟ * فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ » ⑧

نزلت هذه السورة بعد سورة الضحى . وكأنها تكملة لها . فيها ظل العطف الندى . وفيها روح المناجاة الحبيب . وفيها استحضار مظاهر العناية. واستعراض مواقع الرعاية .وفيها البشرى باليسر والفرج. وفيها التوجيه إلى سر اليسر وحبل الاتصال الوثيق . .

* * *

« ألم نشرح لك صدرك ؟ ووضعنا عنك وزرك. الذى أنقض ظهرك ؟ ورفعنا لك ذكرك؟ »

وهى توحى بأن هناك ضائقة كانت فى روح الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأمر من أمور هذه الدعوة التى كلفها ، ومن العقبات الوعرة فى طريقها ؛ ومن الكيد والمكر المضروب حولها . . توحى بأن صدره ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان مثقلا بهموم هذه الدعوة الثقيلة ، وأنه كان يحس العبء فادحا على كاهله . وأنه كان فى حاجة إلى عون ومدد وزاد ورصيد . .

ثم كانت هذه المناجاة الحلوة ، وهذا الحديث الودود !

Marfat.com

« ألم نشرح لك صدرك ؟ » . . ألم نشرح صدرك لهـذه الدعوة ؟ ونيسر لك أمرها ؟ . ونجعلها حبيبة لقلبك ، ونشرع لك طريقها ؟ وننر لك الطريق حتى ترى نهايته السعيدة !

فتش فى صدرك ـ ألا تجد فيه الروْح والانشراح والإشراق والنور ؟ واستذ فى حسك مذاق هذا العطاء ، وقل : ألا تجد معه المتاع مع كل مشقة والراحة مع كل تعب ، واليسر مع كل عسر ، والرضى مع كل حرمان ؟

« ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك » .. ووضعنا عنك عبئك الذى أثقل ظهرك حتى كاد يحطمه من ثقله .. وضعناه عنك بشرح صدرك له فخف وهان . وبتوفيقك وتيسيرك للدعوة ومداخل القلوب . وبالوحى الذى يكشف لك عن الحقيقة ويعينك على التسلل بها إلى النفوس فى يسر وهوادة ولين .

ألا تجد ذلك فى العبء الذى أنقض ظهرك ؟ ألا تجد عبئك خفيفا بعد أن شرحنا لك صدرك ؟

« ورفعنا لك ذكرك » . . رفعناه فى الملإ الأعلى ، ورفعناه فى الأرض ، ورفعناه فى هـذا الوجود جميعا . . رفعناه فجعلنا اسمك مقرونا باسم الله كلما تحركت به الشفاه :

« لا إله إلا الله . محمد رسول الله » .. وليس بعد هذا رفع ، وليس وراء هذا منزلة . وهو المقام الذى تفرد به ـ صلى الله عليه وسلم ـ دون سائر العالمين ..

ورفعنا لك ذكرك فى اللوح المحفوظ ، حين قدر الله أن تمر القرون ، وتكر الأجيال ، وملايين الشفاه فى كل مكان تهتف بهـذا الاسم الكريم ، مع الصلاة والتسليم ، والحب العميق العظيم .

ورفعنا لك ذكرك . وقد ارتبط بهذا المنهج الإلهى الرفيع . وكان مجرد الاختيار لهـذا الأمر رفعة ذكر لم ينلها أحد من قبل ولا من بعد فى هذا الوجود ..

فأين تقع المشقة والتعب والعنى من هـذا العطاء الذى يمسح على كل مشقة وكل عناء ؟

* * *

ومع هـذا فإن الله يتلطف مع حبيبه المختار ، ويسرى عنه ، ويؤنسه ، ويطمئنه ويطلعه على اليسر الذى لا يفارقه :

« فإن مع العسر يسرا . إن مع العسر يسرا » ..

Marfat.com

إن العسر لايخلو من يسر يصاحبه ويلازمه . وقد لازمه معك فعلا . فحينما ثقل العبء شرحنا لك صدرك ، خفف حملك ، الذى أنقض ظهرك . وكان اليسر مصاحبا للعسر ، يرفع إصره ، ويضع ثقله .

وإنه لأمر مؤكد يكرره بألفاظه : « فإن مع العسر يسرا . إن مع العسر يسرا » . . وهذا التكرار يشى بأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان فى عسرة وضيق ومشقة، اقتضت هذه الملاحظة ، وهذا التذكير ، وهذا الاستحضار لمظاهر العناية ، وهـذا الاستعراض لمواقع الرعاية ، وهذا التوكيد بكل ضروب التوكيد . . والأمر الذى يثقل على نفس محمد هكذا لابد أنه كان أمرا عظيما . .

* * *

ثم يجىء التوجيه الكريم لمواقع التيسير ، وأسباب الانشراح ، ومستودع الرى والزاد فى الطريق الشاق الطويل :

« فإذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغب » . .

إن مع العسر يسرا . . خذ فى أسباب اليسر والتيسير . فإذا فرغت من شغلك مع الناس ومع الأرض ،ومع شواغل الحياة . .إذا فرغت من هذا كله فتوجه بقلبك كله إذن إلى مايستحق أن تنصب فيه وتكد وتجهد . . العبادة والتجرد والتطلع والتوجه . . « وإلى ربك فارغب » . . إلى ربك وحده خاليا من كل شىء حتى من أمر الناس الذين تشتغل بدعوتهم . . إنه لابد من الزاد للطريق . وهنا الزاد . ولابد من العدة للجهاد . وهنا العدة . . وهنا ستجد يسرا مع كل عسر ،وفرجا مع كل ضيق . . هذا هو الطريق !

* * *

وتنتهى هذه السورة كما انتهت سورة الضحى ، وقد تركت فى النفس شعورين ممتزجين: الشعور بعظمة الود الحبيب الجليل الذى ينسم على روح الرسول ـ صلى الله عليـه وسلم ـ من ربه الودود الرحيم .والشعور بالعطف على شخصه ـ صلى الله عليـه وسلم ـ ونحن نكاد نلمس ماكان يساور قلبه الكريم فى هذه الآونة التى اقتضت ذلك الود الجليل .

إنها الدعوة . هذه الأمانة الثقيلة وهذا العبء الذى ينقض الظهر . وهى مع هذا وهـذا مشرق النور الإلهى ومهبطه ، ووصلة الفناء بالبقاء ، والعدم بالوجود !

Marfat.com

سورة التين مكية
وآياتها ٨

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ⑦ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ⑧ »

الحقيقة الرئيسية التى تعرضها هذه السورة هى حقيقة الفطرة القويمة التى فطر الله الإنسان عليها ، واستقامة طبيعتها مع طبيعة الإيمان ، والوصول بها معه إلى كمالها المقدور لها . وهبوط الإنسان وسفوله حين ينحرف عن سواء الفطرة واستقامة الإيمان .

ويقسم الله ـ سبحانه ـ على هذه الحقيقة بالتين والزيتون ، وطور سينين ، وهـذا البلد الأمين ، وهذا القسم ـ على ماعهدنا فى كثير من سور هذا الجزء ـ هو الإطار الذى تعرض فيه تلك الحقيقة . وقد رأينا فى السور المماثلة أن الإطار يتناسق مع الحقيقة التى تعرض فيه تناسقا دقيقا .

وطور سينين هو الطور الذى نودى موسى ـ عليه السلام ـ من جانبه . والبلد الأمين هو مكة بيت الله الحرام . . وعلاقتهما بأمر الدين والإيمان واضحة .. فأما التين والزيتون فلا يتضح فيهما هذا الظل فيما يبدو لنا .

وقد كثرت الأقوال المأثورة فى التين والزيتون .. قيل : إن التين إشارة إلى طورتينا بجوار دمشق .

Marfat.com

وقيل : هو إشارة إلى شجرة التين التى راح آدم وزوجه يخصفان من ورقها على سوآتهما فى الجنة التى كانا فيها قبل هبوطهما إلى هذه الحياة الدنيا . وقيل : هو منبت التين فى الجبل الذى استوت عليه سفينة نوح ـ عليه السلام .

وقيل فى الزيتون : إنه إشارة إلى طور زيتا فى بيت المقدس . وقيل : هو إشارة إلى بيت المقدس نفسه .وقيل : هوإشارة إلى غصن الزيتون الذى عادت به الحمامة التى أطلقها نوح عليه السلام ـ من السفينة ـ لترتاد حالة الطوفان . فلما عادت ومعها هذا الغصن عرف أن الأرض انكشفت وأنبتت !

وقيل : بل التين والزيتون هما هذان الأكلان اللذان نعرفهما بحقيقتهما . وليس هناك رمز لشىء وراءهما . . أو أنهما هما رمز لمنبتهما من الأرض . . .

وشجرة الزيتون أشير إليها فى القرآن فى موضع آخر بجوار الطور : فقال : « وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين » .. كما ورد ذكر الزيتون : « وزيتو ونخلا » . . فأما « التين » فذكره يرد فى هذا الموضع لأول مرة وللمرة الوحيدة فى القرآن كله .

ومن ثم فإننا لانملك أن نجزم بشىء فى هذا الأمر . وكل مانملك أن نقوله ـ اعتمادا على نظائر هذا الإطار فى السور القرآنية ـ : إن الأقرب أن يكون ذكر التين والزيتون إشارة إلى أماكن أو ذكريات ذات علاقة بالدين والإيمان . أو ذات علاقة بنشأة الإنسان فى أحسن تقويم (وربما كان ذلك فى الجنة التى بدأ فيها حياته) . . كى تلتئم هذه الإشارة مع الحقيقة الرئيسية البارزة فى السورة ؛ ويتناسق الإطار مع الحقيقة الموضوعة فى داخله . على طريقة القرآن . . .

* * *

فأما الحقيقة الداخلية فى السورة فهى هذه : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون » . .

ومنها تبدو عناية الله بخلق هذا الإنسان ابتداء فى أحسن تقويم . والله ـ سبحانه ـ أحسن كل شىء خلقه . فتخصيص الإنسان هنا وفى مواضع قرآنية أخرى بحسن التركيب ، وحسن التقويم ، وحسن التعديل . .فيه فضل عناية بهذا المخلوق .

Marfat.com

وإن عناية الله بأمر هـذا المخلوق ـ على مابه من ضعف وعلى مايقع منه من انحـراف عن الفطرة وفساد ـ لتشير إلى أن له شأنا عند الله ، ووزنا فى نظام هذا الوجود . وتتجلى هـذه العناية فى خلقه وتركيبه على هذا النحو الفائق، سواء فى تـكوينه الجثمانى البالغ الدقة والتعقيد ، أم فى تـكوينه العقلى الفريد ، أم فى تـكوينه الروحى العجيب .

والتركيز فى هذا المقام على خصائصه الروحية . فهى التى تنتـكس إلى أسفل سافلين حين ينحرف عن الفطرة ويحيد عن الإيمان المستقيم معها . إذ أنه من الواضح أن خلقته البدنيـة لاتنتـكس إلى أسفل سافلين .

وفى هـذه الخصائص الروحيـة يتجلى تفوق التـكوين الإنسانى . فهو مهيأ لأن يبلغ من الرفعة مدى يفوق مقام الملائـكة المقربين . كما تشهد بذلك قصة المعراج .. حيث وقف جبريل ـ عليه السلام ـ عند مقام ، وارتفع محمد ابن عبد الله ـ الإنسان ـ إلى المقام الأسنى .

بينما هذا الإنسان مهيأ ـ حين ينتـكس ـ لأن يهوى إلى الدرك الذى لايبلغ إليـه مخلوق قط : « ثم رددناه أسفل سافلين » .. حيث تصبح البهائم أرفع منه وأقوم، لاستقامتها على فطرتها، وإلهامها تسبيح ربها، وأداء وظيفتها فى الأرض على هدى . بينما هو المخلوق فى أحسن تقويم ، يجحد ربه ، ويرتكس مع هواه ، إلى درك لا تملك البهيمة أن ترتـكس إليه .

« لقـد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » . . فطرة واستعدادا . . « ثم رددناه أسفل سافلين » . . حين ينحرف بهـذه الفطرة عن الخط الذى هداه الله إليـه ، وبينه له ، وتركه ليختار أحد النجدين .

« إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » . . فهؤلاء هم الذى يبقون على سواء الفطرة ، ويـكملونها بالإيمان والعمل الصالح ، ويرتقون بها إلى الـكمال المقدر لها ، حتى ينتهوا بها إلى حياة الـكمال فى دار الـكمال . « فلهم أجر غير ممنون » دائم غير مقطوع .

فأما الذين يرتـكسون بفطرتهم إلى أسفل سافلين ، فيظلون ينحدرون بها فى التحدر ، حتى تستقر فى الدرك الأسفل . هناك فى جهنم ، حيث تهدر آدميتهم ، ويتمحضون السفول !

فهـذه وتلك نهايتان طبيعيتان لنقطة البدء . . إما استقامة على الفطرة القويمة ، وتـكميل لها بالإيمان ، ورفع لها بالعمل الصالح . . فهى وائلة فى النهاية إلى كمالها المقدر فى حياة النعيم .

Marfat.com

وإما انحراف عن الفطرة القويمة ، واندفاع مع النكسة ، وانقطاع عن النفخة الإلهية . . فهى واصلة فى النهاية إلى دركها المقرر فى حياة الجحيم .

ومن ثم تتجلى قيمة الإيمان فى حياة الإنسان . . إنه المرتقى الذى تصل فيه الفطرة القويمة إلى غاية كمالها . إنه الحبل الممدود بين الفطرة وبارئها . إنه النور الذى يكشف لها مواقع خطاها فى المرتقى الصاعد إلى حياة الخالدين المكرمين .

وحين ينقطع هذا الحبل ، وحين ينطفىء هذا النور ، فالنتيجة الحتمية هى الارتكاس فى المنحدر الهابط إلى أسفل سافلين ، والانتهاء إلى إهدار الآدمية كلية ، حين يتمحض الطين فى الكائن البشرى ، فإذا هو وقود النار مع الحجارة سواء بسواء !

* * *

وفى ظل هذه الحقيقة ينادى « الإنسان » :

« فما يكذبك بعد بالدين ؟ أليس الله بأحكم الحاكمين ؟ » . .

فما يكذبك بالدين بعد هذه الحقيقة ؟ وبعد إدراك قيمة الإيمان فى حياة البشرية ؟ وبعد تبين مصير الذين لا يؤمنون ، ولا يهتدون بهذا النور ، ولا يمسكون بحبل الله المتين ؟

« أليس الله بأحكم الحاكمين؟ » .. أليس الله بأعدل العادلين حين يحكم فى أمر الخلق على هذا النحو ؟ أو . . أليست حكمة الله بالغة فى هذا الحكم على المؤمنين وغير المؤمنين ؟

والعدل واضح . والحكمة بارزة . . ومن ثم ورد فى الحديث المرفوع عن أبى هريرة : « فإذا قرأ أحدكم «والتين والزيتون» فأتى آخرها : « أليس الله بأحكم الحاكمين؟» .. فليقل.. بلى وأنا على ذلك من الشاهدين » . .

Marfat.com

سورة العلق مكية
وآياتها ١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ .

« كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ * إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ .

« أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ؟ * أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ؟ * أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ؟ * أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ؟

« كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ .

« كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب » ⑲

مطلع هـذه السورة هو أول ما نزل من القرآن باتفاق. والروايات التي تذكر نزول غيرها ابتداء ليست وثيقة. قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ابن الزهري، عن عروة، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : .

« أول ما بدئ به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حبب إليه الخلاء . وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود إلى ذلك .

Marfat.com

ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها . حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء . فجاءه الملك ، فقال : اقرأ . قال : ماأنا بقارىء ، قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد . ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ماأنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ،ثم أرسلنى فقال : اقرأ. فقلت: ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم قال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم » . . فرجع بهارسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ترجف بوادره ، حتى دخل على خديجة ، فقال « زملونى زملونى » فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال : ياخديجة مالى ؟ وأخبرها الخبر . وقال : « قد خشيت على نفسى » فقالت له : كلا . أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا . إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة ابن نوفل ابن أسد ابن عبد العزى ابن قصى ، وهو ابن عم خديجة أخى أبيها . وكان امرأ قد تنصر فى الجاهلية . كان يكتب الكتاب العربى ، وكتب العبرانية من الإنجيل ـ ماشاء الله أن يكتب ـ وكان شيخا كبيرا قد عمى . فقالت خديجة : أى ابن عم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال ورقة : ابن أخى ،ماترى ؟ فأخبره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما رأى . فقال ورقة : هـذا الناموس الذى أنزل على موسى . ليتنى فيها جذع ، ليتنى أكون حيا حين يخرجك قومك . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: « أومخرجىّ هم ؟ » فقال ورقة : نعم . لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عُودِىَ ، وإن أدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا . ثم لم ينشب ورقة أن توفى . . . الخ » . وهـذا الحديث مخرج فى الصحيحين من حديث الزهرى . .

وروى الطبرى ـ بإسناده ـ عن عبدالله ابن الزبير . قال :

« قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : فجاءنى ـ وأنا نائم ـ بنمط من ديباج فيه كتاب . فقال : اقرأ . فقلت : ما أقرأ . فغتنى حتى ظننت أنه الموت . ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ماذا أقرأ ؟ وماأقول ذلك إلا افتداء من أن يعود إلىّ بمثل ماصنع بى . قال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . . . إلى قوله : علم الانسان مالم يعلم » قال : فقرأته . ثم انتهى ، ثم انصرف عنى . وهببت من نومى ، وكأنما كتب فى قلبى كتابا . قال : ولم يكن من خلق الله أبغض على من شاعر أومجنون . كنت لاأطيق أن أنظر إليهما، قال : قلت : إن الأبعد ـ يعنى

Marfat.com

نفسه ـ لشاعر أو مجنون الا تحدث بها عنى قريش أبدا! لأعمدنّ إلى حالق من الجبل فلأطرحن نفسى منه فلأقتلنها فلأستريحن ! قال : فخرجت أريد ذلك . حتى إذا كنت فى وسط الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يامحمد . أنت رسول الله وأنا جبريل . قال فرفعت رأسى إلى السماء ، فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول : يامحمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال : فوقفت أنظر إليه ، وشغلنى ذلك عما أردت ، فما أتقدم وماأتأخر ، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء ، فلاأنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفا ماأتقدم أمامى ، ولاأرجع ورائى ، حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى ، حتى بلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى . ثم انصرف عنى وانصرفت راجعا إلى أهلى ... » ..

وقد رواه ابن إسحاق مطولا عن وهب ابن كيسان عن عبيد أيضا . .

* * *

وقفت هنا أمام هذا الحادث الذى طالما قرأناه فى كتب السيرة وفى كتب التفسير ،ثم مررنا به وتركناه ، أو تلبثنا عنده قليلا ثم جاوزناه !

إنه حادث ضخم. ضخم جدا . ضخم إلى غير حد . ومهما حاولنا اليوم أن نحيط بضخامته، فإن جوانب كثيرة منه ستظل خارج تصورنا !

إنه حادث ضخم بحقيقته . وضخم بدلالته . وضخم بآثاره فى حياة البشرية جميعا . . وهذه اللحظة التى تم فيها هـذا الحادث تعد ـ بغير مبالغة ـ هى أعظم لحظة مرت بهـذه الأرض فى تاريخها الطويل .

ماحقيقة هذا الحادث الذى تم فى هذه اللحظه ؟

حقيقته أن الله جل جلاله ، العظيم الجبار القهار المتكبر ، مالك الملك كله ، قد تكرم ـ فى علياته ـ فالتفت إلى هذه الخليقة المسماة بالإنسان ، القابعة فى ركن من أركان الكون لايكاد يرى اسمه الأرض . وكرم هـذه الخليقة باختيار واحـد منها ليكون ملتقى نوره الإلهى ، ومستودع حكمته ، ومهبط كلماته ، وممثل قدره الذى يريده ـ سبحانه ـ بهذه الخليقة .

وهـذه حقيقة كبيرة . كبيرة إلى غير حد . تتكشف جوانب من عظمتها حين يتصور الإنسان ـ قدر طاقته ـ حقيقة الألوهية المطلقة الأزلية الباقية .ويتصور فى ظلها حقيقة العبودية

Marfat.com

المحدودة الحادثة الفانية . ثم يستشعر وقع هذه العناية الربانية بهذا المخلوق الإنسانى ؛ ويتذوق حلاوة هذا الشعور ؛ ويتلقاه بالخشوع والشكر والفرح والابتهال . . وهو يتصور كلمات الله ، تتجاوب بها جنبات الوجود كله ، منزّلة لهـذا الإنسان فى ذلك الركن المنزوى من أركان الوجود الضئيلة !

وما دلالة هذا الحادث ؟

دلالته ـ فى جانب الله سبحانه ـ أنه ذو الفضل الواسع ، والرحمة السابغة ، الكريم الودود المنان . يفيض من عطائه ورحمته بلا سبب ولا علة ، سوى أن الفيض والعطاء بعض صفاته الذاتية الكريمة .

ودلالته ـ فى جانب الإنسان ـ أن الله ـ سبحانه ـ قد أكرمه كرامة لا يكاد يتصورها ، ولايملك أن يشكرها . وأن هذه وحدها لاينهض لها شكره ولوقضى عمره راكعا ساجدا . . هذه . . أن يذكره الله ، ويلتفت إليه ، ويصله به ، ويختار من جنسه رسولا يوحى إليه بكلماته . وأن تصبح الأرض . . مسكنه .. مهبطا لهـذه الكلمات التى تتجاوب بها جنبات الوجود فى خشوع وابتهال .

فأما آثار هذا الحادث الهائل فى حياة البشرية كلها فقد بدأت منذ اللحظة الأولى . بدأت فى تحويل خط التاريخ ، منذ أن بدأت فى تحويل خط الضمير الإنسانى . .منذأن تحددت الجهة التى يتطلع إليها الإنسان ويتلقى عنها تصوراته وقيمه وموازينه . . إنها ليست الأرض وليس الهوى .. إنما هى السماء والوحى الإلهى .

ومنذ هذه اللحظة عاش أهل الأرض الذين استقرت فى أرواحهم هذه الحقيقة .. فى كنف الله ورعايته المباشرة الظاهرة . عاشوا يتطلعون إلى الله مباشرة فى كل أمرهم . كبيره وصغيره . يحسون ويتحركون تحت عين الله . ويتوقعون أن تمتد يده ـ سبحانه ـ فتنقل خطاهم فى الطريق خطوة خطوة . تردهم عن الخطأ وتقودهم إلى الصواب . . وفى كل ليلة كانوا يبيتون فى ارتقاب أن يتنزل عليهم من الله وحى يحدثهم بما فى نفوسهم ، ويفصل فى مشكلاتهم ، ويقول لهم : خذوا هذا ودعوا ذاك !

ولقد كانت فترة عجيبة حقا . فترة الثلاثة والعشرين عاما التالية ، التى استمرت فيها هـذه الصلة الظاهرة المباشرة بين البشر والملإ الأعلى . فترة لايتصور حقيقتها إلا الذين عاشوها .

Marfat.com

وأحسوها . وشهدوا بدأها ونهايتها . وذاقوا حلاوة هذا الاتصال . وأحسوا يد الله تنقل خطاهم في الطريق. ورأوا من أين بدأوا وإلى أين انتهوا .. وهي مسافة هائلة لا تقاس بأي مقياس من مقاييس الأرض . مسافة في الضمير لا تعدلها مسافة في الكون الظاهر ، ولا يماثلها بعد بين الأجرام والعوالم ! المسافة بين التلقي من الأرض والتلقي من السماء . بين الاستمداد من الهوى والاستمداد من الوحي . بين الجاهلية والإسلام . بين البشرية والربانية، وهي أبعد مما بين الأرض والسماء في عالم الأجرام !

وكانوا يعرفون مذاقها . ويدركون حلاوتها . ويشعرون بقيمتها، ويحسون وقع فقدانها حينما انتقل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الرفيق الأعلى، وانقطعت هذه الفترة العجيبة التي لا يكاد العقل يتصورها لولا أنها وقعت حقا .

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال : قال أبو بكر لعمر ـ رضي الله عنهما ـ بعد وفاة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ انطلق بنا إلى أم أيمن ـ رضي الله عنها ـ نزورها كما كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يزورها . فلما أتيا إليها بكت . فقالا لها : ما يبكيك ؟ أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ قالت : بلى ، إني لأعلم أن ما عند الله خير لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء . فهيجتهما على البكاء ، فجعلا يبكيان معها . . . . . (أخرجه مسلم) . . .

ولقد ظلت آثار هذه الفترة تعمل في حياة البشر منذ تلك اللحظة إلى هذه اللحظة ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

لقد ولد الانسان من جديد باستمداد قيمه من السماء لا من الأرض ، واستمداد شريعته من الوحي لا من الهوى (١) .

لقد تحول خط التاريخ كما لم يتحول من قبل قط ، وكما لم يتحول من بعد أيضا. وكان هذا الحدث هو مفرق الطريق. وقامت المعالم في الأرض واضحة عالية لا يطمسها الزمان، ولا تطمسها الأحداث . وقام في الضمير الإنساني تصور للوجود وللحياة وللقيم لم يسبق أن اتضح بمثل هذه الصورة ،ولم يجيء بعده تصور في مثل شموله ونصاعته وطلاقته من اعتبارات الأرض جميعا ، مع

(١) يراجع تفسير سورة «عبس وتولى» ص٣٧ من هذا الجزء .

Marfat.com

واقعيته وملاءمته للحياة الإنسانية . ولقد استقرت قواعد هذا المنهج الإلهى فى الأرض! وتبينت خطوطه ومعالمه . « ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حىّ عن بينة » .. لاغموض ولا إبهام . إنما هو الضلال عن علم ، والانحراف عن عمد ، والالتواء عن قصد !

إنه الحادث الفذ فى تلك اللحظة الفريدة . الحادث الكونى الذى ابتدأ به عهد فى هذه الأرض وانتهى عهد . والذى كان فرقانا فى تاريخ البشر لافى تاريخ أمة ولا جيل . والذى سجلته جنبات الوجود كله وهى تتجاوب به ، وسجله الضمير الإنسانى . وبقى أن يتلفت هذا الضمير اليوم على تلك الذكرى العظيمة ولا ينساها . وأن يذكر دائما أنه ميلاد جديد للإنسانية لم يشهده إلا مرة واحدة فى الزمان . . .

* * *

ذلك شأن المقطع الأول من السورة . فأما بقيتها فواضح أنها نزلت فيما بعد . فهى تشير إلى مواقف وحوادث فى السيرة لم تجىء إلا متأخرة ، بعد تكليف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إبلاغ الدعوة ، والجهر بالعبادة ، وقيام المشركين بالمعارضة . وذلك مايشير إليه قوله تعالى فى السورة : « أرأيت الذى ينهى عبدا إذا صلى ؟ » . . . الخ

ولكن هناك تناسقا كاملا بين أجزاء السورة ، وتسلسلا فى ترتيب الحقائق التى تضمنتها بعد هذا المطلع المتقدم . يجعل من السورة كلها وحدة منسقة متماسكة . .

« اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم » .. .

إنها السورة الأولى من هذا القرآن ، فهى تبدأ باسم الله . وتوجه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أول ماتوجه ، فى أول لحظة من لحظات اتصاله بالملأ الأعلى ، وفى أول خطوة من خطواته فى طريق الدعوة التى اختير لها . . توجهه إلى أن يقرأ باسم الله : « اقرأ باسم ربك » . .

وتبدأ من صفات الرب بالصفة التى بها الخلق والبدء : « الذى خلق » . .

ثم تخصص : خلق الإنسان ومبدأه : « خلق الإنسان من علق » . . من تلك النقطة الدموية الجامدة العالقة بالرحم . من ذلك المنشأ الصغير الساذج التكوين . فتدل على كرم

Marfat.com

الخالق فوق ماتدل على قـدرته . فمن كرمه رفع هـذا العلق إلى درجة الإنسان الذى يُعلم فيتعلم : « اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم » . .

وإنها لنقلة بعيدة جدا بين المنشأ والمصير . ولـكن الله قادر . ولـكن الله كريم . ومن ثم كانت هذه النقلة التى تدير الرؤوس !

وإلى جانب هذه الحقيقة تبرز حقيقة التعليم . . تعليم الرب للإنسان « بالقلم » . . . لأن القلم كان وما يزال أوسع وأعمق أدوات التعليم أثرا فى حياة الإنسان .. ولم تـكن هذه الحقيقة إذ ذاك بهذا الوضوح الذى نلمسه الآن ونعرفه فى حياة البشرية . ولـكن الله ـ سبحانه ـ كان يعلم قيمة القلم ، فيشير إليه هذه الإشارة فى أول لحظة من لحظات الرسالة الأخيرة للبشرية . فى أول سورة من سور القرآن الـكريم . . هـذا مع أن الرسول الذى جاء بها لم يـكن كاتبا بالقلم ، وما كان ليبرز هذه الحقيقة منذ اللحظة الأولى لو كان هو الذى يقول هـذا القرآن . لولا أنه الوحى ، ولولا أنها الرسالة !

ثم تبرز مصدر التعليم . . إن مصدره هو الله . منه يستمد الإنسان كل ماعلم ، وكل مايعلم. وكل مايفتح له من أسرار هذا الوجود ، ومن أسرار هذه الحياة ، ومن أسرار نفسه . فهو من هناك . من ذلك المصدر الواحد ، الذى ليس هناك سواه .

وبهـذا المقطع الواحد الذى نزل فى اللحظة الأولى من اتصال الرسول ـ صلى الله عليـه وسلم ـ بالملأ الأعلى ، بهذا المقطع وضعت قاعدة التصور الإيمانى العريضة ..

كل أمر . كل حركة . كل خطوة . كل عمل . باسم الله . وعلى اسم الله . باسم الله تبدأ . وباسم الله تسير . وإلى الله تتجه ، وإليه تصير .

والله هو الذى خلق . وهو الذى علم . فمنـه البدء والنشأة ، ومنـه التعليم والمعـرفة . . والإنسان يتعلم مايتعلم ، ويعلم مايعلم . . فمصدر هـذا كله هو الله الذى خلق والذى علم . . « علم الإنسان مالم يعلم » . . .

وهـذه الحقيقة القرآنية الأولى ، التى تلقاها قلب رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ فى اللحظة الأولى هى التى ظلت تصرف شعوره ، وتصرف لسانه ، وتصرف عمله واتجـاهه ، بعد ذلك طوال حياته . بوصفها قاعدة الإيمان الأولى .

Marfat.com

قال الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن قيم الجوزية فى كتابه : « زاد المعاد فى هدى خير العباد » يلخص هدى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى ذكر الله : .

« كان النبي صلى الله عليه وسلم أكمل الخلق ذكرا لله عز وجل . بل كان كلامه كله فى ذكر الله وماوالاه . وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة ذكراً منه لله، وإخباره عن أسماء الرب وصفاته وأحكامه وأفعاله ووعده ووعيده ذكرا منه له ، وثناؤه عليه بآلائه وتمجيده وتحميده وتسبيحه ذكرا منه له ، وسؤاله ودعاؤه إياه ورغبته ورهبته ذكرا منه له . وسكوته وصمته ذكرا منه له بقلبه . فكان ذاكرا لله فى كل أحيانه وعلى جميع أحواله . وكان ذكره لله يجرى مع أنفاسه قائما وقاعداً وعلى جنبه ، وفى مشيته وركوبه ، وسيره ونزوله ، وظعنه وإقامته .

« وكان إذا استيقظ قال : الحمد لله الذى أحيانا بعد ماأماتنا وإليه النشور . وقالت عائشة كان إذا هب من الليل كبر عشرا ،وهلل عشراً ، ثم قال : اللهم إنى أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة عشراً ، ثم يستفتح الصلاة . وقالت أيضا : كان إذا استيقظ من الليل قال : لاإله إلا أنت سبحانك . اللهم أستغفرك لذنبي وأسألك رحمتك . اللهم زدنى علماً ، ولاتزغ قلبي بعد إذ هديتنى وهب لى من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب « ذكرها أبو داود » . وأخبر أن من استيقظ من الليل فقال : « لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر ولاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ثم قال : اللهم اغفرلى ، أودعاء آخر استجيب له . فإن توضأ وصلى قبلت صلاته « ذكره البخارى » .

وقال ابن عباس عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة مبيته عنده : إنه لما استيقظ رفع رأسه للسماء ، وقال العشر الآيات الخواتيم من سورة آل عمران . . « إن فى خلق السماوات والأرض ... الخ » ثم قال . . « اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن . ولك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن . ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤك حق، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، والساعة حق . اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت . أنت إلهى لاإله إلا أنت، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم .

Marfat.com

« وقد قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ كان إذا قام من الليل قال : اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » . وربما قالت : كان يفتتح صلاته بذلك .

« وكان إذا أوتر ختم وتره بعد فراغه بقوله : سبحان الله القدوس (ثلاثا) ويمد بالثالثة صوته .

« وكان إذا خرج من بيته يقول : بسم الله توكلت على الله ، اللهم إنى أعوذ بك أن أضل أو أضل ، أو أزل ، أو أظلم أو أظلم ، أو أجهل ، أو يُجهل على (حديث صحيح) .

« وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قال إذا خرج من بيته بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله يقال له : هديت وكفيت ووقيت وتنحى عنه الشيطان » (حديث حسن) .

« وقال ابن عباس عنه ـ ليلة مبيته عنده ـ : إنه خرج إلى صلاة الفجر وهو يقول : اللهم اجعل فى قلبى نورا ، واجعل فى لسانى نورا ، واجعل فى سمعى نورا ، واجعل فى بصرى نورا ، واجعل من خلفى نورا ، ومن أمامى نورا ، واجعل من فوقى نورا ، واجعل من تحتى نورا . اللهم أعظم لى نورا » .

« وقال فضل ابن مرزوق عن عطية العوفى ، عن أبى سعيد الخدرى : قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ماخرج رجل من بيته إلى الصلاة فقال : اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك ، وبحق ممشاى إليك ، فإنى لم أخرج بطرا ولا أشرا ولا رياء ولا سمعة ، وإنما خرجت اتقاء سخطك ، وابتغاء مرضاتك ، أسألك أن تنقذنى من النار وأن تغفر لى ذنوبى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . إلا وكل الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له ، وأقبل الله عليه بوجهه حتى يقضى صلاته » .

وذكر أبو داود عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه كان إذا دخل المسجد قال أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم ، وسلطانه القديم ، من الشيطان الرجيم . فإذا قال ذلك قال الشيطان : حفظ منى سائر اليوم » .

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إذا دخل أحدكم المسجد فليصل وليسلم على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وليقل : اللهم افتح لى أبواب رحمتك ، فإذا خرج فليقل : اللهم إنى أسألك من فضلك » . وذكر عنه أنه كان إذا دخل المسجد صلى على محمد وآله وسلم ، ثم يقول : اللهم اغفر لى ذنوبى ، وافتح لى أبواب رحمتك . فإذا خرج صلى على محمد وآله وسلم ، ثم يقول : اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى باب فضلك » .

Marfat.com

« وكان إذا صلى الصبح جلس فى مصلاه حتى تطلع الشمس يذكر الله عز وجل . وكان يقول إذا أصبح : اللهم بك أصبحنا ،وبك أمسينا ، وبك نحيا ، وبك نموت ، وإليك النشور. (حديث صحيح) . وكان يقول : « أصبحنا وأصبح الملك لله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . رب أسالك خير مافى هذا اليوم وخير مابعده ، وأعوذ بك من شر هذا اليوم، وشر مابعده ؛ رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر ، رب أعوذ بك من عذاب فى النار وعذاب فى القبر . وإذا أمسى قال : أمسينا وأمسى الملك لله . . الخ (ذكره مسلم) .

« وقال له أبو بكر الصديق رضى الله عنه ـ مرنى بكلمات أقولهن إذا أصبحت وإذا أمسيت . قال : قل : اللهم فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، رب كل شىء مليكه ومالكه . أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه ، وأن أقترف على نفسى سوءاً أو أجره إلى مسلم . قال : قلها إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك » (حديث صحيح) . « ثم ذكر أحاديث كثيرة فى هذا الباب » .

. . . . « وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا استجد ثوبا سماه باسمه عمامة أو قميصا أو رداء . ثم يقول : « اللهم لك الحمد ، أنت كسوتنيه ، أسألك خيره وخير ماصنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ماصنع له . (حديث صحيح) .

« ويذكر عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه كان يقول إذا انقلب إلى بيته : « الحمد لله الذى كفانى وآوانى ، والحمد لله الذى أطعمنى وسقانى ، والحمد لله الذى مَنَّ على . أسألك أن تجيرنى من النار » .

« وثبت عنه فى الصحيحين أنه كان يقول عند دخوله الخلاء : اللهم إنى أعوذ بك من الخبث والخبائث » .

« وكان إذاخرج من الخلاء قال : « غفرانك » ويذكر عنه أنه كان يقول: الحمد لله الذى أذهب عنى الأذى وعافانى (ذكره ابن ماجه) .

« وثبت عنه أنه وضع يده فى الإناء الذى فيه الماء ، ثم قال للصحابة : توضأوا باسم الله .

« ويذكر عنه أنه كان يقول « عند رؤية الهلال » : « اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان ، والسلامة والإسلام ، ربى وربك الله (قال الترمذى حديث حسن) .

« وكان إذا وضع يده فى الطعام قال : باسم الله . ويأمر الآكل بالتسمية ويقول : إذا

Marfat.com

أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى ، فإن نسى أن يذكر اسم الله فى أوله فليقل : باسم الله فى أوله وآخره » (حديث صحيح) .

وهكذا كانت حياته كلها ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدقائقها متأثرة بهذا التوجيه الإلهى الذى تلقاه فى اللحظة الأولى . وقام به تصوره الإيمانى على قاعدته الأصيلة العريقة . .

* * *

ولقد كان من مقتضيات تلك الحقيقة : حقيقة أن الله هو الذى خلق . وهو الذى علم . وهو الذى أكرم . أن يعرف الإنسان . ويشكر . ولكن الذى حدث كان غير هذا ، وهذا الانحراف هو الذى يتحدث عنه المقطع الثانى للسورة :

« كلا ! إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى . إن إلى ربك الرجعى » ..

إن الذى أعطاه فأغناه هو الله . كما أنه هو الذى خلقه وأكرمه وعلمه . ولكن الإنسان فى عمومه ـ لا يستثنى إلا من يعصمه إيمانه ـ لا يشكر حين يُعطى فيستغنى ؛ ولا يعرف مصدر النعمة التى أغنته ، وهو المصدر الذى أعطاه خلقه وأعطاه علمه . . ثم أعطاه رزقه .. ثم هو يطغى ويفجر ، ويبغى ويتكبر ، من حيث كان ينبغى أن يعرف ثم يشكر .

وحين تبرز صورة الإنسان الطاغى الذى نسى نشأته وأبطره الغنى ، يجىء التعقيب بالتهديد اللفوف : « إن إلى ربك الرجعى » فأين يذهب هذا الذى طغى واستغنى ؟

وفى الوقت ذاته تبرز قاعدة أخرى من قواعد التصور الإيمانى . قاعدة الرجعة إلى الله ـ الرجعة إليه فى كل شىء وفى كل أمر ، وفى كل نية ، وفى كل حركة ، فليس هناك مرجع سواه . إليه يرجع الصالح والطالح . والطائع والعاصى . والمحق والمبطل . والخير والشرير . والغنى والفقير .. وإليه يرجع هذا الذى يطغى أن رآه استغنى . ألا إلى الله تصير الأمور .. ومنه النشأة وإليه المصير .

وهكذا تجتمع فى المقطعين أطراف التصور الإيمانى .. الخلق والنشأة . والتكريم والتعليم .. ثم .. الرجعة والمآب لله وحده بلا شريك : « إن إلى ربك الرجعى » ..

* * *

ثم يمضى المقطع الثالث فى السورة القصيرة يعرض صورة من صور الطغيان : صورة مستنكرة يعجب منها ، ويفظع وقوعها فى أسلوب قرآنى فريد .

Marfat.com

« أرأيت الذى ينهى عبدا إذا صلى ؟ أرأيت إن كان على الهدى أوأمر بالتقوى ؟ أرأيت إن كذب وتولى ؟ ألم يعلم بأن الله يرى ؟ » .

والتشنيع والتعجيب واضح فى طريقة التعبير ، التى تتعذر مجاراتها فى لغة الكتابة . ولا تؤدّى إلا فى أسلوب الخطاب الحى . الذى يعبر باللمسات المتقطعة فى خفة وسرعة !

« أرأيت » ؟ أرأيت هـذا الأمر المستنكر ؟ أرأيته يقع ؟ «أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى ؟ » .

أرأيت حين تضم شناعة إلى شناعة ؟ وتضاف بشاعة إلى بشاعة ؟ أرأيت إن كان هـذا الذى يصلى ويتعرض له من ينهاه عن صلاته . . إن كان على الهدى أوأمر بالتقوى ؟ ثم ينهاه من ينهاه . مع أنه على الهدى ، آمر بالتقوى ؟ .

أرأيت إن أضاف إلى الفعلة المستنكرة فعلة أخرى أشد نكرا؟ «أرأيت إن كذب وتولى ؟» .

هنا يجىء التهديد الملفوف كما جاء فى نهاية المقطع الماضى : « ألم يعلم بأن الله يرى ؟ » يرى تكذيبه وتوليه . ويرى نهيه للعبد المؤمن إذا صلى ، وهو على الهدى ، آمر بالتقوى . يرى . وللرؤية مابعدها ! « ألم يعلم بأن الله يرى ! » .

* * *

وأمام مشهد الطغيان الذى يقف فى وجه الدعوة وفى وجه الإيمان، وفى وجه الطاعة ،يجىء التهديد الحاسم الرادع الأخير ، مكشوفا فى هـذه المرة لاملفوفا : « كلا . لئن لم ينته لنسفعن بالناصية . ناصية كاذبة خاطئة . فليدع ناديه . سندع الزبانية » .

إنه تهديد فى إبانه . فى اللفظ الشديد العنيف : « كلا . لئن لم ينته لنسفعن بالناصية » .

هـكذا « لنسفعن » بهذا اللفظ الشديد المصور بجرسه لمعناه . والسفع : الأخذ بعنف . والناصية : الجبهة . أعلى مكان يرفعه الطاغية المتكبر . مقدم الرأس المتشامخ : إنها ناصية تستحق السفع والصرع : « ناصية كاذبة خاطئة » ! وإنها للحظة سفع وصرع . فقد يخطر له أن يدعو من يعتز بهم من أهله وعصبه : « فليدع ناديه » أما نحن فإننا « سندع الزبانية » الشداد الغلاظ . . والمعركة إذن معروفة المصير !

وفى ضوء هذا المصير المتخيل الرغيب . . تختم السورة بتوجيه المؤمن الطائع إلى الإصرار والثبات على إيمانه وطاعته . .

Marfat.com

« كلا . لاتطعه ، واسجد ، واقترب . »

كلا ! لاتطع هـذا الطاغى الذى ينهى عن الصلاة والدعوة . واسجد لربك واقترب منـه بالطاعة والعبادة . ودع هذا الطاغى الناهى دعه للزبانية !

ولقد وردت بعض الروايات الصحيحة بأن السورة ـ عدا المقطع الأول منها ـ قد نزلت فى أبى جهل إذ مر برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يصلى عند المقام . فقال (ياعمد . ألم أنهك عن هذا ؟ وتوعده . فأغلظ له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وانتهره . .) ولعلها هى التى أخذ فيها رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ بخناقه وقال له : « أولى لك ثم أولى » فقال : ياعمد بأى شىء تهددنى ؟ أما والله إنى لأكثر هذا الوادى ناديا ، فأنزل الله : « فليدع ناديه . . . » وقال ابن عباس لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته . ولـكن دلالة السورة عامة فى كل مؤمن طائع عابد داع إلى الله . وكل طاغ باغ ينهى عن الصلاة ، ويتوعد على الطاعة ، ويختـال بالقوة . . والتوجيـه الربانى الأخـير : « كلا ! لاتطعه واسجد واقترب » . .

* * *

وهـكذا تتناسق مقاطع السورة كلها وتتـكامل إيقاعاتها . . .

Marfat.com

سُورَةُ القَدْرِ مَكِّيَّة
وآياتها ٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ » ۝

الحديث فى هذه السورة عن تلك الليلة الموعودة المشهودة التى سجلها الوجود كله فى فرح وغبطة وابتهال. ليلة الاتصال المطلق بين الأرض والملإ الأعلى . ليلة بدء نزول هذا القرآن على قلب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة ذلك الحدث العظيم الذى لم تشهد الأرض مثله فى عظمته، وفى دلالته ، وفى آثاره فى حياة البشرية جميعا . العظمة التى لا يحيط بها الإدراك البشرى : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر . وما أدراك ما ليلة القدر ؟ » . . « ليلة القدر خير من ألف شهر » . .

والنصوص القرآنية التى تذكر هذا الحدث تكاد ترف وتنير . بل هى تفيض بالنور الهادىء السارى الرائق الودود . نور الله المشرق فى قرآنه : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » ونور الملائكة والروح وهم فى غدوهم ورواحهم طوال الليلة بين الأرض والملإ الأعلى :

« تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر » . . ونور الفجر الذى تعرضه

Marfat.com

النصوص متناسقا مع نور الوحى ونور الملائكة ، وروح السلام المرفرف على الوجود وعلى الأرواح السارية فى هذا الوجود : « سلام هى حتى مطلع الفجر » .

والليلة التى تتحدث عنها السورة هى الليلة التى جاء ذكرها فى سورة الدخان: « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة ، إنا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم . أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين . رحمة من ربك إنه هو السميع العليم » .. والمعروف أنها ليلة من ليالى رمضان، كما ورد فى سورة البقرة : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » .. أى التى بدأ فيها نزول القرآن على قلب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليبلغه إلى الناس . وفى رواية ابن إسحاق أن أول الوحى بمطلع سورة العلق كان فى شهر رمضان ، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتحنث فى غار حراء .

وقد ورد فى تعيين هـذه الليلة آثار كثيرة . بعضها يعين الليـلة السابعة والعشرين من رمضان . وبعضها يعين الليلة الواحدة والعشرين . وبعضها يعينها ليلة من الليالى العشر الأخيرة . وبعضها يطلقها فى رمضان كله . فهى ليلة من ليالى رمضان على كل حال فى أرجح الآثار .

* * *

واسمها : « ليلة القدر » .. قد يكون معناه التقدير والتدبير . وقد يكون معناه القيمة والمقام . وكلاهما يتفق مع ذلك الحدث الكونى العظيم . حدث القرآن والوحى والرسالة . . وليس أعظم منه ولا أقوم فى أحداث هـذا الوجود . وليس أدل منه كذلك على التقدير والتدبير فى حياة العبيد . وهى خير من ألف شهر . والعدد لا يفيد التحديد . فى مثل هذه المواضع من القرآن . إنما هو يفيد التكثير . والليلة خير من آلاف الشهور فى حياة البشر . فكم من آلاف الشهور وآلاف السنين قد انقضت دون أن تترك فى الحياة بعض ما تركته هـذه الليلة المباركة السعيدة من آثار وتحولات .

والليلة من العظمة بحيث تفوق حقيقتها حدود الإدراك البشرى : « وما أدراك ما ليلة القدر ؟ » وذلك بدون حاجة إلى التعلق بالأساطير التى شاعت حول هذه الليلة فى أوهام العامة . فهى ليلة عظيمة باختيار الله لها لبدء تنزيل هـذا القرآن . وإفاضة هذا النور على الوجود كله ، وإسباغ السلام الذى فاض من روح الله على الضمير البشرى والحياة الإنسانية ، وبما تضمنه هذا القرآن

Marfat.com

من عقيدة وتصور وشريعة وآداب تشيع السلام فى الأرض والضمير [1] . وتنزل الملائكة وجبريل ـ عليه السلام ـ خاصة ، بإذن ربهم ، ومعهم هذا القرآن ـ باعتبار جنسه الذى نزل فى هذه الليلة ـ وانتشارهم فيما بين السماء والأرض فى هذا المهرجان الكونى، الذى تصوره كلمات السورة تصورا عجيبا ..

* * *

وحين ننظر اليوم من وراء الأجيال المتطاولة إلى تلك الليلة المجيدة السعيدة ، ونتصور ذلك المهرجان العجيب الذى شهدته الأرض فى هـذه الليلة ، ونتدبر حقيقة الأمر الذى تم فيها، ونتملى آثاره المتطاولة فى مراحل الزمان ، وفى واقع الأرض، وفى تصورات القلوب والعقول.. فإننا نرى أمرا عظيما حقا . وندرك طرفا من مغزى هـذه الإشارة القرآنية إلى تلك الليلة : « وماأدراك ماليلة القدر ؟ » ..

لقد فرق فيها من كل أمر حكيم . وقد وضعت فيها من قيم وأسس وموازين . وقد قررت فيها من أقدار أكبر من أقدار الأفراد. أقدار أمم ودول وشعوب . بل أكثر وأعظم .. أقدار حقائق وأوضاع وقلوب !

ولقد تغفل البشرية ـ لجهالتها ونكد طالعها ـ عن قدر ليلة القدر . وعن حقيقة ذلك الحدث ، وعظمة هذا الأمر . وهى منذ أن جهلت هذا وأغفلته فقدت أسعد وأجمل آلاء الله عليها ، وخسرت السعادة والسلام الحقيقى ـ سلام الضمير وسلام البيت وسلام المجتمع [2] ـ الذى وهبها إياه الإسلام . ولم يعوضها عما فقدت مافتح عليها من أبواب كل شىء من المادة والحضارة والعمارة . فهى شقية ، شقية على الرغم من فيض الإنتاج وتوافر وسائل المعاش !

لقد انطفأ النور الجميل الذى أشرق فى روحها مرة ، وانطمست الفرحة الوضيئة التى رفت بها وانطلقت إلى الملإ الأعلى . وغاب السلام الذى فاض على الأرواح والقلوب . فلم يعوضها شىء عن فرحة الروح ونور السماء وطلاقة الرفرفة إلى عليين ..

* * *

ونحن ـ المؤمنين ـ مأمورون أن لاننسى ولانغفل هـذه الذكرى ؛ وقد جعل لنا نبينا

---

(١) يراجع بتوسع كتاب : السلام العالمى والإسلام .
(٢) فصول فى كتاب : السلام العالمى والإسلام .

Marfat.com

ـ صلى الله عليه وسلم ـ سبيلا هينا لينا لاستحياء هذه الذكرى فى أرواحنا لتظل موصولة بها أبدا ، موصولة كذلك بالحدث الكونى الذى كان فيها . وذلك فيما حثنا عليه من قيام هذه الليلة من كل عام ، ومن تحريها والتطلع إليها فى الليالى العشر الأخيرة من رمضان . . فى الصحيحين : « تحروا ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان » .. وفى الصحيحين كذلك: « من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ماتقدم من ذنبه » ..

والإسلام ليس شكليات ظاهرية . ومن ثم قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى القيام فى هذه الليلة أن يكون « إيمانا واحتسابا » .. وذلك ليكون هذا القيام استحياء للمعانى الكبيرة التى اشتملت عليها هذه الليلة « إيمانا » وليكون تجردا لله وخلوصا «واحتسابا » .. ومن ثم تنبض فى القلب حقيقة معينة بهذا القيام . ترتبط بذلك المعنى الذى نزل به القرآن .

والمنهج الإسلامى فى التربية يربط بين العبادة وحقائق العقيدة فى الضمير ، ويجعل العبادة وسيلة لاستحياء هذه الحقائق وإيضاحها وتثبيتها فى صورة حية تتخلل المشاعر ولا تقف عند حدود التفكير .

وقد ثبت أن هذا المنهج وحده هو أصلح المناهج لإحياء هذه الحقائق ومنحها الحركة فى عالم الضمير وعالم السلوك . وأن الإدراك النظرى وحده لهذه الحقائق بدون مساندة العبادة ، وعن غير طريقها ، لا يقر هذه الحقائق ، ولا يحركها حركة دافعة فى حياة الفرد ولا فى حياة الجماعة . .

وهذا الربط بين ذكرى ليلة القدر وبين القيام فيها إيمانا واحتسابا ، هو طرف من هذا المنهج الإسلامى الناجح القويم .

Marfat.com

سورة البينة مدنية
وآياتها ٨

بسم الله الرحمن الرحيم

« لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ① رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ * وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ * وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ .

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ .

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ. ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ » ⑧

هذه السورة معدودة فى المصحف وفى أكثر الروايات أنها مدنية . وقد وردت بعض الروايات بمكيتها . ومع رجحان مدنيتها من ناحية الرواية، ومن ناحية أسلوب التعبير التقريرى ، فإن كونها مكية لا يمكن استبعاده . وذكر الزكاة فيها وذكر أهل الكتاب لا يعتبر قرينة مانعة . فقد ورد ذكر أهل الكتاب فى بعض السور المقطوع بمكيتها . وكان فى مكة بعض أهل الكتاب الذين

Marfat.com

آمنوا ، وبعضهم لم يؤمنوا . كما أن نصارى نجران وفدوا على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مكة وآمنوا كما هو معروف . وورد ذكر الزكاة كذلك فى سور مكية .

* * *

والسورة تعرض عدة حقائق تاريخية وإيمانية فى أسلوب تقريرى هو الذى يرجح أنها مدنية إلى جانب الروايات القائلة بهذا .

والحقيقة الأولى هى أن بعثة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت ضرورية لتحويل الذين كفروا من أهل الكتاب ومن المشركين عما كانوا قد انتهوا إليه من الضلال والاختلاف ، وما كانوا ليتحولوا عنه بغير هذه البعثة :

« لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة : رسول من الله يتلو صحفا مطهرة ، فيها كتب قيمة » ..

والحقيقة الثانية : أن أهل الكتاب لم يختلفوا فى دينهم عن جهالة ولا عن غموض فيه ، إنما اختلفوا من بعد ماجاءهم العلم وجاءتهم البينة : « وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءتهم البينة » .

والحقيقة الثالثة : أن الدين فى أصله واحد ، وقواعده بسيطة واضحة ، لاتدعو إلى التفرق والاختلاف فى ذاتها وطبيعتها البسيطة اليسيرة : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة » .

والحقيقة الرابعة : أن الذين كفروا بعد ماجاءتهم البينة هم شر البرية وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير البرية . ومن ثم يختلف جزاء هؤلاء عن هؤلاء اختلافا بينا :

« إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها . أولئك هم شر البرية . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ، جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشى ربه » . .

وهذه الحقائق الأربعة ذات قيمة فى إدراك دور العقيدة الإسلامية ودور الرسالة الأخيرة . وفى التصور الإيمانى كذلك . نفصلها فيما يلى :

* * *

Marfat.com

« لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة : رسولٌ من الله يتلو صحفا مطهرة ، فيها كتب قيمة »

لقد كانت الأرض فى حاجة ماسة إلى رسالة جديدة .كان الفساد قد عم أرجاءها كلها بحيث لايرتجى لها صلاح إلا برسالة جديدة ، ومنهج جديد ، وحركة جديدة . وكان الكفر قد تطرق إلى عقائد أهلها جميعا سواء أهل الكتاب الذين عرفوا الديانات السماوية من قبل ثم حرفوها ، أو المشركون فى الجزيرة العربية وفى خارجها سواء .

وما كانوا لينفكوا ويتحولوا عن هذا الكفر الذى صاروا إليه إلا بهذه الرسالة الجديدة ، وإلا على يد رسول يكون هو ذاته بينة واضحة فارقة فاصلة : «رسول من الله يتلو صحفا مطهرة» .. مطهرة من الشرك والكفر « فيها كتب قيمة » ..والكتاب يطلق على الموضوع، كما يقال كتاب الطهارة وكتاب الصلاة ، وكتاب القدر ، وكتاب القيامة ، وهذه الصحف المطهرة – وهى هذا القرآن – فيها كتب قيمة أى موضوعات وحقائق قيمة ..

ومن ثم جاءت هذه الرسالة فى إبانها ، وجاء هذا الرسول فى وقته، وجاءت هذه الصحف ومافيها من كتب وحقائق وموضوعات لتحدث فى الأرض كلها حدثا لاتصلح الأرض إلا به . فأما كيف كانت الأرض فى حاجة إلى هذه الرسالة وإلى هذا الرسول فنكتفى فى بيانه باقتطاف لمحات كاشفة من الكتاب القيم الذى كتبه الرجل المسلم « السيد أبو الحسن على الحسنى الندوى » بعنوان : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » . . وهو أوضح وأخصر ماقرأناه فى موضوعه :

جاء فى الفصل الأول من الباب الأول :

« كان القرن السادس والسابع لميلاد المسيح من أحط أدوار التاريخ بلا خلاف . فكانت الإنسانية متدلية منحدرة منذ قرون .وماعلى وجه الأرض قوة تمسك بيدها وتمنعها من التردى . وقد زادتها الأيام سرعة فى هبوطها وشدة فى إسفافها . وكان الإنسان فى هذا القرن قد نسى خالقه ، فنسى نفسه ومصيره ، وفقد رشده ، وقوة التمييز بين الخير والشر ، والحسن والقبيح. وقد خفتت دعوة الأنبياء من زمن ، والمصابيح التى أوقدوها قد انطفأت من العواصف التى هبت بعدهم ، أوبقيت ونورها ضعيف ضئيل لاينير إلا بعض القلوب ، فضلا عن البيوت ،فضلا عن البلاد . وقد انسحب رجال الدين من ميدان الحياة ،ولاذوا بالأديرة والكنائس والخلوات

Marfat.com

فرارا بدينهم من الفتن ، وضنا بأنفسهم ، أورغبة إلى الدعة والسكون ؛ وفرارا من تكاليف الحياة وجدها ، أو فشلا فى كفاح الدين والسياسة ، والروح والمادة ؛ ومن بقى منهم فى تيار الحياة اصطلح مع الملوك وأهل الدنيا وعاونهم على إثمهم وعدوانهم ، وأكل أموال الناس بالباطل . . .

« أصبحت الديانات العظيمة فريسة العابثين والمتلاعبين ؛ ولعبة المجرمين والمنافقين ، حتى فقدت روحها وشكلها ، فلو بعث أصحابها الأولون لم يعرفوها ؛ وأصبحت معهود الحضارة والثقافة والحكم والسياسة مسرح الفوضى والانحلال والاختلال وسوء النظام وعسف الحكام ، وشغلت بنفسها لاتحمل للعالم رسالة ، ولا للأمم دعوة ، وأفلست فى معنوياتها ، ونضب معين حياتها ، لا تملك مشرعا صافيا من الدين السماوى ، ولا نظاما ثابتا من الحكم البشرى » . .

هذه اللمحة السريعة تصور فى إجمال حالة البشرية والديانات قبيل البعثه المحمدية . وقد أشار القرآن إلى مظاهر الكفر الذى شمل أهل الكتاب والمشركين فى مواضع شتى . .

من ذلك قوله عن اليهود والنصارى : « وقالت اليهود عزير ابن الله . وقالت النصارى المسيح ابن الله[1] » . . « وقالت اليهود ليست النصارى على شىء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شىء[2] » . .

وقوله عن اليهود : « وقالت اليهود : يد الله مغلولة . غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا . بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء[3] » .

وقوله عن النصارى : « لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم[4] » . . « لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة[5] » .

وقوله عن المشركين : « قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم ؛ ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين » . . وغيرها كثير . .

---

(١) سورة التوبة : ٣٠
(٢) سورة البقرة : ١١٣
(٣) المائدة : ٦٤
(٤) المائدة : ٧٢
(٥) المائدة : ٧٣

Marfat.com

وكان وراء هذا الكفر ماوراءه من الشر والانحطاط والشقاق والخراب الذى عم أرجاء الأرض ... « وبالجملة لم تكن على ظهر الأرض أمة صالحة المزاج ، ولا مجتمع قائم على أساس الأخلاق والفضيلة ، ولا حكومة مؤسسة على أساس العدل والرحمة ، ولا قيادة مبنية على العلم والحكمة ،ولا دين صحيح مأثور عن الأنبياء [1] » .

ومن ثم اقتضت رحمة الله بالبشرية إرسال رسول من عنده يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة . وما كان الذين كفروا من المشركين ومن الذين أوتوا الكتاب ليتحولوا عن ذلك الشر والفساد إلا ببعثة هذا الرسول المنقذ الهادى المبين . . .

* * *

ولما قرر هذه الحقيقة فى مطلع السورة عاد يقرر أن أهل الكتاب خاصة لم يتفرقوا ويختلفوا فى دينهم عن جهل أو عن غموض فى الدين أو تعقيد . إنما هم تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم العلم ومن بعد ماجاءتهم البينة من دينهم على أيدى رسلهم :

« وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءتهم البينة » . .

وكان أول التفرق والاختلاف ماوقع بين طوائف اليهود قبل بعثة عيسى ـ عليه السلام ـ فقد إنقسموا شعبا وأحزابا . مع أن رسولهم هو موسى ـ عليه السلام ـ وكتابهم هو التوراة. فكانوا طوائف خمسة رئيسية هى طوائف الصدوقيين ، والفريسيين ، والآسيين ، والغلاة ، والسامريين .. ولكل طائفة سمة واتجاه. ثم كان التفرق بين اليهود والنصارى ، مع أن المسيح ـ عليه السلام ـ هو أحد أنبياء بنى إسرائيل وآخرهم ،وقد جاء مصدقا لمابين يديه من التوراة. ومع هذا فقد بلغ الخلاف والشقاق بين اليهود والمسيحيين حد العداء العنيف والحقد الذميم . وحفظ التاريخ من المجازر بين الفريقين ماتقشعر له الأبدان.

« وقد تجدد فى أوائل القرن السابع من الحوادث ما بغضهم (أى اليهود) إلى المسيحيين وبغض المسيحيين إليهم ، وشوه سمعتهم . ففى السنة الأخيرة من حكم فوكاس (٦١٠ م) أوقع اليهود بالمسيحيين فى أنطاكية ، فأرسل الامبراطور قائده « ابنوسوس » ليقضى على ثورتهم ، فذهب وأنفذ عمله بقسوة نادرة ، فقتل الناس جميعا قتلا بالسيف ، وشنقا ، وإغراقا ، وإحراقا ، وتعذيبا ، ورميا للوحوش الكاسرة ... وكان ذلك بين اليهود والنصارى مرة بعد مرة ، قال

---

(١) من كتاب : ماذا خسر العالم. . .

Marfat.com

المقريزى فى كتاب الخطط : « وفى أيام (فوقا) ملك الروم ، بعث كسرى ملك فارس جيوشه إلى بلاد الشام ومصر فخربوا كنائس القدس ، وفلسطين وعامة بلاد الشام ، وقتلوا النصارى بأجمعهم ، وأتوا إلى مصر فى طلبهم ، وقتلوا منهم أمة كبيرة ، وسبوا منهم سبيا لايدخل تحت حصر. وساعدهم اليهود فى محاربة النصارى وتخريب كنائسهم ؛ وأقبلوا نحو الفرس من طبرية، وجبل الجليل ، وقرية الناصرة ومدينة صور ، وبلاد القدس ؛ فنالوا من النصارى كل منال وأعظموا النكاية فيهم ، وخربوا لهم كنيستين بالقدس ، وأحرقوا أماكنهم ، وأخذوا قطعة من عود الصليب ، وأسروا بطرك القدس وكثيرا من أصحابه . إلى أن قال ـ بعد أن ذكر فتح القدس :

« فثارت اليهود فى أثناء ذلك بمدينة صور ، وأرسلوا بقيتهم فى بلادهم ، وتواعدوا على الإيقاع بالنصارى وقتلهم ، فكانت بينهم حرب ، اجتمع فيها من اليهود نحو ٢٠ ألفاً وهدموا كنائس النصارى خارج صور . فقوّى النصارى عليهم وكاثروهم فانهزم اليهود هزيمة قبيحة ، وقتل منهم كثير. وكان هرقل قد ملك الروم بقسطنطينية،وغلب الفرس بحيلة دبرها على كسرى حتى رحل عنه ، ثم سار من قسطنطينية ليمهد ممالك الشام ومصر ، ويجدد ماضربه الفرس ، فخرج إليه اليهود من طبرية وغيرها ، وقدموا له الهدايا الجليلة وطلبوا منه أن يؤمنهم منه ويحلف لهم على ذلك ، فأمنهم وحلف لهم . ثم دخل القدس ، وقد تلقاهم النصارى بالأناجيل والصلبان والبخور والشموع المشعلة ، فوجد المدينة وكنائسها خرابا ، فساءه ذلك ، وتوجع لهم ، وأعلمه النصارى بما كان من ثورة اليهود مع الفرس ، وإيقاعهم بالنصارى وتخريبهم الكنائس ، وأنهم كانوا أشد نكاية لهم من الفرس ، وقاموا قياماً كبيراً فى قتلهم عن آخرهم ، وحثوا هرقل على الوقيعة بهم ، وحسنوا له ذلك . فاحتج عليهم بما كان من تأمينه لهم وحلفه ، فأفتاه رهبانهم وبطارقتهم وقسيسوهم بأنه لاحرج عليه فى قتلهم ، فإنهم عملوا عليه حيلة حتى أمنهم من غير أن يعلم بما كان منهم،وأنهم يقومون عنه بكفارة يمينه بأن يلتزموا ويلزموا النصارى بصوم جمعة فى كل سنة عنه على مر الزمان والدهور ! فمال إلى قولهم وأوقع باليهود وقيمة شنعاء أبادهم جميعهم فيها ، حتى لم يبق فى ممالك الروم فى مصر والشام إلا من فر واختفى . .

« وبهذه الروايات يعلم ماوصل إليه الفريقان . اليهود والنصارى ، من القسوة والضراوة بالدم الإنسانى ، وتحين الفرص للنكاية فى العدو ، وعدم مراعاة الحدود فى ذلك » (١)

---

(١) عن كتاب : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٩ ـ ١١ طبعة أولى .

Marfat.com

ثم كان التفرق والاختلاف بين النصارى أنفسهم ، مع أن كتابهم واحد ونبيهم واحد . تفرقوا واختلفوا أولا فى العقيدة . ثم تفرقوا واختلفوا طوائف متعادية متنافرة متقاتلة . وقد دارت الخلافات حول طبيعة المسيح ـ عليه السلام ـ وعما إذا كانت لاهوتية أو ناسوتية . وطبيعة أمه مريم . وطبيعة الثالوث الذى يتألف منه « الله » ـ فى زعمهم ـ وحكى القرآن قولين منها أوثلاثة فى قوله : « لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم » .. « لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثه » « وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس : اتخذونى وأمى إلهين من دون الله [1] ؟ » .

« وكان أشد مظاهر هـذا الخلاف الدينى ما كان بين نصارى الشام والدولة الرومية ، وبين نصارى مصر . أوبين « الملكانية » ، « النوفوسية » بلفظ أصح. فكان شعار الملكانية عقيدة ازدواج طبيعة المسيح ، وكان النوفوسيون يعتقدون أن للسيد المسيح طبيعة واحدة هى الإلاهية . التى تلاشت فيها طبيعة المسيح البشرية كقطرة من الخل تقع فى بحر عميق لاقرار له . وقد اشتد هـذا الخلاف بين الحزبين فى القرن السادس والسابع ، حتى صار كأنه حرب عوان بين دينين متنافسين ، أو كأنه خلاف بين اليهود والنصارى . . كل طائفة تقول للأخرى : إنها ليست على شىء .

« وحاول الامبراطور هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١) بعد انتصاره على الفرس (سنة ٦٣٨) جمع مذاهب الدولة المتصارعة وتوحيدها ، وأراد التوفيق ،وتقررت صورة التوفيق أن يمتنع الناس عن الخوض فى الكلام عن كنه طبيعة السيد المسيح ، وعما إذا كانت له صفة واحدة أم صفتان ، ولكن عليهم بأن يشهدوا بأن الله له إرادة واحدة أوقضاء واحد . وفى صدر عام ٦٣١ حصل وفاق على ذلك ، وصار المذهب المنوثيلى مذهبا رسميا للدولة ، ومن تضمهم من أتباع الكنيسة المسيحية . وصمم هرقل على إظهار المذهب الجديد على ماعداه من المذاهب المخالفة ، متوسلا إلى ذلك بكل الوسائل . ولكن القبط نابذوه العداء ، وتبرأوا من هـذه البدعة والتحريف ! وصمدوا له واستماتوا فى سبيل عقيدتهم القديمة . وحاول الامبراطور مرة أخرى توحيد المذاهب وحسم الخلاف فاقتنع بأن يقر الناس بأن الله له إرادة واحدة . وأما المسألة الأخرى وهى نفاذ تلك الإرادة بالفعل فأرجأ القول فيه ، ومنع الناس أن يخوضوا فى مناظراته . وجعل ذلك رسالة

(١) سورة المائدة : آية ١١٦ .

Marfat.com

رسمية ، ذهب بها إلى جميع جهات العالم الشرقى . ولكن الرسالة لم تهدئ العاصفة فى مصر ، ووقع اضطهاد فظيع على يد قيصر فى مصر استمر عشر سنين ، ووقع فى خلالها ما تقشعر منه الجلود ، فرجال كانوا يعذبون ثم يقتلون غرقا ، وتوقد المشاعل وتسلط نارها على الأشقياء حتى يسيل الدهن من الجانبين إلى الأرض ويوضع السجين فى كيس مملوء بالرمل ويرمى فى البحر . إلى غير ذلك من الفظائع» (١) .

وكان هذا الخلاف كله بين أهل الكتاب جميعا « من بعد ماجاءتهم البينة » . . فلم يكن ينقصهم العلم والبيان ؛ إنما كان يجرفهم الهوى والانحراف .

* * *

على أن الدين فى أصله واضح والعقيدة فى ذاتها بسيطة :

« وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة » وهذه هى قاعدة دين الله على الإطلاق :

عبادة الله وحده ، وإخلاص الدين له ، والميل عن الشرك وأهله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة : « وذلك دين القيمة » . . عقيدة خالصة فى الضمير ، وعبادة لله ، تترجم عن هذه العقيدة ، وإنفاق للمال فى سبيل الله ، وهو الزكاة .. فمن حقق هذه القواعد ، فقد حقق الإيمان كما أمر به أهل الكتاب ، وكما هو فى دين الله على الإطلاق . دين واحد . وعقيدة واحدة ، تتوالى بها الرسالات ، ويتوافى عليها الرسل .. دين لاغموض فيه ولا تعقيد . وعقيدة لا تدعو إلى تفرق ولا خلاف ، وهى بهذه النصاعة ، وبهذه البساطة ، وبهذا التيسير . فأين هذا من تلك التصورات المعقدة ، وذلك الجدل الكثير ؟

* * *

فأما وقد جاءتهم البينه من قبل فى دياناتهم على أيدى رسلهم ؛ ثم جاءتهم البينة ، حية فى صورة رسول من الله يتلو صحفا مطهرة ؛ ويقدم لهم عقيدة ، واضحة بسيطة ميسرة ، فقد تبين الطريق . ووضح مصير الذين يكفرون والذين يؤمنون :

« إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية . جزاؤهم عند ربهم جنات عدن

---

(١) من كتاب : ماذا خسر العالم .. ص ٣ـ٥

Marfat.com

تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا . رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشى ربه » . .

إن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الرسول الأخير ؛ وإن الإسلام الذى جاء به هو الرسالة الأخيرة . وقد كانت الرسل تتوالى كلما فسدت الأرض لترد الناس إلى الصلاح . وكانت هناك فرصة بعد فرصة ومهلة بعد مهلة ، لمن ينحرفون عن الطريق فأما وقد شاء الله أن يختم الرسالات إلى الأرض بهذه الرسالة الأخيرة الجامعة الشاملة الكاملة ، فقد تحددت الفرصة الأخيرة ، فإما إيمان فنجاة ، وإما كفر فهلاك . ذلك أن الكفر حينئذ دلالة على الشر الذى لاحد له ، وأن الإيمان دلالة على الخير البالغ أمده .

« إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها . أولئك هم شر البرية » حكم قاطع لاجدال فيه ولامحال . مهما يكن من صلاح بعض أعمالهم وآدابهم ونظمهم مادامت تقوم على غير إيمان ، بهذه الرسالة الأخيرة ، وبهذا الرسول الأخير . لانستريب فى هذا الحكم لأى مظهر من مظاهر الصلاح ، المقطوعة الاتصال بمنهج الله الثابت القويم .

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، أولئك هم خير البرية » .

حكم كذلك قاطع لاجدال فيه ولامحال . ولكن شرطه كذلك واضح لاغموض فيه ولااحتيال . إنه الإيمان .لامجرد مولد فى أرض تدعى الإسلام ، أوفى بيت يقول: إنه من المسلمين. ولابمجرد كلمات يتشدق بها الإنسان ! إنه الإيمان الذى ينشئ آثاره فى واقع الحياة : « وعملوا الصالحات » .. وليس هو الكلام الذى لايتعدى الشفاه ! والصالحات هى كل ماأمر الله بفعله من عبادة وخلق وعمل وتعامل . وفى أولها إقامة شريعة الله فى الأرض ، والحكم بين الناس بما شرع الله . فمن كانوا كذلك فهم خير البرية .

« جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها » . .

جنات للإقامة الدائمة فى نعيمها الذى يمثله هنا الأمن من الفناء والفوات . والطمأنينة من القلق الذى يعكر وينغص كل طيبات الأرض . . كما يمثله جريان الأنهار من تحتها ، وهو يلقى ظلال النداوة والحياة والجمال !

ثم يرتقى السياق درجة أودرجات فى تصوير هذا النعيم المقيم :

« رضى الله عنهم ورضوا عنه » ..

Marfat.com

هذا الرضا من الله وهو أعلى وأندى من كل نعيم . . وهذا الرضا فى نفوسهم عن ربهم . الرضا عن قدره فيهم . والرضا عن إنعامه عليهم . والرضا بهذه الصلة بينه وبينهم . الرضا الذى يغمر النفس بالهدوء والطمأنينة والفرح الخالص العميق . .

إنه تعبير يلقى ظلاله بذاته . . « رضى الله عنهم ورضوا عنه » حيث يعجز أى تعبير آخر عن إلقاء مثل هذه الظلال !

« ذلك لمن خشى ربه » . .

وذلك هو التوكيد الأخير . التوكيد على أن هذا كله متوقف على صلة القلب بالله، ونوع هذه الصلة ، والشعور بخشيته خشية تدفع إلى كل صلاح ، وتنهى عن كل انحراف . . الشعور الذى يزيح الحواجز ، ويرفع الأستار ، ويقف القلب عاريا أمام الواحد القهار . والذى يخلص العبادة ويخلص العمل من شوائب الرياء والشرك فى كل صورة من صوره . فالذى يخشى ربه حقا لايملك أن يُخطر فى قلبه ظلا لغيره من خلقه . وهو يعلم أن الله يرد كل عمل ينظر فيه العبد إلى غيره معه ، فهو أغنى الشركاء عن الشرك . فإما عمل خالص له ، وإلا لم يقبله .

* * *

تلك الحقائق الأربعة الكبيرة هى مقررات هذه السورة الصغيرة، يعرضها القرآن بأسلوبه الخاص ، الذى يتجلى بصفة خاصة فى هذه السور القصار . .

Marfat.com

سورة الزلزلة مكية
وآياتها ٨

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ : مَالَهَا ؟ * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » ⑧

هذه السورة مدنية فى المصحف وفى بعض الروايات ؛ ومكية فى بعض الروايات الأخرى . ونحن نرجح الروايات التى تقول بأنها مكية . وأسلوبها التعبيرى وموضوعها يؤيدان هذا .

إنها هزة عنيفة للقلوب الغافلة. هزة يشترك فيها الموضوع والمشهد والإيقاع اللفظى. وصيحة قوية مزلزلة للأرض ومن عليها ؛ فما يكادون يفيقون حتى يواجههم الحساب والوزن والجزاء فى بضع فقرات قصار !

وهذا هو طابع الجزء كله ، يتمثل فى هذه السورة تمثلا قويا . . .

* * *

« إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وقال الإنسان مالها ؟ يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها » .

إنه يوم القيامة حيث ترتجف الأرض الثابتة ارتجافا ، وتزلزل زلزالا ، وتنفض ما فى جوفها

Marfat.com

نفسا ، وتخرج مايثقلها من أجساد ومعادن وغيرها مما حملته طويلا . وكأنها تتخفف من هـذه الأثقال ، التى حملتها طويلا !

وهو مشهد يهز تحت أقدام المستمعين لهذه السورة كل شىء ثابت؛ ويخيل إليهم أنهم يترنحون ويتأرجحون ، والأرض من تحتهم تهتز وتمور ! مشهد يخلع القلوب من كل ماتتشبث به من هذه الأرض ، وتحسبه ثابتا باقيا ؛ وهو الإيحاء الأول لمثل هذه المشاهد التى يصورها القرآن ، ويودع فيها حركة تكاد تنتقل إلى أعصاب السامع بمجرد سماع العبارة القرآنية الفريدة !

ويزيد هـذا الأثر وضوحا بتصوير « الإنسان » حيال المشهد المعروض ، ورسم انفعالاته وهو يشهده :

« وقال الإنسان : مالها ؟ » ..

وهو سؤال المشدوه المبهوت المفجوء ، الذى يرى مالم يعهد ، ويواجه مالا يدرك ، ويشهد مالا يملك الصبر أمامه والسكوت . مالها ؟ ما الذى يزلزلها هكذا ويرجها رجا ؟ مالها ؟ وكأنه يتمايل على ظهرها ويترنح معها ؛ ويحاول أن يمسك بأى شىء يسنده ويثبته ، وكل ماحوله يمور مورا شديدا !

« والإنسان » قد شهد الزلازل والبراكين من قبل . وكان يصاب منها بالهلع والذعر ، والهلاك والدمار ، ولكنه حين يرى زلزال يوم القيامة لايجد أن هناك شبها بينه وبين ما كان يقع من الزلازل والبراكين فى الحياة الدنيا . فهذا أمر جديد لاعهد للإنسان به .أمر لايعرف له سرا ، ولا يذكر له نظيرا أمر هائل يقع للمرة الأولى !

« يومئذ » .. يوم يقع هذا الزلزال ، ويُشدَه أمامه الإنسان « تحدث أخبارها بان ربك أوحى لها » .. يومئذ تحدث هذه الأرض أخبارها ، وتصف حالها وما جرى لها . . لقد كان ما كان لها « بأن ربك أوحى لها » . . وأمرها أن تمور مورا ، وأن تزلزل زلزالها ، وأن تخرج أثقالها ! فأطاعت أمر ربها « وأذنت لربها وحقت » . . تحدث أخبارها . فهذا الحال حديث واضح عما وراءه من أمر الله ووحيه إليها . .

* * *

وهنا و « الإنسان » مشدوه مأخوذ ، والإيقاع يلهث فزعا ورعبا ، ودهشة وعجبا ،

Marfat.com

واضطرابا وموراً . . هنا و « الإنسان » لايكاد يلتقط أنفاسه وهو يتساءل : مالها ؟ مالها هنا يواجه بمشهد الحشر والحساب والوزن والجزاء :

« يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم . فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

وفى لمحة نرى مشهد القيام من القبور : « يومئذ يصدر الناس أشتاتا » . . نرى مشهدهم شتيتا منبعثا من أرجاء الأرض « كأنهم جراد منتشر » . . وهو مشهد لاعهد للإنسان به كذلك من قبل . مشهد الخلائق فى أجيالها جميعا تنبعث من هنا ومن هناك : « يوم تشقق الأرض عنهم سراعا » . . وحيثما امتد البصر رأى شبحا ينبعث ثم ينطلق مسرعا ! لايلوى على شىء ، ولا ينظر وراءه ولا حواليه : « مهطعين إلى الداع » ممدودة رقابهم ، شاخصة أبصارهم . « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » .

إنه مشهد لا تعبر عن صفته لغة البشر . هائل مروّع . مفزع . مرعب . مذهل . .

كل أولئك وسائر مافى المعجم من أمثالها لاتبلغ من وصف هذا المشهد شيئا مما يبلغه إرسال الخيال قليلا يتملاه بقدر مايملك وفى حدود مايطيق !

« يومئذ يصدر الناس أشتاتا » . . « ليروا أعمالهم » . . وهذه أشد وأدهى . . إنهم ذاهبون إلى حيث تعرض عليهم أعمالهم ، ليواجهوها ، ويواجهوا جزاءها . ومواجهة الإنسان لعمله قد تكون أحيانا أقسى من كل جزاء . وإن من عمله مايهرب من مواجهته بينه وبين نفسه ، ويشيح بوجهه عنه لبشاعته حين يتمثل له فى نوبة من نوبات الندم ولذع الضمير . فكيف به وهو يواجه بعمله على رؤوس الأشهاد ، فى حضرة الجليل العظيم الجبار المتكبر ؟ !

إنها عقوبة هائلة رهيبة . . مجرد أن يُروا أعمالهم ، وأن يواجهوا بما كان منهم !

ووراء رؤيتها الحساب الدقيق الذى لايدع ذرة من خير أو من شر لايزنها ولا يجازى عليها.

« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » . .

ذرة . . كان المفسرون القدامى يقولون : إنها البعوضة . وكانوا يقولون : إنها الهباءة التى ترى فى ضوء الشمس . . . فقد كان ذلك أصغر مايتصورون من لفظ الذرة . . .

Marfat.com

فنحن الآن نعلم أن الذرة شيء محدد يحمل هذا الاسم ، وأنه أصغر بكثير من تلك الهباءة التي ترى في ضوء الشمس ، فالهباءة ترى بالعين المجردة . أما الذرة فلا ترى أبدا حتى بأعظم المجاهر في المعامل . إنما هي « رؤيا » في ضمير العلماء ! لم يسبق لواحد منهم أن رآها بعينه ولا بمجهره . وكل مارآه هو آثارها !

فهذه أوما يشبهها من ثقل ، من خير أو شر ، تحضر ويراها صاحبها ويجد جزاءها ! . .
عندئذ لايحقر « الإنسان » شيئا من عمله . خيرا كان أو شرا . ولا يقول : هذه صغيرة لاحساب لها ولا وزن . إنما يرتعش وجدانه أمام كل عمل من أعماله ارتعاشة ذلك الميزان الدقيق الذي ترجح به الذرة أو تشيل !

إن هذا الميزان لم يوجد له نظير أو شبيه بعد في الأرض . . إلا في القلب المؤمن . .
القلب الذي يرتعش لمثقال ذرة من خير أو شر . . . وفي الأرض قلوب لاتتحرك لجبل من الذنوب والمعاصي والجرائر . . ولا تتأثر وهي تسحق رواسي من الخير دونها رواسي الجبال . .

إنها قلوب عتلة في الأرض ، مسحوقة تحت أثقالها تلك في يوم الحساب ! !

Marfat.com

سورة العاديات مكية
وآياتها ١١

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً * إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ * أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ » ⑪

يجرى سياق هذه السورة فى لمسات سريعة عنيفه متيرة ، ينتقل من إحداها إلى الأخرى قفزا وركضا ووثبا ، فى خفة وسرعة وانطلاق ، حتى ينتهى إلى آخر فقرة فيها فيستقر عندها اللفظ والظل والموضوع والإيقاع ! كما يصل الراكض إلى نهاية المطاف !

وتبدأ بمشهد الخيل العادية الضابحة ، القادحة للشرر بحوافرها ، المغيرة مع الصباح ، المثيرة للنقع وهو الغبار، الداخلة فى وسط العدو فجأة تأخذه على غرة، وتثير فى صفوفه الذعر والفرار!

يليه مشهد فى النفس من الكنود والجحود والأثرة والشح الشديد !

ثم يعقبه مشهد لبعثرة القبور وتحصيل مافى الصدور !

وفى الختام ينتهى النقع المثار ، وينتهى الكنود والشح ، وتنتهى البعثرة والجمع .. إلى نهايتها جميعا . إلى الله . فتستقر هناك : « إن ربهم بهم يومئذ لخبير » . . .

والإيقاع الموسيقى فيه خشونة ودمدمة وفرقعة ، تناسب الجو الصاخب المغبر الذى تنشئه القبور المبعثرة، والصدور المحصل مافيها بشدة وقوة، كما تناسب جو الجحود والكنود ، والأثرة والشح الشديد . . فلما أراد لهذا كله إطارا مناسبا ، اختاره من الجو الصاخب المغبر كذلك، تثيره الخيل العادية فى جريها ، الصاخبة بأصواتها، القادحة بحوافرها ، المغيرة فجاءة مع الصباح،

Marfat.com

المثيرة للنقع والغبار ، الداخلة فى وسط العـدو على غير انتظار . . . فـكان الإطار من الصورة والصورة من الإطار (١)

* * *

« والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ،فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا ، فوسطن به جمعا.. إن الإنسان لربه لـكنود . وإنه على ذلك لشهيد وإنه لحب الخير لشديد ... »

يقسم الله سبحانه بخيل المعركة ،ويصف حركاتها واحدة واحدة منذ أن تبدأ عدوها وجريها ضابحة بأصواتها المعروفة حين تجرى ، قارعة للصخر بحوافرها حتى تورى الشرر منها ، مغيرة فى الصباح الباكر لمفاجأة العدو ، مثيرة للنقع والغبار . غبار المعركة على غير انتظار . وهى تتوسط صفوف الأعداء على غرة فتوقع بينهم الفوضى والاضطراب !

إنها خطوات المعركة على مايألفه المخاطبون بالقرآن أول مرة . . . والقسم بالخيل فى هـذا الإطار فيه إيحاء قوى بحب هذه الحركة والنشاط لها ، بعد الشعور بقيمتها فى ميزان الله والتفاته سبحانه إليها !

وذلك فوق تناسق المشهد مع المشاهد المقسم عليها والمعقب بها كما أسلفنا . أما الذى يقسم الله ـ سبحانه ـ عليه ، فهو حقيقة فى نفس الإنسان ، حين يخوى قلبه من دوافع الإيمان . حقيقة ينبهه القرآن إليها ، ليجند إرادته لـكفاحها ، مذ كان الله يعلم عمق وشائجها فى نفسه ، وثقل وقعها فى كيانه :

« إن الإنسان لربه لـكنود . وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد » . .

إن الإنسان ليجحد نعمة ربه ، وينكر جزيل فضله . ويتمثل كنوده وجحوده فى مظاهر شتى تبدو منه أفعالا وأقوالا ،فتقوم عليه مقام الشاهد الذى يقرر هذه الحقيقة . وكأنه يشهد على نفسه بها . أولعله يشهد على نفسه يوم القيامة بالـكنود والجحود : « وإنه على ذلك لشهيد » .. يوم ينطق بالحق على نفسه حيث لاجدال ولا محال !

« وإنه لحب الخير لشديد » فهو شديد الحب لنفسه ، ومن ثم يحب الخير . ولـكن كما يتمثله مالا وسلطة ومتاعا بأعراض الحياة الدنيا ..

هذه فطرته . وهذا طبعه . مالم يخالط الإيمان قلبه . فيغير من تصوراته وقيمه وموازينه واهتماماته . ويحيل كنوده وجحوده اعترافا بفضل الله وشكرانا . كما يبدل أثرته وشحه إيثارا

(١) فصل التناسق الفنى فى كتاب التصوير الفنى فى القرآن .

Marfat.com

ورحمة . ويريه القيم الحقيقية التى تستحق الحرص والتنافس والكد والكدح . وهى قيم أعلى من المال والسلطة والمتاع الحيوانى بأعراض الحياة الدنيا ..

إن الإنسان ـ بغير إيمان ـ حقير صغير . حقير الطامع ، صغير الاهتمامات . ومهما كبرت أطماعه ، واشتد طموحه، وتعالت أهدافه ، فإنه يظل مرتكسا فى حمأة الأرض ، مقيدا بحدود العمر، سجينا فى سجن الذات .. لايطلقه ولايرفعه إلا الاتصال بعالم أكبر من الأرض ، وأبعد من الحياة الدنيا ،وأعظم من الذات . . عالم يصدر عن الله الأزلى ، ويعود إلى الله الأبدى ، وتتصل فيه الدنيا بالآخرة إلى غير انتهاء ..

* * *

ومن ثم تجىء اللفتة الأخيرة فى السورة لعلاج الكنود والجحود والأثرة والشح ، لتحطيم قيد النفس وإطلاقها منه . مع عرض مشهد البعث والحشر فى صورة تندى حب الخير ، وتوقظ من غفلة البطر .

« أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور ، وحصل مافى الصدور ٢ » ..

وهو مشهد عنيف مثير . بعثرة لما فى القبور . بعثرة بهذا اللفظ العنيف المثير . وتحصيل لأسرار الصدور التى ضنت بها وخبأتها بعيدا عن العيون . تحصيل بهذا اللفظ العنيف القاسى . فالجو كله عنف وشدة وتعفير !

أفلا يعلم إذا كان هذا ؟ ولايذكر ماذا يعلم ؟ لأن علمه بهذا وحده يكفى لهز المشاعر . ثم ليدع النفس تبحث عن الجواب ، وترود كل مراد ، وتتصور كل مايمكن أن يصاحب هذه الحركات العنيفة من آثار وعواقب !

ويختم هذه الحركات الثائرة باستقرار ينتهى إليه كل شىء ، وكل أمر ، وكل مصير :

« إن ربهم بهم ومئذ لخبير » . .

فالمرجع إلى ربهم . وإنه لخبير بهم « يومئذ » وبأحوالهم وأسرارهم . . والله خبير بهم فى كل وقت وفى كل حال . ولكن لهذه الخبرة « يومئذ » آثار هى التى تثير انتباههم لها فى هذا المقام . . . إنها خبرة وراءها عاقبة. خبرة وراءها حساب وجزاء . وهذا المعنى الضمنى هو الذى يلوح به فى هذا المقام !

* * *

إن السورة شوار واحد لاهث صاخب ثائر .. حتى ينتهى إلى هذا القرار ..معنى ولفظا وإيقاعا ، على طريقة القرآن !

Marfat.com

سورة القارعة مكية
وآياتها ١١

بسم الله الرحمن الرحيم

« الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ ؟ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ؟ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ * فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ؟ * نَارٌ حَامِيَةٌ » ⑪

القارعة : القيامة . كالطامة ، والصاخة ، والحاقة ، والغاشية . والقارعة توحى بالقرع واللطم ، فهى تقرع القلوب بهولها

والسورة كلها عن هذه القارعة . حقيقتها . وما يقع فيها . وما تنتهى إليه . . فهى تعرض مشهدا من مشاهد القيامة .

والمشهد المعروض هنا مشهد هول تتناول آثاره الناس والجبال . فيبدو الناس فى ظله صغارا ضئالا على كثرتهم : فهم « كالفراش المبثوث » مستطارون مستخفون فى حيرة الفراش الذى يتهافت على الهلاك، وهو لا يملك لنفسه وجهة ، ولا يعرف له هدفا ! وتبدو الجبال التى كانت ثابتة راسخة كالصوف المنفوش تتقاذفه الرياح وتعبث به حتى الأنسام ! فمن تناسق التصوير أن تسمى القيامة بالقارعة ، فيتسق الظل الذى يلقيه اللفظ، والجرس الذى تشترك فيه حروفه كلها، مع آثار القارعة فى الناس والجبال سواء ! وتلقى إيحاءها للقلب والمشاعر ، تمهيدا لما ينتهى إليه المشهد من حساب وجزاء !

* * *

« القارعة . ما القارعة ؟ وما أدراك ما القارعة ؟ » . .

Marfat.com

لقد بدأ بإلقاء الكلمة مفردة كأنها قذيفة : « القارعة » بلا خبر ولا صفة . لتلق بظلها وجرسها الإيحاء المدوى المرهوب !

ثم أعقبها سؤال الهويل : « ما القارعة؟ » . . فهى الأمر المستهول الغامض الذى يثير الدهش والتساؤل !

ثم أجاب بسؤال التجهيل : «وما أدراك ما القارعة ؟ » . . فهى أكبر من أن يحيط بها الإدراك ، وأن يلم بها التصور !

ثم الإجابة بما يكون فيها ، لا بماهيتها . فماهيتها فوق الإدراك والتصور كما أسلفنا :

« يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش » . .

* * *

هذا هو المشهد الأول للقارعة . مشهد تطير له القلوب شعاعا ، وترجف منه الأوصال ارتجافا . ويحس السامع كأن كل شىء يتشبث به فى هذه الأرض قد طار حوله هباءا ثم تجىء الخاتمة للناس جميعا :

« فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه فأمه هاوية. وما أدراك ماهيه ؟ نار حامية ! » . .

وثقل الموازين وخفتها تفيدنا: قيما لها عند الله اعتبار ، وقيما ليس لها عنده اعتبار . وهذا ما يلقيه التعبير بجملته ، وهذا ـ والله أعلم ـ مايريده الله بكلماته . فالدخول فى جدل عقلى ولفظى حول هذه التعبيرات هو جفاء للحس القرآنى، وعبث ينشئه الفراغ من الاهتمام الحقيقى بالقرآن والإسلام !

« فأما من ثقلت موازينه » فى اعتبار الله وتقويمه « فهو فى عيشة راضية » . . ويدعها مجملة بلاتفصيل ، توقع فى الحس ظلال الرضى وهو أروح النعيم .

« وأما من خفت موازينه » فى اعتبار الله وتقويمه « فأمه هاوية » . . والأم هى مرجع الطفل وملاذه . فمرجع القوم وملاذهم يومئذ هو الهاوية !وفى التعبير أناقة ظاهرة ، وتنسيق خاص. وفيه كذلك غموض يمهد لإيضاح بعده يزيد فى عمق الأثر المقصود :

« وماأدراك ماهيه ؟ » . .

سؤال التجهيل والتهويل المعهود فى القرآن ، لإخراج الأمر عن حدود التصور وحيز الإدراك !

Marfat.com

ثم يجيء الجواب كنبرة الختام :

« نار حامية » ..

هذه هى أم الذى خفت موازينه ! أمه التى يفيء إليها ويأوى ! والأم عندها الأمن والراحة..
فماذا هو واجد عند أمه هذه .. الهاوية .. النار .. الحامية !!

إنها مفاجأة تعبيرية تمثل الحقيقة القاسية !

Marfat.com

سورة التكاثر مكية
وآياتها ٨

بسم الله الرحمن الرحيم

« أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ » ⑧

هذه السورة ذات إيقاع جليل رهيب عميق وكأنما هى صوت نذير ،قائم على شرف عال . يمد بصوته ويدوى بنبرته . يصيح بنوّم غافلين مخمورين سادرين، أشرفوا على الهاوية وعيونهم مغمضة ، وحسهم مسحور . فهو يمد بصوته إلى أعلى وأبعد مايبلغ :

« ألهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر » ..

أيها السادرون المخمورون . أيها اللاهون المتكاثرون بالأموال والأولاد وأعراض الحياة وأنتم مفارقون . أيها المخدوعون بماأنتم فيه عما يليه .أيها التاركون ماتتكاثرون فيه وتتفاخرون إلى حفرة ضيقة لا تكاثر فيها ولاتفاخر .. استيقظوا وانظروا . . فقد « ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر »

ثم يقرع قلوبهم بهول ماينتظرهم هناك بعد زيارة المقابر فى إيقاع عميق رزين :

« كلا سوف تعلمون » ..

ويكرر هذا الإيقاع بألفاظه وجرسه الرهيب الرصين :

« ثم كلا سوف تعلمون » .

ثم يزيد التوكيد عمقا ورهبة، وتلويحا بما وراءه من أمر ثقيل ، لايتبينون حقيقته الهائلة فى غمرة الخمار والاستكثار :

Marfat.com

« كلا لو تعلمون علم اليقين » ..

ثم يكشف عن هذه الحقيقة المطوية الرهيبة :

« لترونّ الجحيم » ..

ثم يؤكد هذه الحقيقة ويعمق وقعها الرهيب فى القلوب :

« ثم لترونّها عين اليقين » ..

ثم يلقى بالإيقاع الأخير ، الذى يدع المخمور يفيق ، والغافل يتنبه، والسادر يتلفت، والناعم يرتعش ويرتجف مما فى يديه من نعيم :

« ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » !

لتسألن عنه من أين نلتموه ؟ وفيم أنفقتموه ؟ أمن طاعة وفى طاعة ؟ أم من معصية وفى معصية ؟ أمن حلال وفى حلال؟أم من حرام وفى حرام ؟هل شكرتم؟ هل أديتم ؟ هل شاركتم؟ هل استأثرتم ؟

« لتسألن » عما تتكاثرون به وتتفاخرون . . فهو عبء تستخفونه فى غمرتكم ولهوكم ولكن وراءه ماوراءه من هم ثقيل !

* * *

إنها سورة تعبر بذاتها عن ذاتها . وتلقى فى الحس ماتلقى بمعناها وإيقاعها . وتدع القلب مثقلا مشغولا بهم الآخرة عن سفساف الحياة الدنيا وصغائر اهتماماتها التى يهش لها الفارغون !

إنها تصور الحياة الدنيا كالومضة الخاطفة فى الشريط الطويل . . « ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر » . . وتنتهى ومضة الحياة الدنيا وتنطوى صفحتها الصغيرة . . ثم يمتد الزمن بعد ذلك وتمتد الأثقال ؛ ويقوم الأداء التعبيرى ذاته بهذا الإيحاء . فتتسق الحقيقة مع النسق التعبيرى الفريد ..

ومايقرأ الإنسان هذه السورة الجليلة الرهيبة العميقة ، بإيقاعاتها الصاعدة الذاهبة فى الفضاء إلى بعيد فى مطلعها ، الرصينة الذاهبة إلى القرار العميق فى نهايتها . . حتى يشعر بثقل ماعلى عاتقه من أعقاب هذه الحياة الوامضة التى يحياها على الأرض ، ثم يحمل مايحمل منها ويمضى به مثقلا فى الطريق !

ثم ينشئ يحاسب نفسه على الصغير والزهيد !!!

Marfat.com

سورة العصر مكية
وآياتها ٣

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ، وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » .

فى هـذه السورة الصغيرة ذات الآيات الثلاث يتمثل منهج كامل للحياة البشرية كما يريدها الإسلام . وتبرز معالم التصور الإيمانى بحقيقته الكبيرة الشاملة فى أوضح وأدق صورة . إنها تضع الدستور الإسلامى كله فى كلمات قصار . وتصف الأمة المسلمة : حقيقتها ووظيفتها . فى آية واحدة هى الآية الثالثة من السورة .. وهذا هو الإعجاز الذى لايقدر عليه إلا الله .

والحقيقة الضخمة التى تقررها هذه السورة بمجموعها هى هذه :

إنه على امتداد الزمان فى جميع الأعصار ، وامتداد الإنسان فى جميع الأدهار، ليس هنالك إلا منهج واحد رابح، وطريق واحد ناج . هو ذلك المنهج الذى ترسم السورة حدوده ، وهو هذا الطريق الذى تصف السورة معالمه . وكل ماوراء ذلك ضياع وخسار ..

« والعصر ، إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

إنه الإيمان . والعمل الصالح . والتواصى بالحق . والتواصى بالصبر ..

* * *

فما الإيمان ؟ ؟

نحن لانعرّف الإيمان هنا تعريفه الفقهى ؛ ولكننا نتحدث عن طبيعته وقيمته فى الحياة .

Marfat.com

إنه اتصال هذا الـكائن الإنسانى الفانى الصغير المحدود بالأصل المطلق الأزلى الباقى الذى صدر عنه الوجود . ومن ثم اتصاله بالـكون الصادر عن ذات المصدر ، وبالنواميس التى تحكم هذا الـكون، وبالقوى والطاقات المذخورة فيه . والانطلاق حينئذ من حدود ذاته الصغيرة إلى رحابة الـكون الـكبير . ومن حدود قوته الهزيلة إلى عظمة الطاقات الـكونية المجهولة . ومن حدود عمره القصير إلى امتداد الآباد التى لايعلمها إلا الله (١) .

وفضلا عما يمنحه هذا الاتصال للـكائن الإنسانى من قوة وامتداد وانطلاق ، فإنه يمنحه إلى جانب هـذا كله متاعا بالوجود ومافيه من جمال ، ومن مخلوقات تتعاطف أرواحها مع روحه . فإذا الحياة رحلة فى مهرجان إلهى مقام للبشر فى كل مكان وفى كل أوان . .. وهى سعادة رفيعة، وفرح نفيس،وأنس بالحياة والـكون كأنس الحبيب بالحبيب . وهو كسب لايعدله كسب . وفقدانه خسران لا يعدله خسران . . .

ثم إن مقومات الإيمان هى بذاتها مقومات الإنسانية الرفيعة الـكريمة . . .

التعبد لإله واحد ، يرفع الإنسان عن العبودية لسواه ، ويقيم فى نفسه المساواة مع جميع العباد ، فلا يذل لأحد ، ولايحنى رأسه لغير الواحد القهار .. ومن هنا الانطلاق التحررى الحقيقى للإنسان . الانطلاق الذى ينبثق من الضمير ومن تصور الحقيقة الواقعة فى الوجود . إنه ليس هناك إلا قوة واحدة وإلا معبود واحد . فالانطلاق التحررى ينبثق من هـذا التصور انبثاقا ذاتيا ، لأنه هو الأمر المنطقى الوحيد .

والربانية التى تحدد الجهة التى يتلقى منها الإنسان تصوراته وقيمه وموازينه واعتباراته وشرائعه وقوانينه ، وكل مايربطه بالله ، أوبالوجود ، أوبالناس . فينتفى من الحياة الهوى والمصلحة ، وتحل محلهما الشريعة والعدالة ..وترفع من شعور المؤمن بقيمة منهجه ، وتمده بالاستعلاء على تصورات الجاهلية وقيمها واعتباراتها ، وعلى القيم المستمدة من الارتباطات الأرضية الواقعة . . ولوكان فردا واحدا ، لأنه إنما يواجهها بتصورات وقيم واعتبارات

---

(١) يراجع فصل العقيدة والحياة من كتاب : السلام العالمى والإسلام .

Marfat.com

مستمدة من الله مباشرة فهى الأعلى والأقوى والأولى بالاتباع والاحترام [1] .

ووضوح الصلة بين الخالق والمخلوق ، وتبين مقام الألوهيـة ومقام العبودية على حقيقتهما الناصعة ، مما يصل هذه الخليقة الفانية بالحقيقة الباقية فى غير تعقيد ، وبلا وساطة فى الطريق . ويودع القلب نورا ، والروح طمأنينة ، والنفس أنساً وثقـة . وينفى التردد والخوف والقلق والاضطراب. كما ينفى الاستكبار فى الأرض بغير الحق، والاستعلاء على العباد بالباطل والافتراء !

والاستقامة على المنهج الذى يريده الله . فلا يـكون الخير فلتة عارضة ، ولا نزوة طارئة ، ولا حادثة منقطعة. إنما ينبعث عن دوافع ، ويتجه إلى هدف ، ويتعاون عليه الأفراد المرتبطون فى الله ، فتقوم الجماعة المسلمة ذات الهدف الواحد الواضح، والراية الواحدة المتميزة. كما تتضامن الأجيال المتعاقبة الموصولة بهذا الحبل المتين .

والاعتقاد بـكرامة الإنسان على الله ، يرفع من اعتباره فى نظر نفسه ، ويثير فى ضميره الحياء من التدنى عن المرتبة التى رفعه الله إليها . وهذا أرفع تصور يتصوره الإنسان لنفسه ... أنه كريم عنـد الله . . وكل مذهب أو تصور يحط من قدر الإنسان فى نظر نفسه ، ويرده إلى منبت حقير ، ويفصل بينه وبين الملإ الأعلى . . هو تصور أو مذهب يدعوه إلى التدنى والتسفل ولو لم يقل له ذلك صراحة !

ومن هنا كانت إيحاءات الداروينية والفرويدية والماركسية هى أبشع ماتبتلى به الفطرة البشرية والتوجيه الإنسانى ، فتوحى إلى البشر بأن كل سفالة وكل قذارة وكل حقارة هى أمر طبيعى متوقع ، ليس فيه ما يستغرب ، ومن ثم ليس فيه ما يخجل . . وهى جناية على البشرية تستحق المقت والازدراء [2] !

ونظافة المشاعر تجىء نتيجة مباشرة للشعور بـكرامة الإنسان على الله . ثم برقابة الله على الضمائر واطلاعه على السرائر . وإن الإنسان السوى الذى لم تمسخه إيحاءات فرويد وكارل ماركس وأمثالهما ، ليستحيي أن يطلع إنسان مثله على شوائب ضميره وخائنة شعوره . والمؤمن يحس وقع نظر الله ـ سبحانه ـ فى أطواء حسه إحساسا يرتعش له ويهتز . فأولى أن يطهر حسه هذا وينظفه !

---

(١) يراجع تفسير سورة « عبس وتولى » فى هذا الجزء ص ٣٦ .

(٢) يراجع كتاب : الإنسان بين المادية والإسلام [لمحمد قطب] .

Marfat.com

والحاسة الأخلاقية ثمرة طبيعية وحتمية للإيمان بإله عادل رحيم عفو كريم ودود حليم ، يكره الشر ويحب الخير . ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

وهناك التبعة المترتبة على حرية الإرادة وشمول الرقابة ، وما تثيره فى حس المؤمن من يقظة وحساسية ، ومن رزانة وتدبر . وهى ليست تبعة فردية فحسب ، إنما هى كذلك تبعة جماعية، وتبعة تجاه الخير فى ذاته ، وإزاء البشرية جميعا . . أمام الله . . وحين يتحرك المؤمن حركة فهو يحس بهذا كله ، فيكبر فى عين نفسه ، ويقدر نتيجة خطوه قبل أن يمد رجله . . إنه كائن له قيمة فى الوجود ، وعليه تبعة فى نظام هذا الوجود . .

والارتفاع عن التكالب على أعراض الحياة الدنيا ـ وهو بعض إيحاءات الإيمان ـ واختيار ما عند الله ، وهو خير وأبقى . « فى ذلك فليتنافس المتنافسون » . . والتنافس على ما عند الله يرفع ويطهر وينظف . . يساعد على هذا سعة المجال الذى يتحرك فيه المؤمن . . بين الدنيا والآخرة ، والأرض والملإ الأعلى . مما يهدئ فى نفسه القلق على النتيجة والعجلة على الثمرة . فهو يفعل الخير لأنه الخير ، ولأن الله يريده ، ولا عليه ألا يدرّ الخير خيرا على مشهد من عينيه فى عمره الفردى المحدود . فالله الذى يفعل الخير ابتغاء وجهه لا يموت ـ سبحانه ـ ولا ينسى ، ولا يغفل شيئا من عمله . والأرض ليست دار جزاء . والحياة الدنيا ليست نهاية المطاف . ومن ثم يستمد القدرة على مواصلة الخير من هذا الينبوع الذى لا ينضب . وهذا هو الذى يكفل أن يكون الخير منهجا موصولا ، لا دفعة طارئة ، ولا فلتة مقطوعة . وهذا هو الذى يمد المؤمن بهذه القوة الهائلة التى يقف بها فى وجه الشر . سواء تمثل فى طغيان طاغية ، أو فى ضغط الاعتبارات الجاهلية، أو فى اندفاع نزواته هو وضغطها على إرادته . هذا الضغط الذى ينشأ أول ما ينشأ من شعور الفرد بقصر عمره عن استيعاب لذائذه وتحقيق أطماعه، وقصره كذلك عن رؤية النتائج البعيدة للخير ، وشهود انتصار الحق على الباطل ! والإيمان يعالج هذا الشعور علاجا أساسيا كاملا (١) .

إن الإيمان هو أصل الحياة الكبير ، الذى ينبثق منه كل فرع من فروع الخير ، وتتعلق

---

(١) يراجع تفسير سورة البروج فى هذا الجزء ص ١٠٨ .

Marfat.com

به كل ثمرة من ثماره، وإلا فهو فرع مقطوع من شجرته ، صائر إلى ذبول وجفاف . وإلا فهى ثمرة شيطانية ، وليس لها امتداد أو دوام !

وهو المحور الذى تشد إليه جميع خيوط الحياة الرفيعة . وإلا فهى مفلتة لا تمسك بشىء ، ذاهبة بددا مع الأهواء والنزوات . .

وهو المنهج الذى يضم شتات الأعمال ، ويردها إلى نظام تتناسق معه وتتعاون ، وتنسلك فى طريق واحد ، وفى حركة واحدة ، لها دافع معلوم ، ولها هدف مرسوم . .

ومن ثم يهدر القرآن قيمة كل عمل لايرجع إلى هذا الأصل ، ولا يشد إلى هذا المحور، ولا ينبع من هذا المنهج . والنظرية الإسلامية صريحة فى هذا كل الصراحة . . جاء فى سورة إبراهيم : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف . لايقدرون مما كسبوا على شىء » .. وجاء فى سورة النور : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا » .. وهى نصوص صريحة فى إهدار قيمة العمل كله ، مالم يستند إلى الإيمان ، الذى يجعل له دافعا موصولا بمصدر الوجود ، وهدفا متناسقا مع غاية الوجود . وهذه هى النظرة المنطقية لعقيدة ترد الأمور كلها إلى الله . فمن انقطع عنه فقد انقطع وفقد حقيقة معناه (١) .

إن الإيمان دليل على صحة الفطرة وسلامة التكوين الإنسانى ، وتناسقه مع فطرة الكون كله ، ودليل التجاوب بين الإنسان والكون من حوله . فهو يعيش فى هذا الكون ، وحين يصح كيانه لابد أن يقع بينه وبين هذا الكون تجاوب . ولا بد أن ينتهى هذا التجاوب إلى الإيمان ، بحكم مافى الكون ذاته من دلائل وإيحاءات عن القدرة المطلقة التى أبدعته على هذا النسق . فإذا فقد هذا التجاوب أو تعطل ، كان هذا بذاته دليلا على خلل ونقص فى الجهاز

---

(١) جاء فى تفسير الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده لقوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » . . « وما نقله بعضهم من الإجماع على أن الكافر لاتنفعه فى الآخرة حسنة ، ولا يخفف عنه عذاب سيئة ما، لا أصل له » .. وها نحن أولاء نرى أن المسألة لم تجىء من إجماع، ولكن من نصوص قرآنية صريحة هى أصل بذاتها .

Marfat.com

الذى يتاتى ، وهو هذا الكيان الإنسانى . وكان هذا دليل فساد لايكون معه إلا الخسران . ولا يصح معه عمل ولو كان فى ظاهره مسحة من الصلاح .

وإن عالم المؤمن من السعة والشمول والامتداد والارتفاع والجمال والسعادة بحيث تبدو إلى جانبه عوالم غير المؤمنين صغيرة ضئيلة هابطة هزيلة شائهة شقية . . خاسرة أى خسران !

* * *

والعمل الصالح وهو الثمرة الطبيعية للإيمان ، والحركة الذاتية التى تبدأ فى ذات اللحظة التى تستقر فيها حقيقة الإيمان فى القلب فالإيمان حقيقة إيجابية متحركة . ما إن تستقر فى الضمير حتى تسعى بذاتها إلى تحقيق ذاتها فى الخارج فى صورة عمل صالح . . هذا هو الإيمان الإسلامى . . لايمكن أن يظل خامدا لايتحرك ، كامنا لايتبدى فى صورة حية خارج ذات المؤمن . . فإن لم يتحرك هذه الحركة الطبيعية فهو مزيف أو ميت. شأنه شأن الزهرة لاتمسك أريجها . فهو ينبعث منها انبعاثا طبيعيا . وإلا فهو غير موجود !

ومن هنا قيمة الإيمان . . إنه حركة وعمل وبناء وتعمير . . يتجه إلى الله . . إنه ليس انكماشا وسلبية وانزواء فى مكنونات الضمير . وليس مجرد النوايا الطيبة التى لاتتمثل فى حركة. وهذه طبيعة الإسلام البارزة التى تجعل منه قوة بناء كبرى فى صميم الحياة .

وهذا مفهوم مادام الإيمان هو الارتباط بالمنهج الربانى . وهذا المنهج حركة دائمة متصلة فى صميم الوجود . صادرة عن تدبير ، متجهة إلى غاية. وقيادة الإيمان للبشرية هى قيادة لتحقيق منهج الحركة التى هى طبيعة الوجود. الحركة الخيرة النظيفة البانية المثمرة اللائقة بمنهج يصدر عن الله . .

* * *

أما التواصى بالحق والتواصى بالصبر فتبرز من خلالها صورة الأمة المسلمة ـ أو الجماعة المسلمة ـ ذات الكيان الخاص ، والرابطة المميزة ، والوجهة الموحدة . الجماعة التى تشعر بكيانها كما تشعر بواجبها . والتى تعرف حقيقة ماهى مقدمة عليه من الإيمان والعمل الصالح ، الذى يشمل فيما يشمل قيادة البشرية فى طريق الإيمان والعمل الصالح ؛ فتتواصى فيما بينها بما يعينها على النهوض بالأمانة الكبرى .

Marfat.com

فمن خلال لفظ التواصى ومعناه وطبيعته وحقيقته تبرز صورة الأمة – أو الجماعة المتضامة المتضامنة. الأمة الخيرة . الواعية . القيمة فى الأرض على الحق والعدل والخير.. وهى أعلى وأرفع صورة للأمة المختارة . . وهكذا يريد الإسلام أمة الإسلام . . هكذا يريدها أمة خيرة قوية واعية قائمة على حراسة الحق والخير ، متواصية بالحق والصبر فى مودة وتعاون وتآخ تضحى بها كلمة التواصى فى القرآن . .

والتواصى بالحق ضرورة . فالنهوض بالحق عسير . والمعوقات عن الحق كثيرة : هوى النفس ، ومنطق المصلحة ، وتصورات البيئة . وطغيان الطغاة ، وظلم الظلمة ، وجور الجائرين . . والتواصى تذكير وتشجيع وإشعار بالقربى فى الهدف والغاية ، والأخوة فى العبء والأمانة . فهو مضاعفة لمجموع الاتجاهات الفردية ، إذ تتفاعل معاً فتتضاعف . تتضاعف بإحساس كل حارس للحق أن معه غيره يوصيه ويشجعه ويقف معه ويحبه ولا يخذله . . وهذا الدين – وهو الحق – لايقوم إلا فى حراسة جماعة متعاونة متواصية متكافلة متضامة متضامنة على هذا المثال .

والتواصى بالصبر كذلك ضرورة . فالقيام على الإيمان والعمل الصالح ، وحراسة الحق والعدل ، من أعسر مايواجه الفرد والجماعة . ولابد من الصبر . لابد من الصبر على جهاد النفس ، وجهاد الغير . والصبر على الأذى والمشقة . والصبر على تبجح الباطل وتنفج الشر . والصبر على طول الطريق وبطء المراحل ، وانطماس المعالم ، وبعد النهاية !

والتواصى بالصبر يضاعف القدرة ، بما يبعثه من إحساس بوحدة الهدف ، ووحدة المتجه ، وتساند الجميع ، وتزودهم بالحب والعزم والإصرار . . إلى آخر مايثيره من معانى الجماعة التى لاتعيش حقيقة الإسلام إلا فى جوها ، ولاتبرز إلا من خلالها . . وإلا فهو الخسران والضياع .

***

وننظر اليوم من خلال هـذا الدستور الذى يرسمه القرآن لحياة الفئة الرابحة الناجية من الخسران ، فيهولنا أن نرى الخسر يحيق بالبشرية فى كل مكان على ظهر الأرض بلااستثناء . يهولنا هذا الضياع الذى تعانيه البشرية فى الدنيا – قبل الآخرة – يهولنا أن نرى إعراض البشرية ذلك الإعراض البائس عن الخير الذى أفاضه الله عليها ؛ مع فقدان السلطة الخيرة المؤمنة القائمة على الحق فى هـذه الأرض . . هذا والمسلمون – أو أصحاب دعوى الإسلام بتعبير أدق – هم أبعد أهل الأرض عن هذا الخير ، وأشدهم إعراضا عن المنهج الإلهى الذى اختاره الله لهم ،

Marfat.com

وعن الدستور الذى شرعه لأمتهم ، وعن الطريق الوحيد الذى رسمه للنجاة من الخسران والضياع . والبقاع التى انبعث منها هذا الخير أول مرة تترك الراية التى رفعها لها الله ، راية الإيمان ، لتتعلق برايات عنصرية لم تنل تحتها خيرا قط فى تاريخها كله .ولم يكن لها تحتها ذكر فى الأرض ولا فى السماء . حتى جاء الإسلام فرفع لها هذه الراية المنتسبة لله ، لاشريك له ، المسماة باسم الله لاشريك له ، الموسومة بميسم الله لا شريك له .. الراية التى انتصر العرب تحتها وسادوا وقادوا البشرية قيادة خيرة قوية واعية ناجية لأول مرة فى تاريخهم وفى تاريخ البشرية الطويل . .

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوى فى كتابه القيم : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ » . . عن هذه القيادة الخيرة الفذة فى التاريخ كله ، وتحت عنوان « عهد القيادة الإسلامية » : « الأئمة المسلمون وخصائصهم » :

« ظهر المسلمون ، وتزعموا العالم ، وعزلوا الأمم المزيفة من زعامة الإنسانية التى استغلتها وأساءت عملها،وساروا بالإنسانية سيرا حثيثا متزنا عادلا،وقد توفرت فيهم الصفات التى تؤهلهم لقيادة الأمم ، وتضمن سعادتها وفلاحها فى ظلهم وتحت قيادتهم.

« أولا : أنهم أصحاب كتاب منزل وشريعة إلهية ، فلا يقننون ولا يشترعون من عند أنفسهم . لأن ذلك منبع الجهل والخطأ والظلم ، ولا يخبطون فى سلوكهم وسياستهم ومعاملتهم للناس خبط عشواء ، وقد جعل الله لهم نورا يمشون به فى الناس ، وجعل لهم شريعة يحكمون بها الناس « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها؟ » وقد قال الله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » .

ثانيا : ـ أنهم لم يتولوا الحكم والقيادة بغير تربية خلقية وتزكية نفس ، بخلاف غالب الأمم والأفراد ورجال الحكومة فى الماضى والحاضر ، بل مكثوا زمنا طويلا تحت تربية محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإشرافه الدقيق ، يزكيهم ويؤدبهم ، ويأخذهم بالزهد والورع والعفاف والأمانة

Marfat.com

والإيثار وخشية الله ، وعدم الاستشراف للإمارة والحرص عليها . يقول : « إنا والله لانولى هذا العمل أحدا سأله ، أو أحدا حرص عليه [1] » .

ولا يزال يقرع سمعهم : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » .. فكانوا لايتهافتون على الوظائف والمناصب ، فضلا عن أن يرشحوا أنفسهم للإمارة ، ويزكوا أنفسهم ، وينشروا دعاية لها ، وينفقوا الأموال سعيا وراءها . فإذا تولوا شيئا من أمور الناس لم يعدوه مغنما أو طعمة أو ثمنا لما أنفقوا من مال أو جهد ؛ بل عدوه أمانة فى عنقهم ، وامتحانا من الله ؛ ويعلمون أنهم موقوفون عند ربهم، ومسؤولون عن الدقيق والجليل ، وتذكروا دائما قول الله تعالى: «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » . . وقوله . . « هو الذى جعلكم خلائف الأرض، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ، ليبلوكم فيما آتاكم » ..

« ثالثا : أنهم لم يكونوا خدمة جنس ، ورسل شعب أو وطن ، يسعون لرفاهيته ومصلحته وحده؛ ويؤمنون بفضله وشرفه على جميع الشعوب والأوطان، لم يخلقوا إلا ليكونوا حكاما ،ولم تخلق إلا لتكون محكومة لهم . ولم يخرجوا ليؤسسوا إمبراطورية عربية ينعمون ويرتعون فى ظلها ، ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها ، ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلى حكم العرب وإلى حكم أنفسهم ! إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعا إلى عبادة الله وحده . كما قال ربعى ابن عامر رسول المسلمين فى مجلس يزدجرد: الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام [2] .

فالأمم عندهم سواء،والناس عندهم سواء الناس كلهم من آدم،وآدم من تراب.لافضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى : « ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وقد قال عمر ابن الخطاب لعمرو ابن العاص عامل مصر ـ وقد ضرب ابنه مصريا وافتخر

---

(١) حديث متفق عليه .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير .

Marfat.com

بآبائه قائلا : خذها من ابن الأكرمين . فاقتص منه عمر ـ : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أحرارا أمهاتهم [1] ؟ فلم يبخل هؤلاء بما عندهم من دين وعلم وتهذيب على أحد ، ولم يراعوا فى الحكم والإمارة والفضل نسبا ولونا ووطنا ، بل كانوا سحابة انتظمت البلاد وعمت العباد ، وغوادى مزنة أثنى عليها السهل والوعر ، وانتفعت بها البلاد والعباد على قدر قبولها وصلاحها .

فى ظل هؤلاء وتحت حكمهم استطاعت الأمم والشعوب ـ حتى المضطهدة منها فى القديم ـ أن تنال نصيبها من الدين والعلم والتهذيب والحكومة ، وأن تساهم العرب فى بناء العالم الجديد ، بل إن كثيرا من أفرادها فاقوا العرب فى بعض الفضائل ، وكان منهم أئمة هم تيجان مفارق العرب وسادة المسلمين من الأئمة والفقهاء والمحدثين ...

« رابعا : إن الإنسان جسم وروح ، وهو ذو قلب وعقل وعواطف وجوارح ، لايسمد ولايفلح ولا يرقى رقيا متزنا عادلا حتى تنمو فيه هذه القوى كلها نموا متناسبا لائقا بها، ويتغذى غذاء صالحا ، ولايمكن أن توجد المدنية الصالحة البتة إلا إذا ساد وسط دينى خلق عقلى جسدى يمكن فيه للإنسان بسهولة أن يبلغ كماله الإنسانى . وقد أثبتت التجربة أنه لايكون ذلك إلا إذا مكنت قيادة الحياة وإدارة دفة المدنية بين الذين يؤمنون بالروح والمادة ، ويكونون أمثلة كاملة فى الحياة الدينية والخلقية، وأصحاب عقول سليمة راجحة ، وعلوم صحيحة نافعة » ...

إلى أن يقول تحت عنوان : « دور الخلافة الراشدة مثل المدنية الصالحة » :

« وكذلك كان ، فلم نعرف دورا من أدوار التاريخ أكمل وأجمل وأزهر فى جميع هذه النواحى من هذا الدور ـ دور الخلافة الراشدة ـ فقد تعاونت فيه قوة الروح والأخلاق والدين والعلم والأدوات المادية فى تنشئة الإنسان الكامل . وفى ظهور المدنية الصالحة . . كانت حكومة من أكبر حكومات العالم وقوة سياسية مادية تفوق كل قوة فى عصرها ، تسود فيها المثل الخلقية العليا ، وتحكم معايير الأخلاق الفاضلة فى حياة الناس ونظام الحكم ، وتزدهر فيها الأخلاق والفضيلة مع التجارة والصناعة ، ويساير الرقى الخلقى والروحى اتساع الفتوح واحتفال الحضارة ، فتقل الجنايات ، وتندر الجرائم بالنسبة إلى مساحة المملكة وعدد سكانها ورغم دواعيها وأسبابها ، وتحسن علاقة الفرد بالفرد ، والفرد بالجماعة ، وعلاقة الجماعة بالفرد . وهو دور كمالى لم يعلم الإنسان بأرقى منه ، ولم يفترض المفترضون أزهى منه .. »

* * *

(١) القصة بتمامها فى تاريخ عمر ابن الخطاب لابن الجوزى .

Marfat.com

هذه بعض ملامح تلك الحقبة السعيدة التى عاشتها البشرية فى ظل الدستور الإسلامى الذى تضع « سورة العصر » قواعده ، وتحت تلك الراية الإيمانية التى تحملها جماعة الإيمان والعمل الصالح والتواصى بالحق والتواصى بالصبر .

فأين منها هذا الضياع الذى تعانيه البشرية اليوم فى كل مكان، والخسار الذى تبوء به فى معركة الخير والشر ، والعماء عن ذلك الخير الكبير الذى حملته الأمة العربية للبشر يوم حملت راية الإسلام فكانت لها القيادة . ثم وضعت هذه الراية فإذا هى فى ذيل القافلة . وإذا القافلة كلها تعطو إلى الضياع والخسار . وإذا الرايات كلها بعد ذلك للشيطان ليس فيها راية واحدة لله . وإذا هى كلها للباطل ليس فيها راية واحدة للحق . وإذا هى كلها للعماء والضلال ليس فيها راية واحدة للهدى والنور ، وإذا هى كلها للخسار ليس فيها راية واحدة للفلاح ! ورأية الله ماتزال. وإنها لترتقب اليد التى ترفعها والأمة التى تسير تحتها إلى الخير والهدى والصلاح والفلاح .

* * *

ذلك شأن الربح والخسر فى هذه الأرض . وهو على عظمته إذا قيس بشأن الآخرة صغير. وهناك . هناك الربح الحق والخسر الحق . هناك فى الأمد الطويل ، وفى الحياة الباقية ،وفى عالم الحقيقة .. هناك الربح والخسر: ربح الجنة والرضوان، أوخسر الجنة والرضوان .هناك حيث يبلغ الإنسان أقصى الكمال المقدر له ، أويرتكس فتهدر آدميته ، وينتهى إلى أن يكون حجرا فى القيمة ودون الحجر فى الراحة :

« يوم ينظر المرء ماقدمت يداه ويقول الكافر : ياليتنى كنت ترابا » ..

وهذه السورة حاسمة فى تحديد الطريق . . إنه الخسر . . « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .. طريق واحد لايتعدد .طريق الإيمان والعمل الصالح وقيام الجماعة المسلمة ، التى تتواصى بالحق وتتواصى بالصبر . وتقوم متضامنة على حراسة الحق مزودة بزاد الصبر .

إنه طريق واحد . ومن ثم كان الرجلان من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة « والعصر » ثم يسلم أحدهما على الآخر .. لقد كانا يتعاهدان على هذا الدستور الإلهى ، يتعاهدان على الإيمان والصلاح ، ويتعاهدان على التواصى بالحق والتواصى بالصبر . ويتعاهدان على أنهما حارسان لهذا الدستور . ويتعاهدان على أنهما من هذه الأمة القائمة على هذا الدستور .. .

Marfat.com

سورة الهمزة مكية
وآياتها ٩

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ * الَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ؟ * نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ * فِى عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ » ⑨

تعكس هذه السورة صورة من الصور الواقعية فى حياة الدعوة فى عهدها الأول . وهى فى الوقت ذاته نموذج يتكرر فى كل بيئة .. صورة اللئيم الصغير النفس ، الذى يؤتى المال فتسيطر نفسه به ، حتى مايطيق نفسه ! ويروح يشعر أن المال هو القيمة العليا فى الحياة . القيمة التى تهون أمامها جميع القيم وجميع الأقدار : أقدار الناس . وأقدار المعانى . وأقدار الحقائق . وأنه وقد ملك المال فقد ملك كرامات الناس وأقدارهم بلا حساب !

كما يروح يحسب أن هذا المال إله قادر على كل شىء ؛ لا يعجز عن فعل شىء ! حتى دفع الموت وتخليد الحياة . ودفع قضاء الله وحسابه وجزائه إن كان هناك فى نظره حساب وجزاء !

ومن ثم ينطلق فى هوس بهذا المال يعده ويستلذ تعداده ؛ وتنطلق فى كيانه نفخة فاجرة ، تدفعه إلى الاستهانة بأقدار الناس وكراماتهم . ولمزهم وهمزهم . . يعيبهم بلسانه ويسخر منهم بحركاته . سواء بمحاكاة حركاتهم وأصواتهم ، أو بتحقير صفاتهم وسماتهم . . بالقول والإشارة . بالغمز واللمز . باللفتة الساخرة والحركة الهازئة !

وهى صورة لئيمة حقيرة من صور النفوس البشرية حين تخلو من المروءة وتعرى من الإيمان . والإسلام يكره هذه الصورة الهابطة من صور النفوس بحكم ترفعه الأخلاقى . وقد نهى عن السخرية واللمز والعيب فى مواضع شتى إلا أن ذكرها هنا بهذا التشنيع والتقبيح

Marfat.com

مع الوعيد والتهديد ، يوحى بأنه كان يواجه حالة واقعية من بعض المشركين تجاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتجاه المؤمنين .. فجاء الرد عليها فى صورة الردع الشديد ، والتهديد الرعيب. وقد وردت روايات بتعيين بعض الشخصيات . ولكنها ليست وثيقة . فنكتفى نحن بما قررناه عنها..

* * *

والتهديد يجىء فى صورة مشهد من مشاهد القيامة يمثل صورة للعذاب مادية ونفسية ، وصورة للنار حسية ومعنوية . وقد لوحظ فيها التقابل بين الجرم وطريقة الجزاء وجو العقاب . فصورة الهمزة اللمزة ، الذى يدأب على الهزء بالناس وعلى لمزهم فى أنفسهم وأعراضهم ، وهو يجمع المال فيظنه كفيلا بالخلود ! صورة هـذا المتعالى الساخر المستقوى بالمال ، تقابلها صورة « المنبوذ » المهمل المتردى فى « الحطمة » التى تحطم كل مايلقى إليها ، فتحطم كيانه وكبرياءه . وهى « نار الله الموقدة » وإضافتها لله وتخصيصها هكذا يوحى بأنها نار فذة ، غير معهودة ، ويخلع عليها رهبة مفزعة رعيبة . وهى « تطلع » على فؤاده الذى ينبعث منه الهمز واللمز ، وتكمن فيه السخرية والكبرياء والغرور . وتكملة لصورة المحطم المنبوذ المهمل .. هـذه النار مغلقة عليه ، لاينقذه منها أحد ، ولايسأل عنه فيها أحد ! وهو موثق فيها إلى عمود كما توثق البهائم بلا احترام ! وفى جرس الألفاظ تشديد : « عدّده . كلا . لينبذن . تطلع . ممدّدة » وفى معانى العبارات توكيد بشتى أساليب التوكيد : « لينبذن فى الحطمة . وماأدراك ماالحطمة ؟ نار الله الموقدة . . » فهذا الإجمال والإبهام . ثم سؤال الاستهوال . ثم الإجابة والبيان .. كلها من أساليب التوكيد والتضخيم .. وفى التعبير تهديد « ويل . لينبذن . الحطمة نار الله الموقدة . التى تطلع على الأفئدة . إنها عليهم مؤصدة . فى عمد ممددة » . .

وفى ذلك كله لون من التناسق التصويرى والشعورى يتفق مع فعلة « الهمزة اللمزة » !

* * *

لقد كان القرآن يتابع أحداث الدعوة ويقودها فى الوقت ذاته . وكان هو السلاح البتار الصاعق الذى يدمر كيد الكائدين ، ويزلزل قلوب الأعداء ، ويثبت أرواح المؤمنين .

وإنا لنرى فى عناية الله سبحانه بالرد على هذه الصورة معنيين كبيرين :

الأول : تقبيح الهبوط الأخلاقى وتبشيع هذه الصورة الهابطة من النفوس .

والثانى : المناجزة عن المؤمنين وحفظ نفوسهم من أن تتسرب إليها مهانة الإهانة، وإشعارهم بأن الله يرى مايقع لهم ، ويكرهه ، ويعاقب عليه . . وفى هذا كفاية لرفع أرواحهم واستعلائها على الكيد اللئيم . . .

Marfat.com

سورة الفيل مكية
وآياتها ٥

بسم الله الرحمن الرحيم

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ؟ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ؟ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ » ﴿٥﴾

تشير هـذه السورة إلى حادث مستفيض الشهرة فى حياة الجزيرة العربية قبل البعثة ، عظيم الدلالة على رعاية الله لهذه البقعة المقدسة التى اختارها الله لتكون ملتقى النور الأخير ، ومحضن العقيدة الجديدة ، والنقطة التى تبدأ منها زحفها المقدس لمطاردة الجاهلية فى أرجاء الأرض ، وإقرار الهدى والحق والخير فيها ..

وجملة ماتشير إليه الروايات المتعددة عن هذا الحادث ، أن الحاكم الحبشى لليمن ـ فى الفترة التى خضعت فيها اليمن لحكم الحبشة بعد طرد الحكم الفارسى منها ـ وتسميه الروايات : «أبرهة» ، كان قد بنى كنيسة فى اليمن باسم ملك الحبشة وجمع لها كل أسباب الفخامة، على نية أن يصرف بها العرب عن البيت الحرام فى مكة ، وقد رأى مبلغ انجذاب أهل اليمن الذين يحكمهم إلى هذا البيت ، شأنهم شأن بقية العرب فى وسط الجزيرة وشمالها كذلك . وكتب إلى ملك الحبشة بهذه النية ..

ولكن العرب لم ينصرفوا عن بيتهم المقدس ، فقد كانوا يعتقدون أنهم أبناء إبراهيم وإسماعيل صاحبى هـذا البيت ، وكان هـذا موضع اعتزازهم على طريقتهم بالفخر بالأنساب .

Marfat.com

وكانت معتقداتهم ـ على تهافتها ـ أفضل فى نظرهم من معتقدات أهل الكتاب من حولهم ، وهم يرون مافيها من خلل واضطراب وتهافت كذلك .

عندئذ صح عزم « أبرهة » على هدم الكعبة ليصرف الناس عنها ؛ وقاد جيشا جرارا تصاحبه الفيلة ، وفى مقدمتها فيل عظيم ذو شهرة خاصة عندهم فتسامع العرب به وبقصده . وعز عليهم أن يتوجه لهدم كعبتهم . فوقف فى طريقه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نفر ، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن البيت الحرام ، فأجابه إلى ذلك من أجابه . ثم عرض له فقاتله ، ولكنه هزم وأخذه أبرهة أسيرا .

ثم وقف له فى الطريق كذلك نفيل ابن حبيب الخثعمى فى قبيلتين من العرب ومعهما عرب كثير ، فهزمهم كذلك وأسر نفيلا ، الذى قبل أن يكون دليله فى أرض العرب .

حتى إذا مر بالطائف خرج إليه رجال من ثقيف فقالوا له : إن البيت الذى يقصده ليس عندهم إنما هو فى مكة . وذلك ليدفعوه عن بيتهم الذى بنوه للاّت ! وبعثوا معه من يدله على الكعبة !

فلما كان أبرهة بالمغمس بين الطائف ومكة، بعث قائدا من قواده حتى انتهى إلى مكة فساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرهم ، فأصاب فيها مئتى بعير لعبد المطلب ابن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها . فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله . ثم عرفوا أنهم لاطاقة لهم به فتركوا ذلك .

وبعث أبرهة رسولا إلى مكة يسأل عن سيد هذا البلد ، ويبلغه أن الملك لم يأت لحربهم وإنما جاء لهدم هذا البيت ، فإن لم يتعرضوا له فلا حاجة له فى دمائهم ! فإذا كان سيد البلد لايريد الحرب جاء به إلى الملك . . فلما كلم عبد المطلب فيما جاء به قال له : والله مانريد حربه وما لنا بذلك من طاقة . هذا بيت الله الحرام . وبيت خليله إبراهيم عليه السلام . . فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وإن يخل بينه وبينه فوالله ماعندنا دفع عنه . . فانطلق معه إلى أبرهة . .

قال ابن إسحاق : وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم . فلما رآه أبرهة أجله

Marfat.com

وأعظمه ، وأكرمه عن أن يجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه . فنزل أبرهة عن سريره، فجلس على بساطه وأجلسه معه إلى جانبه . ثم قال لترجمانه : قل له : ماحاجتك؟ فقال: حاجتي أن يرد على الملك مئتي بعير أصابها لي. فلما قال ذلك، قال أبرهة لترجمانه : قل له : قد كنت أعجبتني حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني ! أتكلمني في مئتي بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ؟ قال له عبد المطلب : إني أنا رب الإبل . وإن للبيت ربا سيمنعه . قال ما كان ليمتنع مني . قال : أنت وذاك ! . . فرد عليه إبله .

ثم انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة ، والتحرز في شعف الجبال. ثم قام فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه. وروى عن المطلب أنه أنشد :

لاهُمّ إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك .
لايغلبن صليبهم ومحالهم أبدا محالك
إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمرٌ ما بدا لك !

فأما أبرهة فوجه جيشه وفيله لما جاء له. فبرك الفيل دون مكة لايدخلها، وجهدوا في حمله على اقتحامها فلم يفلحوا . وهذه الحادثة ثابتة بقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم الحديبية حين بركت ناقته القصواء دون مكة، فقالوا : خلأت القصواء (أي حرنت) فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ماخلأت القصواء ، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل [1] . . » وفي الصحيحين أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال يوم فتح مكة : « إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب » ، فهي حادثة ثابتة أنه قد حبس الفيل عن مكة في يوم الفيل . .

ثم كان ما أراده الله من إهلاك الجيش وقائده ، فأرسل عليهم جماعات من الطير تحصبهم بحجارة من طين وحجر ، فتركتهم كأوراق الشجر الجافة الممزقة . كما يحكي عنهم القرآن

---

(١) أخرجه البخاري .

Marfat.com

الكريم .. وأصيب أبرهة فى جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، حتى قدموا به صنعاء، فما مات حتى انشق صدره عن قلبه كما تقول الروايات . .

وتختلف الروايات هنا فى تحديد نوع هـذه الجماعات من الطير ، وأشكالها ، وأحجامها ، وأحجام هـذه الحجارة ونوعها وكيفية فعلها . كما أن بعضها يروى أن الجدرى والحصبة ظهرا فى هذا العام فى مكة .

ويرى الذين يميلون إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات، وإلى رؤية السنن الكونية المألوفة تعمل عملها ، أن تفسير الحادث بوقوع وباء الجدرى والحصبة أقرب وأولى . وأن الطير قد تكون هى الذباب والبعوض التى تحمل الميكروبات، فالطير هو كل مايطير

قال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى تفسيره للسورة فى جزء عم :

« وفى اليوم الثانى فشا فى جند الجيش داء الجدرى والحصبة . . قال عكرمة : وهو أول جدرى ظهر ببلاد العرب . وقال يعقوب ابن عتبة فيما حدث : إن أول مارؤيت الحصبة والجدرى ببلاد العرب ذلك العام . وقد فعل الوباء بأجسامهم مايندر وقوع مثله . فكان لحمهم يتناثر وبتسا، قط فذعر الجيش وصاحبه وولوا هاربين ، وأصيب الحبش . ولم يزل يسقط لحمه قطعة قطعة ، وأنملة أنملة حتى انصدع صدره ومات فى صنعاء .

« هذا ماتفقت عليه الروايات ، ويصح الاعتقاد به . وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدرى أوتلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح

« فيجوز لك أن تعتقد أن هـذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذى يحمل جراثيم بعض الأمراض ، وأن تكون هـذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذى تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات ، فإذا اتصل بجسد دخل فى مسامه ، فأثار فيه تلك الفروح ، التى تنتهى بإفساد الجسم وتساقط لحمه . وأن كثيرا من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله فى إهلاك من يريد إهلاكه من البشر ، وأن هـذا الحيوان الصغير الذى يسمونه الآن بالمكروب ـ لايخرج عنها . وهو فرق وجماعات لايحصى عددها إلا بارئها . . ولايتوقف ظهور أثر قدرة الله تعالى فى قهر الطاغين ، على أن يكون الطير فى ضخامة رؤوس الجبال ،

Marfat.com

ولاعلى أن يكون من نوع عنقاء مغرب ، ولاعلى أن يكون له ألوان خاصة به ، ولاعلى معرفة مقادير الحجارة وكيفية تأثيرها .. ولله جند من كل شيء .

وفى كل شيء له آية * تدل على أنه الواحد

« وليست فى الكون قوة إلا وهى خاضعة لقوته . فهذا الطاغية الذى أراد أن يهدم البيت ، أرسل الله عليه من الطير مايوصل إليه مادة الجدرى أو الحصبة ، فأهلكته وأهلكت قومه ، قبل أن يدخل مكة . وهى نعمة غمر الله بها أهل حرمه ـ على وثنيتهم ـ حفظا لبيته ، حتى يرسل من يحميه بقوة دينه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإن كانت نقمة من الله حلت بأعدائه أصحاب الفيل الذين أرادوا الاعتداء على البيت دون جرم اجترمه ، ولاذنب اقترفه .

« هذا مايصح الاعتماد عليه فى تفسير السورة . وماعدا ذلك فهو ممالايصح قبوله إلا بتأويل ، إن صحت روايته . ومما تعظم به القدرة أن يؤخذ من استمز بالفيل ـ وهو أضخم حيوان من ذوات الأربع جسما ـ ويهلك ، بحيوان صغير لايظهر للنظر ، ولايدرك بالبصر ، حيث ساقه القدر . لاريب عند العاقل أن هذا أكبر وأعجب وأبهر !! » .

ونحن لانرى أن هذه الصورة التى افترضها الأستاذ الإمام ـ صورة الجدرى أو الحصبة من طين ملوث بالجراثيم ـ أوتلك التى جاءت بها بعض الروايات من أن الحجارة ذاتها كانت تخرق الرؤوس والأجسام وتنفذ منها وتمزق الأجساد فتدعها كفتات ورق الشجر الجاف وهو « المصف » .. لانرى أن هذه الصورة أوتلك أدل على قدرة الله ، ولاأولى بتفسير الحادث. فهذه كتلك فى نظرنا من حيث إمكان الوقوع . ومن حيث الدلالة على قدرة الله وتدبيره ، ويستوى عندنا أن تكون السنة المألوفة للناس ، المعهودة المكشوفة لعلمهم ، هى التى جرت فأهلكت قوما أراد الله إهلاكهم . أو أن تكون سنة الله قد جرت بغير المألوف للبشر، وغير المعهود المكشوف لعلمهم ، فحققت قدره ذاك .

إن سنة الله ليست فقط هى ماعهده البشر وماعرفوه . ومايعرف البشر من سنة الله إلا طرفا يسيرا يكشفه الله لهم بمقدار مايطيقون ، وبمقدار مايتهيأون له بتجاربهم ومداركهم فى الزمن الطويل، فهذه الخوارق ـ كما يسمونها ـ هى من سنة الله . ولكنها خوارق بالقياس إلى ماعهدوه وماعرفوه !

ومن ثم فنحن لانقف أمام الخارقة مترددين ولامؤولين لها ـ متى صحت الرواية ـ أوكان

Marfat.com

فى النصوص وفى ملابسات الحادث مايوحى بأنها جرت خارقة ، ولم تجر على مألوف الناس ومعهودهم .وفى الوقت ذاته لانرى أن جريان الأمر على السنة المألوفة أقل وقعا ولا دلالة من جريانه على السنة الخارقة للمألوف . فالسنة المألوفة هى فى حقيقتها خارقة بالقياس إلى قدرة البشر . . إن طلوع الشمس وغروبها خارقة ـ وهى معهودة كل يوم ـ وإن ولادة كل طفل خارقة ـ وهى تقع كل لحظة ، وإلا فليجرب من شاء أن يجرب ! وإن تسليط طير ـ كائنا ما كان ـ يحمل حجارة مسحوقة ملوثة بميكروبات الجدرى والحصبة وإلقائها فى هذه الأرض، فى هذا الأوان ، وإحداث هذا الوباء فى الجيش ، فى اللحظة التى يهم فيها باقتحام البيت . . إن جريان قدر الله على هذا النحو خارقة بل عدة خوارق كاملة الدلالة على القدرة وعلى التقدير . وليست بأقل دلالة ولا عظمة من أن يرسل الله طيرا خاصا يحمل حجارة خاصة تفعل بالأجسام فعلا خاصا فى اللحظة المقررة . . هـذه من تلك . . هـذه خارقة وتلك خارقة على السواء . .

فأما فى هذا الحادث بالذات ، فنحن أميل إلى اعتبار أن الأمر قد جرى على أساس الخارقة غير المعهودة ، وأن الله أرسل طيرا أبابيل غير معهودة ـ وإن لم تكن هناك حاجة إلى قبول الروايات التى تصف أحجام الطير وأشكالها وصفا مثيرا ، نجد له نظائر فى مواضع أخرى تشى بأن عنصر المبالغة والتهويل مضاف إليها ! ـ تحمل حجارة غير معهودة ، تفعل بالأجسام فعلا غير معهود . .

نحن أميل إلى هـذا الاعتبار . لا لأنه أعظم دلالة ولا أكبر حقيقة . ولكن لأن جو السورة وملابسات الحادث تجعل هذا الاعتبار هو الأقرب. فقد كان الله ـ سبحانه ـ يريد بهـذا البيت أمرا . كان يريد أن يحفظه ليكون مثابة للناس وأمنا ؛ وليكون نقطة تجمع للعقيدة الجديدة تزحف منه حرة طليقة ، فى أرض حرة طليقة ، لايهيمن عليها أحد من خارجها ، ولا تسيطر عليها حكومة قاهرة تحاصر الدعوة فى محضنها . ويجعل هـذا الحادث عبرة ظاهرة مكشوفة لجميع الأنظار فى جميع الأجيال ، حتى ليمتن بها على قريش بعد البعثة فى هـذه السورة ، ويضربها مثلا لرعاية الله لحرماته وغيرته عليها . . فما يتناسق مع جو هذه الملابسات كلها أن يجىء الحادث غير مألوف ولا معهود، بكل مقوماته وبكل أجزائه. ولا داعى للمحاولة فى تغليب صورة المألوف من الأمر فى حادث هو فى ذاته وبملابساته مفرد فذ . .

Marfat.com

وبخاصة أن المألوف فى الجدرى أو الحصبة لا يتفق مع ماروى من آثار الحادث بأجسام الجيش وقائده ، فإن الجدرى أو الحصبة لايسقط الجسم عضوا عضوا وأنملة أنملة ، ولا يشق الصدر عن القلب . .

وهذه الصورة هى التى يوحى بها النص القرآنى : « فجعلهم كعصف مأكول » ..إيحاء مباشرا قريبا .

ورواية عكرمة وما حدث به يعقوب ابن عتبة ليست نصاً فى أن الجيش أصيب بالجدرى . فهى لاتزيد على أن تقول : إن الجدرى ظهر فى الجزيرة فى هذا العام لأول مرة . ولم ترد فى أقوالها أية إشارة لأبرهة وجيشه خاصة بالإصابة بهذا المرض .. ثم إن إصابة الجيش على هذا النحو وعدم إصابة العرب القريبين بمثله فى حينه تبدو خارقة إذا كانت الطير تقصد الجيش وحده بما تحمل . ومادامت المسألة خارقة فعلام العناء فى حصرها فى صورة معينة لمجرد أن هذه الصورة مألوفة لمدارك البشر ! وجريان الأمر على غير المألوف أنسب لجو الحادث كله ؟ !

إننا ندرك ونقدر دوافع المدرسة العقلية التى كان الأستاذ الإمام ـ رحمة الله ـ على رأسها فى تلك الحقبة .. ندرك ونقدر دوافعها إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات فى تفسير القرآن الكريم وأحداث التاريخ، ومحاولة ردها إلى المألوف المكشوف من السنن الكونية . . فلقد كانت هذه المدرسة تواجه النزعة الخرافية الشائعة التى تسيطر على العقلية العامة فى تلك الفترة ؛ كما تواجه سيل الأساطير والإسرائيليات التى حشيت بها ، كتب التفسير والرواية فى الوقت الذى وصلت فيه الفتنه بالعلم الحديث إلى ذروتها ، وموجة الشك فى مقولات الدين إلى قمتها . فقامت هذه المدرسة تحاول أن ترد إلى الدين اعتباره على أساس أن كل ماجاء به موافق للعقل. ومن ثم تجتهد فى تنقيته من الخرافات والأساطير . كما تحاول أن تنشىء عقلية دينية تفقه السنن الكونية ، وتدرك ثباتها واطرادها ، وترد إليها الحركات الإنسانية كما ترد إليها الحركات الكونية فى الأجرام والأجسام ـ وهى فى صميمها العقلية القرآنية ـ فالقرآن يرد الناس إلى سنن الله الكونية باعتبارها القاعدة الثابتة المطردة المنظمة لمفردات الحركات والظواهر المتناثرة.

ولكن مواجهة ضغط الخرافة من جهة ، وضغط الفتنة بالعلم من جهة أخرى تركت آثارها

Marfat.com

فى تلك المدرسة . من المبالغة فى الاحتياط، والميل إلى جعل مألوف السنن الكونية هو القاعدة الكلية لسنة الله. فشاع فى تفسير الأستاذ الشيخ محمد عبده ـ كما شاع فى تفسير تلميذيه الأستاذ الشيخ رشيد رضا والأستاذ الشيخ عبد القادر المغربى ـ رحمهم الله جميعا ـ شاع فى هذا التفسير الرغبة الواضحة فى رد الكثير من الخوارق إلى مألوف سنة الله دون الخارق منها ، وإلى تأويل بعضها بحيث يلائم مايسمونه « المعقول » ! وإلى الحذر والاحتراس الشديد فى تقبل الغيبيات .

ومع إدراكنا وتقديرنا للعوامل البيئية الدافعة لمثل هذا الاتجاه ، فإننا نلاحظ عنصر المبالغة فيه ، وإغفال الجانب الآخر للتصور القرآنى الكامل . وهو طلاقة مشيئة الله وقدرته من وراء السنن التى اختارها ـ سواء المألوف منها للبشر أوغير المألوف ـ هذه الطلاقة التى لاتجعل العقل البشرى هو الحاكم الأخير . ولاتجعل معقول هذا العقل هو مرد كل أمر بحيث يتحتم تأويل مالا يوافقه ـ كما يتكرر هذا القول فى تفسير أعلام هذه المدرسة .

هذا إلى جانب أن المألوف من سنة الله ليس هو كل سنة الله إنما هو طرف يسير لايفسر كل مايقع من هذه السنن فى الكون . وأن هذه كذلك دليل على عظمة القدرة ودقة التقدير . .

وكل ذلك مع الاحتياط من الخرافة ونفى الأسطورة فى اعتدال كامل، غير متأثر بإيحاء بيئة خاصة ، ولامواجهة عرف تفكيرى شائع فى عصر من العصور !!!

إن هنالك قاعدة مأمونة فى مواجهة النصوص القرآنية ، لعل هنا مكان تقريرها . . إنه لايجوز لنا أن نواجه النصوص القرآنية بمقررات عقلية سابقة . لامقررات عامة . ، ولامقررات فى الموضوع الذى تعالجه النصوص . بل ينبغى أن نواجه هذه النصوص لنتلقى منها مقرراتنا . فنها تتلقى مقرراتنا الإيمانية ، ومنها نكوّن قواعد منطقنا وتصوراتنا جميعا ؛ فإذا قررت لنا أمرا فهو المقرر كما قررته ! ذلك أن مانسميه « العقل » ونريد أن نحاكم إليه مقررات القرآن عن الأحداث الكونية والتاريخية والإنسانية والغيبية هو إفراز واقعنا البشرى المحدود ، وتجاربنا البشرية المحدودة .

وهذا العقل وإن يكن فى ذاته قوة مطلقة لا تتقيد بمفردات التجارب والوقائع بل تسمو

Marfat.com

عليها إلى المعنى المجرد وراء ذواتها ، إلا أنه فى النهاية محدود بحدود وجودنا البشرى . وهـذا الوجود لايمثل المطلق كما هو عند الله . والقرآن صادر عن هـذا المطلق فهو الذى يحكمنا . ومقرراته هى التى نستقى منها مقرراتنا العقلية ذاتها . ومن ثم لايصلح أن يقال : إن مدلول هـذا النص يصطدم مع العقل فلا بد من تأويله ـ كما يرد كثيرا فى مقررات أصحـاب هـذه المدرسة . وليس معنى هذا هو الاستسلام للخرافة . ولـكن معناه أن العقل ليس هو الحكم فى مقررات القرآن . ومتى كانت المدلولات التعبيرية مستقيمة واضحة فهى التى تقرر كيف تتلقاها عقولنا ، وكيف تصوغ منها قواعد تصورها ومنطقها تجاه مدلولاتها ، وتجاه الحقائق الكونية الأخرى . .

* * *

ونعود من هذا الاستطراد إلى سورة الفيل ، وإلى دلالة القصة . .

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟ » .. وهو سؤال للتعجيب من الحادث، والتنبيه إلى دلالته العظيمة . فالحادث كان معروفا للعرب ومشهوراً عندهم ، حتى لقد جعلوه مبدأ تاريخ. يقولون حدث كذا عام الفيل ، وحدث كذا قبل عام الفيل بعامين ، وحدث كذا بعد عام الفيل بعشر سنوات . . والمشهور أن مولد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان فى عام الفيل ذاته. ولعل ذلك من بدائع الموافقات الإلهية المقدرة !

وإذن فلم تـكن السورة للإخبار بقصة يجهلونها ، إنمـا كانت تذكيرا بأمر يعرفونه ، المقصود به ماوراء هذا التذكير . .

ثم أكمل القصة بعد هذا المطلع فى صورة الاستفهام التقريرى كذلك :

« ألم يجعل كيدهم فى تضليل ؟ » : . أى ألم يضل مكرهم فلايبلغ هدفه وغايته ، شأن من يضل الطريق فلايصل إلى مايبتغيه . . ولعله كان بهذا يذكر قريشا بنعمته عليهم فى حماية هـذا البيت وصيانته ، فى الوقت الذى عجزوا هم عن الوقوف فى وجه أصحاب الفيل الأقوياء . لعلهم بهذه الذكرى يستحون من جحود الله الذى تقدمت يده عليهم فى ضعفهم وعجزهم ، كما يطامنون من اغترارهم بقوتهم اليوم فى مواجهة محمد ـ صلى الله عليـه وسلم ـ والقلة المؤمنة معه . فقد حطم الله الأقوياء حينما شاءوا الاعتداء على بيته وحرمته ؛ فلعله يحطم الأقوياء الذين يقفون لرسوله ودعوته .

Marfat.com

فأما كيف جعل كيدهم فى تضليل فقد بينه فى صورة وصفية رائعة : « وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول » .. والأبابيل: الجماعات . وسجيل كلمة فارسية مركبة من كلمتين تفيدان : حجروطين . أوحجارة ملوثة بالطين . والعصف :الجاف من ورق الشجر . ووصفه بأنه مأكول : أى فتيت طحين ! حين تأكله الحشرات وتمزقه، أوحين يأكله الحيوان فيمضغه ويطحنه ! وهى صورة حسية للتمزيق البدنى بفعل هذه الأحجار التى رمتهم بها جماعات الطير . ولاضرورة لتأويلها بأنها تصوير لحال هلاكهم بمرض الجدرى أو الحصبة .

* * *

فأما دلالة هذا الحادث والعبر المستفادةمن التذكير به فكثيرة ..

وأول ماتوحى به أن الله ـ سبحانه ـ لم يرد أن يكل حماية بيته إلى المشركين ، ولوأنهم كانوا يعتزون بهذا البيت ، ويحمونه ويحتمون به . فلما أراد أن يصونه ويحرسه ويعلن حمايته له وغيرته عليه ترك المشركين يهزمون أمام القوة المعتدية . وتدخلت القدرة سافرة لتدفع عن بيت الله الحرام ، حتى لاتكون للمشركين يد على بيته ولاسابقة فى حمايته ، بحميتهم الجاهلية . ولعل هذه الملابسة ترجح ترجيحا قويا أن الأمر جرى فى إهلاك المعتدين مجرى السنة الخارقة ـ لاالسنة المألوفه المعهودة ـ فهذا أنسب وأقرب ..

ولقد كان منمقتضى هذا التدخل السافر من القدرة الإلهية لحماية البيت الحرام أن تبادر قريش ويبادر العرب إلى الدخول فى دين الله حينما جاءهم به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وألا يكون اعتزازهم بالبيت وسدانته وماصاغوا حوله من وثنية هو المانع لهم من الإسلام ! وهذا التذكير بالحادث على هذا النحو هو طرف من الحملة عليهم ، والتعجيب من موقفهم العنيد !

كذلك تواحى دلالة هذا الحادث بأن الله لم يقدّر لأهل الكتاب ـ أبرهة وجنوده ـ أن يحطموا البيت الحرام أويسيطروا على الأرض المقدسة . حتى والشرك يدنسه ، والمشركون هم سدنته . ليبقى هذا البيت عتيقا من سلطان المتسلطين ، مصونا من كيد الكائدين . وليحفظ لهذه الأرض حريتها حتى تنبت فيها العقيدة الجديدة حرة طليقة ، لايهيمن عليها سلطان ، ولايطغى

Marfat.com

فيها طاغية ، ولايهيمن على هـذا الدين الذى جاء ليهيمن على الأديان وعلى العباد ، ويقود البشرية ولايقاد . وكان هذا من تدبيرالله لبيته ولدينه قبل أن يعلم أحد أن نبى هذا الدين قد ولد فى هذا العام !

ونحن نستبشر بإيحاء هذه الدلالة اليوم ونطمئن ، إزاء مانعلمه من أطماع فاجرة ماكرة ترف حول الأماكن المقدسة من الصليبية العالمية والصهيونية العالمية ، ولاتنى أوتهدأفى التمهيد الخفى اللئيم لهذه الأطماع الفاجرة الماكرة . فالله الذى حمى بيته من أهل الكتاب وسدنته مشركون ، سيحفظه إن شاء الله ، ويحفظ مدينة رسوله من كيد الكائدين ومكر الماكرين !

والإيحاء الثالث هو أن العرب لم يكن لهم دورفى الأرض . بل لم يكن لهم كيان. قبل الإسلام. كانوا فى اليمن تحت حكم الفرس أو الحبشة . وكانت دولتهم حين تقوم هناك أحيانا تقوم تحت حماية الفرس . وفى الشمال كانت الشام تحت حكم الروم إما مباشرة وإما بقيام حكومة عربية تحت حماية الرومان . . ولم ينج إلا قلب الجزيرة من تحكم الأجانب فيه . ولكنه ظل فى حالة بداوة أوفى حالة تفكك لاتجعل منه قوة حقيقية فى ميدان القوى العالمية. وكان يمكن أن تقوم الحروب بين القبائل أربعين سنة ، ولكن لم تكن هذه القبائل متفرقة ولامجتمعة ذات وزن عند الدول القوية المجاورة . وماحدث فى عام الفيل كان مقياسا لحقيقة هذه القوة حين تتعرض لغزو أجنبى .

وتحت راية الإسلام ولأول مرة فى تاريخ العرب أصبح لهم دور عالمى يؤدونه . وأصبحت لهم قوة دولية يحسب لها حساب . قوة جارفة تكتسح الممالك وتحطم العروش ، وتتولى قيادة البشرية ، بعد أن تزيح القيادات الجاهلية المزيفة الضالة .. ولكن الذى هيأ للعرب هـذا لأول مرة فى تاريخهم هو أنهم نسوا أنهم عرب ! نسوا نعرة الجنس ، وعصبية العنصر ، وذكروا أنهم مسلمون . ومسلمون فقط . ورفعوا راية الإسلام، وراية الإسلام وحدها. وحملوا عقيدة ضخمة قوية يهدونها إلى البشرية رحمة وبرا بالبشرية؛ولم يحملوا قومية ولاعنصرية ولاعصبية . حملوا فكرة سماوية يعلمون الناس بها لامذهبا أرضيا يخضعون الناس لسلطانه. وخرجوا من أرضهم جهادا فى سبيل الله وحده ، ولم يخرجوا ليؤسسوا إمبراطورية عربية ينعمون ويرتعون فى ظلها ، ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها ، ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلى حكم العرب وإلى حكمهم أنفسهم ! إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعا إلى عبادة

Marfat.com

الله وحده ، كما قال ربعى بن عامر رسول المسلمين فى مجلس يزدجرد : « الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام[1] ».

عندئذ فقط كان للعرب وجود ، وكانت لهم قوة ، وكانت لهم قيادة .. ولكنها كانت كلها لله وفى سبيل الله . وقد ظلت لهم قوتهم . وظلت لهم قيادتهم مااستقاموا على الطريقة . حتى إذا انحرفوا عنها وذكروا عنصريتهم وعصبيتهم ، وتركوا راية الله ليرفعوا راية العصبية نبذتهم الأرض وداستهم الأمم ، لأن الله قد تركهم حينما تركوه ، ونسيهم مثلما نسوه !

وما العرب بغير الإسلام ؟ ماالفكرة التى قدموها للبشرية أو يملكون تقديمها إذا هم تخلوا عن هذه الفكرة ؟ وماقيمة أمة لاتقدم للبشرية فكرة ؟ إن كل أمة قادت البشرية فى فترة من فترات التاريخ كانت تمثل فكرة . والأمم التى لم تكن تمثل فكرة كالتتار الذين اجتاحوا الشرق ، والبرابرة الذين اجتاحوا الدولة الرومانية فى الغرب لم يستطيعوا الحياة طويلا ، إنما ذابوا فى الأمم التى فتحوها . والفكرة الوحيدة التى تقدم بها العرب للبشرية كانت هى العقيدة الإسلامية ، وهى التى رفعتهم إلى مكان القيادة ، فإذا تخلوا عنها لم تعد لهم فى الأرض وظيفة ، ولم يعد لهم فى التاريخ دور . . وهذا مايجب أن يذكره العرب جيدا إذا هم أرادوا الحياة ، وأرادوا القوة ، وأرادوا القيادة .. والله الهادى من الضلال . .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير .

Marfat.com

سورة قريش مكية
وآياتها ٤

بسم الله الرحمن الرحيم

« لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ » .

استجاب الله دعوة خليله إبراهيم ، وهو يتوجه إليه عقب بناء البيت وتطهيره : « رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات » .. فجعل هذا البيت آمنا ، وجعله عتيقا من سلطة المتسلطين وجبروت الجبارين ؛ وجعل من يأوى إليه آمنا والمخافة من حوله فى كل مكان . . حتى حين انحرف الناس وأشركوا بربهم وعبدوا معه الأصنام . . لأمر يريده سبحانه بهذا البيت الحرام .

ولما توجه أصحاب الفيل لهدمه كان من أمرهم ما كان ، مما فصلته سورة الفيل . وحفظ الله للبيت أمنه ، وصان حرمته ؛ وكان من حوله كما قال الله فيهم : « أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم ؟ » ..

وقد كان لحادث الفيل أثر مضاعف فى زيادة حرمة البيت عند العرب فى جميع أنحاء الجزيرة ، وزيادة مكانة أهله وسدنته من قريش ، مما ساعدهم على أن يسيروا فى الأرض آمنين ، حيثما حلوا وجدوا الكرامة والرعاية ، وشجعهم على إنشاء خطين عظيمين من خطوط التجارة – عن طريق القوافل – إلى اليمن فى الجنوب ، وإلى الشام فى الشمال . وإلى تنظيم رحلتين تجاريتين ضخمتين : إحداهما إلى اليمن فى الشتاء ، والثانية إلى الشام فى الصيف .

ومع ما كانت عليه حالة الأمن فى شعاب الجزيرة من سوء ؛ وعلى ما كان شائعا من غارات

Marfat.com

السلب والنهب ، فإن حرمة البيت فى أنحاء الجزيرة قد كفلت لجيرته الأمن والسلامة فى هـذه التجارة المغرية ، وجعلت لقريش بصفة خاصة ميزة ظاهرة ؛ وفتحت أمامها أبواب الرزق الواسع المكفول ، فى أمان وسلام وطمأنينة . وألفت نفوسهم هاتين الرحلتين الآمنتين الرابحتين ، فصارتا لهم عادة وإلفا !

هذه هى المنة التى يذكرهم الله بها ـ بعد البعثة ـ كما ذكرهم منة حادث الفيل فى السورة السابقة، منة إيلافهم رحلتى الشتاء والصيف ، ومنة الرزق الذى أفاضه عليهم بهاتين الرحلتين ـ وبلادهم قفرة جفرة وهم طاعمون هانئون من فضل الله . ومنة أمنهم الخوف . سواء فى عقر دارهم بجوار بيت الله ، أم فى أسفارهم وترحالهم فى رعاية حرمة البيت التى فرضها الله وحرسها من كل اعتداء .

يذكرهم بهذه المنن ليستحيوا مما هم فيه من عبادة غير الله معه ؛ وهو رب هذا البيت الذى يعيشون فى جواره آمنين طاعمين ؛ ويسيرون باسمه مرعيين ويعودون سالمين . .

يقول لهم : من أجل إيلاف قريش: رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذى كفل لهم الأمن فجعل نفوسهم تألف الرحلة ، وتنال من ورائها ماتنال « فليعبدوا رب هـذا البيت الذى أطعمهم من جوع » . . وكان الأصل ـ بحسب حالة أرضهم ـ أن يجوعوا ، فأطعمهم الله وأشبعهم من هذا الجوع « وآمنهم من خوف » . . وكان الأصل ـ بحسب ماهم فيه من ضعف وبحسب حالة البيئة من حولهم ـ أن يكونوا فى خوف فآمنهم من هذا الخوف !

وهو تذكير يستجيش الحياء فى النفوس . ويثير الخجل فى القلوب . وماكانت قريش تجهل قيمة البيت وأثر حرمته فى حياتها . وماكانت فى ساعة الشدة والكربة تلجأ إلا إلى رب هذا البيت وحده . وهاهو ذا عبد المطلب لايواجه أبرهة بجيش ولاقوة . إنما يواجهه برب هذا البيت الذى يتولى حماية بيته ! لم يواجهه بصنم ولاوثن ، ولم يقل له . . إن الآلهة ستحمى بيتها . إنما قال له : «أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيمنعه » ..ولكن انحراف الجاهلية لايقف عند منطق ، ولايثوب إلى حق ، ولايرجع إلى معقول .

وهذه السورة تبدو امتدادا لسورة الفيل قبلها من ناحية موضوعها وجوها . وإن كانت سورة مستقلة مبدوءة بالبسملة ، والروايات تذكر أنه يفصل بين نزول سورة الفيل وسورة قريش تسع سور . ولكن ترتيبهما فى المصحف متواليتين يتفق مع موضوعهما القريب . .

Marfat.com

سورة الماعون مدنية
وآياتها ٧

بسم الله الرحمن الرحيم

« أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ » .

هـذه السورة مكية فى بعض الروايات ، ومكية مدنية فى بعض الروايات (الثلاث الآيات الأولى مكية والباقيات مدنية) وهذه الأخيرة هى الأرجح . وإن كانت السورة كلها وحدة متماسكة ، ذات اتجاه واحد ، لتقرير حقيقة كلية من حقائق هذه العقيدة ، مما يكاد يميل بنا إلى اعتبارها مدنية كلها ، إذ أن الموضوع الذى تعالجه هو من موضوعات القرآن المدنى ـ وهو فى جملته يمت إلى النفاق والرياء مما لم يكن معروفا فى الجماعة المسلمة فى مكة . ولكن قبول الروايات القائلة بأنها مكية مدنية لايمتنع لاحتمال تنزيل الآيات الأربع الأخيرة فى المدينة وإلحاقها بالآيات الثلاث الأولى لمناسبة التشابه والاتصال فى الموضوع . . وحسبنا هـذا لنخلص إلى موضوع السورة وإلى الحقيقة الكبيرة التى تعالجها . .

* * *

إن هذه السورة الصغيرة ذات الآيات السبع القصيرة تعالج حقيقة ضخمة تكاد تبدل المفهوم السائد للإيمان والكفر تبديلا كاملا . فوق ماتطلع به على النفس من حقيقة باهرة لطبيعة هذه

Marfat.com

العقيدة ، والخير الهائل العظيم المكنون فيها لهذه البشرية ، وللرحمة السابغة التى أرادها الله للبشر وهو يبعث إليهم بهذه الرسالة الأخيرة . .

إن هذا الدين ليس دين مظاهر وطقوس ؛ ولاتغنى فيه مظاهر العبادات والشعائر ، مالم تكن صادرة عن إخلاص لله وتجرد ، مؤدية بسبب هذا الإخلاص إلى آثار فى القلب تدفع إلى العمل الصالح ، وتتمثل فى سلوك تصلح به حياة الناس فى هذه الأرض وترقى .

كذلك ليس هذا الدين أجزاء وتفاريق موزعة منفصلة ، يؤدى منها الإنسان مايشاء ، ويدع منها مايشاء . . إنما هو منهج متكامل ، تتعاون عباداته وشعائره ، وتكاليفه الفردية والاجتماعية ، حيث تنتهى كلها إلى غاية تعود كلها على البشر . . غاية تتطهر معها القلوب ، وتصلح الحياة ، ويتعاون الناس ويتكافلون فى الخير والصلاح والنماء . . وتتمثل فيها رحمة الله السابغة بالعباد .

ولقد يقول الإنسان بلسانه : إنه مسلم وإنه مصدق بهذا الدين وقضاياه . وقد يصلى ، وقد يؤدى شعائر أخرى غير الصلاة ولكن حقيقة الإيمان وحقيقة التصديق بالدين تظل بعيدة عنه ويظل بعيدا عنها، لأن لهذه الحقيقة علامات تدل على وجودها وتحققها . ومالم توجد هذه العلامات فلا إيمان ولاتصديق مهما قال اللسان ، ومهما تعبد الإنسان !

إن حقيقة الإيمان حين تستقر فى القلب تتحرك من فورها (كما قلنا فى سورة العصر) لكى تحقق ذاتها فى عمل صالح . فإذا لم تتخذ هذه الحركة فهذا دليل على عدم وجودها أصلا . وهذا ماتقرره هذه السورة نصا . .

* * *

« أرأيت الذى يكذب بالدين ؟ فذلك الذى يدع اليتيم، ولايحض على طعام المسكين » . .

إنها تبدأ بهذا الاستفهام الذى يوجه كل من تتأتى منه الرؤية ليرى : « أرأيت الذى يكذب بالدين ؟ » وينتظر من يسمع هذا الاستفهام ليرى إلى أين تتجه الإشارة وإلى من تتجه ؟ ومن هو هذا الذى يكذب بالدين ، والذى يقرر القرآن أنه يكذب بالدين . . وإذا الجواب : « فذلك الذى يدع اليتيم . ولايحض على طعام المسكين » !

وقد تكون هذه مفاجأة بالقياس إلى تعريف الإيمان التقليدى . . ولكن هذا هو لباب

Marfat.com

الأمر وحقيقته . . إن الذى يكذب بالدين هو الذى يدفع اليتيم دفعا بعنف ـ أى الذى يهين اليتيم ويؤذيه . والذى لايحض على طعام المسكين ولا يوصى برعايته . فلو صدّق بالدين حقا ، ولو استقرت حقيقة التصديق فى قلبه ما كان ليدع اليتيم ، وما كان ليقعد عن الحض على طعام المسكين .

إن حقيقة التصديق بالدين ليست كلمة تقال باللسان ؛ إنما هى تحول فى القلب يدفعه إلى الخير والبر بإخوانه فى البشرية ، المحتاجين إلى الرعاية والحماية . والله لايريد من الناس كلمات . إنما يريد منهم معها أعمالا تصدقها ، وإلا فهى هباء ، لاوزن لها عنده ولا اعتبار .

وليس أصرح من هذه الآيات الثلاث فى تقرير هذه الحقيقة التى تمثل روح هذه العقيدة وطبيعة هذا الدين أصدق تمثيل .

ولا نحب أن ندخل هنا فى جدل فقهى حول حدود الإيمان وحدود الإسلام . فتلك الحدود الفقهية إنما تقوم عليها للعاملات الشرعية . فأما هنا فالسورة تقرر حقيقة الأمر فى اعتبار الله وميزانه. وهذا أمر آخر غير الظواهر التى تقوم عليها للعاملات ! !

ثم يرتب على هذه الحقيقة الأولى صورة تطبيقية من صورها :

« فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون » إنه دعاء أو وعيد بالهلاك للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون . . فمن هم هؤلاء الذين هم عن صلاتهم ساهون !

إنهم « الذين هم يراءون ويمنعون الماعون » . .

إنهم أولئك الذين يصلون ، ولكنهم لايقيمون الصلاة . الذين يؤدون حركات الصلاة ، وينطقون بأدعيتها ، ولكن قلوبهم لاتعيش معها، ولا تعيش بها ، وأرواحهم لاتستحضر حقيقة الصلاة وحقيقة مافيها من قراءات ودعوات وتسبيحات . إنهم يصلون رياء الناس لا إخلاصا لله . ومن ثم هم ساهون عن صلاتهم وهم يؤدونها . ساهون عنها لم يقيموها . والمطلوب هو إقامة الصلاة لابمجرد أدائها . وإقامتها لا تكون إلا باستحضار حقيقتها والقيام لله وحده بها .

ومن هنا لا تنشىء الصلاة آثارها فى نفوس هؤلاء المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون. فهم يمنعون الماعون . يمنعون المونة والبر والخير عن إخوانهم فى البشرية. يمنعون الماعون عن

Marfat.com

عباد الله . ولو كانوا يقيمون الصلاة حقا لله مامنعوا العون عن عباده ، فهذا هو محك العبادة الصادقة المقبولة عند الله . .

وهكذا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام حقيقة هذه العقيدة ، وأمام طبيعة هذا الدين . ونجد نصا قرآنيا ينذر مصلين بالويل . لأنهم لم يقيموا الصلاة حقا . إنما أدوا حركات لاروح فيها . ولم يتجردوا لله فيها . إنما أدوها رياء . ولم تترك الصلاة أثرها فى قلوبهم وأعمالهم فهى إذن هباء . بل هى إذن معصية تنتظر سوء الجزاء !

* * *

وننظر من وراء هذه وتلك إلى حقيقة مايريده الله من العباد ، حين يبعث إليهم برسالاته ليؤمنوا به وليعبدوه . . .

إنه لايريد منهم شيئا لذاته سبحانه ـ فهو الغنى ـ إنما يريد صلاحهم هم أنفسهم . يريد الخير لهم . يريد طهارة قلوبهم ويريد سعادة حياتهم . يريد لهم حياة رفيعة قائمة على الشعور النظيف ، والتكافل الجميل ، والأريحية الكريمة والحب والإخاء ونظافة القلب والسلوك .

فأين تذهب البشرية بعيدا عن هذا الخير ؟ وهذه الرحمة ؟ وهذا المرتقى الجميل الرفيع الكريم ؟ أين تذهب لتخبط فى متاهات الجاهلية المظلمة النكدة وأمامها هذا النور فى مفرق الطريق ؟

Marfat.com

سورة الكوثر مكية
وآياتها ٣

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » .

هذه السورة خالصة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كسورة الضحى ، وسورة الشرح يسرى عنه ربه فيها ، ويعده بالخير ، ويوعد أعداءه بالبتر ، ويوجهه إلى طريق الشكر.

ومن ثم فهى تمثل صورة من حياة الدعوة ، وحياة الداعية فى أول العهد بمكة . صورة من الكيد والأذى للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودعوة الله التى يبشر بها ؛ وصورة من رعاية الله المباشرة لعبده وللقلة المؤمنة معه ؛ ومن تثبيت الله وتطمينه وجميل وعده لنبيه ومرهوب وعيده لشانئه .

كذلك تمثل حقيقة الهدى والخير والإيمان . وحقيقة الضلال والشر والكفران .. الأولى كثرة وفيض وامتداد . والثانية قلة وانحسار وانبتار . وإن ظن الغافلون غير هذا وذاك . .

* * *

ورد أن سفهاء قريش ممن كانوا يتابعون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودعوته بالكيد والمكر وإظهار السخرية والاستهزاء ، ليصرفوا جمهرة الناس عن الاستماع للحق الذى جاءهم به من عند الله ، من أمثال العاص ابن وائل ، وعقبة ابن أبى معيط ، وأبى لهب ، وأبى جهل ، وغيرهم ، كانوا يقولون عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنه أبتر . يشيرون بهذا إلى موت الذكور من أولاده . وقال أحدهم : دعوه فإنه سيموت بلاعقب وينتهى أمره !

وكان هذا اللون من الكيد اللئيم الصغير يجد له فى البيئة العربية التى تتكاثر بالأبناء صدى

Marfat.com

ووقعا . وتجد هذه الوخزة الهابطة من يهش لها من أعداء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وشانئيه ، ولعلها أوجعت قلبه الشريف ومسته بالغم أيضا .

ومن ثم نزلت هـذه السورة تمسح على قلبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالرّوح والندى ، وتقرر حقيقة الخير الباقى الممتد الذى اختاره له ربه ؛ وحقيقة الانقطاع والبتر المقدر لأعدائه .

* * *

« إنا أعطيناك الكوثر » . . والكوثر صيغة من الكثرة . . وهو مطلق غير محدود . يشير إلى عكس المعنى الذى أطلقه هؤلاء السفهاء . . إنا أعطيناك ماهو كثير فائض غزير . غير ممنوع ولامبتور .. فإذا أراد أحد أن يتتبع هـذا الكوثر الذى أعطاه الله لنبيه فهو واجده حيثما نظر أوتصور .

هو واجده فى النبوة. فى هذا الاتصال بالحق الكبير ، والوجود الكبير . الوجود الذى لاوجود غيره ولاشىء فى الحقيقة سواه . وماذا فقد من وجد الله ؟

وهو واجده فى هـذا القرآن الذى نزل عليه . وسورة واحدة منه كوثر لانهاية لكثرته، وينبوع ثر لانهاية لفيضه وغزارته !

وهو واجده فى الملإ الأعلى الذى يصلى عليه ، ويصلى على من يصلى عليه فى الأرض ، حيث يقترن اسمه باسم الله فى الأرض والسماء .

وهو واجده فى سنته الممتدة على مدار القرون ، فى أرجاء الأرض . وفى الملايين بعد الملايين السائرة على أثره ، وملايين الملايين من الألسنة والشفاه الهاتفة باسمه، وملايين الملايين من القلوب المحبة لسيرته وذكراه إلى يوم القيامة .

وهو واجده فى الخير الكثير الذى فاض على البشرية فى جميع أجيالها بسببه وعن طريقه . سواء من عرفوا هـذا الخير فآمنوا به ، ومن لم يعرفوه ولكنه فاض عليهم فيما فاض !

وهوواجده فى مظاهرشتى، محاولة إحصائها ضرب من تقليلهاوتصغيرها !

إنه الكوثر ، الذى لانهاية لفيضه ، ولاإحصاء لموارده ، ولاحد لمدلوله . ومن ثم تركه النص بلاتحديد ، يشمل كل مايكثر من الخير ويزيد . .

وقد وردت روايات من طرق كثيرة أن الكوثر نهر فى الجنة أوتيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكن ابن عباس أجاب بأن هـذا النهر هو من بين الخير الكثير الذى

Marfat.com

أوتيه الرسول. فهو كوثر من الكوثر! وهذا هو الأنسب فى هذا السياق وفى هذه الملابسات

* * *

« فصل لربك وانحر » .

بعد توكيد هذا العطاء الكثير الفائض الكثرة ، على غيرما أرجف المرجفون وقال الكائدون ، وجه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى شكر النعمة بحقها الأول . حق الإخلاص والتجرد لله فى العبادة وفى الاتجاه . . فى الصلاة وفى ذبح النسك خالصا لله : « فصل لربك وانحر » . . غير ملق بالا إلى شرك المشركين ، وغير مشارك لهم فى عبادتهم أو فى ذكر غير اسم الله على ذبائحهم .

وفى تكرار الإشارة إلى ذكر اسم الله وحده على الذبائح ، وتحريم ماأهل به لغير الله ، وما لم يذكر اسم الله عليه . . مايشى بعناية هذا الدين بتخليص الحياة كلها من عقابيل الشرك وآثاره . لاتخليص التصور والضمير وحدهما . فهو دين الوحدة بكل معنى من معانيها ، وكل ظل من ظلالها ؛ كما أنه دين التوحيد الخالص المجرد الواضح .ومن ثم فهو يتتبع الشرك فى كل مظاهره ، وفى كل مكامنه ؛ ويطارده مطاردة عنيفة دقيقة سواء استكن فى الضمير ، أم ظهر فى العبادة ، أم تسرب إلى تقاليد الحياة فالحياة وحدة ماظهر منها وما بطن ، والإسلام يأخذها كلا لايتجزأ ، ويخلصها من شوائب الشرك جميعا ، ويتجه بها إلى الله خالصة واضحة ناصعة ، كما نرى فى مسألة الذبائح وفى غيرها من شعائر العبادة أو تقاليد الحياة ...

* * *

« إن شانئك هو الأبتر » . . .

فى الآية الأولى قرر أنه ليس أبتر بل هو صاحب الكوثر . وفى هذه الآية يرد الكيد على كائديه ، ويؤكد ـ سبحانه ـ أن الأبتر ليس هو محمد ، إنما هم شانئوه وكارهوه .

ولقد صدق فيهم وعيد الله . فقد انقطع ذكرهم وانطوى . بينما امتد ذكر محمد وعلا . ونحن نشهد اليوم مصداق هذا القول الكريم ، فى صورة باهرة واسعة المدى كما لم يشهده ساموه الأولون !

Marfat.com

إن الإيمان والحق والخير لايمكن أن يكون أبتر . فهو ممتد الفروع عميق الجذور . وإنما الكفر والباطل والشر هو الأبتر مهما ترعرع وزها وتجبر . . .

إن مقاييس الله غير مقاييس البشر. ولكن البشر ينخدعون ويغترون فيحسبون مقاييسهم هى التى تقرر حقائق الأمور ! وأمامنا هذا المثل الناطق الخالد . . فأين الذين كانوا يقولون عن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قولتهم اللئيمة ، وينالون بها من قلوب الجماهير ، ويحسبون حينئذ أنهم قد قضوا على محمد وقطعوا عليه الطريق ؟ أين هم ؟ وأين ذكراهم ؟ وأين آثارهم؟ إلى جوار الكوثر من كل شىء، ذلك الذى أوتيه من كانوا يقولون عنه : الأبتر ؟ !

إن الدعوة إلى الله والحق والخير لايمكن أن تكون بتراء ولا أن يكون صاحبها أبتر ، وكيف وهى موصولة بالله الحى الباقى الأزلى الخالد ؟ إنما يبتر الكفر والباطل والشر ويبتر أهله ، مهما بدا فى لحظة من اللحظات أنه طويل الأجل ممتد الجذور . .

وصدق الله العظيم . وكذب الكائدون الماكرون . .

Marfat.com

سورة الكافرون مكية
وآياتها ٦

بسم الله الرحمن الرحيم

« قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ »

لم يكن العرب يجحدون الله ولكن كانوا لايعرفونه بحقيقته التى وصف بها نفسه . أحد . صمد . فكانوا يشركون به ولايقدرونه حق قدره ، ولايعبدونه حق عبادته . كانوا يشركون به هذه الأصنام التى يرمزون بها إلى أسلافهم من الصالحين أو العظماء . أو يرمزون بها إلى الملائكة . وكانوا يزعمون أن للملائكة بنات الله ، وأن بينه ـ سبحانه ـ وبين الجنة نسبا ، أو ينسون هذا الرمز ويعبدون هذه الآلهة ، وفى هذه الحالة أو تلك كانوا يتخذونها لتقربهم من الله كما حكى عنهم القرآن الكريم فى سورة الزمر قولهم : « مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » . .

ولقد حكى القرآن عنهم أنهم كانوا يعترفون بخلق الله للسماوات والأرض ، وتسخيره للشمس والقمر ، وإنزاله الماء من السماء كالذى جاء فى سورة العنكبوت : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله » . . « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله » . .

وفى أيمانهم كانوا يقولون : والله . وتالله . وفى دعائهم كانوا يقولون : اللهم . . الخ .

Marfat.com

ولكنهم مع إيمانهم بالله كان هذا الشرك يفسد عليهم تصورهم كما كان يفسد عليهم تقاليدهم وشعائرهم، فيجعلون للآلهة المدعاة نصيبا فى زرعهم وأنعامهم ونصيبا فى أولادهم . حتى ليقتضى هذا النصيب أحيانا التضحية بأبنائهم . وفى هذا يقول القرآن الكريم عنهم فى سورة الأنعام : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا . فقالوا هذا لله ـ بزعمهم ـ وهذا لشركائنا . فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله . وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم . ساء مايحكمون ! وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم ، وليلبسوا عليهم دينهم، ولو شاء الله مافعلوه ، فذرهم وما يفترون . وقالوا : هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء ـ بزعمهم ـ وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لايذكرون اسم الله عليها افتراء عليه . سيجزيهم بما كانوا يفترون ، وقالوا : مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ، ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء . سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم. قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم ، وحرموا مارزقهم الله افتراء على الله . قد ضلوا وما كانوا مهتدين [1] » .

وكانوا يعتقدون أنهم على دين إبراهيم ، وأنهم أهدى من أهل الكتاب ، الذين كانوا يعيشون معهم فى الجزيرة العربية ، لأن اليهود كانوا يقولون: عزير ابن الله . والنصارى كانوا يقولون : عيسى ابن الله . بينما هم كانوا يعبدون الملائكة والجن على اعتبار قرابتهم من الله ـ بزعمهم ـ فكانوا يعدون أنفسهم أهدى . لأن نسبة الملائكة إلى الله ونسبة الجن كذلك أقرب من نسبة عزير وعيسى . . وكله شرك . وليس فى الشرك خيار . ولكنهم هم كانوا يحسبون أنفسهم أهدى وأقوم طريقا !

فلما جاءهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : إن دينه هو دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ قالوا : نحن على دين إبراهيم فما حاجتنا إذن إلى ترك ماعن عليه واتباع محمد ؟ ! وفى الوقت ذاته راحوا يحاولون مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطة وسطا بينهم وبينه ؛ وعرضوا عليه أن يسجد لآلهتهم مقابل أن يسجدوا هم لإلهه ! وأن يسكت عن عيب آلهتهم وعبادتهم ، وله فيهم وعليهم مايشترط !

ولعل اختلاط تصوراتهم ، واعترافهم بالله مع عبادة آلهة أخرى معه . . لعل هذا كان

---

(١) يراجع تفسير هذه الآيات فى سورة الأنعام الجزء الثامن ص ٢٦ ـ ٢٩

Marfat.com

يشعرهم أن المسافة بينهم وبين محمد قريبة ، يمكن التفاهم عليها ، بقسمة البلد بلدين ، والالتقاء في منتصف الطريق ، مع بعض التوضيات الشخصية !

ولحسم هذه الشبهة ، وقطع الطريق على المحاولة ، والمفاصلة الحاسمة بين عبادة وعبادة ، ومنهج ومنهج ، وتصور وتصور ، وطريق وطريق . . نزلت هذه السورة . بهذا الجزم . وبهذا التوكيد . وبهذا التكرار . لتنهى كل قول ، وتقطع كل مساومة وتفرق نهائيا بين التوحيد والشرك ، وتقيم المعالم واضحة ، لاتقبل المساومة والجدل في قليل ولا كثير :

« قل ياأيها الكافرون . لاأعبد ماتعبدون ، ولا أنتم عابدون ماأعبد ، ولا أنا عابد ماعبدتم ، ولا أنتم عابدون ماأعبد . لكم دينكم ولى دين » .

نفى بعد نفى . وجزم بعد جزم . وتوكيد بعد توكيد . بكل أساليب النفى والجزم والتوكيد . .

« قل » . . فهو الأمر الإلهى الحاسم الموحى بأن أمر هذه العقيدة أمر الله وحده . ليس لمحمد فيه شىء . إنما هو الله الآمر الذى لامرد لأمره ، الحاكم الذى لاراد لحكمه .

« قل ياأيها الكافرون » . . ناداهم بحقيقتهم ، ووصفهم بصفتهم . . إنهم ليسوا على دين ، وليسوا بمؤمنين وإنما هم كافرون . فلا التقاء إذن بينك وبينهم فى طريق . .

وهكذا يوحى مطلع السورة وافتتاح الخطاب ، بحقيقة الانفصال الذى لا يرجى معه اتصال !

« لاأعبد ماتعبدون » . . فعبادتى غير عبادتكم ، ومعبودى غير معبودكم . .

« ولا أنتم عابدون ماأعبد » فعبادتكم غير عبادتى ، ومعبودكم غير معبودى .

« ولا أنا عابد ماعبدتم » . . توكيد للفقرة الأولى فى صيغة الجملة الاسمية وهى أدل على ثبات الصفة واستمرارها . .

« ولا أنتم عابدون ماأعبد » . . تكرار لتوكيد الفقرة الثانية . كى لاتبقى مظنة ولا شبهة، ولا مجال لمظنة أو شبهة بعد هذا التوكيد المكرر بكل وسائل التكرار والتوكيد !

ثم إجمال لحقيقة الافتراق الذى لا التقاء فيه ، والاختلاف الذى لا تشابه فيه ، والانفصال الذى لااتصال فيه، والتمييز الذى لااختلاط فيه :

« لكم دينكم ولى دين » . . أنا هنا وأنتم هناك ، ولا معبر ولا جسر ولا طريق ! ! !

Marfat.com

مفاصلة كاملة شاملة ، وتميز واضح دقيق . .

* * *

ولقد كانت هذه المفاصلة ضرورية لإيضاح معالم الاختلاف الجوهرى الكامل ، الذى يستحيل معه اللقاء على شىء فى منتصف الطريق . الاختلاف فى جوهر الاعتقاد ، وأصل التصور ، وحقيقة المنهج ، وطبيعة الطريق .

إن التوحيد منهج ، والشرك منهج آخر . . ولا يلتقيان . . التوحيد منهج يتجه بالإنسان - مع الوجود كله - إلى الله وحده لاشريك له . ويحدد الجهة التى يتلقى منها الإنسان ، عقيدته وشريعته ، وقيمه وموازينه ، وآدابه وأخلاقه ، وتصوراته كلها عن الحياة وعن الوجود . هذه الجهة التى يتلقى المؤمن عنها هى الله ، الله وحده بلاشريك . ومن ثم تقوم الحياة كلها على هذا الأساس . غير متلبسة بالشرك فى أية صورة من صوره الظاهرة والخفية . . وهى تسير . .

وهذه المفاصلة بهذا الوضوح ضرورية للداعية . وضرورية للمدعوين . .

إن تصورات الجاهلية تتلبس بتصورات الإيمان ، وبخاصة فى الجماعات التى عرفت العقيدة من قبل ثم انحرفت عنها. وهذه الجماعات هى أعصى الجماعات على الإيمان فى صورته المجردة من الغبش والالتواء والانحراف . أعصى من الجماعات التى لاتعرف العقيدة أصلا . ذلك أنها تظن بنفسها الهدى فى الوقت الذى تتعقد انحرافاتها وتتلوى ! واختلاط عقائدها وأعمالها وخلط الصالح بالفاسد فيها ، قد يغرى الداعية نفسه بالأمل فى اجتذابها إذا أقر الجانب الصالح وحاول تعديل الجانب الفاسد . . وهذا الإغراء فى منتهى الخطورة !

إن الجاهلية جاهلية ، والاسلام إسلام . والفارق بينهما بعيد . والسبيل هو الخروج عن الجاهلية بجملتها إلى الإسلام بجملته . هو الانسلاخ من الجاهلية بكل مافيها والهجرة إلى الإسلام بكل ما فيه .

وأول خطوة فى الطريق هى تميز الداعية وشعوره بالانعزال التام عن الجاهلية : تصورا ومنهجا وعملا. الانعزال الذى لايسمح بالالتقاء فى منتصف الطريق . والانفصال الذى يستحيل معه التعاون إلا إذا انتقل أهل الجاهلية من جاهليتهم بكليتهم إلى الإسلام .

Marfat.com

لاترقيع. ولا أنصاف حلول .ولا التقاء فى منتصف الطريق . . مهما تزيت الجاهلية بزى الإسلام ، أو ادعت هذا العنوان !

وتميز هـذه الصورة فى شعور الداعيـة هو حجر الأساس . شعوره بأنه شىء آخـر غير هؤلاء . لهم دينهم وله دينـه، لهم طريقهم وله طريقه . لايملك أن يسايرهم خطوة واحـدة فى طريقهم . ووظيفته أن يسيرهم فى طريقه هو ، بلا مداهنـة ولا نزول عن قليل من دينـه أو كثير !

وإلا فهى البراءة الـكاملة ، والمفاصلة التامة ، والحسم الصريح . . « لـكم دينـكم ولى دين » . .

وما أحوج الداعين إلى الإسلام اليوم إلى هـذه البراءة وهـذه المفاصلة وهـذا الحسم . . ما أحوجهم إلى الشعور بأنهم ينشئون الإسلام من جديد فى بيئة جاهلية منحرفة ، وفى أناس سبق لهم أن عرفوا العقيدة ، ثم طال عليهم الأمد « فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » . . وأنه ليس هناك أنصاف حلول ،ولا التقاء فى منتصف الطريق ،ولا إصلاح عيوب ، ولا ترقيع مناهج . . إنمـا هى الدعوة إلى الإسلام كالدعوة إليـه أول ما كان، الدعوة بين الجاهليـة . والتميز الـكامل عن الجاهليـة . . « لـكم دينـكم ولى دين » . . وهـذا هو دينى : التوحيـد الخالص الذى يتلقى تصوراته وقيمه ، وعقيدته وشريعته . . كلها من الله . . دون شريك . . كلها . . فى كل نواحى الحياة والسلوك .

وبغيرهذه المفاصلة . سيبقى الغبش وتبقى المداهنـة ويبقى اللبس ويبقى الترقيع .. والدعوة إلى الإسلام لاتقـوم على هـذه الأسس المدخولة الواهنـة الضعيفة . إنها لاتقوم إلا على الحسم والصراحة والشجاعة والوضوح . . .

وهذا هو طريق الدعوة الأول : « لـكم دينـكم ولى دين » . .

Marfat.com

سورة النصر مدنية
وآياتها ٣

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا » .

هذه السورة الصغيرة . . كما تحمل البشرى لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنصر الله والفتح ودخول الناس فى دين الله أفواجا ؛ وكما توجهه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين يتحقق نصر الله وفتحه واجتماع الناس على دينه إلى التوجه إلى ربه بالتسبيح والحمد والاستغفار . .

كما تحمل إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ البشرى والتوجيه . . تكشف فى الوقت ذاته عن طبيعة هذه العقيدة وحقيقة هذا المنهج ، ومدى مايريد أن يبلغ بالبشرية من الرفعة والكرامة والتجرد والخلوص ، والانطلاق والتحرر . . هذه القمة السامقه الوضيئة ، التى لم تبلغها البشرية قط إلا فى ظل الإسلام . ولا يمكن أن تبلغها إلا وهى تلبى هذا الهدف العلوى الكريم .

* * *

وقد وردت روايات عدة عن نزول هذه السورة نختار منها رواية الإمام أحمد : حدثنا محمد ابن أبى عدى ، عن داود ، عن الشعبى ، عن مسروق ، قال : قالت عائشة : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكثر فى آخر أمره من قوله : « سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه » وقال : « إن ربى كان أخبرنى أنى سأرى علامة فى أمتى ، وأمرنى إذا رأيتها

Marfat.com

أن أسبح بحمده وأستغفره إنه كان توابا » فقد رأيتها .. « إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » . .

(ورواه مسلم من طريق داود ابن أبى هند بهذا النص) ..

وقال ابن كثير فى التفسير : والمراد بالفتح هاهنا فتح مكة . قولا واحـدا . فإن أحياء العرب كانت تتلوم (أى تنتظر) بإسلامها فتح مكة يقولون : إن ظهر على قومه فهو نبى ، فلما فتح الله عليـه مكة دخلوا فى دين الله أفواجا ، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيمانا ، ولم يبق فى سائر قبائل العرب إلا مُظهر للإسلام ولله الحمد والمنة ، وقد روى البخارى فى صحيحه عن عمرو ابن سلمة قال: لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكانت الأحياء تتلوم بإسلامها فتح مكة يقولون : دعوه وقومه فإن ظهر عليهم فهو نبى . . . « الحديث » . .

فهذه الرواية هى التى تتفق مع ظاهر النص فى السورة : « إذا جاء نصر الله والفتح . . . الخ » فهى إشارة عند نزول السورة إلى أمر سيجىء بعـد ذلك ، مع توجيه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى ما يعمله عند تحقق هذه البشارة وظهور هذه العلامة .

وهناك رواية أخـرى عن ابن عباس ؛ لايصعب التوفيق بينها وبين هـذه الرواية التى اخترناها . .

قال البخارى : حدثنا موسى ابن إسماعيل ، حدثنا أبو عوانة ، عن أبى بشر ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس قال : كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر ، فـكأن بعضهم وجد فى نفسه ، فقال : لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه ممن قد علمتم . فدعاهم ذات يوم فأدخلنى معهم . فما رأيت أنه دعانى فيهم يومئذ إلا ليريهم فقال : ما تقولون فى قول الله عز وجل : « إذا جاء نصر الله والفتح » ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا . وسكت بعضهم فلم يقل شيئا . فقال لى : أكذلك تقول ياابن عباس ؟ « فقلت لا . فقال : ماتقول ؟ فقلت : هو أجل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعلمه له . قال : « إذا جاء نصر الله والفتح » فذلك علامة أجلك « فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » . فقال عمر ابن الخطاب : لاأعلم منها إلا ماتقول (تفرد به البخارى) .

فلا يمتنع أن يـكون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين رأى علامة ربه أدرك أن واجبه

Marfat.com

فى الأرض قد كمل، وأنه سيلقى ربه قريبا . فكان هذا معنى قول ابن عباس : هو أجل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعلمه له . . الخ . .

ولكن هناك حديث رواه الحافظ البيهقى ـ بإسناده ـ عن ابن عباس كذلك : قال : لما نزلت : « إذا جاء نصر الله والفتح » . . دعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاطمة وقال: « إنه قد نعيت إلىّ نفسى » فبكت .ثم ضحكت . وقالت أخبرنى :أنه نعيت إليه نفسه فبكيت، ثم قال : « اصبرى فإنك أول أهلى لحوقا بى » فضحكت .

ففى هذا الحديث تحديد لنزول السورة . فكأنها نزلت والعلامة حاضرة . أى أنه كان الفتح قد تم ودخول الناس أفواجا قد تحقق . فلما نزلت السورة مطابقة للعلامة علم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه أجله . . إلا أن السياق الأول أوثق وأكثر اتساقا مع ظاهر النص القرآنى . وبخاصة أن حديث بكاء فاطمة وضحكها قد روى بصورة أخرى تتفق مع هذا الذى نرجحه . . عن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ قالت : « دعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاطمة عام الفتح فناجاها ، فبكت ، ثم ناجاها فضحكت . قالت : فلما توفى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سألتها عن بكائها وضحكها . قالت : أخبرنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه يموت ،فبكيت ، ثم أخبرنى أنى سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران . فضحكت . . (أخرجه الترمذى) .

فهذه الرواية تتفق مع ظاهر النص القرآنى ، ومع الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأخرجه مسلم فى صحيحه . من أنه كانت هناك علامة بين الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وربه هى : « إذا جاء نصر الله والفتح . . » فلما كان الفتح عرف أن قد قرب لقاؤه لربه فناجى فاطمة رضى الله عنها بما روته عنها أم سلمة رضى الله عنها .

* * *

ونخلص من هذا كله إلى المدلول الثابت والتوجيه الدائم الذى جاءت به هذه السورة الصغيرة ... فإلى أى مرتقى يشير هذا النص القصير :

« إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان توابا » ....

Marfat.com

فى مطلع الآية الأولى من السورة إيحاء معين لإنشاء تصور خاص ، عن حقيقة مايجرى فى هذا الكون من أحداث ، ومايقع فى هـذه الحياة من حوادث . وعن دور الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودور المؤمنين فى هذه الدعوة ، وحدّهم الذى ينتهون إليه فى هذا الأمر . . هذا الإيحاء يتمثل فى قوله تعالى : « إذا جاء نصر الله . . . » . . فهو نصر الله يجىء به الله : فى الوقت الذى يقدره . فى الصورة التى يريدها . للغاية التى يرسمها . وليس للنبى ولا لأصحابه من أمره شىء ، وليس لهم فى هذا النصر يد . وليس لأشخاصهم فيه كسب . وليس لذواتهم منه نصيب . وليس لنفوسهم منه حظ ! إنما هو أمر الله يحققه بهم أو بدونهم . وحسبهم منه أن يجريه الله على أيديهم ، وأن يقيمهم عليه حراسا ، ويجعلهم عليه أمناء . . هذا هو كل حظهم من النصر ومن الفتح ومن دخول الناس فى دين الله أفواجا . .

وبناء على هذا الإيحاء ومايفنشه من تصور خاص لحقيقة الأمر ، يتحدد شأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه بإزاء تكريم الله لهم ، وإكرامهم بتحقيق نصره على أيديهم . إن شأنه ـ ومن معه ـ هو الاتجاه إلى الله بالتسبيح وبالحمد والاستغفار فى لحظة الانتصار .

التسبيح والحمد على ماأولاهم من منة بأن جعلهم أمناء على دعوته حراسا لدينه . وعلى ماأولى البشرية كلها من رحمة بنصره لدينه ، وفتحه على رسوله ودخول الناس أفواجا فى هذا الخير الفائض العميم ، بعد العمى والضلال والخسران .

والاستغفار لملابسات نفسية كثيرة دقيقة لطيفة المدخل : الاستغفار من الزهو الذى قد يساور القلب أويتدسس إليه من سكرة النصر بعد طول الكفاح ، وفرحة الظفر بعد طول العناء . وهو مدخل يصعب توقيه فى القلب البشرى . فمن هذا يكون الاستغفار .

والاستغفار مما قد يكون ساور القلب أو تدسس إليه فى فترة الكفاح الطويل والعناء القاسى ، والشدة الطاغية والكرب الغامر . . من ضيق بالشدة ، واستبطاء لوعد الله بالنصر ، وزلزلة كالتى قال عنها فى موضع آخر : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب » (١) فمن هذا يكون الاستغفار .

والاستغفار من التقصير فى حمد الله وشكره . فجهد الإنسان مهما كان ضعيف محدود ،

---

(١) سورة البقرة : آية (٢١٤) .

Marfat.com

وآلاء الله دائمة الفيض والهملان .. « وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها » .. فمن هـذا التقصير يكون الاستغفار..

وهناك لطيفة أخرى للاستغفار لحظة الانتصار . ففيه إيحاء للنفس واشعار في لحظة الزهو والفخر بأنها في موقف التقصير والعجز . فأولى أن تطامن من كبريائها ، وتطلب العفو من ربها. وهذا يصد قوى الشعور بالزهو والغرور .

ثم إن ذلك الشعور بالنفس ، العجز والتقصير والاتجاه إلى الله طلبا للعفو والسماحة والمغفرة يضمن كذلك عدم الطغيان على المقهورين المغلوبين . ليرتب المنتصر أنه فيهم ، فهو الذي سلطه عليهم ، وهو العاجز القاصر المقصر . وإنما سلطة الله عليهم تحقيقا لأمر يريده هو . والنصر نصره ، والفتح فتحه ، والدين دينه ، وإلى الله تصير الأمور .

* * *

إنه الأفق الوضيء الكريم ، الذي يهتف القرآن الكريم بالنفس البشرية لتتطلع إليه ، وترقى في مدارجه . على حداثه النبيل البار . الأفق الذي يكبر فيه الإنسان لأنه يطامن من كبريائه ، وترف فيه روحه طليقة لأنها تعنو لله !

إنه الانطلاق من قيود الذات ليصبح البشر أرواحا من روح الله . ليس لها حظ في شيء إلا رضاه . ومع هذا الانطلاق جهاد لنصرة الخير وتحقيق الحق ؛ وعمل لعمارة الأرض وترقية الحياة ؛ وقيادة للبشرية قيادة رشيدة نظيفة معمرة ، بانية عادلة خيرة ، . . الاتجاه فيها إلى الله .

وعبثا يحاول الإنسان الانطلاق والتحرر وهو مشدود إلى ذاته ، مقيد برغباته ، مثقل بشهواته . عبثا يحاول مالم يتحرر من نفسه ، ويتجرد في لحظة النصر والتنم من حظ نفسه ليذكر الله وحده .

وهذا هو الأدب الذي اتسمت به النبوة دائما ، يريد الله أن ترتفع البشرية إلى آفاقه ، أو تتطلع إلى هذه الآفاق دائما ..

كان هذا هو أدب يوسف ـ عليه السلام ـ في اللحظة التي تم له فيها كل شيء ، وتحققت رؤياه ، ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً ، وقال : ياأبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها

Marfat.com

ربى حقا . وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى . إن ربى لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم » . .

وفى هذه اللحظة نزع يوسف ـ عليه السلام ـ . نفسه من الصفاء والعناق والفرحة والابتهاج ليتجه إلى ربه فى تسبيح الشاكر الذاكر . كل دعوته وهو فى أبهة السلطان وفى فرحة تحقيق الأحلام :

« رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السماوات والأرض ، أنت ولي فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما ، وألحقنى بالصالحين » .. وهنا يتوارى الجاه والسلطان ، وتتوارى فرحة اللقاء وتجمع الأهل ولمة الإخوان ، ويبدو المشهد الأخير مشهد إنسان فرد يبتهل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه ، وأن يلحقه بالصالحين عنده . من فضله ومنه وكرمه ..

وكان هذا هو أدب سليمان عليه السلام وقد رأى عرش ملكة سبأ حاضرا بين يديه قبل أن يرتد إليه طرفه : « فلما رآه مستقرا عنده قال : هـذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم » ..

وهذا كان أدب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حياته كلها ، وفى موقف النصر والفتح الذى جعله ربه علامة له . . انحنى لله شاكرا على ظهر دابته ودخل مكة فى هذه الصورة . مكة التى آذته وأخرجته وحاربته ووقفت فى طريق الدعوة تلك الوقفة العنيدة . . فلما أن جاءه نصر الله والفتح ، نسى فرحة النصر وانحنى انحناءة الشكر ، وسبح وحمد واستغفر كما لقنه ربه ، وجعل يكثر من التسبيح والحمد والاستغفار كما وردت بذلك الآثار . وكانت هذه سنته فى أصحابه من بعده ، رضى الله عنهم أجمعين .

* * *

وهكذا ارتفعت البشرية بالإيمان بالله ، وهكذا أشرقت وشفت ورفرفت ، وهكذا بلغت من العظمة والقوة والانطلاق ..

Marfat.com

سورة المسد مكيّة
وآياتها ٥

بسم الله الرحمن الرحيم

« تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ » .

أبو لهب ـ (واسمه عبد العزى ابن عبد المطلب) هو عم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإنما سمى أبو لهب لإشراق وجهه ، وكان هو وامرأته « أم جميل » من أشد الناس إيذاء لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وللدعوة التي جاء بها . .

قال ابن إسحاق : « حدثني حسين ابن عبد الله ابن عبيد الله ابن عباس قال: سمعت ربيعة ابن عباد الديلي يقول : « إني لمع أبي رجل شاب أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبع القبائل ، ووراءه رجل أحول ، وضيء الوجه ذوجمة ، يقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على القبيلة فيقول « : يابني فلان . إني رسول الله إليكم آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفذ عن الله مابعثني به» وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه : يابني فلان . هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن من بني مالك ابن أقيس ، إلى ماجاء به من البدعة والضلالة ، فلا تسمعوا له ، ولا تتبعوه . فقلت لأبي: من هذا ؟ قال عمه أبو لهب . (ورواه الإمام أحمد والطبراني بهذا اللفظ) .

فهذا نموذج من نماذج كيد أبي لهب للدعوة وللرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت زوجته أم جميل في عونه في هذه الحملة الدائبة الظالمة (وهي أروى بنت حرب ابن أمية أخت أبي سفيان) .

Marfat.com

ولقد اتخذ أبو لهب موقفا هذا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منذ اليوم الأول للدعوة . أخرج البخاري ـ بإسناده ـ عن ابن عباس ، أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرج إلى البطحاء ، فصعد الجبل فنادى : « ياصباحاه » فاجتمعت إليه قريش ، فقال : أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم ؟ أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم . قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » . فقال أبو لهب . ألهذا جمعتنا ؟ تباً لك . فأنزل الله « تبت يدا أبي لهب وتب ... » الخ . وفي رواية فقام ينفض يديه وهو يقول : تباً لك سائر اليوم ! ألهذا جمعتنا ؟ ! فأنزل الله السورة .

ولما أجمع بنو هاشم بقيادة أبي طالب على حماية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإن لم يكونوا على دينه ، تلبية لدافع العصبية القبلية ، خرج أبو لهب على إخوته ، وحالف عليهم قريشا ، وكان معهم في الصحيفة التي كتبوها بمقاطعة بني هاشم وتجويعهم كي يسلموا لهم محمدا صلى الله عليه وسلم .

وكان قد خطب بنتي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رقية وأم كلثوم لولديه قبل بعثة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما حتى يثقل كاهل محمد بهما !

وهكذا مضى هو وزوجته أم جميل يثيرانها حربا شعواء على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى الدعوة ، لاهوادة فيها ولا هدنة . وكان بيت أبي لهب قريبا من بيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان الأذى أشد . وقد روى أن أم جميل كانت تحمل الشوك فتضعه في طريق النبي ؛ وقيل : إن حمل الحطب كناية عن سعيها بالأذى والفتنة والوقيعة .

* * *

نزلت هذه السورة ترد على هذه الحرب المعلنة من أبي لهب وامرأته . وتولى الله ـ سبحانه ـ عن رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر المعركة !

« تبت يدا أبي لهب وتب » .. والتباب الهلاك والبوار والقطع . « وتبت » الأولى دعاء . « وتب » الثانية تقرير لوقوع هذا الدعاء . ففي آية قصيرة واحدة في مطلع السورة تصدر الدعوة وتتحقق ، وتنتهي المعركة ويسدل الستار !

Marfat.com

فأما الذى يتلو آية المطلع فهو تقرير ووصف لما كان .

« ماأغنى عنه ماله وما كسب » . . لقد تبت يداه وهلكتا وتب هو وهلك . فلم يغن عنه ماله وسعيه ولم يدفع عنه الهلاك والدمار .

ذلك ـ كان ـ فى الدنيا . أما فى الآخرة فإنه : « سيصلى نارا ذات لهب » . . ويذكر اللهب تصويرا وتشخيصا للنار وإيحاء بتوقدها وتلهبها .

« وامرأته حمالة الحطب » . . وستصلاها معه امرأته حالة كونها حمالة للحطب . . وحالة كونها : « فى جيدها حبل من مسد » . . أى من ليف . . تشد هى به فى النار . أو هوالحبل الذى تشد به الحطب .على المعنى الحقيقى إن كان المراد هو الشوك . أو المعنى المجازى إن كان حمل الحطب كناية عن حمل الشر والسعى بالأذى والوقيمة . .

* * *

وفى الأداء التعبيرى للسورة تناسق دقيق ملحوظ مع موضوعها وجوها ، تقتطف فى بيانه سطورا من كتاب : « مشاهد القيامة فى القرآن » نمهد بها لوقع هذه السورة فى نفس أم جميل التى ذعرت لها وجن جنونها :

« أبو لهب . سيصلى نارا ذات لهب . . وامرأته حمالة الحطب . ستصلاها وفى عنقها حبل من مسد . .

« تناسق فى اللفظ ، وتناسق فى الصورة . فجهنم هنا نار ذات لهب . يصلاها أبو لهب ! وامرأته تحمل الحطب وتلقيه فى طريق محمد لإيذائه (بمعناه الحقيقى أو المجازى) . . والحطب مما يوقد به اللهب . وهى تحزم الحطب بحبل . فعذابها فى النار ذات اللهب أن تغل بحبل من مسد . ليتم الجزاء من جنس العمل ،وتتم الصورة بمحتوياتها الساذجة :الحطب والحبل . والنار واللهب . يصلى به أبو لهب وامرأته حمالة الحطب !

« وتناسق من لون آخر . فى جرس الكلمات ،مع الصوت الذى يحدثه شد أحمال الحطب وجذبه العنق بحبل من مسد . اقرأ : « تبت يدا أبى لهب وتب » تجد فيها عنف الحزم

Marfat.com

والشد ! الشبيه بحزم الحطب وشده . والشبيه كذلك بفتل العنق وجذبه . والشبيه بجو الحنق والتهديد الشائع فى السورة .

« وهكذا يلتقى تناسق الجرس الموسيقى ، مع حركة العمل الصوتية ، بتناسق الصور فى جزئياتها المتناسبة ، بتناسق الجناس اللفظى ومراعاة النظير فى التعبير ، ويتسق مع جو السورة وسبب النزول . ويتم هـذا كله فى خمس فقرات قصار ، وفى سورة من أقصر سور القرآن» .

* * *

هذا التناسق القوى فى التعبير جعل أم جميل تحسب أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد هجاها بشعر . وبخاصة حين انتشرت هذه السورة وما تحمله من تهديد ومذمة وتصوير زرى لأم جميل خاصة . تصوير يثير السخرية من امرأة معجبة بنفسها ، مدلة بحسبها ونسبها . ثم ترتسم لها هذه الصورة : « حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد » ! فى هذا الأسلوب القوى الذى يشيع عند العرب !

قال ابن إسحاق : فذكر لى أن أم جميل حمالة الحطب حين سمعت ما نزل فيها وفى زوجها من القرآن ، أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد عند الكعبة ، ومعه أبو بكر الصديق ، وفى يدها فهر (أى بمقدار ملء الكف) من حجارة . فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى إلا أبا بكر . فقالت : يا أبا بكر . أين صاحبك ؟ قد بلغنى أنه يهجونى . والله لو وجدته لضربت بهذه الفهر فاه . أما والله وإنى لشاعرة ! ثم قالت :

مذمماً عصينا وأمره أبينا

ثم انصرفت. فقال أبو بكر : يارسول الله ، أما تراها رأتك ؟ فقال : مارأتنى ، لقد أخذ الله ببصرها عنى . .

وروى الحافظ أبو بكر البزار — بإسناده — عن ابن عباس قال : لما نزلت : « تبت يدا أبى لهب » جاءت امرأة أبى لهب ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ومعه أبو بكر . فقال له أبو بكر : لوتنحيت لاتؤذيك بشىء ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنه سيحال بينى وبينها » .. فأقبلت حتى وقفت على أبى بكر ، فقالت : ياأبا بكر ، هجانا صاحبك

Marfat.com

فقال أبو بكر : لاورب هذه البنية ما ينطق بالشعر ولا يتفوه به ، فقالت : إنك لمصدق . فلما ولت قال أبو بكر : مارأتك ؟ قال : « لا . مازال ملك يسترنى حتى ولت » . .

فهكذا بلغ منها الغيظ والحنق ، من سيروزة هذا القول الذى حسبته شعرا (وكان الهجاء لايكون إلا شعرا) مما نفاه لها أبو بكر وهو صادق ! ولكن الصورة الزرية المثيرة للسخرية التى شاعت فى آياتها ، قد سجلت فى الكتاب الخالد ، وسجلتها صفحات الوجود أيضا تنطق بغضب الله وحربه لأبى لهب وامرأته جزاء الكيد لدعوة الله ورسوله ، والتباب والهلاك والسخرية والزراية جزاء الكائدين لدعوة الله فى الدنيا ، والنار فى الآخرة جزاء وفاقا، والذل الذى يشير إليه الحبل فى الدنيا والآخرة جميعا . . .

Marfat.com

سورة الإخلاص مكية
وآياتها ٤

بسم الله الرحمن الرحيم

« قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ » .

هذه السورة الصغيرة تعدل ثلث القرآن كما جاء فى الروايات الصحيحة . قال البخارى : حدثنا إسماعيل : حدثنى مالك عن عبد الرحمان ابن عبد الله ابن عبد الرحمان ابن أبى صعصعة ، عن أبيه ، عن أبى سعد ، أن رجلا سمع رجلا يقرأ : « قل هو الله أحد» يرددها . فلما أصبح جاء إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذكر ذلك له ـ وكأن الرجل يتقالها ـ فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « والذى نفسى بيده ، إنها لتعدل ثلث القرآن » . .

وليس فى هـذا من غرابة فإن الأحدية التى أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعلنها : « قل هو الله أحد » . . هذه الأحدية عقيدة للضمير ، وتفسير للوجود ، ومنهج للحياة . . وقد تضمنت السورة ـ من ثم ـ أعرض الخطوط الرئيسية فى حقيقة الإسلام الكبيرة . .

« قل هو الله أحد » . . وهو لفظ أدق من لفظ « واحد » . . لأنه يضيف إلى معنى « واحد » أن لاشىء غيره معه . وأن ليس كمثله شىء .

إنها أحدية الوجود . . فليس هناك حقيقة إلا حقيقته . وليس هناك وجود حقيقى إلا وجوده . وكل موجود آخر فإنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقى ، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية .

Marfat.com

وهى ـ من ثم ـ أحدية الفاعلية . فليس سواه فاعلا لشىء ، أو فاعلا فى شىء ، فى هـذا الوجود أصلا .

وهذه عقيدة فى الضمير وتفسير للوجود أيضا . .

فإذا استقر هذا التفسير ، ووضح هذا التصور، خلص القلب من كل غاشية ومن كل شائبة، ومن كل تعلق بغير هذه الذات الواحدة المتفردة بحقيقة الوجود وحقيقة الفاعلية .

خلص من التعلق بشىء من أشياء هـذا الوجود ـ إن لم يخلص من الشعور بوجود شىء من الأشياء أصلا ! ـ فلا حقيقة لوجـود إلا ذلك الوجـود الإلهى . ولا حقيقة لفاعليـة إلا فاعلية الإرادة الإلهية . فعلام يتعلق القلب بما لاحقيقة لوجوده ولا حقيقة لفاعليته !

وحين يخلص القلب من الشعور بغير الحقيقة الواحدة ، ومن التعلق بغير هذه الحقيقة . . فعندئذ يتحرر من جميع القيود ، وينطلق من كل الأوهاق . يتحرر من الرغبـة وهى أصل قيود كثيرة ، ويتحرر من الرهبة وهى أصل قيود كثيرة . وفيم يرغب وهو لايفقد شيئا متى وجد الله ؟ ومن ذا يرهب ولا وجود لفاعلية إلا لله ؟

ومتى استقر هـذا التصور الذى لايرى فى الوجود إلا حقيقة الله ، فستصحبه رؤية هـذه الحقيقة فى كل وجود آخر انبثق عنها ـ وهذه درجة يرى فيها القلب يد الله فى كل شىء يراه . ووراءها الدرجة التى لايرى فيها شيئا فى الـكون إلا الله . لأنه لا حقيقة هناك يراها إلا حقيقة الله .

كذلك سيصحبه نفى فاعلية الأسباب . ورد كل شىء وكل حـدث وكل حركة إلى السبب الأول الذى منـه صدرت ،وبه تأثرت . . وهـذه هى الحقيقة التى عنى القرآن عناية كبيرة بتقريرها فى التصور الإيمانى. ومن ثم كان ينحى الأسباب الظاهرة دائما ويصل الأمور مباشرة بمشيئة الله : « وما رميت إذ رميت ولـكن الله رمى » . . « وما النصر إلا من عند الله » .. « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » . . وغيرها كثير . .

وبتنحية الأسباب الظاهرة كلها ، ورد الأمر إلى مشيئة الله وحـدها ، تنسكب فى القلب الطمأنينة ، ويعرف التجه الوحيد الذى يطلب عنده مايرغب ، ويتقى عنده ما يرهب ، ويسكن تجاه الفواعل والمؤثرات والأسباب الظاهرة التى لاحقيقة لها ولا وجود !

Marfat.com

وهـذه هى مدارج الطريق التى حاولها المتصوفة ، فجذبتهم إلى بعيد ! ذلك أن الإسـلام يريد من الناس أن يسلـكوا الطريق إلى هـذه الحقيقة وهم يـكابدون الحيـاة الواقعية بـكل خصائصها ، ويزاولون الحياة البشرية ، والخلافة الأرضية بـكل مقوّماتها ، شاعرين مع هـذا أن لاحقيقة إلا الله . وأن لا وجود إلا وجوده . وأن لا فاعلية إلا فاعليته . . ولا يريد طريقا غير هذا الطريق !

* * *

من هنا ينبثق منهج كامل للحياة ، قائم على ذلك التفسير وما يشيعه فى النفس من تصورات ومشاعر واتجاهات :

منهج لعبادة الله وحده . الذى لاحقيقة لوجود إلا وجوده ، ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعليته ، ولا أثر لإرادة إلا إرادته .

ومنهج للاتجاه إلى الله وحده فى الرغبة والرهبة . فى السراء والضراء . فى النعماء والبأساء. وإلا فما جدوى التوجه إلى غير موجود وجودا حقيقيا ، وإلى غير فاعل فى الوجود أصلا ؟!

ومنهج للتلقى عن الله وحده. تلقى العقيدة والتصور والقيم والموازين، والشرائع والقوانين والأوضاع والنظم ، والآداب والتقاليد . فالتلقى لا يـكون إلا عن الوجود الواحـد والحقيقة المفردة فى الواقع وفى الضمير .

ومنهج للتحرك والعمل لله وحـده . . ابتغاء القرب من الحقيقة ، وتطلعا إلى الخلاص من الحواجز المعوقة والشوائب المضللة . سواء فى قرارة النفس أوفيما حولها من الأشياء والنفوس. ومن بينها حاجز الذات ، وقيد الرغبة والرهبة لشىء من أشياء هذا الوجود !

ومنهج يربط ـ مع هـذا ـ بين القلب البشرى وبين كل موجود برباط الحب والأنس والتعاطف والتجاوب . فليس معنى الخلاص من قيودها هو كراهيتها والنفور منها والهروب من مزاولتها .. فـكلها خارجة من يد الله ؛ وكلها تستمد وجودها من وجوده، وكلها تفيض عليها أنوار هذه الحقيقة . فـكلها إذن حبيب ، إذ كلها هدية من الحبيب !

وهو منهج رفيع طليق . . الأرض فيه صغيرة ، والحياة الدنيا قصيرة . ومتاع الحياة الدنيا زهيد ، والانطلاق من هذه الحواجز والشوائب غاية وأمنية .. ولـكن الانطلاق عند الإسلام

Marfat.com

ليس معناه الاعتزال ولا الإهمال ، ولا الكراهية ولا الهروب . . إنما معناه المحاولة المستمرة ، والكفاح الدائم لترقية البشرية كلها ، وإطلاق الحياة البشرية جميعها . . ومن ثم فهى الخلافة والقيادة بكل أعبائهما ، مع التحرر والانطلاق بكل مقوماتهما . كما أسلفنا .

إن الخلاص عن طريق الصومعة سهل يسير . ولكن الإسلام لايريده . لأن الخلافة فى الأرض والقيادة للبشر طرف من المنهج الإلهى للخلاص . إنه طريق أشق، ولكنه هو الذى يحقق إنسانية الإنسان . أى يحقق انتصار النفخة العلوية فى كيانه . . وهذا هو الانطلاق . انطلاق الروح إلى مصدرها الإلهى ، وتحقيق حقيقتها العلوية . وهى تعمل فى الميدان الذى اختاره لها خالقها الحكيم . .

* * *

من أجل هذا كله كانت الدعوة الأولى قاصرة على تقرير حقيقة التوحيد بصورتها هذه فى القلوب . لأن التوحيد فى هذه الصورة عقيدة للضمير، وتفسير للوجود ، ومنهج للحياة . وليس كلمة تقال باللسان أو حتى صورة تستقر فى الضمير . إنما هو الأمر كله ، والدين كله ؛ وما بعده من تفصيلات وتفريعات لا يعدو أن يكون الثمرة الطبيعية لاستقرار هذه الحقيقة بهذه الصور فى القلوب .

والانحرافات التى أصابت أهل الكتاب من قبل ، والتى أفسدت عقائدهم وتصوراتهم وحياتهم ، نشأت أول مانشأت عن انطماس صورة التوحيد الخالص . ثم تبع هذا الانطماس ماتبعه من سائر الانحرافات .

على أن الذى تمتاز به صورة التوحيد فى العقيدة الإسلامية هو تعمقها للحياة كلها ، وقيام الحياة على أساسها ، واتخاذها قاعدة للمنهج العملى الواقعى فى الحياة ، تبدو آثاره فى التشريع كما تبدو فى الاعتقاد سواء . وأول هذه الآثار أن تكون شريعة الله وحدها هى التى تحكم الحياة . فإذا تخلفت هذه الآثار فإن عقيدة التوحيد لا تكون قائمة ، فإنها لا تقوم إلا ومعها آثارها محققة فى كل ركن من أركان الحياة . .

* * *

ومعنى أن الله أحد : أنه الصمد . وأنه لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد . .ولكن القرآن يذكر هذه التفريعات لزيادة التقرير والإيضاح :

Marfat.com

« الله الصمد » .. ومعنى الصمد اللغوى : السيد المقصود الذى لايقضى أمر إلا بإذنه . والله ـ سبحانه ـ هو السيد الذى لاسيد غيره ، فهو أحد فى ألوهيته والكل له عبيد . وهو المقصود وحده بالحاجات ، المجيب وحده لأصحاب الحاجات .وهو الذى يقضى فى كل أمر بإذنه ،ولايقضى أحد معه . . وهذه الصفة متحققة ابتداء من كونه الفرد الأحد .

« لم يلد ولم يولد » . . فحقيقة الله ثابتة أبدية أزلية ، لاتعتورها حال بعد حال . صفتها الكمال المطلق فى جميع الأحوال . والولادة انبثاق وامتداد ، ووجود زائد بعد نقص أو عدم، وهو على الله محال . ثم هى تقتضى زوجية . تقوم على التماثل . وهذه كذلك محال . ومن ثم فإن صفة « أحد » تتضمن نفى الوالد والولد . .

« ولم يكن له كفوا أحد » .. أى لم يوجد له مماثل أومكافىء. لافى حقيقة الوجود ، ولافى حقيقة الفاعلية ، ولافى أية صفة من الصفات الذاتية . وهذا كذلك يتحقق بأنه « أحد » ولكن هذا توكيد وتفصيل .. وهو نفى للعقيدة الثنائية التى تزعم أن الله هو إله الخير وأن الشر إلها يعاكس الله ـ بزعمهم ـ ويعكس عليه أعماله الخيرة وينشر الفساد فى الأرض . وأشهر العقائد الثنائية كانت عقيدة الفرس فى إله النور وإله الظلام، وكانت معروفة فى جنوبى الجزيرة العربية حيث للفرس دولة وسلطان ! !

* * *

هـذه السورة إثبات وتقرير لعقيدة التوحيد الإسلامية ، كما أن سورة « الكافرون » نفى لأى تشابه أو التقاء بين عقيدة التوحيد وعقيدة الشرك . . وكل منهما تعالج حقيقة التوحيد من وجه . وقد كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يستفتح يومه ـ فى صلاة سنة الفجر ـ بالقراءة بهاتين السورتين .. وكان لهذا الافتتاح معناه ومغزاه . .

Marfat.com

سورة الفلق مكية وآياتها ٥

بسم الله الرحمن الرحيم

« قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ۝ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ » .

هذه السورة والتي بعدها توجيه من الله ـ سبحانه وتعالى ـ لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابتداء وللمؤمنين من بعده جميعا ، للمياذ بكنفه ، والمياذ بحماه ، من كل مخوف : خاف وظاهر ، مجهول ومعلوم ، على وجه الإجمال وعلى وجه التفصيل.. وكأنما يفتح الله ـ سبحانه ـ لهم حماه ، ويبسط لهم كنفه ، ويقول لهم ، في مودة وعطف : تعالوا إلى هنا . تعالوا إلى الحمى . تعالوا إلى مأمنكم الذي تطمئنون فيه . تعالوا فأنا أعلم أنكم ضعاف ، وأن لكم أعداء ، وأن حولكم مخاوف . وهنا .. هنا الأمن والطمأنينة والسلام ..

ومن ثم تبدأ كل منهما بهذا التوجيه . « قل : أعوذ برب الفلق » .. « قل: أعوذ برب الناس » ..

وفي قصة نزولها وقصة تداولها وردت عدة آثار ، تتفق كلها مع هذا الظل الذي استروحناه، والذي يتضح من الآثار المروية أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ استروحه في عمق وفرح وانطلاق :

عن عقبة ـ ابن عامر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

Marfat.com

« ألم تر آيات أنزلت هـذه الليلة لم ير مثلهن قط ؟ قل : أعوذ برب الفلق . وقل : أعوذ برب الناس [1] » . .

وعن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال : قال لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اقرأ ياجابر . قلت : ماذا بأبى أنت وأمى ؟ قال : اقرأ . قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس » فقرأتهما . فقال : « اقرأ بهما فلن تقرأ بمثلهما [2] » . .

وعن ذر ابن حبيش قال : سألت أبى ابن كعب ـ رضى الله عنه ـ عن المعوذتين . قلت: ياأبا المنذر إن أخاك ابن مسعود يقول كذا وكذا (وكان ابن مسعود لايثبتهما فى مصحفه ثم ثاب إلى رأى الجماعةوقد أثبتهما فى للصحف) فقال : سألت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « قيل لى : قل . فقلت » . فنحن نقول كما قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ [3] وكل هذه الآثار تشى بتلك الظلال الحانية الحبيبة . .

* * *

وهنا فى هذه السورة يذكر الله ـ سبحانه ـ نفسه بصفته التى بها يكون العياذ من شر ماذكر فى السورة .

« قل أعوذ برب الفلق » . .والفلق من معانيه الصبح ، ومن معانيه الخلق كله . بالإشارة إلى كل مايفلق عنه الوجود والحياة، كما قالفى الأنعام : « إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميتمن الحى » . . وكما قال : « فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا » . .

وسواء كان هو الصبح فالاستعاذة برب الصبح الذى يؤمن بالنور من شر كل غامض مستور ، أو كان هو الخلق فالاستعاذة برب الخلق الذى يؤمن من شر خلقه ، فالمعنى يتناسق مع مابعده . .

« من شر ماخلق » . . أى من شر خلقه إطلاقا وإجمالا . والمخلائق شرور فى حالات اتصال بعضها ببعض . كما أن لها خيرا ونفعا فى حالات أخرى . والاستعاذة بالله هنا من شرها

---

(١) أخرجه مالك ومسلم والترمذى وأبو داود والنسائى . .
(٢) أخرجه النسائى .
(٣) أخرجه البخارى .

Marfat.com

ليبقى خيرها . والله الذى خلقها قادر على توجيهها وتدبير الحالات التى ينضح فيها خيرها لاشرها؛

« ومن شر غاسق إذا وقب » ..والغاسق فى اللغة الدافق ، والوقب النقرة فى الجبل يسيل منها الماء . والمقصود هنا ـ غالبا ـ هو الليل ومافيه . الليل حين يتدفق فيغمر البسيطة . والليل حينئذ مخوف بذاته . فضلا على مايثيره من توقع للمجهول الخافى من كل شىء : من وحش مفترس يهجم . ومتلصص فاتك يقتحم . وعدو مخادع يتمكن . وحشرة سامة تزحف . ومن وساوس وهواجس وهموم وأشجان تتسرب فى الليل ، وتخنق المشاعر والوجدان، ومن شيطان تساعده الظلمة على الانطلاق والإيحاء . ومن شهوة تستيقظ فى الوحدة والظلام . ومن ظاهر وخاف يدب ويثب ، فى الغاسق إذا وقب !

« ومن شر النفاثات فى العقد » .. والنفاثات فى العقد : السواحر الساعيات بالأذى عن طريق خداع الحواس ، وخداع الأعصاب ، والإيحاء إلى النفوس والتأثير والمشاعر . وهن يعقدن العقد فى نحو خيط أومنديل وينفثن فيها كتقليد من تقاليد السحر والإيحاء !

والسحر لايغير من طبيعة الأشياء ؛ ولاينشىء حقيقة جديدة لها . ولكنه يخيل للحواس والمشاعر بما يريده الساحر . وهذا هو السحر كما صوره القرآن الكريم فى قصة موسى عليه السلام : سورة طه « قالوا : ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى . قال : بل ألقوا . فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . فأوجس فى نفسه خيفة موسى . قلنا : لاتخف إنك أنت الأعلى.وألق مافى يمينك تلقف ماصنعوا إن ماصنعوا كيدساحر ولايفلح الساحر حيث أتى .. ».

وهكذا لم تنقلب حبالهم وعصيهم حيات فعلا ،ولكن خيل إلى الناس ـ وموسى معهم ـ أنها تسعى إلى حد أن أوجس فى نفسه خيفة ، حتى جاءه التثبيت.ثم انكشفت الحقيقةحين انقلبت عصا موسى بالفعل حية فلقفت الحبال والعصى المزورة المسحورة .

وهذه هى طبيعة السحر كما ينبغى لنا أن نسلم بها . وهو بهذه الطبيعة يؤثر فى الناس ، وينشىء لهم مشاعر وفق إيحائه ..مشاعر تخيفهم وتؤذيهم وتوجههم الوجهة التى يريدها الساحر، وعند هذا الحد تقف فى فهم طبيعة السحر والنفث فى العقد . . وهى شر يستعاذ منه بالله ، ويلجأ منه إلى حماه .

وقد وردت روايات ـ بعضها صحيح ولكنه غير متواتر ـ أن لبيد ابن الأعصم اليهودى

Marfat.com

سحر النبي ـ صلى الله عليـه وسلم ـ فى المدينة . . قيل أياما . وقيل أشهرا . . حتى كان يخيل إليه أنه يأتى النساء وهولا يأتيهن فى رواية ، وحتى كان يخيل إليـه أنه فعل الشيء ولم يفعله فى رواية ، وأن السورتين نزلتا رقيـة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما استحضر السحر المقصود ـ كما أخبرفى رؤياه ـ وقرأ السورتين انحلت العقد ، وذهب عنه السوء .

ولـكن هـذه الروايات تخالف أصل العصمة النبوية فى الفعل والتبليغ ، ولا تستقيم مع الاعتقاد بأن كل فعل من أفعاله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ وكل قول من أقواله سنة وشريعة ، كما أنها تصطدم بنفى القرآن عن الرسول ـ صلى الله عليـه وسلم ـ أنه مسحور ، وتـكذيب المشركين فيما كانوا يدعونه من هـذا الإفك . ومن ثم نستبعد هـذه الروايات . . وأحاديث الآحاد لايؤخذ بها فى أمر العقيدة . والمرجع هو القرآن . والتواتر شرط للأخذ بالأحاديث فى أصول الاعتقاد . وهـذه الروايات ليست من المتواتر . فضلا على أن نزول هاتين السورتين فى مكة هو الراجح . مما يوهن أساس الروايات الأخرى .

« ومن شر حاسد إذا حسد » . .

والحسد انفعال نفسى إزاء نعمة الله على بعض عباده مع تمنى زوالها . وسواء أتبع الحاسد هـذا الانفعال بسعى منه لإزالة النعمة تحت تأثير الحقد والغيظ ، أو وقف عنـد حد الانفعال النفسى ، فإن شرا يمكن أن يعقب هذا الانفعال .

ونحن مضطرون أن نطامن من حدة النفى لما لانعرف من أسرار هذا الوجود ، وأسرار النفس البشرية ، وأسرار هـذا الجهاز الإنسانى . فهنالك وقائع كثيرة تصدر عن هـذه الأسرار ، ولا نملك لها حتى اليوم تعليلا . . هنالك مثلا ذلك التخاطر على البعد . وفيـه تتم اتصالات بين أشخاص متباعدين . اتصالات لاسبيل إلى الشك فى وقوعها بعد تواتر الأخبار بها وقيام التجارب الـكثيرة المثبتة لها . ولا سبيل كذلك لتعليلها بما بين أيدينا من معلومات . وكذلك التنويم المغناطيسى . وقد أصبح الآن موضعا للتجربة المتـكررة للتثبت . وهو مجهول السر والـكيفية . . وغير التخاطر والتنويم كثير من أسرار الوجود وأسرار النفس وأسرار هذا الجهاز الإنسانى . . .

فإذا حسد الحاسد ، ووجه انفعالا نفسيا معينا إلى المحسود فلا سبيل لنفى أثر هذا التوجيه لمجرد أن مالدينا من العلم وأدوات الاختبار، لاتصل إلى سر هذا الأثر وكيفيته . فنحن لاندرى

Marfat.com

إلا القليل فى هذا الميدان . وهذا القليل يُكشف لنا عنه مصادفة فى الغالب ، ثم يستقر كحقيقة واقعة بعد ذلك !

فهنا شر يستعاذ منه بالله ، ويستجار منه بحماه (١) . .

والله برحمته وفضله هو الذى يوجه رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمته من ورائه إلى الاستعاذة به من هذه الشرور . ومن المقطوع به أنهم متى استعاذوا به ـ وفق توجيهه ـ أعاذهم . وحماهم من هذه الشرور إجمالا وتفصيلا .

وقد روى البخارى ـ بإسناده ـ عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا آوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ، ثم نفث فيهما ، وقرأ فيهما ، « قل هو الله أحد » . و « قل : أعوذ برب الفلق » . و « قل : أعوذ برب الناس » . ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات » .. وهكذا رواه أصحاب السنن . . .

---

(١) للأستاذ الشيخ محمد عبده رأى آخر فى تفسير النفاثات فى العقد وحاسد إذا حسد فى تفسيره لجزء عم فيراجع هناك . ومرجعه هو ماسبق أن ذكرنا فى سورة الفيل من ميل المدرسة العقلية لتضييق نطاق الغيبيات . .

Marfat.com

سورة الناس مكية
وآياتها ٦

بسم الله الرحمن الرحيم

« قُلْ : أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ * مِنْ شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ » .

الاستعاذة فى هذه السورة برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس . والمستعاذ منه هو : شر الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس ، من الجنة والناس .

والاستعاذة بالرب ، الملك ، الإله ، تستحضر من صفات الله ـ سبحانه ـ مابه يدفع الشر عامة ، وشر الوسواس الخناس خاصة .

فالرب هو المربى والموجه والراعى والحامى . والملك هو المالك الحاكم المتصرف . والإله هو المستعلى المستولى المتسلط . . وهذه الصفات فيها حماية من الشر الذى يتدسس إلى الصدور.. وهى لاتعرف كيف تدفعه لأنه مستور .

والله رب كل شىء ، وملك كل شىء ، وإله كل شىء . ولكن تخصيص ذكر الناس هنا يجعلهم يحسون بالقربى فى موقف العياذ والاحتماء .

والله ـ برحمة منه ـ يوجه رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمته إلى العياذ به والالتجاء إليه ، مع استحضار معانى صفاته هذه ، من شر خفى الدبيب ، لاقبل لهم بدفعه إلا بعون من الرب الملك الإله . فهو يأخذهم من حيث لايشعرون ، ويأتيهم من حيث لايحتسبون . والوسوسة : الصوت الخفى . والخنوس : الاختباء والرجوع . والخناس هو الذى من طبعه كثرة الخنوس .

Marfat.com

وقد أطلق النص الصفة أولا : « الوسواس الخناس » . . وحدد عمله : « الذى يوسوس فى صدور الناس » . ثم حدد ماهيته : « من الجنة والناس » . . وهذا الترتيب يثير فى الحس اليقظة والتلفت والانتباه لتبين حقيقة الوسواس الخناس ، بعد إطلاق صفته فى أول الكلام ؛ ولإدراك طريقة فعله التى يتحقق بها شره ، تأهبا لدفعه أو مراقبته !

والنفس حين تعرف ـ بعد هذا التشويق والإيقاظ ـ أن الوسواس الخناس يوسوس فى صدور الناس خفية وسرا ، وأنه هو الجنة الخافية ، وهو كذلك الناس الذين يتدسسون إلى الصدور تدسس الجنة ، ويوسون وسوسة الشياطين .. النفس حين تعرف هذا تتأهب للدفاع ، وقدعرفت المكمن والمدخل والطريق !

ووسوسة الجنة نحن لاندرى كيف تتم ،ولكنا نجد آثارها فى واقع النفوس وواقع الحياة. ونعرف أن المعركة بين آدم وإبليس قديمة قديمة ؛ وأن الشيطان قد أعلنها حربا تنبثق من خليقة الشر فيه ، ومن كبريائه وحسده وحقده على الإنسان ! وأنه قد استصدر بها من الله إذنا، فأذن فيها ـ سبحانه ـ لحكمة يراها ! ولم يترك الإنسان فيها مجردا من العدة . فقد جعل له من الإيمان جُنة ، وجعل له من الذكر عدة ، وجعل له من الاستعاذة سلاحا .. فإذا أغفل الإنسان جنته وعدته وسلاحه فهو إذن وحده الملوم !

عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله تعالى خنس ، وإذا غفل وسوس [1] » .

وأما الناس فنحن نعرف عن وسوستهم الشىء الكثير . ونعرف منها ماهو أشد من وسوسة الشياطين !

رفيق السوء الذى يتدسس بالشر إلى قلب رفيقه وعقله من حيث لايحتسب ومن حيث لايحترس ، لأنه الرفيق المأمون !

وحاشية الشر التى توسوس لكل ذى سلطان حتى تتركه طاغية جبارا مفسدا فى الأرض، مهلكا للحرث والنسل !

والنمام الواشى الذى يزين الكلام ويزحلقه ، حتى يبدو كأنه الحق الصراح الذى لامرية فيه .

---

(١) أخرجه البخارى معلقا .

Marfat.com

وبائع الشهوات الذى يتدسس من منافذ الغريزة فى إغراء لا تدفعه إلا يقظة القلب وعون الله .

وعشرات من الموسوسين الخناسين الذين ينصبون الأحابيل ويخفونها ، ويدخلون بها من منافذ القلوب الخفية التى يعرفونها أو يتحسسونها . . وهم شر من الجنة وأخفى منهم دبيبا !

والإنسان عاجز عن دفع الوسوسة الخفية . ومن ثم يدله الله على عدته وجنته وسلاحه فى المعركة الرهيبة !

وهناك لفتة ذات مغزى فى وصف الوسواس بأنه « الخناس » . . فهـذه الصفة تدل من جهة على تخفيـه واختبائه حتى يجد الفرصة سانحة فيدب ويوسوس . ولـكنها من جهـة أخرى توحى بضعفه أمام من يستيقظ لمـكره ، ويحمى مداخل صدره . فهو ـ سواء كان من الجنة أم كان من الناس ـ إذا ووجه خنس ، وعاد من حيث أتى ، وقبع واختفى .أو كما قال الرسول الـكريم فى تمثيله المصور الدقيق : « فإذا ذكر الله تعالى خنس ، وإذا غفل وسوس » . .

وهذه اللفتة تقوى القلب على مواجهة الوسواس . فهو خناس . ضعيف أمام عدة المؤمن فى المعركة .

ولـكنها ـ من ناحية أخرى ـ معركة طويلة لا تنتهى أبدا . فهو أبدا قابع خانس ، مترقب للغفلة . واليقظة مرة لاتغنى عن اليقظات . . والحرب سجال إلى يوم القيـامة ؛ كما صورها القرآن الـكريم فى مواضع شتى ، ومنها هذه الصورة العجيبة فى سورة الإسراء :

« وإذ قلنا للملائـكة اسجدوا لآدم، فسجدوا إلا إبليس ، قال : أأسجد لمن خلقت طينا ؟ قال : أرأيتك هـذا الذى كرمت علىّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنـكن ذريته إلا قليلا . قال : اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جـزاء موفورا . واستفزز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم فى الأموال والأولاد ، وعدهم ،وما يعدهم الشيطان إلا غرورا . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان . وكفى بربك وكيلا » . .

وهـذا التصور لطبيعة المعركة ودوافع الشر فيها ـ سواء عن طريق الشيطان مباشرة أو عن طريق عملائه من البشر ـ من شأنه أن يشعر الإنسان أنه ليس مغلوبا على أمره فيها . فإن ربه وملـكه وإلهه مسيطر على الخلق كله . وإذا كان قد أذن لإبليس بالحرب ، فهو آخـذ بناصيته . وهو لم يسلطه إلا على الذين يغفلون عن ربهم وملـكهم وإلههم . فأما من يذكرونه

Marfat.com

فهم فى نجـوة من الشر ودواعيه الخفية . فالخير إذن يستند إلى القوة التى لاقوة سواها ، وإلى الحقيقة التى لاحقيقة غيرها . يستند إلى الرب الملك الإله . والشر يستند إلى وسواس خناس ، يضعف عن المواجهة ، ويخنس عند اللقاء ، وينهزم أمام العياذ بالله . .

وهذا أكمل تصور للحقيقة القائمة عن الخير والشر . كما أنه أفضل تصور يحمى القلب من الهزيمة ، ويفعمه بالقوة والثقة والطمأنينة . .

والحمد لله أولا وأخيرا . وبه الثقة والتوفيق . . وهو المستعان المعين . . .

Marfat.com

فهرس المجلد الثامن

في ظلال القرآن

السورة	مطالع الآيات	الصفحة	الجزء
سورة المجادلة مدنية وآياتها ٢٢			
	قد سمع الله قول التي.....	٥ – ٢٦	الثامن والعشرون
سورة المجادلة مدنية وآياتها ٢٤			
	سبح لله مافي السموات.....	٢٧ – ٥١	
سورة الممتحنة مدنية وآياتها ١٣			
	يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا.....	٥٢ – ٧١	
سورة الصف مدنية وآياتها ١٤			
	سبح لله مافي السموات والارض.	٧٢ – ٨٩	
سورة الجمعة مدنية وآياتها ١١			
	يسبح لله مافي السموات والارض.	٩٠ – ١٠٢	
سورة المنافقون مدنية وآياتها ١١			
	إذا جاءك المنافقون قالوا.....	١٠٣ – ١١٧	
سورة التغابن مدنية وآياتها ١٨			
	يسبح لله مافي السموات والارض	١١٨ – ١٣١	
سورة الطلاق مدنية وآياتها ١٢			
	يا أيها النبي إذا طلقتم.....	١٣٢ – ١٥٣	
سورة التحريم مدنية وآياتها ١٢			
	يا أيها النبي لم تحرم ما أحل.....	١٥٤ – ١٧٥	
سورة الملك مكية وآياتها ٣٠			
	تبارك الذي بيده الملك.....	١٧٩ – ٢١٠	التاسع والعشرون
سورة القلم مكية وآياتها ٥٢			
	نٓ والقلم ومايسطرون.....	٢١١ – ٢٤٣	
سورة الحاقه مكية وآياتها ٥٢			
	الحاقه. ما الحاقه. وما أدراك....	٢٤٤ – ٢٦٩	
سورة المعارج مكية وآياتها ٤٤			
	سأل سائلٌ بعذابٍ واقعٍ.....	٢٧٠ – ٢٨٨	

Marfat.com

السورة	مطالع الآيات	الصفحة	الجزء
سورة نوح مكية وآياتها ٢٨	إنا أرسلنا نوحًا الى قومه.....	٢٨٩ – ٣٠٨	
سورة الجن مكية وآياتها ٢٨	قل أُوحي إلي أنه استمع نفرٌ...	٣٠٩ – ٣٣٨	
سورة المزمل مكية وآياتها ٢٠	يا أيها المزمل قم الليل.....	٣٣٩ – ٣٥٢	
سورة المدثر مكية وآياتها ٥٦	يا ايها المدثر قم فانذر.....	٣٥٣ – ٣٧٤	
سورة القيامه مكية وآياتها ٤٠	لا أُقسم بيوم القيامه. ولا اقسم..	٣٧٥ – ٣٨٩	
سورة الانسان مكية وآياتها ٣١	هل أتىٰ على الانسان حينٌ من الدهر	٣٩٠ – ٤٠٦	
سورة المرسلات مكية وآياتها ٥٠	والمرسلات عرفًا. فالعاصفات...	٤٠٧ – ٤١٧	
سورة النبأ مكية وآياتها ٤٠	عم يتساءلون عن النبأ.....	٤٢١ – ٤٣٦	
سورة النازعات مكية وآياتها ٤٦	والنازعات غرقًا.....	٤٣٧ – ٤٥٢	الثلاثون
سورة عبس مكية وآياتها ٤٢	عبسَ وتولىٰ.....	٤٥٣ – ٤٧٣	
سورة التكوير مكية وآياتها ٢٩	إذا الشمس كورت.....	٤٧٤ – ٤٨٥	
سورة الانفطار مكية وآياتها ١٩	إذا السماءُ انفطرت.....	٤٨٦ – ٤٩٧	
سورة المطففين مكية وآياتها ٣٦	ويلٌ للمطففين.....	٤٩٨ – ٥١٣	
سورة الانشقاق مكية وآياتها ٢٥	إذا السماء انشقت.....	٥١٤ – ٥٢٣	
سورة البروج مكية وآياتها ٢٢	والسماء ذات البروج.....	٥٢٤ – ٥٣٢	

Marfat.com

السورة	مطالع الآيات	الصفحة	الجزء
سورة الطارق مكية وآياتها ١٧			
	والسماء والطارق.....	٥٣٣ – ٥٣٩	الثلاثون
سورة الاعلى مكية وآياتها ١٩			
	سبح اسم ربك الاعلى.....	٥٤٠ – ٥٥٨	
سورة الغاشية مكية وآياتها ٢٦			
	هل اتاك حديث الغاشيه.....	٥٥٩ – ٥٦٦	
سورة الفجر مكية وآياتها ٣٠			
	والفجر وليالٍ عشر.....	٥٦٧ – ٥٧٦	
سورة البلد مكية وآياتها ٢٠			
	لا اقسم بهذا البلد.....	٥٧٧ – ٥٨٦	
سورة الشمس مكية وآياتها ١٥			
	والشمس وضحاها.....	٥٨٧ – ٥٩٣	
سورة الليل مكية وآياتها ٢١			
	والليل إذا يغشى.....	٥٩٤ – ٥٩٩	
سورة الضحى مكية وآياتها ١١			
	والضحى والليل إذا.....	٦٠٠ – ٦٠٤	
سورة الشرح مكية وآياتها ٨			
	الم نشرح لك صدرك.....	٦٠٥ – ٦٠٧	
سورة التين مكية وآياتها ٨			
	والتين والزيتون.....	٦٠٨ – ٦١١	
سورة العلق مكية وآياتها ١٩			
	اقرأ باسم ربك الذى.....	٦١٢ – ٦٢٤	
سورة القدر مكية وآياتها ٥			
	إنا انزلناه في ليلة.....	٦٢٥ – ٦٢٨	
سورة البينة مدنية وآياتها ٨			
	لم يكن الذين كفروا.....	٦٢٩ – ٦٣٨	
سورة الزلزلة مكية وآياتها ٨			
	إذا زلزلت الأرض.....	٦٣٩ – ٦٤٢	
سورة العاديات مكية وآياتها ١١			
	والعاديات صبحًا.....	٦٤٣ – ٦٤٥	

Marfat.com

السورة	مطالع الآيات	الصفحة	الجزء
سورة القارعة مكية وآياتها ١١			
	القارعة. ما القارعة.....	٦٤٦ – ٦٤٨	الثلاثون
سورة التكاثر مكية وآياتها ٨			
	ألهاكم التكاثر.....	٦٤٩ – ٦٥٠	
سورة العصر مكية وآياتها ٣			
	والعصر إن الانسان.....	٦٥١ – ٦٦١	
سورة الهمزة مكية وآياتها ٩	ويلٌ لكل همزه لمزة.....	٦٦٢ – ٦٦٣	
سورة الفيل مكية وآياتها ٥			
	الم تركيف فعل ربك.....	٦٦٤ – ٦٧٥	
سورة قريش مكية وآياتها ٤			
	لإيلافِ قريش.....	٦٧٦ – ٦٧٧	
سورة الماعون مدنية وآياتها ٧			
	أرأيت الذي يكذب.....	٦٧٨ – ٦٨١	
سورة الكوثر مكية وآياتها ٣			
	إنا اعطيناك.....	٦٨٢ – ٦٨٥	
سورة الكافرون مكية وآياتها ٦			
	قل يا أيها الكافرون.....	٦٨٦ – ٦٩٠	
سورة النصر مدنية وآياتها ٣			
	إذا جاء نصر الله.....	٦٩١ – ٦٩٦	
سورة المسد مكية وآياتها ٥			
	تبّت يدّ ابي لهب.....	٦٩٧ – ٧٠١	
سورة الاخلاص مكية وآياتها ٤			
	قل هو الله احدٌ.....	٧٠٢ – ٧٠٦	
سورة الفلق مكية وآياتها ٥			
	قل اعوذ برب الفلق.....	٧٠٧ – ٧١١	
سورة الناس مكية وآياتها ٦			
	قل اعوذ برب الناس.....	٧١٢ – ٧١٥	

Marfat.com

كتب للمؤلف

نكتفي في القائمة التالية بالكتب المتداولة دون الكتب التي نفدت وليس في النية اعادة طبعها للشعور بأنها قد ادت دورها في حينها. ولم يعد لها إلا الاعتبار التاريخي وبعضها مما يحتوي آراء او اتجاهات للمؤلف تبين له خطؤها فعدل عنها:

١ – العدالة الاجتماعية في الاسلام
٢ – خصائص العصور الاسلامي
٣ – الاسلام ومشكلات الحضارة
٤ – هذا الدين
٥ – المستقبل لهذا الدين
٦ – السلام العالمى والاسلام
٧ – معركة الاسلام والرأسمالية
٨ – التصوير الفني في القرآن
٩ – مشاهد القيامه في القرآن
١٠ – النقد الادبي ! اصوله ومناهجه
١١ – معالم في الطريق (المجموعة الاولى)
١٢ – القصص الديني للاطفال مع الاستاذ السحار
١٣ – الجديد في اللغة العربية مع لجنة
١٤ – الجديد في المحفوظات مع لجنة
١٥ – روضة الطفل مع لجنة
١٦ – الاطياف الأربعة مع اخوته

كتب تالية باذن الله

١ – المجموعة الثانية من (معالم في الطريق)
٢ – في ظلال السيره
٣ – في موكب الايمان
٤ – مقومات التصور الاسلامي
٥ – اوليات في هذا الدين
٦ – هذا القرآن
٧ – تصويبات في الفكر الاسلامي المعاصر
٨ – نحو مجتمع اسلامي

Marfat.com